المقتطف

الجزء الاول من المجلد الخامس بعد المائة

١ يونيو سنة ١٩٤٤ ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٣

حالة الجو

وتأثيرها في الحرب والحياة

أثبتت المباحث والتجارب الحديثة، أنه يندر بين فروع العلم المختلفة ما هو أوثق صلة وأشد تأثيراً في الحرب والحياة، من حالة الجو. وقد كان التكهن بمستقبل الحالة الجوية، عملاً يستوقف النظر ويدرُّ الثروة أحياناً، منذ قرون. مع أنه كان أقرب إلى الحدس منه إلى العلم. حتى البيولوجي الفرنسي المشهور لامارك قضى عشر سنوات في مستهل القرن التاسع عشر، ينشر كل سنة كتاباً أو تقويماً يضمنه ما يتوقعه من أحوال الجو، خلال السنة التالية يبنيه على ما يراهُ من تأثير القمر في حالة الجو. وفي مستهل سنة ١٨٣٧ تكهن كاتب يدعى باتريك مرفي بأن درجة الحرارة في يوم ٢٠ يناير من سنة ١٨٣٨ ستكون أعلى درجات الحرارة في فصل الشتاء كلهِ. فصحَّ ما قال. وأذاعت الصحف قوله، وتأيد القول، فعظم الاقبال على تقويمهِ، وجنى ثروة لا بأس بها. على أن استطلاع الحالة الجوية، خرج في العهد الأخير من نطاق التكهن، إلى نطاق العلم مع أنه لم يبلغ بعد درجة الدقة والاحكام المطلوبين في العلوم الطبيعية. وقد بلغ من عناية الفريقين المتحاربين، بأنباء التقلب الجوي، حين نشبت هذه الحرب، أن أصبحت حقائق الأرصاد الجوية، سرًّا لا يباح نشره في الصحف. ويندر الآن بين الحقائق الحربية، ما هو أولى بالكتمان، من حقائق الحالة الجوية، أو ما هو أولى بالتقديم في الارسال والاستقبال. فتقرير عن الحالة الجوية، مذاع من محطة أرصاد، يجب أن يكون ابن ساعته حتى يكون ذا فائدة حربية. فاذا انقضى عليه اثنتا عشرة ساعة، عدَّ

تاريخاً قديماً . ولذلك يقدَّم إرسال التقارير الجوية ، على جميع أخبار الحرب ، ولا يقدَّم عليه أحياناً إلاَّ الأوامر الصادرة من قائد عام ، إلى قواد الميدان في أثناء معركة دائرة الرحى .

ولعلك تسأل لماذا تعلق القيادات العليا هذا الشأن العظيم بأخبار الأرصاد الجوية ؟ والجواب هو أن حالة الجوّ ، عامل أصيل في إعداد الخطة لكل عمل حربي . فسرب ما من القاذفات ، قد تتعذر عليه العودة إلى قاعدته ، إن هو لقي في أثناء العودة رياحاً تعترضه ، فتخفض سرعة طائراته حين يكون الوقود في مستودعاتها قد أشرف على النفاد . وقد يستحيل على أسطول من السفن الحربية مفاجأة العدو ، إن هو دخل مياه العدوّ في جوٍّ صافٍ كعين الديك . وقد تمنى بالإخفاق خطة لتطويق العدو لأن المطر هطل غزيراً في أرض مستوحلة فعاق الدبابات والسيارات المدرعة عن بلوغ أهدافها في الميعاد المضروب . ورجال الأرصاد الجوية يقع على عاتقهم أن ينبئوا قيادة السرب : متى يحتمل أن تكون الريح مواتية لهم حين عودهم من غارة ، وقيادة الأسطول : متى يحتمل ان يكون الغيم مطبقاً أو الضباب كثيفاً ، فتختفي حركات الأسطول تحت ستارها عن أعين الأعداء ، وقيادة الجيش : هل ينتظر نزول مطر غزير ؟

والروايات التي تروى عن أعمال حربية عظيمة الشأن تمت في هذه الحرب بعد الاسترشاد بعلم الراصدين ، لا عداد لها . فطيران سرب دولتل فوق طوكيو ، تمَّ بعد ما أثبتت محطات الارصاد الجوية ، لقيادة سلاح الطيران الاميركي ، أن الجو فوق طوكيو سيبلغ من الصفاء مبلغاً يمكن الطيارين من تبين الأهداف وقذفها قذفاً محكماً . ورصّادو الجو هم الذين عينوا للقيادة الاميركية ، في المنطقة الجنوبية الغربية من المحيط الهادئ ، يوماً عاصفاً مسفّ الغيم ، يمكن الكتائب الاميركية من النزول في وادي الكنار ، دون أن يتبينهم الحماة اليابانيون ، قبل تمام النزول . ثم إنَّ الاميركيين اختاروا يوماً غائماً للنزول في جزيرة آتو — إحدى جزائر الوشيان — إذ استردُّوها من اليابانيين ، على حين أن اليابانيين اختاروا يوماً غائماً كذلك للجلاء عن جزيرة كيسكا الواقعة إلى شرقها

وقد اختار الألمان شهر سبتمبر من سنة ١٩٣٩ لغزو پولندا ، فلم يكن هذا الاختيار اعتباطاً . ولكن علماء الظواهر الجوّية من الالمان أنبأوا القيادة الالمانية بأنّ الجوّ في سبتمبر ، سيكون صافياً والمطر قليلاً أو نادراً . حقّاً ان الاتجاه السياسي في اوربا خلال الصيف ، كان يشير إلى احتمال الغزو في الخريف . ولكن البولنديين اطمأنوا الى أن شهر سبتمبر ، يكون عادة شهر مطر غزير . فلا مفرّ من أن ترتطم كتائب الالمان الميكانيكية في

وحل بولندة . ولكن حساب علماء الالمان كان دقيقاً . فاجتاحت الكتائب الألمانية المدرّعة أرض بولندا الجافة الصلبة في أقل من ثلاثة أسابيع ، على حين أن المطر الذي تمناه البولنديون واعتمدوا عليه ظلّ منحبساً .

وعلى هذا النمط اختار الألمان الاسبوع الثاني من شهر ابريل سنة ١٩٤٠ لغزو النرويج . وقد اختاروه ، استناداً إلى قول علمائهم بأنهُ سيكون أسبوع ضباب ومطر ، فشحنت سفن النقل الألمانيـة ، وتخفَّت في مياه مضيق السكاجيراك ، لم تتبينهـا عين ، فلما انقضت فترة الضباب والمطر ، وصحا الجوُّ وصفا ، كانت هذه السفن قد اشتركت في احتلال النرويج . وحين أراد الالمان ، الفرار ببارجتيهم الشارنهورست والجنيزنو ، وبطرادهم برنس أويجن ، من مرفإ برست إلى ثغور المانيا ، لم يشاءوا ان يغامروا بها في رحلة طويلة حول الجزائر البريطانية ، خشية أن يكون مصيرها مصير البارجة بسمارك ، وقد كانت أقوى وأسرع . فاستقرّ الرأي ، على أن تجتاز بحر المانش ومضيق دوفر . فالشقة قصيرة ، واذا كان الجوُّ ملائماً ، استطاعت أن تجتازها قبل أن يتمكن البريطانيون من معاجلتها . فصدر الامر الى رصّاد الجوّ ، بالتنبيه إلى أول يوم يكون فيه الضباب كثيفاً والغيم مسفّاً والمطر غزيراً على محاذاة الساحل الفرنسيّ . وقد استكشف البريطانيون السفن الثلاث قبيل الظهر ، حين كان مدى الرؤية لا يزيد على ثلاثة أميال أو خمسة في الهواء ، وأقلّ من ذلك على سطح البحر . فخرجت القاذفات البريطانية ، وقاذفات الطربيد ، وأطبقت على السفن عسى ان تصيبها في المقتل ، ولكن ضباباً وستاراً كثيفاً من الدخان ، حالا دون إصابة اجسام صغيرة سريعة الحركة كهذه السفن ، إصابة قاتلة . ولم تتح حالةُ الجوّ للبريطانيين فرصة للإطباق عليها ، إلاّ بعد الظهر ، إذ هطل المطر فاستخفت به المدمرات البريطانية وهجمت على السفن بالطرابيد فأصابتها وإن لم تكن الإصابة قاتلة .

وقد يرتكب خطأٌ في تعيين الاحوال الجوية المحتملة ، إما عن إهمال أو عجز ، وإما لأن الطبيعة تأبى أن تتقيد بضوابط العلم الانساني ، فيفضي ذلك إلى كارثة ، أو قد يفضي اليها

فاليابانيون مثلاً حشدوا قافلة كبيرةً في رابَوْل لتجتاز بحر بسمارك — بين نيو بريتن وغينية الجديدة — لتعزيز الحاميات اليابانية في غينية الجديدة . وقد احتفظوا بسفن النقل وسفن الحرب التي عينت لحراستها أياماً حتى هبَّت عاصفة ، متجهة في اتجاه القافلة ، فظنّوا أنها تستر القافلة عن طياري الحلفاء . وكذلك أقلعت القـافلة العظيمة ، وقوّادها واثقون بمضيّهم لطيتهم . ولكن العـاصفة انحرفت عن مجراها المحتمل ، فتركت القـافلة مكشوفة ، في

جوٍّ صافٍ ، فتبينها أحد الأمريكيين من طياري الدوريات ، فنادى القاذفات والمنقضات ، فمحت القافلة على بكرة أبيها، لم تنجُ منها سفينة ما ، لا سفينة نقلٍ ولا سفينة حرب .

وقد كاد مزاج الطبيعة التقلّب ، أن يحوّل غزو صقلية ، من النجاح التامّ الى احتمال الاخفاق . فقد كانت الخطة لغزو صقلية ، قد أعدَّت أحكم إعداد ، وعيّنت الساعة ، وإذا عاصفة تهبُّ في يوم الغزو لم تكن في حساب علماء الأرصاد الجوية ، فاصطخبت أمواج البحر ، وغدا إقلاع زوارق الغزو شاقًّا أو متعذراً ، وأصيب كثير من الرجال بالدوار ، وخشي القواد ، مدى ساعات ، أن تحول أحوال الجوّ ، لا قوة المحور ، دون إنفاذ خطة محكمة يرتبط بها مصير ايطاليا . ولكن العاصفة مرّت ، وسكن البحر — وبقية القصة صفحة باهرة من التاريخ الحربي .

وحالة الجوّ تسير عادةً وفقاً لنماذج معيّنة . فالعواصف وغيرها من ألوان الاضطراب الجوّي ، تتبع طرقاً معروفة حول الأرض ، إذ تهبط مقادير كبيرة من الهواء البارد الجاف ، من المناطق القطبية في اتجاه جنوبي غربيّ ، وتتحرّك مقادير كبيرة من الهواء الدافئ المشبع بالرطوبة ، من المناطق الاستوائية في اتجاه شمالي شرقيّ . فاذا عرف الاتجاه الذي تتحرك فيه هذه المقادير من الهواء ، وسرعتها ، كان في الوسع التكهن بحالة الجو في المناطق التي تلتقي فيها مقادير الهواء البارد الجاف ، بمقادير الهواء الدافئ الرطب . ففي منطقة الالتقاء ، تتحوّل رطوبة الهواء الدافئ ، مطراً وغيماً أو ضباباً .

وفي المناطق الشمالية ، من الولايات المتحدة وكندا وأوربا ، يكون اتجاه التيارات الناشئة عن التقاء الهواء البارد بالهواء الدافئ من الغرب الى الشرق . وفي الولايات المتحدة ، ثلاثة مسارات عامة لهذه الظواهر الجوية ، يبدأ أحدها في شمال غرب كندا ، ثم يتجه شرقاً فوق ولايتي داكوتا ، محاذياً الحدود الكندية الاميركية الى ولايات نيو انجلند ، ثم يتجه إلى المحيط الأطلسي . والثاني يبدأ في بحر كريب (بحر الانتيل) ، ويتجه الى ما يلي سواحل الولايات المتحدة الشرقية ، ثم ينحرف قرب نيو انجلند إلى المحيط . والثالث يبدأ في جنوب غرب الولايات المتحدة ، ثم يتجه شرقاً وشمالاً في شرق .

فاذا عرف الضغط الجوّي ، ونوع الاضطراب الجوّي ، كان في الوسع معرفة الحالة الجوّية خلال الأيام المقبلة ، في مسار العاصفة . ثم إذا عُرفت سرعة عاصفةٍ ما ، كان في الوسع معرفة حالة الجوّ في يومٍ ما ، على الطريق الذي تسير فيه . وكون هذه الأحوال الجوية تتحرك من الغرب الى الشرق ، يتيح لعلماء الأرصاد الجوية في الولايات المتحدة

وكندا ، مزية عظيمة ، لأنهم يتمكنون ، من الاعتماد على تقارير الأحوال الجوية في داخل البلاد ، فيتعرّفون ما يحتمل أن تكون الأحوال الجوية فوق المحيط الأطلسي أو فوق أوربا ، بعد أيام . وهذه المعرفة تفيدهم في تنظيم القوافل وتعيين مواعيدها ، وفي الهجوم الجوي، وحتى في تقرير موعد الغزو المنتظر .

وقد ضرب أحد العلماء مثلاً على ذلك وضح فيه هذه الحقيقة . فقد أذيع بالراديو ، من محطة ما ، في قلب الولايات المتحدة بيان محلي عن حالة الجو ، على نحو ما كانت صحفنا تنشر قبل نشوب الحرب ، بيان مصلحة الطبيعيات عن الحالة الجوية عندنا . وقد بينت هذه الاذاعة تفاصيل هذه الحالة ، في مواقع معينة بعيدة عن الساحل الأميركي الشرقي ، ولكن اتفق أنها كانت مواقع على أحد الطرق الثلاثة التي تتبعها الحالة الجوية في سيرها من الغرب الى الشرق .

وكان القائد الأميركي ، في إحدى القواعد البحرية على ساحل المحيط الأطلسي ، ضابطاً متنبهاً يقظاً عارفاً بمسائل الأرصاد الجوية . فعلم حين اطلع على هذه الاذاعة ، أنه لا تنقضي أيام حتى يصفو الجو يوماً أو يومين، في المنطقة التي تشملها دورياته ، وقدّر أن هذا الصفو سيتيح للغواصات فرصة لتشديد سطوها على القوافل ، فاتخذ أهبته الوافية لرد كيدها في نحرها . وحدث ما توقع ، فأحبطت أعمال الغواصات . على أنهُ ثبت خلال ذلك، ان قائد إحدى الغواصات الالمانية كان قد سمع هذه الاذاعة، وخرج منها بالنتيجة الصحيحة ، ولولا يقظة القائد البحري ، لكان فتك الغواصات بالسفن عظيماً

* * *

لحكومات الدول المتحدة ، عشرات من محطات الأرصاد الجوية ، في شتى أقطار المعمورة . وكل منها تجمع الحقائق التي تسفر عنها الأرصاد ، أو تتلقاها من ناس يعتمد عليهم ، وترسلها الى جميع المحطات الأخرى ، ببرقيات رمزية . ومن هذه المحطات ما يرسل في الجو بالونات ، مرة كل ست ساعات ، أو كل اثنتي عشرة ساعة ، لتبيّن اتجاه الريح وسرعتها في الطبقات العليا من الهواء . وقد ترسل في الجو بالونات تحمل أجهزة دقيقة مقترنة بأجهزة إرسال لاسلكية ، فتبعث هذه الأجهزة الى الراصدين على الأرض ما تتبينهُ الأجهزة الأولى من سرعة الريح وحرارتها ورطوبتها . وفي جميع القيادات ، ضبّاط فنيون اختصّوا بفهم التقارير الجوية ، لتطبيق مغازيها على مقتضيات الحالة الحربية . وقد بلغ من اهتمام الألمان بجمع ما يتيسر جمعهُ من حقائق الحالة الجوية فوق المحيط الأطلسي ، أن عهدوا إلى الغوّاصات في

عرض المحيط ، في إرسال أنباء أحوال الجوّ بالراديو ، وعهدوا كذلك إلى طائرات خاصة بعيدة المدى في الايغال فوق المحيط الأطلسي للغرض نفسه .

وقد اضطرَّ الألمان الى ذلك اضطراراً بعد تدمير محطة الأرصاد الجوّية التي كانوا قد أنشأوها في جزيرة جرينلندة . فقد كانوا يعلمون أن من يتبيَّن أحوال الجوّ اليوم ، في جزيرة جرينلندة ، يستطيع أن يعلم ما تكون عليه غداً أو بعد غد فوق قارَّة أوربا . فأنشأوا في تلك الجزيرة محطة لهذا الغرض . ولكن الأمريكيين أرسلوا اليها بعثة خاصة ، لانشاء محطة لرصد أحوال الجو، فلم تلبث حتى حطمت المحطة الألمانية

ومن غرائب الاتفاق أن تبيُّن أحوال الجوّ ، بدراسة الهواء البارد الجاف الهابط من المنطقة القطبية والهواء الدافئ الحار الصاعد من المنطقة الاستوائية ، يرجع الى نظرية قال بها أولاً عالمان نرويجيان خلال الحرب العالمية الأولى ، وهما فيلهلم بيركنس وابنهُ جاكوب .

فقد كان يهم ربابين سفن صيد السمك في النرويج ، وأرباب الصناعات التي تعتمد على صيدها ، أن يعرفوا معرفة دقيقة أحوال الجوّ غربيَّ النرويج . فلما نشبت الحرب وتوقف البريطانيون عن إذاعة تقاريرهم الجوية ، وضعت هذه النظرية « القطبية » وامتحنت . وقد يذهب علماء الاقتصاد الحربيّ ، إلى أن الألمان احتلوا نارفيك في شمال النرويج ، لأنها مرفأ لا يجمد ماؤه على مدار السنة ، وهو لقربه من منطقة كيرونا السويدية حيث مناجم الحديد يصلح أن يكون ثغراً لإصدار الحديد إلى المانيا ، فهذا خيرٌ من نقله بسكك الحديد السويدية ، أو بالسفن في خليج بوثنيا ثم في بحر بلطيق ، وهما يجمدان خلال ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر في فصل الشتاء . على ان علماء الظواهر الجوية ، الذين يدركون ما لمعرفة هذه الظواهر من منزلة في الأعمال الحربية ، يضيفون الى الباعث الاقتصادي باعثاً آخر . ويقولون إن الألمان أرادوا الاستقرار في نارفيك لإنشاء محطة للارصاد الجوية فيها ، ولذلك طالت مقاومتهم للحلفاء حين نزلوا فيها . ثم جهدوا في استردادها . وقد كان نزول الأميركيين في جرينلندة وإسلندة لإنشاء قواعد للطائرات بين الولايات المتحدة وبريطانيا ، بقدر ما كان لانشاء محطات لرصد الظواهر الجوّية ، وإتاحة نتائجه لقيادات الدول المتحدة في بريطانيا .

• • •

وفي الجزء القادم نفصل تأثير أحوال الجوّ ، في الصحة والمرض والحالة النفسية

لبنان في التوراة

لراجي الراعي

جلست أمس على شاطىء هذا البحر والكآبة تشتملني كالليل ، ورحت أعدد جراحاتي وهي أرقامي في جدول القدر ، وأسأل نفسي وأنا أرى الرايات تخفق في سماوات الأمم العظيمة : أين هي راية عظمتي ، وأين هي أمجادي أنا اللبناني ابن هذه البقعة من الأرض التي يقال لها لبنان ؟ أين وتري اللبناني في قيثارة العالم الكبرى ؟ كل دولة تطلب أبعد ما يبغيه المدى الحيوي فأين مداي ؟ وأين أسدي يزأر في غابة الوجود ؟ وأين نسري يحوم في سماء هذا الجبل ؟ لي صخرتي ولكن أين عصا موسى في يدي ، أين عصاه تضربها فينبجس من قلبها الماء . وماذا تفيدك الصخرة إذا لم تكن في يدك عصا موسى ؟

لبثت ساعة على هذا الشاطىء ، وهذه الخطرات السود تمر في كآبتي ، وفيما أنا على تلك الحال إذ نظرت فاذا بجبار يهبط عليّ فجأة من السماء رأيت فيه وجه هرقل، وصاح بي بصوت ذعرت له الأمواج وارتجت من هوله الأرض من حولي : أنت تجهل نفسك . أتريد أن تعرف من أنت أيها اللبناني وإلى أية سلالة تنتمي ؟ أتريد أن تعرف ما هو لبنان وإلى أي أفق تعلو قامتك في الدنيا . أتريد ؟ إذن فاطلع على الناس بالكتاب المقدس ، كتاب ينبوع الينابيع وسطر الخليقة الأول في كتابها ، وأبرز صورتك في ذلك الإطار الالهي واشمخ على العالمين وتكبر .

وطار هرقل إلى الأولمب فقمت من وقتي إلى كتابي المقدس أفتش عن لبنان، وتصفحته من أوله إلى آخره . وإليك ما وقعت عليه من تلك السطور العبقة بمجد هذا الأرز والتي هي أول ما خطه القلم . أيها اللبناني ، أين كنت وكيف كنت ؟ اسمع ، اسمع كم مرة ذكر لبنانك ولبناني في كتاب الله ، اسمع ودوّن : ورد في سفر التكوين في الفصل العاشر : « وكانت تخوم الكنعانيين من صيدون وأنت آتٍ نحو جرار إلى غزة » .

وفي سفر تثنية الاشتراع في الفصل الأول : « قد تكلم الرب إلهنا في حوريب وقال لنا حسبكم المقام في هذا الجبل فتحوّلوا وارتحلوا وادخلوا جبل الأموريين وكل ما يليه من القفر والجبل والسهل ، والجنوب وساحل البحر أرض الكنعانيين ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات » وفي الفصل الحادي عشر : « كل موضع تطأه أخامص أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان من النهر نهر الفرات الى البحر الأقصى يكون تخمكم » .

وفي سفر يشوع في الفصل الأول : « كل مكان تطأه أخامص أرجلكم لكم أعطيته كما قلت لموسى . من البرية ولبنان هذا النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير الذي في جهة مغارب الشمس تكون تخومكم » وفي الفصل التاسع : « فلما سمع جميع الملوك الذين في عبر الأردن في الجبل والسهل وفي جميع ساحل البحر الكبير إلى مقابل لبنان الحثيون والاموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون. اعتصبوا معاً لقتال يشوع واسرائيل على اجتماع الكلمة » . وفي الفصل الثالث عشر : « وأرض الجبليين وجميع لبنان ، جهة مشرق الشمس من بعل جاد ، تحت جبل حرمون إلى مدخل حماة ، كل سكان الجبل من لبنان إلى مياه مسرفوت كل الصيدونيين سأطردهم من وجه بني اسرائيل وأنت تقسمها بالقرعة لاسرائيل ميراثاً كما أمرتك » .

وفي سفر الملوك الثالث في الفصل الرابع : « وقال سليمان ثلاثة آلاف مثل وكانت أناشيده الفاً وخمس أناشيد وتكلم في الشجر من الأرز الذي على لبنان الى الزوفى التي تخرج في الحائط » وفي الفصل الخامس : « والآن فمر بأن يقطع لي أرز من لبنان وعبيدي يكونون مع عبيدك وأجرة عبيدك أؤديها اليك بحسب جميع ما ترسم لأنك تعلم ان ليس فينا من يعرف بقطع الخشب مثل الصيدونيين » وأرسل حيرام الى سليمان وقال « قد فهمت ما أرسلت به اليّ وأنا أتم كل مرضاتك في خشب الارز وخشب السرو ، وعبيدي ينزلون ذلك من لبنان الى البحر فاجعله أطوافاً في البحر الى الموضع الذي تسميه لي واطرحه هناك فتأخذه وأنت تتم مرضاتي باعطائك طعاماً لبيتي فكان حيرام يبعث الى سليمان خشب الارز وخشب السرو على حسب ما أراد . وسخّر الملك سليمان من كل اسرائيل وكان المسخّرون ثلاثين الف رجل وكان يرسل منهم الى لبنان عشرة آلاف في الشهر مناوبةً فيكونون في لبنان شهراً وفي بيوتهم شهرين . وكان ادونيرام قيماً على السخر وكان لسليمان سبعون الف رجل يحملون الأثقال وثمانون الفاً يقطعون في الجبل ما عدا الرؤساء وكلاء سليمان القائمين على الأعمال ، وهم ثلاثة آلاف وثلاثمئة يأمرون على القوم

الذين يعملون العمل. وأمر الملك ان يقلعوا حجارة كبيرة ثمينة لتأسيس البيت بالحجارة المنحوتة فنحتها بناؤو سليمان وبناؤو حيرام والجبليون وهيأوا الاخشاب والحجارة لبناء البيت » .
وفي الفصل التاسع : « كان فرعون ملك مصر قد صعد الى جازر وأخذها وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين المقيمين بالمدينة ووهبها مهراً لابنته زوجة سليمان ، فبنى سليمان جازر وبيت حورون السفلى وبعلت وتدمر في ارض البرية وجميع مدن الخزن التي كانت لسليمان ومدن المركبات ومدن الفرسان وكل ما أحبّ سليمان أن يبنى في أورشليم ولبنان وكل أرض سلطانه »
وفي الفصل العاشر : « وعمل ايضاً ثلاثمئة مجن من ذهب مطروق ، للمجن الواحد ثلاثمئة مثقال ذهب وجعلها الملك في بيت غابة لبنان » — « وكانت جميع آنية شرب الملك سليمان ذهباً وجميع آنية بيت غابة لبنان كانت من ذهب خالص لم يكن فيها فضة اذ لم تكن تحسب شيئاً في أيام سليمان » .

وفي سفر الملوك الرابع في الفصل الرابع عشر : « فبعث يواش ملك اسرائيل الى امصيا ملك يهوذا قائلاً ان العوسج الذي بلبنان أرسل الى الأرز الذي بلبنان وقال زوج ابنتك لابني فجازت وحش الصحراء التي بلبنان ووطئت العوسج » . وفي الفصل التاسع عشر : « قد قرعت على لسان رسلك وقلت بكثرة مراكبي صعدت الى قمم الجبال وأواخر لبنان ، قاطعاً أرفع أرزه وخيار سروه وداخلاً المنزل الذي في أقصاه وغابة كرمله »

وفي سفر أخبار الايام الثاني في الفصل الثاني : « وأرسل لي بأخشاب أرز وسرو وصندل من لبنان لأني اعلم ان عبيدك حاذقون بقطع الخشب من لبنان وهؤلاء عبيدي مع عبيدك فليجهزوا لي اخشاباً بكثرة لان البيت الذي ابنيه عظيم عجيب » وفي الفصل التاسع : « فعمل الملك سليمان مئتي مجن من ذهب مطروق ، للمجن الواحد ستمئة مثقال ذهب مطروق وثلاثمئة مجن من ذهب مطروق للمجن الواحد ثلاثمئة مثقال ذهب وجعلها الملك في بيت غابة لبنان » .

وفي سفر يهوديت في الفصل الاول : « فعظم اذ ذاك ملك نبوكدنصر وسمت نفسه فراسل جميع سكان قيليقية ودمشق ولبنان » .

وفي سفر المزامير في المزمور الثامن والعشرين : « صوت الرب يحطم الأرز يحطم الرب أرز لبنان — ويوثبها كعجل لبنان » .

وفي سفر نشيد الاناشيد في الفصل الثالث : « الملك سليمان صنع لنفسه تختاً من خشب لبنان »
وفي الفصل الرابع : « هلمي معي من لبنان أيتها العروس معي من لبنان ، انظري الى رأس امانة من رأس سنير وحرمون من مرابض الاسود من جبال النمور » — « أختي العروس

جنة مقفلة ينبوع مقفل وعين مختومة . أغراسك فردوس رمان مع كل ثمر نفيس وفاغية مع ناردين ، ناردين ، وزعفران قصب ودار صيني مع كل شجر اللبان مرّ وعود مع أنخر الأطياب ، عين جنات وبئر مياه حية وأنهار من لبنان . هبي يا شمال وهلمّي ياجنوب انسمي على جنتي فتنسكب أطيابها» . وفي الفصل السابع : «عنقك كبرج من العاج وعيناك كبركتي حشبون عند باب بنت الجماعة وأنفك كبرج لبنان الناظر الى دمشق » . وفي الفصل الثامن : « لنا أخت صغيرة وليس لها ثديان ، فماذا نصنع بأختنا يوم تخطب ، ان كانت سوراً بنينا عليه صرحاً من فضة وان كانت مصراعاً شددناه بألواح من أرز» .

وفي سفر يشوع بن سيراخ في الفصل الرابع والعشرين : « تأصلت أنا الحكمة في شعب مجيد وفي نصيب الرب ، نصيب ميراثه وفي ملأ القديسيين مقامي ارتفعت كالأرز في لبنان وكالسرو في جبال حرمون » . وفي نبوءة أشعيا في الفصل الثاني : « ان عيون البشر المتشامخة ستخفض وترفع ، الانسان سيوضع ويتعالى الرب وحده في ذلك اليوم ، فانه يوم رب الجنود على كل متكبر متعال وعلى كل مرتفع فيحط — وعلى كل أرز لبنان المتعالي المرتفع وكل بلوط باشان » . وفي الفصل العاشر : « لكن السيد رب الجنود يكسر الأغصان بعنف فكل مرتفع القامة يقطع وكل شامخ يحط — يشذب حداد الغاب بالحديد وبيد ذي بطش يسقط لبنان » . وفي الفصل الخامس والثلاثين : « قد أوتيت مجد لبنان وبهاء الكرمل والشارون فهم ينظرون مجد الرب وبهاء إلهنا » . وفي الفصل الستين : « مجد لبنان يأتي اليك السرو والسنديان والشربين جميعاً لزينة مقدسي وأمجد موطئ قدمي » .

وفي نبوءة أرميا في الفصل الثامن عشر : « هل يخلو صخر الصحراء من ثلج لبنان ، أم تنضب المياه المنفجرة الباردة الجارية » . وفي الفصل الثاني والعشرين : « فانه هكذا قال الرب على بيت ملك يهوذا أنت لي جلعاد ورأس لبنان لأجعلنك قفراً ومدناً لا ساكن بها وأقدس عليك مهلكين كلاً منهم وآلاته فيقطعون نخبة أرزك ويلقونها في النار — ويل لمن يبني بغير عدل وغرفه بغير حق ويستخدم قريبه بلا أجرة ولا يوفيه عن عمله ويقول ابن لي بيتاً واسعاً وغرفاً فسيحة فتفتح لهُ كوى وسقف بالارز ودهن بالمغرة — أيكون ملكك بأن تفاخر بالأرز ، أما أكل أبوك وشرب وأجرى الحق والعدل وحينئذٍ كان لهُ خير — اصعدي الى لبنان واصرخي وفي باشان ارفعي صوتك واصرخي من العباريم فان جميع محبيك قد انحطموا يا ساكنة لبنان المتخذة في الأرز عشها كيف انتحبت حين أخذك المخاض والوجع كالتي تلد » .

وفي نبوءة حزقيال في الفصل السابع عشر : « وقل هكذا قال السيد الرب ان النسر العظيم ذا الجناحين العظيمين الطويل القوادم الممتلئ الكثير الألوان قد أتى لبنان وأخذ ناصية الأرز واقتطع رؤوس خراعيبه وأتى بها الى أرض كنعان وأقامها في مدينة التجار — هكذا قال السيد الرب اني سآخذ من ناصية الأرز العالي وأنصب أقتطع من رؤوس خراعيبه غصناً أملد وأغرسه أنا على جبل شامخ شاهق في جبل اسرائيل العالي ، أغرسه فينشئ أفناناً ويثمر ثمراً ويصير أرزاً جليلاً فيأوي تحته كل طائر كل ذي جناح يأوي في ظل أغصانه فتعلم جميع أشجار الصحراء أني أنا الرب سفلت الشجر العالي وأعليت الشجر السافل وأيبست الشجر الرطب وأنبت الشجر اليابس ، أنا الرب قلت وفعلت » . وفي الفصل السابع والعشرين : « وقل لصور الساكنة عند مداخل البحر تاجرة الشعوب في جزائر كثيرة : هكذا قال السيد الرب يا صور إنك قلت أنا كاملة الجمال تخومك في قلب البحار وبانوك أكملوا جمالك بسرو من سنير بنوا لك كل طباقك وأخذوا أرز لبنان ليضعوا سواري عليك — سكان صيدون وارواد كانوا قذافين لك وحكماؤك يا صور الذين فيك هم مدبروك وجميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك لترويج موسمك » . وفي نبوءة هوشع في الفصل الرابع عشر : « وأكون لاسرائيل كالندى فيزهر السوسن ويمد عروقه كلبنان وتنتشر فروعه ويكون بهاؤه كالزيتون ورائحته كلبنان فيرجع الساكنون في ظله ويحيون بالحنطة ويزهرون كالكرم ويكون ذكره كخمر لبنان » . وفي نبوءة زكريا في الفصل العاشر : « وأعيدهم من أرض مصر وأجمعهم من أشور وآتي بهم الى أرض جلعاد ولبنان ».

تلك هي حكايتك أيها اللبناني في التاريخ ، وذلك هو لبنانك ولبناني هبطت به عليك من سماء الكتاب المقدس خمسين مرة ... أنت غني بماضيك ... ان رجلك عالقة بهذا الشاطئ ولكن رأسك في سفر التكوين ، أنت من أبناء الله القربين المصطفين ، أنت في الشعاع الأول من شمس الخليقة وأنت أعتق آدمي في الآدميين فلا تنغض رأسك بعد اليوم إذا ما ذكر لبنان ، ولا تقف كئيباً إذا مرت أمامك مواكب الأمم الكبرى وتليت الأسفار وخفقت الرايات والأمجاد، فأرزك في حديقة الرب لا تعلوه شجرة في الدنيا . . ان لك في مجدك القديم غنية عن كل مجد . . ان لبنانك اليوم مليون من الناس ولكنك ولدت قبل أن ولد الناس فلك أولوية القدم . . .

الدين والفلسفة

الشيخ محمد عبده والتوفيق بينهما

محمد يوسف موسى

من الخير، بعد ما رأينا جهود فلاسفة الاسلام — إبان العصور الوسطى — في مدّ الصلة بين رجال الدين والفلسفة على أساس التوفيق بينهما، أن نختم هذا البحث برأي أحد أئمة التفكير للعصر الحاضر في هذه الناحية، وهو الشيخ محمد عبده، لنرى ما كان منهُ في هذا السبيل من فكر ثاقب وصدر رحب وجهد مشكور.

***

بعد ابن رشد وعصره الذي ازدهر فيه التفكير العقلي الفلسفي، ارتكست الفلسفة وذهبت الى الوراء شوطاً بعيداً بمرور الزمن لعوامل مختلفة أشرنا فيما تقدم الى شيء منها، واستعلى على الفلاسفة ومن اليهم من أولي الأفكار العقلية الحرة صوت رجال الدين من فقهاء ومتكلمين، وصار الكثير من هؤلاء يسلكون كل سبيل الى التنفير من الفلاسفة وتبغيض الناس في مؤلفاتهم حتى ما كان منها في علم الأخلاق وما يتصل بهِ، موهمين أن في قراءتها خطراً أي خطر على الدين، متبعين في ذلك سلفهم العظيم الامام الغزالي الذي يقول في الكلام على آفة قراءة كتبهم الخلقية: «فإن من نظر في كتبهم فرأى ما مزجوه بها بكلامهم من الحكم النبوية والكلمات الصوفية، ربما استحسنها وقبلها وحسُن اعتقاده فيها، فيسارع الى قبول باطلهم، ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الغدر والخطر» (١).

ظلّ الحال كذلك، إلى هذا العصر الحديث، تتعثّر الفلسفة وتعاليمها حتى عفت أو كادت، إلاّ فترات جد قصيرة ربما وُجد فيها من يعرف لها بعض قدرها، حتى كان الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥ م) في هذا العصر الحاضر والحاجة ماسة الى

---

(١) المنقذ من الضلال، طبعة دمشق، ص١٠٤ — ١٠٥، ولعل الصحيح «الغرر» بدل «الغدر»

مثله في سعة تفكيره ورحابة صدره. لقد عمل على إيقاظ العقول الراقدة، وتوسيع الصدور الضيقة، وتنقية الدين مما علق به مما ليس بحق من أفكار القرون الوسطى؛ حتى لا يضيق بالعقل ونظره. ومن ثمّ كان لهُ جهد محمود الأثر في التوفيق بين الوحي والعقل، أو بين الدين والفلسفة، متأثراً في ذلك أستاذه السيد جمال الدين الافغاني المتوفى سنة ١٨٩٧ م.

تناول الاستاذ الامام هذا العمل تناول الجادّ المقدّر لهُ العارف خطره، فوضع أصوله واختطّ لهُ طرقه، وأشربهُ قلبه، فناضل عنهُ طويلاً غير آبه بما يصادف من صعاب وعقبات، ولا بما يثار حوله من تهم وأقاويل سوء من بعض إخوانه ووصفائه والجهلة والحسدة والمناوئين لهُ.

بدأ بالنظر في العداوة الواضحة بين الدين والعلم التي لا تقوم إلاّ على أساس من الجهل لفّ العقول بحجاب كثيف فمنعها من التفكير، وران على القلوب فجعلها تضيق بأي لون من ألوان النظر العقلي. هذا والاسلام دين العقل والفكر، « فأمر بالنظر واستعمال العقل في ما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ اليهِ من دقائقه ـ تحصيلاً لليقين بما هدانا اليه ـ ونهانا عن التقليد بما حكي من أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك، واستتباعه لهدم معتقداتهم وامّحاء وجودهم المليّ». وحقّ ما قال[1] نعم! هذا حق كما يقول، فالقرآن قد رفع العقل مكاناً عليًّا، حتى جعل أمر السعادة ينتهي اليه، كما جعل لهُ النظر في كل ما خلق الله وكشف أسرار الكون المكنونة[2].

أيقن الأستاذ بهذا كله، وأيقن بضرورة العمل على تآزر الدين والعلم، فوضع لذلك أصلين جعلهما الأساس في تقرير الصلة بينهما. هذان الأصلان هما: كل من الدين والعلم في حاجة الى الآخر، ووجوب تقديم العقل على ظاهر النقل عند التعارض.

* * *

أما الأصل الأول فنجده يُلحّ فيه وفي بيانه في أكثر من مؤلف من مؤلفاته، ففي أحدها يقرر أن أول أساس وُضع عليه الاسلام هو النظر العقلي الذي هو وسيلة الايمان الصحيح[3]، ولذلك نراه ينعي على المسلمين نسيانهم « أن الايمان يعتمد اليقين ولا يجوز

---

(١) رسالة التوحيد، الطبعة الثامنة، ص ٢٣ (٢) المرجع نفسه ص ١٩

(٣) الاسلام والنصرانية ص ٥٦

الأخذ فيه بالظن ، وأن العقل هو ينبوع اليقين في الايمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق برسالته ، وأن النقل ينبوع لهُ فيما بعد ذلك من علم الغيب كأحوال الآخرة وفروض العبادات وهيآتها » (١) ثم يقرر بعد ذلك في كتاب آخر « أن العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهي ، كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات ، والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحته لأجله والاذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال » (٢).

نعم ! إن العقل البشري — كما يقول — ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته ، إلاَّ في القليل النادر من الناس ، انهُ أعجز عن معرفة ما يجب أن يُعرف عن الله وأحوال الدار الآخرة ، وإن كان ذلك قد يتيسر لقليل ممن اختصهم الله بالعقل الكامل والبصيرة الثاقبة ، لذلك كله كان العقل الانساني في حاجة الى معين يعلم منهُ ما يعجز عن إدراكه ، وذلك المعين هو من يختصهُ الله بالنبوة من عباده المصطفين الأخيار (٣) . ومع هذا كلهِ فالعقل أساس للشرع وسند له ولا غنى له عنهُ ، ولذلك كان التوفيق بينهما واجباً .

* * *

وأما الأصل الثاني فهو تقديم ما أدى اليه النظر العقلي الصحيح إذا تعارض مع النقل ، مع تفويض علم هذا النقل وفهمه الى الله ، أو تأويله في حدود قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبتهُ العقل ونظره الصحيح (٤) . والشيخ يشعر شعوراً قويّاً بخطر هذا الأصل الثاني في التوفيق بين الدين والفلسفة ، ولذلك نراه يقرر ، في صوت قوي وإيمان ثابت ، أنهُ « بهذا الأصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله تعالى عليهِ وآله وسلم مهدت كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال إلى غير حد ، فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا ؟ واي فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم إن لم يسعهم هذا الفضاء ؟ إن لم يكن في هذا متسع لهم ، فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ، ولا سماء بأجرامها وأبعادها » (٥) .

على أنهُ هيهات ، في رأيه الحصيف الثاقب ، أن يكون تعارض بين الدين والعلم او الفلسفة ،

---

(١) الاسلام والنصرانية ص ١٢٧ (٢) الرسالة ص ١٢٨ — ١٢٩
(٣) الرسالة ص ٧٦ وما بعدها (٤) الاسلام والنصرانية ص ٥٦ — ٥٧ (٥) نفسه ص ٥٧

ما دام كل منهما يعتمد على العقل ويدرس إلى حدّ ما نفس الظواهر ، وإن كان لكل منهما غاية خاصة يتجه إليها ويسعى لها ويعمل على الوصول إليها [١]

ولعلّ من الخير أن نشير هنا إلى أن هذين الأصلين ليسا من ابتداع الاستاذ الامام ، بل نجدهما لغيره ممن يقدرهم المسلمون جميعاً على السواء ، ولكن المتعصبين لا يفقهون ا نعني حجة الاسلام الامام الغزالي .

إن هذا الحجة يقول ، في موسوعته الاحياء : « فالداعي الى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور » [٢] كما يرى في كتاب آخر أن العقل كالاسّ والشرع كالبناء ، وأنهُ لن يغني أس ما لم يكن بناء وان يثبت بناء ما لم يكن أس [٣]. كما يذكر في رسالة أخرى أن بين المعقول والمنقول تصادماً في بادي الرأي ، ولهذا انقسم الناس في ذلك إلى فرق ، وأن الفرقة المحقة «هي الفرقة المتوسطة الجامعة بين البحث عن المعقول والمنقول ، الجاعلة كلاً منهما أصلاً مهمّاً ، المنكرة لتعارض العقل والشرع وكونه حقّاً [٤]. ثم يوصي الباحث عند ما يبدو له تعارض الشرع والعقل أن يوقن أن ظاهر الشرع غير مراد إذ فيه تكذيب للعقل ، وأن عين المراد به لا حاجة إلى معرفته ولا سبيل فيه إلى حقيقة الكشف واليقين [٥].

وبعد هذين الأصلين ذهب الشيخ إلى ما يصح أن فيه فصل الدين عن الفلسفة ، ببيان ميدان كل منهما ومنطقة نفوذه ، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر فتقع الخصومة ويستحر الخلاف بين ممثليهما ، لقد جعل من أسباب عداء رجال الدين للفلاسفة أن هؤلاء زجّوا أنفسهم في النظر في مبادىء الدين ومسائله ، وما كان لهم ذلك ، إذ يجب ألاّ تمتزج الفلسفة بالمسائل الدينية [٦].

ومن أجل هذا نراه في مسألة أفعال العباد يذهب إلى أن التوفيق بين ما نعتقده حقّاً من إحاطة علم الله وإرادته وشمول قدرته وخلقه لكل شيء ، وبين ما تشهد به البداهة من

(١) مقدمة رسالة التوحيد بالفرنسية ص ٤٩ من كتاب الاسلام والتجديد في مصر
(٢) إحياء علوم الدين طبعة سنة ١٣٢٦ هـ ، ٣ : ١٤
(٣) معارج القدس ، طبعة سنة ١٣٤٦ هـ ، ص ٥٩
(٤) قانون التأويل ، الطبعة الاولى بمصر ص ٩
(٥) نفس المرجع ص ١٠
(٦) الرسالة ص ٢٠

اختيار الانسان لأفعاله وحريته في أن يفعل ويترك منها ما يريد ، يذهب إلى أن هذا من طلب سر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه ، وأنه اشتغال بما لا تكاد تصل العقول اليه[1] ومن أجل هذا أيضاً نجده في تفسيره المطول لسورة العصر يصرح بأنه في هذه المسألة عينها لا يجب التكلم فيها بأكثر مما تكلم ، وإلاّ لخرج من الصابرين ، ولخاض في القدر مع الخائضين . كما يرى هذا الرأي أيضاً — أي مما لا ينبغي المؤمن أن يخوض فيه — في مسألة علم الله تعالى ، وانهُ شامل للكليات والجزئيات أو للكليات وحدها.[2] وقد كان من تحرّجه في الجدل في هذه المسائل وأمثالها ، الجدل الذي لم يؤد إلاّ إلى الفرقة في الدين ، إجماله الكلام في علم التوحيد واكتفاؤه بالاشارة عن التفصيل وبالتلويح عن التصريح .

ومن الممكن بعد هذا وذاك أن نستخلص — كما يقول الدكتور تشارلز آدمس بحق — أن ميدان الفلسفة في رأي الامام هو البحث في الطبيعة وظواهرها ، أو بعبارة أخرى لهُ « كشف الأسرار المخبوءة في أعماق الكون » ، ونحو ذلك مما هو بعيد عن الدين ومباديه ومسائله [3].

وإذا كان هذا مما ذهب اليه في سبيل التوفيق بين الدين والفلسفة ، أي جعل نفوذ خاص ودائرة معينة لكل منهما ، فأن من الطبيعي إذاً أن يجنح إلى ما جنح اليه الفلاسفة السابقون من تقسيم الناس إلى طبقات وأن يجعل لكل طبقة نوعاً خاصًّا من التعاليم .

يجد الباحث في ما ترك الامام من مؤلفات وكتابات إشارة أو إشارات الى هذا الرأي ، ومن هذه الاشارات ما كان منهُ في تعليق على كلة لشارح العقائد العضدية في مسألة علم الله وآراء الفلاسفة فيها ، إذ يقول : «وقد تتحقق لباب الحق فيه من رسالتنا الواردات ، وهذا مشرب صوفي لا يذوقه إلاّ من عوفي فصوفي ، وليس هذا مقام الكلام ، وإلاّ لأسمعتك صريف الأقلام . ولعلنا نأتي على تحقيق هذه المسألة ، بوجه أبسط وأعلى ، في مقام آخر أو في كتاب آخر»[4].

وهذا أمر جد طبيعي لتفاوت العقول والاستعدادات ، ومما أُثر من الحكمة النبوية : «أُمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم» . وبذلك يكون الشيخ متفقاً في هذا الرأي مع من ذهب إليه من فلاسفة الأغريق والمسلمين .

(١) الرسالة ص ٦١ (٢) حاشية على شرح الجلال الدواني على العقائد العضدية ص ١١٦
(٣) الاسلام والتجديد ص ١١٨ (٤) الحاشية ص ١٤٢

الوقود [1]

للدكتور حسن صادق باشا

معالي الوزير — سادتي :

أبدأ بشكر حضرة صاحب المعالي وزير التجارة والصناعة أن هيأ لي هذه الفرصة لأتحدث لحضراتكم في موضوع أظنني على حق إذا عددته في المكان الأول من عظم الشأن لا للصناعة فحسب ، بل لأهم مرافقنا العامة وحياتنا المنزلية وشؤوننا الزراعية . وإني أنتهز هذه الفرصة للاعراب عن تقديري العظيم للمجهود الذي يبذله معاليه في نشر الثقافة الصناعية وأتمنى له كامل التوفيق .

حاجة مصر إلى لوقود

لست بحاجة إلى أن أؤكد لحضراتكم أن إقامة الصناعات وإنماءها في هذه البلاد هو من ألزم اللوازم ، وان اقتصادنا القومي يفقد بدونها مقوماً من أهم مقوماته ، فالبلد الزراعي إذا خلا من الصناعات التي تستمد وجودها من منتجاته الزراعية والتي تلزم بوجه خاص لخدمة هذه الزراعة ، هو بمثابة مزرعة تستغلها البلاد الصناعية المجاورة له ، وحاشا أن نرضى لبلادنا هذا الوضع الذي لا يتفق مع تاريخها المجيد ولا مع مقامها الاجتماعي والسياسي بين سائر البلدان .

وإذا كانت الصناعة تقوم أسسها على المواد الأولية وعلى سواعد العمال وأموال المموِّلين وعبقرية ذوي العقول المخترعة فلن يقوم لها قائمة بغير أن يتوفر لها الوقود الصالح الرخيص لادارة آلاتها ولبعض العمليات الصناعية نفسها .

وليست الصناعات وحدها هي التي تحتاج إلى الوقود بل هذا شأن كافة المرافق العامة

---

(١) محاضرة حضرة صاحب السعادة حسن صادق باشا القيت بصالة المحاضرات بالسراي الصغرى بالجمعية الزراعية الملكية بمناسبة اقامة المعرض النموذجي للصناعات الحديثة يوم الاحد ١٩ مارس سنة ١٩٤٤

من ري وصرف ونقل وإنارة كما هو شأن معيشتنا المنزلية ، كل هذا مما يتحتم معه أن نضع لنا سياسة ثابتة سليمة لتيسير حصول كافة المستهلكين على حاجتهم من مختلف أنواع الوقود وتنظيم استعمالها على الأوضاع الاقتصادية الصحيحة .

ومما يستوقف النظر ما يشمل جميع مرافقنا الخاصة والعامة من الفوضى في شأن الوقود ففي شؤوننا الخاصة يستعمل البعض المخلفات الزراعية من حطب وقش وكسب كما يستعمل البعض الكيروسين والفحم (إن وجد) كما يستعمل ذوو اليسار في مدننا الكبيرة الغاز أو الكهرباء . وفي وسائل النقل والصناعات الصغيرة والكبيرة يستعمل الفحم والغاز والبترول والكهرباء، فاذا تعذر الحصول على المادة التي نكون قد نظمنا أمورنا على أساسها أسقط في يدنا ولجأنا إلى استعمال بديل ثم آخر حتى لو تحملنا في ذلك نفقات طائلة .

وقد كان الزراع وساكنو الريف المصري حتى وقت قريب يعتمدون في شؤونهم المنزلية على حطب القطن وعيدان الذرة وقش الأرز، حتى إذا أدخل استعمال الآلات الصغيرة التي توقد بالكيروسين نشطت شركات البترول فجعلته في متناول الفلاح في أقاصي القرى وبأرخص الأسعار ، فترك استعمال الحطب وما إليه وأخذ في استعمال الجاز . فلما حلت أزمات الحروب المتوالية وعزَّ الحصول عليه أو غلا ثمنه أصبح الفلاح في حيرة من أمره واستعصى عليه العود سيرته الأولى .

كذلك كان الشأن في آلات الحرث والري والدراس ، فبعد أن كان اعتماده بعد الماشية على آلات بخارية تحرق الفحم أو المخلفات الزراعية، ظهرت في الأسواق آلات الاحتراق الداخلي تدار بالكيروسين أو زيت الديزل فكان رخص ثمنها وسهولة ادارتها مدعاة له إلى ترك الأولى والتهافت على الأخيرة حتى لو لم يكن قد استهلك ثمن الأولى الاستهلاك الاقتصادي الكامل . فلما حلت أحوال الحرب وانقطع الوارد من قطع الغيار لهذه الآلات الجديدة وعزت مواد الوقود أو غلا ثمنها عاد يبحث عن أنقاض الوابورات الأولى وهيهات له ذلك وقد أكلها الصدأ وأتى عليها الاهمال .

وفي وسائل النقل قد لمسنا التذبذب الذي شمل قاطراتنا الحديدية واتجاه الحكومة وشركات النقل إلى تحويل قاطراتها من حريق الفحم الى الكسب ثم الى المازوت مع ما صاحب ذلك من صعوبات ونفقات طائلة .

وهكذا يمكننا أن نسترسل في ضرب الأمثال على ما تعانيه البلاد من الاضطراب

في شأن الوقود الذي هو كما قدمنا من أسس صناعاتنا بل من أهم أسس مدنيتنا مما يجعل واجباً علينا وضع خطة حكيمة ثابتة تجنبنا في المستقبل شر تقلبات الظروف .

ومما يؤسف له أننا ونحن من الأمم الفقيرة في موارد الوقود الطبيعية قد أهملنا أمرها وتركنا شؤونها للمقادير على حين تنبهت البلاد الصناعية الكبرى رغم غناها في مواد الوقود إلى ضرورة العناية بما عندها تأميناً لصناعاتها ومدنيتها .

الحالة في الغرب

ففي انجلترة مثلاً وهي من أغنى بلاد الأرض في الفحم الحجري حيث تنتج سنويًّا حوالي ٥٠٠ مليون طن تصدر منها للخارج مئات آلاف من الأطنان ، شحذت جميع الهمم ودعت الاخصائيين من علمائها للتفكير في أمر الاقتصاد في استعمال الوقود وبحث كافة الوسائل للحصول من الفحم على أقصى فائدة ممكنة . فكان من أثر ذلك أن شاع استعمال تراب الفحم المطحون والقوالب المضغوطة كما أقيمت الأجهزة لتقطير الفحم للحصول على ما قد يحتويه من عناصر أخرى نافعة كالنوشادر والغاز والقطران والاقتصار على حرق الكوك الباقي بعد ذلك . كما وضعت القواعد لتوحيد محطات توليد القوى اقتصاداً في الوقود . واهتدوا في النهاية الى انشاء هيئة فنية خاصة Fuel Research Board لبحث جميع مشكلات الوقود سواء منها العامة او ما يخص كل مصنع بذاته ، كما انشئت هيئة تقوم على تنظيم شبكة كهربائية تشمل البلاد وتغذى من مختلف محطات التوليد لمصلحة المجموع .

كذلك كان شأن الولايات المتحدة الامريكية وهي كما تعلمون من أغنى بلاد الارض في مواد الوقود فهي تنتج ٦٠ في المائة من مجموع الفحم الحجري الذي ينتجهُ العالم ، كما تنتج ٧٠ في المائة من مجموع البترول ، ومع ذلك لم تترك الحبل على الغارب بل قامت الهيئات المختصة فيها بالبحث والدرس فأدى ذلك الى اقتصاد كبير في استهلاك الوقود بالتعديل والتبديل في تصميم قاطراتها وفي مولدات القوى ، كما عملت على التوسع في انتاج الكهرباء سواء من مساقط المياه طبيعية كانت او صناعية ومن محطات تدار بالوقود وربط بعضها ببعض في شبكة متصلة جامعة حتى يتفق الانتاج مع الاستهلاك في مختلف المناطق ولمختلف الاغراض . وقد أدت هذه البحوث في بعض الاحيان الى اقتصاد نحو ثلث الوقود المستهلك .

وفي فرنسة كانت المصانع الكبرى هي البادئة في التفكير في شأن الاقتصاد في الوقود

فعمدت بحكم المنافسة الصناعية التي واجهتها من صناعات البلاد المجاورة الى دراسة الخطط التي يمكن اتباعها للاقتصاد في الوقود ثم اشتركت في ذلك تسندها الحكومة الفرنسية فأنشئت فيها هيئة سميت L'office centrale de chauffe rationelle كان من اجراءاتها : —

(١) انشاء مدرسة لتعليم المهندسين ورؤساء العمال وتدريبهم على خير وسائل استعمال الوقود

(٢) جمع المعلومات وإجراء البحوث لتكون هيئة على علم بكل تقدم في هذا الشأن في الخارج والداخل

(٣) إقامة معمل خاص لدراسة مختلف انواع الوقود وتحليلها والوقوف على خواصها

(٤) زيارة مختلف المصانع ونقد إجراءاتها وبذل النصح الفني لها

(٥) إقامة قسم للبحوث الصناعية لاجراء الاقتصاد في استعمال الوقود

وقد قامت هذه الهيئة بخدمات قيمة لمختلف الصناعات أدت في بعضها إلى اقتصاد من ١٠ إلى ٢٥ في المائة مما كانت تستهلكه من الوقود .

اما في المانيا فقد قضت معاهدة فرساي عقب الحرب العالمية الماضية باقتطاع منطقة السار الغنية منها مدى ١٥ سنة ، كما انتقلت الى بولونيا ملكية منطقة سيليزيا العليا ، كما انها تعهدت بموجب شروط هذه المعاهدة نفسها بتوريد مقادير كبيرة من الفحم إلى دول الحلفاء تعويضاً من تعويضات الحرب . كل ذلك جعل ما بقي لها من الفحم اقل من حاجتها لصناعاتها المختلفة فاقتضى منها محافظة على صناعاتها بذل جهود خاصة للاقتصاد في الوقود وتنظيم عملية توزيع القوى . وتكاتفت في ذلك الحكومة الالمانية والهيئات الصناعية فقامت الاولى بالاشراف الدقيق على انتاج الفحم وبتسعيره، كما انشئت هيئة حكومية استشارية تمثل جميع المرافق التي يهمها أمر الوقود لتبادل الرأي ووضع التوزيع تحت اشراف هيئة سميت State coal commision وكانت النتيجة اقتصاداً محسوساً في الاستهلاك للوقود اللازم للنقل والصناعة وهو ما يبلغ ٨٥ في المائة من مجموع الاستهلاك .

واهتمت المانيا بوجه خاص باختراع آلات قياس الحرارة ورصدها في مختلف أجزاء المصانع لحساب تكاليف الصناعة ونصيب الوقود فيها كما اجريت بحوث عديدة في الاستفادة من الفحم المطحون والغازات والابخرة المرتفعة الحرارة وتوليد الغاز المضغوط ونقله مسافات

بعيدة . وربما كان من أهم ما انتهت اليه المانيا في شأن تدبير القوى لصناعاتها ان اقامت شبكة كهربائية شملت البلاد جميعاً من الشمال للجنوب تغذيها مولدات على أساس الوقود في الشمال ومولدات من مساقط المياه في الجنوب ، فكان لذلك أثره المحسوس في انماء الصناعات الالمانية رغم نقص الوقود كما قدمنا

وهكذا كان الحال في سائر البلاد الصناعية كروسيا وهولندا وبلجيكا والسويد برغم انها جميعاً من البلاد التي لا تفتقر لمواد الوقود ووسائل توليد القوى .

الوقود في مصر

والآن لنلق نظرة سريعة على الحال في مصر وموارد الوقود التي في متناول أيدينا

اولاً — المواد النباتية — لم تسعدنا الطبيعة بغابات ولا يساعد الجو والمناخ عندنا على انمائها صناعياً الى الحد الذي يمكننا معهُ الاعتماد على الخشب كمادة من مواد الوقود . ومن دواعي الاسف اننا رغم خلو بلادنا من الغابات فان ظروف كل حرب تعصف بنا تضطرنا الى تقطيع القليل مما عندنا من أشجار فلا نعمل جدياً في انمائها حتى كادت البلاد تقفر من الاشجار وكان الاولى بنا ان نتبع نظاماً يقضي بان يلزم كل من يقطع شجرة ان يزرع بدلاً منها خمساً مثلاً ، وهذا على كل حال ليس موضوع بحثنا اليوم. ومهما يكن عندنا من الاشجار فهناك وسائل أخرى للافادة منها غير حرقها

أما المواد النباتية التي نعنيها فهي حطب القطن وعيدان الذرة وقوالحه وقش الأرز والتبن وغيرها وكلها من المواد التي نعمد في أكثر الاحيان الى حرقها

ولا جدال في ان مقادير هذه المخلفات الزراعية التي تنتجها البلاد سنوياً لا يستهان بها فاذا قدرنا اننا في الأوقات العادية نزرع نحو مليون فدان ونصف مليون من القطن تنتج من حطب القطن نحو مليون طن ونصف مليون من الحطب (وهو أقل في الوقت الحاضر بسبب تحديد الزراعة الى ٧٠٠ الف فدان ومثلها أطنان من الحطب) فان هذه المقادير على فرض حرقها حرقاً صحيحاً في أفران فنية يمكن أن تقوم مقام ٤٠٠ الف طن من الفحم أو ٣٠٠ الف طن من المازوت . أي ان حريق حطب القطن يوفر علينا من مواد الحريق ما قيمته في الأوقات العادية حوالي ٦٠٠ الف جنيه من الوقود .

على ان هذا الحطب نفسه لو عولج في جهازات التقطير لأمكن أن ينتج الطن الواحد منه :

٣٠٠ كيلو جرام من الفحم النباتي (الفحم البلدي)
٥٠ « « القطران
٤٠ « « حامض الخليك
١٠ « « الكحول

فيمكننا بهذه الطريقة الانتفاع بثلث الكمية تقريباً وقوداً أصلح كثيراً من الحطب وفي الوقت نفسه الحصول على مواد أخرى هي القطران والحامض الخليك والكحول وهي مواد لها قيمتها في الكثير من الصناعات ولها فوق ذلك قيمة نقدية أضعاف أضعاف ما نفيده من حريق الحطب .

ولا شك انهُ من المتعذر تطبيق مثل هذه العملية على كل الحطب الناتج من زراعات القطن عندنا لتوزيعها في مساحات صغيرة على مناطق متباعدة تتطلب عمليات لنقل الحطب تودي بالفائدة المنتظرة منها ، على اننا لا نرى ما يحول دون قيام كبار الزراع والحكومة والشركات بإجراء شيء من هذا في زراعات القطن الواسعة جنياً للربح وخدمة للصناعة المصرية وتدعيماً للاقتصاد القومي .

أما فيما يختص بالمخلفات النباتية الأخرى كعيدان الذرة والقوالح والتبن فقد أرسل لي صديقي الدكتور عبد الرحمن بك الساوي عميد كلية الهندسة بحثاً فنيًّا في امكان الاستفادة منها في صناعة خشب صناعي يسمى mazoline نجحت تجارب صناعته في أمريكا وغيرها بتكاليف أقل من تكاليف الخشب العادي حيث لا توجد الغابات ، ولا شك ان هذه مسألة خليقة بالعناية خصوصاً ونحن نستورد من الخشب الخام والمصنوع سنويًّا في الظروف العادية ما لا تقل قيمته عن مليونين من الجنيهات حبذا الحال لو امكننا توفير جزء منها بصناعة هذا الخشب الصناعي . وقد ذكر الدكتور الساوي بك ان هذه الصناعة بسيطة في وسائلها ولا تحتاج هذه المواد النباتية إلاّ إلى نسبة قليلة من القلفونية (نوع من الصمغ) وكبريتات الألومنيوم وهي مواد رخيصة الثمن يسهل الحصول عليها .

وأما قش الأرز فقد وفقوا الى الاستفادة منهُ في صناعة الورق ، ونرجو أن يتسع نطاق هذه الصناعة فنفيد منهُ أضعاف الفائدة التي ننالها من حرقه وقوداً .

وأما الكسب وهو المادة المتخلفة من عصر بذرة القطن فهي أيضاً من المواد التي تستعمل الآن للحريق بديلاً من الفحم . وفي استعمالها وقوداً ضياع لمادة من أهم المواد

الصالحة لتغذية المواشي ، وخير لنا ولاقتصادنا الزراعي استعمالها لهذا الغرض الهام بدلاً من حرقها .

وهناك روث الماشية نفقد بحرقه ما نحن في أشد حاجة اليه في تسميد الزراعات

من كل ما تقدم ترون حضراتكم ان هذه المخلفات الزراعية جميعاً وان كانت تسد جزءاً من حاجتنا من الوقود إلاَّ أن لها من الاحتمالات الصناعية الأخرى ما يستحق العناية لنستفيد منها أضعاف ما نفيده منها كمادة من مواد الوقود

• • •

ثانياً — الفحم الحجري — برغم افتقار البلاد افتقاراً كلياً للفحم الحجري وبرغم ان البحوث الجيولوجية قد دلت على ان لا أمل لنا في العثور على أية كميات من الفحم ، برغم ذلك اعتمدت صناعاتنا ومرافقنا العامة وحتى شئوننا المنزلية الى وقت قريب على الفحم حتى بلغ المستورد منهُ من الخارج قبيل الحرب الحالية نحو ١٫٥ مليون طن ونصف في كل عام قيمتها إذ ذاك حوالي مليونين من الجنيهات .

وبرغم ان البترول قد كشف في مصر منذ أواخر القرن الماضي وبلغ انتاجه حدًّا كبيراً عقب الحرب الماضية مباشرة فقد بقي اعتماد صناعاتنا ومرافقنا العامة على الفحم، واستمر الحال سنين طويلة على أساس استيراد الفحم وتصدير جزء كبير من انتاجنا من البترول .

ولا شك ان لهذا التصرف من جانبنا أسباباً قد يكون منها رخص ثمن الفحم في الظروف العادية بالنسبة لسعر البترول ووجود آلات تحرق الفحم لم يكن من الممكن استهلاكها سريعاً واعتياد مهندسينا ورؤساء العمال في مصانعنا حرق الفحم دون غيره من المواد وغير ذلك من الأسباب ، على اننا لا نرى ان هذه الأسباب مهما تكن قوتها كافية لأن نترك الحبل على الغارب فلا نبحث الأمر لنصل الى قرار : هل تبقى بلادنا من بلاد استهلاك الفحم أو تتحول ولو تدريجيًّا الى حرق البترول .

وحتى مع استمرارنا في الاعتماد على الفحم المستورد لم نر لا من جانب الحكومة ولا من جانب الصناعات إلاَّ مجهودات فردية غرضها تحسين طريقة حرق الفحم وزيادة الاستفادة منه باحدى الوسائل التي نوهنا بها عند الاشارة الى ما تجريه البلاد الصناعية الكبرى في شأن الاقتصاد في الوقود .

فقليل من المصانع لجأت الى استعمال الفحم المطحون أو تراب الفحم وأقل منها تستعمل

قوالب الفحم المضغوط ، كما انه لم تفكر أية هيئة صناعية في علاج الفحم لاستنباط مواد النوشادر والقطران والغاز والاكتفاء بالكوك الناتج وقوداً . ولو اجريت هذه العملية ولو على جزء من الفحم المستورد لأفدنا منهُ فائدة كبيرة . وقد يكون هذا النقص راجعاً الى أن مستهلكي الفحم على العموم لا يبلغ استهلاك كل واحد منهم الحد الذي يسمح بهذا التقطير كما ان بعض المستهلكين كالسكك الحديدية مثلاً لا تستطيع الاكتفاء بالكوك بل هي في حاجة الى أن تحرق الفحم بكامل عناصره لتحصل على حرارة كاملة منهُ . على اننا ما زلنا نعتقد انه لو تولت الحكومة مثلاً أمر استيراد الفحم وعلاجه ولو اقتصر العلاج على بعضه، والافادة من محتوياته، ثم بيع الكوك لمن يكفيهم الكوك وقوداً ، لأفادت الصناعة في مصر كثيراً من هذه الناحية .

والآن وقد قضت حالة الحرب الحالية بنقص الوارد من الفحم الى أقل من النصف فقد اضطرب حال الصناعات التي كانت تعتمد عليهِ فلجأت الى حلول مؤقتة غير اقتصادية من حرق الحطب أو الكسب أو تحويل المراجل الى حرق المازوت ، وتحملت في ذلك متاعب ونفقات لا نعلم مصيرها عند ما تعود الظروف سيرتها الأولى بعد نهاية الحرب .

• • •

ثالثاً — البترول — أما البترول فلا جدال في انهُ الوقود الطبيعي لهذه البلاد والذي يجب أن نبني على أساسه «سياستنا الوقودية» حالاً ومستقبلاً . ذلك ان الكشف عن البترول يرجع الى أواخر القرن الماضي ثم توالى اكتشاف حقول جمسا ثم الغردقة قبل الحرب العالمية الماضية ثم حقل غارب على الشاطئ الغربي لخليج السويس قبل الحرب الحالية . وقد كان لاكتشاف هذين الحقلين الأخيرين قيمة في تجنيب هذه البلاد شر مجاعة الوقود في ظروف الحرب الماضية ثم الحرب الحالية . وأظننا نلمس جميعاً ان الحرمان وزيادة السعر لم يبلغا في شأن البترول ومنتجاته ما بلغه الحال في سائر السلع والمواد الأخرى ، وما ذلك إلاّ لأن الجزء الأكبر من إستهلاكنا من المواد البترولية ناتج في البلاد، ولسنا بحاجة إلاّ لاستيراد بعض الأصناف مما لا ننتج القدر الكافي منه

وهذه مقارنة بسيطة بين ما كان عليه الحال من الانتاج والاستهلاك عام ١٩٣٨ وما صار اليه عام ١٩٤٢ والأثر الذي جنيناه من اكتشاف حقل رأس غارب .

فمجموع الناتج من الخام عام ١٩٣٨ كان ٢٢٣٦٢١ طناً وفي عام ١٩٤٢ بلغ ١١١٦٥٧٦ طناً ، وقد تولت معامل التكرير بالسويس تقطير هذه الخامات وتكرير منتجاتها فكان إنتاجها : —

	١٩٣٨	١٩٤٢
	طن	طن
بنزين	٩٥١٥١	١٦٤١٨٦
كيروسين	١٧٦٣٦	٥٧٩٣٥
سولار وديزل	٣٦٠١٧	٥٨٣٢٧
مازوت للحريق	١٣١٧١٦	٥٧٢٥٢٩
أسفلت	١٣٧١٧٦	١٤٨٣٦٦
	٤١٧٦٩٦	١٠٠١٣٤٣

ويلاحظ أن مجموع الناتج من معامل التكرير عام ١٩٣٨ يزيد كثيراً عن انتاج الخام من الحقول المصرية . وهذه الزيادة ناتجة من خامات أجنبية استورد أغلبها من إيران والخليج الفارسي وعولج في المعامل المحلية

أما الاستهلاك المحلي في هاتين السنتين فكان كما يأتي ، ولا يدخل فيه استهلاك القوات المحاربة والكميات المصدرة مما زاد عن حاجة الاستهلاك المحلي :

	١٩٣٨	١٩٤٢
	طن	طن
بنزين	٩٦٢٢٥	١٠٥٥١٠
كيروسين	٣١٤٧٣٤	٢٧١٩٢٧
سولار وديزل	٢١٥١٣٤	٢١٩٢٦٨
مازوت للحريق	٥٧٣٤٩	٥٣٥٤٢٢
أسفلت	٢٩٢١٨	١١٧٨٢
المجموع	٧١٢٦٦٠	١١٤٣٩٠٩

ويتضح من هذه الأرقام أنهُ في عام ١٩٣٨ كان الناتج محليًّا في مجموعه نصف المستهلك وقد كمل الفرق بالاستيراد خصوصاً في مادة الكيروسين حيث لم تنتج سوى جزء قليل من حاجتنا ، وكذلك في مادتي الديزل والسولار حيث لم يزد الناتج محليًّا عن ١/٦ المستهلك . أما في البنزين فقد تعادل الناتج والمستهلك ، وفي المازوت والأسفلت كان الناتج أضعاف المستهلك فصدرت مقادير كبيرة منهما، والعجيب أنهُ بينما كانت البلاد تستورد مقادير كبيرة من الفحم كانت تصدر للخارج كميات لا يستهان بها من المازوت ، ولو أحكمنا سياسة البلاد الوقودية لاحتفظت بها وأفادت منها

أما في عام ١٩٤٢ فقد زاد انتاج البنزين عن الاستهلاك وهذه الزيادة قد «امتصتها» طبعاً الجيوش المحاربة ، وفي الكيروسين ما زال انتاجنا أقل كثيراً من استهلاكنا، فاضطرنا الحال

الى استيراد مقادير كبيرة منهُ ، وقد سهلت الدولة الحليفة هذا العمل برغم حاجتها الملحة إلى بواخر نقل البترول ، فكانت خدمة تذكر بالشكر إذ حفظت للمستهلك المصري وهو عامة الشعب نسبة تقرب جداً من الاستهلاك الطبيعي الكامل ، فلم يطلب الى الجمهور المصري سوى اقتصاد بسيط ، وقد كان لتحديد الاضاءة والعمل بالتوقيت الصيفي أثرهما الحميد في تحقيق هذا التخفيض البسيط

أما السولار والديزل فلم يزد رقم الاستهلاك فيهما عام ١٩٤٢ إلاَّ قليلاً ، وذلك بسبب انقطاع ورود ماكينات الديزل من الخارج . وعلى العموم ما زال انتاجنا منها أقل كثيراً من المستهلك . وزيادة الانتاج تقتضي اضافات وتعديلات في جهازات المعامل ليس البحث الحالي موضع الكلام فيها .

وأما المازوت فقد بلغ المستهلك منهُ عام ١٩٤٢ عشرة امثال المستهلك عام ١٩٣٨ فأصبحنا الآن نستهلك كل الناتج المحلي منهُ ، ولو كان في مقدورنا انتاج مقادير أكبر وكانت وسائل النقل أكثر كفاية مما هي الآن لزاد الاستهلاك كثيراً .

وقد كان السبب المباشر لهذه الزيادة التحويل الذى لجأت اليه السكك الحديدية والصناعات الكبرى في قاطراتها ومراجلها فجعلتها تحرق المازوت بدلاً من الفحم .

وقد استهلكت السكك الحديدية	١٦٠٠٠٠	طن مازوت عام ١٩٤٢
وعمليات المياه والانارة	١٢٠٠٠٠	»
وصناعة الاسمنت	٦٤٠٠٠	»
وصناعة الغزل والنسج	٤٥٠٠٠	»
ومصانع السكر	٤٣٠٠٠	»
ومصانع الزيوت والصابون	٢٢٠٠٠	»
وطلمبات الري والصرف	١٠٠٠٠	»
والحليج	٥٠٠٠	»
والطحن	٥٠٠٠	»
وصناعة الخزف والفخار	٤٠٠٠	»
وصناعة الزجاج	٣٠٠٠	»

فما تقدم ترون مقدار اعتماد المرافق الصناعية على وقود البترول الآن ، وربما استمر هذا الاعتماد بعد زوال حالة الحرب ، وهذا طبيعي خصوصاً وان مصر الى جانب أنها من البلاد التي تنتج البترول هي من الناحية الجغرافية وسط بقعة بترولية هامة ، فإنتاج العراق الهائل من البترول متصل بالبحر المتوسط بخط من الانابيب يصل حقولها بمعامل هامة في حيفا ، ولن يتعذر على مصر استكمال حاجتها منها ، كذلك انتاج الخليج الفارسي وايران يصل

الى مصر بالبواخر الناقلة للبترول . وها نحن أولاء نشهد المناقشة في مشروع اميركي ضخم لايصال هذا البترول من خليج ايران الى البحر المتوسط بخط من الانابيب يزيد في سهولة حصولنا على حاجتنا منهُ، على اننا لاستكمال الفائدة من هذا الوضع الجغرافي يجب علينا (وهنا أقصد الحكومة بوجه خاص) ان نعمل من جانبنا على تسهيل عمليات تقطير وتكرير الخامات البترولية سواء منها الناتج محلياً أو المستورد من الخارج ثمّ على تسهيل نقل المواد وتوزيعها داخل البلاد وذلك بتسهيل مدّ الانابيب لتتصل مناطق الانتاج والموانى بداخل البلاد. ولو اتبعت هذه السياسة في الماضي لجنبت البلاد بعض ما تعانيهِ الآن من صعوبة الحصول على بعض حاجتها من المواد البترولية .

◆ ◆ ◆

الكهرباء — إلى هنا ينتهي بنا الكلام في الوقود . على أن الجزء الأكبر منهُ لا يطلب لذاته بل لكونه وسيلة لتوليد القوى ، ولهذا فمشكلة الوقود يجب أن تعالج جنباً لجنب مع مشكلة توليد القوى وتوزيعها . والنظام الذي تسير عليه الآن هو أن تنفرد كل صناعة بتوليد القوى اللازمة لمحركاتها بوسائلها الخاصة، على أن البحوث والتجارب قد هدت الأمم الصناعية الكبرى إلى ضرورة التوحيد بقدر المستطاع . وقد رأينا أنهُ في المانيا أنشئت شبكة كهربائية انتشرت في أوربا الوسطى من الشمال إلى الجنوب وهذه الشبكة تغذي جميع المصانع والمرافق العامة والخاصة بحاجتها من تيار كهربائي رخيص ، وبذلك أمكنها أن تنهض بصناعاتها من كبوتها عقب الحرب الماضية. كذلك الحالة في الولايات المتحدة الأميركية وفي انكلترة. ولا يبدر إلى الذهن أن أمثال هذه الشبكات الكهربائية لا تقوم إلاّ على التوليد من مساقط المياه بل في جميع هذه البلاد كان نصيب مساقط المياه في عمليات توليد الكهرباء أقل كثيراً من نصيب المحطات التي تولد القوى بالوقود . ففي الولايات المتحدة مثلاً لا تزيد نسبة الكهرباء المولدة من مساقط المياه عن خمسة في المائة أو عشرة من المجموع ، لذلك لا نرى ما يدعو إلى الاعتقاد بأننا لا نستطيع اتباع مثل هذه الخطة لعدم كفاية مساقط المياه عندنا .

وقد نجحت فعلا هذه الفكرة، فكرة توليد الكهرباء بمحطات تدار بالفحم أو المازوت في الشبكة الكهربائية التى أقامتها الحكومة في شمال الدلتا لادارة محطات الصرف التي كان لها أكبر الأثر في احياء مناطق زراعية شاسعة .

لذلك ندعو إلى بحث هذا الموضوع فيما يختص بجميع أنحاء القطر المصري على أساس الاستفادة الكاملة من جميع مساقط المياه سواء منها المساقط الصناعية كخزان اسوان وقناطر

اسنا ونجع حمادي وأسيوط والمساقط الطبيعية في الفيوم وحتى مشروع منخفض القطارة ثم ربط هذه بمحطات للوقود تقام في المواقع التي توافق طلبات الاستهلاك وبدون أن نغفل أية محطات خاصة لتوليد الكهرباء قائمة في الوقت الحالي لخدمة مختلف المصانع الموزعة في القطر كله . فاذا أمكن ربط هذه المحطات جميعاً في شبكة واحدة تحمل الكهرباء اللازمة لكفاية صناعاتنا ووسائل نقلنا وحتى للطلبات المنزلية، على أن تكون إدارتها والتوزيع فيها تحت رقابة مشتركة واحدة، فلا شك أن يكون في ذلك خير وسيلة نلجأ اليها لحسن توزيع القوى الرخيصة لمصلحة جميع الصناعات .

الخلاصة والمقترحات : والآن وقد لمسنا مواطن الضعف نرى ان العلاج يجب أن يكون ذا شقين : علاج الحال كما هو الآن اي الاقتصاد فيما نستعمله من وقود واتباع خير الوسائل لاستعماله استعمالاً اقتصادياً كاملاً . والشق الثاني وضع سياسة مستقبلة لتوحيد توليد القوى وتوزيعها .

وهذا يتطلب ان تدعو الحكومة هيئة فنية تمثل فيها جميع الهيئات حكومية وأهلية لاجراء بحوث فنية مستفيضة ولتتقدم للحكومة باقتراحاتها . على ان يكون من أخص الموضوعات التي تتناولها بالبحث :

(١) خير وسيلة للتصرف في مخلفات الزراعة حتى لا تفوتنا فوائد أهم من مجرد الحريق

(٢) البت في سياسة استعمال الفحم الحجري ، هل يجب الاستمرار فيها ، ولأي مدى نستعمله، وهل يعالج قبل استعماله واستنباط المواد الكيمائية التي يحتويها قبل حريقه

(٣) البترول واحتمالات وجود مقادير أخرى منهُ ووسائل تشجيع البحث عنهُ وانتاجه وتكريره ثم توزيعه

(٤) مسألة اقامة شبكة كهربائية عامة لتوزيع القوى .

(٥) مدى ما يمكن الزراع الاستفادة به من نشر الكهرباء في مختلف النواحي

ونرى أن تقيم هذه الهيئة أو تقيم الحكومة نفسها ادارة فنية خاصة للقيام بالبحوث الفنية المتعلقة بالوقود وزيارة المصانع وتقديم النصح والارشاد لمن هم في حاجة اليه وتنظيم العمال والمهندسين وتدريبهم على خير وسائل الاستفادة من الوقود .

وغاية ما أرجو أن يلقى هذا النداء آذاناً صاغية فيعمل معالي وزير التجارة والصناعة على تحقيق أمل يجيش في صدور رجال الصناعة والزراعة . والله ولي التوفيق .

الرؤساء الثلاثة

— ١ —

وشنطن : محرر أميركة

للدكتور نجيب الأرمنازي

يتحلى ذلك العقد النظيم من رؤساء الولايات المتحدة بثلاثة رجال تفخر بهم الانسانية كلها لا الولايات المتحدة وحدها : وشنطن الذي يقترن اسمه بتحرير الولايات المتحدة وانشاء هذه الأمة الكبيرة . ولنكان الذي صان بلاده من خطر الانحلال والتفكك ، ومحا من جبينها وصمة العار التي ألصقها بها استعباد الانسان لأخيه الانسان . وولسن الذي سعى جاهداً لتكون سياسة الامم والشعوب قائمة على أساس أسمى من سلطان القوة والجبرية ، وأقدس من مصلحة الدولة وأرفع من اتخاذ الشعوب بعضها لبعض خدماً وعبيداً . هؤلاء الثلاثة الذين نشأوا في العالم الجديد بعيدين عن مزالق السياسة الأوربية ومنافسات الدول القديمة كانوا يريدون أن يعلوا شأن البشرية ويجلّوا كرامة الانسان .

كان وشنطن قائد الجيش الجمهوري في حرب التحرير وقد أجمع قومه على توليته هذه المهمة لأنهم وجدوا فيهِ الصفات التي يحتاجون اليها في قيادة حربهم ، فقد كان جنديًّا باسلاً يفوق نظراءه في الولايات المتحدة بكفايته العسكرية . وهو موضع إعجاب القوم بأخلاقه ومميزاتهِ ، وبعد أن أطفئت نار الحرب ألقى اليه بنو قومه مقاليد الرئاسة ، فقام أحسن قيام بأعباء العمل السلمي الخطير . واذا لم يكن بعد من قادة التاريخ العظام ، ولا في الرعيل الاول من رجال الدولة وأقطاب السياسة ، ولا من كبار الخطباء الذين يستهوون النفوس بسحر بيانهم ، أو يستدعون الأبصار ببهاء طلعتهم ، فان لعظمتهِ سرًّا يستقر في أشرف عاطفة ينطوي عليها قلب الانسان ، وهي احترام السمو الأخلاقي . وقد كان أول مجده وآخره انه وطني كبير ، جعلته الحرب والسياسة مؤسس دولة عظيمة ، فكان يزداد عظمة كلما ازدادت عظمة الأمة التي ترعرع فيها وشاطر في إقامة بنيانها ، وبذل في سبيل ذلك كل ما عرف بهِ من صبر وصدق ووطنية وإخلاص . وقد ظلَّ كتّاب التاريخ من مواطنيه

نحو مائة سنة يصفون مواقف بطولته ، ويغالون فيها ، غير ان القرن العشرين وما نشر فيه من فصول تاريخية نقادة ، عرى هيكل وشنطن من تلك الأساطير التي أحيط بها اسمه ، ونزع عنه ما خلع عليه عباد البطولة من الصفات التي تفوت ذرع الرجال . ولكنه لم يخسر شيئاً بالعودة الى الطبقة الانسانية ، بل زاد الاعجاب بهِ رجلاً قلما يتأثر بعوامل الضعف التي تصيب الناس عامة ، ووطنيًّا تتقد في جوانحه جذوة الحماسة القومية والايمان القدسي بمستقبل بلاده ، ورئيساً بلغ ذروة المعالي وأسس لأمته تقاليد الدولة الناشئة وخلف لمعاصريه ومن جاء بعده مثلاً أعلى للمروءة وعنواناً للديمقراطية ومثالاً للشخصية الحرة . واذا لم تكن صفات وشنطن من تلك الصفات التي تضيء حيناً حتى يخطف بريقها الأبصار ، ولا يدع أصحابها وراءهم في الغالب إلا معالم دارسة وأطلالاً بالية ، فان البنيان الذي أسسه لا يبرح ثابت الأركان

وقد لبث ثماني سنين في أثناء الحرب مسيطراً على السلطة المدنيــة من دون أن يجعل لنفسهِ من المزايا والحقوق ما لا تتقبلهُ الشرائع والقوانين ، فلهُ الفضل كلهُ في أن أميركة لم تحكم حكماً استبداديًّا . وله الفضل كله في انه قاتل بأيسر ما يكون من رغد مادي وعون أدبي خصماً قوي الشكيمة كثير العدة حتى نهكه وأعياه ، وقد اصبحت بلاده مدينة له بوجودها ولكنه لم يكن يمن عليها ، ولم يركب من الغرور بما احرزه من النصر المؤزر في حروبها ، ولم يشأ أن يعجل بالوقت الذي يتولى فيه التبعات العظمى حتى انقادت له الامور وأجمع مواطنوه على أن يكلوا اليهِ قيادة الجمهورية في خطواتها الاولى ، فأجاب الى تحمل هذه المهمة في السلم كما تحمل مهمات الحرب ، وحقق بعمله ما كان يظن الفلاسفة المجددون انهُ يتعذر في بلاد عظيمة ، وهو انشاء الحكم الجمهوري ، فأصبح الشعب يحكم نفسه بما يسمونهُ سلطان الأمة ، ولكن الصفوة المختارة هي التي تحكمه بحزم وقوة . وقد استولى وشنطن على الحكم والسيادة واستعان على أعنة سائر الأمور بأولي القدرة والكفاية ، وابقى للحكومات الشعبية القــادمة تقاليد السيد الرئيس الذي يطبق في حكم الجمهورية قول منتسكيو : « إن الفضيلة هي قوة الحكم الجمهوري »

* * *

وكان وشنطن في جميع أعماله شريف الغاية ، بعيد النظر ، عظيم الجرأة ، نافذ الكلمة ، ظاهر الوقار ، صادق الحس ، كأنهُ ينظر بلحظ الغيب ، شديد النضال في سبيل ما يعتقد انهُ حق ، متجافياً عن كل بواعث الأثرة ، لم يعرف انهُ ارتــكب خطأ كبيراً في ادوار

الحرب أو في سياسة الدولة . وكان في رئاسته لا ترقى اليه مطامع الاحزاب ومطامح الزعماء كالصخرة العظيمة التي تزل عنها الاهواء . وكان أميل الى مناهج المحافظين ، ولكن بأسمى ما في هذه الكلمة من معنى لاجل المحافظة على الجمهورية الجديدة وحمايتها ، وكأنهُ خلق كما أريد أن يكون للعمل الذي قدر له القيام بهِ ، فلو كان أكثر عبقرية لأمكن ان يسرف في سلطته ولو كان اكثر ضعفاً لما استطاع النجاح في مهمته ، ولوكانت له براعة نابليون وأطماعه لانشأ حكماً عسكريًّا أو سلطة مستبدة، ولوكانت مواهبه ضئيلة لكان يشك في أن تنال الولايات المتحدة استقلالها ، لقد كان الرجل الذي يتطلبه الزمن ، وقد أدى للانسانية أجل الخدمات فقدرت له صنيعه جميع العصور وجميع الشعوب ، حتى قال فيه المؤرخ الانكليزي غرين : لا يوجد رجل أكثر منه نبلاً بين الذين كان لهم مثل مواقفه في حياة وطنية ، وإذا كان مظهره الخارجي لا يدل على ما تنطوي عليه جوانحه من عظمة نفس ، فانهُ وراء قناعه ناصية من نواصي التاريخ القديم ذات العظمة السمحة التي هي فوق الأهواء الثائرة والعواطف المتأججة . وكان الرجال يتوجهون اليه بقلوبهم ويمجدونه تمجيداً لم تذهب ذكراه، وسيبقى عزيزاً في عيون الذين يحبون حقوق الانسان ويقدسون حرياته .

***

وقد عقد النية على التخلي عن الرئاسة لما انتهت مدته الثانية ، ولم يكن ذلك رغبة منهُ في إحداث تقليد متبع (أي ان لا يجدد الرئيس مرة ثانية) ، ولكنهُ أصابهُ السأم من الحياة السياسية ومعالجة الشؤون العامة ، وهو يريد أن يقضي مراحل حياته الأخيرة في الرياض والخمائل والغابات، غير أن هنالك على ما يظهر سبباً آخر، وهو حملات الصحف المعارضة التي ضاق بها ذرعه ، وكان يشكو مرّ الشكوى من قلة الاخلاص للخير العام ، ومن تخلف المواطنين عن الطاعة ورقابة النظام ومن استشراء المطامع وتناسي الآلام التي قاساها رجال في سبيل الوطن من الذين لم يكونوا يجدون قوتاً يكفيهم ولا كساءً يسترهم . ولو أراد أن ينتخب مرة ثالثة لكان له ذلك ولكن ليس باجماع المرتين السالفتين ، وقد أدركته المنية بعد ثلاث سنوات من تخليه ، وكان في مرضه الذي مات به كما كان في حياته كلها جلداً صبوراً لا يتململ ولا يتشكى ، برغم ما يعانيه من البرحاء ، وقد انقضت مائة وأربعون سنة ونيف على وفاته ولم ينل أميركي ما ناله من حب الأمة واجلالها ، على أن منزلته في بلاده قد أصابها ما يصيب عادة جميع رجال السياسة من الانصراف عنهم قليلاً أو كثيراً ، ولكنهُ ما زال يجري لمستقرٍّ له في ضوءٍ باهر لمعانه ، لا تستطيع الأيام أن تضعفه أو تخفف منه ، وقد

كان فيه جفاء وترفع وحدة تغلب أحياناً على أناته حتى لا يملك نفسه ، ولم يعرف عنه أنه ضحك ضحكاً عالياً أو أظهر سروراً وجذلاً إلاَّ مرات معدودات ، وإذا لم يكن يدّعي حب الجماهير ، فانه على ما فيه من حشمة وانقباض ، كان رقيق القلب كريم الهزة حفيّاً بالناس رءوفاً بهم وماسودّته أمته ولا أحبته لرقة جانبه ولطف حديثه،ولكن لما تميز به من الاخلاص لواجبه وغايته النبيلة المجردة التي جعلته فوق الأشباه والنظراء ، وقد تمثلت في نفسه حقوق الانسان التي سبقت الولايات المتحدة الثورة الفرنسية إلى إعلانها فأضافتها الى قواعد استقلالها ، وقررت ان الرجال مستقلون بطبيعتهم ، متمتعون بحقوق لا يستطيعون التنازل عنها ، والحكومات مؤسسة لضمان هذه الحقوق ، وسلطتها مستمدة من المحكومين .

ولم يقتصر عمل وشنطن على تحرير بلاده ، بل ان القواعد التي دعا اليها تجاوزت حدود الولايات المتحدة وتجاوبت بها أرجاء أميركة اللاتينية ، فنهضت تحل من عقالها وتنزع ربقة الأسر عن رقابها ، وفي خطبة الوداع التي ألقاها أكّد حياد بلاده وحماية نصف الكرة الأرضية من العدوان والاستعمار ، وقد نشأ الرؤساء من بعده على تقاليده في استنكار المحالفات الخطرة والدفاع عن استقلال الدول الاميركية ، الى أن وضعت نظرية مونرو الشهيرة التي كانت بياناً خاطبت بهِ الولايات المتحدة أوربة الحريصة على الاستعمار حتى لا تطمع في غير ما هي فيهِ من الأرجاء ، وحتى تعلم ان القارة الاميركية ليست أرض استعمار ، وكل محاولة من أوربة لبسط سلطانها فيها أو لقهر الدول اللاتينية التي أعلنت استقلالها تعده الولايات المتحدة خطراً على سلامتها وأمانها وعدواناً عليها، وكما ان الولايات المتحدة قررت عدم تدخل أوربة في شؤون أميركة ما عدا المناطق التي كانت أوربة يومئذٍ مسيطرة عليها ، كذلك لا تتدخل أميركة في شؤون أوربة . ولكن موقف أميركة — كما قال المستر هيوز سكرتير الدولة السابق ورئيس المجلس الأعلى — كان موقف استقلال لا موقف اعتزال، وهي لا تريد الاشتراك في المناضلات السياسية الأوربية ، ولكنها لا تأبى أن تجيب كل نداء إلى الواجب الذي تعتقد به ، من غير أن تكون مجبرة على ذلك أو داخلة في تحالف ، وهي لا تقف إلاَّ في صف الشعوب التي تضاهيها في مثلها العليا وفي غاياتها العامة التي ترمي الى تعزيز الروابط الاقتصادية والعلاقات التجارية وحماية المصالح المشتركة العادلة والمحافظة على السلام في العالم

استغلال المياه الجوفية

في مصر

ليوسف فارس

تسري المياه الجوفية في باطن الأراضي على مدى وادي النيل مختلفة أعماقها باختلاف الطبقات الجيولوجية التي تخترقها ، ثم تذهب سدى في البحر المتوسط بطريق مباشر أو غير مباشر ، إلاّ ما نرفعه منها أو نحجزه للاستفادة به .

ويبدو من الآبار المحتفرة المستغلة مياهها ان المياه الجوفية موفورة ، غير أنها تتأثر الى حدٍ ما في الزيادة والنقصان بفيضان النيل و « تحاريقه » . وكذلك دلت التجربة على ان هذه المياه صالحة للري والشرب إلاَّ في المناطق الشمالية من الدلتا .

ولا ينبغي لنا أن نهمل هذا الخزان الطبيعي العظيم ، فيفلت منا تحت أقدامنا ويمشي في غمار البحر ، على حين اننا نبذل الجهد كله في البحث عن كميات من المياه السطحية ، وفي أعمال التخزين البعيدة أو القريبة ، وما يتبع ذلك من تقوية القناطر وغيرها . ولا سيما اننا في شأن تلك المياه الجوفية مطلقي الأيدي أحرار التصرف ، لا سبيل علينا لأحد في الانتفاع بها ، كما هو الواقع في المياه السطحية التي تقطع في طريقها الينا بلاداً أجنبية ربما لا يكون لنا عليها سلطان .

ونحن نحمد لوزارة الأشغال المصرية ما تبذله من مجهود في « الواحات » لاستنباط المياه من أعماق سحيقة لري مساحات ضيقة قابلة للزراعة . وهي مياه ارتوازية ، بالمعنى العلمي الصحيح ، ولا توجد في القطر المصري — على ما نعلم — إلاَّ في « الواحات » . وهي غير المياه الجوفية التي نعقد لها هذا البحث — فمن باب أولى يجب على الحكومة أن تبذل مثل هذا المجهود بل أضعافه في أرض الوادي الخصبة لاحياء زروع قد يصيبها الظمأ في فترات من السنة .

ولا يمنع الانتفاع بهذه المياه خلوها من الغرين الغني بالمواد الغذائية للنبات، واحتمال احتوائها على قليل من أثر عناصر معدنية غير مرغوب فيها، لأننا لا ننادي باستعمال هذه المياه طوال السنة. ولكننا نقول باتخاذها لسقية النبات العليل في أوقات حرجة من حياته، وذلك في دور النبت أو النضج، وهما دوران إذا أدركهما عارض كالظمأ تأثر بسببه محصول الزرع تأثراً يضر بانتاجه، وكثيراً ما تقصر المياه السطحية في الوفاء بهذه السقيات الضرورية في الأوقات الحرجة

ونحن لم ننس بعد ما خسرته البلاد من محصول الأرز سنة ١٩٤٣ لقلة المختزن من المياه وتأخر الفيضان، وفيما يلي هذا جدول يوازن بين محصولي الارز سنة ١٩٤٢ وسنة ١٩٤٣

المديريات	الأرز					
	عام ١٩٤٢			عام ١٩٤٣		
	المساحة	متوسط محصول الفدان	المحصول	المساحة	متوسط محصول الفدان	المحصول
	ف	ض	ض	ف	ض	ض
البحيرة	٦٧٩٤٤	١٫٣٣	١٠٢٣٣٦	١٢٣٠٧٩	١٫٠٩	١٢٤٢٣٨
الغربية	١٧١٥٨٧	١٫٢٨	٢١٩٦٣١	٢٥١١٦٣	١٫٠٢	٢٥٥٤٦٨
الدقهلية	١٢١٦٣٩	١٫٤٣	١٧٣٩٤٤	١٦٢١٧٠	١٫٢٧	٢٠٦٣٧٦
الشرقية	٥١٣٧٠	١٫٦٣	٨٣٧٣٣	٧٩٨٣٣	١٫٢٠	٩٥٩٤١
	٤١٢٥٤٠	١٫٤٤	٥٧٩٦٤٤	٦١٦٢٤٤	١٫١٢	٦٩٢٠٢٣

ومن هذا الجدول يتضح لنا ان محصول الارز نقص بمقدار ثلث الضريبة للفدان الواحد فأصبح النقص في المساحة العامة نحواً من مائتي الف ضريبة، وقيمتها على وجه التقريب ثلاثة ملايين من الجنيهات، وفوق هذا الاحصاء عشرات آلاف من الفدادين بذرت أرزاً، ثم اهلك العطش نبتها، فحولت لزرع محصول آخر. وهذا كله غير ما أصاب محصولي القطن والذرة الشامية من جراء تأخر الفيضان وقلة المياه المختزنة، مما أدى الى نقص كبير في هذين المحصولين يعلمه اهل الزراعة على مضض. فلو كان هناك عامل مساعد للحصول على مياه تسعف النبات الظامئ لما ألمت بأهل البلاد تلك الخسارة البالغة.

المشروع

ليس موضوع المياه الجوفية حديث العهد بالبحث ، فقد طمحت الانظار الى دراسته في فترات شتى ، منها ما كان ايام الحملة الفرنسية ، اذ عنيت بدرسه إحدى بعثات نابليون الهندسية . ومنها ما قام به « اوديو بك » وغيره ممن الباحثين ذوي الاختصاص .

ولكن الموضوع لم يستوف بحثاً ودراسة بعد . ولعلّ خطره والرغبة في تنظيم استثماره يدعوان الى تأليف لجان من أهل الاختصاص يدرسون تلك المياه الجوفية في مختلف مناطق القطر ، وذلك ليتعرفوا نوعها وعمقها وكمها وسرعتها فيتخذوا كل هذا أساساً للسير بالمشروع الى غايته المأمولة .

ومن جملة ما يحسن بهذه اللجان أن تنظر فيه مراجعة الخط الذي رسمه المهندس ولْككس لما حاول الفحص عن الخط الذي يحدّ امتزاج المياه الجوفية العذبة بالمياه الجوفية المالحة ، مع العلم بأن خط ولككس يمر ببعض بلاد الدلتا ، وهو يكاد ينطبق على خط المنسوب المعروف في المصطلح الهندسي بـ (كنتور خمسة) .

ومن نتائج تنفيذ المشروع المبسط بعد هذا الكلام ، ينتظر أن يعدّل خط ولككس وفقاً لما يحدثهُ رفع المياه .

تنفيذ المشروع

نرى أن تكون القاعدة التي يجري عليها تنفيذ المشروع على النحو الآتي :

اولاً — إنشاء شبكة لمحطات طلمبات توضع قبلي كنتور — ٥ — او في الخط الذي تحدده اللجنة ، لتصب مياهها في ترع شمال الدلتا الواقعة شماليّ هذا الخط ، لكي تغذي المناطق القائمة في نهايتها ، وهي المناطق التي تعاني مصاعب جمة في الري ، وبخاصة أيام « التحاريق » ويتعذر حفر آبار فردية فيها .

ثانياً — إنشاء مثل هذه المحطات في المناطق الأخرى من القطر ، مما يدرسهُ الفنيون وتتبين لهم فيه قيمة العون على استكمال ري الاراضي الواقعة في النهايات .

ولا ريب أن الأفضل في ادارة هذه المحطات التعويل على القوة الكهربية المولدة من مشروعي أسوان ومنخفض القطارة ، إلاَّ أننا نرى ألاَّ يبقى تنفيذ مشروعنا معلقاً على تنفيذ

هذين المشروعين ، وإنما نبادر الى تنفيذه بالطريقة التي يجدها الفنيون ملائمة ، منتهجين النظام الذي تمّ به مشروع طلمبات الصرف بشمالي الدلتا.

وفي اعتقادنا انهُ اذا قدرت ضريبة ابتدائية قدرها عشرة قروش على الفدان الواحد ، فانهُ يمكن الحصول على نصف مليون جنيه سنويًّا تستغل في الانفاق على تنفيذ هذا المشروع النافع.

فوائد المشروع

قد يبدو أول وهلة ان المشروع عسير ، أو أن تنفيذه يكلفنا الثمن غاليا ، وذلك إذا لاحت لنا ألفتنا للحصول على المياه السطحية وخزنها ومعرفتنا تكاليفها بعد الخزن ، ووازنّا بين هذه الألفة والمعرفة وبين ما يتطلبه استخراج المياه الجوفية من خبرة جديدة ومن جهود ونفقات لانشاء المحطات وادارتها في الفترات السنوية . ولكننا على الرغم من ذلك سنجمل فوائد هذا المشروع التي تفوق ما ينفق فيه ، وتحفز على استغلاله .

أولاً — من وجهة الري :

ا — تمكين المزروعات من رية في الجفاف وأخرى أيام « التحاريق » ؟.

ب — التخفيف من شدة المناوبات الصيفية ، خصوصاً في نهايات الترع .

جـ — استنباط المياه من جوف الأرض يجففها كما هو الشأن في المصارف ، فيجود الزرع عامة والقطن خاصة ، إذ يساعد جفاف الأرض على تفتح اللوز تفتحاً مبكراً سليماً ، فيحسن محصول القطن وترفع رتبته .

د — وضع سياسة مائية ثابتة للمناطق الأكثر صلاحية لزراعة الأرز ، فيعد الفلاح أرضه في الوقت المناسب ، ويتخلص من حالة الاضطراب والقلق في انتظار أنباء النيل واحتمالاته التي تصدر على أساسها تصريحات وزارة الاشغال المصرية .

ثانياً — من وجهة الزراعة :

زيادة حرارة المياه في الشتاء على حرارة مياه الترع تمنح الأرض دفئاً ، وكذلك انخفاض حرارة هذه المياه في الصيف عن المياه الساخنة في الترع يلطف حرارة الارض . وفي كلتا الحالتين ينمو النبات نموًّا طبيعيًّا ، فيتوافر محصوله .

ثالثاً — من وجهة الصحة :

ا — المياه الجوفية صحية بطبيعتها لخلوها من الجراثيم والغرين وغيرها ، فاتخاذها للشرب أصح للانسان والحيوان .

ب — قيام المحطات ييسر على الحكومة تنفيذ مشروعاتها الخاصة بامداد المدن المجاورة لهذه المحطات بالمياه الجوفية .

وسيؤدي ذلك الى امتناع الفلاح من شرب المياه الراكدة بالترع والمصارف ومنعه ماشيته من ذلك ، وبخاصة في فترة الجفاف ببعض المناطق.

رابعاً — من الوجهة الاجتماعية :

ا — يساعد المشروع على تفريج أزمة التعطل للعمال الفنيين الذين سيخلون من أعمالهم الحالية عقب انقضاء الحرب الدولية الحاضرة .

ب — ييسر المشروع أعمالاً جديدة دائمة لخريجي المدارس الفنية والصناعية،ويفسح للجامعيين أفقاً للتوسع في ميدان جديد .

خامساً — من وجهة الاقتصاد :

ا — زيادة الانتاج التي تتبعها زيادة الدخل

ب — سلامة الماشية عموماً والأغنام والماعز خصوصاً ، فان كثيراً منها ينفق بسبب العطش في الصيف ولاسيما في مناطق شمالي الدلتا ، وستجد بفضل المياه الجوفية ما يدرأ عنها الهلاك بالعطش

ج — معروف ان الري الجوفي كان يكلف الأهلين قبل الحرب بين خمسة عشر قرشاً وخمسة وعشرين قرشاً للفدان الواحد في الرية الواحدة من الريات المساعدة في الصيف . ومن المفهوم ان هذا المشروع سيجعل تلك التكاليف اقل مما هي ، وبذلك تعم الفائدة الفلاحين سواء القادرون وغير القادرين على حفر آبار خاصة .

***

قال نوبار باشا : « إن المسألة المصرية هي المسألة المائية » .

ومما لا يتطرق اليه الريب ان استقلال البلاد يستند الى دعائمه الاقتصادية . وهذه الدعائم مرتبطة بمدى استقلالنا المائي . وحسبنا أن نستعيد في أذهاننا ذلك الشبح المخيف الذي هالنا يوم استولى بعض الدول على جزء من منابع النيل في الحبشة ، فان ذلك كفيل ان يدفعنا دفعاً الى تنفيذ هذا المشروع لنتمكن من الحصول على ما يعوزنا من مطالبنا المائية إذا ما قصر النيل لأي سبب من الاسباب عن الوفاء بهذه الطالب . وإذن نضع دعامة ركينة في أساس استقلال البلاد.

المآصر في بلاد الروم والاسلام

— ٤ —

لميخائيل عوّاد .

٢ — المآصر البحرية

اختصت بعض المدن الراكبة سواحل البحار بنوع من المآصر الضخمة ، تتخذ من سلاسل حديدية ، ويدخل في تركيبها أقفال محكمة الصنع ، توضع عند أطراف السلاسل تفتح وتغلق عند الحاجة . ولا يكون للقلوس أثر في هذا الصنف من المآصر ، لعدم قدرتها على الصمود أمام الشلنديات والشواني والبطس والرمات والحربيات والحراقات ونحوها من مراكب البحر الكبيرة ، ذلك فضلاً عن تأثير المياه المالحة فيها التي تذهب بمتانتها وتتلفها في مدة وجيزة .

وأشهر المدن الساحلية ذات المآصر أو السلاسل كما أسماها البلدانيون هي : باب الأبواب والمهدية ، وعكة ، وصور ، وبيروت ، ودمياط ، والاسكندرية ، والسويس ، فضلاً عن خليج القسطنطينية .

(ا) مأصر خليج القسطنطينية(١)

أمر هذا المأصر قديم بعيد العهد ، وأقدم الأخبار التي وقفنا عليها بشأنه ترتقي إلى صدر الاسلام ، إذ ورد ذكره في قصة معاوية بن أبي سفيان مع الرجل الصوري الذي أسر بطريق الروم من مدينة القسطنطينية . فقد روى المسعوديّ قائلاً : « وأخبرني بعض الروم ممن كان قد أسلم وحسن اسلامه ، ان الروم صورت عشرة أنفس في بعض كنائسها من أهل البأس والنجدة والمكايد في النصرانية والحيلة من المسلمين ، منهم الرجل الذي

(١) هو المعروف في زماننا بمضيق البوسفور

بعث به معاوية حين احتال على البطريق فأسره من القسطنطينية فأقاد منه بالضرب ورده إلى القسطنطينية ، ..... فأما خبر معاوية وما ذكرناه من خبر الرجل الذي أسر البطريق من مدينة القسطنطينية ، فهو ان المسلمين غزوا في أيام معاوية ، فأسر جماعة منهم فأوقفوا بين يدي الملك ، فتكلم بعض أسارى المسلمين ، فدنا منه بعض البطارقة ممن كان واقفاً بين يدي الملك فلطم حر وجهه فآلمه ، وكان رجلاً من قريش ، فصاح واإسلاماه أين أنتَ عنا يا معاوية إذ أهملتنا وضيعت ثغورنا وحكمت العدو في ديارنا ودمائنا وأعراضنا . فنمي الخبر الى معاوية فآلمه وامتنع من لذيذ الطعام والشراب ...ثم أجمل الأمر في إعمال الحيلة باقامة الفداء بين المسلمين والروم ... فلما دخل من البحر الى خليج القسطنطينية ..... أخذ الصوري خبر البطريق من أصحاب القوارب والمراكب ، فأخبر أن البطريق في ضيعته ، وذلك ان الخليج طوله نحو من ثلاثمائة ميل وخمسين ميلاً بين هذين البحرين وهما الرومي والنيطس . . . والعمائر على هذا الخليج من حافيه ، والمراكب تختلف والقوارب بأنواع المتاع والاقوات الى القسطنطينية ، ... وقال للصوري : سر معهُ حتى تأتي الخليج فتطرحه فيه ومن كان أسر معه ممن بادر فصعد المركب من غلمان البطريق وخاصته . . . فكانوا في اليوم الحادي عشر متعلقين ببلاد الروم ، وقربوا من فم الخليج ، وإذا به قد أحكم بالسلاسل والمنعة من الموكلين به ... » [1] .

وهذا أبو القاسم عبيد الله بن خُرداذْبَه (المتوفى في حدود سنة ٣٠٠ هـ) ، ذكر هذا المأصر حين وصفه خليج القسطنطينية ، قال [2] : « ويمر الخليج حتى يصب الى بحر الشام وعرضه عند مصبه أيضاً قدر غلوة سهم ، يكلم الرجلُ الرجلَ على شطيه ، وهناك صخرة عليها برج فيه سلسلة تمنع سفن المسلمين من دخول الخليج .... » [3]

وعلى ذكر الخليج نورد ما قاله في مكان آخر من كتابه : « .... ويسيل منها خليج عند قسطنطينية حتى يصب في بحر الروم ، وطوله من حيث ابتداؤه من مدينة قسطنطينية إلى حيث يصب مائتان وستون ميلا ، وفيه سفن ، وعرضه مختلف ، فاما عند القسطنطينية فقد (كذا ، والصواب : فقدره) ثلثة أميال ، وفي موضع آخر ستة أميال ، وفي موضع آخر ميل وأكثر وأقل ، ويكون عرضه عند مصبه مقدار غلوة ، وبذلك الموضع صخرة عليها برج مبني ، وفيه من قِبَل الروم مَنْ يفتش السُفُن » [4]

وتابع أبو اسحق ابرهيم بن محمد الفارسي الاصطخري (الذي نبغ سنة ٣٤٠ هـ) سلفهُ

(١) مروج الذهب (٨ : ٧٤ — ٨٧ ، طبع باريس) (٢) المسالك والممالك (ص ١٠٤ طبعة دي غويه في ليدن) (٣) الخليج ، انظر « الذيل » بعد هذا المقال (٤) المسالك والممالك (ص ٢٣١)

ابن خُرْدَاذْبَة في ذكر سلسلة خليج القسطنطينية . فقد قال في معرض كلامه على بحر الروم: «... ثم تنتهي الى شط الخليج ، وهو خليج مالح يعرف بخليج القسطنطينية ، وعليه سلسلة ممتدّة لا تعبر فيه سفن البحر ولا غيره إلاّ باذن ، مثل المأصر ، . . .(١)».

وجاء من بعده ، أبو القاسم محمد بن حوقل الرحالة البغدادي الموصلي (الذي نبغ في سنة ٣٦٧ هـ) فذكرها في مجرى وصفه خليج القسطنطينية . قال : « وعلى الخليج سلسلة ممتدّة لا تعبر عنها سفن البحر إلاّ باذن وعلامةٍ ، وعليها مرصد (٢)» .

وها هوذا يذكر المرصد أثناء كلامه على المأصر ، كما أسماه غيره البرج ، ومن الجليّ الواضح أن يكون المرصد من متممات أمور المأصر البحريّ ، فعنده ترتبط السلاسل بالأقفال ، وفيه يجلس صاحب القفل يرقب السفن القادمة والمبحرة ، ويقابله في المأصر النهريّ السفن الأربع كلّ اثنتين منها على شاطئ من النهر ، وعندها ترتبط قلوس المأصر ، وفيها يجلس المأصريون لمراقبة ذهاب السفن وإيابها ، للعمل على تفتيشها وأخذ العشور من اصحابها — ودونك ما ذكره على المرصد عند كلامه على اقليم فارس ، قال : « . . . وقلعة ابن عمارة تنسب الى الجلندي ابن كنعان ولا يقدر أحد أن يرتقي اليها بنفسه ، إلاّ أن يرقى به في شيء من البُجُر (المحامل) وهي مرصد كانت لآل عمارة على البحر يعرفون منها المراكب ، فاذا أقبلت خرجوا اليها وطالبوا أهلها بضرائبهم على ما لهم من المحمل فيها . . (٣)»

ونظير هذا ، ما ذكره عند كلامه على إرمينية وأذربيجان والرّان ، قال ان « الخونج مدينة ايضاً بها مرصد على ما يخرج من اذربيجان الى نواحي الري ولوازم على الرقيق والدوابّ وأسباب التجارات كلها من الأغنام والبقر ، ومقاطعة هذا المرصد دائماً مائة الف دينار وزائد الى الف الف درهم وناقص في السنة ، وليس له ولما يجتاز به شبه في جميع أقطار الارض (٤)» . وقال في غير موطن من كتابه (٥) : أعشار السفن .. والمراصد .

ولا يخفى ان منارة الاسكندرية الشهيرة ، هي خير مثال المراصد البحرية .

وممن دَرَجَ في سبيل هؤلاء القوم من الباحثين ، ابن الفقيه الهمذاني (أحد علماء اواخر المائة الثالثة للهجرة) الذي تطرّق الى ذكر المأصر الراكب على خليج القسطنطينية بقوله هذا : « ... ويمرّ خليج قسطنطينية حتى يصب الى بحر الشام وعرْض الخليج بأبدُس قدر غلوة ، واذا صار الى بحر الشام فعرضه عند مصبه ايضاً قدر غلوة . وهناك صخرة عظيمة عليها برج

(١) المسالك والممالك (ص ٦٩ — ٧٠ ، طبعة دي غويه في ليدن) (٢) صورة الارض (ص ٢٠٢) (٣) صورة الارض (ص ٢٧٢) ، وانظرها في معجم البلدان (٢ : ٧١١ ، مادة الديكدان) (٤) صورة الارض (ص ٣٥٣) (٥) صورة الارض : (انظر مثلا (ص ٣٠٢ ، ٣٠٣)

فيه سلسلة تمنع سفن المسلمين من دخول الخليج .... [١] »

والظاهر ان هذه السلسلة رفعت من خليج القسطنطينية وزال أثرها قبل المائة الثامنة للهجرة ، كما يستشف من كلام النويري (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ) الذي ذكر خبرها بقوله : « وأما خليج القسطنطينية ، ويسمى بحر نيطش فان فوهته مقابلة لجزيرة رودس ، وسعتها غلوة سهم . ويقال إنه كان بين الشطين سلسلة طرفاها في برجين تمنع المراكب من العبور الاّ باذن الموكل بها » [٢] .

(ب) مأصر باب الأبواب

اشتهرت باب الأبواب بمأصرها البحري الذي فاقت به ما سواها من المدن ذات المآصر، فما دوّنه الأصطخري في هذا السبيل قوله : « وأما باب الأبواب فانها مدينة على البحر وفي وسطها مرسى للسفن ، وبين هذا المرسى وبين البحر قد بني على حافتي البحر سدان حتى ضاق مدخل السفن وجعل المدخل ملتوياً ، وعلى هذا الفم سلسلة ممدودة لا يخرج المركب ولا يدخل إلاّ بأمر ، وهذان السدان من صخر ورصاص ، وباب الأبواب على بحر طبرستان .... [٣] » .

ولا نعدو وجه الصواب إذا ما قلنا إن ابن حوقل خير من دوّن خبر المآصر البحرية ، واذا شئت الايضاح عما نقول فانظر وصفه لها : « ومدينة باب الأبواب : مدينة على بحر الخزر ، في وسطها مرسى للسفن ، وفي هذا المرسى الخارج من البحر اليها بناء قد بني كالسد بين جبلين مطلين على ماء هذا المرسى الخارج ماؤه من بحر الخزر . وفي هذا السد باب مغلق على الماء قد استحكم من وصيده بعقد قد عقد على نفس الماء ، والماء من تحته ، وللسفن مدخل مقلوب من ناحية بابه ، وعلى فم المدخل الذي تدخل فيه السفن سلسلة ممدودة كالتي بصور وبيروت بالشام وعلى خليج القسطنطينية ، وعليها قفل لمن ينظر في أمر البحر ، فلا يخرج المركب ولا يدخل إلاّ بأمر صاحب القفل . والسد من صخر ورصاص [٤] » .

وممن تصدّى لذكرها أيضاً البشاري المقدسي القائل إن : « من العجائب : الباب وهو حصن على ما ذكرنا من صور وعكة بسلسلة قد بني من الصخر ؛ وجعل ملاطه الرصاص ... [٥] » .

ثم قال في صفة باب الأبواب إنها : « على بحر الخزر ، محصنة في الحائط الذي من قبل

(١) مختصر كتاب البلدان (ص ١٤٥ — ١٤٦ طبعة دي غويه في ليدن) . واذا أردت مزيداً فراجع (ص ٢٨٨ — ٢٩١) (٢) نهاية الارب (١ : ٢٢٦ ، طبع دار الكتب المصرية)
(٣) مسالك الممالك (ص ١٨٤) وللتوسع انظر الخراج لقدامة بن جعفر (ص ٢٥٩ — ٢٦١)
(٤) صورة الارض (ص ٣٣٩) (٥) احسن التقاسيم (ص ٣٨٠)

الخزر ، لها ثلاثة أبواب : باب الكبير ، وباب الصغير ، وباب آخر نحو البحر مسدود لا يفتح ، وعدة أبواب من قبل البحر وقبل الاسلام ، والحائط قد مد من الجبل الى وسط البحيرة عليه أبرجة .... [١] » .

ولم يفت الشريف الادريسي البلداني الشهير (المتوفى سنة ٥٦٠ هـ) وصف هذه المدينة وميناءها ذي السلسلة العجيبة بقوله إنها « مدينة عظيمة على بحر الخزر ، وفي وسطها مرسى للسفن ، وعلى فم هذا المرسى الخارج اليها بناءان كالسدين من جانبيه ، وهناك سلسلة تمنع الداخل والخارج ، إلاّ بأمر من صاحب البحر ، وهذان السدان من الصخر المحكم أفرغ بينه الرصاص ... [٢] » .

وفي المائة الثامنة للهجرة نقل لنا صفتها بلدانيّ آخر ، نعني به صفيّ الدين بن عبد الحق (المتوفى سنة ٧٣٩ هـ) ، ويلوح لنا انهُ أخذ هذا الوصف عن ياقوت [٣] : ذاك الذي استند الى وصف الاصطخري الآنف الذكر لسلسلة باب الأبواب . قال ابن عبد الحقّ : « وباب الابواب مدينة على البحر ، بحر طبرستان وهو بحر الخزر ، ربما أصاب البحر حائطها ، وفي وسطها مرمى السفن ، قد بني على حافتي البحر سُدَّيْن ، وجعل المدخل ملتوياً ، وعلى هذا الفم سلسلة ، فلا مخرج للسفينة ولا مدخل إلاّ بأمر ... » [٤]

وبعده بمدة يسيرة أشار اليها سراج الدين عمر بن الورديّ (المتوفى سنة ٧٤٩ هـ) بقوله : « أما الباب فبناها أنوشروان على بحر الخزر . . . . وبها مرسى الخزر وغيره ، وعليه سلسلة تمنع الداخل والخارج » [٥]

﴿ الذيل ﴾

لا شكّ انها تمنع سفن المسلمين من دخول الخليج خشية وقوع الغزو على هذه المدينة وأطرافها ، فقد ذكر قدامة بن جعفر الكاتب (المتوفى سنة ٣١٠ أو ٣٢٠ ، وقيل ٣٣٧ هـ) نظير ذلك في خراجه (ص ٢٥٥ ، وانظر ص ٢٥٩ ، طبعة دي غويه في ليدن) ما مؤداه : « ... ومقدار ما يغزو في الغزاة من مراكب الثغور الشاميّة ما يجتمع اليها من مراكب الشام ومصر من الثمانين الى المائة ، والغزاة إذا عزموا عليها في البحر كوتب أصحاب مصر والشام في العمل على ذلك والتأهُّب له . . . ويسمّى ما يجتمع منها الأسطول .... ،

(١) أحسن التقاسيم (ص٣٧٦) (٢) مختصر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (ص ٢٨٤)
(٣) معجم البلدان (١ : ٤٣٧) (٤) مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع (١ : ١١١ ، طبعة جوينبول في ليدن) (٥) خريدة العجائب وفريدة الغرائب (ص ٩١ طبع مطبعة شاهين بمصر سنة ١٢٨٠ هـ) أو (ص ٤٧ طبع مطبعة عبد الرازق بمصر ١٣٠٣ هـ)

والمدبر لجميع أمور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية ، ومقدار النفقة على المراكب إذا غزت من مصر والشام نحو مائة الف دينار » .

وقد نقل الينا كلّ من المقريزي (الخطط ٢ : ٣٦٨ — ٣٦٩ ، مطبعة النيل) ، والقلقشندي (صبح الأعشى ٣ : ٥٢٣ — ٥٢٤) وصفاً رائعاً لتجهيز الأساطيل الاسلامية لغزو الفرنج . قال المقريزي : « كان من جملة مناظرهم (مناظر الخلفاء الفاطميين) أيضاً منظرة بجوار جامع المقس الذي تسمّيه العامّة اليوم جامع المقسي ، وكانت هذه المنظرة بحري الجامع المذكور ، وهي مطلّة على النيل الأعظم . . . ، وكانت هذه المنظرة معدّة لنزول الخليفة بها عند تجهيز الأسطول الى غزو الفرنج ، فتحضر رؤساء المراكب بالشواني وهي مزيّنة بأنواع العدد والسلاح ويلعبون بها في النيل حيث الآن الخليج الناصريّ تجاه الجامع وما وراء الخليج من غربيه . قال ابن المأمون ، وذكر تجهيز العساكر في البرّ عند ورود كتب صاحبيْ دمشق وحلب في سنة سبع عشرة وخمسمائة ما يحثّ على غزو الفرنج ومسيرها مع حسام الملك ، وركب الخليفة الآمر بأحكام الله وتوجّه الى الجامع بالمقس ، وجلس بالمنظرة في أعلاه ، واستدعى مقدّم الأسطول الثاني وخلع عليه ، وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدد والآلات والأسلحة ، واعتمد ما جرت العادة به من الانعام عليهم ، وعاد الخليفة الى البستان . . . ، وقال ابن الطوير : فاذا تكملت النفقة وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر ، ركب الخليفة والوزير الى ساحل المقس ، وكان هناك على شاطىء البحر بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداعه، يعني الاسطول ، ولقائه إذا عاد . فاذا جلس هو والوزير للوداع جاءت القوّاد بالمراكب من مصر الى هناك للحركات في البحر بين يديه وهي مزيّنة بأسلحتها ولبوسها ، وفيها المنجنيقات تلعب فتنحدر وتقلع بالمجاذيف كما يفعل في لقاء العدو بالبحر الملح ، ويحضر بين يدي الخليفة المقدّم والرئيس فيوصيهما ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة ، ويعطي المقدّم مائة دينار والرئيس عشرين ديناراً ، وتنحدر الى دمياط وتخرج الى البحر الملح فيكون لها ببلاد العدوّ صيت وهيبة ، فاذا وقع لهم مركب لا يسألون عما فيه سوى الصغار والرجال والنساء والسلاح وما عدا ذلك فللاسطول . واتفق مرة أن قدم على الأسطول سيف الملك الجمل فكسب بُطْسة عظيمة فيها الف وخمسمائة شخص بعد أن بعث عليهم بالقتال وقتل منهم نحواً من مائة وعشرين رجلاً ، وحضر الى القاهرة ، ففرح الخليفة وركب الى المقس وجلس بالمنظرة للقائهم وأطلقوا الأسرى بين يديه تحت المنظرة من جانب البرّ . . . وقد خربت هذه المنظرة وكان موضعها برج كبير صار يُعرف في الدولة الأيوبية بقلعة المقس مشرف على النيل . . . » .

العجائن

لأمين إبرهيم كحيل

نشرت الجرائد أخيراً خبر انشاء شركة جديدة في مصر لصناعة « البلاستيك » أوحى بها حضرة صاحب السعادة حسن نشأت باشا سفير مصر في لندن وسيدير شؤونها حضرة صاحب السعادة عبد الفتاح عمرو باشا الغني عن التعريف . ولعلّ أكثر القراء حين طالع الخبر مرّ عليه كريماً إذ لا يتحقق ماذا يكون « البلاستيك » هذا الذي تنشأ من أجله الشركات وتقام له المصانع ويضطلع بأمره الكبراء وذوو النفوذ والصيت فيجمعون له الأموال وتهتم به الجرائد والمجلات . وقد علقت إحداها على الخبر فأطنبت فيه وفسرت « البلاستيك » « بالباغة » فحدّت بذلك مما عساه أن ينتجه المصنع ، إذا قام . فالباغة جزء صغير من كلّ عظيم متنوع المزايا والأشكال والأصول والمنافع المعروفة « بالبلاستيك » الآن ، والتي اصطلح الكتاب من أهل العلم في مصر على تسميتها بالعجائن .

حبات السبحة وقلائد السيدات ومبسم السيجارة ومقبض العصا ويد المروحة ولعبة الرضيع والطفل وأطر المناظير والصور وأمشاط الشعر وعلب الحلوى وصناديق الحلى وعدة التليفون وجهاز الاذاعة وأقداح القهوة والشاي وأكواب الماء والشراب والأقراط والدبابيس وأدوات الكهرباء الدقيقة والضخمة ، هذه وغيرها من الأدوات والحلى والأوعية والآلات التي تشبه العاج أو الكهرمان أو ذبل السلاحف وليست منها في شيء ، والتي لها جمال اللؤلؤ أو المرجان أو صفاء البلور أو بهاء الرخام أو تموجات الأخشاب النادرة أو ألوان الاحجار الكريمة ، والتي تراها أدوات زخرف على ملابس الغيد الحسان أو نحورهنّ أو أصابعهنّ ، أو تراها تزين موائد الأثرياء ومجتمعاتهم ، إنما هي من منتجات « البلاستيك » أو العجائن يضاف اليها أوراق « السوليفان » الشفافة الرقيقة وسبائب الصور وشرائح البلور التي تغلف ساعات اليد والجيب وجوارب السيدات الحريرية المظهر الكاشفة لما تحتها والتي احتلت مكاناً ممتازاً عند الأنيقات من سيداتنا ، وأقصد بها جوارب « النيلون » وهي

التي اختفت بسبب الحرب لتعود بعدها ان شاء الله من صنع مصر . بل خيوط الحرير الصناعي بألوانها الزاهية وأثمانها المغرية ودهانات « الدوكو » وأشباهها ، كل هذه تدخل في نطاق العجائن ومنتجات مصانعها.

وليست صناعة العجائن من الصناعات العسيرة فخاماتها سهلة موفورة في كل بلد زراعي مثل مصر. فأساس أنواع كثيرة من العجائن هو « السيلولوز » وأنقى أنواعه القطن ، وحتى هذا لا يستخدم منهُ الاَّ أرخصهُ أثماناً وأقلهُ منفعة في صناعة الغزل والنسيج، وأقصد ما يعرف «بالسكرتو» أو نفاية القطن الشعر القصير التيلة . واذا عزَّ هذا ففي لب الأخشاب والأعشاب والحشائش ما يسد حاجة المصنع اذا أراد . ولعلَّ أكثر هذه فائدة قش الذرة ولب عيدانه وأغلفة كيزانه. وهناك أنواع أخرى تعتمد في أساسها على « لبن الفرز » وهو ما يتبقى من اللبن بعد أن تنزع عنهُ القشدة فيبقى سائلاً ينتفع بهِ فقراء الريف يستخرجون منهُ الجبن غير الدسم المعروف « بالأريش» وهذا الجبن الخالي من الدهن الفقير في عناصره الغذائية يحوي ما يسمى علميًّا « بالكازيين » Casein ومنهُ تصنع طائفة من العجائن تستخدم في عمل مئات من الحلى التافهة والأواني والأدوات النافعة

وطائفة ثالثة أساسها « البولينا » وهي أحد محتويات البول ولكنها تجهز صناعيًّا كذلك في مقادير وافرة . ورابعة وخامسة وسادسة وغيرها موادها الأولية وخامتها كالبولينا مستمدة من الفحم ومن الماء ومن الهواء . والماء والهواء لا ثمن لهما . أما الفحم فلا يوجد في مصر ، واستيراد المطلوب منه من أقطار غنية به أمرٌ هين في زمن السلم

والآن سأحاول تعريف العجائن وممَّ تصنع، وكيف تصنع، بقدر ما يسمح بهِ المجال. فهي كما يوحي اسمُها تكون في الأصل عجينة لينة يسهل تلوينها وتشكيلها بأي لون أو شكل نريد تحت تأثير الضغط في قوالب أعدت لها من قبل . ومن ثمَّ كانت منتجاتها متعددة الأشكال والمنافع، فهي ليست كالخشب يقطع وينحت ويصقل ويطلى ويلصق بأشباهه بالغراء أو الشق أو النقر . وليست كالمعادن تحمى بالنار الشديدة وتربط بالسبك أو باللحام . وهي فوق ذلك لا تتأثر بالماء ولا يفعل فيها الهواء فعله في المعادن الأخرى من حيث التآكل والصدأ ، ولا يفسد رونقها الحامضُ ولا يذهب بلونها القلوي ولا يتأثر بها شراب حفظ فيها ولا يعلق بها كدر أو غبار أو دهن تصعب إزالته بوسائل النظافة العادية . ويمكن أن تكون متينة كالخشب والحديد وفي مثل صلابتهما ، بل منها ما يزيد في ذلك على أنواع كثيرة من الأخشاب ومنها ما يتحمل سدس ما يمكن أن يتحمله الفولاذ من جهد

دون أن يكسر أو ينبعج . ومنهـا ما يحل محل البلور الصخري في عمل المناظير المكبرة . وهلمَّ جرًّا .

وليست صناعة العجائن بالقديمة مع أن أنواعاً منها كانت معروفة من زمن بعيد ، ويرجع تاريخها الحديث الى ما بعد الحرب الماضية بقليل . وأول ما عرف منها ما اصطلح العامة على تسميته « بالطبيخ » وسماه بعضهم بالباغة ويعرف علميًّا بالسيلولويد وهي مادة اشتقت في الأصل من السليلوز وهو شعر القطن أو لب الخشب، واذا عرض هذا أو ذاك لفعل مزيج من حامضي النتريك والكبريتيك المركزين تعريضاً طويلاً تحوّل السليلوز فيهما الى خليط من نترات السليلوز وهو المعروف « بقطن البارود » واذا فعل الحامضان في السليلوز مدة قصيرة نسبيًّا تكونت مادة لزجة تعرف « بالكلودين » فاذا أذيب « الكلودين » هذا في محلول من الكافور في الكحول العادي وطبخت فيه تحوّلت الى عجينة السليلويد التي يمكن تحويلها الى أمشاط وأزرار وإطارات للمناظير وغير ذلك . ولا يظنن القارئ أن الصناعة تكون بمثل هذه السهولة . ففعل الحامضين في شعر القطن أو لب الخشب يخضع لعوامل عدَّة ويحتاج إلى رقابة شديدة ومرانة كاملة فالناتج مادة مفرقعة خطرة . ولذلك وجب عند تمام صنعها تخليصها من آثار الحامض تخليصاً تامًّا . ثم هي مادة قابلة للاشتعال بسهولة كبيرة وكذلك الكافور والكحول ، ولذا فالاحتراس الواجب عند الطبخ لا يتيسر الاَّ للصانع الماهر الحذر . ولا بد بعد ذلك من تخليص العجينة من الكحول المتطاير تجنباً لشر اشتعاله المستطير ، وهذه عملية غاية في الدقة أيضاً إذ يجب تخليص الكحول بالتقطير والاحتفاظ به لغلاء ثمنه من غير أن ترتفع درجة حرارة العجينة ارتفاعاً يشعلها . وللمصانع والقائمين بالأمر فيها طرق وآلات وأوانٍ أعدّها المهندسون المختصون تحت رقابة القانون الصارمة ضنًّا بحياة العمال من أن تتعرَّض لأخطار الصنعة . وبعد أن تنقى العجينة تضغط في أوان ذات ثقوب دقيقة فتخرج قضباناً دقيقة أشبه ما تكون « بالشعرية » أو عيدان « المكرونة » وأنابيبها ثم تجمع أطرافها حول اسطوانة تدور حول محورها وتحتها ثانية وثالثة فرابعة وهكذا والاسطوانات يتقارب بعضها من بعض بالتدريج حتى تكاد تتلامس ويمر في جوفها بخار الماء الغالي لتظل ساخنة فتتقارب أنابيب العجينة وتتلاصق ثم تتلاحم وترق تدريجاً حتى تخرج من الاسطوانة الأخيرة لوحاً رقيقاً مصقولاً . وإذا أريد إدخال لون عليهـا قطعت بعضهـا قطعاً صغيرة مثل نشارة الخشب بآلات خاصة ثم أدخل عليها اللون المطلوب بقليل من الماء ومزجت به تماماً ثم أعيد طبخها وتحويلها الى ألواح . وإذا أريد صنع أدوات ذات

ألوان متعددة كان ذلك بإخراج أنابيب مختلفة الألوان من مستودعات مختلفة وتجمع هذه على الاسطوانات فتتقارب وتمتزج جزئيًّا أو كليًّا بحسب الرغبة

والسليلويد أو الطبيخ كما قدّمت هو أقدم أنواع العجائن وأخطرها استخداماً لأنهُ قابل للاشتعال بسهولة . ولعلَّ الكثير من القراء جرَّب ذلك . ولكن أنواعاً شتى من العجائن الحديثة ليست كذلك . ولا يسمح المجال بالتوسع في القول . ويكفي أن أقول : إن المختصين يقسمون العجائن الى فصيلتين رئيسيتين هما : « العجائن اللينة » وهي التي تتأثر بالحرارة فتلين حتى بعد تمام صنعها وتشكيلها . « والعجائن المطبوخة » وهي التي لا تؤثر فيها الحرارة بعد خروجها من يد الصانع . ويعدُّ السليلويد من الفصيلة الأولى ، ولو أنهُ أمكن التغلب على عامل الاحتراق الخطر فيها وذلك بالتأثير في السليلوز بروح الخل بدلاً من حامضي النتريك والكبريتيك وتحويله بذلك الى خلات السليلوز وهو أساس خيوط الحرير الصناعي بدلاً من نترو سليلوز وهو أساس قطن البارود . ومن عجائن هذه الفصيلة تلك التي تصاغ من « الكازيين » أو مادة الجبن « الأريش » .

وأما أمثلة الفصيلة الثانية فكثيرة وتمتاز بحداثة عهدها نذكر منها «الباكليت» Bakelite ومادته الأساسية الفينول أو حامض الفينيك المشهور وهو أحد منتجات تقطير الفحم الحجري ، وقد احتلّت منتجاتها الأسواق واقتحمت المنازل عقب الحرب الماضية مباشرة وعيبها الوحيد أنها غير شفافة ولا جذّابة المنظر . وقد حدا هذا بالفنيين الى البحث عن عجائن لها صلابة « الباكليت » ومقاومتها للحرارة والضغط مع رقة التكوين وجمال المنظر وتعدد الألوان ، فعثروا في نحو سنة ١٩٢٧ على عجائن « البولينا » وتعرف أيضاً بالعجائن الامينية الشفافة .

وهنالك أنواع أخرى مختلفة من العجائن أساسها غاز الاستيلين المعروف وهو الذي يخرج من مركب من الفحم والجير اسمه كربيد الجير بفعل الماء . ولو تمت كهربة خزان أسوان لكان من الميسور جدًّا الحصول على كربيد الجير هذا وعلى الاستيلين منهُ ثم على العجائن الكثيرة المتفرعة عنه وكذلك على « البولينا » الصناعية وعجائنها .

أما بعد ، فهذا عرض خاطف لموضوع العجائن المتسع الأرجاء المتعدد النواحي الكثير المنتجات الكبير الفائدة ، وأرجو ألاَّ يتبادر الى الذهن أن منتجاته هذه وقفت عند حد الحلى والكماليات والأدوات الصغيرة الحجم التي لا تصلح الاَّ للتزين ، فقد صنعت من العجائن

هياكل كاملة لطائرات صغيرة سريعة وهو يدخل الآن في صناعة مئات من الاجزاء بل آلافها، في بنــاء طائرات الحرب وأسلحتها . وقبيل الحرب استخدمت صفــائح منهُ لتبطين جوانب الانفاق بدلاً من الخشب والحديد لانها كما قلنا لاتتأثر بالرطوبة ولا تتآكل صدأً بفعل الماء كما انهُ تجري تجــارب الآن في أميركة في بنــاء هياكل كاملة للسيارات الصغيرة والضخمة وعربات الديزل من عجينة الورق تدعمها العجائن فتتماسك وتتصلب وتصبح كالمعدن متانةً ولو أنها في خفة الورق . وستتمخض هذه الحرب القــائمة عن كشوف وطرق جمة لاستخدام أنواع جديدة من العجائن لا نستطيع التكهن بها ولا التحدث بمزاياها . إلاَّ أننا نستطيع أن نذكر غير مغالين أن عهد العجائن الذي رأى النور عقب الحرب الماضية سينمو ويترعرع ويكبر ويبلغ أشده عقب هذه الحرب . ولسوف يحاط الانسان بمنتجات العجائن من يوم مولده حتى آخر أيام حياته، فسيصنع مهده وفرشه وغطاؤه ولباسه وهو رضيع من العجائن فاذا ما شبَّ وأدرك طور الطفولة كانت لعبه وكرسيه ومائدته وأدواتها من العجائن كذلك . واذا ما ذهب الى المدرسة وجد القماطر والسبورات وأدوات الكتابة وحوائط المكتب وأغلفة الكتب منها . وإذا ما أدرك دور الشباب وخرج للحياة واتخذ لنفسه مسكناً حديثاً مستقلاً أسسه من العجائن ، فالكراسي والموائد والأسرة والستائر وأدوات المائدة والزينة وكل ما يمكن أن يقع عليه نظره أو يستخدمه في غدوه ورواحه وراحته وطعامه ونومه وملبسه سيكون من العجائن الخالصة حيناً أو المتداخلة مع الأخشاب أو المعادن أحياناً. وستكون هذه كلها بطبيعة الحال أقل كلفة عند الشراء وأسهل ترتيباً وأخف وزناً وأطول عمراً، ولا تتطلب عناية الكثير من الخدم وتكاليفهم المادية والأدبية ، ولن تحتاج إلى طلاء أو تجديد أو صقل ، فسطوحها سليمة مصقولة وألوانها دائمة وستكون خالية من الزوايا والأركان التي يجمد فيها التراب وتتراكم عليها الأوساخ ولا تؤثر فيها قطرات سائل سقط عفواً أو يذهب ضوء الشمس ببعض لونها ولا تتشقق أو يختل استواؤها كما يحدث للاخشاب والمعادن مع الزمن ومن تأثير الجو بالحرارة والبرودة والجفاف والرطوبة .

نعم لقد بدأ عهد العجــائن ، وسيحل تدريجاً مــكان عهد الحديد والصلب والخشب . وسيكون إن شاء الله أكثر رفاهة ، وأعم نعيماً ، وأقل كلفة، وأوفر نظافة وصحة.

عمر الخيام كما أعرفه

— ٥ —

لمحمود المنجوري

مكانة الخيام

في الحق لم يختلف العالم الأدبي في شاعر اختلافه في الخيام ، فقد بلغ ما نسب إلى شاعرنا الفارسي نحو ٥٠٠٠ رباعية جاءت بها مخطوطات شتى . ولكن الدرس والتحقيق دلّ على أن الوراقين في عصور مختلفة هم الذين أضافوا الى الخيام هذا العدد الكبير ، كما أضاف أهل التصوف بعض الرباعيات إلى الخيام في أزمنتهم المختلفة مما كانوا يتغنون به في حلقاتهم. ولقد أدّى هذا الى خلط الناس وذهابهم مذاهب شتى في الخيام . فمن العسير إذن القطع بأن بعض الرباعيات هي الرباعيات الصحيحة التي نظمها الخيام بنفسه وأن البعض الآخر هو المنحول .

وأقدم نسخة عقد الاجماع عليها هي النسخة التي عثر عليها في مجموعة أوزلي Ousely بمتحف بودلين بأكسفرد وتاريخ تدوينها يرجع الى سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦٠ م) بمدينة شيراز بعد وفاة الخيام بنحو ٣٥٠ سنة(١) وهذه المخطوطة لا تحوي غير ١٥٨ رباعية ولقد كانت هذه أهم مرجع لوحي فتزجرالد والهامه في الترجمة التي خلدت ذكره .

ويعتقد المستشرق الانجليزي هيرون ألن أن ترجمة فتزجرالد لرباعيات عمر الخيام ليست ترجمة حرفية تصوّر عمر الخيام وحده ، ولكنها تصوير صادق لدراسات فتزجرالد للآداب الفارسية وغيرها ، فقد تأثر بأدب حافظ والعطار وغيرهما من شعراء الفرس كما تأثر بالأدب اليوناني والأدب الروماني (٢) وانهُ ليس في ترجمة فتزجرالد ما هو مترجم ترجمة صحيحة

---

١) عثر الدكتور فريدريخ روزن سنة ١٩٢١ على نسخة قديمة يرجع تاريخها الى سنة ٧٢١ هـ

(٢) أصحاب هذا الرأي يقولون ان فتزجرالد قد تأثر في تفكيره بأبيقور اليوناني والفيلسوف الروماني ليكرتيس Lucritius فانعكست آراؤهما في نفس الشاعر الانجليزي كما انعكست في نفسه أخيلة شكسبير وغيره من شعراء الانجليز

عن الخيام غير ٤٩ رباعية فقط . وأما الباقي فهو من وحي الشاعر الانجليزي نفسه .

زعم هذا الرأي المستشرق الانجليزي هيرون ألن وأعلنه ، وقد عزّ عليه وعلى غيره من الكتّاب الانجليز أن ينال الخيام هذه الشهرة العالمية وهو الشاعر الشرقي الذي لم يكن يعرفه أحد قبل أن أذاع فتزجرالد اسمه ، فراحوا يزعمون أن بعض الرباعيات التي جاءت في ديوان فتزجرالد إنما هي من وحي الشاعر الانجليزي ، وليس للخيام إلاّ التوجيه فقط ، وأخذوا يدرسون الرباعيات على أنها عمل مشاع بين الخيام وفتزجرالد ، ثم بدأوا يقسّمون الرباعيات بينهما ، هذه لعمر وتلك لفتزجرالد ، ولكن يكفي لرد هذا الزعم ما قرره فتزجرالد نفسه من أنه إنما نقل الرباعيات مع شيء من التصرف لم يخرجه عن المعاني التي أرادها الخيام والتي ألهمه إياها التفكير الفارسي الخالص. ولقد تأثر بهذا الرأي السير رُس فقال : « ان ترجمة فتزجرالد لا تقل روعة عن شعر الخيام ، فأسلوبه تسامى عن النقص والعيب ورباعياته صورة واضحة من وحي الخيام أو هي ولادة ثانية لوحي هذا الشاعر الفارسي ، على أن فتزجرالد قد استطاع أن يُغيّر من ديوان الرباعيات الفارسي وأن يجعل منه ملحمة واحدة يتصل بعضها ببعض ، وسلك رباعيات الخيام في عقد واحد بعد أن تركها الخيام رباعيات متناثرة »

ولقد ذهب المستر لجاليان الى أبعد من ذلك ، فزعم ان ليس لعمر الخيام أي أثر في ترجمة فتزجرالد ، وإنما جاء بعمل من وحي نفسه وإلهامه ، فالشعر الذي قدمه لنا ليس بشعر فارسي وإنما هو شعر انجليزي خالص، والفكرة الفارسية مغمورة ومتوارية لا نكاد نلمسها ، وان رباعيات فتزجرالد إنما تشابه وتطابق رباعيات الخيام مطابقة قوية وإن اختلفت عنها أداءً ووحياً .

وفي رأيي ان هؤلاء جميعاً قد أساءوا الى فتزجرالد من حيث أرادوا الاحسان اليه ، فإنهُ لم يقل قولهم ، ولو أراده لقاله ، لأن قيمة رباعياته ليست لأنها من وحي الطبيعة الانجليزية الخالصة ولا من وحي الثقافة الاغريقية أو الرومانية التي ثقفت عقل الشاعر فتزجرالد ، وإنما قيمة هذه الترجمة قد عزّت وغلت لأنها من وحي الطبيعة الفارسية الشرقية ، ولأنها تبرز صوراً من الشرق في تفكيره الجديد وفلسفته الثائرة المتمرّدة .

ولقد أقبل الناس على فتزجرالد ليقرءوا الخيام الذي في بُرْدَيْه ، ولو شاءوا لقرءوا فتزجرالد في كتبه الخاصة التي ألفها [1] ، وعجيب أن يكون الخيام سبب خلود فتزجرالد

(١) لفتزجرالد مؤلفات قيمة منها : Undine يحلل فيها أدب شكارى الانجليزي. وله في الادب اليوناني Euphranor وله Polonius مختارات وقراءات مختلفة . وظهرت له ست مآسٍ (درامات) في سنة ١٨٥٣ باسم Sex Dramas of Calderon

فيحزّ هذا في نفوس فريق من أدباء الانجليز فينكر على الخيام هذا الفضل ، لا لشيء إلا لأن الخيام شاعر شرقي ، وكيف يسود شرقي على أدباء الغرب ويسبقهم في تفكيرهم واتجاههم ودعوتهم بأجيال طوال !

هؤلاء المستشرقون الأدباء لا نراهم في هذا المبحث على شيء من الحق العلمي ، فليس للفن أو الأدب أو الفلسفة وطن أو لون أو جنس ، وإنما هي جميعاً حق انساني شائع لا وطن له ولا قوميّة .

وسمع صوتُ الخيام أول مرة في أوربة لما وقف أستاذ اللغات الشرقية العلامة توماس هايد سنة ١٧٠٠ في جامعة أكسفرد يرتل أغانيه الفارسية الجميلة ويردّدها على طلابه

ولكن ظلّ هذا الصوت خافتاً الى أن ظهر في أجواء الغرب حين جاء المستشرق النمسوي هامر برجستل Hammer Purgstall سنة ١٨١٨ م فاختار خمساً وعشرين رباعية تصور المذاهب الفلسفية المختلفة التي زعم أنها تخالف الدين الاسلامي مخالفة صريحة، ولم ينشر غيرها من الرباعيات

ثم عكف المستشرق السير جور أوزلي Sir Gore Auseley سفير طهران المتوفى سنة ١٨٤٤ على دراسة الرباعيات ونسخها وتحقيقها ، فعثر على نسخة مخطوطة ، أشرنا اليها في أول هذا المقال ، يرجع تاريخها إلى سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦٠ م) بمدينة شيراز وهي تحوي ١٥٨ رباعية . ثم بعث الخيام بعثاً خالداً يوم وجه العلامة كاول Cowell صديقه الشاعر فتزجرالد الى ترجمة الرباعيات ، فأعانه على نقل مخطوطة السير أوزلي التي كانت مودعة متحف بودلين سنة ١٨٥٦ . وتعد هذه النسخة أقدم مصدر ترجمت عنه رباعيات الخيام في الانجليزية إلى الآن .

ولم تقف عناية الاستاذ كاول بصديقه فتزجرالد عند هذا الحد ، بل تابع له الدرس والتنقيب فأرسل اليه في سنة ١٨٥٧ من كلية كلكتا بنسخة من مخطوطة للرباعيات عثر عليها في خزانة الجمعية الاسيوية الملكية ، ثم أرسل اليه بعد ذلك نسخة نادرة طبعت في كلكتا سنة ١٨٣٦ م . ويرجح المستشرق هيرون ألن Heron-Allen أن هذه المطبوعة تطابق النسخة المخطوطة التي عثر عليها في كلكتا ، وهذه هي المصادر التي نقل عنها فتزجرالد ترجمته الخالدة . ولقد اعترض المستشرق الفرنسي مسيو نقولا على النسخة التي عثر عليها الاستاذ كاول في كلكتا ، فترجم الرباعيات نثراً الى الفرنسية سنة ١٨٦٧ في أربع وستين وأربعمائة رباعية عن نسخة وجدها في طهران .

باب المراسلة والمناظرة

١ — الهند وطن القطن

قال الأستاذ محمود مصطفى الدمياطي في مقاله « نباتات الصناعة في مصر » في عدد ديسمبر ١٩٤٣ من المقتطف في الكلام على القطن : « تعتبر الهند الموطن الأصلي للقطن الشجري » ثم استثناه بقوله : « إلاّ أن الدكتور انجلر قد أشار إلى وجوده في غنيا العليا وبلاد الحبشة والسنيغال وغيرها » . فلا ندري هل قصد الأستاذ به الاستثناء المتصل أو المنقطع فاذا قصد الثاني فالاستثناء في سياق كلامه من قبيل الاستطراد ولسنا بصدد الكلام فيه . وأما إذا قصد الأول فيكون مراد الأستاذ بقوله « إلى وجوده » أي إلى وطنه وهو بيت القصيد لكلامنا هنا .

لم يتيسر لنا أن نسبر غور أدلة الدكتور انجلر، وليت الأستاذ نشر شيئاً ذا شأن وقيمة منها في المقتطف . على أن ما عرفنا من أدلة كبار المحققين باديها وخافيها ينبئنا أنهم لم يقولوا في تعيين وطن للقطن غير الهند قولاً يتجافى عن مواطن الريب ويسفر عن وجه اليقين . فالعلامة شوينفورث يرى أن القطن وزراعته وُجدا في وسط إفريقية وشرقها قبل زمن طويل من ظهور القطن في الحضارة المصرية القديمة[١] . ولكن وجوده فيها لا يمنع أنه قد نقل اليها من الهند، وهو ما يراه الأستاذ المحقق الامريكي الدكتور لوتز أيضاً في كتابه « النسيج واللباس »[٢]

إن أقدم أثر وجد للقطن في التاريخ هو المغازل وقطع من القطن المنسوج نسجاً دقيقاً في أطلال مدينتي « موهنجودارو » و « هاراپـا » على شاطىء نهر سندهو Indus بالهند يرجع تاريخهما الى الألف السادس قبل الميلاد .[٣] وأحوال كشف هاتين المدينتين والبيان المستوفى

(١) Schweinfurth : Pflanzengeographische Skizz (Mitteilungen Petermanns) 1868 S. 160

(٢) الكتاب المذكور ص ٣٤

(٣) يجد القارىء بياناً وافياً عن آثارهما في تقارير مصلحة الآثار الهندية وايضاً وصفاً موجزاً لها في مصنفات الاستاذ السر جان مارشال

عن آثارها لم ينشرا إلاَّ بين سنة ١٩٢٧ م وسنة ١٩٣٣ م أي بعد وفاة العلامة شوينفورث في سنة ١٩٢٥ م . ولذلك لم يتسنَّ لشوينفورث في حياته الاطلاع على تلك الآثار ذات الشأن الخطير في التاريخ وإعادة النظر في ضوئها . كذلك لا نعرف هل كان الدكتور انجلر على بينة منها عند ارتيائه ما نقل لنا الأستاذ عنهُ .

على ان هذه الآثار التي كشفت أخيراً وظهرت دلائل ناطقة على أن الهند وطن القطن ليست بحجة وحيدة ، بل هناك شواهد اخرى مثل ذكره في الكتب الهندية المقدسة « ويدات » التي يرجع تاريخها الى اربعة آلاف سنة أو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد . وقول هيرودوتس الذي ساح في القرن الخامس قبل الميلاد في بلاد إفريقية الشمالية والشرق الأدنى : « ان في الهند فضلاً عن ذلك أشجاراً برية تنتج بدلاً عن الثمر نوعاً من الصوف يفوق صوف الغنم في الجمال والصنف » [1] - دليل على أن القطن لم يكن معلوماً في زمنه لدى أهل البلاد الأوربية والشرقية التي زارها . وعليه يرى بعض المحققين ومنهم الاستاذ الدكتور لوتز انهُ نقل من الهند الى الشرق الأدنى في الغالب في القرن الرابع قبل الميلاد أي عند هجوم الإسكندر المقدوني على الهند، لان تلميذ ارسطو ثيوفراطيس (٣٧٢ — ٢٨٧ ق م) كان عالماً به، بدليل ما نقل عنهُ بلينوس المتوفى سنة ٧٩ م في كتابه التاريخ الطبيعي من الوصف الشامل له، بيد أني أرى انهُ نقل قبل هجوم الإسكندر على الهند وبعد سياحة هيرودوتس بدليل تسمية القطن باللغة البابلية باسم نهر في شمال الهند وهو « سندهو ».

كان نقل الكتان من وطنه وسط آسيا [2] الى بلاد الشرق الأدنى أسبق من نقل القطن . لذلك كانت زراعته وصناعته منتشرتين ومترعرعتين في جميع بلاد الشرق الأدنى تقريباً عند نقل القطن اليها . وعليه فاطلاق اسميهما في لغات تلك البلاد أصبح أمراً مريجاً، لأننا نجد انهُ أطلق فيها اسم الكتان أو نسيجه طوراً على القطن، وطوراً أطلق اسم القطن أو نسيجه على الكتان

إن جميع الأمم والأفراد الذين انحدروا الى الهند براً بعد ضرب الآريين بجرانهم فيها انحدروا طبعاً من الطريق الشمالي الغربي ، فواجهوا عند دخول حدودها نهراً كبيراً مسمى عند أهاليها « سندهو » فأطلقوا هذا الاسم محرفاً على البلاد كلها وأحياناً على بعض

(١) تاريخ هيرودوتس الكتاب الثالث فقرة ١٠٦ .

(٢) يرجح الاستاذ المحقق الدكتور لوتز أن وطن الكتان وسط آسيا (راجع كتابه النسيج واللباس ص ١٩)

منتجاتها . فوندیداد [1] يذكر البلاد باسم « هندو » ، ثم ذكرتها اللهجات المتأخرة باسم « هندوستان » [2] أي بلاد هندو . وذكرها الرحالة الصيني فاهيان في القرن الخامس الميلادي باسم « شنتوب » Shin tup [3] كذلك ذكرها الرحالة الصيني الآخر هيون تسانج في القرن السابع الميلادي باسم « انتو » Intu وهلمَّ جرًّا .

جميع هذه الأسماء تصحيف اسم نهر « سندهو » لأن اسم الهند عند الآريين بالسنسكريتية « بهارت ورمن » و « جمبوديب » ولما كان سقى سندهو مزرعة ذات شأن للقطن سمي القطن عند انتقاله من الهند الى بابل باللغة البابلية « سندهو » وباليونانية « سندُن »

أما اسمه في الهند باللغة السنسكريتية فهو « كرْپاس » وبفروعها مثل اللغة الأردية وغيرها باسقاط الراء « كپاس » ويطلق في بعض تلك الفروع « كپاس » على شجرة القطن ، وأما ثمرها أي القطن فلهُ فيها اسم آخر .

على أننا عند إنعام النظر في لغات البلاد المختلفة التي نقل اليها القطن نجد أن اسمه السنسكريتي لم ينقل معه إلاَّ الى بعضها ، وفيها أيضاً لم يطلق في الغالب على القطن بل على نسيجه

أما الفارسية فأطلق فيها « كرپاس » في الغالب على نسيج القطن كما تدل عليه المعاجم الفارسية . غير ان الأستاذ الألماني ولف يذكر في كتابه قاموس شاهنامه نقلاً عن عبد القادر البغدادي ان الشاعر الايراني الذائع الصيت أبا القاسم الفردوسي استعمل في مصنفه الشهير بشاهنامه « كرپاس » أو « كرياس » بمعنى الجناح المختص بالنساء في قصور الملوك[4] . أما القطن فسمي « پُنْبهْ » واسمه بالتركية « پنبوق » أو « پامبوق » أو « پاموق » أو

---

(١) الباب الاول ، الفقرة ٧٣ منه . ولا يخفى ان ونديداد Vendidad هذا جزء من الاجزاء التي توجد الآن من كتاب الديانة الزردشتية المقدس « اوستا » وهو باللغة الفهلوية . ويرى بعض المحققين ان السنسكريتية أصل الفهلوية ، على حين يرى بعضهم أن كلتيهما أخت . وحرف السين بالسنسكريتية يبدل عموماً بالهاء بالفهلوية . « فسما » (معناه جميع) بالسنسكريتية هو « هما » بالفهلوية في نفس المعنى ، وقد زيدت في آخره الهاء بالفارسية الحديثة . و « سندهو » بالسنسكريتية « هندو » بالفهلوية وهلم جرا . ولقد أخطأ المستشرق الانجليزي الاستاذ لواسترانج Le strange في كتابه الشهير « أراضي الخلافة الشرقية » إذ ذكر في صفحة ٣٣١ منه بالحاشية : ان « سند » صورة بالفارسية القديمة لاسم « هند » . والصواب كما قلنا

(٢) و « ستان » أو « استان » محرف عن كلمة سنسكريتية « استهان » معناها محل ، موضع ، مكان . وعبثاً حاول الفاضل الايراني الدكتور رضا زاده شفق في كتابه المفيد « فرهنگ شاهنامه » ص ٢٣ اثبات اشتقاقهما من المصدر الفارسي « ايستادن » ومعناه القيام . إذ الكلمة في الحقيقة سنسكريتية الاصل نقلت عن السنسكريتية محرفة الى الفارسية مثل كلماتها الكثيرة الاخرى

(٣) J. Legge :F: allian p.26

(٤) فرهنگ شاهنامه للدكتور رضا زاده شفق ص ٢١٨ طبع طهران

« عباك » كلها مأخوذة من هذا الاسم الفارسي « پُنْبه » [١]

أما العبرية فلم نجد فيها تغييراً ذا شأن في تسميته لا في الصورة ولا في المعنى، فقد ذكر في التوراة [٢] Karpas [٣] بمعنى القطن . وأما نسيجه فذكر له فيها كلمة Bus [٤] كذلك أطلق الكلمة نفسها على نسيج الكتان أيضاً [٥] . وأرى ان اسم القطن « بوز » بالتركية الذي ذكره ابن المهنا [٦] ، وكذلك الكلمة العربية « بَزّ » التي معناها الثياب من القطن أو الكتان ، مأخوذة عن تلك الكلمة العبرية .

اما العربية فاسمه فيها « قطن » وأطلق فيها هذا الاسم على نسيجه ايضاً . قال لبيد :

شاقتك ظعن الحي يومَ تحمّلوا فتكنّسوا قطناً تَصِرّ خيامُها

أراد بها ثياب القطن. ولم يعرف أصلهُ واشتقاقه وأقدم مصدر له بالعربية فيما نعرف هو ذكر أبي حنيفة الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢ هـ في كتاب النبات له . وقد نقل عنهُ صاحب اللسان قال : قال الدينوري القطن يعظم شجره حتى يكون مثل شجر المشمش ويبقى عشرين سنة وأجوده الحديث [٧] . واما اسمه السنسكريتي « كرباس » فنقله العرب عن الفارسية، وأطلقوه في الغالب على نسيجه ، الاَّ أن ابن الاثير ذكر في شرح حديث عمر رضي الله عنهُ : أن كرابيس جمع كرباس وهو القطن [٨] . أما غيره فالجواليقي في المعرب [٩] وابن منظور في اللسان [١٠] ، والزبيدي في التاج [١١] كلهم متفقون على أنه معرب عن الفارسية ومعناه ثوب من القطن الأبيض .

أما الكلمة « الكرسف » أو « الكرسوف » باشباع ضمة السين التي ورد ذكرها في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها وبين معناها في الشروح والمعاجم : القطن أو القطع من القطن ، فأرى أن أصلها « كرفس » معرب عن كرپاس أو « كرپس » ولحقها القلب بعد التعريب فأصبحت كرسفاً . قال صاحب اللسان : والكرسف القطن وهو الكرفس [١٢] .

نقل العرب القطن إلى الأندلس في القرن الثالث عشر الميلادي ، ومنها انتشر إلى البلاد

(١) قاموس تركي ج ١ ص ٣٥٨ لشمس الدين سامي ، طبع استامبول
(٢) كتاب استر ، الفقرة ١ — ٦
(٣) ومن الغريب ان نطق هاته الكلمة ذكر في « الكنز » للاستاذ محمد بدر : « كرماس » وذكر معناها : كرفس (النبات الشهير) . وكلاهما خطأ ان لم يكن من المصنف فمن المطبعة (راجع الكنز ص ٢٤٠)
(٤) كتاب استر ، الفقرة ٨ — ١٥
(٥) Fonolexika p. 37 (٦) ابن مهنا لغتي طبع استامبول ص ١٦٧
(٧) لسان العرب ج ١٧ ص ٢٢٣ (٨) النهاية لابن الاثير ج ٤ ص ١٤
(٩) راجع المعرب للجواليقي طبع دار الكتب ص ٢٩٤ (١٠) لسان العرب ج ٨ ص ٧٨
(١١) تاج العروس ج ٤ ص ٢٣١ (١٢) لسان العرب ج ٨ ص ٨٠ في مادة (كرفس)

الأوربية الأخرى، فانتقل اسمه العربي إلى لغاتها. فسمي باللغة الاسبانية Algodon وبالايطالية Cotone وبالفرنسية Coton وبالهولندية Kotoen وبالانجليزية Cotton وبالألمانية Kattun وهلمّ جرّاً.

على أن هيرودوتس سلك في تسمية القطن مسلكاً خاصًّا إذ سماه «صوف الشجر» ولعلّ ذلك لعدم اطلاعه على اسمه الحقيقي السنسكريتي فتبعه فيه الآخرون، فالمصنف الشهير من القرن الثاني الميلادي يوليوس بولوكس Julius Pollux ذكره في تصانيفه بهذا الاسم. كذلك سمي باللغة الألمانية، ما عدا اسمه العربي المنقول Kattun، باسم Baumwolle ومعناه «صوف الشجر» السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

٢ — لفظ الجيم

جاء في الكلام على «حرف الجيم» صفحة ٤٧ من المقتطف (عدد يناير ١٩٤٤م) ما يلي هذا: «وقد كتبتْ طائفة ممتازة من العلماء المتأخرين منهم الصديق الجليل الأب أنستاس الكرملي علاّمة العراق منذ خمس وأربعين سنة في هذا الحرف مقالات في الصفحات ١٨٧ وما بعدها من مجلد سنة ١٨٩٧ من مجلة البيان وهو المجلد الأول والأخير. الخ» . اهـ.

والصواب أن مقالة البيان المشار اليها للإمام اليازجي خلافاً لما تقدم. وهي أول مقالة ظهرت بهذا المعنى. وللامام اليازجي قبل مجلته البيان بسنين كثيرة مباحث في هذا المعنى وعاها كل من حضره في حلقات الدرس. لأن حرف الجيم كما ينطق به أهل سورية من مقطع الشين. فتجدهم يدغمونه بأل التعريف لقرب المخرجين. ولا يحيد عن ادغامه أحد منهم إلاّ من تعمد ذلك. فكان الشيخ رحمه الله يوجب إبانة اللام كما هي حالها قبل القاف وسائر الأحرف القمرية. وفي ذلك ما كان يدعو إلى التحدث بمثل ما ورد في مقالته المشار اليها. ثم إنه بعد تلك المقالة دُعي إلى هذا المعنى في مجلته الضياء سنة ١٨٩٨ صفحة ٥٠ وصفحة ٤٣٣. وليس القصد بهذين السطرين التعرض للموازنة بين الأقوال وإنما أردت بهما رعاية عهد وذمام، والاعتراف لصاحب حق والسلام.

الاسكندرية جبران النحاس

تصحيح: في المعادلة (صفحة ٢٨٠ شهر مارس سنة ١٩٤٤) التي فيها $م^٢ = م^٢$ الخ... تكون الميم الثانية $٢^٢$ أي مربع اثنين. وفي المعادلة التي فيها $م^٢ = ل^٢$ الخ... تكون اللام $١^٢$ أي مربع واحد نقولا الحداد

المشتمل

— المسائل

هناك ما التلقف والتثقف — بقلم بشر فارس

— الكتب

ابن العاص	نقد بقلم	زكي محمد حسن
البصر وفنه	— —	ابرهيم عبد القادر المازني
دراسات عن مقدمة ابن خلدون	— —	أحمد محمد شاكر
العلم في الحرب	— —	فؤاد صروف
المفضليات	— —	محمد عبد الغني حسن

كتب ظهرت :

تقي الدين أحمد بن تيمية	نقد بقلم	*
الاسلام والفنون الجميلة	— —	*

— الاستدراك

كتاب الحيوان ، الجزء الخامس — بقلم الأب أنستاس ماري الكرملي

— التعقيب

وصف الجمع بالمفرد — بقلم زكي مبارك

التعريف والتعقيب

نستحدث هذا الباب ونبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من الصحائف المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستعصم الراكن . هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأهداه الهوى

بشر فارس

١ — المسائل

شتان ما التلقف والتثقف

من قبل قلت (١) وأقول اليوم — وفي ذلك خارج لي كتاب برأسه إنْ شاء ربك — أقول إن لفظ « الثقافة » اتسع دورانه عندنا ، ولكنه رث مدلوله وانطفأ نوره ، نخرج عن المعنى الذي وُضع له يوم استحدثهُ المستحدث وغرضه نقل ما تنطوي عليه كلمة Culture

ولا أبغي هنا الخوض في بحث لغوي أتدرج بهِ من المصدر اللاتيني لتلك الكلمة ، فأنتقل من دلالة الى دلالة لأبيّن مثلاً كيف أخذ اللفظ في الاستواء على يد هذا أو يد ذاك من كتّاب الفرنجة ، حتى أبلغ مُفاد الكلمة لهذا العهد عند القوم . وليس في نيتي أيضاً أن أتمهل عند الثورة التي أثارها على الثقافة قبيل الحرب القائمة فئتان من غلاة الكتّاب. هذان مطلبان سأسوقهما اليك فتنظر فيهما معي وذلك الكتاب بين يديك .

اليوم أحب أن أوكد أن لفظ الثقافة في لغتنا ركّ وربما سفّ . وسبيلي في الدلالة امتحان اللفظ عندنا بالاضافة الى ما تقوم به كلمة Culture وعليه . ومن ثمّ نقدر وزنه ونحتسب مصيره في متمثّلاتنا الفكرية .

• • •

بين أيدينا مصدران لاستقراء المعنى المصطلح عليه لكلمة Culture (٢) : الأول ما يستخلص من الأحاديث والتآليف ، والثاني ما قُيد في المعجمات . ومأخذ هذا مبذول قريب ، ومنال ذاك متعذر إلاّ على من طلب القراءة النفيسة في استبصار واستشفاف، ثم لابس أهل الغرب فتقرّى مقاصدهم من منابتها ، وتلمس مواقفهم من معالمها ، متأدباً عليهم أو متلطفاً للوصول الى ما يخيل اليهم ولهم يصوَّر .

إن صفوة ما ينبعث من المصدرين — عندي — أن الكلمة يجري مُفادها الى صقل الإدراك ونحت الإحساس وغذو السريرة . والسبيل الى هذه الأمور الثلاثة اتصال دفين بدقائق العلوم ورقائق الفنون ، مع شحذ خصائص « الشخصية » والفرار من التكاف والعبث

(١) مقتطف مايو ١٩٤٣ . جريدة آسيا ، بيروت ١٥ / ١٠ / ١٩٤٣

(٢) لهذه الكلمة في الألمانية وجهة أخرى

والدعوى . خاتمة ذلك كله ما يبقى في النفس من مدارسة الصحائف وممارسة الطائف . ومما يبقى : انعطاف الانسان الى الانسان والتفهم والتبصر ، فالولع الورع بقضايا الفكر الذكي وشؤون الحس الخفيّ مع القدرة على التفلّت من المنقول والمبذول رجاء قبول الطريف ولقن القصيّ . كل ذلك — في ما أرى — على نحوين : ثقافة فعّالة ، وثقافة منفعلة . فالفعّالة داخلة في جانب الابتداع ، وأما المنفعلة فأن يسرع الفهمُ على حدّة ، وينعم الذوق على وفرة ، ويلطف الوجدان على سعة .

أما الثقافة عندنا فما تكون ؟

ليكن الجواب « موضوعيًّا » كما يقول المحدَثون من أهل المنطق ، فنتصفّح الواقعات والمبذولات ، فلا ندع الكلام في هذا المطلب يجري على المخيّل ، فيغرّنا الظنون ويأخذنا المرتجل .

وأول ما يمثل بين يديك من رواسم المعلوم في شأن الثقافة مرحلة من مراحل التدريس في مصر تحمل ذلك الاسم ، وهي مرحلة تضم فصول البكالورية المصرية في النظام السابق للمدارس ، إلى فصل مستجد يقال له : التوجيهي . وخلاصة ما يقال في هذه السنوات الدراسية أن التلميذ يتلقى فيها أطراف أصناف من المعارف . وهذا يعبر عنه بكلمتين هما « الثقافة العامة » وقد أخذناها عن الفرنسية Culture générale ، وفي الانجليزية تعبير أشد إحكاماً وهو : General Knowledge — أي : معرفة عامة .

هذا والثقافة بمعناها المطلق في أوربة غير الثقافة العامة . فالأولى كما وصفتُ لك . وأما الثانية فمحصّلات شتى لمبادئ العلوم وبسائط الفنون . وهكذا ترى أن وزارة المعارف انتزعت من مُفاد الكلمة الأوربية ، وفيه انطلاق وإتقان ، مدلولاً إنما قيدته أو أثقلته ثم لبسته إذ جعلته في مكان معنى أرفع مرتبةً وأبعد أفقاً . فانما الثقافة التي نعنيها — والكلمة الأوربية بين أيدينا — هي في ذروة حركات الفكر الوثاب . وأما الثقافة العامة فلا تتخطى حدّ التحصيل ، وهو تلقف أو كالتلقف من حيث إنه عَبّ للمبادئ والبسائط ، فلا امتصاص ولا ترشف ، فأين النهل بجذب النفس وأين الشرب على استقصاء ؟

وقد تجاوزت الثقافة ، بمعنى التعليم والتوقيف ، جدران المدارس لتجري في مسارح الحياة . وربما دخل فيها ما يلتف حول المعارف العامة والمسائل المتداولة في ناحية الأدب والفن والسياسة والاجتماع . من ذلك نشرات تخرج باسم الثقافة ، ثم « مواسم ثقافية »

و « محاضرات ثقافية » ، حتى إننا لنظفر بـ « السينما الثقافية » ، وفي هذه الأخيرة مغالطة ، ولا سيما إذا كانت الأشرطة المعروضة أجنبية عن التهذيب والتنبيه .

ثم هنالك الثقافة التي تُحصَّل من طريق القراءة الهيِّنة ، تأتيك من جانب كتب يريد اصحابها أو ناشروها أن تبلغ من توسطت ثقافته أو وضعت ، فلا يتكلف كثيراً في تصفحها لأن الكاتب هابط اليه إرادةً أو طبعا .

* * *

فأنت ترى من تلك المراجعة العجلى أن لفظ الثقافة استبان من طريق مواقعه ، فإذا معناه في مصطلحنا يجري إلى التعليم وما يليه من التوجيه ، فإلى بذل المعارف وطرح المسائل ، ثم إلى استدراج الأمة إلى القراءة السهلة . وربما انحط المعنى ، بالسينما الثقافية مثلاً ، فأجرى اعتسافاً في مجرى التنبيه والوعظ أو مُوِّه بهما . ولقد دارت على أقلامنا كلمة تلمّ تفاريق ذلك المعنى ، وهي « التثقيف » . والعجيب أننا استعرناها من أدبنا القديم ملبقة . فهي هنالك أفادت التهذيب والتخريج أي تدميث الطبع الجافي وتنعيم الذهن الخشن . فكأني بها انقلبت الينا من دون أن تظفر بمعنى ألطف أو أوغل . وهذا التثقيف مع ما تحته من تعليم القراءة والكتابة وبذل المعارف والحث على الاطلاع الهين ، إنما هو الدرجة السفلى لمراقي الكلمة الأوربية بل شرطها المحسوس . ومعنى هذا أنه لا بدَّ لك من معرفة مبادئ العلوم وبسائط الفنون لكي ترقى حتى الاتصال الدفين برقائق هذه ودقائق تلك ، فتنفسح تجاهك سبحة التأمل ، وينصرح بين يديك مسلك الصدق في الاحساس والإدراك ، حتى إن حدّة حدْسك تبلغ الهيام بشؤون الفكر المتوقد والحس الرهيف ، وإن يقظة فؤادك تطمع في استبطان البشرية المطوية بحجاب الحيرة : تفتح وتصمّد ... وعلى هذه الصفة كان أعلام أدبنا الغابر ، أمثال الجاحظ وابن الرومي وأبي العلاء والتوحيدي والفارابي وابن خلدون .

وحينئذٍ فالمتخرج في مدرسة أو الدائب في قراءة الكتب الميسَّرة والصحف الباذلة أطراف العلوم والفنون والآداب رجل ذو ثقافة في رأي عامة الجمهور العربي ، وحقيق بالرجل وأولى أن يقال فيه : إنهُ غير أمّي أو إنهُ من أهل التنبه .

وأما لِمَ هبطت كلمة Culture ، في الجملة ، الى مُفادها الأدنى عندنا ، وقنعت ، في غالب الأمر ، بمعنىً ركّ أو شحب ، فذلك مطلب تسأل عنهُ الأمة وأصحاب أمرها . وللحديث عندي تفصيل أرجئه .

بقي أن أشير إلى ما قلت من قبلُ ، وصفوته أنْ ليست الثقافة كلها بمحصورة في خزانة صحائف . فالاطلاع وإن ذهب طالبهُ فيه وأمعن ، والتأليف وإن برع معالجه وأبدع، سلّم إنما درجاته معدودة . فالثقافة منبسطة ، فعلاً وانفعالاً ، على الفلسفة والنحت والتصوير والمسرح والموسيقى والرقص ، وإلى جنبها جميعاً العلم المرصود للمعرفة المنزّهة .

• • •

ذلك جوهر الثقافة الحقة مميزة من الثقافة العامة . والمعنى هنا مضغوط ، مغلول ، مستضعف ، ولكنه هناك منفرج ، منطلق ، متماسك . فإن لم نُوثِر الذي هناك ظللنا على باب المعبد نلمحه من بعيد خلال ضباب يتكاثف فيتراكم ، فلا تنفذ لنا باصرة ولا يطير بنا خاطر .

بشر فارس



٢ — الكتب

• ابن العاص • بقلم عباس محمود العقاد

١٤ × ١٩ ½ سم ١٥٠ ص الحلبي وشركاه القاهرة ١٩٤٤ *

يحق لمصر أن تفخر بما نراه من نهضة مباركة في ميدان التأليف في نواحي التاريخ والحضارة الاسلامية . وما من شك في ان هذا الضرب من التأليف حسن جدًّا ومفيد في التعريف بتراث الاسلام وأعلامه . والكتاب الذي أخرجه الاستاذ عباس العقاد في عمرو بن العاص أثر من آثار هذه العناية بدراسة أبطال الاسلام ومظاهر حضارته .

وقد أصاب المؤلف توفيقاً كبيراً في تصوير نفسية عمرو ولا سيما طموحه « الذي لزمه من صباه الى ختام حياته » ، وقد كان طموحاً قائماً على مطالب الواقع في بواعثه ومراميه ، فكانت نظرة عمرو الى الدنيا « نظرة عملية معروفة الموارد والمصادر ولم تكن تلك النظرة الخيالية التي يتسم بها أصحاب الحماسة والأحلام من ذوي الطموح » .

* رتبت أسامي الكتب على حروف الهجاء .

والحق أن الكتاب عرض حسن لكثير من المسائل المتصلة بحياة عمرو ، ولكنهُ لغير الاختصاصيين من القراء ، فقد غلب على العرض أسلوب الصحافة ، نريد الاكتفاء بالاسترسال دون التحري والتحقيق . وكنا نود لو أن المؤلف وجّه عنايته الى التزام الدقة العلمية ، فقد فاته في كثير من المواقف أن يوفق بينها وبين الاختصار مع سهولة العرض ولطف البيان .

وقد حدث أن تحمس المؤلف لعمرو بن العاص فقادته الرغبة في تمجيده الى قسط من المبالغة بعيد . مثال ذلك ما كتبه (ص ١٣٧ س ٦) ، قال : « فالذي لا خلاف فيه أنه كسب للاسلام قطرين كبيرين هما فلسطين ومصر » . والصحيح أن كسب فلسطين للاسلام لا يمكن أن ينسب الى عمرو ، وإلاَّ فأين فضل خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد ابن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة ؟ ، والمعروف أن عمراً لم تكن له القيادة العليا في فتوح الشام ، كما كانت لخالد أو لأبي عبيدة . ولم يكن هو صاحب الفضل في تلك الفتوح .

ثم ان المؤلف كتب في الموضع نفسه أن لا خلاف في أن لعمرو « سهماً وافراً في كل ما تحسبه للدولة الأموية من العظائم والمآثر » . وهذا بعيد عن الدقة ، لأن فضل عمرو كان في قيام الدولة الأموية فحسب ، أما ما لها من العظائم والمآثر فكان جله بعد وفاته ، ولاسيما في عصر عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك .

ووصف المؤلف (ص ٤٠ — ٤١) معاوية بأنه من أصحاب « العقول الوسطى » . ولا ريب في أنهُ يعدل عن وصفه هذا إن بدا له أن يكتب في معاوية ترجمة ، فيقرأ ما قاله فيه المؤرخون القدماء ثم المستشرقون .

ويرى القارئ الاختصاصي في تاريخ الاسلام ان المؤلف أخطأه التوفيق في مواقع ، وأن مراجعه محدودة ، وأن بعض أحكامه يعوزها التحري . مثال ذلك ما كتبه في تردد عمر بن الخطاب في تسيير عمرو لفتح مصر ، فقد زعم المؤلف أن عُمر « لا يرى داعية للحرب إلاَّ درءًا لخطر أو قصاصاً من عدوان » . وهذا غير صحيح ، فليس معروفاً أن فتوحات العرب كانت للدفاع أو للانتقام فقط . وإلاَّ فأين الجهاد لاعلاء كلمة الله ؟ وأين الاسباب الاقتصادية البحتة التي تتجلى في بعض ما كتبه المؤرخون العرب ؟ ففي « فتوح البلدان » للبلاذري (ط . القاهرة سنة ١٩٠١ ص ١١٤) . » قالوا لما فرغ أبو بكر من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش الى الشام فكتب الى مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغّبهم فيه وفي غنائم الروم فسارع الناس اليه من بين محتسب

وطامع وأتوا المدينة من كل أوب » . ويخيل الينا أن المؤلف ، في حرصه على نفي روح الهجوم في الفتوح الاسلامية ، يتأثر قول بعض الكتّاب المحدَثين الذين يريدون الدفاع عن خطة الاسلام في الجهاد على غير إحاطة بحقائق التاريخ وأصول الاسلام .

والحق ان السطحية وقلة العناية بالتحقيق تبدوان في مواضع غير قليلة من الكتاب ، فيعجب القارئ لصدورها من كاتب هو من كبار كتابنا . وربما كان مرجع ذلك استهانة الكاتب بتقييد المعارف في الجزازات واستهانته باعتماد المراجع ثم بالتزام ما صح فيها وما ثبت.

فترى مثلاً أن المؤلف (ص ٧٦) يصحح « ارطبون » الى «اريطيون» قائلاً :« ان قلة النقط والشكل في الحروف العربية كانت تصحفه حينئذٍ الى أرطبون » . والظاهر ان المؤلف يتأثر هنا بتلر Butler في كتابه «فتح العرب لمصر »[(١)] (انظر الترجمة العربية لفريد أبي حديد ص١٩١). والصواب «أطربون» كما فطن الى ذلك دي خويه de Goeje في تعليقاته على الطبعة الاوربية لتاريخ الطبري[(٢)]. وفي المعرب للجواليقي (ط. دار الكتب بتحقيق احمد محمد شاكر ص٢٦). « الاطربون: كلمة رومية . ومعناها المقدَّم في الحرب وقد تكلمت به العرب »[(٣)] والواضح ان كلمة أطربون تعريب اللاتينية Tribunus وهي رتبة من رتب القيادة الرفيعة عند الروم .

وكتب المؤلف (ص ٩٣) «ولكنه (أي المقوقس) في أرجح الأقوال رجل من غير الروم ومن غير المصريين ، نشأ في القوقاس كما يدل عليه اسمهُ » . والواقع أن هذا ليس أرجح الاقوال بأي حال . وحسب المؤلف أن يرجع الى ما كتبهُ بتلر Butler في صفة المقوقس (ص ٤٤٤ — ٤٦٤ وص ٥٠٠ — ٥٢٠) . فالحق ان هذا موضوع متشعب الأطراف لا يستطيع حتى من أوتي موهبة عالية في الاجمال وحسن العرض ، كالأستاذ المؤلف ، أن يجمل القول فيه . فلم يزعم أحد أن المقوقس كان من غير الروم ومن غير المصريين وأنه في الوقت نفسه نشأ في القوقاس . وانما هذا كله مسخ لنظرية بتلر في ان هرقل نقل

(١) اشار بتلر الى ان ابا المحاسن ذكر الاسم الصحيح : اريطيون ، ولكنا رجعنا الى « النجوم الزاهرة ط . دار الكتب) فوجدنا : ارطبون(ج ١ ص ٢٤)

(٢) راجع الهوامش في المعرب للجواليقي ص ٢٦ ومافيها من المصادر ثم وازن لسان العرب ج ١٦ ص ١٥٧ — ١٥٨ ، وراجع ايضاً المعرب (ط اوربة ص ١١ من التعليقات) ففيه اشارة الى ان أصل الكلمة Tribunus وأنها دخلت في العربية من طريق السريانية

(٣) انظر جزء المقدمة والتعليقات والزيادات والتصويبات (ص CXII)

قيرس (المقوقس) من ولاية الدين في « فاسيس » ببلاد القوقاس ، وعلى ذلك فان من أقرب الأمور انه يسمى ففقاسيوس باللغة اليونانية ، وان هذا اللفظ اليوناني نقل إلى اللغة القبطية . . . ونشأ من هذه الصورة الاسم العربي : «المقوقس» (الترجمة العربية من كتاب بتلر ص ٤٦٢ — ٤٦٣) . وعلى أية حال فالوجه هنا أن لا يقال ما قاله العقاد : « المقوقس نشأ في القوقاس كما يدل عليه اسمه » خشية ان يوهم هذا الكلام ان العرب هم الذين أطلقوا عليه اسم المقوقس ، أخذاً من كلمة « قوقاس » ، وذلك لأن العرب في ذلك العهد وبعده بحقب لم يعرفوا القوقاس بهذا اللفظ ولكن عرفوا « القبج» و « القبق » (راجع مادة « قبق » في دائرة المعارف الاسلامية وما جاء فيها من مراجع) .

ومن الأمثلة على هذا اللون في الحكم قول المؤلف (ص ٢٢ و ٢٣) : « فهذه الأبهة المقصودة ولا سيما قبل استقرار السلطان له (أي لعمرو) هي أثر من آثار ذلك النسب المغموز وتلك القامة المحدودة » . وقد كتب ذلك تعليقاً على نص في قدوم عمرو للخطبة في الجامع بالفسطاط وحوله الشرط يزجرون الناس . فالصواب أنه كان قائد الجيش الفاتح ، إن لم يكن قد ضم إلى ذلك ولاية مصر ، وانه كان يسير في تلك الأبهة على سنّة كثيرين من الأمراء والقواد أما القول بأنها أثر من آثار القامة المحدودة والنسب المغموز فقول « مشدود من شعره » على حد تعبير الفرنسيين . حقًّا ما دخل القامة المحدودة هنا ؟ ! وهل يراد أن يسير كل أمير على نهج عمر بن الخطاب في التقشف والبساطة وإلاَّ اتهم بأن أبهته مقصودة وأنها أثر من نسب مغموز أو قامة محدودة ! ؟

• • •

وفي مواضع أخرى إجمال لبعض المسائل وإهمال لبعضها . وكان ذلك في الحالتين على حساب الوضوح والدقة العلمية . مثال ذلك قول المؤلف (ص ١٠١) : « وكان من أهم أعمال التعمير التي تمت على يديه — بأمر الخليفة — فتح الخليج الذي سماه بخليج أمير المؤمنين بين النيل والبحر الأحمر » . والعبارة لا يتضح منها تماماً أن هذا الخليج كان قناة بين النيل والبحر الأحمر في موضع قريب من سكة الحديد الحالية بين القاهرة والسويس وأنه يرجع الى عصر الفراعنة وإنما جدد عمرو حفره .

وأشار المؤلف (ص ١٠٢) إلى أسطورة اليمامة التي باضت في أعلى فسطاط عمرو بن العاص فأبى عمرو أن يقوض هذا الفسطاط حين اختط المدينة الجديدة شمالي حصن بابليون

فسميت هذه المدينة بالفسطاط . وليت المؤلف أشار هنا إلى الاشتقاق المشهور عند العلماء والذي يقول به المؤرخون المحدثون؛ فان لفظ الفسطاط عندهم مشتق من اللاتينية Fossatum بمعنى معسكر . والمعروف أن مدينة الفسطاط قامت على أرض المعسكر الذي نزله العرب شمالي حصن بابليون .

وقد لخص الأستاذ العقاد حجج القائلين إن عمراً لم يحرق خزانة الكتب بالاسكندرية، ولكنهُ لم يكن موفقاً كل التوفيق في هذا التلخيص ، فان بتلر كتب فصلاً في هذه المسألة وأجمل تلك الحجج في نهاية الفصل (ص ٣٦٨ — ٣٧٠ من الترجمة العربية) كما أجملها الدكتور حسن ابراهيم حسن في كتابه «تاريخ عمرو بن العاص » (ص ١٤٨ — ١٥٠) ؛ ولكن العقاد بالغ في إجمالها بأن حذف بعضها على قوته وخطر شأنه ، فجاء عرضه المسألة مبتوراً لا يغني كثيراً ، والمسألة خطيرة الشأن ووثيقة الصلة بسيرة عمرو

وفي رأينا أن المؤلف لم يوفِ نشاط عمرو في مصر حقه من البحث ، فان الكلام في ولايته على مصر لم يأخذ القسط الواجب من الكتاب .

وقد خلط المؤلف بين الروم والرومان (ص ٧٧ — ٧٨) فلم يتقيد بأن العرب استعملوا « الروم » لأهل بيزنطة . وأما الرومان فأهل الدولة الرومانية الغربية المنقرضة .

وكتب العقاد (ص ١٤٣) : «وقد اشتهرت القبريات في آداب الأمم وشاعت الكلمات التي حفظت عن العظماء في ساعاتهم الأخيرة » . ولسنا نعرف تماماً ما الذي يقصده بالقبريات ، ولكنا لا نظن أنهُ لفظ موفق للكلمات التي يقولها المحتضر على فراش الموت . وقد جاء في « ذيل المعجمات العربية » لدوزي Dozy ان « القبرية » هي نصب (شاهد القبر) pierre sépulcrale, tumulaire

• • •

وبعد فهذه ملاحظات عابرة لا تمنعنا من أن نشكر للأستاذ العقاد إقباله على خدمة التاريخ الاسلامي بالكتابة في سِيَر أبطاله وتبسيط أطرافه وعرضه في الأسلوب السلس الممتع الذي لا ند له قياده .

زكي محمد حسن



* البصر وفنه * The Art of Seeing

بقلم ألدس هكسلي Aldous Huxley

١٢½ × ٢٠ سم ١٤٣ ص لندن ١٩٤٣

ألدَسْ هكسلي أديب روائي، وشاعر، وعالم، من أسرة علماء مشهورين. وقد روى في كتابه « البصر وفنه » أنه أصيب في صباه — وكان في السادسة عشرة من عمره — بمرض في عينيه كاد يذهب ببصره، فظلَّ ثمانية عشر شهراً كالأعمى، يقرأ بطريقة بريل — أو براي — Braille — ويقوده خادم حين يمشي. وقد تركه المرض، وإحدى عينيه قد سدر بصرها والأخرى سادّة لا تبصر بصراً قويًّا. وكان السبب في ذلك وجود غبشات في القرنية. وزاد الأمر تعقيداً أن في النظر طولاً، وفي البصر انحرافاً. وقد أمره الأطباء أن يستعمل مجهراً يدويًّا قويًّا يستعين به على القراءة، وظلَّ هكذا بضع سنوات، حتى تسنى أن يستعمل النظارات للقراءة والمشي، على أن يضع في أقوى عينيه قطرات من « الأتروبين » فيتسع ناظرها ويستطيع أن يبصر من وراء النكتة التي في ذبابتها. إلى أن كان عام ١٩٣٩ فألفى أن القراءة أصبحت متعذرة على الرغم من النظارات القوية التي كان يتخذها. فحار ماذا يصنع إذا كفَّ بصره، وإذا به يسمع بطريقة جديدة لتدريب العين على النظر، وبمعلمة موفقة في استخدام هذه الطريقة. ولما كانت النظارات لم تعد لها عنده جدوى، فقد استقرَّ عزمه على تجربة هذه الطريقة. « وبعد شهرين اثنين، استطعت أن أقرأ بغير نظارات، وبدون إجهاد أو كلال. وصار ما كنت أعانيه من النَّقص المزمن، ونوبات الاعياء في خبر كان. وظهر ما يدل على أن النكتة التي ظلت خمسة وعشرين عاماً وزيادة ثابتة، قد بدأت ترق وتزول. وأن قدرتي على الرؤية لا بعد من أن تكون عادية، ولكنها الآن ضعف ما كانت حين كنت أتخذ النظارات قبل أن أتعلم فن الرؤية »

وقد ألف كتابه « البصر وفنه » ليقضي حق الشكر للمرحوم الدكتور و. ه. بيتس — W. H. Bates مبتكر طريقة تدريب العين على النظر، وتلميذته السيدة مرجريت كوربت التي تولت تعليم المؤلف، واليها يرجع الفضل فيما أفاد من صحة النظر.

وليست غاية المؤلف أن يصف هذه الطريقة فحسب، بل أن يوفق أيضاً بينها وبين ما انتهى اليه علم النفس الحديث والحقائق والنظريات العلمية والفلسفية الجديدة.

الطبيب يعالج ، والطبيعة تشفي — هذه العبارة المأثورة تلخص مدى قدرة الطب والغاية من العلاج ، وهي أن يهيئ الطبيب للكائن المريض الأحوال الداخلية والخارجية التي تمكن عوامل البرء والصحة من إحداث أثرها . ولولا هذه العوامل الطبيعية التي تحاول في كل كائن حي أن ترده إلى أحوال الصحة ، لما كان للطب حيلة ، ولا للعلاج جدوى ، ولصار كل مرض قاتلاً ، أو لا برء منه .

ويقول هكسلي بعد أن يسوق هذا الأصل ويشرحه إن الذي يحدث حين يذهب ضعيف البصر الى الطبيب هو أن يزوده الطبيب بنظارة ، تصحح الانحراف الذي يرجع اليه هذا الضعف ، ولكن النظارة لا تمحو العلة ، ولا تجعل العين تؤدي عملها على نحو طبيعي ، وكل ما تصنعه هو أنها تبطل تأثير الأعراض ولا تمحو علة الضعف ، ومن أجل هذا يزداد الضعف على الأيام ، وتحتاج العين بعد فترة طويلة أو قصيرة الى نظارات أقوى وأقدر على تقويم الانحراف ، والأمر لايخرج عن أحد فرضين : أن يكون ضعف البصر غير قابل للشفاء في ذاته ، أو أن تكون طريقة العلاج المألوفة خطأً في خطأ .

وقد اقتنع الدكتور بيتس — وكان رمديًّا مشهوراً في نيويورك — بأن علاج الأعراض بحث لا خير فيه ، وان ضعف البصر علته في كثير من الحالات ، سوء استعمال العين ، وأن سوء الاستعمال ذو صلة بالاعياء والتوتر وهما يؤثران في الجسم والعقل جميعاً . وأن هذا الاعياء يمكن إزاحة المرء منه ، ومتى تعلم المرء أن يستعمل عينيه، وعقله، على نحو لا إجهاد فيه ، فان البصر يقوى ، والانحراف يأخذ في الاستقامة .

ومن الحقائق الثابتة أنهُ كلما كان أداء العضو لوظيفته أحسن ، كانت حالة الأنسجة أحسن تبعاً لذلك ، وليست العين بدعاً ، فتشذ عن هذه القاعدة ، فاذا استطاع ضعيف البصر أن يرخي أعصابه ويعفيها من الشد ، وأن يحسن استعمال عينيه ، فان الفرصة تسنح للطبيعة، فتعمل عملها .

وكيف نكون على ثقة من أن طريقة الدكتور بيتس أقوم ؟ إن الوسيلة الى الحكم هي النتيجة . وليس أبعث على الثقة من أن النتيجة كانت النجاح في كل حالة . ثم إن طريقته قائمة على قواعد سديدة لا بد منها للنجاح في أي عمل . وكل معلم حاذق يقول لك « تعلم أن تجمع بين الاسترخاء والنشاط، وأن تعمل بغير إجهاد ، وأن تكد وتجتهد ولكن بدون تشدد »

وقد يبدو أن هذا من التناقض، ولكن الواقع غير ذلك ، فان الاسترخاء على ضربين :

سلبي وإيجابي . فأما السلبي فيكون بالراحة والكف عن بذل جهد ما ، ولكن هذا لا يكفي لأن الانسان لا يستطيع أن يقضي عمره في راحة . أما الاسترخاء الايجابي فذلك ان تدع جسمك وعقلك يؤديان عمليهما على نحو عادي طبيعي لا تكلف فيه ولا قلق ، كأن تحمل على نفسك ابتغاء الاتقان، أو أن يساورك الخوف والاشفاق بلا موجب ، من أن تخطىء ، وكلما صارت « أنا » أبرز ، صارت الطبيعة أخفى ، وعلم الطب لا ينكر ما يحدثه الشعور بالذات من إيهان المقاومة ، وتهيئة الأبدان وإعدادها للمرض . ومتى اشتد القلق أو الفزع أو الجزع أو الحزن وطال ، فان ذلك يستنزف حيوية البدن ويعرضه لأدواء شتى . ولا يعقل أن تخلو الحالة النفسية للانسان من أثر في بعض بصره .

ومعنى الرؤية هو أن العقل يطلع على أشياء في العالم الخارجي بفضل العينين والأعصاب. والعقل والعين والأعصاب تشترك وتتعاون لحصول الرؤية . وكل ما له أثر في عنصر من هذه العناصر يكون له أثره في العنصرين الآخرين . والعين والأعصاب وظيفتها الحس والنقل أما العقل فوظيفته الادراك ، والادراك مقترن بالتجربة ، أي بالذاكرة . فالرؤية الصحيحة ثمرة الحس الصحيح ، والادراك الصحيح . وقد يكون السبب في ضعف البصر راجعاً إلى العين ذاتها ، أو يكون سببه مردوداً إلى حالة الكليتين مثلاً أو الغدة الحلوة أو الحلق ، أو إلى ما يعتور النفس من حزن أو قلق أو اضطراب أو خوف ، وما إلى ذلك من الاحساسات السلبية ، فغير مقبول أن تكون النظارات علاجاً لهذا الضعف .

وبعد أن يبسط المؤلف الأسباب التي تؤدي إلى سوء الرؤية ، ينتقل إلى بيان ما يتبعه الدكتور بيتس وتلاميذه من الوسائل لتدريب العين على النظر الصحيح ، وكله مما لا عسر فيه ، وأول ذلك إفادة الاسترخاء السلبي والايجابي جميعاً . ووسيلته إلى الضرب الأول تظليل العينين بعد إغماضهما بالراحتين ، بغير ضغط أو فرك أو دعك أو غير ذلك ، إلى أن يستحيل مجال النظر كله أسود حالكاً ، ويمكن التعجيل بذلك بتخيل السواد أثناء التظليل ، إلا إذا أحس المرء أن التخيل يكلفه جهداً . وخير من تخيل السواد أن يشغل المرء ذهنه بتذكر ما يطيب تذكره من المناظر والحوادث .

ومن الوسائل أيضاً أن يطرف المرء كثيراً ، فان الجفن حين يطرف يغسل العين وينظفها ، ويحجب الضوء عنها أيضاً ، وقد أثبت علماء النفس ان الحركة من ألزم اللوازم للحس والادراك ، فاذا ظلت الجفون مفتوحة نادرة الحركة فان العين تعدى بهذا الجمود .

ولاحظ علماء النفس ايضاً أن هناك علاقة منتظمة بين « الالتفات » و « التنفس » .

فالمرء مثلاً حين يرنو الى شيء ليستثبت ، يعلق أنفاسه بضع ثوان ، أو يتنفس تنفساً خفيفاً غير عميق ، ولا بدّ لصحة النظر من أن تكون دورة الدم وافية حول العين وفيها ، ومن أجل هذا يجب أن يتنفس المرء تنفساً طبيعيًّا وهو ينظر .

ويجب أن يُطرد الخوف من النور ولو كان شديداً ، فليس للخوف منه داع ، والحيوان يحتمل الضوء في كل حال ، ولا يؤذيه ذلك ، ومن أجل هذا يستهجن الدكتور بيتس وتلاميذه اتخاذ النظارات السود أو الملونة ، لأن الضوء إنما يتعب العين المجهدة ، ومن هنا يتولد الخوف من الضوء ، وينشأ الشعور بالحاجة الى حجبه ، فالعلاج هو نفي الخوف وإرخاء الأعصاب ، بل يذهب الدكتور بيتس إلى حد النصح « بحمام الشمس » للعين . ويقول إنهُ لاخير من الشمس إلاَّ إذا حدَّق المرء فيها وشخص اليها ، أما مع الاعتدال والقصد فلا ضرر ، وكل إسراف مضرة ، وطريقة « حمام الشمس » هي أن تغمض العينين ، وترفع الوجه الى الشمس ، وتحركه يمنة ويسرة ، بضع ثوان ، ثم تفتح العينين وتحرك وجهك ذات اليمين وذات الشمال ، فان ذلك خليق أن يفيدك القدرة على احتمال الضوء

ولما كانت الحدقة لا تستطيع أن تبصر بكل أجزائها على حد سواء ، وإنما ترى على الخصوص ما تأخذه الذبابة التي في انسان العين ، فان الرؤية الصحيحة تكون بهذه الذبابة ، والرؤية التامة لا تتسنى الاَّ بالحركة التي تنتقل بها الذبابة من موضع الى موضع من الشيء المنظور . ومن هنا كان لا بدَّ لصحة الرؤية من تعويد العين والعقل أيضاً هذه الحركة اللازمة التي يصف لها الدكتور بيتس ما يرى أنهُ أعون عليها .

ومن العسير أن نورد في هذا الفصل الوجيز خلاصة وافية لما اشتمل عليه الكتاب ، وكل ما قصدنا اليه من التنويه بهِ هو لفت النظر الى هذا الأسلوب الجديد في علاج ضعف البصر ، وقد أسلفنا أن المؤلف يقول إنهُ استفاد قوة في بصره لم تكن معهودة بعد أن قارب العمى .

وبعد ، فليس ضعف البصر مما أشكو ، ولكني احتجت الى اتخاذ النظارات ، لأن أعصاب العين تفقد مرونتها مع ارتفاع السن كما قال لي الأطباء ، واحتجت الى تغييرها كل بضع سنوات ، وقد جربت بعض ما وصفه المؤلف في كتابهِ وقال إنهُ يكسب العين صحة في النظر وقوة ، وأشهد أني أصبحت أقدر على القراءة بغير نظارة ، وأكثر استغناءً عنها .

فلعلَّ أطباءنا الرمديين يعنون بهذا الكتاب ، ولا يبخلون علينا برأيهم فيه

ابرهيم عبد القادر المازني

• دراسات عن مقدمة ابن خلدون • بقلم أبي خلدون ساطع الحصري

١٤٫٥ × ٢١٫٥ سم جزآن ٣٢٤ ، ٢١٦ ص

مطبعة الكشاف بيروت ١٩٤٣ و ١٩٤٤

استوعب المؤلف درس مقدمة ابن خلدون ، استيعاباً بديعاً دقيقاً ، في كل ناحية من نواحيها ، وكشف عن أسرارها وعن مزاياها ، في هذا السفر الضخم النفيس .

إنهُ يكشف لأبناء العروبة عن كتاب هو مفخرة من مفاخر العرب في القرن الثامن الهجري ، لم يلقَ من عنايتهم ما لقيه من عناية غيرهم من الترك والافرنج ، إلاَّ قليلاً . فلا تزال طبعاته ناقصةً محرفةً ، ولا تزال نظرياته عندهم بكراً لم يفترعوها ، ولا يزال الكتاب عنهم محجوباً .

أليس مما يؤسف لهُ أن تطبع « مقدمة ابن خلدون » في مصر والشأم طبعات عدة ، ليس فيها طبعة معتمدة ، ولا كاملة محققة ، وأن تكون الطبعة الوحيدة التي يمكن الثقة بها هي طبعة باريس سنة ١٨٥٨ م باعتناء المستشرق « كاترمير » ، التي اعتمد فيها على أربع نسخ مخطوطات ، والتي أثبت فيها زيادات جمة لم تذكر في غيرها ؟ يقول المؤلف في ذلك : « فإذا قارنَّا إحدى هذه الطبعات بطبعة باريس نجد أنهُ ينقص منها أحد عشر فصلاً كاملاً من الفصول المهمة ، كما ينقص منها عدد غير قليل من الأبحاث والفقرات من الفصول المختلفة ، وإذا أحصينا مجموع صفحات هذه الفصول والفقرات الناقصة نجد أنها تزيد على الستين » .

ومن مزايا الكتاب أنهُ قد استكمل كثيراً ممَّا نقص في طبعات المقدمة ، نقل بعض الفقرات الناقصة ، ونقل بعض الفصول المتروكة ، استكمالاً للبحث ، وتقريباً على القارئ ، وقد صارت طبعة باريس من أندر النوادر .

أوَليس من العجائب أيضاً ما يقول المؤلف : « إن أهم الدراسات التي كتبت بأقلام بعض الشبان العرب ظلَّت خارجة عن نطاق المطبوعات العربية الى الآن » .

لقد درَس أبو خلدون سلفه العظيم « ابن خلدون » دراسة دقيقة جامعة ، درْس عالم محقق ، يصيب كثيراً ويخطئ قليلاً ، إن أصاب فعن معرفة وثبت ، وإن أخطأ فبعد بحث وجهد ، وله لا عليه في الحالين : اجتهد فأصاب أو اجتهد فأخطأ .

ونظر نظرة عادلة في نقد كتب المتقدمين ووضع له قاعدة دقيقة : أن لا ينظر اليها بمنظار العلوم في هذا العصر، وإنما تقاس الى ما كان من قواعد العلم في العصر الذي ألفت فيه.

وعلى هذه القاعدة العادلة سار المؤلف في دراسة المقدمة ونقدها والموازنة بينها وبين ما ثبت علميًّا في العصور السالفة والعصر الحاضر، وتتبَّع عمل الرجل في طريقة درسه للمسائل، وطريقة تفكيره، وشهد لهُ شهادة صحيحة قيمة حين يقول: «إن أبرز صفات تلك العقلية هي شدة التشوف ودقة الملاحظة ونزعة البحث والتعميم وقدرة الاستقراء. فاننا نجد في المقدمة كثيراً من الاستقراءات المستندة إلى ملاحظة الواقعات. وقلما نعثر على آثار الاندفاع وراء المجردات والاسترسال في سبيل الاستنتاجات» ج ٢ ص ١٧٣. ونقل شهادةً لابن خلدون لها قيمتها، من رجل أوربيّ من رجال الدين، هو روبرت فلينت الذي كان أستاذاً في جامعة أدنبرة، ونشر في سنة ١٨٧٤ كتاب (فلسفة التاريخ في فرنسة وألمانية) قال فيه:

«من وجهة علم التاريخ أو فلسفة التاريخ يتحلى الأدب العربي باسم من ألمع الأسماء، فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة ولا العالم المسيحي في القرون الوسطى يستطيع أن يقدّم اسماً يضاهي في لمعانه ذلك الاسم. إذا نظرنا إلى ابن خلدون كمؤرخ فقط نجد من يتفوّق عليهِ حتى بين كتّاب العرب أنفسهم. وأما كواضع نظريات في التاريخ فانهُ منقطع النظير في كل زمان ومكان حتى ظهور فيكو بعده بأكثر من ثلاثمائة عام. ليس أفلاطون ولا أرسطو ولا القديس أوغسطين بأندادٍ له، وأما البقية فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه. إنهُ يستحق الاعجاب بما أظهره من روح الابتكار والفراسة والتعمق والاحاطة» ص ١٤١.

ومن أجود ما في الكتاب وأنفسه أن المؤلف عقد موازنات محكمة وافية بين نظريات ابن خلدون ونظريات من جاء بعده من أساطين أوربة. فقارن بين ابن خلدون وفيكو الايطالي (المولود والمتوفى في نابولي ١٦٦٧—١٧٤٤) في كتابه (العلم الجديد) الذي سمي بسببه «مؤسس فلسفة التاريخ ومؤسس علم الاجتماع» ج ١ ص ١٤٣— ١٧٠ ومما أثبت في المقارنة أن فيكو يصدق قصص العمالقة ويبني عليها قسماً كبيراً من آرائه ونظرياته في حين أنّ ابن خلدون يفندها بصراحة وشدة. ثم يوازن بين طريقتيهما في البحث والتفكير، ويقول: «فلا مجال للشك إذن في أن نزعة ابن خلدون الفكرية في هذا الصدد كانت أقرب من نزعة فيكو الى مناحي الابحاث العلمية بوجه عام والى أصول علمي التاريخ والاجتماع بوجه خاص» ج ١ ص ١٦٧ ثم يسجل حكماً في هذه المحاكمة العادلة بأن حق ابن خلدون في لقب

« مؤسس علم التاريخ » أو « فلسفة التاريخ » أقوى وأثبت من حق كل كاتب سبق « فيكو » كما قال « فليفت » وأقوى وأثبت من حق « فيكو » نفسه ، لأنه كان أقدم منه كثيراً ، ولأنه كان أقرب منه الى الروح العلمي الحديث » ج ١ ص ١٧٠

وعقد فصلاً آخر في المقارنة بين ابن خلدون ومونتسكيو (ولد سنة ١٦٨٩ ومات سنة ١٧٥٥) في كتاب (روح القوانين)(١) ج ١ ص ١٧١ — ١٩٢ ومما يقول في هذا الفصل : « من الثابت أن مونتسكيو كان قد أبدى طائفة من الآراء الاقتصادية التي ثبت بطلانها بعد مدة وجيزة ، كما أنه أغفل كثيراً من الحقائق الاقتصادية التي تمّ اكتشافها قبل مرور مدة طويلة مما يدل دلالة قطعية على أنه لم يتفوّق على معاصريه تفوقاً كبيراً في أبحاثه الاقتصادية. في حين أن ابن خلدون كان قد سما فوق معاصريه سموّاً هائلاً في هذا المضمار ، كما أنهُ ظل يحلّق فوق مستوى الذين جاؤا بعده أيضاً ، في الشرق وفي الغرب ، مدة قرون عديدة » ج ١ ص ١٨٢

وعقد أيضاً فصلاً جليلاً عن ابن خلدون وعلم الاجتماع ج ١ ص ١٩٣ — ٢٠٥ بيّن فيه أن علم الاجتماع أحدث العلوم الأساسية ، ويعزى تأسيسه الى أوغست كونت (سنة ١٧٩٨ — ١٨٥٣) وأن حق ابن خلدون بلقب « مؤسس علم الاجتماع » أقوى من حق كونت ، لأنهُ فعل ذلك قبله بمدة تزيد على ٤٦٠ سنة . أقول أنا : وقد أدرك ابن خلدون أنه يضع علماً مستحدثاً في الاجتماع إذ يقول : « وكأنّ هذا علم مستقلّ بنفسه ، فانه ذو موضوع وهو العمران البشريّ والاجتماع الانساني ... واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة أعثر عليه البحثُ وأدّى اليه الغوص ... وكأنه علم مستنبط النشأة ، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة الخ » المقدمة ص ٣٦ ، ٣٧ من طبعة بولاق سنة ١٣٢٠

وهكذا من مزايا الكتاب ، مما لا نستطيع أن نحصيه في هذا المقام ، ولا نستطيع أن نفيه حقه من الثناء ، إلاّ أن نوصي كل قارىء عربيّ أن يستوعب الكتاب قراءة ودرساً ، ليفيد علماً جمّاً ، وعقلاً سديداً

• • •

وفي الكتاب مآخذ ليست بالكثيرة ، جلها مما يرجع إلى مقدرة المؤلف وعلمه بالعربية.

(١) كتاب مونتسكيو ترجم منه يوسف آصاف النصف الاول ، باسم (أصول النواميس والشرائع) وطبع هذا الجزء بالمطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩١ وهو عندي ، ولا أدري أترجم النصف الثاني وطبع أم لا ؟

فان الكتاب كُتب بلغة غريبة ، في كثير منها نبوّ عن العربية في اللفظ والأسلوب

ولسنا نفصل القول في ذلك، ولكننا نضرب فيه الأمثال : « حين كان مفكرو أوروبة لا يزالون يتيهون في فيافي التفكير الكلماني الدرساني » ١ : ٢٥٠. — « يلاحظ أن مواضيع كل حد من حدود هذه السلسلة أقل عمومية وأشد معضلية من التي قبلها ، وأشد عمومية وأقل معضلية من التي بعدها » ١ : ١٩٤ — « وبهذه الصورة أصبح علم الاجتماع يسيطر على جميع العلوم الاجتماعية ، أرضي أم أبى أصحابها ، وأخذ ينفخ روحاً تقدمياً فيها » ١ : ١٩٨ . « ان معظم مباحث المقدمة مكتوبة بنزعة علمانية وعقلانية » ١ : ٧٣ « ان الأفاعيل الحياتية أشد إعضالاً من الحادثات الكيماوية » ١ : ١٩٣. وهكذا مما ملئ به الكتاب مما يباعد بينه وبين العربية .

وقد أتى المؤلف مراراً بفعل « استهدف » متعدياً ، مثل : « فانها لا تستهدف شيئاً » ١ : ٩ وهو فعل لازم ، لا يؤدي المعنى المراد هنا ، وليس هذا الخطأ خاصاً بالمؤلف ، بل رأينا كثيراً من كبار الكتّاب بمصر يقعون فيه .

وأنا أوقن أن ضعف لغة الكتاب لم يكن عن عمد من مؤلفه ، ولا تقصيراً منه في استكمال لغته . ولكن يبدو لي — ولم يسبق لي شرف التعرّف إليه — أنه نشأ على دراسة أجنبية ، شأن كثير من نبهاء هذا العصر ، ثم شغلته الحياة عن التعمق في العربية وعن التمرس بفصيح الكلام .

• • •

وقد عقد المؤلف فصلاً عن تطور الألفاظ واختلاف دلالاتها باختلاف العصور والموضوعات وهو شيء معروف في العربية ، وإن كان يوهم كلامه أنه شيء مستحدث ، ثم ضرب من أمثلة ذلك كلمتي « الأبنية » بمعنى الخيام و « المصانع » بمعنى المباني ، جعلهما كأنهما اصطلاح خاص أو استعمال مستحدث لابن خلدون ، وليس كذلك . فان « الأبنية » كما تطلق في العربية على المباني تطلق على الخيام ، بل لعلها في الخيام أقدم ، ففي اللسان : « البناء واحد الأبنية وهي البيوت التي تسكنها العرب في الصحراء فمنها الطراف والخباء والبناء والقبة » و « المصانع » معروفة جاءت في القرآن الكريم : « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » سورة الشعراء آية ١٢٩ . والمصانع هي ما يصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرها ، قال الأزهري : « ويقال للقصور أيضاً مصانع »

وقد ترجم المؤلف اصطلاحاً افرنجيًّا ترجمة عجيبة ، لا تطابق المعنى ، وينبو عنها السمع . فانهُ نقل عن علماء الاجتماع المتأخّرين تقسيم الحكمة والسلطة الى «السلطة المنتشرة» التي لا يختص بها أشخاص معينون ولا تتعهدها هيا ت منظمة ، والسلطة « المتعضية » التي يختص بها أشخاص معينون وتتعهدها هيآ ت.« متعضية » وفق أنظمة معينة . ج١ ص ٢٤٥. فهذه « المتعضية » يريد بها السلطة الموحدة المنظمة ، يترجم بها كلمة Organisé وأصل الكلمة الفرنسية ، كما وجدت في المعاجم وكما أفادني بعض العارفين ، معناها : ذو أعضاء ، فاشتقَّ منها المؤلف كلمة « متعضية » ولكن علماء الاجتماع لا يريدون هذا فانهم نقلوها إلى إرادة معنى « السلطة الموحدة المنظمة »

فهذا تكلف من المؤلف ، لم يكن به اليه حاجة ، ألجأه الى كلمة ثقيلة ، وإلى اشتقاق إن وافق العربية وافقها على معنًى ينقض ما أراد، فان « التعضية » التفريق، وهو مأخوذ من الأعضاء ، كما في اللسان ، وهيهات هذا من ذاك .

والمؤلف يؤرخ الحوادث العربية الخالصة في الكثير الأغلب بالتاريخ الافرنجيّ يقتصر عليه ، وقد يضم اليه التاريخ الهجري في بعض أحيانه . وليته جعل التاريخ الهجريّ أساس تأريخه ، وهو يؤرخ لمؤلف إسلاميّ يكتب في تاريخ الاسلام وعلوم الاسلام .

ثم خاض المؤلف في موضوع شائك ، الجدال فيه بغيض وعقيم : موضوع الدين والعقيدة ، والعقل والتفكير والعلم ، في مواضع متعددة ، انظر منها مثلاً (ج ١ ص ٤٢ — ٤٨ ، ٧٦ ، ٢٤١ — ٣٤٣ وج ٢ ص ١٥٠ — ١٧٢) ويبدو لي أنه متأثر في كتابته بنظرية العداء بين العلم والدين وبين العقل والدين ، وهي نظرية بالية ، خجلت حتى احتجبت ، وذلت حتى استكانت . ولو أعرض عن الخوض في هذا الموضوع أنصف نفسه ، إذ يخيل لمن يقرأ ما كتب أنه قد خفي عليه كثير من دقائق الدين والشريعة وظواهرهما ، وأن ذلك كان ذا أثر بيّن فيما فهم من كلام ابن خلدون وأدرك من مراميه

والكتاب في جملته من أقوى الكتب التي ظهرت في بضع سنين ، فيه علم جم وآراء سديدة . ونتمنى أن يعيد المؤلف النظر في لغته عند إعادة طبعه ، إن شاء الله .

احمد محمد شاكر

« العلم في الحرب » بقلم أمين إبرهيم كحيل

١٣ ½ × ١٩ ½ سم ١١٨ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٤

كل من يستقري تاريخ الحرب والعلم ، يجد بينهما علاقة مطردة . فالعلم يمد المقاتل بأدوات جديدة للفتك والتدمير ، تمكنه من مفاجأة عدوه بها ، وقد تكون سبيله الى الظفر بعد احتمال الهزيمة . والحرب تحفز العلماء الى ابتكار أساليب ووسائل جديدة ، أو اتقان القديمة . فيصيب العلم ، حتى البحت منه أحياناً ، قسطاً وافراً من الارتقاء لا يمكن إهماله . فكشف البارود واستعماله جاءا نتيجة لبحث علمي صناعي في أخلاط الأملاح ، ولكنه أسدى إلى العلم يداً بيضاء لا تقوَّم بمال . فدراسة فعل التفجر ، وهو فعل كيميائي ، أفضت إلى البحث في طبيعة الاحتراق وخواصّ الغازات . وعلى حقائق هذين الموضوعين ، قامت نظريات الكيمياء في القرنين السابع عشر والثامن عشر

وظاهرة التفجر مهدت لبحث تمدد الغازات ، فإلى المحرك البخاري الذي أوحى به انطلاق قذيفة المدفع ، فشغل الفكر باختراع طريقة لحصر الطاقة العظيمة التي تدفع القذيفة واستعمالها في التحريك . وصنع المدفع حفز نشاط المعدنين وأفضى إلى ارتقاء علوم التعدين وكيمياء الفلزات والكيمياء غير العضوية .

وليس هناك ما هو أعظم استيقافاً للنظر في هذه الحرب من تأثرها بتطبيق البحوث والمكتشفات العلمية ومن تأثر العلم بمقتضياتها من بعض نواحيه . والصلة الأولى معترف بها ولكن الثانية قلما تنال نصيبها من العناية على شدة الحاجة إلى بيان ذلك .

وكتاب الأستاذ كحيل — العلم في الحرب — كتاب جيد في الحدود الضيقة التي اختارها المؤلف له . فهو يميل إلى التبسط في مسائل بعض العلوم التي لها بالحرب صلة وثيقة . والأستاذ كحيل مجيد في التبسيط فهو حين يحاول مثلاً أن يبين منزلة النتروجين في المفرقعات — أو المواد المتفجرة — يقول : « هذه أنواع المفرقعات والغريب في أمرها جميعاً (على التقريب) أنها مركبات يدخل فيها النتروجين وأحياناً الأكسجين وعناصر أخرى . والنتروجين هذا من عناصر تكوين الهواء ، وهو عنصر عنيد يكره الارتباط الدائم بغيره من العناصر ، ولا يرتبط حين يرتبط إلاَّ مضطرًّا وتحت تأثيرات عنيفة ، فإذا ما أتيحت له الفرصة انفصل سريعاً عما يربطه بقوة وعنف لدرجة يحدث عندها الانفجار . فالنتروجين كالمرأة اللعوب الشديدة الاغراء ، لا تقبل الارتباط الوثيق برجل إلاَّ مضطرّة ، ثم لا تكاد

ترتبط به حتى تتحيّن الفرص للانفصال عنهُ — فتثير الزوابع وتسبب القلاقل حين تنفصل عنهُ » صفحة ١٣

وقد بسط المؤلف في ستة فصول نواحي من الحرب، للعلم أعظم شأن فيها، هي : المفرقعات وأنواعها وأسرار تركيبها وتفجرها ونواحي استعمالها . والحرب الكيميائية — أي ما كان له صلة بالغازات والأبخرة واللهب والدخان . والنفط — البترول على قوله — وما أصله وفصلهُ ومنزلته في الصناعة والنقل والقتال ، وكيف يصنع بالتأليف الكيميائي حين يعزّ وجود موارده الطبيعية . ثم الخرسانة ، والحديد والصلب ، والألومنيوم .

ولعلّ الأستاذ كحيل نفسه — وهو متوفر على الكيمياء خاصة — قصر بحكم توفره ، بحث « العلم في الحرب » على المسائل التي تمتّ إلى الكيمياء بأدنى سبب . فجاءت فصول الكتاب بالقياس إلى عنوانه ، خاليةً من تبسيط موضوعات علمية أخرى كثيرة لها بالحرب أوثق صلة . فثمة ناحية الطب مثلاً ، وقد كان المشهور بين مؤرخي الحروب ، أن الأوبئة في الحروب أفتك بالجند من القذائف النارية على أنواعها . فكيف تمكّن العلماء من ضبط الأوبئة وتوقية الجند شرورها . فالاقسام الطبية في الجيوش الحديثة صنعت العجائب في الاحتياط والتنظيم للوقاية والمعجزات في إبراء المصابين . وثمة ناحية النقل ، وناحية الغذاء . وفي الناحيتين كلتيهما ما يتحدث بآيات العقل العلمي المبدع ، او العقل العلمي المنظم . اما الصناعة على تعدّد نواحيها فحديث العلم فيها عجب لا ينتهي . كيف بدأ صنع المطاط الصناعي طفلاً يحبو ، ثم كيف ارتقى في خلال سنتين تقريباً ، الى منزلة جبّار عنيد . وما صلة الحرب بما يعرف عن الموارد الطبيعية في قارّات الارض . وكيف ترتبط الخطط الحربية ، والأهداف العسكرية ، بالمواقع التي تغزر فيها هذه الموارد . كلّ هذا وغيره من موضوعات « العلم في الحرب » قلما تجد له اكثر من ذكر عابر في فصول الأستاذ كحيل .

ونحن نعترف بأن تفصيل جميع هذه الموضوعات كان يقتضي كتاباً أكبر من كتابهِ كثيراً ، أو كتباً متعددة ، ومشاركة فريق من الكتاب الذين توفروا على هذه العلوم كما توفر هو على الكيمياء ، فكان يحسن في هذه الحال أن يجعل « العلم في الحرب » عنواناً عامّاً لسلسلة من الكتب ، يكون كتاب « الكيمياء في الحرب » حلقتها الاولى .

على أن الأستاذ كحيل أسدى في الفصل الأخير من كتابه خدمة جليلة ، لتبرئة العلماء مما يكال لهم جزافاً من إتهام بأن ويلات الحروب الحديثة تقع تبعتها عليهم . فتوضيح الرأي في هذا الموضوع واجب ، لأن العلماء : « لا يعنيهم إلا أن يبحثوا عن قوى الطبيعة

الظاهرة والكامنة » . فالمادة المتفجرة التي صنعوها ، تدمّر إذ هي قذفت من مدفع ، ولكنها تستعمل كذلك في تمهيد الطرق وشقّ المناجم ، والنترات الداخلة فيها تستعمل في التسميد . والطائرة التي تصبُّ النقمة على المدن ، هي كذلك وسيلة من وسائل النقل والانتقال ، تربط بين قارات الأرض . وجهاز « الرادار » الذي يستعمل لتبيُّن الطائرات المغيرة ، يُستعمل كذلك لوقاية الطائرات والسفن إبان السلام ، مخاطر الاصطدام والظلام . أما هل يستعمل الكشف العلمي ، أو الاختراع ، لأغراض الفتك أو لأغراض الإنشاء والتبادُل وتيسير الحياة ، فمرجعهُ إلى أخلاق الناس . فالعناية يجب أن تكون بالتربية العالية . والعلم الصادق نفسهُ ، من حيث هو طريقة وأسلوب وطابع فكري ، من أفعل وسائل هذه التربية . فالعلاج لا يكون بخفض شأن العلم ، ومنحهِ « إجازة » كما قال أحد قساوسة الانكليز من سنوات ، بل بالمزيد منهُ ، وبطبع الناس بطابعهِ الأصيل ، جنباً الى جنب التربية الخلقية القائمة على إرشاد الأنبياء والمصلحين وعبر التاريخ .

فؤاد صرّوف

• المفضليات • الجزء الثاني للمفضل الضبي

تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون

١٦½ × ٢٣ سم ٢٣٤ ص + ١٩ للمسارد مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٣

المفضليات هي مجموعة من القصائد العربية يبلغ عددها ١٣٠ قصيدة قيل إنها من اختيار المفضل الضبّي من رواة القرن الثاني الهجري ، وقيل إنها ليست كلها من اختياره [1]

---

(١) لا أجد بدّاً من التنويه بالمقدمة التي صنعها المحرران في الجزء الأول من هذا الديوان (القاهرة ١٩٤٢) إذ نظرا في قيمة « المفضليات » من جهة تاريخ الادب (ص ٨ — ٢٤) فعمدا الى النقد في سبيل تمحيص النص وتعيين زمنه أو قائله أو متخيره أو حافظه . فتحريا الآراء والاخبار والاقوال وعارضا بعضها ببعض حتى انتهيا من طريق الاستنباط والاستئناس جميعاً الى « أن هذه المفضليات التي شرحها ابن الانباري ليست كتاب المفضل خالصاً ، وان فيه زيادات للرواة ، وان فيه قصائد من الاصمعيات ، وان الاصمعيات ليست كل ما اختار الاصمعي ، بل أدخل بعضه في القسم الاول الذي ميز باسم « المفضليات » . وبعد هذا التمحيص الدقيق — وكان في ود القارىء المستمتع أن تمتد فقره — عرض المحرران في دراية لشروح المفضليات وطبعاتها (وهنا أهملا الجزء الاول من ط الاستانة ١٣٠٨ ه) وليتهما لم يوجزا حيث يرقب القارىء بعض الاستفاضة من جانب من تعرف فيه الاحاطة والميل الصادق الى التقصي . هذا ولعل المحررين يرجعان الى ما جمعه بروكلمن في تكملة تاريخ الادب العربي (ج ١ ص ٣٧ ، ١٧٠) فربما أصابا هنالك فائدة — ب . ف .

وقد طبعت المفضليات في مصر مرتين: أولاهما في سنة ١٣٢٤ هـ وثانيتهما في سنة ١٣٤٥ مع شرح وجيز في كل من الطبعتين. الى أن دفعت الغيرة والحفاظ الأدبي الأستاذين أحمد شاكر وعبد السلام هارون الى إظهارها في ثوب طريف معتنًى بالقيام عليه والتحقيق فيه. وذلك عملٌ ليس بالهيّن، وجهد ليس بالضئيل. وإني لأتصوّر الشارحين وهما - في سبيل عملهما - ينقبان بين الكتب، ويقضيان الساعات بين المراجع والشروح والمعاجم والتراجم حتى يتم عملهما على أكمل وجه من وجوه التحقيق الذي نحتاج اليه اليوم في إبراز التراث العربي القديم.

وتحقيق متن هذا الديوان يحتاج من الجهد والصبر وحسن النظر والفهم الى مقدار اجتمع منهُ للأستاذين أوفر نصيب. تشهد بذلك الكتب التي أخرجاها مجتمعين أو منفردين. وكتاب «لباب الآداب» لأسامة بن منقذ الذي أخرجه شاكر، و«الحيوان» للجاحظ الذي يخرجه عبد السلام هارون هما أصدق مثال على ما نقول.

ومن المخرجين المحدثين للكتب من يريحون أنفسهم ليُضنوا القارئ ويُتعبوه.. ولكنَّ الاستاذين ممن يتعبون أنفسهم ليريحوا قراءهم. وهو تعب يهوّنهُ عليهما رِضَى الأدب اللباب عنهما.

أليس من التعب والجهد ألاَّ يكتفي الأستاذان بتحقيق المتن والشرح، فيضيفا فهارس طيبة بالشعراء، والقوافي والكلمات التي وردت في الشعر ولم ترد في المعاجم، والأوصاف المختلفة والتشبيهات المأخوذة من البيئة العربية، ومواضع الفخر، والمعاني العامة التي توارد عليها شعراء المفضليات؟.

كان يكون عمل الأستاذين أجل وأشفى لحاجة النفس لو أضافا فهرسين آخرين: أحدهما للمعاني المشتركة أو المتداولة التي اشترك فيها شاعران أو أكثر، وثانيهما للعبارات المشتركة التي لم يختص بها شاعر وحده أو يستأثر بها دون غيره ولكنها وجدت سبيلاً الى كل شاعر.

فمن العبارات المشتركة في الشعر الجاهلي هذه العبارة: — «تبصَّر خليلي هل ترى من ظعائن» للشاعر المرقش الأصغر. ص ٤٥ سطر ٤. والشطر بنصه ورد في معلقة زهير حيث يقول:

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن تحملن بالعلياء من فوق جرثم

(شرح القصائد العشر للتبريزي ص ١٠٣ المطبعة السلفية) — ثم البيتان:

أعددت للأعـــداء موضونة فضفاضـة كالنّـهى بالقاع
أحفزها عني بذي رونق مهنـد كالملح قطـاع

ص ٨٤ سطر ٦ . يكادان يتفقان لفظاً مع قول حسان بن ثابت :

لقد غـــدوت أمام القوم منتصفا بصارم مثل لون الملح قطـاع
تحفز عني نجـاد السيف سابغة فضفاضة مثل لون النّهى بالقاع

(ديوان حسان ، شرح محمد العناني الضابط ، ص ١٠).

ومن المعاني المشتركة قول المرقش الأصغر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

(المفضليات ص ٤٧ سطر ١) ويشبهُ قول الشاعر :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

ومن المعاني والعبارات المشتركة قول المرقش الأصغر :

دما يـــدم وتعفّى الكلوم ولا ينفع الأولين المهـــل

(المفضليات ص ٥٠ سطر ٢) ويشبهه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته :

تُعفى الكلوم بالمئين فأصبحت ينجمها من ليس فيها بمجرم

(جمهرة أشعار العرب — المطبعة الأميرية ، ص ٤٩).

ومن المعاني والعبارات المشتركة قول الحصفي المحاربي ص ١٢٠ سطر ٨ :

لنا العزة القعساء نختطم العدى بها ثم نستعصي بها أن تحطّما

ويشبه الجملة الأولى من البيت قول الفرزدق :

لنا العزة القعساء والعدد الذي عليه إذا عد الحصى يتخلف

(شرح ديوان الفرزدق — طبعة الصاوي ص ٥٦٦ — السطر الأول من الهامش) .

والمعاني والعبارات المشتركة كثيرة جدًّا في المفضليات ، وما كان أحوجها إلى مسرد نفيس جديد في نوعه من صنع الأستاذين .

وقد لجأ الشارحان في كل قصيدة إلى عملين جليلين : شرح الجو الذي قيلت فيه القصيدة والدواعي التي نزعت بالشاعر إلى قولها ، وتخريج القصيدة في كتب السير والأدب والدواوين

واللغة وغيرها . وهذا العمل الثاني يقتضي من الجهد والضنى ما يستحق عليه الناشران التهنئة والتقدير .

وما دام الكتاب ديواناً للشعر الجزل الرصين فكم كنا نرجو أن يضع الشارحان جدولاً في ذيل الكتاب بالزحافات والعلل التي وردت في النص ،حتى يكون القارئ على بصيرة منها فلا تشوش عليه موسيقى الشعر . وقد يعتذر الشارحان بأن هذا ليس من سبيل عملهما في إخراج ديوان ، ولكنهما شرحا وعلقا وحققا واستحدثا فهارس لم يسبقا اليها في إخراج ديوان شعري ، فما ضرَّ لو أضافا إلى الفضل فضلا ؟

ومن هذه الزحافات والعلل والعيوب الشعرية التي لم يتعرضا لها أصلاً سناد الاشباع ص ٢٦ سطر ٨ . ففي البيت اختلاف حركة الدخيل بحركتين متقاربتين في الثقل . وقد وقع هذا العيب في ص ٨١ البيت الخامس . وفي صفحة ٣٣ البيت الرابع .

ومن العلل « الخرم » الوارد في ص ١١٧ سطر ١ وفي ص ١١٨ سطر ٤ .

•••

أما البيت المشهور للمرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا نيرٌ وأطراف البنان عَنَمْ

فقد ذكر الشارحان في الهامش ص ٣٨ أن كلة دنانير يقرأها كثير من الناس مصروفة وهو خطأ — اه . وهذا صحيح . ولكن ما بالهما استعملا هذا الخطأ فى صفحة ٣٩ المقابلة. فقد أوردا البيت :

بيض مصاليتٌ وجوههمُ ليست مياه بحارهم بعُمُمْ

بصرف كلة مصاليت . والصواب منعها من الصرف مع استقامة الوزن ، فالقصيدة من البحر السريع . وتقطيع الشطر الأول : مستفعلن مفتعلن فعلن : وذلك مأخذ ما كان ينبغي أن يفوتهما .

وبعدُ . فالمفضليات في ثوبها الجديد عمل يهنأ عليه الشارحان . والكتاب لا غنى عنهُ للأديب الذي يود الاستيثاق من لغته الشريفة والتمكن من أساليبها القديمة التي هي ثروة الكاتب وعدّة الأديب

وفق الله الأستاذين إلى إتمام عملهما بنشر كتب المتقدمين نشراً مثل هذا تطمئن إليه النفس ويعتمد عليه الباحث .

محمد عبد الغنى حسن

• تقي الدين أحمد بن تيمية • بقلم هنري لاوست H. Laoust

١٦ × ٢٤ سم جزآن ٧٥٥ ص ، ٢٤٧ ص

المعهد الفرنسي للآثار الشرقية القاهرة ١٩٣٩

من جلائل أعمال فرنسة المثقفة قيام تلك الدار في حيّ المنيرة بالقاهرة : دار المعهد الفرنسي للآثار الشرقية . وبأمثال هذه الدار الرفيعة تعوّض فرنسة ما قد يبدر من بعض رجالها في الشرق خاصةً في غير ميدان الثقافة . وتخرج هذه الدار كتباً على التتالي هي مثال التأليف العلمي الرصين . وهذا الكتاب آخر ما خرج من الكتب ، وصاحبه المستشرق لاوُسْت الدكتور في الآداب من السربون ومدير المعهد الفرنسي بدمشق . وأما موضوع الجزء الأول فمحاولة في عرض مذاهب ابن تيمية الحنبلي المتوفى بدمشق سنة ٧٢٨ هـ في جانب السياسة والاجتماع . وفي هذا نفي لقول من يقول إن الفقهاء من المسلمين أصحاب حِيَل جوف وآراء مجرّدة ونصوص جافّة . فالفقهاء المبرزون — وفيهم ابن تيمية — لابسوا أحوال العصور وتعرّفوا صفات أهلها ، فمذاهبهم كالمرايا

وطريقة المؤلف المحص عن البيئة التي نشأ فيها ابن تيمية وتصفح خصائصها ، ثم تبين مزاج ابن تيمية وطبعه وحاله ، ثم درس مذهبه درساً ممعناً آخذاً بالباطن والبعيد والغريب والقوي ، ثم تتبع أطوار المذهب في التمادي والانحراف والتكامل والتمايز . وعلى هذا كسر المؤلف كتابه — وهو يسميه متواضعاً : محاولة — على ثلاثة أبواب : الأول في قيام مذاهب ابن تيمية متأثرة بالبيئة والنشأة العقلية والجهاد الاجتماعي . والثاني في أركان المذاهب — وهي الله والرسول والسلف والاجتهاد بجنب أصول الفقه — ثم العناصر التي تؤلف المجتمع والدولة — وهي الأمة أو الجماعة وأهل الكتاب فالإمامة والنواب — ثم غاية الأمة والامامة — وهي إقامة شعائر الاسلام والحدود والتعازير وقَسْم الأموال وحقوق الناس . والثالث في أثر هذه المذاهب وانتقالها — بالرغم من المناوآت — الى أمثال ابن قيّم الجوزية وابن كثير ، ثم علوها على أيدي « الوهابيين الموحّدين » في التوحيد والسياسة والعبادة . ثم انبعاثها قليلاً أو كثيراً بين يدي محمد عبده ورشيد رضا . كل ذلك مسطّر ومسلسل في تمكن وتتبع واستقصاء . ولهذا الجزء الضافي ملاحق في التفاصيل مثل عقيدة الوهابيين وقانون الحجاز الحديث ، ثم في المراجع وهي كثيرة جدًّا والمسارد وهي مستفيضة

وأما الجزء الثاني فإمداد لدراسة اجتهاد ابن تيمية وأصول فقهه . وقد نقل المؤلف

الى اللغـة الفرنسية لأجل ذلك مؤلَّـفين لابن تيمية هما : « معارج الوصول ، الى معرفة أن أصول الدين وفروعهُ قد بينها الرسول » و « القيـاس في الشرع الاسلامي » . وقد جعل للترجمة توطئة مفصلة بيّن فيها دقائق أصول الفقه عند ابن تيمية وطرائق قياسه

هذا ولا شك أن المستشرق لاوُست صاحب فضل ، وأن الجهد العلمي الصرف الذي بذله في التعريف بابن تيمية ، ذلك الفقيه الذكي المخلص الزاهد ، سيلقى من الشرق والغرب ما هو أهل له من الإكبار . وفي الأمنية أن يقبل أحدنا بعد استئذان المؤلف العالم على ابراز هذا الكتاب الى لغتنا لتعم الفائدة

*(١)

• الاسلام والفنون الجميلة • بقلم محمد عبد العزيز مرزوق

١٥ × ٢٣ سم ٣٢ ص و ١٥ لوحاً فنياً دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٤

هذه رسالة صغيرة في موقف الاسلام من الفنون الجميلة ، استطرد المؤلف في بدايتها فكتب أكثر من ثلثها في عصر ما قبل التاريخ والوثنية واليهودية والمسيحية وحالة الفنون الجميلة في كل منها ، ثم انتهى الى الكلام في الاسلام والفنون الجميلة فتحدَّث بإيجاز في فنون الخط والزخرفة والعمارة وفي تحريم الربا وكراهية التصوير وتنظيم استعمال الذهب والفضة والحرير وفي النقابات المساعدة والحسبة والوقف . وختم ذلك كله بشرح خمس عشرة صورة

ومما يؤسف له أن إحدى عشرة منها منقولة بحجمها عن كتب نشرت قبل الآن ، ويا ليت المؤلف عني بنشر صور جديدة وترك النقل . ومما نتمناه أيضاً أن يجري المؤلفون في مصر على سنة التمسك بالأمانة العلمية فيشيروا تحت كل صورة الى الكتاب المنقول عنهُ ، ولاسيما اذا كانت صور المؤلَّف الجديد مطبوعة على أصول الرسم clichés المستعملة في المؤلفات السابقة . وهذا يبدو جليًّا في الكتاب الذي نحن بصدده

وعلى أية حال يستحق المؤلف الثناء على إقباله على الكتابة في الفنون الاسلامية والتعريف بها في ذلك الايجاز المشوق

(١) النجم يرمز الى اسم من أسماء المتعاونين على إخراج الباب .

٣ — الاستدراك

«الحيوان» الجزء الخامس للجاحظ

بتحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون

١٧ × ٢٤ ٦٣٩ ص مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٤٣ *

— ذكر الجاحظ في ص ٢٥٣ أن «قد كان ناس من أهل سيف البحر من شق فارس يأكلون الفار والضفادع» . قلت : وقد مررت في سنة ١٨٩٤ أي قبل خمسين سنة بالضبط بسيف خليج فارس أو بحر فارس ، ورأيت عرباً يأكلون ضفادع ، فكانوا يقطعون أفخاذها ويشوونها شيًّا على النار ويستطيبونها ، ودعوني إلى أكلها فاستقذرتها ، ثم ألحوا عليّ إلحاحاً شديداً ، فأكلتها تطييباً لخاطرهم ، فاستطبتها ، فاشتريت منها كمية منهم ، وشكرتهم على هذه الدعوة ، فكانت أفخاذ الضفادع أطيب من لحم الدجاج ، فليجرب من يشك في قولي . وأعاد الجاحظ مثل هذا الكلام في ص ٥٣٠

— قال المحرر في ح ٣ من ص ٢٧٧ : « والتؤام : المزدوجات جمع توأم وهو من الجمع العزيز » — قلنا : وهذا كلام كثير من النحاة واللغويين، وقد جمعنا نحن أكثر من ٣٥ لفظاً على فعال بضم الأول . فكيف يكون عزيزاً ؟

— وفي ح ٢ من ص ٢٧٨ كلام على الزباء ، وأحسن مقال ورد في هذا البحث ، ما جاء في مجلة المشرق ، في إحدى سنواتها الأول . ولستُ بين يدي خزانتي لأذكر السنة والصفحة ، لكني واثق مما أقول فليراجع .

— في ح ٤ من ص ٢٧٩ : « تبت بلاد بالصين » والصواب أنها بلاد واقعة في شرقيّها وليست منها .

— وجاء في أنف ص ٢٩٩ هذا البيت :

واذا في الغباء سم بُرَيْص ، . . .

فقال المحشّي : أراد به سامّ أبرص وهو الوزغة . وهذا اللفظ لم يرد في المعاجم ،

---

* راجع الفصل الاول من هذا الاستدراك في العدد الماضي

ولا أحسبه إلاّ لغة عامية » — قلنا : هذا اللفظ قصر « سامّ أبرص » . وقد تصرف فيه تصرف الشعراء في الكلام من قصر وزيادة وتغيير ، وليس من كلام العوام .

— في ح ٦ من ص ٣٠٤ شرح الناشر الزباد فقال : « كسحاب : ضرب من الطيب ، وهو عرق حيوان يشبه السنور » — قلنا : الزباد حيوان كالسنور له عند مخرجه جراب صغير فيه مادة دهنية ذكية الرائحة اسمها اسم الحيوان نفسه .

وقال في آخر هذا البحث : « قال صاحب القاموس : وغلط الفقهاء واللغويون في قولهم : الزباد دابة يجلب منها الطيب . وإنما الدابة السنور ، والزباد الطيب » — قلنا : الذي قاله الفقهاء واللغويون هو : الزباد دابة يحلب منها (بالحاء المهملة لا بالجيم) الطيب ، فحينئذٍ لا غلط ولا وهم ، وإنما سميت المادة الدهنية زباداً تسمية صحيحة . وسميت الدابة زباداً أيضاً من باب حذف المضاف وإبقاء المضاف اليه . فكأنهم قالوا للدابة : سنور الزباد ، أو دابة الزباد . ومعنى يحلب منها الطيب : يعصر منها الطيب ، وهي تربى في بيوت الأهالي في تلك الربوع ، وكلما احتاجوا إلى الطيب ، عصروا ذلك الجريّب واتخذوا الطيب لأنفسهم أو لغيرهم .

— وفي ح ٦ من ص ٣٣٥ : « وبيشة (في قولهم آساد بيشة) موضع تنسب اليه الآساد » — قلنا : والذي في حفظنا أنه من مواضع العراق . وليس الآن بيدي معجم البلدان لياقوت لأتثبت من الأمر .

— وقال الجاحظ في ص ٣٣٦ : « وليس للكلب اسم سوى الكلب ، ولا للديك اسم إلاّ الديك »

قلنا : ونحن نحفظ من أسماء الديك : العُتْرُسان والعُتْرُفان » فكيف فاتا أستاذنا الجاحظ هذا اللغوي الجليل ؟

وقال الشارح في ح ٥ ص ٣٣٩ : « الفواخت جمع فاختة وهي ضرب من الحمام المطوّق » . قلنا : إن الفاختة حمامة مطوقة خاصة بالعراق ومعروفة فيه الى هذا العهد بهذا الاسم واسمها Turtur Mesopotamenus بلسان العلم ولها تغريد خاص بها كأنها تقول : كُوكُو وْوْوْكو !

وفي العراق ضروب من الحمام كالشفنين والطوراني (ويسمونه الطُرَآني والطُوارْنيّ ، بطاء مضمومة وواو مفتوحة والف وراء ساكنة يليها نون مكسورة فياء مشددة) والشورّ والطُرْغُلّ الى غيرها وهي كثيرة ، ولها أسماء عديدة ولا تحضرني الآن .

واما الفاختة فيسميها اليوم عوام العراق غير فصحائهم بختية (زنة كردية وتركية) ويجمعونها على بخاتي ككراسي

— وذكر الجاحظ النُشَادر أو النشاذِر بصورة نوشاذُر ، بضم الذال المعجمة ، ونحن لم نرَ هذا التقييد في كتاب يعتمد عليه ، ونظن أن هذا الضبط من عمل الوراقين لامنهُ .

وقد قال المحرّر في ح ٦ : « وبلغة العلماء الاور بيين Sal-Ammoniac ولوقال : وبلغة الانكليز ، لكان في منجاة عن كل اعتراض ، لان الاسم العلمي هو Ammoniacus Sal

— ضبط المحرر في ص٣٥٦ « بختيشوع » ضبط قلم هكذا « بُـخْـتِـيشَـوْع » . والصواب هو بفتح الباء الموحدة التحتية ، واسكان الخاء المعجمة ، وكسر التاء المثناة الفوقية ، واسكان الياء المثناة التحتية ، وضم الشين المعجمة ، يليها واو ساكنة ، وفي الآخر عين مهملة . وهو اسم شائع عند نصارى العراقيين الى عهدنا هذا . نعم ، ان بعضهم ضبطوه كما فعل الاستاذ عبد السلام ، لكنهم أخطأوا ، فليس الذنب ذنبه ، بل ذنب من اتخذ هذا الضبط بدون سند

— وذكر المحرّر في ح ٨ من ص ٣٦٠ هذه العبارة : « الانابير جمع أنبار ، والانبار : جمع نبر بالفتح . والانبار : أهراء الطعام . والهري بالضم : بيت كبير ضخم يجمع فيهِ طعام السلطان » اه

قلنا : الانبار تعريب اليونانية أنباريون ، فلما عربوها ، ظنوا ان (انبار) المحذوف منها أداة الاعراب اليونانية لفظ جمع عربي وأن مفردها (نبر) ، وقد فعلوا مثل هذا الفعل في عشرات من الكلم الدخيلة (كقرن) المدة من الزمن ، والجيل من الناس ، و (القرميد) ، و (الفردوس) ، (والغرش) وكذلك (الهري) بمعنى الانبار فانهُ من الرومية Horreum مبنى ومعنى

— وذكر المحرر في ح ٥ ص ٣٦٢ ان البال من الفارسية . والذي أثبتناه في كتابنا « اغلاط اللغويين الاقدمين » ان الكلمة يونانية وذلك في مقال طويل . وليس الآن تأليفنا بين يدينا ، لنحيل عليهِ النظر ، إلاَّ اننا نتذكر اننا قلنا إن البال والفال من اليونانية Phalaina وليس Phlaina كما ذكرها المحشي ح ٥ ص ٣٦٨

— وذكر المحرر القمل زنة زمج ح ٥ ص ٣٦٨ الوارد في القرآن بأنهُ الصغار من الجراد ، أو صغار الذر . وقيل : « دواب صغار من جنس القراد . . » وقد بيّنّا في مقال طويل أدرج في مجلة غرفة تجارة بغداد أن القمل ضرب من الدويبات تقع في بعض السنين على سنابل الطعام فتمتص ما فيها من الماء وتدعها فارغة من كل مادة ولا

نتذكر الآن سنة المجلة ولا اسم تلك الدويبة العلمي.

— وذكر الجاحظ السمك الضخم الذي يكون في الفراتين وسماه الزجر ص٣٦٩ قلنا: وقد مات هذا اللفظ الأرميّ من لغة العراقيين لأنهم يسمونهُ اليوم « البزّ » بكسر الباء الموحدة وشدّ الزاي . وأظن أنها من اللاتينية Piscis ومعناها السمكة من باب التغليب.

— شرح الأستاذ المحرّر البق بقوله في ح ٣ من ص ٣٧٣ :

« البق البعوض . وقيل : هي دويبة مثل القملة (كذا) حمراء منتنة الريح تكون في السرُر والجدُر . وبهذا المعنى الأخير تعرف في مصر » اه — قلنا : ان الجاحظ كان بصري المولد بغدادي النشأة . والعراقيون يسمون البعوض بقًّا ولا يعرفون للضمج وهو المسمى بالبق في مصر اسماً في هذا العهد ، لأن الضمج لا يعيش في العراق ، وإذا جيء بهِ بطريقة من الطرائق إلى بلادنا ، فانهُ يعيش في الشتاء والربيع، ولكن اذا جاء الصيف يموت حتماً لشدة الحرّ في ديارنا . وقد سمعت — وأنا صغير من أبناء بغداد — أن مدحت باشا والي بغداد ، جلب من استانبول علباً كثيرة مملوءة ضمجاً ، فعاش ما كان فيها ، إذ ألقى تلك الدويبات في السجون ليعذب بها المسجونين ، ولما جاء الصيف يبست وماتت ولم يحيَ منها واحدة . وقد أعاد الجلب أربع سنوات متوالية ، فلم ينجح ، ولهذا لا يرى أثر للضمج في بغداد .

زد على ذلك أن « العرب الأقدمين » لم يريدوا بالبق إلاّ البعوض الضخم ولم يستعملوها البتة بمعنى الضمج، أما البق فيمانيّ الأصل ومن اليمن نقل الاسم إلى الانكليزية وغيرها من اللغى ، وذلك في العصور الوسطى عند انشاء السفن في بحر العرب وأرجائهِ .

وأما قول الكتاب إن البق بمعنى الضمج والكُتَّان يكون في السرد والجُدْر ، فصواب العبارة : في السرُر والحُصُر جمع حصير، فانه يعيش فيها بمئاتٍ وألوف ، ولهذا تعرف بأم الحصر، ومن أسمائها أيضاً الفسفس والفسفاس.

وجاء في تلك الصفحة في ح ٧ تفسيراً لقول الجاحظ : « إلاّ أن يقتلها بالعرك والقتل » فصواب العبارة بالعرك والفتل ، بفاء يليها تاء مثناة ، كما وردت في حاشية ص ٣٨٠ ودونك نص الشارح : « وفي ل : « قتلها » ووجههُ بالفاء كما أثبت » .

زد على ذلك أن المفسرين الأقدمين لم يفهموا بالبق إلاّ البعوض ، ومنهُ قولهم إن البقة التي دخلت أنف نمرود اسمها السُكَينة بزنة التصغير .

— ذكر الجاحظ في ص ٣٨٢ : « تحت النرد قطعة نرد » فعلق عليها الاستاذ النابه

ما هذا نقلهُ : « التخت في المعاجم العربيــة : وعاء تصان فيه الثياب . فارسي معرب . لم يذكروا غير ذلك . وبعيد أن يكون الجاحظ قصد هذا المعنى . وإنمــا أراد بالتخت اللوح الذي يوضع فوقه النرد . . . وأراد أنهم جعلوا قطعة اللبد بدلاً من اللوح » .

قلنا : ان التخت في لغة العراقيين جاء بمعان شتى منها : السرير يُقْـعد عليه ، والمتكأ ، والتختة ، بهاء في الآخر : اللوح من الخشب يتخذ لمرافق شتى . فما في كلام الجاحظ هو من هذا الاستعمال .

— ذكر الجاحظ في بيت شعر (ص ٣٨٦) :

« من كرخ بغداد ذي الرمان والتوث »

فالكرخ هنا موضع واقع على الجانب الأيمن من دجلة وكان دائماً كثير البساتين—وأما التوث مختومة بثاء مثلثة فمن العراقيين من يلفظها الى اليوم بثاء مثلثة في الآخر ، ومنهم من ينطق بها بتاء مثناة ، وكلاهما فصيح ، وإن أنكره بعضهم .

— وجاء ذكر الهوْر في ص ٣٩٩ فقال المحرّر : « الهور بالفتح : من قولهم جرف هور أي واسع بعيد . وقولهم خرق هور أي واسع . » اه . — قلنا : الهور من مصطلح العراقيين إلى عهدنا هذا ، ويراد بهِ في لغتهم : المستنقع أو البطيحة تفيض بها مياه غياض وآجام فتتسع » وهذا هو المعنيّ هنا .

— وقال الجاحظ في ص ٤٠٢ : « إلاَّ أني متى بيَّـت معي في القبَّـة ما صار اليها » ـ ولم يشرح المحـشّي معنى القبة . فالقبة في لغة الجاحظ وجميع العراقيين : الغرفة والعلية

— جاء في ص ٤٢٢ : « أقبل رجلان ومعهما كلب أزب ضخم (دَوْسر) » فقال المحرّر : دوسر ضخم خديد ـ قلنا : والذي عندنا ان الدوْسر كلة فارسية معناها . ذو رأسين . وذلك أن الكلب إذا كان ضخم الرأس يبين كأن لهُ رأسين فسمي بدوْسر .

وكان للنعمان بن المنذر ملك العراق ، كتيبة اسمها دوسر وهي أشد كتائبه بطشاً حتى ضرب بها المثل . يقال : هو أبطش من دوْسر . كانت مجتمعة من جميع قبــائل العرب وأكثرها من قبيلتين ، ولذلك سميت بهذا الاسم .

— ورسم المحرر شمؤون الطبيب هكذا : شمؤون . ويقال فيه شمعون أيضاً بعين في مكان الهمزة وهو من أطباء النبط ، لجيلٍ من الآرميين ، وكانوا يجعلون العين همزة حيثما وقعت .

ومثل ذلك يفعل اليوم صابئة البطائح المعروفون عندنا في هـذا العهد بالصُبَّـة ، بالصـاد المضمومة والباء الموحدة التحتية المشددة المفتوحة وفي الآخر هاء

— في ح ٩ من ص ٤٦٣ قول الشارح : « وأعرف الأقوال في النقد انهُ جنس من الغنم قصار الأوجه قباح الوجوه » قلنا : لعلهُ يريد قصار الارجل وهي التي تكون قصاراً في الغنم .

— وورد في ح ٨ من ص ٤٦٦ هذه العبارة للاستاذ : « التياس : صاحب التيوس وممسكها » ـ قلنا : يكفي التياس أن يكون لهُ تيس واحد ، أو أن يكون ممسكاً تيساً واحداً ليصح فيه هذا الاسم .

— ووقع حرف في ح ١ : من ص ٤٧١ في قوله : « ليسوا فرساناً لا معرفة لهم بالخيل » لعلّ الساقط هو « إذ » فيكون صواب العبارة : ليسوا فرساناً إذ لا معرفة لهم بالخيل .

— وطبع في ص ٤٧٣ في النص والشرح : الغرائر بالياء المثناة : والصواب انها مهموزة كما أثبتناها لأنها غير جوفاء . ولا يائية البناء . وكذا يجب أن تكتب المزايد وهي المزاود الواردة في ص ٤٨٥ ح ٥

— وقال الاستاذ المحرر في ح ٨ من ص ٤٧٥ : « السقط ، بالتحريك : ما لاخير فيه . لعلهُ أراد بهِ حشوة الذبيحة وأطرافها ، كما يطلق اليوم هذا اللفظ في العامية المصرية » ـ قلنا : وبهـذا المعنى وردت السقط في العراق ويسمى بائع الأسقاط : سقَّـاطاً وسقطيَّـا وأسْـقاطيًـا .

— وذكر الجاحظ بيتين من الشعر لأبي الأسود الدؤلي ، ونص الثاني منهما هو :

ولا يسبس كالعنز أطولُ رسلها وريِّمانها يومانِ ثم يزول

فقال المطرز تعليقاً على « يسبس » كذا وردت — وعندنا ان الكلمة مصحفة أصلها « بشيشٍ » بشينين معجمتين ، يتوسطهما ياء مثناة تحتيـة ساكنة ، والشيش : الشيص بشين وياء وصاد . وهو تمر رديء ، يضرب المثل برداءته ويشبه به الصعب الخلق ، الشرس الطبع من الناس والحيوان .

— وجاء في ص ٤٧٧ س ٤ : « فيشيريه » والصواب : فيشتريه

— وورد في ص ٤٨١ س ٢ : و « الماعزة قد قولد » . والصواب تولّـد

— وقال الوشي في ح ٤ ص ٤٨٢ : « كسكر كورة من كور فارس » والمشهور عند

البلدانيين من كتبة العرب انها من كور العراق إلى عهدنا هذا. وتسمى اليوم (كوت الإمارة) أو هي في جوار تلك القديمة. وربما كانت من كور فارس قبل الإسلام، ولا عبرة لذلك.

— وذكر المحشي في ح ٥ من ص ٤٨٣: قائلاً: «وكثيراً ما تطلق المعاجم العربية كلمة «الذكر» على الضرب الكبير من الحيوان». — قلنا: وأول من نبه على هذا الأمر كاتب هذه السطور وذلك ان العلامة أمين المعلوف رحمه الله زارني في بغداد سنة ١٩٢٢ وذكرت له ان العرب تطلق اسم «الذكر» على ما كبر من الحيوان، طيراً كان أو من ذوات الأربع، أو من السمك والحشرات، بل أطلقوا الذكر على بعض المعادن وأنواع الطيب، فأخذ ذلك عني وأشار اليه في كتاباته. فجاء الأستاذ عبد السلام وقال: «تطلق المعاجم العربية»، والصواب: تطلق العرب.

— وشرح الناشر «الضال» في ح ٨ ص ٤٨٩ بقوله: شجر. وهو كلام يشمل نباتات عديدة ولو قال: الضال من السدر: ما كان عذياً، أو السدر البرّي لأفاد الباحث فائدة مريحة للبال واسمه العلمي Zizyphus Lotus أو Rhamnus Lotus وبالانجليزية Lotus Tree و Wild Jujube و Lotus Jujube وبالفرنسية Jujubier Sauvage, Lotus des Anciens و Jujubier des Lotophages

— جاء في ح ٧ من ص ٥٢٥: «الرق، بالفتح السلحفاة المائية» — قلنا: وهذا تعبير غريب، لأن السلحفاة تكون دائماً مائية برية، ولأن الرق لفظة مستعملة إلى عهدنا هذا في العراق، ويراد به العظيم من السلاحف. وقد يتساهل فيه فيطلق على الصغار منها أيضاً.

— وذكر الجاحظ البيخ بمعنى الثلج وهي فارسية الأصل (ح ٣ ص ٥٢٦) وهي تستعمل إلى اليوم في العراق إذ يقول أبناء الرافدين: «أبرد من البيخ» ويخصونه بما يقع منهُ من السماء، كما يسمونه أيضاً «الوفر» بواو مفتوحة وفاء ساكنة وفي الآخر راء.

— وحكى الجاحظ أن الضفدع «إذا كان صغيراً كان ذا ذنب فاذا خرجت لهُ يدان أو رجلان، سقط» ص ٥٢٨ ولم يذكر اسمه وهو في ذلك الطور. قلنا: واسمهُ حينئذٍ الشرْغ بالكسر والشرغوف بالضم والشفدع أيضاً وبالفرنسية Têtard وبالانجليزية Tadpole

— وجاء ذكر العلاجيم في ص ٥٣٣ من نص الجاحظ وهذا حرفه: «والعلاجيم: الضفادع السود» اه.

وكثيراً ما كنت أبحث عن حقيقة هذه العلاجيم، فاذا هي الضفادع السود. أما سائر

أرباب المعاجم فقد ذكروا أنها جمع علجوم والعلجوم، الضفدع عامة . — وقيل : هو الذكر منها . أما الآن فنعتمد على قول الجاحظ أي انهُ الضفدع الاسود ، ذكراً كان أو أنثى، وهو بالفرنسية Crapaud وبالانكليزية Toad وبلسان العلم (أي بلسان أهل العلم) : Bufo Vulgaris

« للكلام بقية »

الأب أنستاس ماري الكرملي
من أحفياء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

٤ — التعقيب

وصف الجمع بالمفرد

في هامش ص ٣٨ ج ١ من الطبعة الثانية لكتاب « عبقرية الشريف الرضيّ » جاء تعليق على هذا البيت للشريف :

والحظوظ البلهاء من ذي الليالي أنكحت بنت عامرٍ من ثقيف

ودونك التعليق : « لما ظهر ديواني اعترض أدباء العراق على البيت الآتي :

لم تُنسني فتنةُ الدنيا وزينتها ما في شمائلك الغراء من فِتَنِ

وقالوا : لا توصف الشمائل بأنها غراء ، وإنما توصف بأنها غُرّ . وأطالوا الجدال في مجلة (أبوللو) واشترك الأب انستاس الكرملي في الجدال ، وعارضنا معارضة شديدة في منزل أحد الاصدقاء . والآن نرى الشريف يصف الحظوظ بأنها بلهاء لا بله . فلينقل العراقيون الجدال الى شاعر العراق » .

وفي باب التعريف والتنقيب من العدد الماضي ، في « استدراك » الكرملي على « الحيوان » للجاحظ تنبيه إلى أن الناسخ حرّف كلة « صفراً » أو « حمراً » فدها فجعلها « صفراء » و« حمراء » ونحن نسأل الأب أنستاس عن الموجب للتشكيك في ناسخ كتاب الحيوان ، فليس من المعقول أن يكون تعمّد تحريف النص . ونحن على كل حال عند منقول ، وهو حجة إلى أن يثبت الأب أنستاس بنسخة ثانية أن الكلمتين كانتا في الأصل « حمراً » و« صفراً » .

ونرجو منهُ أن يدلنا على أنّ وصف الجمع بالمفرد في بيت الشريف كان أيضاً من تحريف الناسخين وهذا لا يكون بسبب وزن البيت . ثم نقدم له أطيب التحيات

زكي مبارك

باب الأخبار العلمية

اخبار العلم من روسيا

ملخص مقال للكاتب الانكليزي كراوذر

تكريم العلماء

منذ عام ، أعلنت قائمة طويلة بالجوائز التي منحها ستالين لعلماء روسيا المبرّزين تكريماً لهم على ما أسدوه من جليل الخدمات لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية . وكان ممن منحوا الهبات المالية الاولى ومقدارها ٢٠٠،٠٠٠ روبل ، (أي ما يعادل ١٠،٠٠٠ من الجنيهات) الأساتذة يوف Yoffe ، وماندلستام Mandelstam وپاپليكسي Papleksi ، وأيشفلد Eichfeld ومجموع الجوائز اثنتان وثلاثون جائزة قيمتها مجتمعة ٤،٧٠٠،٠٠٠ روبل أي زهاء ٢٣٥،٠٠٠ جنيه ، وزّعت على حوالي ستين عالماً من فحول العلماء . ولم يسبق لدولة أخرى أن قامت بعمل مماثل لهذا من قبل . وقد نال بيرنشتين Bernstein مبلغ ٢٠٠،٠٠٠ روبل لأبحاثه الرياضية .

وهذا الحدث يبين بوضوح مكانة العلم السامية في اتحاد الجمهوريات السوفيتية ، تلك المكانة التي زادتها الحرب رفعة وسناء . والأسلحة الحديثة لا تكون فعّالة الاّ إذا بنيت على المعرفة العلمية ، ولولا العلم والعلماء لعجز الروس عن آياتهم الباهرة في هذه الحرب

العلم الموجه Planned Science

طُلب الى « يوف » ، وهو من لننجراد أن يضع خطة لتقدم العلوم الطبيعية وتوجيهها فأسس المعهد الصناعي الطبيعي في لننجراد في شهر سبتمبر سنة ١٩١٨ Physico Technical Institute من ثمانية أعضاء وكانت مهمته الرئيسية إعداد العلماء النابهين والصناع الحذقين كي يساهموا في بناء الدولة الاشتراكية . وفي السنوات الخمس الأولى ، كان جهده الرئيسي منصبًّا على تدريب الطبيعيين المتمكنين . فجمع الطلبة الأكفاء من جميع أنحاء الاتحاد ، وزاد عدد المختبرات العلمية ، ولم تحل سنة ١٩٢٩ حتى غدا المعهد

مؤسسة كبيرة تضم أقساماً عديدة ، رجالها عشرون الفاً بينهم سبعمائة من علماء الطبيعة .

وبينما المعهد ماضٍ في تخريج أعضاء الهيئة الجديدة للعلماء ، أنشئت معاهد جديدة يديرها هؤلاء العلماء الشبان ، في خاركوف ، وتفليس ، وسفردلوفسك ، ودنيبروبتروفسك ، وتمسك ، وسمرقند وغيرها من المدن ، ناشرين ضياء العلوم الطبيعية في كل مكان يمكن أن يشع منهُ . فانتقل مركز الأبحاث تدريجيًّا إلى الشرق

وفي عام ١٩٣٤ ، نقلت أكاديمية العلوم السوفيتية من لننجراد الى موسكو

وعمل أكاديمية العلوم منصبٌّ على توجيه البحوث العلمية ووضع منهاجها . ويبلغ أعضاؤها زهاء ٩٠ عضواً ، بينهم علماء الطبيعة ، والمهندسون ، والكيميائيون وعلماء طبقات الارض ، وعلماء الأحياء ، والمؤرخون ، والاقتصاديون ، وعلماء اللغة والمستشرقون ، والفلاسفة . وتحتوي بنايتها على ما يزيد عن عشرين مؤسسة للأبحاث ، وعدد كبير من متاحف الحيوان والمعادن ، وعلم الانسان ، وتاريخ الأديان ، وغيرها . ويبلغ عدد القائمين على هذه المؤسسات بضعة آلاف

ومن مميزات هذه الأبحاث الموجّهة ، أنها تنمو من أسفل وتنظم من أعلى في وقت واحد . ومن أهم ما تتصف به أن الباحثين الاجتماعيين هم الذين يثيرون المشكلات ثم يتناولونها درساً . وتعدّ العبقرية العلمية والمواهب البشرية ، أهمّ موارد الدولة وأنفسها . فالتوجيه العلمي يرمي إلى تهيئة أفضل الأحوال وأصلحها للعلماء كي يدرّبوا ملكاتهم وينفعوا مجتمعهم .

الأجسام الصلبة والمفرقعات

نجح العلماء الروس خاصة في بعض البحوث العلمية حين جمعوا بين المواهب العلمية الطبيعية ، والتوجيه الصحيح

فاهتمت مدرسة « يوف » في المعهد الصناعي الطبيعي بلننجراد ، اهتماماً خاصًّا بدراسة طبيعة الأجسام الصلبة . وبدأ « يوف » وطلبته يدرسون موضوع « قوة البلورات » ، وهو بحث أساسيّ في قياس قوة المعادن إذ جميع المعادن تحتوي على مجموعات من البلورات . والبلورات بدورها تحتوي على ذرات أو جزيئات ، وهذه تتماسك بواسطة مجالات معينة من القوة حواليها . وطاقة هذه القوى معروفة . وقد وجد أن جميع الأجسام الصلبة المعروفة في الطبيعة ، أضعف كثيراً — مئات من المرات أو بألوفها — من هذه القوة النظرية المحتملة . ومن هذه النتيجة يمكن الخروج باستنتاجات بعيدة الأثر . ولعلّ العلماء يظفرون بطريقة تمكنهم من جمع الذرات ، بعضها الى بعض ، فيجعلوا الأجسام الصلبة أقوى من الفولاذ ومن أي

مادة أخرى معروفة . ومن السهل تصوّر تأثير كشف من هذا القبيل في صناعة الطائرات ومئات غيرها

وقد اتضح لـ (يوف) ولزملائه أن مقاومة بلورة من الملح الصخري ، زادت عشرين مرة عند ما وضعت في الماء الساخن .

وقد ردّوا هذه الظاهرة إلى محو الشقوق التي بين سطوح البلورات . كما أثبت «جريفث» أن الشقوق الدقيقة في سطوح الزجاج قد تخفض مقاومته الى العشر . وقد منح « يوف » ٢٠٠٫٠٠٠ روبل مكافأة له على ما ضمنه مؤلفه عن الموصلات المتوسطة في الطبيعة والصناعة

التفاعلات المسلسلة

وقد نجح العلماء السوڤيت خاصة في الكيمياء الطبيعية . ومن أبرز العلماء « سمنوف » N. N. Semenov ، الذي اخترع النظرية الحديثة الخاصة بالتفاعلات المسلسلة Chain-Reactions وهذا النوع من الاستجابة أو ردّ الفعل ، هو الذي يسبب التحولات التي تحدث في الانفجارات وفي انفجار الغازات داخل آلات الاحتراق الداخلي .

ولهذه النظرية قيمة عملية عظيمة

وقد أخرجت مدرسة الكيمياء الطبيعية للاتحاد السوڤيتي ، فريقاً من الاخصائيين المتازين في المتفجرات وإدارة المحركات وآلات الطائرات .

الحنطة واللحم

وقد أفاد علم الأحياء فائدة كبرى من بحوث العلماء الروس في توسيع زراعة النباتات في المناطق الشمالية والقطبية . وقد منح جوهان إيشفلد Johann Eichfeld جائزة قدرها ٢٠٠٫٠٠٠ روبل لأبحاثه في هذا الصدد . وقد بذل العلماء غاية جهدهم لتحسين وسائل زراعة الخضراوات في تلك المناطق ودرسوا تأثير الليل والنهار القطبيين الطويلين فيها

وكان لأبحاث « ليسنكو » Lyssenko في موضوع تبكير نمو الحنطة والنباتات ، نتائج عملية كبيرة ، إذ أصبح من المستطاع تقصير مدة نمو الحبوب بمعالجتها بالحرارة والرطوبة ، وأصبح صيفُ الشمال القصير يكفي لنمو حبوب الحنطة ، كذلك أصبح صيف أواسط آسيا المبكر كافياً لتأدية الوظيفة ذاتها . وقد كان جمد الخريف في الشمال — من قبل — يكفي للقضاء على الحبوب ، كما كانت حرارة الصيف المبكر في أواسط آسيا كافية للفحها .

وبواسطة نظام تبكير نمو النباتات ، أصبح من المستطاع زراعة نباتات الشتاء في

زمن الربيع أو العكس . وقد أفضت هذه المكتشفات الى توسيع زراعة الحنطة ونشرها في ملايين من الأفدنة في شمال الاتحاد السوفييتي وجنوبه الشرقي

وقد أمكن الحصول على نتائج مماثلة من أبحاث ڤافيلوف « N. I. Vavilov » في العناية بالنباتات . وكان نشاطه عالميًا أدّى إلى تحسين أنواع الحنطة والفاكهة والخضراوات وكشف أصناف منها تحتمل البرودة والجدب وتقاومهما

التلقيح الصناعي

كذلك أمكن الحصول على نتائج تبعث على الدهشة ، في تربية الحيوانات ، إذ تقدم علماء « الأحياء » في فن التلقيح الصناعي للنعاج والبقر والخيل . وأدّى هذا إلى أن أصبح أفضل الكباش والعجول وفحول الخيل تنتج عدداً كبيراً من الذرية ، والثور الواحد ينتج حوالي ٣٠ رأساً في السنة بالتناسل العادي ، أما التلقيح الصناعي فيمكن الثور من أن ينتج حوالي ١٫٥٠٠ رأس في السنة وهذا يضمن لاناث الماشية لقاح أجود الذكور . وبالاعتماد على التلقيح الصناعي تضاعف إنتاج لبن الأبقار المختارة

مدرسة الذبذبات اللاسلكية

ومن أعلى مدارس البحث كعباً في روسيا مدرسة الذبذبات اللاسلكية التي يتولى زعامتها پاپليكسي N. Papelks وقد منح جائزة مقدارها ٢٠٠٫٠٠٠ روبل لدراسة انتشار أمواج اللاسلكي وذبذباته . ويبحث علماء هذه المدرسة خاصة في ما يسمى « الذبذبات الدائرية »(١) أو التي لا تتحرك في خطوط مستقيمة .

العلم البحت

يقال عادةً إن تصميم الأبحاث يجب أن يجمع بين العلم البحت والحاجات العملية . ويجدر بنا أن نذكر في هذا الصدد أن الرياضة ، وهي أكثر العلوم جميعها جفافاً ، قد أينعت في الاتحاد السوفييتي ، وخاصة « نظرية الأرقام »(٢) التي تعد زبدة علم الرياضة وقد أدّى هذا الانتشار العلمي الكبير في الاتحاد السوفييتي ، وهذا العدد الوافر من العلماء ، إلى نتائج خطيرة : فأصبحت المعاهد السوفييتية كبيرة جديدة تامة الاعداد ، وانخفض متوسط أعمار العلماء إذ أصبح معظم مديري المعاهد في سن الأربعين ، على حين أن السواد من مساعديهم في سن الثلاثين .

وديع فلسطين

(١) Non-Linear oscillations

(٢) Theory of Numbers

اينشتين في الخامسة والستين

علق الدكتور فرانك ايديلوت مدير معهد الأبحاث العلميــة على العيد الخامس والستين لميلاد العــالم المعروف « البرت اينشتين » بقوله إن اللاجئين الألمان ساهموا بقسط موفور في الثقافة الأميركية ، ومن بين هؤلاء العالم « اينشتين » الذي كان أستاذاً للعلوم الرياضية في المانيا منذ عام ١٩٣٢ وهو الآن متجنس بالجنسية الأميركية ويتمتع بمكانة رفيعة بين زملائه الاميركيين ، وقد اكتسب الاحترام والحب من جميع الذين اتصلوا به وعاشروه .

وقد امتاز « اينشتين » بتحاشيه الاعلان عن نشاطه الفكري وأبحاثه ، وهو يؤثر العمل في هدوء في الاضطلاع بأبحاث مهمة تخدم كثيراً من الأغراض الانسانية الطيبة .

و « اينشتين » كغيره من الرجال الذين هم من طرازه ، لا يستطيع العيش في بلد تنكر فيه حرية الفكر والقول ، لأنه متى فقدت هذه الحرية استعصى على العالم أداء رسالته ومن أجل هذا غادر « اينشتين » المانيا لاجئاً الى الولايات المتحدة ، حيث لقي من حفاوة الديمقراطيــة الأميركية وكرمها ما فسح أمامه مجال العمل والتفكير في جو حر كل الحرية » .

تسديد مدافع الدبابات المتحركة

في جبــال صقلية استعملت الجيوش الأميركية دبابات م ٤ وكانت هــذه الدبابات تتصف بمزية لا تتصف بها الدبابات الألمانية فالدبابات الأميركية كانت تسدد مدافعها وهي ماضية في طريقها . وأما الألمانية فكان عليها أن تقف لتعيد تسديد مدافعهــا حين يخرج الهدف الأول من نطاقها ، فان لم تفعل تساقطت قنابلها اعتباطاً

ومرجع هذا الجهاز في الدبابات الاميركية الى اختراع تمَّ في أيام السلام . فقد عُني مهندسو شركة وستنهوس بابتداع طريقــة تستعمل في القطر والمركبات البخارية فتمنعها من الارتجاج وهي سائرة على الخطوط الحديدية أو الطرق . فلما نشبت الحرب ، حوّلوا هذا الجهاز الى جهاز جديد يضبط ضبطاً كهربيــاً مدافع الدبابات من عيار ٧٥ مليمتراً فأصبح مدفعي الدبابة قادراً على تسديد مدفعه في سرعة ويسر ، وبدلاً من أن يفقد شيئاً من إحكام رمايته غدت رمايته أسدّ مما كانت خمسة أضعاف

وقد قال رئيس قسم المدفعية « إننا نستطيع أن نطلق هــذه المدافع من دبابة متحركة ، وهو ما لا يستطيعه العدو ، وأهم من هذا أننا نصيب الهدف »

فيتامين مالطة

إنَّ القلة وشظف العيش اللذين عاناهما سكان جزيرة مالطة خلال الفترة الطويلة التي تعرضت فيها للهجوم الجوّي العنيف المتواصل ، أفضيا إلى كشف عامل غذائيّ لا غنى عنهُ في الإبصار السويّ . ولعلَّ هذا العامل الغذائي من طائفة الفيتامينات .

ويرجع كشف هذه المادّة على ماجاء في رسالة تلاها في جمعية الجراحين الحربيين الأمريكيين مارشال الجوّ السر هارولد هوتنجهام الى قائد السرب توماس ماكري المختص بعلوم الغذاء وقائد الجناح كيث لايل المختص بطب العيون .

وقد عثر السر هارولد على « ڤيتامين الابصار » هذا في الموالح مثل البرتقال والليمون .

أما كيف كشف هذا الڤيتامين فقصة عجيبة . فقد لاحظ ماكري ولايل أن قوة الإبصار ليلاً في سكان مالطة ضعيفة . فلما امتحنوا وأضيف عصير البرتقال إلى طعامهم عادت إلى عيونهم القدرة على الإبصار ليلاً ، في نحو أسبوع . وأجريت مباحث من هذا القبيل في تونس ، حيث أسفر الامتحان عن تحسين القدرة على الإبصار ليلاً في عيون الطيارين الانكليز ، خلال أيام ، بعد إضافة عصير الفواكه الى طعامهم .

والبحث ماضٍ الآن ، على قدم وساق ، لعزل هذا العامل الغذائي . فاذا ثبت أنهُ من نوع الڤيتامين — كما يرجَّح — فقد يطلق عليهِ اسم « ڤيتامين مالطة » تخليداً لذكر سكان تلك الجزيرة وبسالتهم وصبرهم على الغارات الجوية خلال سنتين .

والموالح غنية بڤيتامين C المقاوم للاسقربوط ، ولكنَّ التجارب أثبتت أن ڤيتامين مالطة يختلف عن ڤيتامين C .

وقد وجد من عهد قريب ڤيتامين جديد في قشر الليمون ، وسيجري العلماء التجارب ليعلموا هل هناك صلة ما بين هذا الڤيتامين وڤيتامين مالطة ؟

تدريب الطيارين البرازيليين في الولايات المتحدة

قال البريجادير جنرال هيوم بيبودي قائد مركز التدريب الجوي الأميركي هنا ان طياري سرب المطاردة البرازيلي أكملوا مدة التدريب في المركز وسافروا الى جبهة مجهولة في عطلة آخر الأسبوع الماضي .

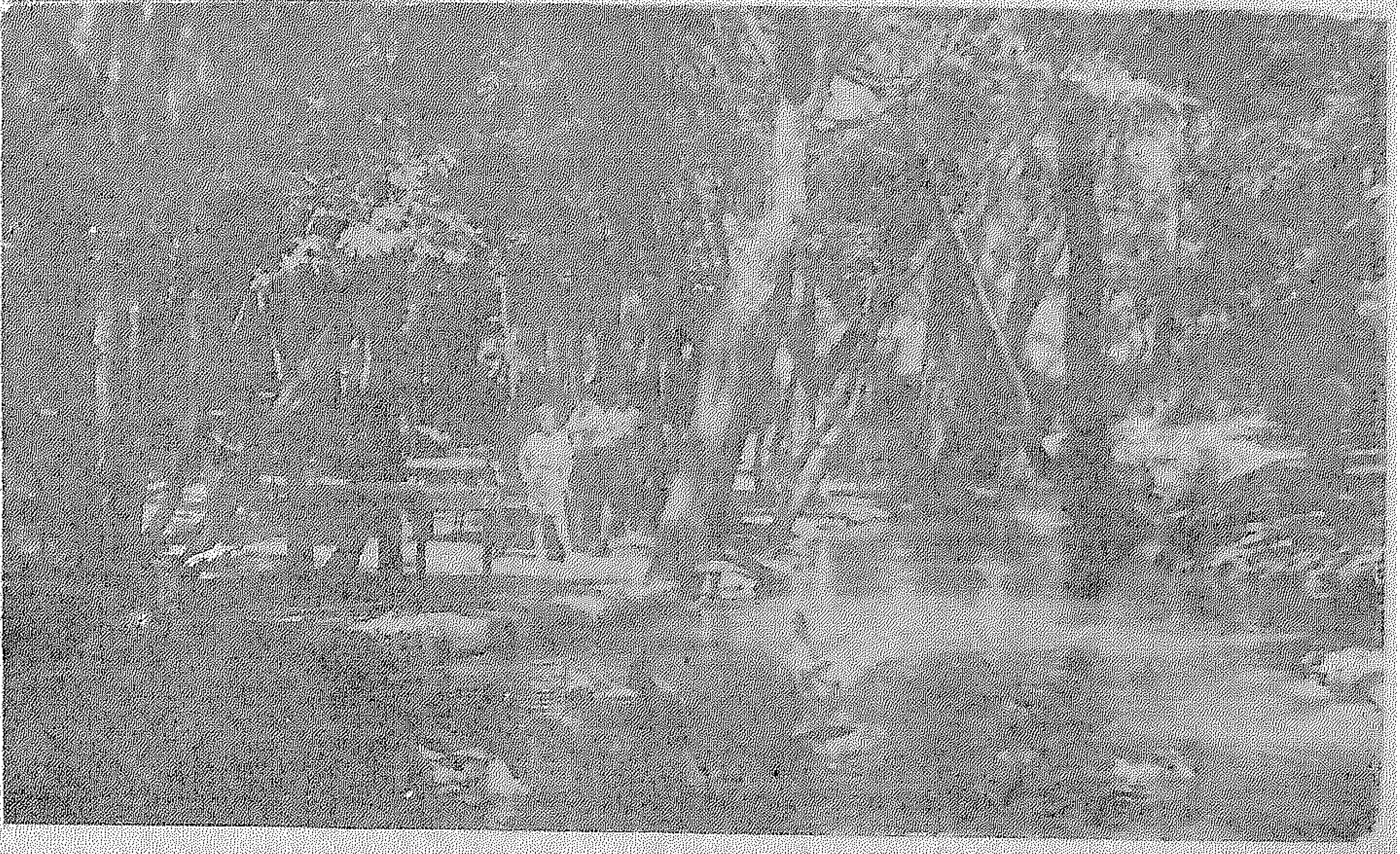
وقد صرّح الليفتننانت كولونيل دنيسون الذي تولى الاشراف على المراحل النهائية في تدريب هؤلاء الطيارين البرازيليين تدريباً عمليًّا على المناورات الحربية ، بقوله : « إنهم طيارون بارعون » .

فهرس الجزء الاول

من المجلد الخامس بعد المائة

باب التعريف والتنقيب

قرية شتوره ، زمردة معلقة بصدر لبنان



خميلة وغدير في الصيف والربيع



شجر ينعم وماء يجمد في الشتاء والخريف

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الخامس بعد المائة

١ يوليو سنة ١٩٤٤ — ١٠ رجب سنة ١٣٦٣

الحالة الجوية

وتأثيرها في الأجسام الحية

من أعظم بواعث الارتقاء العلمي ، اتصال علم بعلم . فعلم النفس اتصل بعلم وظائف الأعضاء ففهم الأساس العصبي للفكر والانفعال . وبعلم الغدد الصمّ فأدركنا من خفايا « الشخصية » بعض ما نجهل . والطبيعة اتصلت بالكيمياء فخرج علم الكيمياء الطبيعية الذي يتناول بناء المادة الدقيق ، وتوزيع الذرّات والجزيئات في السوائل وشحناتها الكهربائية . والفلك اتصل بالطبيعة والرياضة العالية ، فاذا نحن أمام البحوث الدقيقة في الضوء وصلة المادة بالطاقة ومصدر الحرارة في النجوم وشكل الكون ومبدئه ومنتهاه . والكيمياء اتصلت بعلم الأحياء ، فاذا في علم الكيمياء الحيوية ، أساس جديد لفهم المادة الحية ، وبعض أسرار الصحة والمرض

وفي العقدين الأخيرين ، اتصلت علوم الظواهر الجوية ، والإشعاع ، والفلك ، بعلوم الأحياء والطب ، فوصل العلماء إلى حقائق ونظريات جديدة ، تعين في فهم الصحة والتوعك والمرض والحالة النفسية ، ونمو النبات ودورات الولادة بين كثرة وقلة . وقد جمعنا في الصفحات التالية ، طرائف من هذه الأبواب ، تستوقف النظر وتوجهه إلى أبواب جديدة من البحث المجدي

حين تستيقظ في الصباح مسترخياً ، لا قبل لك بزحام الشوارع في طريقك إلى مكتبك ،

أو بإرهاق المهام التي عليك أن تعانيها في المكتب ، نخيرٌ لك أن تنظر إلى البارومتر ، قبل أن تنظر إلى الترمومتر .

فالنظر إلى البارومتر يعينك على تبين حالة الجو : أباردٌ هو أم حار ؟ أساكن الهواء أم مضطرب ؟ أجافٌ أم رطب ؟ هل ارتفعت درجة البارومتر فجأة ، أو هبطت فجأة ؟ فهذا الشعور بالاسترخاء والاعياء ، قد يكون ردّ الفعل في جسمك لحالة جوية طارئة ، لا أكثر ولا أقل .

ولكنك قد تقول : إن حالة الجو لا ترهقني . وقد تضرب بكفك على صدرك ، وتنشق الهواء وتزفره مباهياً بأن حالة الجوّ لا ترهقك . على أن علماء المتيورو بيولوجيا (العلم الذي يجمع بين علم الظواهر الجوية — متيورولوجيا — وعلوم الأحياء — بيولوجيا) يرون غير ذلك .

فالدكتور وليم بيترسن ، الأستاذ بكلية الطب في جامعة إلينوي الأمريكية ، يقول : إن حالة الجوّ تؤثر في حالة الجسم ، ولا سيما حين يطرأ على حالة الجوّ تغيير مفاجئ . وقد قضى بيترسن عشرين سنة في البحث العلمي والمشاهدات السريرية ، فخرج منها الى القول بأن حالة الجوّ تؤثر تأثيراً عظيماً في الجسم ، قلما يدرك ، منذ الولادة حتى الموت .

فكل تغيير في درجة الحرارة ، أو تقلّب في درجة الضغط ، أو كل حركة من حركات الرياح ، يقتضي تغييراً سريعاً في الجسم قلما نشعر بهِ أو نتبينه . وأجسام بعض الناس تستجيب على التوّ لضرورة التغيير وملاءمة الحالة الجوية الجديدة . وهناك أجسام أخرى تتأخر في الاستجابة ، وقد يتفاوت التأخر بين اثني عشرة ساعة وثمان وسبعين ساعة . ثم انك لن تجد — بحسب قول بيترسن — استجابة متماثلة في جسمين ، لأنك لن تقع على جسمين متماثلين أو حالتين جويتين متماثلتين تماماً . فالمحيط الهوائي الذي نعيش فيه دائم التقلب .

وقد تجتاح بلداً ما عاصفةٌ قوية ثم تتلوها أيام صافية مشرقة . وقد تزول الحالة الجوية ، التي يكون الهواء فيها دافئاً رطباً ، فتعقبها حالة جوية هواؤها باردٌ جاف . ولكن مهما يكن التغيُّر في حالة الهواء ، فكل تغير فيها ، يعني تغيراً في ثقل الهواء أي في ضغطه الجسم ، وإذن فهو يعني تغيراً في الأعمال الطبيعية والكيميائية التي يعملها الجسم .

وهذا التغير لا يقتصر على ضغط الدم ، بل يشمل تركيبهُ وتوازنهُ الكيميائي ، كما يشمل عمل القلب والكليتين والمعدة .

فحين تهبُّ موجة بردٍ ، يكون الهواء جافًّا ثقيل الوزن نسبيًّا . فيزداد الضغط البارومتري ، فيضغط الجسم بخلاياهُ وأوعيتهِ ؛ وقد يبلغ الضغط على الجسم ستة عشر طنًّا

ونصف طن . فالهواء في هذه الحالة ، يضغطك كما تضغط يد جبّار كرةً مفرغةً من المطاط .

ولكن الهواء متقلب متحرّك لا يستقر ، فوزنهُ يتغير . وقد تعبر موجة الهواء البارد الجاف ، فتتلوها موجة من الهواء الدافئ الخفيف . فينخفض الضغط البارومتري ، فيخفّ الضغط الواقع على جسمك ، وقد يكون فرق الضغط ألوفاً من الأرطال .

فكل تغير في حال الجوّ ، يقتضي من الجسم ملاءمة الحالة الجديدة . وبعض الأجسام تستطيع أن تحدث هذا التلاؤم ، وبعضها عاجز عنهُ في يُسر وبغير ازعاج

ومعظم المشقة يكون ساعة الانتقال المفاجئ من الحرّ إلى البرد . فالانتقال إلى البرد ، يقتضي من الجسم زيادة ما يولده من الحرارة . فيزداد ما يحرقهُ الجسم من المواد التي تولد الطاقة ، ويرتفع ضغط الدم ، وتزداد حموضته ازدياداً نسبيًّا .

وحين يبدأ الضغط في الهبوط ، بعد ارتفاعه إلى هذه الذروة استجابةً لدواعي الحالة الجوية ، تسترخي الأوعية التي كان الدم يجري فيها متدفقاً ، وقد يبلغ من هبوط الضغط ، أن يبطئ دوران الدم ، وقد تقف حركته في بعض الأوعية فيتخثر . وقد تحدث وفيات .

فاذا كنت رجلاً سويّ الخلق ، وجميع خلايا جسمك وأعضائهِ تنهض بعملها على وجهٍ سويّ ، كان في وسعك أن تواجه التقلب في حالة الجوّ بغير مشقة ، فتحصل الملاءمة بين جسمك وحالة الجوّ على منوال ذاتي قد لا تشعر بهِ . على أن تغير حالة الجوّ ، واستجابة جسمك لهُ بغير أن تدري ، قد يظهران في حالتك النفسية . فحين المطر ، قد تشعر بالاسترخاء والانقباض الناشئين إلى حدّ ما ، عن هبوط ضغط الدم ، أو قد تميل إلى التبرّم والشكوى . ولكن حين ينشط جسمك ويندفع الدم في عروقك ، على أثر برد الجوّ برداً مفاجئاً ، تحسّ توفزاً وابتهاجاً ، ثم إذا تغير الجوّ قليلاً ، أحسستَ بالتعب حتى لتعجز عن رفع إصبعك ، وهذه الحالة تعرف باسم « إعياء الحالة الجوية » .

والتأثر بالحالة الجوية على هذا المنوال يبلغ مبلغ الخطر ، إن كنت مريضاً . لأن التقلب في حالة الجوّ يؤثر في المرضى أكثر مما يؤثر في الأصحاء ، وفي النحاف أكثر مما يؤثر في السمان ، وفي الرجال أكثر مما يؤثر في النساء .

فالنشاط المفاجئ الناشئ عن تأثير الحالة الجوية ، وما يصحبهُ من تغير في ضغط الدم وفعل القلب ومعدّل استنفاد الطاقة المذخورة في الجسم ، قد يكون عبئاً يعجز المريض عن حمله . وقد يكون « القشة » التي تقصم ظهر الجمل ، الفارق بين الحياة والموت .

فان كنت نحيفاً ، فالبرد والمطر — في نظر علماء المتيوروبيولوجيا — هما خصماك العنيدان . والربيع هو فصل الخطر . فأنت سريع الحركة متوثب تعيش بأعصابك ، وليس في

جسمك أطباق من الشحم تدرأ عنك الصدمات ، وكل تغير في حالة الجوّ يترك أثره فيك .

وأنت ذلك الطراز من الرجال الذي يأكل ويأكل فلا يسمن . فجسمك لا يخزن شيئاً ويحرق كلَّ شيء ، وفي جسمك ميل الى فقد الفيتامين والكلسيوم واليود وغيرها من المعادن . وأنت أدنى الى فقدها في الربيع ، لأن كثرة التقلب في حالة الجو ، خلال الربيع ، تقتضي من جسمك الملاءمة اللازمة . وفي هذه الحالة ، تتردد نفسك كثيراً بين حالتي الابتهاج والانقباض ، فيسهل أن تصاب بالإعياء العقلي والجسماني .

فاذا طالت فترة المطر ، أو إذا حدث انقلاب فجائيٌّ في حالة الجوّ ، أصبت بحالة عصبية تقرب من أحد أنواع الجنون . فاذا كان فيك انحراف أصيل إلى الانتحار فقد يكون البرد الشديد ، أو حالة الانقباض الشديد التي تلي فترة المطر ، حافزاً إلى الاقدام عليه .

وقد وجد الدكتور لڤنسون — أحد موظفي مكتب تسجيل الوفيات في مقاطعة كوك بولاية إلينوي — أن بين المنتحرين في النصف الأول من السنة ، يغلب النحاف من الناس . فهو القسم من السنة الذي تكثر فيه عواصف الشتاء . أما في النصف الثاني فتكون نسبة المنتحرين من السمان أعلى .

ويرى الدكتور پيترسن أن الرئيس ابراهام لنكولن ، مثلٌ للرجل النحيف الذي يشتدُّ تأثره بحالة الجو . فحالتهُ النفسية كانت متقلبة ، ونشاطهُ قريب النفاد ، وكان هذا التقلب فيه يوافق التقلب في أحوال الجوّ ، فذهب من حولهُ ، حتى منذ ثمانين سنة ، إلى ان الحالة الجوية هي السبب .

وكان المطر والبرد ، أكثر أسباب الانقباض في نفس لنكولن . وكان انقباضهُ يشتدُّ في الربيع ، ثم يخف في الصيف والخريف ، وكان الجوّ الدافئ والضغط البارومتري المستقرّ يبدد ان انقباضه ، فيستردّ ثقتهُ بنفسه ويميل إلى التفاؤل .

فاذا كنت سميناً ، كنت أقل تأثراً بتقلب الجو ، فلا يصدمك تغيره المفاجىء ، وما خزن في جسمك من شحم ونشا وكلسيوم وڤيتامين وماء ، يدرأ عنك التأثر بصدمة التقلب ، كما يدرأ قضيب الحديد في مقدم السيارة تأثير الصدمة . على أن جسم السمين يفقد « مرونته » حين يكتهل ، وقد يصاب بأمراض القلب أو السكر أو تصلب الشرايين فيشق على جسمه إحداث الملاءمة السريعة اللازمة التي يقتضيها التغير في حالة الجو . وتتأثر حالته النفسية بذلك فيميل إلى التهييج .

فاذا كنت سميناً ، فالحرارة والرطوبة — في نظر علماء النيوروبيولوجيا — هما خصماك . وفصلا الصيف والخريف هما فصلا الخطر . فاذا طالت فترة الحرارة والرطوبة زادت قلوية

جسمك . وضغط دمك يزداد كضغط دم النحيف حين يتحوّل الجو من الحرارة إلى البرد . أما هو فيميل إلى التراخي والاعياء . وأما أنت فتحس أنك جم النشاط . ولكن هذا الشعور لا يلبث أن يتحوّل إلى سرعة الانفعال والتهيُّج ، وقد تصاب بالصداع العصبي ، فاذا بلغ هذا الطور أقصاه مدىً وتأثيراً ، فقد يؤدي إلى الانتحار أو القتل .

وينصح الدكتور پيترسن بما يلي : تبين رجع الحالات الجوية المختلفة في جسمك ، فاذا كنت نحيفاً ، يسهل تأثر جسمك بتقلب الجو ، فاعمد إلى كل ما يزيد وزنك ، والزم الدفء وتجنب التعب الجسمي والعقلي والعاطفي . وإذا كنت سميناً فاعمد إلى ما يخفض سمنتك ، ولكن لا تبالغ في ذلك ، والزم الهدوء والراحة وتجنب الحر .

وإذا كنت مريضاً أو أحسست أنك متعب مرهق وأنك عاجز عن احتمال الجو الذي لا يستقر على حال من القلق ، فاذهب في إجازة إلى مكان ملائم أو غيِّر مقر سكناك . ولكنك برغم ذلك كله لن تفلت تماماً من تأثير الحالة الجوية .

على أن الجو ليس قوامه الرياح والعواصف ، والجفاف والرطوبة ، والبرد والحر والضغط البارومتري ، وحسب . بل تخترقه ضروب الاشعاع من ضوء الشمس إلى الأشعة الكونية . ولبعض هذه الضروب تأثير في الحالة النفسية في رأي بعض العلماء .

فقد عرف العلماء من عهدٍ بعيد أن كل قدم مكعبة من الهواء الذي نتنفسه تحتوي على دقائق مكهربة — وتعرف باسم ايونات أو شوارد — بعضها مكهرب كهربائية موجبة وبعضها مكهرب كهربائية سالبة ، وهذه الدقائق محمولة في الغبار وقطيرات الماء وما أشبه . ولكننا ما نزال في مفتتح عهد جديد في فهم ما لهذه الدقائق من التأثير في الشؤون الحيوية ، لأن العلماء لم يتمكنوا إلاَّ من عهد قريب ، من السيطرة على حالة الجو الكهربائية سيطرة خاضعة لقواعد التجربة العلمية .

فالأيونات يمكن توليدها في الهواء باطلاق شرارات كهربائية فيه أو أشعة إكس أو مقذوفات الراديوم أو بفعل الأشعة الكونية وما كان من قبيلها . حتى شعلة من النار في موقد متأجج تؤيّن الهواء إلى حدٍّ ما ، أي تولد فيه هذه الدقائق المكهربة أي الأيونات .

ثم هناك أجهزة خاصة تمكن العلماء من أن يخرجوا من قدر معين من الهواء في معمل البحث الدقائق المكهربة الموجبة أو الدقائق المكهربة السالبة ثم يدرس تأثير الباقي .

على هذا النمط وجد الأستاذ دسور Dessauer في جامعة فرنكفورت أن المرضى الذين يتعرَّضون للدقائق المكهربة الموجبة يشعرون بالتعب والإعياء والدوار والصداع . فلما أزيلت

الدقائق المكهربة الموجبة من الهواء الذي يتنفسونه وتعرضوا للدقائق المكهربة السالبة زال الصداع وحل محله شعور الانشراح والنشاط .

وقد أجريت التجارب في ضغط الدم وتأثره بحالة الهواء من حيث وجود الدقائق الموجبة أو الدقائق السالبة فيه، فظهر أن وجود الأولى يزيد ضغط الدم ويحدث شعور الراحة والطمأنينة . بل هنالك ما هو أعجب مما تقدم : ذلك أن استنشاق مقادير من الدقائق المكهربة السالبة مدى أسابيع أفضى إلى تحسين الحال في ثمانين في المائة من إصابات ضغط الدم . ولا ريب انك أيها القارىء قد سمعت المصابين بالروماتزم يتحدثون بما يشعرون به من تقلب حالة الجو قبل حدوثه . فهل لهذا الشعور وهو أشبه ما يكون بالتكهن بالجو أساس علمي ؟

لقد أثبت الأستاذ دسور أن الناس المعرضين للروماتزم زادت آلامهم وتضخمت مفاصلهم وارتفعت حرارتهم قليلاً عند استنشاقهم هواء كثرت فيه الدقائق المكهربة « الأيونات » . ومعروف عند علماء أحوال الجو أن العاصفة قبل حدوثها يسبقها هبوط في ضغط الهواء ، فيصعد الى سطح الأرض هواء كان محفوظاً بين دقائق التراب . وقد ثبت أن الهواء الذي يكون بين دقائق التراب تكثر فيه الدقائق المكهربة الموجبة . ولعلّ وجود هذه الأيونات يزيد آلام المصابين بالروماتزم قبل انفجار العاصفة .

ثم إن الهواء يحتوي على أيونات كبيرة وأيونات صغيرة ، وقد كشف الباحثون في معهد كارنيجي بوشنطن ان الأيونات الكبيرة تكثر بعد الغروب والأيونات الصغيرة تكثر قبل الشروق . ولعلّ هذا الفرق بين الليل والنهار أهم من الفرق في الرطوبة بينهما . بل لعلنا نجد في هذا الفرق تفسيراً لتأثيرها الفسيولوجي في جسم الانسان .

***

وهاك تجربة أخرى عجيبة وضعها الدكتور ملز أستاذ الطب التجريبي في جامعة سنسناتي الاميركية .

فقد ربيت طائفة من الجرذان منذ ولادتها — بعد أن قسمت ثلاث جماعات — في ثلاث بيئات متفاوتة الحرارة ، فكانت حرارة إحداها ١٨½ درجة مئوية والثانية ٢٥ درجة مئوية والثالثة ٣٢ درجة مئوية . ثم امتحنها ليعرف قدرتها على التعلم . فصنع تيهاً وضع طعامها في آخره ، ومبدؤه في هذا التيه ، أن الطريق إلى الرأس يمرّ بالبطن .

فالجرذان التي ربيت في البيئة الأولى — وهي أبرد الثلاث — وجدت طريقها إلى الطعام بعد اثنتي عشرة محاولة ، والجرذان من الثانية وجدت طريقها بعد ثمانٍ وعشرين

محاولة . ولكن الجرذان من الثالثة وجدت مشقة عظيمة ، فبعضها وصل إلى الطعام بعد ثمان وأربعين محاولة ، ولكن كثيراً منها عجز واستسلم للإخفاق مفضلاً الجوع على إرهاق العمل .

وامتحنت الجرذان جميعاً مرة أخرى بعد ثلاثة أشهر . فالجرذان التي ربيت في البيئة الأولى — البارد بالقياس إلى الآخريين — تذكرت منعطفات التيه التي تفضي بها إلى مكان الطعام ، فلم تكد تتردد . والجرذان من الثانية ، تذكرت رويداً رويداً ولكنها نجحت آخر الأمر . أما جرذان البيئة الثالثة التي بلغت الطعام في التجربة الأولى ، فقد نسيت كل ما تعلمته فيها ، وتعيّن عليها أن تحاول محاولة جديدة تماماً .

ويرى الدكتور ملز ان المواليد الذين تحمل بهم أمهاتهم في الأشهر الباردة أدنى إلى النشاط والذكاء والنجاح من الذين تحمل بهم أمهاتهم في الأشهر الحارة . وقد راجع سجل العظماء لدراسة هذه الناحية دراسة إحصائية ، فوجد ان ٢٧ رئيساً من ٣١ رئيساً من رؤساء الولايات المتحدة . بدأ الحمل بهم بين دسمبر ويوليو . وليس بينهم واحد بدأ الحمل به في أغسطس . وغيرهم من الرجال الممتازين على هذا الغرار . فالذين تحمل بهم أمهاتهم في أشهر الربيع أميل إلى النجاح في العمل وإلى طول العمر من الذين يحمل بهم في أشهر الصيف الحارة . وسبب ذلك في رأيه أن نشاط الجسم البشري يتبع دورة سنوية ، يبلغ فيها الذروة في الربيع حين يكون الجو بارداً مستفزاً للنشاط . ثم تهبط الى الحضيض في أشهر الصيف حين يكون الجو حاراً رطباً باعثاً على الاسترخاء . قال : "ولو كنت حاكماً بأمره لجعلت يناير لا يوليه شهر الزواج .

وإذا كنت ممن يعيشون في جو بارد تسعة أشهر أو عشرة أشهر من كل سنة ، كان خليقاً بك أن تقضي إجازتك في جو دافىء ، وأن تعمد فيه إلى الراحة والقيلولة ، فيخف معدل الاحتراق في أنساج جسمك ، ويحدث هبوط يسير في ضغط دمك ويطول عمرك .

ولعل الحاجة ماسة — في رأي ملز — ، إلى دكتاتور صحي ، يعيّن لكل امرئ خير مكان يقضي اجازته فيه !

هذه نواحٍ قليلة ، من تأثير الجو في الحمل والولادة والصحة والنشاط والحالة النفسية ، وقد يكون بعضها في حاجة إلى التأييد العلمي ، ولكنها في مجموعها تبيّن أن بين حالة الجو وحالة الجسم والنفس صلة وثيقة ، وأنها جديرة بالاستقصاء العلمي الدقيق .

الفجر الروحاني

لبودلير*

« . . . هو الآن مؤمن بأن في الدنيا خيراً وجمالا ، وهو سعيد كل السعادة بذلك الايمان . وهذا هو في درك الهاوية يتطلع اليها مؤملا في الخلاص على يديها مستبشراً متهللا متفتح الروح لهذا الفجر الروحاني

« حين يدخل الفجر الأبيض الزاهر في قلب الفاجر
« ومعهُ المثل الأعلى المنشود بوخزه الأليم
« يفعل سرُّه الخفي فعله القاهر
« فإذا في البهيم الهامد يستيقظ مَلكٌ كريم

« وإذا السموات العلا الروحانية
« ينفتح فلكها المكوَّر البعيد المنال
« فاغراً سحيقاً ، له ما للهاوية من جاذبية
« للصريع الذي لا يزال متألماً حالماً بالكمال

« كذلك — يا ربتي الحبيبة ، يا ذات الطهر والصفاء —
« على البقايا الداخنة من ليالي العربدة الخرقاء
« تهفو أمام عيني الشاخصة في الفضاء
« ذكراك وضاءةً زاهرةً ساحرةً بغير انتهاء

« في وجه الشمس تصبح نيران الشموع كابية كامدة
« كذلك ذكراك على الدوام ظافرة غالبة
« أيتها الروح المنيرة ! أيتها الشمس الخالدة ! »

* عن « الشاعر الرجيم » تأليف عبد الرحمن صدقي ، نشر مطبعة المعارف ، سلسلة اقرأ

مآثر الملك فؤاد

على معاهد العلم

لمحمد زكي الابراشي باشا (١)

مولاي وسيدي وابن سيدي :

رعاك الله وحفظك ورفع شأنك وأعلى ذكرك في العالمين، وجعل التوفيق حليفك وأدامك للعلم مؤيداً ونصيراً، لقد كنت اليوم يا مولاي كعادتك دائماً باراً بأبيك العظيم، ومثلك من يضرب الأمثال للناس في البر

ولقد خفق قلب الشعب معك وشاركتك الأمة بأسرها في هذه الذكرى الغالية، وكان في المقدمة رجال جامعة فؤاد الأول وهي غرس يدي أبيك وأعضاء مجلس ادارة الجمعيات والهيئات العلمية العديدة التي أنشأ أبوك بعضها ورأس البعض الآخر ، ورعاها جميعاً بعينه الساهرة . وذلك اعترافاً منهم جميعاً بفضله . وان الجمعية الجغرافية التي أنشأها جدكم العظيم ورأسها وسهر على مصالحها والدكم العظيم لتعتز بتشريفكم اليوم في هذا المكان الذي طالما شرّفه أبوكم من قبل، وستسجل هذه الزيارة الكريمة في أجمل صفحاتها .

ولولا طمعي في كرمكم لقعد لساني عن الكلام، وكيف أستطيع الكلام عن مآثر قرن في ساعة ، وأنّى لي أن أحصي حسنات قرن وهي عديدة تجل عن الحصر

ولكني خادم مخلص لكم ولأبيكم من قبل، والخادم يطمع دائماً في كرم سيده، لذلك أستأذنكم في البدء بكلمتي مع اعترافي بالعجز والتقصير

في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٦ فقدت مصر ملكاً عظيماً وعالماً جليلاً وراعياً حكيماً وهو المغفور له الملك فؤاد ، فكانت خسارتها بفقده في ذلك اليوم فادحة ، بل هي خسارات متعددة قلّ أن تصاب بمثلها أمة في يوم واحد

---

(١) القيت في الجمعية الجغرافية بمناسبة الاحتفال بذكرى المغفور له جلالة الملك فؤاد الاول

ولد في سنة ١٨٦٨ وتربى بادئ الأمر في سويسرا ، ثم أتم علومه العسكرية العالية في ايطاليا ، والتحق بعد ذلك بالسلك السياسي العثماني لأن مصر كانت تابعة سياسياً للدولة العلية ، فكان ياوراً للسلطان عبد الحميد ثم ملحقاً عسكرياً لتركيا في بلاد النمسا ، ولكن سرعان ما تحرّر من قيود الوظائف لأن نفسه العالية كانت تصبو الى التزود من العلم، ولذلك أكمل دراسته بنفسه في السوربون بحضور محاضرات فيها، علاوة على دراساته الخاصة التي يمكنني القول بأنها استمرت طول حياته ، فاستطاع بذلك التضلع من الآداب والفلسفة والجغرافيا والتاريخ . وقد أعد نفسه لخدمة مصر من طريق العلم لأنه وجد بفكره الثاقب أن لا حياة للأمم إلاَّ بالعلم وان بلاده محرومة من جامعة يثقف فيها الشبان، فقبل رحمه الله أن يكون أول عميد للجامعة المصرية، وقد نشأت شعبية واكتفى بادئ الأمر بكلية واحدة وهي كلية الآداب، وأقبل الكثير من كبار العلماء في أوربة مغتبطين بالعمل معهُ في هذه الجامعة الناشئة الفتية . وكان رحمه الله وهو من أكبر أمراء البيت العلوي الكريم يقوم بهذا العمل حسبة ابتغاء وجه الله والوطن . وقد كان شديد الاهتمام بجامعته يحضر اليها كل يوم ليقوم بواجبه الذي فرضه على نفسه ولا ينساها حتى في أسفاره للراحة والاستجمام، فكان ينتهز فرصة وجوده في أوربة لمقابلة العلماء والعظماء والوزراء طالباً منهم مساعدة جامعته الناشئة وايجاد الصلات العلمية الوثيقة بينها وبين الجامعات الكبرى . ونجح في ذلك الى حدٍّ كبير كما تشهد بذلك الكتب والمؤلفات العديدة التي أهديت للجامعة في أول نشأتها وبالأخص من ايطاليا وفرنسا

وبعد أن تبوأ عرش مصر وطد أركان هذه الجامعة وجعلها حكومية تنفق عليها الدولة بسخاء من الأموال العامة، ونشطت البعثات العلمية في زمنه نشاطاً يفوق ما كان عليه الحال في زمن جده الأكبر محمد علي وأبيه اسماعيل، واستكمل كليات هذه الجامعة واعترفت بها الجامعات الكبرى في أوربة ، واستقرت كلياتها على ضفتي النيل شاهدة بفضلهِ وجهوده المتواصلة في خدمتها ورعايتها .

ولقد اتجه بكل قواه إلى الهيئات العلمية في البلاد يشجعها ويخدمها بما وهبه الله من علم غزير وصحة ومال . وكان في مقدمة ما عني بهِ من هذه الهيئات العلمية الجمعية الجغرافية التي أولاها حبه وعطفه وكان لها في نفسه منزلة خاصة لأن أباه الخديو اسماعيل هو الذي أنشأها . وقد كان رحمهُ الله يحب أباه حباً يفوق كل حب ويقدس ذكراه ويعتقد في قرارة نفسه أن التاريخ لم ينصفه وان كثيرين عملوا على حجب الحقيقة والتقليل من جهوده وان التاريخ لا شك منصفه متى بددت السحب وعرفت هذه الجهود الجبارة على حقيقتها .

وكان من الطبيعي أن يشمل برعايته الجمعية الجغرافية التي كان يرى فيها صورة من أعمال أبيه العلمية في خدمة مصر .

رأس الأمير فؤاد الجمعية وأسدى إليها من الخدمات ما سنذكر بعضه، واستمرّ في رياستها إلى أن شاءت العناية الإلهية أن يتبوأ عرش مصر، عرش آبائه وأجداده ، ذلك العرش الذي زانه العلم ورعاية العلماء .

اعتقد من كانوا يعرفونه والملتصقون به أن العلم سيكون له أكبر شأن على يديه، كما ظن البعض أنه وهو العالم الكبير سيلهيه علمه عن السياسة، فاذا هو يحقق أمل الأولين ويخلف ظن الآخرين .

وليس من شأني اليوم أن أتكلم عن أثره السياسي فليس في مصر كلها من لا يحس به ، وليس هو موضوع حديثي اليوم ، وحسبي أن أشير إلى أنهُ تولى الحكم عند ما كانت البلاد تحت الحماية المقوتة والعالم في حرب طاحنة فتولاها سلطاناً، ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتى رعى الحركة الوطنية ودافع عن مصالح بلاده وكرامتها فألغيت الحماية ونودي به ملكاً على مصر، وظلّ يعمل ليل نهار. وكان الجو السياسي يصفو تارةً وتثور فيه الزوابع أحياناً وهو في جميع الحالات صابر يتحمل المكاره بشجاعة وجلد لا ينظر إلاَّ إلى عظمة مصر وسعادة أهلها، وانتهى بأن ألف بين قلوب الزعماء والكبراء وكوَّن منهم في آخر حياته جبهة وطنية بدأت المفاوضات مع بريطانيا لتحقيق استقلال مصر وفارق الدنيا وكله أمل في أن تنجح هذه المفاوضات ويحقق استقلال مصر، وقد انتهت المفاوضات بعد ذلك بمعاهدة الاستقلال.

والآن أعود إلى الكلام عن الجمعية الجغرافية لأقول كلمة في مآثر المغفور له الملك فؤاد الأول عليها ، ولا يسعني في هذا المقام إلاَّ أن أذكر بالخير فضل منشئها وهو والده العظيم الخديو اسماعيل .

لقد قيل بحق أن مصر هي مهد الجغرافيا، يؤيد ذلك ما ثبت من أن اول خريطة جغرافية في العالم وضعها المصريون في عهد الفراعنة وسجلوها على ورق البردي . وفي العصر اليوناني الروماني وفي القرن الثاني الميلادي ولد في مصر كلود بطليموس الذي أصبح عالماً من علماء الفلك واعتبر بحق أبا الجغرافيا لأنه وضع جغرافية وخرائط اعتمد عليها العالم إلى حين القرون الوسطى، وكانت أهم مرجع في شئون الجغرافيا.

ولقد شغف العرب بالجغرافيا ووُجد بين رجالهم من تركوا في هذا الشأن تراثاً قيّماً

كابن بطوطة صاحب الرحلات المشهورة . ولما شاءت العناية الإلهية أن يتولى حكم مصر محمد علي باشا الكبير واستقر له الحكم في مصر، بعد جهود موفقة ، اتجهت عزيمته الى السودان ففتحه وأرسل اليه كثيراً من المهندسين في بعثات للبحث عن المعادن ولا سيما معدن الذهب. ثم سافر رحمه الله بنفسه إلى السودان ووصل إلى فازوغلي وكانت سنه إذ ذاك ٦٩ سنة

وقد أحب أولاده وأحفاده الجغرافيا وعرفوا مزاياها وما يعود على البلاد من الخير بالعناية بها ، حتى جاء حكم الخديو اسماعيل العظيم، فعني رحمه الله بارسال كثير من البعثات إلى السودان وإلى أعالي النيل، ودانت له تلك البلاد بفضل جيوشه المظفرة واستخدامه لرجال ذوي صفات عالية أمثال صمويل بيكر وغوردون واسماعيل أيوب باشا والسردار راتب باشا وغيرهم .

وكانت له امبراطورية متسعة الأرجاء وامتدَّ سلطانه على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي، فكانت له هرر وبربر وزيلع ، كما امتدَّ سلطانه إلى قرب بحيرة البرت وأنشأ صلات طيبة بواسطة غوردون باشا مع ملك أوغندا متيزا، وقد كان غوردون باشا حاكم المديريات الاستوائية المصرية والجنرال ستون باشا رئيس اركان حرب الجيش المصري يشيران على الخديو اسماعيل بأن ينظم حملة تضم أوغندا لحكم مصر حتى يكون بذلك النيل مصريًّا من منبعه إلى مصبه، ولكن كان ذلك في أواخر حكمه، فلم تمكنه الظروف من تنفيذ هذا المشروع

وقد أنشأ المغفور له الخديو اسماعيل باشا الجمعية الجغرافية في مصر في سنة ١٨٧٥ وكانت أول جمعية جغرافية عرفها العالم هي جمعية باريس في سنة ١٨٢١ ثم جمعية لندرة في سنة ١٨٣٠ وفينا في سنة ١٨٥٦ وروما في سنة ١٨٦٧ وبودابست في سنة ١٨٧٣ . ومن هذا يرى أن جمعيتنا الجغرافية المصرية كانت في طليعة الجمعيات الجغرافية التي عرفها العالم ، وهي بلا نزاع أول جمعية جغرافية في الشرق .

وكان قصد المغفور له اسماعيل باشا من إنشاء هذه الجمعية في مصر هو إيجاد مهاد صالح للعلماء والمكتشفين لكي يعرضوا نتائج أبحاثهم ومكتشفاتهم لجهات البحيرات والمناطق الاستوائية وبالأخص منابع النيل التي ظلت مجهولة من عهد الفراعنة إلى عهد اسماعيل حيث اكتشفت وعرفت ، وكان الفضل في ذلك للعلماء والرجال العظام الذين مدَّهم إسماعيل بروحه الفياضة ولم يضن عليهم بالمال اللازم ، وهذه الجمعية الجغرافية التي كانت وحيدة في الشرق ونظائرها قليلة في الغرب وقت إنشائها أسدت إلى الجغرافيا خدمات كبيرة لاسيما بعد أن أنشأت لها مجلة ما زالت تصدر حتى الآن .

وفي سنة ١٩١٥ توفي المرحوم أباتِ باشا بعد أن ظل رئيساً للجمعية الجغرافية المصرية مدة ثلاث وعشرين سنة وكان ذلك في عهد المغفور له السلطان حسين، فرأى أن يعهد في رياسة هذه الجمعية التي أنشأها والده العظيم إلى أخيه العالم الأمير أحمد فؤاد (في ذلك الحين) علماً منه بكل ما يمكن أن تناله هذه الجمعية من الخير والتقدم على يديه المباركتين . وقد قبل الأمير هذه الرياسة وصدر بذلك مرسوم بتاريخ ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٥ وقد بعث فيها روحاً قوية وحياة جديدة إذ ضمّ اليها نخبة من الأفاضل أمثال أحمد زكي باشا ومحمد مجدي باشا وبوغوص نوبار باشا والسناتور ادامولي وجورج فوكار والدكتور هيوم ، كما زاد عدد المشتركين في الجمعية . ووجه عنايته إلى نظامها فأدخل عليه من التعديل ما يضمن لها السير في طريق التقدم واستصدر بذلك مرسوماً في ١١ أغسطس سنة ١٩١٧.

ولكي يضمن لها البقاء حصل على تعهد الحكومة لها حيث قررت لها ــ بناء على مساعيه الموفقة ــ إعانة سنوية ما زالت تصرف لها إلى اليوم . ولما كانت مصر في عهد والده العظيم قد وصلت في مكتشفاتها إلى ما لا مطمع لها بعده حيث اكتشفت منابع النيل حتى كاد يصبح مصريـاً من منبعه الى مصبه ، فقد وجه الأمير فؤاد جل همه أثناء رياسته إلى إظهار ما كان لأبيهِ من فضل على العلم لارساله البعثات التي وصلت إلى الجهات الاستوائية واكتشفت منابع النيل وهو ما يسجل بمداد الفخر للعائلة العلوية الكريمة . كما وجه عنايته إلى تنظيم محاضرات يلقيهـا كبار العلمـاء خدمة لمصر وساكنيها ، فألقى ويلكوكس المهندس العالم المشهور سلسلة محاضرات عن الصرف في مصر . وكانت العناية إلى ذلك الحين موجهة إلى الري في حين أن العناية بالصرف كانت ضئيلة، فنبهت هذه المحاضرات الناس ووزارة الأشغال نفسها إلى خطر المضي في هذه السياسة ، وأن العناية بالري يجب ان تكون مقترنة بالعناية بالصرف، وكان من جراء ذلك أن عنيت مصر وما زالت تعنى بالمصارف لتحول دون وقوع ضرر محقق بالتربة المصرية ظهرت بوادره مثلاً في مديرية من أخصب مديريات الوجه البحري وهي المنوفية، إذ بقيت بغير مصارف اعتماداً على خصب أرضها حتى ظهرت أضرار هذا الترك واضحة. ولذلك تقرر إنشاء المصارف فيها ونفذت هذه السياسة فعلا من سنوات، وأصبح من المبادئ الثابتة في وزارة الأشغال العناية بالمصارف التي انتشرت الآن في كل مكان وما زالت تنـال من اهتمام الحكومات المتعاقبة ما تستحقه . وقد كان للجمعية الجغرافية مع غيرها من المشتغلين بهذه الشؤون فضل التنبيه إلى هذا الخطر والطالبة بدرئه قبل وقوعه .

وألقيت كذلك محاضرات أخرى في موضوعات مختلفة نذكر منهـا على سبيل المثال

المحاضرات التي ألقاها المسيو جورج فوكار عن طبائع الشعوب الأفريقية ومحاضرة الدكتور حافظ عفيفي باشا عن رحلته من بنغازي إلى جغبوب في صحبة السنوسي الكبير. والمحاضرات التي ألقيت عن أخلاق المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في العهد الحديث لدباته وصيداوي . وقد نشرت هذه الأبحاث في الجزء الثامن من مجلة الجمعية بعد احتجابها بضع سنين .

ولقد وجه المغفور له الأمير فؤاد همه أثناء رياسته للجمعية إلى أن تظهر أبحاثها أولاً وقبل كل شيء كل ما يتعلق بمصر والسودان في حاضرها وتاريخهما القديم والحديث . ووجه عنايته بنوع خاص إلى الأبحاث الخاصة بطبائع الشعوب الأفريقية، ونشر على العلماء أسئلة كثيرة خاصة بذلك . وكلف المسيو توماس أن ينظم تنظيماً علمياً متحف الجمعية الجغرافي وهو متحف حوى مجموعات نفيسة عن أفريقية الاستوائية ، كما عني بنشر فهرس لما حوته هذه المجموعات . وقد تعهد الجمعية بكل ما يساعدها على القيام بمهمتها النافعة، إذ مدَّها بكثير من الكتب العلمية والخرائط، كما وثَّق صلات علمية وروحية بينها وبين الجمعيات الأخرى. وفي عهده قبل مبدأ تبادل النشرات والأبحاث مع جمعيتنا المصرية

وقد ظلَّ المغفور له الأمير فؤاد يرعى الجمعية الجغرافية ويخصها بعطفه وتشجيعه إلى أن دعته العناية الإلهية ليتبوأ عرش مصر فلم يقطع صلته بها بل زاد عطفه عليها وتشجيعه لها ماديًّا وأدبيًّا .

لقد شرَّفني رحمهُ الله بأن أكون ناظر خاصته ومدير الأوقاف الخصوصية الملكية كما شرَّفت بناءً على رغبته السامية بأن أكون عضواً في مجلس إدارة الجمعية وهو شرف أعتزُّ بهِ. وقد لمست وأنا بالقرب منه مقدار حدبه على الجمعية واهتمامه بشؤونها ورغبته الدائمة في ضمان حياتها وتقدمها . وطالما أمرني بأن أقدم لها من ماله ما يساعدها على القيام بمهمتها على أحسن وجه وأكمله . وقد بلغ مجموع ما دفعهُ من ماله مساعدة للجمعية في المدة من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٣٥ أي في عشر سنوات مبلغ ١١٠ ٢٧ جنيهات دفعها من ماله راضياً مسروراً . وقلَّ من يعرف لهُ هذه المكرمات، لأنه لم يعط ما أعطاه للجمعية طمعاً في شهرة أو ليتحدث الناس عن ذلك، بل فعله ابتغاء وجه الله وخدمة الوطن.

وكانت هباته تختلف سنة عن أخرى بحسب حاجة الجمعية إلى المال أو اتساع نشاطها باقبال بعض العلماء على التأليف والنشر، فقد وهبها مثلاً ٦٢٥٠ جنيهاً في سنة ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩

و ٦٠١٠ جنيهات في سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ و ٥٠٠٠ جنيه في سنة ١٩٣١ ـ ١٩٣٢

وقد بلغت قيمة إعانات الحكومة للجمعية في العشر السنوات السابق الكلام عنها مبلغ ١٣٣٥٠ جنيهاً إذ كانت الحكومة تعطيها ألف جنيه سنويـًا تزيدها قليلاً في بعض السنين.

ولقد كانت هذه الاعانة الحكومية تمكن الجمعية من مواجهة مصروفاتها العادية ومرتبات موظفيها، ولم يكن يبقى لديها بعد ذلك مال يساعدها على النشاط العلمي. من أجل ذلك كانت الهبات الملكية التي زادت عن ضعف إعانة الحكومة ذات فائدة كبرى للجمعية. وقد تمكنت من التوسع في النشر الذي كلفها أزيد من عشرين ألفاً من الجنيهات. كما سمحت لها هذه الهبات بأن تغذي مكتبتها بما يزيد قيمتها العلمية وأنفقت في سبيل ذلك ٤٧٢٢ من الجنيهات في العشر السنوات المذكورة

وقد ازدان متحفها الاتنوغرافي بما جعله أكبر قيمة وأكثر نفعاً

كان من نتيجة تشجيع المغفور له الملك فؤاد للجمعية ومدها بهذه الهبات الملكية الكريمة أن اتسع نشاطها وزادت ثروتها العلمية وقد تمكنت في عهد حكمه من طبع أكثر من عشرين بحثاً كلها خاص بشؤون جغرافية مصر وما جاورها من البلاد.

ولا أريد أن أطيل عليكم بذكر هذه الأبحاث كلها، فأكتفي بأن أذكر بعض أمثلة :

فمنها بحث عن ميناء السويس للمسيو G. Jondet

وبحث له أيضاً عن اسكندرية ومينائها.

ومنها للمسيو G. Douin بحث خاص بأسطول بونابرت وشواطىء مصر وأبي قير.

وبحث للمسيو De La Ronciere عن اكتشاف أفريقية في القرون الوسطى. وجغرافيـة مصر في عهد العرب للمغفور له الامير عمر طوسون، والبحر الاحمر والحبشة وبلاد العرب من أقدم العصور للمسيو Kammerer وله أيضاً البرتغاليون في المحيط الهندي والبحر الاحمر في القرن الخامس عشر.

ومنها معجم جغرافي للمسيو H. Gauthier اشتمل على الأسماء الجغرافية التي وردت في النصوص الهيروغليفية

وقد اشتركت الجمعية في عهده اشتراكاً نافعاً في أبحاث عالمية إذ طلب منها الاتحاد الجغرافي الدولي أن تجري بحثاً عن المساكن في الريف فقامت به ووصل البحث إلى نتائج خاصة بمصر نافعة. وكانت مصر ثاني دولة أعلنت نتيجة بحثها في هذا الموضوع الهام.

وخدمةً للجغرافيا والتاريخ في مصر جمع في قصر عابدين كل ما كان في «دفترخانة» الحكومة بالقلعة من أوراق تتعلق بحكم محمد علي الكبير والخديو اسماعيل وهي مخطوطات لها قيمة علمية لا تقدَّر في نظر العلماء الذين يريدون الوقوف على تاريخ مصر وجغرافيتها على الوجه الصحيح .

وقد كانت اللغة المستعملة في الدواوين وفي المخاطبات الرسمية في مصر وفي الخارج هي اللغة التركية ، واستمرَّ الحال كذلك إلى أن تولى الخديو اسماعيل حكم مصر ، فجعل اللغة العربية لغة الدواوين وحلت محل اللغة التركية . وقد هجرت تركيا بعد ذلك حروفها التركية وأحلت محلها الحروف اللاتينية ، وحصل هذا التغيير الهام في عهد المغفور له الملك فؤاد ، فأدرك بثاقب فكره أن هذا التراث العظيم سيضيع على الأمة كلما تقادم العهد ويصبح طلسماً من الطلاسم يصعب حله والافادة منهُ ، وعلم رحمهُ الله بأن هذه المحفوظات علاوة على الصعوبة التي ذكرتها مهملة ومحفوظة بغير نظام ولا ترتيب ، فعهد الى عالم هو استاذ اللغة التركية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس في جمع شتاتها ونشر ملخص لها ، فقام بذلك وشفع هذا الملخص بدراسة عن الادارة التركية في مصر في أوائل القرن التاسع عشر

وبعد نقل هذه المحفوظات إلى قصر عابدين أمر المغفور له الملك فؤاد بترجمتها الى اللغة العربية واستمرَّ العمل في ذلك طوال مدة حكمهِ . وها هي ذي محفوظات عابدين عامرة بهذا الكنز الثمين يرجع اليهِ العلماء والمؤرخون في أبحاثهم الخاصة بمصر فيجدون فيه ما يرفع رأس مصر عالياً ويظهر فضل العائلة الحاكمة على العلم وعلى البلاد

ولم يكتفِ رحمه الله بما تقدم بل كلف شخصيات كبيرة أن تنسخ لهُ صورة المستندات الدبلوماسية والمراسلات الرسمية التي تبودلت بين ممثلي الدول الأجنبية وحكوماتهم خاصة بمصر .

فقام رينيه قطاوي بك بنسخ صورة المحفوظات الروسية عن عهد محمد علي الكبير والمسيو A. G. Binis المحفوظات البولونية عن بعثة بولونية عسكرية في مصر في عهد محمد علي

وقام المسيو Georges Douin بنسخ كثير من المحفوظات الفرنسية في عهد محمد علي الكبير والخديو اسماعيل .

وقام المسيو A.G. Politis بنسخ المحفوظات اليونانية وعلاقة مصر باليونان في حكم محمد علي .

وقام سان ماركو بنسخ المحفوظات النمساوية والايطالية في عهد الخديو اسماعيل

وقد أنفق المغفور له الملك فؤاد في سبيل الحصول على صورة هذه المحفوظات الرسمية العظيمة القيمة بضعة ألوف من الجنيهات.

وقد نشرت هذه المستندات الرسمية في أربعين مجلداً ، كما نشرت مؤلفات كثيرة جعلت هذه المستندات مادتها الأساسية ولم يتم طبع كل ذلك في عهد المغفور له الملك فؤاد ، فأتمّ جلالة الملك فاروق الأول ما بدأه أبوه العظيم ، وبذلك تمّ طبع كل هذه المستندات وأهدى كل من الوالد وولده ما طبع في عهده إلى الجمعية الجغرافية لبيعه بأثمان قليلة تضم لايراداتها ويعم نفعها البلاد .

ولم تقف همة المغفور له الملك فؤاد عند ما سبق بيانه وهو كثير في ذاته ، بل انتهز فرصة وجوده بفرنسا في سنة ١٩٢٧ وتحدّث مع المسيو جبرييل هانوتو وهو أحد وزراء فرنسا ومن كبار علمائها ليضع هو ونخبة من علماء فرنسا تاريخاً جامعاً لمصر من أقدم العصور إلى الآن . وقد تمّ الاتفاق معه بعد ذلك على تنفيذ هذه الفكرة السامية وطبع هذا المؤلف النفيس في سبعة مجلدات .

وقد أراد رحمه الله أن يعم النفع طبقات أكبر لا تصل إلى الحصول على هذا الكتاب النفيس ، فأمر بالاتفاق مع نخبة من العلماء على نشر مختصر لتاريخ مصر يكون في أربعة أجزاء ، وقد تم ذلك ونشر هذا الكتاب القيم وأعجب به كل من اطلع عليه وأهديت نسخ هذا المؤلف إلى الجمعية الجغرافية . ولا أشك في أن كل من اطلع على هذا الكتاب قد استفاد منه وقدر عظمة مصر من أقدم عصور التاريخ وفضلها على الحضارة والمدنية .

وقد تمّ الاتفاق بأمر المغفور له الملك فؤاد مع الجنرال فيجان Weygand — وهو مع الأسف معتقل حربيّ الآن ، ومعلوم أنهُ من أكبر قواد فرنسا — على أن يضع كتاباً في التاريخ الحربي لمحمد علي وأولاده ، وتمّ وضع هذا الكتاب وهو في خزانة كتب الجمعية الآن كما تمّ بأمر جلالته الاتفاق مع الأميرال دوران فيّل Durand-Viel من كبار الضباط البحريين في فرنسا على وضع مؤلف عن الوقائع البحرية التي قام بها محمد علي الكبير وابنه إبرهيم

وقد بيّن هذا الكتاب كيف وصل أسطول مصر إلى أن يكون في عداد أساطيل الدول الكبرى .

وقد تمّ طبع هذا الكتاب وهو في خزانة كتب الجمعية الجغرافية كذلك :

وقد أنفق المغفور لهُ الملك فؤاد في سبيل وضع هذه المؤلفات ونشرها عشرات الألوف من الجنيهات .

وإن من أنفس ما أهداه المغفور له الملك فؤاد إلى الجمعية الجغرافية خريطة إفريقية التي عملت في سنة ١٨٧٧ بأمر من المغفور له والده الخديو إسماعيل فقد أوجد في أركان حرب الجيش المصري قسماً جغرافيًّا يرأسه الجنرال ستون الأمريكي، وكان يعمل في هذا القسم ضباط مصريون ومعهم ضباط من الجنسيات المختلفة. وتمكن هذا القسم بناءً على رغبة الخديو إسماعيل من وضع خريطة كاملة لافريقية اشتملت على المكتشفات العظيمة التي تمت مدة حكمه وهي ست عشرة سنة، ولم تنشر هذه الخريطة مدة حكم من كان له الفضل في وضعها، وظلت صحيفتها مطوية إلى أن جاء المغفور له الملك فؤاد، فرأى أن هذا الأثر العظيم من آثار والده العلمية لا يصح أن يبقى مجهولاً لا ينتفع به، ودفعه حبه لأبيه وللعلم إلى أن ينشر هذا الأثر على الناس ليعم نفعه، فطلب إلى مصلحة المساحة أن تطبع هذه الخريطة التاريخية القيمة مصغرة، ونفذت مشيئته، وأمر أن تسلم هذه الخرائط المطبوعة للجمعية الجغرافية وأبقى الأصل لديه.

لقد غيرت هذه الخريطة وجه جغرافية إفريقية فقد كانت الخرائط إلى عهد محمد علي تظهر أن في جنوب وادي حلفا أرضاً مجهولة حاول المغفور له محمد علي أن يكشف حقيقتها وذهب بنفسه إلى فازوغلي، فلما تولى الخديو اسماعيل حكم مصر في سنة ١٨٦٤ أرسل حملات استكشاف متعددة وفقت إلى اكتشاف القبائل المتوحشة التي كانت تعيش حينذاك في السودان والكونجو وواداي وهرر ووصلت إلى اكتشاف منابع النيل نفسها

وقد شجع هذه الحملات تشجيعاً كبيراً حتى إن حملة صموئيل بيكر وحدها من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٧٤ كلفته ما يقرب من مليون جنيه.

إن هذه الخريطة تظهر لنا أن إسماعيل العظيم ضمَّ إلى مصر المديريات السودانية والمديريات الاستوائية ودارفور وكردفان ووصل إلى المحيط الهندي، وصارت رقعة مصر مدة حكمه ثلاثة ملايين من الكيلومترات المربعة وهو ما يعادل نصف أوربة كلها.

وبعد وفاة المغفور له الملك فؤاد تفضل جلالة الملك فاروق وأمر باهداء أصل هذه الخريطة إلى الجمعية، وأرسلت بكتاب مؤرخ في ١٩ يونيه ١٩٤٠ ذكر فيه أنها من وضع أركان حرب الجيش المصري بأمر جده المغفور له اسماعيل باشا لم يعثر عليها أحد بعد أن غادر مصر، وظلَّ الحال كذلك حتى وجدها والده العظيم فأمر بطبعها مصغرة، ورأى مولانا الملك المعظم حبًّا في تعميم نفعها وبرًّا بوالده وجده أن يهديها إلى الجمعية. وقد تقبلت هذه الهدية الكريمة شاكرة، وهي معروضة في مدخل الجمعية.

ومن الهدايا النفيسة التي أهداها المغفور له الملك فؤاد إلى الجمعية خريطة دقيقة للوجه البحري وضعها في سنة ١٢٨٩هـ العالم المشهور محمود باشا الفلكي بأمر الخديو اسماعيل وأثبت عليها أن أول خريطة عملت للأقطار المصرية هي التي عملها الفرنسيون في سنة ١٢١٣ هجرية ولكن تلك الخريطة كانت مملوءة بالأغلاط لجهل المهندسين الذين قاموا بوضعها لغة البلاد ، ولأنهم لم يكونوا في حالة اطمئنان تام ، إذ أن البلد لم تقبل الانقياد لحكم الفرنسيين

وبعد أن بيّن الصعوبات التي صادفته لوضع خريطة دقيقة ، وكيف أنهُ استعمل الفلك في وضعها ، ختم عبارته بأنها استلزمت في وضعها بضع سنين ، وقبل أن يتم وضعها وجد أن الخديو اسماعيل باصلاحاته العظيمة في خلال هذه السنين قد غير معالم الدلتا بما أصلحه من أراضٍ وما حوّله من برك إلى مزارع ، فاضطر أن يثبت ذلك في خريطته .

كانت هذه الخريطة ضمن محفوظات المغفور له الملك فؤاد الخاصة ، فأمرني بإهدائها إلى الجمعية الجغرافية ، وهي من بين الخرائط الكثيرة المحفوظة بها والتي تزدان بها قاعاتها .

وفي سنة ١٩٢٩ أهدى المغفور له الملك فؤاد إلى الجمعية ثلاثمائة مجلد في موضوعات فلكية وجغرافية ، وكان ورثة المغفور له محمود باشا الفلكي أهدوها لجلالته

وقد أهدى إليها كذلك خزانة كتب المغفور له البرنس حيدر فاضل ، وهي مكونة من ٧٧٨٢ مجلداً وهي كتب قيمة أهديت إلى جلالة الملك فؤاد ، فأهداها إلى الجمعية ، وهي الآن في إحدى قاعاتها .

وفي سنة ١٩٣٣ تمكن رحمهُ الله وهو في ألمانيا من شراء خمسة آلاف ومائتين وأربعين خريطة يرجع عهدها إلى آخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وكانت للامبراطور نابليون الأول وزوجه الامبراطورة ماري لويز ، وقد اشتراها بنية إهدائها إلى الجمعية الجغرافية ليزيد بها ثروتها العلمية ، فأهداها اليها وهي بها الآن

ولما أتمت جمعيتنا الجغرافية خمسين سنة من عمرها الطويل ان شاء الله رأى المغفور له الملك فؤاد ان تحتفل بعيدها الخمسيني احتفالاً فخماً فدعا لذلك المؤتمر الجغرافي الحادي عشر ليعقد جلساته في القاهرة وكان ذلك في سنة ١٩٢٥ (١) .

وقد لبى الدعوة خمسمائة عضو يمثلون مائة وعشرين جمعية علمية من جميع البلاد الأجنبية وقد تتبع الملك فؤاد أعمال هذا المؤتمر وأكرم مثوى العلماء الوافدين على

(١) راجع مقتطف مايو ١٩٢٥

مصر بمناسبة انعقاده ، وقد نجح نجاحاً منقطع النظير . ولكي تفيد مصر منه أمر جلالة الملك فؤاد بطبع أعماله وقد استلزم ذلك خمسة مجلدات طبعت في مدى سنتين وتزدان بهذه المجلدات خزانة كتب الجمعية وفيها أبحاث أكبر علماء الجغرافيا في العالم . وفي تلك السنة نفسها وبمناسبة هذا المؤتمر أوجد الملك فؤاد الجمعية الجغرافية في مكانها الحالي الذي نحن فيه الآن . وبعد المؤتمر وفي السنة نفسها افتتح الملك فؤاد مدينة بور فؤاد على الضفة الشرقية لقناة السويس في حفل رائع أعاد للأذهان حفلات أبيه العظيم .

وفي سنة ١٩٢٦ قبلت جمعيتنا في الاتحاد الجغرافي الدولي بجانب الجمعيات الجغرافية الكبرى في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا والنمسا وبلجيكا ، فقرت بذلك إعين الملك الراحل الكريم حيث كان ذلك بمثابة تتويج لعمله المتواصل في خدمة الجمعية .

• • •

ولقد كان لعمل الملك فؤاد وهو رأس العائلة المالكة واهتمامه بالجمعية الجغرافية أثره المحمود في نفوس أمراء البيت المالك الذين يجري في عروقهم دم محمد علي الكبير والذين أشربوا حب مصر ، فاهتم كثير منهم بنواح مختلفة من جغرافية مصر ، فقد أخرج المغفور له الأمير عمر طوسون عدة مؤلفات وأبحاث تتعلق بجغرافية مصر وتاريخها في عصورها المختلفة قديمها وحديثها .

وعني حضرة صاحب السمو الأمير يوسف كمال بأن يجمع في مكتبته مؤلفات نفيسة نادرة عن جغرافية مصر في عهود مختلفة ، وبالأخص في عهد البطالسة . ونشر على نفقته في مجلدات ضخمة فخمة خرائط بديعة عن افريقية ومصر بعضها من وضعه ، وكذلك أخرج بياناً بمن ألفوا في تاريخ مصر وجغرافيتها في عهد الفراعنة والافريقيين والرومان والعرب الى القرن الخامس عشر . وطبع هذا المؤلف النفيس في اثنى عشر مجلداً وأسماه : المجموعة الكمالية في جغرافية مصر والقارة الافريقية لصاحبها يوسف كمال ، وأهداه لجده الأكبر الحاج محمد علي .

ومن كبار الأمراء أيضاً المغفور له الأمير كمال الدين حسين الذي أحب الصحراء ، وقد جاب الصحراء الغربية عدة مرات ووضع عن رحلاته هذه خريطة من أنفس الخرائط ، وأصلها محفوظ بالجمعية الجغرافية .

ومن مآثر المغفور له الملك فؤاد على الجمعية الجغرافية مساعدته لحضرة صاحب المعالي أحمد محمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي الذي سجل له التاريخ أنه من الروّاد المكتشفين . ويحق لمصر أن تباهي بذلك .

لقد فكر حسنين باشا في سنة ١٩٢٢ في أن يجوب الصحراء الغربية من الشمال إلى الجنوب آملاً أن يكتشف الواحتين المفقودتين : العوينات وأركنو

وكاشف بعض الشخصيات في ذلك ، فلم يهتم أحد بمشروعه ، ورأى فيه البعض حلماً لا يمكن تحقيقه ، فألهمه الله أن يتقدم بمشروعه للمغفور له الملك فؤاد . وما إن علم الملك بما صحت عزيمة حسنين باشا عليه حتى أكبر فيه هذه الهمة وشجعه على المضي في تنفيذ مشروعه وأمده بالمال وبكل تأييد أدبي، وأوصى به الحكومة خيراً . وقد كتب له النجاح ووفق التوفيق كله في مهمته العلمية، واكتشف الواحتين المفقودتين السالف ذكرهما، ووضع خريطة قيمة تبين خط سير رحلته والجهات التي اكتشفها ، ووضع عن رحلته هذه مؤلفاً ظريفاً تزدان به المكاتب المصرية والأجنبية .

ولقد اغتبط المغفور له الملك فؤاد أشد إغتباط بهذا التوفيق ، وكرّم هذا المكتشف المصري في حفلة عشاء صدحت فيها موسيقى الحرس الملكي ، وشرّف جلالته بنفسه حفلة أقيمت في الأوبرا تكريماً لحسنين باشا ، وأنعم عليه برتبة البيكوية ونيشان النيل من الطبقة الثالثة ، وسلم إليه صورته زيادة في التكريم .

وقد قدّر الاتحاد الجغرافي الدولي عظم قيمة اكتشاف حسنين باشا فعينه وكيلاً للاتحاد وهنأه اللورد ادوار جليسن رئيس الجمعية الجغرافية البريطانية ، وأنعم عليه جلالة ملك بريطانيا العظمى بالمدالية الذهبية للجمعية الجغرافية، ولولا عناية الملك فؤاد بحسنين باشا وتشجيعه له على المضي في تنفيذ مشروعه لما نالت مصر ولا الجمعية الجغرافية المصرية التي هو الآن رئيسها بالنيابة كل هذا الشرف العظيم .

ولقد كان المغفور له الملك فؤاد دائب التفكير في الجمعية الجغرافية وفي ما يعود عليها بالخير ولم ينسها ابداً حتى في أسفاره ، فلقد كان لي شرف مرافقته في رحلته الى سيوه ، فأمرني رحمه الله أن أجمع من سيوه كل ما يهم متحف الجمعية الاتنوغرافي ، وكان يشرف على هذا العمل بنفسه حتى إذا ما اكتمل ما جمعه اغتبطت نفسه بهذه الهدية التي أعدها لتقدم للجمعية عند رجوعه من رحلته دليلاً على تعلقه بها وحبه لها .

ولم ينس عند ما كان يسافر إلى أوربة وهو ملك أن يزور في كل بلد جمعيتها الجغرافية عسى أن يقتبس منها ما ينفع جمعيتنا التي أنشأها أبوه ، ولقد استفادت الجمعية فعلاً من هذه الزيارات .

ترون مما ذكرت من بعض مآثر المغفور له الملك فؤاد على العلم والجمعية، وهو قليل من كثير لا يستطاع حصره، أنهُ كان دائم التفكير فيها وفي ما يرفع من شأنها، ولكن مما يؤثر في النفوس أشد تأثير أنهُ حتى آخر أيام حياته كان يحبها ويفكر في خيرها، ولذلك كان مما ختم به حياته بالنسبة لها انهُ أهدى إليها في شهر ابريل الذي دعاه الله فيه لجواره هدية قيمة ثمينة، وهي تحف سودانية وحبشية كانت في متحفه الحربي الخاص بعابدين. ومنها أسلحة دفاع وأسلحة هجوم وأشياء خاصة بثورة المهدي في السودان، وأشياء أخرى خاصة بالحياة في السودان والحبشة، ومجموعة مداليات خاصة بحكمه وما وقع فيه من حوادث جسام

ما أكرم هذه النفس الزكية وما أبرها!

لا شك أن المغفور له الملك فؤاداً العظيم عمل على رفع شأن الجمعية الجغرافية دائماً وفي كل الظروف، عمل لذلك ابناً باراً بأبيه، وعمل لذلك رئيساً، وعمل لذلك ملكاً، وعمل لذلك عالماً، وقد أفلح في كل هذه النواحي.

وقد فاضت روحه الطاهرة في مثل هذا اليوم، فانطفأ بذلك سراج وهاج كان يضيء مصر ويهديها إلى الصراط المستقيم، وأفلت شمسه المشرقة عن هذا الوجود، فسبحان الحي الذي لا يموت. وإنا لله وإنا اليهِ راجعون.

ولا يعزينا في مصيبتنا فيه إلاَّ أنهُ ترك فينا شبله العظيم جلالة الملك فاروق الأول الجالس على عرش مصر الذي يترسم خطوات أبيه وأجداده العظام ويشمل العلم والعلماء بجميل رعايته السامية. وقد نالت جمعيتنا الجغرافيـة من عنايته وعطفه وبرّه وهداياه الكريمة المتتاليـة ما يعجزها عن القيام بواجب الشكر. ولا غرابة في ذلك فجلالته يضرب الأمثال للناس للبرّ ببلاده وبأبيه وجده العظيمين. مدّ الله في حياته الغالية ولا حرم جمعيتنا عطفه ورعايته الدائمة، وأنال مصر على يديه كل ما يتمناه لها من مجد وعظمة.

وإني أبتهل إلى الله جلت قدرته أن يسكن المغفور لهُ فقيدنا العظيم الملك فؤاداً فسيح جناته، وأن يجزيه على ما أسداه لجمعيتنا وللبلاد خير ما يجزي به عباده الصالحين من النبيين والصديقين والشهداء.

جوّ جزيرة العرب

وأثره في الهجرات السامية

للدكتور رفيق التميمي

يعتبر المؤرخون نهضة العرب في القرنين السابع والثامن الميلادي من الحوادث العالمية الكبرى التي تستحق كل عناية ودرس وتمحيص، وهم لا يرون من الصواب في شيء اعتبار هذه النهضة حادثة منفردة وقعت في ظروف خاصة لن يكون لها مثيل في تواريخ الأمم الأخرى. والحقيقة أن هذه النهضة يجب أن تحتل المكان الأول في تواريخ الأمم نظراً لما رافقها من الحوادث الجسام والوقائع الخارقة للعادة. كذلك لا يحسن أن يُعد ما نكتبهُ هنا مقالاً من ورائه العاطفة أملاه علينا إعجابنا بالأعمال الحربية الممتازة التي قام بها قوّاد العصر الراشدي الأفذاذ. والحقيقة التي لا شك فيها أن نهضة العرب وانتشارهم خارج جزيرتهم بتلك السرعة المدهشة لا يمكن درسها وفهم حقيقتها إلاّ إذا اعتبرنا العوامل الاقليمية والبشرية المتصلة اتصالاً وثيقاً بجغرافية البلاد الطبيعية ومركزها بالنسبة إلى خط الاستواء.

لقد اعتاد مؤرخو الاسلام أن يدرسوا هذه النهضة على أنها نتيجة لعمل الحكومة الاسلامية العربية التي وضع أسسها المتينة النبي الكريم. كما أنهم يلقون نظرة إعجاب وتقدير على ما قام به الصحابة الكرام من الأعمال الحربية العظيمة وما نالوه من النجاح والتوفيق المنقطع النظير في ساحات القتال في سورية والعراق ومصر. هذه حقيقة لا يمكن لمؤرخ منصف إلاّ أن يسلم بها. على أننا من ناحية أخرى لا نرى من الحكمة أن نغفل عوامل أخرى جيولوجية لها شأنها في تبسط العرب وانتشارهم السريع خارج جزيرتهم.

لقد كان لهذه العوامل والمؤثرات دخلٌ كبير في الهجرة السامية الأولى. ومن المؤسف حقاً أن لا نرى المؤرخين – إلاّ القليل منهم – قد التفتوا إلى هذه الهجرة وتطوراتها وما نجم عنها من النتائج الخطيرة في حياة الأمم في الشرق الأدنى.

لقد اختلف العلماء في تعيين موطن الساميين الأول . ولهذا الاختلاف أهمية كبرى في دراسة تواريخ الأمم القديمة : ففريق من العلماء ادعوا أن سهول ما بين النهرين هي الموطن الأول للساميين، على حين قام آخرون من المؤرخين فخالفوا هذا الرأي وادعوا أن هذا الموطن السامي الأول يجب أن يكون في جزيرة العرب نفسها ، وكانت حجة هؤلاء أقوى وأمتن من حجة الذين جادلوهم. وقد ظلوا ذوي الكلمة العليا في عالم البحث والتدقيق الى أن قام المستشرق الطلياني جويدي Guidi ووضع رسالته المعروفة سنة ١٨٧٩ ادعى فيها أن بلاد العرب لا يمكن أن تكون الموطن الأول للساميين . وقد دعم آراءه بأدلة استمدها من الفروق البارزة في طرق معيشة الشعوب السامية المختلفة واللهجات الشائعة فيما بينهم ، ثم نبه إلى أن هذا الاختلاف لا يمكن أن يكون إلاَّ إذا كان الساميون قد انتشروا من بلاد فيها من السهول والأمطار والأجواء والأودية ما لا يمكن العثور عليه إلاَّ في بلادٍ مماثلة لسهول ما بين النهرين .

وحين صرح المستشرق جويدي بهذه النظرية وأخذ يدعم آراءه ببراهين قوية علمية تقدّم لمناقشته علماء آخرون وحاولوا الرد عليه والبرهنة على خطأ نظريته، فكتبوا في ذلك الموضوع مقالات طويلة وألفوا كتباً ضخمة ، وفيها الشيء الكثير من الآراء المفيدة . ومنذ ذلك التاريخ حتى أيامنا هذه والمستشرقون يقومون بجولات علمية جريئة في بلاد الشرق الأدنى ويستخرجون من أرضها آثاراً قيمة تتعلق بالمدنيتين البابلية والآشورية ، منها ما هو قديم جدًّا وقد يرتقي إلى ما قبل خمسة آلاف سنة ق . م . وقد كان لهذه الاكتشافات نتائج خطيرة لأنها برهنت على أن الهجرة السامية إلى الرافدين كانت قد تكرّرت على مر الأجيال السحيقة ولا سيما ما يتعلق منها بالهجرة الكلدانية المتأخرة . برهنت هذه المكتشفات أيضاً على أن موطن هؤلاء الساميين الأول كان في نواحي البحرين واليمامة . وهذه البلاد التي انقلبت الآن إلى سهول رملية قاحلة كانت في الأدوار التاريخية الأولى بلاداً عامرة — على ما يظن — بكثير من المدن والقرى . وهذا الاكتشاف نقض رأي المستشرق جويدي من أساسه ودعم الرأي القائل بوجوب الفحص عن آثار الموطن السامي الأول في جزيرة العرب . ولقد ظهرت آراء في الجيولوجية طريفة دعمت هذه الفكرة وحملت المؤرخين على أن يتجهوا كل الاتجاه إلى الرأي القائل بهجرة الساميين الأول من أقاصي الجزيرة ، وذلك بعد أن ثبت لدى العلماء أن خليج البصرة آخذ في الانكماش ، وقد كانت شطوطه الغربية تنتهي عند مدينة نينوى ، أما الطبقات الرسوبية التي تكوّنت منها بلاد ما بين النهرين فلقد ظهرت في الأدوار

الجيولوجية الحديثة . ومما يستغرب أن هذا الحادث الجيولوجي لم يسترع أنظار المستشرقين إلاّ في السنين الأخيرة .

وهنالك أمرٌ آخر جديرٌ بالدرس والتمحيص، وهو أنهُ في الزمن الذي ظهر فيه الساميون وأخذوا يذهبون إلى أقاصي بلادهم كان السومريون يسكنون في جهات ما بين النهرين، ويُظن أن هؤلاء كانوا قد نزحوا إلى هاتيك البلاد من نواحي جبال أورال والطاي وهم ينتمون إلى الجنس المغولي ولا يمتون بأي نسب إلى الجنس السامي . وكانوا يعيشون عيشة مدنية بالقياس إلى الأقوام المجاورة لهم . وهذا ما حملنا على الاعتقاد بأن لهؤلاء تاريخاً أقدم من تاريخ الساميين ببضعة آلاف من السنين . وقد زعم المؤرخ المعروف Buge بأن المدنية السومرية نشأت قبل المسيح بنحو ثمانية آلاف سنة، وهو زعم لا نظن فيه شيئاً من المبالغة أو الوهم . ويدلنا على ذلك ما قام به العلامة هومل من التدقيقات الفلكية في بلاد بابل، وما اكتشفهُ البحاثة مورغان من الآثار القديمة من تلال سوسة، تلك الآثار التي أرجعها العلماء إلى ما قبل المسيح بنحو اثني عشر ألف سنة . وهذه الآثار تتصل اتصالاً وثيقاً بما تركه السومريون .

ويؤخذ مما تقدم انهُ لم يكن هنالك مجال لافتراض أن الساميين كانوا مستوطنين تلك الديار أيام السيطرة السومرية على بلاد ما بين النهرين . لذلك نرى من المعقول أن نفحص عن موطن للساميين في أماكن أخرى . وهذا ما عزز النظرية القائلة بأن الموطن الأول السامي يجب أن يكون بعيداً عن بلاد ما بين النهرين .

ومع كل ما ذكرنا ، نرى من الواجب أن نعترف بأن المستشرق جويدي قد ظلّ مسيطراً في زعمه إن بلاد العرب لا يمكن أن تكون المنشأ والموطن الأول للقبائل السامية . وهكذا ظلت النظريتان المتناقضتان في نشأة الساميين رائجة مدة طويلة دون أن تتغلب إحداهما على الأخرى إلى أن ظهر المستشرق الطلياني ليون كايتاني Caetani الذي تناول الموضوع من الوجهة الجيولوجية وأخذ يبرهن بالطرق العلمية على أن مواطنه المستشرق جويدي لم يكن على حق فيما كان يدعيه .

لقد نبه كايتاني الأذهان إلى أن الأحوال الطبيعية في بلاد العرب لم تكن قبل الفين أو ثلاثة آلاف سنة من التاريخ الميلادي بحالتها الطبيعية والجوية الحاضرة ، وأن جفاف الجوّ السائد الآن في هاتيك الديار لم يكن إلاّ نتيجة لتطورات جيولوجية وإقليمية استغرقت مدة طويلة . ويذهب كايتاني إلى أن الجفاف الحالي قد بدأ في أواخر الدورة الثلجية الأخيرة .

ومن المعلوم لدى علماء الجيولوجية أنهُ منذ زمن بعيد متوغل في القدم يقدَّر بنحو ربع مليون سنة اشتد البرد في نصف الكرة الشمالية بوجهٍ عام وفي انكلترة بوجه خاص فاندفعت متجمدات شبه جزيرة اسكتلنده جنوباً واكتسحت شمالي انكلترة إلى أن بلغت وادي التَّيْمِز. وقد شوهدت آثار المتجمدات هذه في شمالي أوربة وآسية وأمريكة الشمالية ووصلت المتجمدات في أمريكة الشمالية الى درجة ٣٠ من درجات العرض الشمالية.

واختلف العلماء في تعليل هذه الادوار الثلجية، فقال بعضهم إن البرد الذي سبب تلك المتجمدات كان منشأه انحراف في فلك الكرة الأرضية. ويقدر الفلكيون حدوث هذا الانحراف مرة في كل بضعة ملايين من السنين. وقد علل العلامة ليل Lyell حدوث تلك الأدوار الثلجية والمتجمدات، وحاول أن يرجعها إلى تغييرات جغرافية حدثت في الكرة الأرضية.

والعصر الجليدي هذا كان يتخللهُ فترات ركود سادت فيها الأجواء المعتدلة، وكان يقابل هذه الأدوار الثلجية أمطار غزيرة جدًّا تتساقط بصورة متتابعة في كل من المناطق المعتدلة والمعتدلة الحارة. وقد ثبت لدى العلماء أن هذه الدورة الثلجية العنيفة قد قسمت إلى ستة أدوار طويلة الأمد انفصل بعضها عن بعض بفترات ركود طويلة الأجل في الدور الثاني وقصيرته في سائر الأدوار. وظلّ القسم الأعظم من أوربة مستوراً بطبقة ثلجية كثيفة أكثر من دور واحد مدة طويلة. وفي الدور الثاني الذي كان أشد الأدوار الثلجية وأعنفها بلغ سمك الطبقة الثلجية أكثر من الف متر كانت تغطي معظم بلاد الانكليز وبحر الشمال وأكثر من نصف ألمانية وروسية الأوربية. وفي خلال فترات الركود التي تتخللت الأدوار الثلجية كانت المتجمدات تزحف من الشمال إلى الجنوب مكتسحة الجانب الأكبر من نصف الكرة الأرضية الجنوبي تاركة وراءها جوًّا معتدلاً وحرارة منعشة، وهذا ما علل وجود هياكل عظمية لأفيال وجدت في منطقة الأحراج الكثيفة في سيبيرية، أما البحار القطبية فقد صفا فيها الجو وذابت فيها الثلوج وأصبح الهواء على نحو لانجده الآن إلاَّ في البلاد المعتدلة. درس هذا الموضوع كل من العلامة جيكي Gaikie في كتابه The Great Ice Age في طبعته الثالثة، والدكتور كرول Croll في مؤلفه القيم، المسمى: الأقاليم والزمن The Climate and Time.

وفي خلال الأدوار الثلجية الكبرى، وفي فترات الركود التي كانت تنتاب الكرة الأرضية كانت البلاد الواقعة بين خط الاستواء، وآخر حد وصلت اليه الطبقات الثلجية الكثيفة

تتمتع بجوٍّ ممطر رطب، ويقدّر العلماء أن الأمطار الشديدة ظلت تتساقط بغزارة لا يتصورها رجل العصر الحاضر، مدةً لا تقل عن مائتي ألف سنة. ويستفاد من الدراسات الجيولوجية المتتابعة التي تمت في الجبال الآسيوية والأفريقية أن الأمطار كانت تتساقط عليها بغزارة عظيمة على حين كانت في الوقت نفسه تسود الأدوار الثلجية أقسام أوربة الشمالية.



ويؤكد علماء الجيولوجية أن صحارى البلاد العربية الواسعة ظلت عرضة لأمطار غزيرة خلال عصور كثيرة، يدلنا على ذلك ما تركته هذه الأمطار من الجروف والأودية والآثار البارزة في جبال سينا وشمالي أفريقية وعلى سفوح الجبال الغربية المطلة على البحر الأحمر.

وكان يجري في أواسط أفريقية نحو الشمال ثلاثة أنهر عظيمة: هي وادي ميا ونهر ايغارغار ونهر النيل. فالنهران الأولان جفّا نهائيًّا بعد الدورة الثلجية الأخيرة، أما نهر النيل فلقد ظلّ محافظاً على عظمته وعلى تدفق مياهه الغزيرة، لأن منابعه تقع في نواحٍ أبعد في الجنوب من النهرين الأولين. وكان يجري في جزيرة العرب أنهر عظيمة. وفي الدورة الثلجية الثانية العنيفة تشكلت المتجمدات في أودية جبال سينا الصخرية. وقد اكتشف العلماء آثار هذه المتجمدات، ودرسها درساً دقيقاً العلامة جيكي Gaikie ولو واصل العلماء دراساتهم الجيولوجية في جبال مدين لاكتشفوا فيها آثار متجمدات مماثلة. ومن أنهر جزيرة العرب وادي الحمث الذي بنيت مدينة يثرب على أحد فروعه. وكان هذا النهر يصب في البحر الأحمر. وهنالك أنهر ثلاثة أخرى كانت تجري في السهول الواسعة المؤلفة لبلاد نجد والحسا. وأول هذه الأنهار وادي السرحان الذي كان ينبع من مكان يقع في الناحية الشرقية من جبال حوران، ثم يخترق سهول الجزيرة الشماليـة ويصب بالقرب من مدن البابليين الخربة أيام لم تكن هنالك دولة بابلية، وكان الخليج الفارسي يمتد إلى النواحي التي بنيت فيها فيما بعد مدينة الهيت على نهر الفرات. والنهر الثاني هو وادي الرمة، وقد كان منبعه شرقي مكة، وكان يتجه نحو الشرق فينضم اليه عدة فروع ثم يصب في بحر عمان ما بين مدينتي (اور) و (ادريدو) السومريتين. والنهر الأخير هو نهر الدواسير وهو أكبر أنهر الجزيرة العربية، وكان يقع منبعه شرقي بلاد اليمن ويسير نحو الشمال مخترقاً سهل الربع الخالي، إلى أن يلتحق بوادي الرمة بالقرب من شواطئ خليج البصرة.

وفي هذا الدور الجيولوجي الذي كانت جزيرة العرب تتمتع فيه بأمطار غزيرة كان وادي الشريعة بحيرة عظيمة تبدأ من جنوبي جبال حرمون وتمتد حتى وادي العزبة، ولربما اتصلت مياهه عند مدينة العقبة بالبحر الأحمر .

ويبدو مما تقدم أن الصحارى الأفريقية الوسطى والشمالية وسهول جزيرة العرب المحرومة الآن مياه الأمطار كانت خلال الأدوار الجيولوجية المبحوث عنها تتصف بجوٍّ ممطر منعش وبحرارة معتدلة . كانت الأنهار فيها تنساب بين شجر الأحراج الكثيفة وكان يعيش في تلك الأحراج أسراب من الأفيال والكركدن والتماسيح . ويجد القارئ مقالاً طريفاً في هذه الأسراب من مقالات نشرها المستشرق اليسوعي الأب لامنس في مجلة المشرق الصادرة في بيروت سنة ١٩٠٥ ، ووجدت آثار متحجرة لهذه الحيوانات الضخمة في بعض أماكن أفريقية الشمالية وفي شمال جزيرة العرب وفي بعض المغاور وبجبل لبنان . وآخر الحيوانات التي انقرضت هي الأفيال والأسود . وكان ملوك الأشوريين يصيدونها في صحارى البلاد العربية قبل المسيح بألف ومائة سنة .

ويتضح مما تقدّم أنه بينما كان معظم النواحي الأوربية وشمالي آسية خالياً من السكان في الأدوار الثلجية كانت جزيرة العرب والصحراء الكبرى وجنوبي آسية تتمتع بجوٍّ معتدل وأمطار غزيرة وتزخر بأنواع النبات والزرع والشجر . وعلاوة على ذلك ذهب بعض العلماء إلى أن جزيرة العرب كان يسكنها حينئذٍ طائفة من الناس ينتمون إلى دوري بالثوليتيك ونثوليتيك . ودافع عن هذا الزعم العلامة دوعيتي الذي وجد في بعض أنحاء الجزيرة آلات فطرية كان يصنعها ويستخدمها رجل هذين الدورين . وهذا الزعم ليس بغريب عن بلاد العرب التي كانت في تلك الأدوار الجيولوجية تتصف بجوٍّ معتدل وبأمطار غزيرة وحرارة صالحة لسكن المخلوقات الحية . أما هضبة إيران فقد كانت مغطاة بالمتجمدات التي تحول دون تكوين موطن لأي كائن حي . وحين انتهت الأدوار الثلجيـة وأخذت درجة الحرارة تتساقط تدريجيًّا قلت كمية الأبخرة المتصاعدة من مياه البحار وقلت معها مياه الأمطار التي كانت تتساقط بغزارة مدهشة . وهكذا أخذ يحل الجفاف محل الرطوبة في بعض أقسام الكرة الأرضية . وقد درس هذه الحالة الجوية الطارئة الدكتور فرول وذهب إلى أن الجفاف البطيء سيظل يعمل عمله خلال نحو عشرين الف سنة من السنين القادمة ثم تعود الكرة الأرضية إلى ما كانت عليه من الرطوبة والاعتدال قبل الدورة الثلجية السادسة . ونحن لا نرى من الممكن مناقشة الدكتور فرول في زعمه بشأن جوّ الكرة

الأرضية في المستقبل البعيد ، بل نرى من المعقول والممكن أن نعود إلى الماضي القريب منه والبعيد . فنقول ان بلاد العرب والصحراء الكبرى كانت كما قلنا آنفاً — تتمتع بجوٍّ معتدل وحرارة مقبولة وأمطار غزيرة ، وأنها حافظت على هذه الأمطار مدة طويلة بعد انتهاء الدورة الثلجية الأخيرة ، ثم حلَّ فيها دور الجفاف وأخذ يعمل عمله في أسلوب بطيء جداً ، وبتعاقب العصور قلت مياه الأمطار وبقلتها جفت الأرض وقلت مياه الأودية والأنهر . وقد ظلّ الجفاف يعمل في التخريب حتى نضبت الأنهر ويبست الأرض وانقرضت معالم الحياة الحيوانية والنباتية وحلت محلَّ الأحراج الكثيفة سهول رملية قاحلة تعرَّضت لأشعة الشمس المحرقة في النهار وإلى برد الجو القارس في الليل ، فتفتتت بسبب هذه العوامل الجوية الصخور واستحالت سهولاً رملية نراها منتشرة الآن في جميع أنحاء جزيرة العرب تهدِّد كل من يقترب منها بالموت الزؤام، بسبب جفافها الفظيع وحرارتها الكاوية ، وفقدان جميع أسباب العيش والمأوى . وقد لا يعرف مبلغ خطر هذه الصحارى المخيفة إلاّ الذين ارتادوها واكتووا بحرّها اللافح وذاقوا مرّ العيش بسبب خلوها من الماء والمسكن وسائر مرافق العيش .

إن الإيضاحات التي بُسطت حتى الآن تكوّن فكرة قريبة من الصحة في حالة البلاد العربية في العصور الجيولوجية السحيقة . على أنهُ من المفيد أن نسأل عن التاريخ الذي ارتدت فيه هاتيك البلاد منظرها الحالي القاحل الموحش . وقد أجاب المستشرق الطلياني كايتاني في تاريخه في الاسلام عن ذلك قال : « لقد أخذت جزيرة العرب تتقهقر وتفقد رطوبتها واعتدال جوّها وأسباب العيش فيها منذ أكثر من أربعة عشر الف سنة . إذ ان هذا التقهقر كان بطيئاً جداً ، فان تأثيره في حياة السكان لم يكن فجائياً بل كان مطرداً تبعاً للقلة في الأمطار وارتفاع حرارة الجو . على أن ازدحام السكان لم يكن هنالك كما هي الحال في البلاد المزدحمة الحالية ، وكان الناس يعيشون من صيد السمك ويسكنون متفرقين متباعدين ، ولذلك يمكن أن يقال إن سكان الجزيرة ظلوا على حياتهم هذه إلى أن أخذوا يشعرون بقلة الزاد والمحصول بسبب ندرة الأمطار ، فانصرفوا إلى تدجين الحيوانات البرية ليدفعوا عن أنفسهم غائلة الجوع . ولما اشتدت الحالة بهم ونفد صبرهم من الفاقة والجوع والعطش ارتحلوا الى بلاد أخصب تربة وأجود جوّاً وأكثر أمطاراً . وهكذا بدأت اولى هجراتهم التي حدثت غير مرة . فان الآثار التي استخرجت من جوف الأرض ما بين النهرين الفرات ودجلة تبرهن على أن أولى الهجرات السامية قد بدأت قبل نحو خمسة آلاف من السنين من ميلاد

المسيح . على أن هذه الاكتشافات يجب أن لا تنفي فكرة وقوع هجرات سامية أخرى قبل هذا التاريخ . والأسباب الجوية المبحوث عنها والتي حملت الأقوام السامية على هجرة موطنهم الأول وتركه إلى وطن أحن منهُ جوًّا ورطوبة هي نفسها التي حملت أقواماً أخر على الهجرة العامة . فالجفاف الذي طرأ على وادي تريم قرب بحيرة (لوب نور) قد حمل الصينيين على هجر مساكنهم هناك في السنين الأخيرة وعلى ارتحالهم تدريجيًّا الى أعالي وادي (هونغ هو) في مقاطعة شانسي ومنها إلى البلاد الصينية الأصلية

وإذ نقرأ تفاصيل هذه الهجرة الصينية لا بدّ لنا من ان نسجل الهجرات الآرية التي بدأت قبل نحو ألفي سنة من التاريخ المسيحي على خطين مختلفين . ويبدأ خط الهجرة الآرية الأول من السهول المحيطة ببحر قزوين مارًّا بجبال أفغانستان شرقاً فجنوباً إلى أن ينتهي ببلاد الهند الشمالية ذات الأنهر الخمسة، وهي ما تسمى الآن بمقاطعة بنجاب . والخط الثاني الذي اختاره الآريون في هجرتهم سار نحو الغرب مارًّا من البلاد الواقعة شمالي بحري قزوين والأسود ، وقد استقرّ أولئك الآريون المهاجرون مدة من الزمن في جنوب روسية ثم انتشروا منها في سائر أقسام القارة الأوربية .

• • •

وبعد بسط ما تقدَّم صار من الممكن أن نقول كلمة صحيحة في الوطن السامي الأول وهي تتلخص في أن الأقوام السامية الأولى كانوا قد قاموا بهجرتهم في موطنهم الأول في بلاد العرب إلى البلاد الواقعة في شمال شرق جزيرتهم ، وهذا ينقض رأي المستشرق الطلياني جويدي القائل بأن الوطن السامي الأول كان في بلاد ما بين النهرين . ولقد ذهب جويدي هذا المذهب لأنهُ أهمل دراسة العوامل الجيولوجية التي ذكرنا خلاصتها ولم يتأمل التطورات التي طرأت على البلاد بسبب الجفاف البطيء واشتداد حرارة الجو ونضوب المياه الجارية ، واكتفى بأن الجزيرة العربية بسهولها القاحلة وجفافها المهلك لا يمكن أن تكون موطناً للساميين . ولم يتنبه جويدي حين دافع عن هذا الرأي إلى أن بلاد ما بين النهرين كانت موطناً للسومريين حين باشر الساميون هجراتهم الأولى .

ومن المعلوم أن السومريين لا يمتون بأية صلة للساميين، بل هم كما قلنا سابقاً من الجنس المغولي سكان بلاد أورال والطاي القدماء .

وحين وضع جويدي رأيه المتقدم ذكره وصف الوطن السامي الأول فقال فيه : « إنه

صحراء منبسطة ليس فيها سوى تلال قليلة الارتفاع ولا تبعد كثيراً عن البحر وفيها أنهار غزيرة المياه وأراض مغطاة بحشائش كثيفة ترعاها قطعان الماشية، وقد استنبت الأهلون فيها بعض الحبوب التي ترويها أمطار غزيرة . وفي فصل الشتاء كانت حرارة الجو تنخفض كثيراً حتى إن الثلج كان يسقط عليها أحياناً » . هذه هي الأوصاف التي انتهى اليها جويدي ونفى بسببها الرأي القائل باعتبار الجزيرة موطناً أول للقبائل السامية لأن هذه الأوصاف ليست متوافرة الآن في صحارى الجزيرة، إلاَّ أنها تنطبق على حالة بلاد العرب حين ظهرت اللغة السامية، وهي من جملة الأدلة على ان الموطن الأول للساميين كان في جنوب جزيرة العرب لا في بلاد ما بين النهرين، لأن الجزيرة حينما أخذت تفقد أحراجها الكثيفة في أسلوب تدريجي أخذ السكان — على ما يرى العلماء — يدجنون الحيوانات ويرعونها في السهول والتلال ويستنبتون بعض البقول والحبوب .

يقول جويدي إن جميع الساميين كانوا يعرفون الجمل ويسمونه بالأسماء المعروفة لديهم وكانوا يصيدون في البحر وفي الأنهر ويزرعون الحبوب ويحرثون الأرضين بواسطة حيوانات مدجنة ويقيمون الأجران لاخراج الحبوب من سنابلها . إلاَّ أنهم كانوا يجهلون صنع الخبز ، وقد زرعوا الكرمة وقطفوا أعنابها إلاَّ أنهم جهلوا صنع الخمر منها . وقد جاء ذكر كروم مدينة الطائف في الأحاديث النبوية . وكان زبيب الطائف يشحن إلى سورية وتستنبت الكرمة في وادي القرى أيضاً وفي بلاد اليمن . فاذا كانت الحال الآن كما ذكرنا فالأولى أن تكون المحصولات في الجزيرة أكثر تنويعاً وازدهاراً حين كان الجوّ معتدلاً والأمطار متواصلة أكثر منها الآن .

ويقول جويدي: « لو كان الساميون هاجروا للمرة الأولى من جزيرتهم إلى بلاد ما بين النهرين لكانوا سموا الصحارى الرملية التي اجتازوها بالأسماء المعروفة لدى سكان ما بين النهرين . وقد وجه هذا الاختلاف في التسمية أنظار المؤرخين، ولاحظوا ان سكان الجنوب كانوا يفهمون من كلمة الصحارى الرملية سهولاً قاحلة لا نبت فيها ولا حيوان . أما أهل الشمال الساميون وهم الآشوريون والعبرانيون فيفهمون من كلمة الصحاري الرملية تلك السهول التي كانوا يربون فيها أغنامهم وإبلهم » .

• • •

هذا ما ساقه جويدي للبرهنة من الوجهة اللغوية على أن الوطن الأصلي السامي كان

بلاد ما بين النهرين . إلاَّ أن المستشرق الايطالي كايتاني يرى في هذا دليلاً آخر على بطلان ذلك الزعم، لأن الهجرة السامية الأولى نحو بلاد ما بين النهرين كانت وقعت قبل أن تصبح جزيرة العرب على ما هي عليه الآن من الجفاف المهلك والجوّ الحار ، وهم لم يكونوا يعرفون للصحارى الرملية ما ألفه أهل الجنوب من المعاني المخيفة،وقد وجدوا حين هجرتهم الأولى نحو الشمال سهولاً مماثلة لتلك التي غادروها في ديارهم الأولى وفيها العشب والحشائش التي كانت ترعاها قطعان الحيوانات المدجنة . وفي إبان الهجرة السامية الأولى نحو العراق لم تكن صحارى الجزيرة قد جفت نهائيًّا وانقرضت فيها معالم الحياة النباتية والحيوانية بل كان فيها بعض المراعي الصالحة لتربية المواشي وتكثيرها . وقد ظنَّ بعض العلماء أن الهجرة السامية الأولى كانت حول سنة (٥٠٠٠ ق . م .) وأن صحارى الجزيرة أضاعت نضارتها وانقلبت إلى رمال قاحلة مخيفة في نحو سنة ١٥٠٠ ق . م .

أما الناحية التي خرج منها الساميون الأولون في الجزيرة فلقد اختلف العلماء فيها فقال فريق منهم بأن الموطن الأصلي السامي كان في نواحي الحسا واليمامة . وقال العلامة الانكليزي هومل بأن موطن العبرانيين والآراميين الأصلي كان في نواحي البحرين واليمامة، ثم انتشروا منها في الشمال وفي الغرب .

وحين جاء الساميون إبان هجرتهم الأولى الى بلاد ما بين النهرين اشتبكوا بالسومريين ووقعت لهم وقائع دامية انتهت باستقرار الساميين ونشرهم عاداتهم ولغتهم بين سكان تلك البلاد الأصليين،وحين أصبح الساميون حكام ما بين النهرين أقبلوا على المدنية السومرية وتملأوا بها . وقد ذهب العلماء إلى القول بأن الاحتلال السامي الأول لم يبدأ بحركات عسكرية منظمة بل كان المهاجرون يأتون جماعات فينسلون إلى المراعي الخصبة طلباً للكلأ كما يفعل الآن قبائل نجد البدوية . وقد ظلّ الاحتلال السامي السلمي قائماً حتى أصبح المهاجرون يؤلفون كثرة ساحقة فانقلبوا على ساداتهم السومريين وتغلبوا عليهم وحلوا محلهم في الحكم . ويظن أن هذا الاحتلال الذي كان قد بدأ سلميًّا ثم انقلب إلى احتلال عسكري متغلب لم يتم ولم يتحقق إلاَّ في مدة ألف سنة على الاقل .

(يافا)

الدين والفلسفة

الشيخ محمد عبده والتوفيق بينهما *

لمحمد يوسف موسى

مهما يلحّ كلٌّ من رجال الدين ورجال الفلسفة في أن يعرف حدود الدين وحدود الفلسفة حتى لا يكون بينهما عدوان، ومهما يكن شأن الذين نادوا بذلك من المفكرين المتقدمين، فان هذا لم يراع دائماً، بل كان أن اختلطت المباحث الدينية والمباحث الفلسفية، وتعدى الفلاسفة ما كان يجب أن يلتزموه من حدود، فزجوا بأنفسهم فيما كان قائماً من نزاع بين الفرق الدينية المختلفة، وبثوا بصنيعهم هذا كثيراً من فلسفة اليونان التي نالت إعجابهم واستأثرت بألبابهم، وكان بسبب ذلك ما نعرف من تألب الفقهاء والمتكلمين واضطهادهم لهم وشنهم الحرب عليهم وعلى مؤلفاتهم، التي جمعت الحسن وغير الحسن، ما دام أصحابها خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً!

لكن الشيخ محمد عبده يلاحظ بحق أن المتكلمين غلوا في نقد الفلاسفة، واشتدوا في الحملة عليهم وعلى آرائهم، «فسقطت منزلتهم من النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة، وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الاسلامي من سعيهم» (١). وكان رجال الدين هؤلاء ينبعثون في هذه الحملة — كما يقول — ببواعث من الحقد والحسد الذي يأكل القلوب، أو الجهل بالدين ومبادئه واصوله ومقدماته، مما يجعلهم يرون في كل نظر عقلي خروجاً على الدين.

ولهذا — كما ذكرنا من قبل — لا نرى مثل ذلك الأذى يقع إلاَّ على قاضي قضاة كابن رشد، أو وزير أو جليس خليفة أو ذي نفوذ عظيم بين العامة. ولهذا أيضاً لم يقف الجهل ببعض من يزعمون أنهم رجال الدين وأهل الحفاظ عنه عند رمي الفلاسفة ومن إليهم بالكفر، «بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين وخدمة السنة والكتاب» (٢).

وتتبين نزعة الشيخ واضحة إلى التوفيق بين الدين والفلسفة، بعد ما قدمنا لهُ من أصول وضعها لبيان العلاقة بين الوحي والعقل، من هذا الأصل الآخر الذي أراد بهِ أن

---

* انظر مقتطف يونيو الماضي ص ١٢ (١) رسالة التوحيد ص ٢١ (٢) الاسلام والنصرانية ص ١٥٦

ينأى الناس بأنفسهم وبإخوانهم في الدين عن رميهم بالكفر لأوهى الأسباب ، إذ قرَّر به أنه « إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد ، حُمل على الايمان ولا يجوز حمله على الكفر » (١) .

وزاد على هذا في مؤلف آخر ، حيث أكد أنهُ لا يصح التكفير باعتقاد أحد طرفي النفي والاثبات في المسائل الخلافية في الدين ، ما عدا مسألة الألوهية والنبوَّة والمعاد ، فإن إنكار شيء من هذه الأمور الثلاثة كفر لأنها مبنى جميع الديانات ، « وأما ما سواها من التفاصيل فلا بأس باعتقاد أحد طرفيه إن كان بالبرهان ، والنقليات مؤولات » (٢) وليس وراء هذا تسامح وسعة صدر ، وتمكينٌ للنظر الفلسفي ، وتوفيقٌ له مع الدين !

هذا ، ولم يكتف الامام الشيخ محمد عبده بأصول يقررها ، وصلات عامة بين الدين والفلسفة يبيّنها ويطلب رعايتها ، بل تناول أهم المسائل التي ثار من أجلها الخلاف بين رجال الدين ورجال الفلسفة، وأعمل فيها فكره وصدع فيها برأيه، وانتهى منها إلى ما يؤكد في رأيه الوفاق بين الدين والفلسفة. ومن الخير أن نستعرض بعض هذه المسائل في إيجاز، ليكون القول عن بينة، ولنعلم يقيناً كم كان الشيخ محافظاً على ما سبق أن قرّر من مبادئ وأصول :

(ا) نذكر أولاً مسألة الأسباب والمسببات ، تلك المسألة التي حمي فيها الخلاف بين المعسكرين ، والتي بذل حجة الاسلام الغزالي جهداً كبيراً عنيفاً ليدل على خطأ الفلاسفة في ما ذهبوا اليه من وجود رابطة ضرورية بين ما يجري في العالم من أمر وبين سببه الذي يُعتقد أنهُ كان لأجله .

الفلاسفة ومن إليهم من العقليين يرون هذا الارتباط بين الشيء وسببهُ ضروريًّا ، وإلاَّ لارتفعت الحكمة الموجودة في الصانع وفي المخلوقات ، وهذا إبطال للعقل . أما المتكلمون الأشاعرة — فيرون كما يقول الغزالي — أن « الاقتران بين ما يُعتقد في العادة سبباً وما يُعتقد مسبباً ليس ضروريًّا . . . ، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر ، مثل الري والشرب ، والشبع والأكل ، والاحتراق ولقاء النار . . . وإن اقترانهما إنما هو لما سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوق ، لا لكونه ضروريًّا في نفسه » (٣)

والفلاسفة — ومن شيوخهم ابن رشد — يرون أن العقل ليس إلاَّ إدراك الموجودات بأسبابها ، « فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل . وصناعة المنطق تضع وضعاً أن ههنا أسباباً

(١) الاسلام والنصرانية ص ٥٧ (٢) الحاشية ص ١٠٧ ، وقريب من هذا ما ذكره ص ٦٠
(٣) تهافت الفلاسفة ، نشر الاب بويج ، ص ٢٧٧ — ٢٧٨

ومسببات ، وأن المعرفة بتلك الأسباب لا تكون على التمام إلاّ بمعرفة أسبابها ، فرفْع هذه الأشياء مبطل للعلم ورفْع لهُ » (١)

هكذا ذهب المتكلمون ، وهكذا ذهب الفلاسفة ، في هذه المشكلة ، أي أن كلاً من الفريقين كان في ناحية . فجاء الإمام يقرر ، في رده على فرح أنطون صاحب مجلة الجامعة ، أنه « ليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسبّبيّة إلاّ إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله » (٢) وهذا منه — كما نرى — انحياز الى رأي المعتزلة والفلاسفة ، مهما قيل لتقريبه به من رأي الأشاعرة بأننا لا نقطع العلاقة بين الأسباب الظاهرة ومسبباتها ، لأن الأسباب « لا بدّ منها في صدور الأثر إلا أن الذي يعطيها الوجود عند استكمالها هو الخالق » (٣)

(ب) وفي مسألة قِدم العالم (٤) نراه يحقق أقوال الطرفين ، ويبين أن القول بالقدم الزماني الذي ذهب اليهِ الفلاسفة لا يستلزم القول بالقدم الذاتي إلاّ على ما فهمهُ الأقدمون ، ثم يذكر أنهُ « لا ضير أن ينتحل الناظر أحد الرأيين — رأي المتكلمين ورأي الفلاسفة — إذا سلم برهانه من التقليد » (٥) ومعنى هذا بوضوح أنهُ لا كفر بالذهاب مذهب الفلاسفة . بل إنهُ يصرح بذلك إذ يذكر في آخر المسألة أن القائلين بالقدم لم يكفروا بمذهبهم هذا أو ينكروا بهِ ضروريًّا من الدين ، وإنما هم اجتهدوا وأخطأوا ، فهم مؤمنون مرضيون عند الله تعالى ، إذ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها (٦) .

ويتصل بهذا مشكلة صدور الموجودات عن الله تعالى : بعضها بغير واسطة وبعضها بواسطة من موجود آخر سبق وجوده كما يقول الفلاسفة ، أو كلها بلا واسطة مطلقاً كما يرى المتكلمون ، حتى لا نوهم لغيره من خلقهِ مشاركة في شيء من الأشياء . في هذه المشكلة يقول توفيقاً بين الرأيين : « فتحقيق مذهب الشيخ الأشعري يتحد مع تحقيق مذهب الحكماء » (٧) ما دام الكل متفقاً على أن كل خلق الله في حاجة إليهِ في وجوده ، سواء أكان وجوده عنهُ بطريق مباشر ، أم كان بواسطة غيره من المعلولات السابقة عليه وجوداً . وإذاً « فلا مخالفة بين القولين بوجهٍ من الوجوه ، إلاّ ما كان من تعبير لفظي لا يعتد بهِ في الاعتقاديات » (٨) وإذاً فالذين يكفرون الفلاسفة لهذا على خطأ وضلال ، إذ « يدّعون السنة وهم ناصرو البدعة ، وأي بدعة أكبر من تكفير من يدّعون الايمان بما جاء بهِ محمد بعضهم لبعض بدون استناد

(١) تهافت التهافت ، الطبعة نفسها ، ص ٥٢٢ (٢) ابن رشد وفلسفته للاستاذ فرح انطون ص ٩١ (٣) المصدر نفسه ص ٩٠ (٤) هذه المسألة ومسألتا علم الله والبعث بالروح فقط هي ما كفر بها الغزالي الفلاسفة (٥) الحاشية ص ٥٧ (٦) المرجع نفسه ص ٦٠ (٧) المرجع ص ٧٧ (٨) المرجع نفسه ص ٧٨

لا إلى كتاب ولا إلى سنة »[1] ولعمري هذا حق كل حق .

(ج) وفي مسألة علم الله تعالى ، وأنهُ يتناول الكليات والجزئيات من الأمور المختلفة كما يرى المتكلمون ، أو الأمور الكلية فقط كما يرى الفلاسفة . في هذه المسألة يرى الشيخ أن طريق علمنا بالأشياء بتخيلها وانعكاس صورها على آلة الادراك لا يناسب الله تعالى ، لأن هذا التخيل والانعكاس لا يكونان إلاَّ بعد حدوثها في الزمان ، أمراً أمراً أو جزئيًّا جزئيًّا . أما اللائق بالله وكمال قدرته فهو إدراك الأشياء كلها حتى ما كان جزئيًّا منها بطريق التعقل لا التخيل على نحو كلي — أي بعلم أسبابها الكلية — كما تعلم الذات ذاتها ، وهذا ما يسمى في اصطلاح الحكماء والفلاسفة بعلم الله بالكليات دون الجزئيات . فالاختلاف إذاً في نحو الإدراك من كونه كليًّا أو جزئيًّا ، لا في المدرَك بفتح الراء ، « وعلى هذا لا يستحقون التكفير ، فإنهم قد أثبتوا علم الله بجميع الكليات والجزئيات ، غايته على وجه غير الوجه الذي عليه علومنا ، وهذا لا ضير فيه »[2] .

هذا لا ضير فيه حقًّا ، وبخاصة — كما يقول الشيخ — لأن الفلاسفة حين ذهبوا إلى ما ذهبوا إليهِ في هذه المسألة كانوا يرون أن هذا هو الكمال اللائق بالله تعالى ، فلا يستحقون التكفير ، إنما يستحقه من يذهب إلى رأي يعلم أنهُ نقص في جانب الله ومع هذا يعتقده ، والفلاسفة ليسوا بهذه المثابة . إنهم يعتقدون أن الله هو خالق كل شيء ، الكليات والجزئيات بإرادته على حسب علمه ، فكيف لا يعلم من خلق أو ما خلق وهو اللطيف الخبير !

(د) — وأخيراً ، فيما يتعلق بالبعث الجسماني الذي أنكره الفلاسفة لما قام في رأيهم من الأدلة على نفيه ، فقد رأى أن ليس من الممكن تأويل النصوص القرآنية الدالة عليه ، ولا من الحق أن يتركها ويأخذ بما استدل به الفلاسفة من الأدلة النظرية . لهذا وذاك نجده يؤكد أن إعادة الأجسام التي تعلقت الأرواح بها في الدنيا أمر يجب اعتقاده شرعاً ويكفر منكره ، وكل ما يمكن أن نتأول فيه هو كيفية تلك اللذائذ والآلام الجسمية من غير أن نخشى الوقوع في الكفر ونحوه[3] . وهذا الرأي منهُ يدلنا على أنهُ قد يعتمد بالنصوص الدينية أكثر مما يعتمد بالعقل ونظره .

وبعد ، فقد طال الحديث طويلاً فيما كنا نقدر في بيان موقف الأستاذ الشيخ محمد عبده من الدين والفلسفة ، ومنهُ يتبين لنا كم كانت سعة صدره ، وكم كان ينعي على تكفير الفلاسفة في غير ما يجب التكفير فيهِ ، وكيف كان يعمل على أن يتعاون الوحي والعقل أو الدين والعلم والفلسفة لخير الإنسان والإنسانية كلها !

(١) الحاشية ص ٧٨ (٢) المرجع نفسه ص ١١٣ (٣) المرجع نفسه ص ١٩٧

المطالب الخلقية بعد الحرب (*)

وهل في وسع التربية تحقيقها ؟

للدكتور تشارلس وطسن

يتساءلون عن أهم ما يفتقر اليه العالم بعد الحرب ، فيذهبون في الاجابة كل مذهب . يجيب بعضهم أنهُ المطاط ، ويرى فريق أنه الفولاذ ، ويزعم آخرون أنه السفن لتيسير التجـارة والنقل ، ويذهب قوم الى أنهُ مدّ الأماكن التي أصـابها ما أصابها من البوار والتخريب بالأغذية . كما يؤكد غيرهم أنهُ العقاقير والفيتامينات . أما أنا فاسمحوا لي أن أتعالى بكم الى أفق دون مستواه النفعيات ، وأقول إن أهم ما نحتاج اليهِ بعد الحرب هو الأخلاق الـكريمة . ويمكن الحـكم على جسامة حاجتنا إلى هذه بما أصاب المقاييس الأخلاقية في هذه الأيام من التدهور والانحلال .

ولنلق أولاً نظرة إلى الأمم المعادية . لقد توسل هؤلاء في خلال الثلاثين السنة الماضية بكل وسيلة مستطاعة أن يشربوا مواطنيهم ذلك المبدأ الفاسد من أساسهِ ، ألا وهو مبدأ الحق للقوة . فلم يشعلوا نار هذه الحرب إلاَّ لاخراجهِ من حيز القول إلى حيز الفعل ، فنهجوا في غزواتهم المطردة لشتى البلدان سبل النهب ، والسلب ، والسطو ، والسخرة ، والطغيان ، والتقتيل . ولقد تناول تلقين هذه المبادئ نيفاً وأربعين مليوناً من الأنفس في ايطاليـة وثمانين مليوناً في ألمانية وحدها . وأنَّى لهذه الملايين أن ترعوي عما تغلغل في نفوسها من الإثم والعدوان ، فتنضم إلى حظيرة عالم جديد يخفق فوق نظامه لواء الخير ؟

أضف إلى سكان الأمم المعادية تلك الملايين من الأنفس في الأمم التي أخضعتها ألمانية في عهد قوتها فاستهواها ما نالها من ظفر وأغراها ما أحرزته من بطش ، وأخـذت ترتاب في مبادئ العدالة والحق ، ووفاء العهود ، والرحمة ، والصلاح ، وتزعم : أن هذه ليست إلا تقاليد يلوح لنا أنها بالية معيبة ، نسج عليها الدهر خيوط العنكبوت . فما لنا لا ننتظم في سلك هذا النظام الوثني الجديد ، نظام الحديد والدم ؟ ولعلنا كنا نستطيع أن نعزي أنفسنا

---

* ترجمة الخطاب الذي ألقي في الحفلة السنوية لتوزيع الاجازات العلمية للجامعة الاميركية بالقاهرة يوم ٨ يونيو ١٩٤٤

بأن نصر الامم المتحالفة كفيل باعادة الأمور إلى نصابها ، فيما لو كانت هذه المبادئ المحطمة مقصورة على الامم المعادية .

ولكن مما يؤسف لهُ أن في خلال هذه الحملة التي نحملها على هذا الشر المنظم ، قد أصاب الخير أيضاً ما يصيب الرجل الآمن المطمئن من مقاومة اللصوص وقطاع الطرق . وهل يسلم من يشترك في غسل الاقذار ، من التلوث بالأوحال ؟ أو نعجب إذا رأينا المبادئ الخلقية في الامم المتحالفة نفسها يهبط مستواها من جراء الشئون الحربية ؟

تأملوا في عوامل التجربة والاغراء التي تكتنف اليوم القوات المتحاربة في جميع الامم . وانظروا كيف أن جيلاً كاملاً من شبابها قد مزق الروابط الاجتماعية وانسلخ من تلك المبادئ التي كانت في الأحوال العادية تكبح جماحه وتهديه إلى سواء السبيل . انظروا كيف أن جحافل هذا الشباب قد حرمت عيوناً كانت بالأمس في الأوطان ترعاها وتتسامى بها إلى المكارم ، فاذا بها اليوم طعمة لشرك الاغراء الجنسي . ففي محطات السكك الحديدية تعرض عليها للبيع صور وكتب من أحط ما يرى وما يقرأ . وفي حالة من ثورة النفس تستهوي الجندي الخمر ، فيخضع لسلطانها ، أملاً في أن يسكر بنشوتها لتخفف عنه ألم الوحدة ، وتهدئ أعصابه الثائرة

ولست أريد هنا أن أنتقص من الجهود المنظمة التي تبذل في حماية الجنود من هذه المساوئ وسواها ، بكيفية لم يسبق لها في تاريخ الحروب مثيل ، وإنما أردت أن أبين أن هبوط المستوى الخلقي بسبب الحرب كان أمراً لا مفرّ منهُ ، وهذا أمر لا ينكره كل من كان على بينة من بواطن الأمور .

وهناك أمر آخر ينبغي أن نضيفهُ إلى هذه الصورة التي رسمناها لكم ، وهو أن هبوط المستوى الخلقي لم يكن مقصوراً على القوات المتحاربة ، وإنما شمل كذلك المدنيين ، والأدلة على هذا تجل عن الحصر . أليست الأسر مفككة ، والبيوت مصدعة ؟ فهذا الزوج والأب جندي في الجيش ، وهذه الزوجة والأم لبت نداء الوطن فاشتغلت في مصانع الذخيرة وغيرها مما قضت به الحرب ، وهؤلاء البنون والبنات يتركون بغير رقيب .

كذلك دور الأعمال قد تأثرت . فهناك إخفاء السلع وتخزينها . وهناك الارباح الاستثنائية الفاحشة . وهناك الوصايا العشر ، قد استبدلت الوصية الثامنة منها وهي « لا تسرق » بقولهم « لا تسرق قليلاً » . وها نحن أولاء في مصر ، ولسنا من الأمم المتحاربة ، نحس بهذه الموجة العنيفة القاسية من العبث بالقانون والاستهتار بالمبادئ ، فنقرأ إنباء الفضائح المنكرة في الاتجار بالمخدرات ، وسرقة الأدوية والعقاقير من المستشفيات . وكذلك الأمر في أميركة ، فعندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها طغت على البلاد موجة

من أشد السرقات جرأة ، ودبّ فيها وباء خطف الأطفال ، وقيام عصابات تفرض الضرائب في المدن الكبرى على أصحاب المحال والمخازن التجارية .

وكلما طالت الحرب ، زادت الأخلاق تدهوراً . ولقد صدق البارون « فون هوجل » حينما قال إن حروب نابوليون — وقد طال أمدها — قد تأثرت بسببها الحياة الأوربية فرجعت القهقرى بما يقرب من ثلاثين عاماً ، ولعلّ الدليل على هذا أن انجلترة بعد معركة واترلو لم تستطع التصديق على صك الاصلاح ، إلاّ بعد سبعة عشر عاماً. وأن فرنسة لم تربح معركتها الأولى ضد آل بوربون الاّ بعد خمسة عشر عاماً .

أجل ، إنا إزاء هذا التدهور اليوم ، بسبب الحرب الحالية ، لفي حاجة ملحة إلى ذلك المستوى الخلقي الرفيع الذي نعده أساس الجماعات المنظمة . بيد أن المسألة أشد خطراً مما يبدو لأول وهلة. وذلك لأن مستوى الأخلاق، وإن لم يك كافياً لمطالب العالم قبل الحرب أو يوشك أن يكون كذلك، ولم ترع حرمته على الوجه المطلوب، لن يعود كافياً لسد حاجات العالم بعد الحرب.

من العبث أن نخدع أنفسنا فنظن أن أمة من الأمم بعد الحرب — مصر كانت أو اميركة، أو أي بلد من بلدان أوربة او آسية — تستطيع أن تعود نظم الحياة فيها، الى ما كانت عليه قبل الحرب . إن مصر بعد الحرب لن تكون مصر قبلها أبداً . فهذه الملايين من الجحافل التي تهافتت عليها من انجلترة واسترالية ونيوزيلندة وجنوب إفريقية وهندستان وأميركة هل كان قدومها مجرد زيارة لم تترك آثاراً، سيئة كانت أو حسنة ؟ على النقيض من ذلك قد تأثرت بها أقصى القرى، في الآراء الاجتماعية، والوسائل المعيشية، والمعارف العامة العالمية. هيهات أن تقصر الحياة فيها على ما كانت عليه من قبل . لقد اتسع الأفق أمامها فامتدت علاقاتها ، لا بالعالم العربي وحده ، بل بالعالم أجمع . وما يقال عن مصر يقال عن سواها من الأمم، ولربما كانت أميركة في مقدمتها ، وقد خرجت أخيراً عن عزلتها لتتصل بالعالم الخارجي .

فيجمل بنا إزاء هذه الحالة أن نزن بميزان العقل ، نتائج ما نحن قادمون عليه من حياة جديدة واسعة الأفق ، وما تتطلبه من خلق أعلى مقياساً وأسمى قوة ، في ظروف وملابسات أشد خطراً مما كانت . ولننتقل بكم الآن من العام إلى الخاص .

أول ما يتبادر إلى الذهن مما نتوقع حدوثه بعد الحرب ، قيام هيئة عالمية تكون أقوى أثراً وأسمى شأناً مما كانت عليه عصبة الأمم قبل الحرب . فما الشرط الأساسي الذي تتطلبه هذه الهيئة ؟ وهل ثمة ما يفوق العنصر الأخلاقي بين الأمم توفيراً لهذا الشرط ؟ وإلاّ فلمَ أخفقت العصبة في قرارات كان العالم أشد حاجة إلى البت فيها ؟ ألم يكن السبب أنهُ بالرغم من التأكيدات والعبارات القوية المحبوكة التي صبغت بها مبادئ الولاء للعصبة ، اتضح أن

دولة معينة من أعضائها كانت تعقد اتفاقات سرية منافية لهذه المبادئ ؟ ألم يكن الاخلال بشرف العهود والمواثيق بين الأمم سبباً في انحلال العصبة وتفكك أوصالها ؟ إذاً فالعصبة الجديدة لن تقوم لها قائمة ما لم تكن دعامتها من الصراحة أقوى ، ورائدها من الأمانة والصدق أسمى من سابقتها . وينبغي ألاّ تكون كلمة « دبلوماسي » أو « دبلوماسية » بعد اليوم ، مرادفة لمعنى الخديعة ، والمماطلة ، والختل ، والمعاملة ذات الوجهين .

والدعوة للخلق الكريم ، وحسن المعاملة بين الانسان والانسان معروفة منذ القدم . فقد قرأنا في القرآن الكريم للمسلمين : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيًّا أو فقيراً فالله أولى بهما » (الآية ١٣٤ سورة النساء) وقرأنا في التوراة المقدسة للمسيحيين واليهود عن المتكلم بالصدق في قلبه . . . يحلف شاهداً على نفسه وإن كان في ذلك وبالٌ عليه .

يتبين من هذا أن الصدق وحفظ العهود بين الأفراد قد أمر به جميع الأديان على السواء . على أن تطبيق هذا القياس الخلقي بعد الحرب ينبغي أن يشمل الأمم والأفراد . ذلك لأن المقاييس الدبلوماسية الدولية المعمول بها الآن لم تعد كافية ، والعالم بعد اليوم في شديد الحاجة إلى السمو بها ، وإلاّ كان لا بدّ لأولادنا أن يخوضوا غمار حرب عالمية أخرى ، لا قدّر الله .

وما سردناه من الأدلة في شأن المستوى الخلقي بين الأمم ، يمكن تطبيقه على العلاقات التجارية والحياة الاجتماعية والاقتصادية . ولكني لا أحاول الخوض في هذا الموضوع ، لأنتقل بكم إلى الاجابة عن هذا السؤال ، ألا وهو ما العلاقة بين هذا كله وبين التربية يا ترى ؟

وإذا ما تحدّثنا عن التربية . فاننا نصطدم برأيين ، رأي يعنى بالمعرفة البحتة ، وآخر يعنى بالمعرفة والخلق ، والجامعة الأميركية بالقاهرة من هذا الرأي الأخير ، ويبلغ اعتزازنا بهذا المبدأ ، أننا لو خيرنا بين الأمرين ، لآثرنا أن نترك الفرد في غياهب الجهل ، على أن نزوّده بالعلم مجرداً عن المبادئ الخلقية . أليس هذا أقل خطراً على المجتمع ؟ فهاكم رجال العصابات ولصوص البنوك ، هل هم جهلاء ؟ كلاّ ، إنهم كثيراً ما يكونون على جانب عظيم من العلم والمعارف الفنية ، ولكن ينقصهم الخلق . ولذا فاننا نقول لوالدي الطلبة وأولياء أمورهم : « إن جامعتنا ليست مكتب استعلامات ، ولكنها معهد ، للمبادئ الخلقية فيه أسمى منزلة بجانب المعرفة » .

ولكن هل في مقدور التربية أن تبث في نفوس النشء هذا الخلق ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما الوسيلة ؟ لنعترف أولاً بأن البيت أبعد أثراً فيما يتعلق بهذه المسألة من المدرسة . فقلما تستطيع المدرسة أن تفعل شيئاً لشاب نشأ في بيت هبط مستواه الخلقي ،

فتفشى فيه الخداع والكذب ، بين الزوج وزوجه ، وبين الوالد وأولاده ، وبين السيد وخدمه ، وبين أفراد الأسرة ومعشر أصدقائهم . بيد أن البيت إذا تعاون والمدرسة ، أمكن الوصول إلى نتائج محمودة . ولكن كيف ؟

أجيب عن ذلك بقولي إن التربية الخلقية أصبحت في السنوات الأخيرة علماً . لقد أوسعها المربون درساً وبحثاً . ووضعوا لها اختبارات ومقاييس . وفي معهدنا هذا نحاول أن ننتفع بنتائج هذه البحوث التي كشفت النقاب عن حقائق غريبة . من ذلك أن مجرد استذكار الحكم الأخلاقية وحفظ المبادئ الدينية عن ظهر قلب ، طريقة تكاد تكون عديمة الفائدة قطعيًّا . ومع ذلك فقد كانت ولا تزال الطريقة الشائعة في بث المبادئ الأخلاقية وتربية النشء عليها . فهل إذا حفظ الفتى الوصايا العشر أو أمثال سليمان ، أو غير ذلك من الحكم ، يمتنع عن ارتكاب الرذائل ؟ تدل التجارب والأبحاث أن الجواب عن ذلك كان سلبياً ، قد تكون هذه الطريقة ذات فائدة باعتبارها وسيلة من وسائل التعبير لمن سمت اخلاقه ولكنها تكاد تكون عديمة النفع باعتبارها أداة رادعة . إن المسألة تتطلب التعمق إلى ما هو أبعد من مجرد الاستذكار

من أشد العوامل أثراً في التربية الخلقية ، البيئة التي ينشأ فيها الطالب . فما الجو المدرسي الذي ينشأ فيه ابنك ؟ أجو يتفشى فيه الغش في حجرة الدراسة ، وفي ساحة اللعب ؟ أم جو يسود فيه الصدق والرجولة السليمة الكاملة ، والتفكير الذي لا تشوبهُ شائبة ، والروح الرياضية العالية ؟

وهناك عامل آخر له أثر عظيم في حياة الطالب . وهو اتصاله برؤساء وزعماء ذوي مبادئ أخلاقية سامية . وهذا هو السر في جماعات الكشافة . فالكشاف الزعيم حقًّا هو سر نجاح الجماعة التي يقودها . وقد صدق من قال : إن الاخلاق تكتسب ولا تلقن ، أجل تدرك بالاتصال بمن نبلت أخلاقهم .

ولما كانت جامعتنا تعلم أنهُ يغلب على أساتذتها ، من أصحاب الكراسي ، أن يترفعوا ، أو يكونوا بمعزل عن الطلبة ، لما بينهم من الفوارق في السن ، فانها تستدعي على الدوام من أميركة شباناً ممتازين ، كما تتخير نخبة من شباب المصريين للتدريس ، يكونون أكثر ميلاً للاختلاط بالطلبة من الأساتذة الكبار . وذلك في الألعاب الرياضية وفي نواحي النشاط على اختلاف أنواعها . بهذا التأثير الشخصي من أفاضل الأميركيين والمصريين نستطيع أن نكوّن في النشء خلقاً سليماً .

ويوجد عامل أساسي آخر له أثر كبير في تكوين الخلق ، ألا وهو أن ييسر للطالب أن يبت في الأمور بنفسه ، ويشجع على تقرير الأشياء بذاته . وقد سبق القول أنهُ يستدل من مبادئ التربية الحديثة أن استذكار الحكم الخلقية قليل الجدوى ، فلمَ ذلك ؟ السبب أن

الفرد لم يكن له نصيب في وضع هذه الحكم . وإنما هو قد لقنها تلقيناً بغير دليل مقنع ترتاح اليه نفسه ، أو بتعبير آخر إنها فرضت عليهِ فرضاً .

وأرجو المعذرة إذا عدت بكم الى اختبار شخصي ، أراني مديناً بهِ إلى والدي الذي لاقى مثواه منذ زمن ليس بالقريب. فقد توجهت اليهِ مرة بهذا السؤال: « أبي أأفعل هذا أم هذا ؟ » فأبى عليَّ الاجابة وترك لي الحكم قائلاً : « أيهما الصواب في نظرك يا شارل ؟ » . وفي خلال السنوات التي قضيتها من عمري بعد ذلك إلى يومنا هذا ، تحملت تبعة البت في أموري بنفسي، سواء أكنت وحدي أم مع الغير ، وسواء أكان ذلك ليلاً أم نهاراً ، وسواء أكنت مع الأغلبية أم مع الأقلية . أجل أيها الأصدقاء ، إن المبادئ الأخلاقية لا يمكن أن تفرض فرضاً على الانسان ، بل ينبغي أن تكون ثمرة الاختيار الحر ، والبت في الأمور ، على أنه وإن كان ينبغي أن يكون التاثير بالارشاد والنصح ، فانهُ في أساسهِ يجب أن يتصل بالحياة الواقعية كما هي، وأن يكون من عمل الطالب نفسه.

وأخيراً دعوني أؤكد لكم ما هناك من العلاقة الوثيقة بين الخلق والدين . إن الدين، أيًّا كان ، يصلح أن يكون أساساً للمستوى الخلقي . إن الايمان بالله تعالى ، المهيمن على أخلاق الكون ، والاعتقاد بالحياة الأخرى ، هما الحصن المنيع الذي تشاد عليه فكرة الخلق . قال مرة سير روبرت سيسل : صدقوني إنهُ ليس من الصواب أن تثقوا برجل يقول إنهُ لا يعتقد بالله ولا الحياة الآخرة . ومن حسن الحظ أن الأديان الثلاثة التي تدين بها الأقطار المجاورة لنا — الاسلام والمسيحية واليهودية — تؤمن بالله وبالحياة الأخرى ، وبذا تصلح أن تتخذ أساساً وثيقاً للتربية الخلقية . وإن هذه الجامعة وإن كانت معهداً مسيحيًّا بطبيعتها ، فانها تشجع طلاَّبها على البحث في أديانهم ليستمد كل من دينه القوة والإرشاد . أضف إلى هذا أن الجامعة قامت بأكثر من ذلك وهي أنها طلبت إلى أحد أساتذتها ، وهو متبحر في اللغة العربية وملم بأحوال الشرق ، أن يقضي عاماً كاملاً في دراسة الآراء الدينية والخلقية في الشرق الأدنى ، حتى يقف على خير ما ينتفع به منها في تدريس علم الأخلاق . وكثيراً ما يستحثنا الغير على أن يكون معهدنا علميًّا بحتاً ، فنأبى ذلك لاعتقادنا أن الخلق والدين صنوان لا يفترقان

سيداتي ، سادتي — هذه هي بعض الطرق التي تقرُّها التربية العلمية الحديثة لتكوين الخلق . وسواء تعلقت هذه الطرق بهذه الجامعة أو سواها ، فاننا نؤمل أن يستجيب الوالدون وأولياء الأمور وزعماء التربية في كل مكان لهذه المطالب الملحة التي تفتقر اليها الانسانية بعد الحرب ، حتى نتزوَّد بالعدة الكاملة ، لا لنصلح ما أفسدتهُ الحرب من الأخلاق فحسب ، بل لنشيد عالماً جديداً أسعد حالاً من عالمنا هذا .

المآصر في بلاد الروم والاسلام

— ٥ —

لميخائيل عوّاد

(ج) مأصر عكة

كانت مدينة عكة تزهو بمأصرها وتفاخر بمناعة سلسلته، وعلى يديها أضحت حصينة جدًّا لا سبيل اليها، ولعلَّ البشّاري المقدسيّ خير من عني بوصفها تخليداً لذكرى جدّه أبي بكر البنّاء الذي ابتنى ميناء عكة، إذْ كان يومئذٍ مهندساً بارعاً في الشام. ودونك وصف البشاري لميناء عكة ومأصرها: « عكة مدينة حصينة على البحر . . . ولم تكن على هذه الحصانة حتى زارها ابن طيلون (ابن طولون)، وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها، فأحبَّ أن يتخذ لعكة مثل ذلك الميناء، فجمع صنّاع الكورة وعرض عليهم ذلك، فقيل: لا يهتدي أحد الى البناء في الماء في هـذا الزمان، ثم ذُكر له جدُّنا أبو بكر البنّاء وقيل: إن كان عند أحدٍ علمُ هـذا فعنده، فكتب الى صاحبه على بيت المقدس حتى أنهضهُ اليه، فلما صار اليه وذكر له ذلك، قال: هذا أمرٌ هين، عليَّ بفِلَق الجمّيز الغليظة، فصفّها على وجه الماء بقدر الحصن البريّ، وخيّط بعضها ببعض، وجعل لها باباً من الغرب عظيماً، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد، وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتدَّ البناء، وجُعلت الفِلَق كلما ثقلت نزلت، حتى إذا علم أنها جلست على الرمل، تركها حولاً كاملاً حتى أخذت قرارها، ثم عاد فبنى من حيث ترك، كلما بلغ البناء إلى الحائط القديم داخله فيه وخيّطه بهِ، ثم جعل على الباب قنطرة، فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتُجرّ السلسلة مثل صور ... » (1).

ثم جاء ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) فنبّه إلى مأصر عكة بقوله: « ... ثم عاد فبنى من حيث ترك، وكلما بلغ البناءُ الى الحائط الذي قبله، أدخله فيهِ وخيّطه بهِ، ثم

(1) أحسن التقاسيم (ص ١٦٢ — ١٦٣)

جعل على الباب قنطرة ، والمراكب كل ليلة تدخل البناء (صوابها الميناء) ، وتُجرّ السلسلة بينها وبين البحر الأعظم مثل صور ... » [١]

ويلاحظ من هذا ، أنّ ياقوتاً نقل كلامه عن البشّاريّ المقدسيّ .

وقد يكون البرج الذي أشار اليهِ القاضي بهاء الدين بن شدّاد (المتوفى سنة ٦٣٢ هـ) ، والمسمى بـ « برج الذبّان » هو الذي فيه قُفل المأصر (السلسلة) لميناء عكة، فمن خبره أنهُ « لما كان الثاني والعشرين من شعبان جهّز العدوّ بُطساً[٢] متعدّدة لمحاصرة برج الذبّان ، وهو برج في وسط البحر مبني على الصخر على باب ميناء عكة يحرس بهِ الميناء ، ومتى عبره المركب أمن غائلة العدو ، فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه ويمنع الدخول اليه بشيء من البطس فتنقطع الميرة عن البلد ... » [٣] .

هذا وقد صرّح زكريا بن محمد بن محمود القزويني (المتوفى سنة ٦٨٢ هـ) أنه نقل قول البشاري المقدسي في صفة عكة وميناتها وسلسلتها [٤] .

أما ابن عبد الحق ، فانه لم يفته وصفها [٥] ، ولكن يستشف من خلال كلامه أنه مأخوذ من كلام ياقوت . وهذا أمر معروف عند الباحثين ، فان كتابه يعتبر مختصراً لمعجم البلدان ومستدركاً عليه في بعض الأحيان . ولهذا السبب ، لا حاجة بنا إلى إيراد ما كتبه هذا ، ولا إلى ما كتبه القزويني من قبله ، بعد أن تبين لنا أن أولهما نقل كلامه من معجم البلدان ، وثانيهما درج على خُطى البشاري المقدسي السالف الذكر .

(د) مأصر مدينة صور

أما المأصر الذي في ميناء صور فلا يقل خطراً وشأناً عن نظيره في باب الأبواب . وأقدم خبر وقفنا عليه بهذا الشأن ، ما رواه البشاري المقدسي نقلاً عن محمد بن حسن الشيباني (المتوفى سنة ١٨٧ ، وقيل ١٨٩ هـ) ، وذلك في معرض كلامه على صور . قال البشاري : « ... وصور مدينة حصينة على البحر ، بل فيه ، يدخل اليها من باب واحد على جسر واحد قد أحاط البحر بها ، ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا أرض ، تدخل فيه المراكب كل ليلة

---

(١) معجم البلدان (٣:٧٠٨ ، مادة عكة) (٢) بطساً، انظر «الذيل» في آخر هذا المقال (٣) النوادر السلطانية (٣ : ١٨٤) . وانظر ص ١١٨ ففيها كلام على برج الداوية الذي شيد لحفظ ميناء عكة
(٤) آثار البلاد وأخبار العباد (ص ١٤٨ طبعة وستنفلد في غوتنجن) (٥) مراصد الاطلاع (٢:٢٧١ — ٢٧٢)

يثم تجر السلسلة التي ذكرها محمد بن الحسن في كتاب الإكراه [١] . . . . » [٢]

وكان الرحالة الذائع الصيت ابن جبير الاندلسي (المتوفى سنة ٦١٤ هـ) قد زار مدينة صور في يوم الخميس الثالث عشر من جمادى الآخرة من سنة إحدى وثمانين وخمسمائة للهجرة وأقام بها أحد عشر يوماً ، فكتب لنا وصفاً رائعاً لمأصر هذه المدينة ومقابلته بالذي في عكة ، ودونك ما رواه : « صور مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، . . . . وذلك أنها راجعة إلى بابين : أحدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها من جهة واحدة ، . . . . وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ، وليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص ، فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب إلاَّ عند إزالتها ، وعلى ذلك الباب حرّاس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج إلاَّ على أعينهم ، فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ، ولعكة مثلها في الوضع والصفة ، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك ، وإنما ترسي خارجها ، والمراكب الصغار تدخل اليها ، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل . . . » [٣]

ومن المرجح أن سلسلة صور لم يطل أمدها بعد المائة السابعة للهجرة ، كما أشار إلى ذلك القلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١ هـ) الذي قال في صفتها : « وبناؤها (مدينة صور) من أعظم أبنية الدنيا ، وكانت من أحصن الحصون التي على ساحل البحر ، فلما فتحها المسلمون في سنة تسعين وستمائة مع عكة خربوها خوفاً أن يتحصن بها العدو ، . . . ويقال إنها أقدم بلد بالساحل . . . قال الشريف الادريسي : « وكان بها مرسى يدخل اليه من تحت قنطرة عليها سلسلة تمنع المراكب من الدخول . . . » [٤]

(هـ) مأصر المهدية

أما مأصر المهدية فقد وصفه ياقوت بما هذا نصهُ : « . . . قال (أبو عبيد البكري) :

---

(١) ذكره الحاج خليفة (كشف الظنون ٥ : ٤٨ طبع لندن = ٢ : ٢٦٤ طبعة استانبول الاولى) ، فقال : « كتاب الاكراه للامام محمد بن حسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٧ » — قلت : وذكر ابن خلكان وفاته في سنة ١٨٩ هـ انظر ترجمته في وفيات الاعيان (١ : ٦٤٧ — ٦٤٨ طبعة بولاق الاولى) (٢) أحسن التقاسيم (ص ١٦٣ — ١٦٤) . — وجاء في النسخة الاستانبولية لمخطوط أحسن التقاسيم ما هذا نصه :
« وانما تدخل المراكب هذا الحير وتجر السلسلة كي لا يعبر عليها الروم في الليل » .
(٣) رحلة ابن جبير (ص ٣٠٨ طبعة رايت) أو (ص ٣٠٤ — ٣٠٥ طبعة دي غويه) ، او (ص ٢٨٦ — ٢٨٧) طبع مطبعة السعادة بمصر) (٤) صبح الاعشى (٤ : ١٥٣)

ومرسى المهدية منقورة في حجر صلد ، تسع ثلاثين مركباً . على طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة حديد ، فإذا أريد إدخال سفينة ، أرسل حرّاس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ، ثم يمدّونها كما كانت تحبيساً لها..... »[1]

ونظير هذا القول ما حكاه القزويني في صفة المهدية وميناءها والسلسلة الراكبة عليه ، غير أنهُ ذكر عدداً آخر للسفن التي يسعها هذا الميناء ، واليك قوله: «.... ومرساها منقورة في حجر صلد تسع مايتي مركباً (كذا) ، وعلى طرف المرسى برجان بينهما سلسلة حديد ، إذا أريد إدخال سفينة أرسل الحرّاس أحد طرفي السلسلة لتدخل الخارجة ثم يمدّها...»[2]

﴿ الذيل ﴾

البُطس ، واحدتها البُطسة وهي ضرب من مراكب البحر الكبيرة ، تتخذ في الحروب وفي التجارة ، وهي بلغة أهل أسبانية . ورد ذكرها غير مرة في كتب التاريخ . وكانت البُطسة الواحدة تشحن بمئات الرجال ، وبكثير من غرائر القمح ، وبالمير والأسلحة الثقيلة . قال ابن شداد (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة — خزانة كتب الحروب الصليبية — ٣ : ٢٢٠ — ٢٢١ ، باريس سنة ١٨٨٤) : في خبر بُطسة إسلامية عظيمة أنها وصلت « من بيروت مشحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال والأبطال والمقاتلة ، وكان السلطان قد أمر بتعبيتها وتسييرها من بيروت ، ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل البلد مراغمة للعدوّ ، وكان عدّة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلاً ، فاعترض لها الانكتار في عدّة شواني قيل كان في أربعين قلعاً فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدّوا في قتالها ... »

وقال في مكان آخر (٣ : ١٧٨ — ١٧٩) : « ... وكان الفرنج ... قد أداروا مراكبهم حول عكة حراسة لها من أن يدخلها مراكب المسلمين ، وكانت قد اشتدّت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة ، فركب بُطسة ببيروت جماعة من المسلمين وأودعوها أربع مائة غرارة قمح ، ووضعوا فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة ... »

وإليك خبراً حرره المقريزي في أحداث سنة ٥٧٨ هـ (السلوك في معرفة دول الملوك ، بتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ، ١ : ٧٧) يوضح فيه العدد الكبير من الجند وغيرهم ، الذي تستوعبه البطسة . قال : « ... وخرج عزّ الدين فرخشاه من دمشق ، فأغار على طبرية وعكة ، وأخذ الشقيف (أرنون) وعاد بألف أسير ... وألقى الريح بطسة للفرنج الى برّ دمياط ، فأسر منها ألف وستمائة وتسعون نفساً سوى من غرق » .

(١) معجم البلدان (٤ : ٦٩٥ — ٦٩٦) (٢) آثار العباد (ص١٨٣ — ١٨٤)

الرؤساء الثلاثة

— ٢ —

لنكان : محرر الرقيق

للدكتور نجيب الأرمنازي

بعد ثمانين سنة ونيف مضت على نشأة هذه الأمة الأميركية أصابتها أزمة شديدة تعرّض بها الاتحاد لخطر التفكك والانحلال ، وذلك بسبب الخلاف الذي نشب بين ولايات الشمال وولايات الجنوب، فكان لنكان هو الرجل الذي أرسلته العناية لحماية الاتحاد والغاء الرقيق ، وهو من أغرب شخصيات العالم ، نشأ في بيئة فقيرة ، وقضى سنيه الأولى في البؤس والحاجة . وكان من أول عمره شديد الاقبال على التعلم ، فقرأ بعناية وشغف بعض الكتب التي وقعت له، وكان لا ينفك عن مطالعة التوراة وشكسبير، ويتطلع منذ صغره إلى ما يكون له من عظم الخطر في هذا العالم الفسيح الذي لم يكن يعرف شيئاً كثيراً عنه ، ولم يكن يفارقه الغم والتردد حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره من غير أن يتخذ لنفسه طريقة في الحياة ، وكان الناس يحبونه حباً جماً ولا سيما رفاقه ، إذ كان حلو الحديث سائغ المورد لطيف المعاشرة كريم السجايا ، دون أن يخرج عن وقاره ورزانته . ولعلّ الجد الذي في وجهه كان عنوان حياته الأولى وأثر الغابات العابسة والسهول المقفرة ، أما بشاشته فهي من تطلعه إلى النور والتعلم وبروق الآمال ، وقلما عرف الرجال حتى أقربهم اليه ما تنطوي عليه نفسه من قوة وعزيمة وقدرة، وقد وصف دغلاس أحد أعضاء مجلس الشيوخ ومعارض هذا الرجل المجهول بقوله : « ما أشد الجهد الذي ينبغي عليّ أن أبذله في لقائه ومنافسته ، هذا هو رجل حزبه الذي لا تلين له قناة ، ولا يفارقه ذهنه الحديد ، ولا يضاهى في معرفة التواريخ والوقائع ، أفضل من يرتجل الكلام في هذا الغرب ، وهو شريف لا يَخدَع وأريب لا يُخدَع » .

وكان أكبر هم لنكان أن يصون الاتحاد ، والاتحاد عنده قبل الدستور ، لأن الدستور

قد وضع ليجعل الاتحاد أكثر انسجاماً ، فلا تستطيع دولة أن تخرج من الاتحاد وفاقاً لمشيئتها ، وكل قرار تصدره في هذا الشأن لا عبرة له من الوجهة الشرعية ، فالاتحاد لا يمكن أن يتطرّق اليه الوهن أو أن يتعرض لخطر الحل ، ولما افتتح رئاسته الأولى سنة ١٨٦٠ خاطب مواطنيه الغضاب بقوله : إن المكاره التي تحاذرونها هي في الحقيقة غير كائنة ، وتبعة الحرب الأهلية المخيفة لا تقع عليَّ ، وإنما تبعتها بين أيديكم ، إنكم تحلفون الايمان على تقويض بنيان الحكومة ، وأنا أرفع الصوت جهرة وأنادي معلناً مشهداً أنني سأحميها وأدافع عنها وأحافظ عليها . . . وأكد نيته تطبيق القوانين في جميع أنحاء الدولة ، وأبدى كثيراً من روح التساهل في هذه الخطبة حتى عدَّ ذلك موطن ضعف ، ولكن يده الحديدية كانت — كما يقول الفرنجة — في قفاز من « القطيفة » ، وقد انقاد إلى بعض الدواعي السياسية فأرجأ قضية تحرير العبيد ، وصرف همه إلى صيانة الاتحاد ، سواء أكان قد حرِّر العبيد أم لم يحرَّروا في أثناء هذا النضال.

***

ولما استعرت نار الحرب عقد مجلس الأمة مؤتمراً استثنائيًّا فبعث اليه برسالة لم يكن فيها لبس ولا غموض ، فوصف حالة البلاد وذكر ما لسلامة الاتحاد من شأن في نظر العالم ، وقال : على هذا النضال الذي نتحمل أعباءه يتوقف أمر هو أكثر من مصير الولايات المتحدة ، إذ أن الأسرة الانسانية الكبرى تشهد : أجمهورية دستورية دمقراطية أم حكومة الشعب قادرة على صيانة حدودها وقمع الفتن الأهلية ؟ وهل يجب أن تكون الحكومة قوية جدًّا حتى تستطيع أن تدفع عن حريات مواطنيها أو أن تبلغ درجة من الضعف بحيث تعجز عن صيانة نفسها ؟ وكان لنكلن قد وقف قانون الحرية الشخصية وتجاوز سلطته — ودعا من ذات نفسه الى زيادة عدد الجيش في البر والبحر ، وفي ذلك خروج ظاهر على القانون ، غير أن لنكلن كان يرد على منتقديه بأن السلامة العامة تتطلب تلك الوسائل الاستثنائية ، وقد أصدر مجلس الأمة قراراً تجرّد فيه من كل عاطفة غضب وحقد ، ولم يهتم إلاَّ بواجبه نحو البلاد كلها ، وهو عالم بأن هذه الحرب ليس فيها روح اضطهاد أو رغبة في فتح ، وما أوقدت نارها إلاَّ لحماية الاتحاد والمحافظة عليه والتساوي في الحقوق بين جميع الدول . ومتى أدركت هذه الغاية فان الحرب واضعة أوزارها.

أما تحرير الرقيق فلم يعلن إلاَّ في سنة ١٨٦٣ فكان لاعلانه أثر كبير في مختلف أقطار

الأرض، وكانت الشعوب قليلة الاهتمام ببقاء الاتحاد الأميركي أو زواله، ولكن إعلان لنكان لتحرير العبيد أثار في العالم هزة إعجاب وإكبار . ولم يخل من ذلك حتى بعض الذين كانوا يتوقعون انتصار الجنوبيين . وقامت على الأثر دعوة تحرير العبيد ولا سيما في بريطانيا العظمى.

ولم يكن الرئيس يقبل تسوية أو هوادة في الأمر الذي يقره . ولجأ إلى وسائل العنف لقمع الفتن والثوائر التي كان يثيرها معارضو خططه ، وقد لمس موضع الداء بإشارته إلى عقاب الموت الذي يصيب الجندي عند فراره من الجيش ، وتساءل هل ينبغي اطلاق النار على جندي مسكين جاهل لاذ بالفرار ، ولا يجوز أن تنزع شعرة من رأس المهيج المحتال الذي حرّضه ؟ وقد حاول مندوبو الجنوب في حديث طويل أن يقنعوه بعقد صلح مع الولايات الجنوبية ؛ واستشهدوا على ذلك بما فعله شارل ملك انكلترة بمفاوضة العاصين من رعاياه ، فأجابهم : إن بضاعتي مزجاة في علم التاريخ، وأنا أرجع في هذا الأمر الى أمين سر الدولة ، وكل ما أذكره من هذه القصة أن شارل الأول قطع رأسه .

* * *

لقد تقلد كثير من الأميركيين السلاح لأنهم كانوا يحبون الاتحاد ويحرصون عليه ، ولا يحجمون عن بذل دمائهم في سبيل البلاد وصيانتها من التجزئة ، ولكن لنكان قاده إلى ذلك سبب أسمى وغاية أبعد ، فقد رأى أن مبدأ الدمقراطية وحكم البلاد نفسها بنفسها كان معرّضاً للخطر ، وأن سعادة الأسرة الانسانية بأسرها ذات علاقة بهذا الأمر ، ولم يكن يطيق لنكان إدراك هاتين الغايتين العظيمتين دون مؤازرة الشعب القادر المخلص ، وحق للرجال أن تشاطره الفخر بهذا النصر . غير أنه أحق بالنصيب الأوفى لأنه كان ربان السفينة الذي يقودها في ساعة شديدة الحرج . ولا يشك أحد في أن لنكان كان الرجل كل الرجل ، ولكن ليس من الهين تحديد الصفات التي تكوّن أسباب عظمته ، فدهاؤه لم يكن يبهر الأقربين اليه ، حتى إن وزارته أتى عليها بعض الزمن قبلما تكشفت القناع عن أسراره وبعد أن سبقها الشعب ، ولم يعرف حق المعرفة إلاّ بعد موته سمو آرائه التي دبّر بها الأمور في ذلك العهد الدقيق الخطر ، وكلما زاد تأمل الناس كلماته زاد شعور الاعجاب به ، وقد تكون اكبر فضائله القدرة على تبين الرأي العام ، وقلما تمتع رجل دولة بما تمتع به من الثقة ، أما تأثير صدقه فلم يكن يقتصر على الجماهير .

ولم يحاول أحد أن يستخرج كنه هذه العبقرية . ولم يذكر التاريخ خلقاً عظيماً فاجأ العالم بمثل هذه المفاجأة ، وقد وصفه غولدوين سمث المؤرخ الانكليزي بقوله : ولد في آخر

طبقات المجتمع، وتكوّن في بيئة النضال والشقاء ، وسما في الحياة العامة حتى أصبح الأميركي الأول ، وتقلد أعباء مهمته في الوقت الذي كانت قوى الحرية وقوى العبودية توشك أن تشتبك في قتال مميت ، فقبض على أزمة الحكم بيد قوية ، ولولا عبقريته الفذة لما سلم الاتحاد في رأي الكثيرين . وقد أودت رصاصة قاتل بهذا الرجل العظيم الذي هو من أفضل نجار عرفته الإنسانية الحرة ، وكان الرزء به أعظم الأرزاء التي ألمت بالولايات المتحدة ، ومنذ غيب الثرى وجهه ما برح يعلو نجمهُ ويتألق كوكبهُ ، وهو لا يعد رئيساً عالي الصيت للولايات المتحدة ، بل يعد من أعظم رجال التاريخ ، وحسبه العملان العظيمان اللذان قام بهما لتخليد ذكره : إلغاء الرق ، وصيانة الاتحاد .

* * *

وفي سيرة لنكان الحافلة بالأعمال الجليلة نجد كثيراً من المتناقضات التي هي عنوان عظمته ، فقد كان مظهره مظهر واثق بأصحابه مطمئن اليهم ، ولكن نفسه العجيبة كانت بعيدة الغور بحيث لا يدرك مكنونها ، وكانت تلوح عليه مخايل الرجل المتلجلج المتلكئ المضطرب ، ولكن وجهه لم تفارقه قط روعته ، وكان حاضر الذهن فلا تفوته الكلمة النادرة أو رواية بعض الحوادث الفكهة ، غير أنه كان في قرارة النفس التي انطوت عليها جوانحه مجرى حزن وأسىً يملأ حياته ويتبين في جميع مواقفه ، وهو لم يكن راسخ القدم في فن الخطابة ، ولا طويل الباع في علوم الأدب ، ولكن كلامه في شؤون الرق من أبلغ ما تفجرت به عيون الفصاحة في ذلك الزمن إيجازاً ومتانة وقوة حجة ، وكانت خطبته في جتسبرغ على أثر الوقعة الكبرى المسماة بهذا المكان ، وخطبته في افتتاح عهده الثاني ، من درر الأدب الرفيع .

فمن أقوال لنكان التي كان ينطق بها عن فطرة ملهمة وملكة متأصلة كما هو شأن سائر قادة الشعوب : « إن من الامتهان لسكان بعض الولايات ألاّ نراهم جديرين بحكم أنفسهم ، ولا جدال في أن مبدأ حكم الشعب لنفسه بنفسه صحيح ، وسيظل صحيحاً الى الأبد ، ولكن إذا كان الزنجي رجلاً ألا نرى ـ بقدر ما في المبدأ من صحة ـ أننا إذا حرمناه حكم نفسه إنما نخرق بذلك مبدأ سيادة الشعب ، وإذا حكم الرجل الأبيض نفسه كان ذلك تطبيقاً لمبدأ سيادة الشعب ، ولكنه إذا كان يحكم نفسه ويحكم رجلاً غيره ، فذلك أكثر من سيادة الشعب : إنهُ الاستبداد ، وليس في الناس من يتوافر لديه الخير ليحكم غيره بدون رضاه ، وما حياة أمة نصفها حر ونصفها الآخر عبد » . وكان يقول في الرق إنهُ يمقته لما

ينطوي عليه في ذاته من جور قبيح ، ويمقته لأنه يسلب النظام الجمهوري الذي نحمله الى العالم مثالاً من أثر الحق في أيدينا ، ويمقته لأنه يدفع رجالاً كثيرين من الأخيار الى محاربة المبادئ الأساسية للحرية المدنية ، فيصرون على دعواهم أنه ليس ثمة من حق نستند اليه في أعمالنا وما هنالك إلاّ المصلحة الشخصية .

أما خطبته بعد يوم جتسبرغ في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٣ فانها قد سارت كل مسير. وتوارث الأميركيون ما فيها من كلمات بليغة ، حتى إن الرئيس ولسن الذي كان معجباً بسلفه البعيد لنكان أوردها بتمامها في كتابه تاريخ الشعب الأميركي ، وقد طبع على غرارها إحدى جلائل خطبه ، وهي التي افتتح بها رئاسته الثانية ، وكان قد اجتمع الناس في ساحة الوقعة أو على مقربة منها غداة ذلك اليوم الذي كان من أشد أيام الحرب الأهلية هولاً ليمجدوا ذكرى ضحاياها . وسألوا الرئيس أن يخطبهم في هـذا الحفل المشهود ، فتكلم بكلام رفت لهُ القلوب وذرفت العيون ، وكان مما قاله :

« منذ سبع وثمانين سنة خلت انجب آباؤنا في هذه القارة أمـة جديدة رضعت لبان الحرية ، ونذرت نفسها للدعوة بأن جميع الناس ولدوا على السواء .

ونحن الآن في حرب أهليـة ضروس تمتحن فيهـا هذه الأمـة لتعرف هل تستطيع الحياة والبقاء هي أو أية أمة غيرها نشأت نشأتها ونذرت نفسها مثلها . وفي هذه الساحة نلتقي في ميدان عظيم من ميادين هذه الحرب وقد جئنا اليه لنجعل من بعضه مثوى خالداً لأولئك الذين جادوا بحياتهم لتحيا هذه الأمة ، وحق علينا كل ما نقوم به في سبيل ذلك .

غير أننا ليس في وسعنا أن ننذر أو نقدس أو نبارك هذه الأرض ، إذ ليس في متناول طاقتنا أن نزيد في مكانتها أو أن ننقصها بعد أن أفاض عليها الأبطال الذين ناضلوا فيها أحياءً أو أمواتاً ما أفاضوا من حلل التقديس . والعالم لن ينظر إلاّ قليلاً ولن يذكر إلاّ قليلاً ما تنطق به أفواهنا في هذا المكان ولكنه لا يستطيع أن ينسى أبداً ما صنعه فيه أولئك الأبطال . وجدير بنا أن ننذر نفوسنا ههنا للعمل الذي لم يتمه والذي خطا به المقاتلون فيه خطوات كريمة . وإنه ليجدر بنا أن ننذر أنفسنا في هذا الميدان للمهمة العظمى التي يجب علينا أن نتمها وأن نستمد من هؤلاء الموتى الأمجاد ولاءً متزايداً لهذه القضية التي جادوا في سبيلها بأقصى غاية الاخلاص ، وأن نعقد العزيمة الصادقة على أن لا يكون موت هؤلاء قد ذهب ضياعاً وعلى أن تبعث الحرية في هذه الأمة التي تستظل بظل الله بعثاً جديداً ، وأن لا تضمحل على وجه هذه الأرض حكومة من الشعب وبالشعب وللشعب » .

وقد تمتع الرئيس لنكان بسلطة عظيمة في مدة أربع سنين لم ينلها أحد من قبله ولم يطلبها أحد من بعده ، فلم يستبد ولم يستأثر ، ولم يغير شيئاً من أوضاع الدولة ومناهجها ما عدا علاقة السيد بعبده وتعزيز بنيان الاتحاد وتوثيق عراه ، فما تبدل شيء من الحريات العامة ، ولا تحوّلت طبيعة الأمة الجوهرية من أنها محبة للسلام ، ولما انفضت الجيوش بعد أن أسدل قناع هذه الحرب الضروس ، عاد الجنود إلى شؤونهم السلمية باندفاع كأنهُ السحر ، وآخر عمل قام به الجيش هو عرضه الأخير الذي مشت فيه الصفوف تجري في أعطافها هزة النصر لتحيي قادتها ورؤساءها التحية الأخيرة ، ولكن غاب في هذا اليوم أحق الرجال بفخر الظفر وأزهدهم فيه ، الذي رمقهُ العالم بأسره وامتلأ قلبه بحب بلاده . طوته المنون قبل عشرة أيام في سجل العظماء الخالدين .

***

واذا كانت الحرب قد انتهت فانها قد جرّت وراءها جرائر ، وكان ينبغي مواجهة مشكلات الانشاء والتعمير ومعاملة أهل الجنوب بعد أن أعادهم السيف الى حظيرة الوطن ، فكان يرى فريق في طليعتهم الرئيس لنكان وأمين سر الدولة سواود والقائد غرانت وهم الذين أبلوا أحسن البلاء في إطفاء الفتنة وإزالة التفرقة ، وأنهُ ينبغي العفو والصفح حتى تنقضي الحرب ولا أحقاد ولا ضغائن . وقد قام في وجه الرئيس من يعارضه ، ويرى أن يصلى بنار الحرب جناتها ومثيرو نقعها ، وهم لا يشاركون القائلين بالاكتفاء بعودة أهل الجنوب إلى الوطن ومنحهم الحقوق والمزايا التي يتمتع بها سكان الشمال ، بل يرون معاملتهم بقوانين البلاد المفتوحة ، جزاءً لما كسبت أيديهم ، ولا ينظر أصحاب هذا الرأي لما يظهرونه من صدقٍ وإخلاص ، فلولا انكسارهم لأصروا على بغيهم وتعنتهم ، ولكن الرئيس كان على عادته متمسكاً بالخطة التي يمليها عليه عقله لا هواه ، فقد خاض غمرات الحرب بقلب لا يكاد يطيعه ، ولكن عزيمته لا تنثني ، فحارب مكرهاً أشد حرب ، لأنه لم يجد عن الحرب مندوحة ، حتى إذا وضعت أوزارها أقبل على مداواة ما خلفته من الشرور التي أخلت الديار وأخربت الربوع وأوحشت المغاني ، فهل أدرك الذي فتكت يداه بالرئيس تعصباً لأهل الجنوب ، ما ينطوي عليه ذلك القلب الكبير من رقة ورحمة ؟ .

مدرسة المعري

لكامل كيلاني

كنت أشعر دائماً أن الحاجة ماسة إلى تنسيق مكتبة للشباب تجمع كثيراً من فنون الأدب العربي في عصوره القديمة والوسطى والحديثة .

وأعني بالأدب العربي ما يحمله المنظوم والمنثور من نتائج قرائح الشعراء والخطباء والمترسلين ، وطرائقهم في التصرف في أفانين القول ، وأساليب البيان والتبيين .

***

ورأيت أن « أبا العلاء » وحده مدرسة جامعة لأهم عناصر فنون الأدب ، من أول عصور الجاهلية إلى العصر الذي كان يعيش فيه ، إذ كان أدبه منفرداً ، مغنياً عن أدب غيره مجتمعاً .

ومن حقه علينا ألاّ ندخر جهداً فى إحياء مدرسته وتجلية براجها ومراسمها ، وإنارة معالمها ، فما أجدر هذا البارع الموهوب أن يدرسه المعاصرون بعناية كاملة ، دراسة شاملة ، وأن يتثبت المتحدثون ، ويتريث الباحثون ، ويطيلوا الروية في تمحيص نصوصه وتفهم مباغيه ، والفحص عن أهدافه وتقصي مراميه ، فلا يصدروا — له أو عليه — حكماً قبل أن يتموا قراءة آثاره ، ويطيلوا التأمل في معانيها ومراميها بحثاً وفهماً حتى يصلوا إلى غايته ومرماه ، ويبلغوا الصميم مما عناه وتوخّاه ، ويكتنهوا الهدف الذي قصد اليه وانتواه . ولن يصلوا إلى شيء من هذا إلا بعد أن يطيلوا الروية والفحص عما اكتنف الشاعر من ظروف ومناسبات ، وحوافز وملابسات ، أوحت اليه ما كتب ، وأنطقته بما قال . وما أجدرهم أن يتثبتوا مما يروونه له ، أو يأخذونه عليه ، من شعر ونثر ورواية ، ويتعرّفوا من أي معين استقى رواته ؟ ومن أي مشرع نهلوا ؟ أمن أثبات كتبه ؟ أم فاتت شعره ؟ أم مما انتحله ودسه عليه الحاقدون والكائدون ممن وقفوا حياتهم على تشويه الحقائق وإفساد التاريخ ؟ وهل ينسجم أسلوبه مع أسلوب « أبي العلاء » ؟ أو هو بعيد عنه مكذوب عليه ؟

فإذا تثبتوا من ذلك كله ، واطمأنوا إلى صحة النص العلائي وأصالته وجب أن يتعرفوا الزمن الذي قاله فيه على اليقين والتحقيق ، لا على الحدس والتلفيق . وفي أي عهد نطق به الشاعر: أفي عهد الشباب أم الشيخوخة ؟

وكيف قال « أبو العلاء » أجادًّا كان أم ساخراً ؟ مثبتاً أم نافياً ؟ منشئاً أم راوياً ؟ ساخطاً أم راضياً ؟ مجاملاً أم متحدياً ؟ معابثاً أم هادياً ؟

وأي الطريق سلكه حين أثبت ما قال : طريق الحقيقة أم طريق المجاز ؟

وعلى أي لسان أجرى حواره وساق أدلته : على لسان العاطفة أم على لسان العقل ؟ وعلى لسان الحكيم أم الشاعر ؟ وأي الأساوبين توخى : الشك أم السخرية ؟ وإلى أي هدف سدد طعنته ؟ وهل أصاب سهمه رميّته ؟

ورحم الله ناقدنا العظيم « عبد القاهر الجرجاني » حين عرض لدقائق البيان وأسراره ، فروى قولةً رائعة المغزى عميقة الدلالة في شرح ما نريده ونبغيه، وتجلية ما نهدف له ونعنيه. وقد أوردها في سياق حديث لبعض المستنيرين ، قال : ما علمت أنَّ كلمة :« سبحان الله » تكسب قائلها إثماً إلاَّ اليوم ، فلما سئل عن السبب قال :

ذكر أحد الناس عند « أحمد بن يحي » — المعروفُ بثعلب — بسوءٍ ، فقال أحدُ الحاضرين : « يا سبحان الله ! »

فقال « ثعلب » : « أثمتَ » .

وما نظنُّ القارئ في حاجة إلى الكشف عن موطن الإثم في تسبيح ذلك الرجل ،فقد ثبَّت — بتسبيحهِ — التهمة على من قُـذف بها ، وأدخل في روع السامعين أنهُ اقتنع بصدق ما أُسند إلى صاحبه من غير مناقشة ولا تمحيص !

ومن ثمَّ غضب عليه الأمام اللغويُّ الأديب : « ثعلب » ، وخطَّأه وأثَّمهُ.

وقريبٌ من هذه اللفتة البارعة قولُ أبي العلاءِ :

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمُها فتاركها ـ عمداً ـ إلى الله أقربُ

وقد أخذنا أنفسنا في رسالتي « الغفران » و « الهناء» وكتاب « على هامش الغفران » ألاَّ يعرض « أبو العلاء » لمعنى فلسفيٍّ ، أو يُـلمع إلى فكرة من خواص فكرهِ ، إلاَّ ألحقنا بها ما عاثلها — فيما نقل عنهُ — ولا جرم أنَّ شعر « أبي العلاءِ » ونثره يفسر بعضهُ بعضاً، فهو يلمِّح إلى الفكرة في بيت ، ويوضِّحها في بيت آخر ، ويزيدها إبانةً وتوضيحاً في متناثر أبيات أخر .

فلا مندوحة لمن يتناول بالبحث إحدى نواحي « أبي العلاء » من أن يستقري شعره

ونثره ويتفطّن إلى النظائر والأشباه ، وما يتداخل من أفكاره ، وما يرجع من بعضها على بعض ، حتى تنفسح أمامهُ سبل الموازنة والترجيح .

وما أحوج القارئ لآثار هذا الفيلسوف الأديب المتفرد في أسلوبه وتفكيره ، المبدع في بيانه وتعبيره ، المغرب في ألفاظه ومبانيه ، المتعمق في أغراضه ومعانيه ، أن يضاعف يقظتهُ — كما أسلفنا القول في مقدمة الغفران — لتفهم معناه البعيد ، ويحبس انتباهه لتقصي مرماه الخفيّ ، ويجلُو فطنته لاكتناه مغزاه المستسرّ . ويحشد قواه الفكرية كلها ، فلا يتوزَّعهُ تحري الصواب في إعراب كلمة ، أو تصريفها ، أو وجه سياقها .

وقد يكون ذلك أجمع سهل القيادة ميسور التأتّي ، هيّن الدَّرك ، للأديب المتمكن ، ولكنهُ — على ذلك — شدَّ ما يكون حجر عثرة في طريق الشداة من المتأدبين ، فسرعان ما يدركهم الملل ، ويقعد بهم العجز ، ولا يلبثون أن يضجروا بمتابعة القراءة ، وبذلك يفوتهم — على الرغم منهم — أن يستمتعوا بهذه الكنوز الفكرية ، الجديرة بالجد والمعاناة .

واستتبع هذا العمل أن نشرح الألفاظ شرحاً دقيقاً ، يتكشف بهِ المقصود من معانيها في عرض الكلام .

ويسير غاية اليسر هذا العمل ، لو أن الكاتب غير « أبي العلاء » من كتّاب الغريب المنصوص عليهِ صراحة في المعجمات .

فان امتلاك « أبي العلاء » لناصية اللغة ونوادرها ، وسعة محفوظهِ من جزل النظم والنثر ، وممرستهُ بمختلف أساليبها ، وغوصه على فرائدها ، وتهديه لأبكار المعاني وعيون الكلام ، وتوفقهُ الى ابتداع الصور الفنية الرائعة ، وحشده أفانين مختلفة من معجب التصاوير ، وبارع الصيغ ، وتبحره في التاريخ ، كل أولئك قد أجرى لسانهُ بالكثير الأكثر من صور ألفاظ ، تدلُّ — بعد الروية ومدّ البحث — على غير المعروف الظاهر من معانيها ، بما توسعت بهِ اللغة ، وتشعب التصريف ، فصار واجباً أن نحد المراد من اللفظ في سياق الجملة حدًّا دقيقاً ، وأن نفسره بما يقتضيهِ ذلك السياق [1] .

***

فما أكثر ما تخفى إشاراته على الفطن اللبيب الذي لم يرُض نفسه على طول مصاحبته والانتقال معه في أجوائه الفكرية ، وسماواتهِ الفلسفية ، ومفازاتهِ وجناتهِ الأدبية .

---

(١) انظر مقدمة الطبعة الثالثة من « رسالة الغفران »

وما أكثر ما تخفى تلميحاته وتصريحاتهُ على من قصروا في درس جغرافيته الذهنيـة ومراميهِ النفسية ، وما أجدرهم أن يتعرّفوا ــ إلى ذلك ــ موقع كل كلمة قالهــا ، فان الـكلمة الواحدة ــ كما يعلم القارئُ تقال في مناسبتين مختلفتين ، فتكون في إحداها شكراً وإيماناً ، وفي الأخرى جحوداً وكفراناً .

﴿ لغة الجن ﴾ وقد أبدع فيلسوفنا ــ فيما قصه علينا من بدائع فنهِ ــ وبلغ ما هو جديرٌ بهِ من غايات الإمتاع والتجويد فيما أجراه من حوار بين صاحبه : « ابن القارح » ، والجنيّ : « أبي هدرش » ، وكان من بدائع لفتاته ــ في ذلك الحوار ــ قوله على لسان صاحبه وهو يحدّثهُ في جنة العفاريت : « لله درُّك يا أبا هدرش ! لقد كنت تمارس أوابد ومنديات (تزاول جرائم لا تنسى آثارها ، ومخزيات لا تمحى ذكرياتها) . فكيف ألسنتكم ؟ أيكون فيكم عربٌ لا يفهمون عن الروم ، ورومٌ لا يفهمون عن العرب ، كما نجد في أجيال الإنس ؟ » فيقول : « هيهات ــ أيها المرحوم ــ إنّا أهل ذكاء وفطن ، ولا بدّ لأحدنا أن يكون عارفاً بجميع الألسن الإنسية ، ولنا بعد ذلك لسانٌ لا يعرفهُ الأنيس (١) »

فقد يرى الباحث في هـذه الصورة العلائية الفاتنة مثالاً يفسر ما يحتاج إليهِ دارس النصوص العلائية من التعمق في درس الأدب العربي عامة قبل أن يتخصص في درس الأدب العلائي . فان شاعرنا يكاد يشبهُ الجنيّ : « أبا هدرش » في المعرفة والاحاطة ، فهو عارفٌ بالأساليب العربية ، وله ــ بعد ذلك ــ أسلوب ينفرد بهِ فلا يكاد يشركه فيهِ أحدٌ من الأناسي ــ وسيرى القارئُ في المعجم العلائي ــ متى أذن الله لهُ بالظهور ــ مصداق ذلك .

﴿ قرّة العين ﴾ على أننا نجتزئ ــ في هذا المقام ــ بمثل واحد يقرّب من حوار الجنيّ ما بعُـد ، ويصوّر للقارئ بعض ما نعنيهِ ، بهذا التشبيهِ .

فلو أن أديباً قرأ البيتين التاليين ــ قراءة عابر غير متعمق ــ وهما من فائت شعر « أبي العلاء » :

« يا قُـرّة العين : « أم حفصٍ » و « أم عثمان » جارتاكِ
فتلكِ لا تحذرين منهـا ، وهــذه تبتغي أذاكِ »

فما نحسبهُ يخرج منهما بطائلٍ ولعلهُ لا يرى فيهما إلاّ معنًى تفِـهاً غاية في الضآلة والحقارة ، فقد يحسب أن شاعرنا يناجي حبيبةً له ويتودّد قائلاً :

(١) ارجع الى الفصل الرابع من رسالة الغفران

«إنَّ لكِ — يا قرَّة عيني وبهجة نفسي — جارتين إحداهما تدعى: «أُمّ حفص» والأخرى: «أُمّ عثمان».

أولاهما بعيدة عن الأذيةِ والشرِّ مأمونة الضرر، أما الأخرى فهي على العكس منها مخوفة البطش جديرة بالتوقي والحذر.

وهي — على هذا — صورة عادية قليلة الغناء، مسلوبة الرُّواء، غير خليقة بفن «أبي العلاء»

***

ولكنك تقرأ البيت التالي في لزومياته:

ما قُـرَّةُ العين[1] — ذاتُ الوِرد[2] معوزةٌ[3] وغُـيِّبت — عن بواكي الأعين[4] القُـرُرُ[5]»

فلا تلبث أن تنعم النظر فيه قليلا حتى ينكشف لك من تفصيل هذا اللوح العلائي الفاتن ما لم يكن ليخطر لك على بال، ولا يلبث أن يجلو لك — على إيجازه — بعض ما غمض عليك في ذين البيتين.

فهو هنا لا يزال — كما ترى — مشغول الخاطر موصول التفكير بالحديث عن قرَّة العين، ولكنهُ لا يعني بها قرَّة عينه، وبهجة خاطره، وحبيبة نفسه، كما تبادر اليك أول وهلة، بل هو يجري على مألوف عادته في الإيهام والتَّورية والاستخدام[6].

فان القرَّة وهي الضفدِع — كما تعلم — قد التبس معناها حين أُضيفت إلى العين وهو لا يعني بها — في هذين القامين — عين الانسان بل عين الماء ليمهد المقابلة في البيت الذي اخترناه من لزومياتهِ بين العين الجارية والعين الباكية تفيض إحداهما بالماء فيشفي ماؤها غلة الصَّادي ويُـرويه، وتفيض الأخرى بهِ فيعذب دمعها صاحبها ويشقيه. وهو يمثِّل لك ضِفدع الماء في هذا البيت ناعمة قريرة العين بما تظفر به من نصيبها في تلك العين، غير محتاجة — بعد ذلك — إلى شيء آخر في الحياة.

(١) القرة: الضفدع. وقرة العين: ضفدع الماء (٢) الورد: النصيب من الماء، والورد (أيضاً): القوم يردون الماء. (٣) معوزة: محتاجة (٤) بواكي الاعين: الاعين الباكية. (٥) القرر: الافراح والمسرات وجالبات البهجة، تقول: قرت عينه قرة (مصدر ضد سخنت) بردت وانقطع بكاؤها واستحرارها بالدمع، فان للسرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارة.

وقرت العين (من القرار) أي: رأت ما كانت مشوقة إليه، فقرت ونامت.

قالوا: «وقرت عينه (من القرور) وهو الدمع البارد يخرج مع الفرح»

أقول: «قرت عينك أيها القارىء» اي طابت نفسك.

(٦) الاستخدام، فيما يقول علماء البديع: أن تخدم الكلمة معنيين، والتورية (أو الإيهام): أن يطلق لفظ له معنيان: قريب وبعيد، ويراد البعيد اعتماداً على قرينة خفية.

فهي — على صغر قدرها وهوان شأنها وضآلة خطرها — مستغنية راضية بعيشها وادعة قانعة برزقها .

على حين حرمت الأعين الباكيات أن تظفر بما تصبو اليه من بهجة وسرور ، وعزّ عليها أن تلقى ما لقيته الضفدع من راحة العزاء ، وتظفر بما يكفكف من عبرتها ، ويسكن من لوعتها .

***

فإذا رجعت إلى اللوح الأول — على ضوء هذا البيت — تكشف لك جماله شيئاً ، ثم لا يلبث الضوء أن يجلوه لك في أبهى صوره ، وأجمل حلله ، حين تنصت إلى مناجاة شاعرنا لتلك الضفدع فتلمح — في ثناياها — شاعراً مشفقاً حدباً يخيل اليك — لفرط شغله بها ورحمته لها — أنهُ يعيش معها ، ويحيا في عالمها ويحس إحساسها ، ويعنيه ما يعرض لها من مشكلاتها ، ويبهج نفسه ما يسعدها فيفرح لأفراحها ، ويشقى بآلامها وأتراحها .

ولقد يخيل إليك — إذا أطلت التأمل في هذين البيتين وتركت لخيالك العنان — أنه يُسِرّ اليها متردداً ، ويهمس في أذنها متودداً ، راثياً لما تلقاه في هذه الحياة من التعرض للأذاة ، وظلم الجائرين من الجناة ..

وربما عنّ لك أن تسايره في خياله ، وأوحت إليك هذه الصورة أن تعبر عن آمالك وآماله ، مازجاً بين مقالك ومقاله ، مفصحاً عما ترجم عنه أو أغفله ، مفصلاً ما أوجزه بيانه وأجمله ، فتمثلته يخاطبها حانياً ، ويقول لها مناجياً :

« يا ساكنة الماء ، سلمت من كل بلاء . أيتها الضفدع المسكينة ، أتعلمين من تجاورينه ؟ وهل تبالين الخطر — كما نباليه — وتحذرينه ؟

ولو أنك — يا ضفدع الماء — عقلت ، فعرفت بعض ما جهلت ، لتفزعت مما تتعرضين له من فنون الإيذاء ، وضروب الألم والشقاء .

فاسمعي إن كنت تسمعين ، واعلمي إن كنت لا تعلمين ، أن لك — يا قرّة العين — جارتين ، مختلفتي الطباع متباينتين ، إحداهما : وفية شاكرة ، والأخرى غادرة ماكرة .

تعيش معك أولاهما في دعة وسلام ، ولا يتغير ودها على الأيام . أما الأخرى فهي ساهرة العين لا تغفل عن أذاك ولا تنام ، ولا تفتأ جاهدة تتربص بك عادية الحمام .

عنيت بالأولى صاحبتك « أم حفص » : تلك البطة الوادعة الكريمة ، وأردت بالأخرى عدوتك « أم عثمان » : تلك الحية المعتدية الأثيمة .

فأنت ترى في هذا اللوح — على إيجازه — كيف تشقى الضفدع كما نشقى، وتلقى من حسن الجوار وسوئه مثل ما نلقى، وكيف كتب عليها — كما كتب علينا — أن تجاور الأخيار، ثم لا تجد — الى ذلك — مناصاً من مجاورة الأشرار. فهي مثلنا تفوز — من إحدى جارتيها — بالسلامة فتسلم، وتأنس منها بطيب الجوار فتنعم وتغنم، على حين تلقى — من الأخرى — ما يروعها ويفزعها، وربما حان — على يديها — أجلها ومصرعها.

فإذا انتقلنا إلى رسالته التي بعث بها إلى خاله يعزيه ويواسيه، ويهوّن عليه ما عظم من مصابه في فقد أخيه، رأيناه يعرض لمصرعي الضفدع والحية معاً، ويتمثل نهايتيهما جميعاً — فيما يعرضهُ خياله ويتمثله من مصارع الأحياء، ممن عاش في البر أو سبح في الماء أو طار في الهواء — فيقول:

وعُلجوم (ضفدع) يصدح (يغنى) إذا طلعت النجوم كأنهُ — في المشرع (الماء) — فارس أو مصطلٍ (طالبُ دفءٍ) والزمن قارسٌ (شديد البرد).

وهاجة (وهي الأنثى من الضفادع)[1] بالماء شديدة اللجاجة، وحيةٍ لغائص الدُّرّ منكلة (مؤذية، او منحّية) تزعم العربُ: أنها بالدر موكلةٌ (حارسة له، مفوضةٌ في أمره).

﴿ ترجمة النصوص العلائية ﴾ وقد بدأت — منذ سنوات — بنقل أسلوبه في شعره وكتبه ومساجلاته، ورسائله ومحاوراته، إلى أسلوب سهل يفهمهُ الشادي بعد أن مهدتُ لتلك النصوص بما يوضحُ خفاياها، ويكشف عن كنوزها وخباياها، مازجاً — بين حين وآخر — ما صعب من شرحه، بما يسهلهُ على القارئ من تفسيري، وما علا من أسلوبه بما يدنيه اليه من تعبيري.

ورسالة الهناء بعد رسالة الغفران شاهدان عدلان، ودليلان باقيان، بل آيتان باهرتان، على ما أسلفه شاعرنا العبقري وفيلسوفنا الألمعي، للأدب العربي، والشباب الجامعي، من صور فكرية، وطرائف بيانية.

﴿ في العيد الألفي ﴾ وهذه حديقة أبي العلاء نزفها الى القراء في عيد مولده الألفي بما تحويه من ثمر جنيٍّ، وغذاء شهي، ينعم بها صفوة الشباب، من طالبي الآداب.

نقدمها أجزاءً وفصولاً، وترجمات وأصولاً:

نترجم النص العلائي الى الأسلوب العصري او نقبسهُ او نشرحهُ، أو نجتزئ بألفاظ تجلو غامضه وتوضحهُ.

---

(١) القرة والعلجوم والهاجة، كلها بعض ما يطلق على الضفدع، وقد نصانا ذلك في كتاب « أصدقاء الربيع » وهو الجزء الأول من « قصص علمية للاطفال »

وفقنا الله إلى استثارة هذا الكنز واستخراج نصوصه وبدائعه، وتنسيق فصوصه وروائعه . وشرح ما استسر من غوامضه وخفاياه، وتجلية ما اشتبه من مقاصده وطواياه، وإسعاد القارئ بما اختص به شاعرنا المحبوب ، وفيلسوفنا الموهوب، من توجيهات فلسفية ونفحات عبقرية ، وإشارات ساحرة ، ولفتات ساخرة، ونقدات باهرة ، ورياض حافلة بنضير الأزهار ، وضاحك النوار ، وناضج الثمار . وعوالم زاخرة بفنون الحياة ، ناطقة شخوصها بأروع ما يتخيله الفكر ويتمناه .

﴿ أسلوب المعري ﴾ وقد سلكت في حديقة « أبي العلاء » ، ما سلكته في « رسالة الهناء» ، فترجمت — في هذه وتلك — إلى أساليبنا العصرية ، جمهرة من بدائعه الفكرية ، اخترتها من «سقط الزند» و « ملقى السبيل » و«ديوان اللزوميات » و« رسالة الغفران » وكتاب « الفصول والغايات » ، وما إليها من أثبات كتبه ، ونفائس أدبه .

وأسلوب شاعرنا — كما يعرفه رواده ومريدوه — أشبه بالغابة منه بالحديقة ، وبالجبل الشامخ ، منه بالسهل المنبسط الفسيح .

فهو يسلس لقارئه حيناً ، ويتوعر أحياناً ، وتفصح ألفاظه عن خفاياه مرة ، وتغمض على الأكياس — مرات — فلا تسلس لهم عناناً ، وتشتبه أغراضه — كما رأيت — فيقتضي فهمها شارحاً وترجماناً .

فلا غرو إذا نسقت إلى جانب تلك الغابة العلائيــة المشتبكة الأصول والألفاف[١] ، المتوشجة[٢] المسالك والأهداف ، المتباعدة الحدود والأطراف : حديقة[٣] حالية ، قطوفها دانية ، واضحة معالمها ، بينة مراسمها .

وأسلوب شاعرنا كالذهب ، ولا غرو في ذلك ، فهو يتوخى — إلى إبداعه الفني — نصرة الحق ، وفي الحق من الذهب — كما يقول — ثلاث خلال : ثقله ، ولونه ، وبقاؤه على الأبد بغير تغيير .

وقد أضفنا — بما ترجمناه وقبسناه وشرحناه — إلى ما يحتويه المنجم العلائي من حر ذهبه الأصفر قليلاً من النحاس الأحمر، ليصبح كالعملة الذهبية الحديثة أقرب إلى التداول وأدنى إلى التناول . فالنحاس — كما يعلم القارئ — يخالط الجنيه الذهبي فيضفي على صفرته شيئاً من حمرته ،فيكتسب سناه — من عنصريهما — سحره وفتونه، ويستمد صوته — من معدنيهما — جرسه ورنينه، ويستجد إشراقه — من لونيهما — ما يختال به من نضرة وزينة.

(١) الالفاف : الاشجار يلتف بعضها ببعض (٢) المتوشجة : المشتبكة
(٣) انظر صفحة ٥٢ من « حديقة أبي العلاء »

وأسلوب شاعرنا كالصهباء المعتقة، فلا غرو إذا مزجناها بقليل من الماء ليخفف من سورتها[(١)] على محتسيها، ويلطف من نشوتها على شاربيها، فما أندر من يطيق احتساء المعتقة صرفاً، وليس كلُّ قارئ — فيما نرى — حليفاً للنصوص القديمة وإلفاً، وقلما تطيق المعدة الطعام إذا أفرط في اللذاذة والدسم، وربما انقلب — لفرط لذاذته، أو دسامته — زعافاً من السم.

﴿ ترجمات ونصوص ﴾ على أننا عُنينا بإثبات الترجمة المستخلصة من النصوص، واللآلئ المقتبس من الفصوص، وجعلنا — من الترجمة والأصل — حديقة وغابة، ليقضي من شاء من إحداهما — أو كلتيهما — آرابه. فإن كانت الغابة أروع، فإنّ الحديقة أروحُ وللغابة دروب ومسالك، وفيها إلى ذلك ظلمات حوالك، ولا بدّ لمخترقيها من دُربة ومهارة، وجُرأة وجسارة، والحديقة — بعد — أيسر مطافاً، وأدنى قطافاً.

وإذا كانت للغابة أدلاؤها وروائدها، فللحديقة أصفياؤها ومريدوها، والناس — كما يقول شاعرنا — أخياف[(٢)] والطبائع ألوان وأصناف: هذا يبذل للمصاعب جهده ولا يدخر وسعهُ، وذاك أخو نزهة ومتعة.

هذا مولع بارتياد فسيح السهول المنبسطة وما يكتنفها من تلال، وذاك مغرًى بتسنم عالي القمم من شم الجبال، أحدهما يؤثر السلامة على النضال، ويقنع بصيد الأرنب أو الغزال، والآخر يهدف لتذليل ما صعب من المحال، ولا يرضى بما دون اقتناص الأسد الرئبال، ولكل وجهته[(٣)] وطريقته، ومذهبهُ ونزعتهُ، وكلاهما مستفيدٌ، ولخيره مريدٌ.

﴿ كأسان ﴾ وإن رواد الأدب العلائي ومريدي بيانهِ، وعشاق إبداعهِ وافتنانهِ. ليؤثرون أسلوبه — كما أوثره — خالصاً أصيلاً، ويُفتنون بغابته الرائعة — كما أُفتن — فلا يرتضون بها بديلاً.

وقد عرضنا — من الخمر العلائية — لونين. وقدَّمنا — من معتَّق صهبائها — كأسين. فمن شاء فليشرب مشعشعة ومن شاء فلينعم بها صرفاً، ومن أراد فليشرب كأساً واحدة ومن أطاق فليشرب ألفاً.

---

(١) السورة: الحدة، وقد سار الشراب، يسور، سوراً، وسورة، إذا أخذ الرأس.

(٢) الاخياف: الضروب المختلفة في الاخلاق والاشكال، والاخياف — من الناس — الذين أمهم واحدة، وآباؤهم شتى، يقال: «الناس أخياف»، أي لا يستوون. ويقال: إخوة أخياف، وهم الذين تختلف آباؤهم، وأمهم واحدة: ومنه قيل: «الناس أخياف» أي مختلفون. قال أبو العلاء في لزومياته:

«يريدُ خلٍ خليلاً كي يوافقه ... في الطبع، هيهات: إن الناس أخياف
لولا التخالف لم تركض لغارتها ... خيل، ولم تقن أرماح وأسياف»

(٣) وجهة الانسان: كل مكان يستقبله.

عمر الخيام كما أعرفه

– ٦ –

لمحمود المنجوري

اهتمّ الانجليز بالرباعيات ، فأقبل الأدباء والشعراء على ترجمتها وشرحها ، ومن أدق الترجمات ترجمة ونفلد Whinfield سنة ١٨٨٣ في ٥٠٨ رباعية ومعها المتن الفارسي ، وترجمة جون باين Jone Payne في ١٥٨ رباعية ، وتوجد تراجم أخرى ودراسات مختلفة بلغت المائتين بين شرح ونقد وترجمة . وقد ترجمها الى الفرنسية ، غير المسيو نقولا ، المستشرق ن. هنري . وترجمها الى الالمانية المستشرق بودنستيد Bodenstedt . ويقول العلماء الانجليز إنها من أدق الترجمات التي ظهرت في المكتبة العمرية وأوثقها ، وقام غير واحد من علماء الألمان بدراسات مختلفة في نواحي الخيام من شعر وفلسفة وعقائد وفلك ورياضة .

ولقد عثر الدكتور فردريخ روزن سنة ١٩٢١ على نسخة قديمة للرباعيات ، ضمت ٣٢٩ رباعية ، يرجع تاريخها الى سنة ٧٢١ هـ . ولقد وصفها الدكتور روزن بأنها قد تكون نسخة مطابقة لنسخة مفقودة كتبت سنة ٧٢١ هـ ، وذلك لان خطها وورقها على شيء من الجدة والرونق لا يتفق وقدم التاريخ المكتوب عليها ، ولقد نشر الدكتور روزن هذه النسخة سنة ١٩٢٢ بمقدمة قال فيها إنه قد وصل إليه من المحقق الفارسي الشيخ ميرزا محمد قزويني أمين المخطوطات الفارسية في الخزانة الاهلية بباريس صورة من مجموعة فيها ١٣ رباعية وجدت بين مجموعات أخرى في كتاب مؤنس الأحرار تاريخه ٧٤١ هـ ، ولقد أكّد الشيخ ميرزا أن مجموعة روزن هي أقدم مجموعة لرباعيات عمر الخيام لأنها تسبق نسخة أوزلي بثلاث وعشرين ومائة سنة . وترجمها الى اللغة التركية المعلم فيضي ، ثم نقلها بعده الأديب الشاعر مستجابي زاده عصمت ، ثم عبد الله بك جودت وهي ترجمة مشهورة ذائعة . ثم تناول الخيام الفيلسوف الشاعر الكبير رضا توفيق بك مع الاستاذ حسين دانش بالدرس والتحليل والترجمة ، ثم نهض من الشباب التركي الشاعر رفعت بك أحمد ، فترجم أربعين رباعية ، وترجم الاستاذ حسين رفعت بك ١٥٨ رباعية ، كما ترجمها إلى التركية الشاعر اللغوي المرحوم نور الدين بك مصطفى في مخطوط مودع مكتبته بمدينة حلوان ، ولم يطبع بعد ، وقد اطلعت عليه

أما دراسات الخيام فيبدو الاهتمام بها في مئات الكتب والمباحث التي تناولته في نواحيه المختلفة ، وإنا لنذكر بعض المستشرقين الذين توفروا على هذه الدراسات :

(١) المستشرق الروسي ززوكفسكي ، حقق الرباعيات واستقرّ رأيه على أن ٨٢ رباعية

ليست للخيام بل هي منسوبة اليه، وعرض ـ في دراسة ـ موازنة بين أساليبها وأخيلتها ومناهجها وبين أساليب بعض شعراء الفرس، وقال إن هذه الرباعيات المنتحلة إنما هي لتسعة وثلاثين شاعراً فارسيًّا، أمثال عبد الله الانصاري وأبي سعيد بن أبي الخير، والأنوري، والعسجدي، والعطار، والفردوسي، وجلال الدين رومي، ونصير الدين الطوسي، وحافظ الشيرازي.

(٢) ف. وبك F. Webek نشر كتاب الجبر لعمر الخيام وترجمه سنة ١٨٥١ في باريس.

(٣) م. كويل M. Quel نشر بحوثاً قيمة بمجلة كلكتا سنة ١٨٥٨ بلندن

(٤) ج نيقولا ترجم رباعيات الخيام نثراً الى الفرنسية عن نسخة طهران في ٤٦٤ رباعية سنة ١٨٨٧ بباريس.

(٥) ن. دول، ترجم رباعيات الخيام سنة ١٨٩٨ بلندن.

(٦) هـ. الين » » » » » »

(٧) ا. براون، له مباحث نشرها بمجلة الجمعية الملكية الاسيوية ١٨٩٩ بلندن.

(٨) د. رس » » » » » » ١٨٩٨ بلندن ومقدمة كتاب رباعيات عمر الخيام للمستشرق هـ باتسن. لندن ١٩٠٠.

(٩) ج. مارتولد، رباعيات الخيام سنة ١٩١٠ باريس.

(١٠) روزن، نشر مخطوطته التي يرجع تاريخها الى سنة ٧٢١هـ في ٣٢٩ رباعية ببرلين سنة ١٩٢١

(١١) ا. روتفلد، عمر الخيام وتحقيق ميلاده وعصره سنة ١٩٢٢ لندن.

(١٢) ت. وير، مقالات في الشاعر عمر الخيام سنة ١٩٢٦ لندن.

(١٣) كريستنس. رباعيات عمر الخيام، تحقيق في صحة الرباعيات، وقد استقرَّ رأيه على أن ١٢٠ رباعية هي التي للخيام، وقد دارت دراسته في مجموعات مختلفة اشتمل بعضها على ٢٩ رباعية واشتمل البعض الآخر على ٨٠٠ رباعية في عهود تقع بين سنتي ٧٢١ هـ و١١٩٥ هـ. وقد طبعت هذه البحوث القيمة سنة ١٩٢٧ بمدينة كوبنهاجن.

(١٤) ب. سالي، عمر الخيام عالم وفيلسوف، سنة ١٩٢٧ بباريس.

(١٥) د. رس، مجلة مدرسة المباحث الشرقية سنة ١٩٢٧ لندن.

(١٦) فردريخ روزن، رباعيات عمر الخيام، لندن سنة ١٩٣٠.

(١٧) مجلة لندن المصورة، مخطوط لرباعيات الخيام، مايو سنة ١٩٣٠.

(١٨) المستشرق الأستاذ وبل مدير المباحث الشرقية في خزانة برلين، عثر في خزانة برلين على كتاب منثور لعمر الخيام اسمهُ (نَوْرُوز نامه) أي (رسالة النَّوْرُوز) وجدها ضمن مجموعة لستة كتب مكتوبة في سنة ٧٦٨ هـ. وتقع رسالة الخيام هذه في ٥٤ صفحة تناول

فيها مباحث مختلفة ، كعيد النـوروز وتاريخ فارس ، وبعض فنون الصيد ، وعلم المعادن ، والخمر ، والأدب والجمال . وقد ذكر الأستاذ أحمد رامي في مقدمة ترجمته للرباعيات انهُ تحقق من إسناد هذه الرسالة إلى عمر، لأن سائر الرسائل التي احتواها الكتاب لمؤلفين عاشوا في عصر الخيام ، وأن كثيراً مما جاء في فقراته يشابه اتجاه الرباعيات فيما خصَّ الخمر والحب والجمال . ولم يذكر الأستاذ رامي أسماء هؤلاء المؤلفين الذين عاصروا الخيام ، ولم يقدم لنا نموذجاً من هذا الكتاب النادر ، وقد حاولنا البحث في القاهرة وفي خزائن البلاد الشرقية عن نسخة لهذا الكتاب فلم نوفَّق للآن . ولقد أشار الأستاذ رامي إلى لقطة أخرى عثر عليها في سنة ١٩٣٠ وهي مخطوط مصور لرباعيات الخيام بخط أحد سكان مشهد سنة ٩١١ هـ اشتراه الأستاذ نجيب أشرف وأهداه إلى خزانة بتنا بالهند وفيه ٢٠٦ رباعية مكتوبة بخط جميل وفيه من الصور البديعة ما يجعله طرفة فارسية نادرة . ولا شك في أنه يتعين علينا إضافة هذه التحفة إلى قائمة المخطوطات التي وصلت الينا حتى الآن ، وهي :

(١) نسخة روزن ببرلين ، وبها ٣٢٩ رباعية سنة ٧٢١ هـ
(٢) نسخة كوركيان، وبها ١٣ رباعية سنة ٧٤١ هـ وهي التي حققها الأستاذ ميرزا قزويني
(٣) نسخة بودليان بأكسفورد ، وبها ١٥٨ رباعية سنة ٨٦٥ هـ
(٤) نسخة الخزانة الأهلية بباريس ، وبها ٢١٣ رباعية سنة ٩٠٢ هـ
(٥) نسخة الخزانة الأهلية بباريس ، وبها ٣٤٩ رباعية سنة ٩٣٤ هـ
(٦) نسخة المتحف البريطاني بلندن ، وبها ٢٦٩ رباعية سنة ٩٧٧ هـ
(٧) نسخة المتحف البريطاني بلندن ، وبها ٥٤٥ رباعية سنة ١٠٣٣ هـ
(٨) نسخة خزانة برلين ، وبها ٢٣٨ رباعية سنة ١٠٥٨ هـ
(٩) نسخة جامعة كمبردج ، وبها ٨٠١ رباعية سنة ١١٩٥ هـ
(١٠) مخطوطة خزانة الجمعية الاسيوية بالبنجال ، لم نتمكن من تعيين تاريخها، ولكنها طبعت في كلكتة سنة ١٨٣٦ ، وهذه المخطوطة هي التي أرسل صورة منها مستر كاول إلى صديقه فتزجرالد سنة ١٨٣٧ م للاستعانة بها على الترجمة [1] وهي تحتوي ٤٩٢ رباعية
(١١) مخطوطة طهران التي نقل عنها مسيو نقولا ترجمته النثرية سنة ١٨٦٧ م ولم نتمكن من تحديد تاريخها ، وهي تحوي ٤٦٤ رباعية
(١٢) مخطوطة تبريز ، طبعت سنة ١٨٦٨ م وتحتوي ٤٥٣ رباعية
(١٣) مخطوطة لكناو ، طبعت سنة ١٨٩٤ م في ٧٧٠ رباعية

(١) رس ص ٨٣ ، مقدمة رباعيات الخيام ، لندن ١٩٠٠

التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى

بشر فارس

المشتمل

*

١ - الكتب

• أقاصيص •

١٣ × ١٨½ سم ١٨٠ ص لجنة النشر للجامعيين القاهرة ١٩٤٤

إنّ المجموعات القصصية نادرة عندنا ، لأن فن القصة جديد على الأدب العربي . ونحن لا نذكر منها غير كتاب « موكب الحياة » الذي نشرته «المقتطف» سنة ١٩٤٢ . أما مجموعة « أقاصيص » فقد اقتصرت على أدباء مصر . وقد أحسنت لجنة النشر للجامعيين صنعاً حين جمعت في كتاب واحد أقاصيص لكتاب تتباين مناهلهم بحيث يستطيع القارئ أن يتبين مختلف الأساليب التي يجري عليها بعض القُصاص عندنا ، وشتى الأفكار التي يتداولها كل واحد منهم ، والمواهب التي يتميز بها والوسائل التي يتناول بها فنه .

ضمت هذه المجموعة اثنتي عشرة أقصوصة لتسعة قصاصين مصريين .

والأقصوصة الأولى بقلم الاستاذ إبرهيم عبد القادر المازني بعنوان « على الهامش » ولا شك ان أسلوب الاستاذ المازني المتدفق في استرساله ، القوي في بيانه ، ضمين لحسن الاداء ، ولطف الوصف والتمثيل ، ومداورة الحديث في رشاقة ، والتعبير في سهولة عما يريد الافصاح عنهُ من خلجات النفس واضطرابات القلب .

تناول الاستاذ المازني في اقصوصته بعض مشكلات الأسرة حين تنصرف الزوجة الى العناية بمنزلها في طواعية ولين ، مهملة شؤونها الخاصة من زينة وأناقة . يلقى الزوج فتاة تمثل في عينيه الجمال الذي يصبو اليه والزينة التي يرغب فيها فلا يلقاها في منزله . وقد كان الاستاذ المازني لبقاً في معالجة هذا الموضوع ذي الخطر الاجتماعي والاخلاقي ، كما كان لبقاً في تمثيل أشخاص الاقصوصة . ولكن طريقة سرد هذه الحوادث وما تخللها من تقلبات جعلاها أقرب الى نوع القصة المتوسطة في الحجم (نوڤيل) منها الى الاقصوصة .

وللاستاذ محمود تيمور قصتان هما : « البديل » و « موعد » نجد فيهما ما قد ألفناه في أسلوب القاص الأديب : مزيج متوازن بين الواقعية والوجدانية في الموضوع ، ودراية ببناء الأقصوصة وحبك حوادثها ، الى سلاسة في الاسلوب ووضوح في أخلاق الاشخاص . وكثيراً ما يرمي الاستاذ تيمور الى تصوير العواطف من حيث لا يشعر القارئ ، كما فعل في أقصوصة البديل التي شاء أن يصور فيها عاطفة الامومة وما لها من الحرمة في النفوس .

وتشبه أقصوصة « نداء البحر » ، وهي بقلم الاستاذ ابراهيم المصري ، أقصوصة « على

الهامش » في موضوعها . فقد عرض الكاتبان لمشكلة واحدة هي النضال في حياة الأسرة بين القديم والجديد ، وقد انتهيا ، أي الأستاذان المازني والمصري ، إلى حل واحد وهو أنه من الخير للمرأة ان تتطور وتتمشى مع آراء العصر لكي تستطيع الاحتفاظ بزوجها أو خطيبها. ونجد في « نداء البحر » صورة من الحياة المصرية على طريقة الأستاذ المصري : معارضة بين الماضي والحاضر ، بين الغرائز والتقاليد ، كثيراً ما يتصادم فيها الواقع والخيال .

وقد هاجم الدكتور سعيد عبده النساء في ادارة شؤون البيت ، وهي مهاجمة فيها الكثير من الدعابة والتهكم .

وجلا الأستاذ صلاح الدين ذهني صورة من الريف المصري يتخللها جمال مناظره وبهاء حقوله وهدوء حياته وبساطة فلاحيه . وقد طالعنا من قبل للأستاذ صلاح الدين مثل هذه الأقصوصة التي تحمل طابع الريف وتصف مشاهده وعاداته وتقاليده وأخلاقه .

وقد تفردت أقصوصه «ضباب ورماد» دون غيرها من أقاصيص المجموعة بأنها كتبت على طريقة رمزية . وقد شاء مؤلفها الأستاذ عادل كامل أن يصف فيها حالة العالم وانعكاسه على نفسه فحشر شتى الصور ليرمز إلى حالة الحرب القائمة ، ثم مثل الحياة في شكل فتاة أحبها فخضع لها حيناً ، وسعد بها حيناً آخر ، ثم غادرته فجأة على غير موعد . وقد أصاب الكاتب الأديب بعض التوفيق في خلق الجو الرمزي لأقصوصته ، ولكنهُ لم يبلغ مثل هذا التوفيق في الصور التي رسم الكثير منها على طريقة مذهب ما وراء الواقع لأنهُ لم يستطع أن يثير لها في نفس القارئ صدى يؤلف بينهُ وبين القارئ . والصور هي انعكاس العالم الخارجي على نفس الانسان . ومهمة الأديب أن يعبر عن هذا الانعكاس بالأسلوب الذي يجده خير وسيلة لخلق الصدى الذي ذكرناه في نفس قارئه . وقد شاء الأستاذ عادل كامل أن يدل في قصته على ان مظاهر العالم الخارجي موجودة في نفسه ، ولكنه لم يوفق تماماً للتعبير عن هذا المعنى بالصور التي اختارها فاضطر إلى الافصاح بعد أن حاول الاكتفاء بالرمز .

على أننا نود أن نشير إلى أن هذه المآخذ التي ذكرناها لا تنقص من فضل الأديب الشاب الذي شاء أن ينهج نهجاً لم يسبقه اليه في الأدب العربي الحديث إلاَّ أفراد ، ويكاد الناجحون منهم يُعدون على أصابع اليد ، نذكر في طليعتهم صاحب « مفرق الطريق » و« سوء تفاهم » .

أما الأقاصيص الأخرى فهي « شهرزاد » بقلم الأستاذ محمد فتحي أبو الفضل ، وأقصوصتا « مائة جنيه » و « عودة سنوهي » بقلم الأستاذ نجيب محفوظ ، وأقصوصتا « الغاية تبرر الواسطة » و « حلم آثم » بقلم الأستاذ عبدالحميد جودة السحار . وهذه أول مرة أحظى فيها بمطالعة أقاصيص بقلم هؤلاء الأدباء .

وإذا كان من الصعب الحكم على كاتب من خلال أقصوصة واحدة أو أقصوصتين فاننا نلاحظ في ما طالعناه لهم في هذه المجموعة مواهب في التأليف القصصي ومعرفة بحسن البناء وتسيير الحوادث ووصف مختلف الأحاسيس ، ولكنه يعوزها الكثير من العمق والاتساع في هذا الوصف الذي ذكرناه . ففي « شهرزاد » وصف للشباب حين يلهو ، وحين يشتاق ويرغب ، وحين يحزن ويزهد . وفي « مائة جنيه » موازنة مؤلمة بين ضعة نفس نجدها في الأغنياء البخلاء وعلو نفس نشهدها في الفقراء المستقيمين . وفي « الغاية تبرر الواسطة » نجد صورة للحياة اليومية تحاك حولها حادثة زواج.

وجملة القول أن القارئ يجد في كل واحدة من هذه الأقاصيص التي أشرنا اليها فكرة تسيّر القصة وإحساساً يدبرها .

الاسكندرية

صبري شيبوب

• بشار بن برد • بقلم ابرهيم عبد القادر المازني

١٣½ × ١٩ سم ١٣٢ ص لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية القاهرة ١٩٤٤

على الناقد أن يتلقى الكتاب الخارج الى الناس على النحو الذي قصد صاحبه إليه ، فليس يحسن به أن يرقب ما ترف إليه نفسه ويرضى به ذوقه ، فيتشبث بما دار لمخيلته وقام في وهمه . يتلقى الكتاب على وجهته وغايته فينظر ما يكون قدر الوجهة وما يكون خطر الغاية ، ثم يتبصر مدى بلوغ هذه بفضل تلك

فلقد كان في وسع المؤلف أن يسترسل في سيرة بشَّار فيدفع إلينا قصة شاعر زخرت حياته بالنوادر والطرائف وغصَّ عهده بالفتن في جانب السياسة والدين والاجتماع . ولو كان صنع لجاء الكتاب نابضاً ، ذلك أن بالمازني حذقاً لسرد القصص . إلاَّ أنه مال عن فن الاسترسال، وإن كان ممن يحكمه ، فطرق باب النقد الصريح . دخله متحلياً بصفتين ، لا أجد بدّاً من التنويه بهما ، وبخاصة في زمن كادت مقاييس النطق تضيع فيه أو تسقط بين أيدي فريق من الكتبة المقتحمين والمرتجلين .

أعرض المازني عن آراء من سبقه في شعر بشار وأسقط موازينهم وأهمل أقوالهم ، فنظر بعين البصير الذي تصفح آداب الفرنجة فضلاً عن آداب العرب ، وهو يذكر أنه ابن المئات العشرين لا المائة الثامنة أو التاسعة — هذه صفة . والصفة الأخرى رفعُ المازني عمود الشعر فوق الأغراض الدنيوية، ثم غضبه لجلال الفن من جهة وعزة الانسان من جهة . فالي هاتين

الصفحتين تَرِد أقوال له في بشار ، وهي أقوال فيها إقدام وفيها علاء : ودونك مثلاً : «ولعل الأشبه بالصواب أن نقول إن معاني بشار — ومعظمها وسط — كثيرة في كلام من سبقوه ومن جاءوا بعده ، وهي ليست من البراعة أو العمق بحيث لا يعقل أن تخطر على البال . واذا ذكرت ان كل شاعر كان يحفظ كلام من سبقوه ويحرص على الاحاطة به فانك خليق أن لا تستغرب هذا التشابه الكثير بين معاني المتقدمين والمتأخرين » ص ١١٥ . تلك غمزة لأسلوب شعراء العرب في الأخذ والاقتباس والمحاكاة والمعارضة ، وهي غمزة حقّة — ثم قوله : «إن القليل الباقي ... من شعره ... لا يكفي للقول بأنهُ زعيم الشعراء المحدثين ، فان هذه دعوى عريضة لا تقبل بغير دليل » ص ١٦ . ثم قوله : « فلم تكن مزية بشار سموّ المعنى وقوة الخيال أو صدق العاطفة أو اخلاص السريرة أو نفاذ البصيرة ، وإنما كانت قدرته على الأداء الجيد . . . فهو مشغول أبداً بمطالب الجسد وشهوات البدن ، وبعيد جداً أن يكون ذو الطبيعة الحيوانية ممن تستغرقه العاطفة أو تستولي عليه الفكرة ، ولهذا لم يرتق في شعره قط إلى عليا مراتب الفن » ص ١١٢ : فهذه ثورة يثورها ابن المئات العشرين على أحكام الأصمعي وأبي عبيدة والجاحظ وغيرهم ، وبصرهُ بالفن أعلى عندي وأسلم ، وعلمه بـ « سلم القيم الانسانية » أوفر وأشرف .

ولعلّ وراء تلك الثورة غضبَ المازني على بشار لانهُ يحط من جلال الفن ويغض من عزة الانسان بالهجاء الذي آثره ووقف له ملكته. يقول المازني :«واذا كان لم يجيء في الهجاء بشيءٍ من البراعات فلاعجب ، فما كان الهجاء عنده إلا زجراً وتخويفاً . وأكثره فحش لاسرافه في البذاءة التي تشبه بذاءة العامة والسوقة والسفلة ، ولم تكن سلاطته مظهر قوة ، بل آية ضعف وعجز . . . وكان في أبي معاذ جبن وذلة » ص ١١٢ ، ١١٣ ، ٣٢ .

إني ليبدو لي أن المازني — وأنا بخلقهِ عارف — يمج بشاراً « لأنه كان اتخذ الهجاء تجارة ، وجعل منهُ وسيلة للابتزاز مخافة التشهير Blackmail فكرهه الناس جميعاً »ص ٥٢ من أجل ذلك كرهه المازني أيضاً . والحق أن الهجاء صار من مخزيات أدبنا لما خرج عن غرضه الأول، وقد كانْ لوناً من ألوان العقاب الاجتماعي ينزله الشاعر باسم القبيلة على من ذلّت ساحته وركّ عرضه ، أو ضرباً من ضروب الكهانة أو ما يقارب الكهانة يعمد اليه الناظم في الدعاء على العدو (راجع ما سطرتـه في ذيل دائرة المعارف الاسلامية ، ط هولندة ، مادة هجاء) . انحط الهجاء عن هذا الجانب المنزّه عن الفردية والمادية وأمسى أسلوباً من أساليب اللئام . تلك مسبّة . ومما يورث الحزن أن هذا الهجاء الساقط المرذول أثر في الأدب العربي كله شعره ونثره ، حتى إنك لتجد من لا ينفكّ يلجأ اليه وفي متوهّمه

أنه ذو هولة وذو صولة ، والتحقيق أنه سفيه عاجز .

وكأني بالمؤلف الغاضب على السفيه العاجز أحسّ عند خاتمة كتابه أنه ظلم بشاراً وبالغ في التجني عليه ، فانبرى يلتمس له المعاذير ، فوصف الاضطراب الذي كانت تعانيه الملّة في أيام بشار وألمع إلى ما ذاع في بعض الأقطار من مبادئ الإباحة ومذاهب الإلحاد إلى فتن سياسية ودينية لفّت بشاراً في تيارها فسوّلت له المجون والزندقة وزينت التجرؤ والتمرد .

أجل إن المازني — بفضل الليانة التي في حاشيته والعذوبة التي في لسانه — ما استطاع أن يحب بشاراً وأن يحببهُ إلى قارئه ، فبدا حكمه قاسياً وجاء غضبه في صورة ظلم . ولعلّ المازني في كل ذلك غلّب طبعه على فكره وأقام السماحة التي في عوده مقياساً ينصبه لعجم صاحبه — بل عدوه — بشار . قد يكون تجنى عليه — ولا سيما إن شعر بشار لم يقع إلينا منهُ إلاّ اليسير — ولكنهُ تطلّب الصدق الذي أصبحنا ننشده في الأدب، وترسّم السموّ الذي نعدّه اليومَ جوهر الشعر .

* * *

ولم يرسل المازني حكمه إرسالاً . هو يعرف كيف يتدبر الشعر ويتصفح الخبر ليستشف روح الشاعر . اقرأ الفصل الذي كتبه في ذهاب حاسة البصر وما يولد ذلك في النفس والملكة (ص ٢٦ وما يليها) ، والفصل الذي استخلص فيهِ جبن بشار وعجزه (ص ٣٤ وما يليها) ، ثم الفصل الذي توصل فيهِ إلى أن بشاراً أميل إلى انتهاب العيش منهُ إلى التأمل، وأرع في وزن الخسارة والربح منه في إيثار مروءة أو رعاية أدب (ص ٥٥ وما يليها) . في تلك الفصول نفاذ، كما أن في غيرها دقة (ص ١٠٤ مثلاً، عند الكلام في سقوط الهجاء على يد بشار) . وكان في الود أن نصيب هذا النفاذ وتلك الدقة أيضاً في فصلين اختصر المؤلف أحدها وهوّن الآخر . أما الفصل المختصر فهو الذي عرض فيه المؤلف حالة البصرة في أيام بشار خاصة ، فالحديث هنا يطول ومن مستطرَداته الواجبة ما وقع بين بشار والمعتزلة ، وحقُّ هذا الفصل أن يقع في صدر الكتاب لا في ذيله . وأما الفصل الذي هُوّن فموضوعه زندقة بشار . ومجمل رأي المؤلف أن « تهمة الزندقة إنما جاءته ولصقت به من طول لسانه على الأكثر دون فعله » ص ٥١ . وأكبر الظن أن المؤلف لم يذهب في تعرف حقيقة الزندقة في العهد الأول أيام كان « العارف » يتعقب الزنادقة بأمر الخليفة ، فقتل فيمن قتل بشار وابن عبد القدوس . وهذه الزندقة فيها شعوبية وفيها مانوية ومزدكية . ثم صارت الزندقة إلى معانٍ أخر ، منها الالحاد أو « حرية الفكر » وهو المعنى الذي اقتصر عليه المؤلف (راجع مفاتيح العلوم ، ودائرة المعارف الاسلامية ، ط هولندة ، مادة زنديق ،

و Browne التاريخ الأدبي لفارس ج ١ ص ١٥٩ — ١٦٠) . وفي زندقة بشار ونعتها كتب Nicholson في التاريخ الأدبي للعرب ص ٣٧٢ ، وفليب حتّي في تاريخ العرب (بالانجليزية) ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ . هذا ومن قبلُ سلك صاحب رسالة الغفران بشاراً في الزنادقة وسلكه أيضاً ابن النديم في الفهرست .

...

وفي المازني فطنة للشعر يقظة ، يدل عليها اختياره لقصيدتين أنزلهما منزلة الروائع احداها لبشار ومطلعها : قد لامني في خليلتي عمرُ ، والاخرى لابن الرومي وهي في رثاء وحيد المغنية ، ولا اعرف في أدبنا قصيدة تطاولها — وقد رأى الاستاذ الناقد أن يوازن بينهما ليميز الوحي الحسي من الوحي المعنوي . وهو في اختياره وموازنته أحسن . وكذلك كان شأنه في الموازنة التي عقدها بين أبي العلاء وبشار . غير أني كنت أرتقب من جانب المازني أن يبين قدرة بشار على الاستحداث في التصوير وتلك القصيدة بين يديه ، كذلك كنت أرتقب أن يذهب في الفحص عن طرائق بشار في التشبيه ، والبحث عن خصائصه في التعبير ، وهذه وتلك من نفائس بشار وعقائله . في ذلك استيفاء للدرس . هل أعجله موعد مضروب عن الذهاب ، هل حبست قريحته قلة الأوراق ؟

بقي أن المؤلف ذكر في فاتحة كتابه المراجع التي اعتمدها ، فأحسن في ذلك ، ولعل هذا يرشد غيره . فهل لي أن اجعل بين يدي المؤلف غيرها على ضالتها ، فضلاً عما دونته قبل — والمعلوم ان أخبار بشار وأشعاره تتناثر في الكثير الأكثر من أسفار الأدب والتاريخ مما يفوت الاحصاء — : الشعر والشعراء لابن قتيبة ، القاهرة ١٣٥٠ ، ص ٢٩١ — ٢٩٣ . معجم الشعراء للمرزباني ، القاهرة ١٣٥٤ ، ص ٤١٦ . رغبة الآمل من كتاب الكامل للمرصفي ، القاهرة ١٣٤٨ ج ٧ ص ١١ — ١٣ ، ٥٨ . الامتاع والمؤانسة للتوحيدي ، القاهرة ١٩٤٢ ج ٢ ص ١٨٠ — ١٨١ ، ج ٣ ص ٣١ . البديع لابن المعتز ، انجلترة ١٩٣٥ ، ص ١ ، ١٩ ، ٤٣ ، ٥٠

...

وبعدُ فقد كتب الأستاذ المازني : « فان كنتُ أصبت فوفقت فيها ولله الحمد . وإلاّ فانني مستعد أن أتدارك النقص أو الخطأ متى تيسرت اعادة الطبع إذا تفضل عليّ القراء بما يقفون عليه من ذلك » (ص ٥).

أقيد هذه الجملة إكباراً لمسطرها ، في عهدٍ قد ورمت فيه الدعوى وانتفش النفج .

بشر فارس

• دراسة الشعراء •

بدأ به المرحوم المرصفي وأكمله ابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي

١٧ × ٢٤ سم ٢٨٦ ص مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٤٤

هو كتاب في دراسة خمسة من الشعراء : امرئ القيس ، والأعشى ، والنابغة الذبياني ، وزهير ، والحطيئة ، بدأه المرحوم الأستاذ محمد حسن نائل المرصفي وأتم منهُ دراسة امرئ القيس والأعشى والنابغة ، وترجمة زهير ، ثم وافاه الأجل ، فتولى الأستاذان الابياري ــ وهو محرر بمجمع فؤاد الأول ــ وشلبي ــ وهو مدرس بالمدارس الأميرية ــ إكماله ، فشرحا معلقة زهير بن أبي سلمى ، وترجما للحطيئة ، وساقا مختارات من شعره .

تلقى المرحوم المرصفي علومه في الأزهر ، وكان زميلاً للدكتور طه حسين ، وصديقاً له لا يفارقهُ حتى كأنهما المعنيان بقول الشاعر :

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتفرقا
فلما تفرقنا ، كأني ومالكاً لطول افتراق لم نبت ليلة معا

وكان شيخه في الأدب أيام الطلب المرحوم الشيخ سيد المرصفي العالم الأديب المشهور فاستفاد منه دقة وقدرة على تفتيش الكلام وإحسان النظر فيه ، ونفعته صحبته لطه فاتسع أفقه ، واستطاع أن ينظر في الأدب القديم من الناحية التي هي أضوأ له ، وكانت فيه حذاقة ولوذعية وبصر .

وترك الأزهر ، كما تركه طه ، قبل أن يستوفي حظه من علومه ، ويظهر أنهُ ضاق صدراً بأسلوب التعليم في الأزهر ، وكان ذا يسار فلم يضره ذلك ولم يشق عليه ، غير أنهُ أبى القعود والكسل ، فتولى تدريس اللغة العربية في مدرسة الفرير ، وأصدر طبعة أنيقة بالشكل الكامل والصور لكليلة ودمنة ، ثم نفض يده من التعليم ، وتولى إدارة جريدة السياسة زمناً طويلاً ، وفي آخر عهده بها ، أصدر مجلته الشهيرة « الجديد » على غرار حديث من حيث الشكل والموضوع ، ثم أردفها بأختها « شهرزاد » وقصرها على القصة ، فكانت أول مجلة في بابها تصدر في مصر .

وعكف في أثناء ذلك على « دراسة الشعراء » فكان في فترات الراحة وخلو الذرع يقرأ ويكتب ، فأتم ، كما أسلفنا ، امرأ القيس والأعشى والنابغة وترجمة زهير ، وشرع في الطبع قبل أن ينتهي من الكتاب ، ولكنه مرض وثقلت عليه العلة ، ثم وافاه الحين ، فظلت

الملازم المطبوعة مهملة لا يدري بها أحد ، حتى تذكر السيد مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية ما كان يعرفه من أمر هذا الكتاب فاستنقذه واستعان الأستاذين الابياري وشلبي على إتمامه ، ففعلا وتوخيا ، ما استطاعا ، منهج المرحوم المرصفي في البحث .

ولكن الغريب أنهما فاتهما أن يقولا كلمة في المرصفي ، فلست ترى أكثر من اسمه على الكتاب ، وكان في وسعهما أن ينصفاه — لولا السهو — بنبذة وجيزة تعرف القراء به ، وتخرجه من هذه الظلمة ، فقد كان رحمه الله على نشاطه وكثرة دخوله في الأمور العامة ، وطيب مخالطته للناس ، جم التواضع يؤثر الانزواء ، وينفر من الظهور ، ويأنف أن تأخذه خفة من الزهو ، فجنى عليه هذا ، فلما وافاه الأجل لفّ عليه كفنان .

وثم مسألة أخرى : هي أننا لا ندري لماذا آثر الأستاذان الابياري وشلبي الحطيئة خاصة ، وأهملا بقيـة شعراء المعلقات أو المطولات كما تسمى أحيانا ؟ وكان المعقول ، والمنتظر أن يسيرا على الدرب ، فيتناولا بالدرس واحداً آخر - على الأقل - من أصحاب المعلقات إذا كانت أزمة الورق تحول دون ما هو أكثر .

وطريقة المرصفي في البحث هي أن يبدأ باثبات « عناصر الموضوع » أي باجمال لما سيفصله فيما بعد ، ثم يسوق ترجمة الشاعر ويقول ما يعن له في خصائص شعره ، وطبقته ، وأثره ، ثم يتناول معلقته ويصفها قبل أن يشرحها ، بيتاً بيتاً - لفظاً ومعنى .

وهذه الطريقة يشبه أن يكون الغرض منها التيسير على طلاب الأدب ، فإن في الكلام دقة مع الايجاز ، وعناية بجلاء كثير من الغوامض التي يشق بها المبتدئ ، وله الى جانب هذا آراء كثيرة في الادب والنقد ، وتعليل النزعات ، وأثر البيئات المتفاوتة ، والى أي حد يجوز استخلاص اخلاق الشاعر من شعره ، وغير ذلك مما لا يتسع المقام لبسطه .

أما الأستاذان الابياري وشلبي فقد جريا على طريقته في الترجمة وشرح الشعر ، ولكنهما لم يتوسعا كتوسعه في البيان ، وليس لهما مثل ما له من الآراء والأحكام ، وقد اكتفيا من الشرح بتفسير الالفاظ دون معاني الأبيات الا في الندرة القليلة .

وفي الكتاب هنات طفيفة لعلها من اغلاط المطابع ، وهي أوضح من أن تحتاج إلى إشارة .

رحم الله المرصفي . كان على شيء غير قليل من الادب والعلم ، ولكن تواضعه حجب فضله ، وكان رحب الجناب وافر الخير ، وما من أحد من اخوانه الا وللمرصفي عليه فضل من سجايا النفس ومروءة القلب ، فحرام أن يخرج كتابه وليس فيه من ذكره إلا اسمه على غلافه ، ولو كان هذا قبراً لطمعنا أن تخط على صواه كلمتان وسنتان !

ابراهيم عبد القادر المازني

• تراث مصر • The Legacy of Egypt

نشره س . ر . ك . جلنفيل S. R. K. Glanville

$12\frac{1}{2}$ × ١٧ سم ٤٢٤ ص أكسفرد سنة ١٩٤٢

هذا كتاب يحتاج إليه ويستفيد منه العالم في الدراسات المصرية القديمة كما يستفيد منه ويحتاج اليه غير المعنيين بها . ومع أن جل ما فيه من معارف متفرق في بطون الكتب ، فإن جمع شتات هذه المعارف وإبرازها في لوح واحد كفيل بأن يبعث في ذهن القارئ صورة واضحة الأجزاء للتاريخ والحضارة المصرية .

وأصحاب الدراسات القديمة إطلاقاً يجدون فيه نفعاً وعلماً أيضاً . ولو أنهم جميعاً يعرفون أن ظاليس وصولون وفيثاغورث ودمقريطس الأبدري وأفلاطون قد تلقوا كلهم العلم عن كهنة المصريين .

ومما يدعو إلى الأسف حقاً أن يكون الفصل الأول « التقاويم وعلم التأريخ » فاصاً بكثير من سبحات الخيال وسانحات الخاطر ، بدلاً من أن يعنى فيه صاحبه الأستاذ سِول Sewell بالحقائق التي تقوم على صحتها أدلة ثابتة . وإذ ليس هنا مجال استقصاء وجدل ، يكفينا أن نشير إلى قوله إنه في العهد الذي أخضع فيه مينا مصر السفلى كان سكانها يقوّمون الزمان بالسنة الفصلية التي تبدأ بعد خمسة وأربعين يوماً من الاعتدال الخريفي ، وهذا التاريخ في محفوظ عيد « بعل » المسمى عيد « سامحين » ، ولا يزال أثره يجر أذياله في بريطانية . ثم يقول (ص ٧) : « ومن المحقق أن عيد رأس السنة هذا قد أدخله في بريطانية مستعمرو مقاطعة كورنوَل Cornwall الذين نزحوا من حوض البحر المتوسط . وإذن فقد وقفنا على برهان على الصلة العلمية بين مصر وشعوب البحر المتوسط كانت فيما نرى نتيجة للاتصال التجاري »

هذا ومما لا شك فيه أنه لا يوجد على ما نعلم في بريطانية دليل مادي واحد على أنه قد وصل اليها القوم الذين نسميهم الفينيقيين ويسميهم صاحبنا هنا « الكنوسيين » نسبةً إلى « كنوسس » Knossos.

ولندع عالم الفروض ولنولّ وجوهنا شطر عالم الحقائق المقررة التي يعرضها هذا الكتاب أحسن عرضٍ وأجمله . فأظهر ما أورثته مصر العالمَ وأبقاه هو بالطبع التقويم . وقد كان قديماً من ٣٦٥ يوماً ، فصحح فيما بعد فصار $\frac{1}{4}$ ٣٦٥ يوماً ، وهذا نقلهُ يوليس قيصر إلى رومة أخذاً بإشارة أحد علماء الاسكندرية ، ثم نقحه أجسطس ومن بعده البابا

جريجوريُس التاسع سنة ١٥٨٢ وما زال معمولاً بهِ إلى الآن .

وأشاعت مصر في العالم أدانيَّ المعرفة : الحروف الهجائيـة والورق . فقد أوضح الأستاذ جردنر Gardiner في مقاله « الكتابة والأدب » أن الحروف الهجائية الفينيقية التي اشتق منها الغرب كله حروفه مأخوذة من الرسم السينائي ، وهـذا بدوره مأخوذ من الهيلغريفية . ولا غرو أن يكون الأستاذ جردنر حريصاً على عرض هـذه النظرية أحسن عرض، فهو صاحبها وأول من نادى بها قبل خمسٍ وعشرين سنة . ولم يقطع الكاتب برأي في صلة الأدب المصري بالأدب اليوناني ،واكتفى أن رجع إلى نظرية الأستاذ پيت Peet التي تقول بأنه لولا مصر لكان من المشكوك فيه أن يصل الأدب اليوناني إلى ما بلغه من سموّ

أما الورق البردي فقد كانت مصر مصدره الوحيد في العالم القديم ، وظلت تزوّد بهِ الامبراطورية الرومانية من انجلترة غرباً الى الفرات شرقاً ومن الدانوب شمالاً إلى الشلال الأول جنوباً ، وذلك إلى مدخل العصور المظلمة .

وما كان لليونان أن يقيموا في ميدان العلم والطب هذا البناء الشامخ المنيف، لو لم يتخذوا من مصر وعلومها وفنونها أسسًا يبنون عليه . فالساعات المائيـة التي عزي اكتشافها إلى اليونان كانت معروفة شائعة الاستعمال في مصر منذ سنة ١٣٥٠ ق . م ، إن لم يكن قبلها . ولم يكن أخذ الطب عن المصريين دأب اليونان وحدهم ، فقد شرع الفرس في استحضار الأطباء من مصر . ولا غرو فالمصريون أول من ألَّـف الكتب الطبية ، ودوّن الملاحظات التشريحية، وأجرى التجارب في الجراحة . وهم أول من استعمل الجبائر واللفائف والضمادات . وأما اصطلاحاتهم الطبية فعلى غاية من الدقة . ومن الممكن تتبع التأثير المصري في كتب الطب اليونانية واللاتينية والعربية والسريانية والايرانية ، والكتب الاوربيـة في العصور الوسطى . هذا إلى أن ألوان العلاج الشعبية في اوربة والشرق الأدنى ترجع في جملتها الى أصل مصري .

وفي فن البناء أورثت مصر العالم من الأعمدة ما يسمَّى الآن بالطراز السابق للدوري Pre-Doric ويوجد هذا الطراز في سقارة ومقابر بني حسن . وأشاعت استعمال اللبن ، وهذا ذهب إلى أسبانية ومنها إلى أميركة الاسبانية ومعه اسمه المصري دِبت الذي صار في اللغة القبطية طوبي ، وفي العربية طوبه ، وفي الاسبانية أدوبي .

أما في الناحية الدينية فيقرر الأستاذ ايسترلي Oesterly في مقاله « مصر وبني إسرائيل » أن تأثير الديانة المصرية في اليهودية ضئيل جدًّا (ص ٢٣٨) . ويبدو لنا أن في هذا التعميم بعض الغلوّ ، نظراً الى ما بين الشعبين من قرب وإلى هجرة اليهود الى مصر في فجر التاريخ

اليهودي ، وإلى الصلات السياسية التي ظلت وطيدة بين مصر واليهود إلى آخر عهد الملوك اليهود ، وإلى إقامة شعائر الدين المصري في المقاطعات المصرية في فلسطين وسورية أيام اتساع الامبراطورية المصرية .

وكنا نود أن يبين لنا الكاتب مبلغ تأثير التوحيد المصري الذي ساد في عهد أخناتون في الفكر اليهودي . وهذا التأثير واضح في الأدب اليهودي في سفر « أيوب » و « الجامعة » و«المزامير»و« الأمثال » . ثم ذهب الكاتب إلى أن «الأمثال » مقتبسة من تعاليم أمنمحتب فعقد بينهما معارضة نفيسة (ص ٢٤٦ وما يليها) . وليت الناشر حرص على ألاّ يتكرر بحث مسألة واحدة في موضعين : فقد تناول الأستاذ جردنر أيضاً موضوع تأثير « تعاليم امنمحتب » في سفر « الأمثال » (ص ٦٨) .

وفي الدين المسيحي تركت مصر آثاراً لا تبيد . فكنيسة الاسكندرية تقرر أن خلق العالم كان في سنة ٥٤٩٨ ق . م . وهذا التاريخ مأخوذ من مانيتو الكاهن المصري الذي عاش في سمنود في القرن الثالث قبل الميلاد . والتقشف والرهبنة انتشرا من مصر الى العالم ، وكلمة « ناسك» في اللغات الاوروبية hermit مأخوذة من أصل يوناني معناه الصحراء — صحراء مصر . وأخرجت الاسكندرية كثيراً من آباء الكنيسة أمثال أوريجن وكلمنت الاسكندري وآريوس وأثناسيوس ، وفيها نبت المذهب الأجنوسطي.

وذهب الاستاذ جونز Jones في مقاله « مصر وروما » إلى أن تأليه المصريين لملوكهم الذي ورثه البطالمة عن الاسكندر قد أخذ به سائر ملوك العالم اليوناني ومن بعدهم الرومان ، وإلى أنه لم يزُل بدخول الدولة الرومانية الشرقية في المسيحية ، بل كان هذا التأليه منشأ حق الملوك المقدس الذي انسحب إلى العصر الحديث من القرون الوسطى (ص٢٩١) . وعندنا أن حجج الأستاذ جونز مجتلبة بعض الاجتلاب، وأن حق الملوك المقدس ما كان لينشأ لو لم تتفق الرواقية والمسيحية على إعلاء قدر الإنسان والارتقاء به إلى المجد الإلهي في القرن الثاني بعد المسيح .

وبعد، فالكتاب واحد من سلسلة ، وقد جاء الجزء الخاص بتراث مصر الاسلامية ضئيلاً في الكتاب ، لأن الموضوع قد درس من قبل في « تراث الاسلام » وهو منقول إلى لغتنا وليس هذا الكتاب الذي وصفناه هنا بمنقول . وهو صورة شريفة للتعاون العلمي الذي كان يسود العالم قبل هذه الحرب ، فقد اشترك في وضعه جمهرة من العلماء في مختلف الأقطار .

وهيب كامل

• التعليم والتربية في بريطانية • بقلم هيلس نقله الى العربية حسن احمد السلمان

١٤ ½ × ٢١ ½ سم ١٠٢ ص مطبعة المعارف بغداد ١٩٤٤

للانجليز طريقة خاصة في تربية أولادهم وتغذية ضمائرهم وتنشئة عقولهم . وذلك مما جعل لهم طابعاً متميزاً في أحوالهم وأعمالهم . ومن يتلُ هذا الكتاب يبلغ بعضاً من أسباب تلك الأعمال وأسرار تلك الاحوال . فإنهُ يبسط في وضوح أساليب التعليم وأنظمة التجهيز للحياة على اختلاف أنواعها ومراتبها من المدرسة الأولية العامة حتى الجامعة سواء الحديثة أو القديمة . ونحب أن نرفع الى أعين قراء العربية ما يتبين من سطور هذه الرسالة ، وهو أن أمر التربية والتعليم في بريطانية موكول إلى أصحاب الشأن ومراقب من جانب الرأي العام، فليس للحكومة اليد العالية في التشريع ولا التوجيه.

*(١)

• خواطر ساذج • بقلم خليل تقي الدين

١٢ ½ × ١٧ ½ سم ١٥٤ ص دار المكشوف بيروت ١٩٤٣

هي خواطر كان ينشرها الأستاذ خليل تقي الدين في مجلة « المكشوف » البيروتية مرة كل أسبوع بتوقيع « ساذج » ، يعبر بها عما يجيش في نفسه على أثر حادث أو مشاهدة أو اطلاع . وهو في بعض أغراضها ينفذ إلى الصميم بعين الأديب وفكر المتأمل وروح الشاعر المتصوف .

وقد شاء صاحب مجلة « المكشوف » الأستاذ فؤاد حبيش أن يخرج هذه الخواطر في كتاب ، فأحسن . وقد ذكر المؤلف في مقدمته أنهُ لما كتب خواطره كان أبعد الناس عن الظن انها ستضمّها يوماً دفّتا كتاب . هذا وكان المأمول ان يرجع الى خواطره فينظر في بعضها ليساوي بينها جميعاً في المرتبة لأن فيها ما هو وليد حادث عابر .

*

• الشوامخ — ١ — امرؤ القيس • بقلم محمد صبري

١٦ × ٢٤ ½ سم ١١١ ص دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٤

سلسلة بدأها الدكتور محمد صبري بكتاب في امرئ القيس ، وسيتلوه آخر في البحتري،

---

(١) النجم يرمز الى اسم من أسماء المتعاونين على إخراج الباب .

ولم يبين القاعدة التي جرى عليها في اختيار الشعراء ، والداعي إلى ايثار بعضهم دون بعض وهم كثر ، ولعله سيفعل في الجزء التالي .

وقد ساق في هذا الكتاب حياة امرئ القيس ووصفها على قدر ما يتيسر من أخباره وشعره ، ثم أورد رأي القدماء فيه ، وعقب برأيه هو . وخير ما في الكتاب عناية الكاتب بملكة التصوير والوصف التي امتاز بها هذا الشاعر ، وقد أنصفهُ ووفاه حقهُ ، وأحله محله ، وان كان قد غلا قليلا حين رفعهُ الى مقام لا يدانيه فيهِ أحد من شعراء الجاهلية ، جميعاً . على أن هذا لا يغض من قيمة بحثه على الجملة ، ولكن القصد خير وأولى على العموم .

*

• نداء القلب • بقلم الياس أبو شبكة

$\frac{1}{2}$ ١٢ × $\frac{1}{2}$ ١٧ سم ٦١ ص دار المكشوف بيروت ١٩٤٤

ديوان شعر خفيف في الحجم ، وكذلك هو في الموضوع والتخيل والتصوير والتمثيل . والظن أن مقطوعاته للغناء ، أو كأنها له ، نعني الغناء الهين الرخو . وهذا اللون من النظم افتتن به نفر من شعراء مصر وبعض شعراء لبنان وغيره . وهو يلذ عامة « السامعين » ولا سيما الأوانس العواشق . فهو يدور على الحب طبعاً ، وما يلتف على الحب من رشف خمر وطلب لهو ثم من بكاء وسهاد . وصاحب « نداء القلب » الذي يقول في سذاجة لطيفة « كان لي في الغرام قلبٌ بغي (كذا) » ص ٣٨ ، ينشدنا هذه القصيدة الخفيفة (مع كراهة لفظ وارد في البيت الأول والأخير ، في الغناء خاصة حيث التقطيع) :

يا حب عذِّبْ عذّب فؤادي وكل ما بي من العذابِ
يذوب حبًّا على كتابي يفيض نور من الشعور
على مدادي . . . . ياحب عذِّب عذّب فؤادي

ونحن نعلم أن في المهجر وفي لبنان اليوم لوناً آخر أدخل في الشعر ، يضم بدائع أو حسنات معنىً ومبنى . فقد قرأنا لايليا أبي ماضي ولشفيق معلوف ثم لميخائيل نعيمة . وقرأنا أيضاً مقطوعات لسعيد عقل ويوسف غصوب وكذلك لصلاح الأسير ولهذا الشاعر نفسه أيضاً .

*

٢ — الاستدراك

• الحيوان • الجزء الخامس للجاحظ

بتحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون

١٧ × ٢٤ سم ٦٣٩ ص مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٤٣ *

— وذكر الكاتب الناشر بردي الجرادة والجندب فقال : هما رجلاه . والصواب أنهما جناحاه لأن البرد الثوب المخطط ، والمخطط في الجراد والجندب والفراش ونحوها : الجناح والجمع أجنحة .

— وجاء في متن الجاحظ ص ٥٦٢ : « يزعم أن الدبا يريد الخضرة ، ودونهـا النهر الجاري » . ونظن أن هناك سقطاً وهو « يريد الخضرة ولو حال دونها النهر الجاري » . على أن الكلام على ما هو مثبت قد يخرج أيضاً تخريجاً صحيحاً .

— جاء ذكر القفعة في ص ٥٦٦ وح ٣ — وهي كلمة استعارها منا الفرنسيون وسموها Cabas.

— وذكر النقل بالفتح ص ٥٦٦ وح ٤ وهو « ما يعبث به الشارب على شرابه ويتنقل به . ويقال أيضاً بالضم . وقيل الضم عامية » . اهـ . وعندنا أن الضم هو الأفصح لأنه معرب من اللاتينية Nucleus وهو كل ثمر ذي نوى يتنقل به عند الشراب .

— وقال المحرر في ح ١ من ص ٥٩١ : « فئام جماعات كثيرة . لا واحد له من لفظه » . قلنا والذي عندنا أن الفئام جمع فئة وأصل فئام : فئان بكسر الفاء وفي الآخر نون وهو أقدم جمع معروف في لغتنا . ومثل ذلك في العبرية فيقولون في جمع سروف : سروفيم وفي جمع كروب : كروبيم . ثم نقلوا الميم إلى النون كما أن أصل التنوين تمييم . وكنا قد وضعنا مقالاً ضافي الذيل في مجلة المشرق البيروتية قبل نحو خمسين سنة وهي ليست أمامنا لنحيل القارئ عليها . ومثل هذا الجمع القديم قول اللغويين في جمع أرض واوز وسنة : ارضون

* راجع الفصل الاول والثاني من هذا الاستدراك في عدد مايو ويونيو سنة ١٩٤٤

وأوزون وسنون إلى غيرها وهي كثيرة . فهذا الجمع أقدم من قولهم « أراضٍ واوزات وسنوات ».

— وجاء ذكر البواقيل التي واحدها البوقال في هذا البيت الوارد في ص ٥٩٧ :

فمن رأى النيل رأي العين من كثب فما أرى النيل إلاَّ في البواقيل

قال المطرز الموشي : « البواقيل : جمع بوقال ، بضم الباء وهو كوز بلا عروة » .

وجاءَ في أساس البلاغة ، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٢ م في الجزء ١ : ٥٨ :«وفلان لا يعرف البواقيل ، من الشواقيل : فالباقول (كذا) الكوب . والشاقول: عصا قدر ذراع في رأسها زجّ ، يشد اليها المسّاح [1] حبلهُ ، ثم يرزّه في الأرض ، ويتضبطها حتى يمد الحبل» وهو من واضح الخطأ . وذلك لأسباب منها : ان البوقال ذكره كثير من اللغويين ولم يذكر أحد الباقول .

ومنها : ان الغربيين استعاروها منا وقالوا : Bocal ولم يقولوا Bacoul .

ومنها : اننا استعرناها من اليونانية Boukalis ولو كان الفرنسيون استعاروها من اليونانيين لقالوا Boucal لا : Bocal.

ومنها : ان أساس البلاغة المطبوع في دار الكتب المصرية مشحون أغلاطاً شنيعة . ولما عارضنا المطبوع بالمخطوط المحروز في خزانتنا ، لاحظنا فيها أوهاماً يأسف لوقوعها فيه كل عربي غيور . وقد ذكرنا ذلك للعربي الغيور على اللغة العدنانية ، الدكتور منصور فهمي بك سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤٤ فقال لنا : إنهُ يعهد الينا إعادة طبعه بعد الحرب إن أبقانا الله بين الأحياء .

ومنها : أن الذي خُدع الواقف على طبعه ، ظن ان مفرد البواقيل هو الباقول ، لمعرفته

---

(١) الذي في لسان العرب : « الشاقول : خشبة قدر ذراعين في رأسها زج تكون مع الزراع بالبصرة يجعل أحدهم فيها رأس الحبل ، ثم يرزها في الارض ويتضبطها حتى يمدوا الحبل » — وفي محيط المحيط : « الشاقول : خشبة تكون مع الزراع بالبصرة ، في رأسها زج كعقب الرمح . ومنه شاقول البنائين والمهندسين والفلكيين . وهم يستعملون منه فعلا ، فيقولون : شقل المكان ونحوه أي اختبر ارتفاعه وانخفاضه. والاسم عندهم الشقلة . قيل : هو معرب شاقول بالفارسية » انتهى — قلنا : هي بالنبطية والمندائية — وهي لغة صابئة البطائح — شاقولا . وكانوا أهل زراعة وصيد سمك في العراق كله .

ان الشواقيل واحدها الشاقول ، فقاس الواحد على الآخر(١).

فهذه أدلة بينة على ان الأستاذ عبد السلام محمد هارون أخذ بالصحيح ونبذ القبيح .

— وجاء في ح ٢ ص ٥٩٩ : « التقنص : الصيد » والذي عندنا ان التقنص كالقنص وهو الصيد بالكلب وذلك أن الكلمة القنص منقولة من اللاتينية Canis أي الكلب أو أنها من اليونانية Kunègesia,as بمعنى اصطاد الصيد مستعيناً بالكلب(٢).

— وقال الموشّي في ح ٣ من ص ٥٩٩ : « والصعو » طائر أصغر من العصفور احمر الرأس، وهي بلغة العلم الأوربي Regulus ومنهُ ما يسمى : Goldcrest or Kinglet قلنا : لو قال الاستاذ أصغر من الدوريّ، أو أصغر من العصفور الدوريّ لكان أقوم، لأن العصفور في اللغة يطلق على كل طائر دون الحمام .ولهذا يعدّ العصفور نفسه عصفوراً. وقول الاستاذ : « بلغة العلم » الاوربي غير موافق للمصطلح المشتهر، وكان الأحسن أن يقتنع بقوله : « بلغة أهل العلم » نابذاً « الاوربي » نبذ النواة . لان اللفظ العلمي لا يعرفهُ الاوربي فقط ، بل الأميركي ، والأفريقي ، والآسوي ، والاسترالي . وقوله : « بلغة العلم » صحيح بخلاف من أنكر هذا التعبير جهلاً لاسرار العربية .

وقوله Regulus (وهو اسم عام علمي يشمل جميع صغار الطويئرات المغرِّدة) ثم قوله Kinglet أو Goldcrest وهو اللفظ الانكليزي لنوع من جنس المليك أي Regulus ليس باسم يميزه كل التمييز عن اسم الجنس .

ثم ان الاستاذ عاد فاستعمل العصافير بمعنى الدوريات في كلامه على الدُّخل في الحاشية (٦) من تلك الصفحة فقد قال :

— « الدخل، بضم الدال وتشديد الخاء المفتوحة: طير صغار أمثال العصافير تأوي الشجر

(١) ومن الادلة المبينة لخطأ اساس البلاغة : أن الطبعة المصرية المذكورة لم تذكر (الشاقول) في مظنتها ولا في أي موطن آخر منها. أما نسختنا الخطية المجودة فقد ذكرتها في مادة ش ق ل. وقد قيدها أيضاً جميع أرباب الكتب لمتون اللغة غير المختصرة .

(٢) أن العرب ميزوا بين الصياد والقناص والعركي فالاول يعني كل من يأخذ حيواناً بحيلة أو بوسيلة من الوسائل . — والثاني صياد الحيوان مستعيناً بالكلب — وأغلب ما يكون هذا الكلب من جنس السلوقي وهو الضرو والضري — وأما العركي — فصياد السمك ولم يشتقوا اسماً لمهنته ، فلم يقولوا : عراكة ولا عرك ولا أي لفظ آخر ، كما انهم لم يشتقوا منه فعلا يدل على ذلك

الملتف ، وهي أنواع كثيرة كلها غرِّيد ، يعرف كثير منها عند عامة أهل مصر بالزريقة، وهو بالانكليزية Sylvia or Warbler » فنزيد على ما قلنا في الشارة السابقة أن Sylvia كلمة لاتينية معناها : دغلية أي أنها تأوي الى الدغل ولعلّ الدخل العربية مشتقة من الدغل ، ثم وزنت وزن صيغة مبالغة ، لأن موطنها الدائم الأيك والحرج والغابات ، أما الانكليز فلا يعرفون هذه الكلمة الرومية ، إلاّ العلماء منهم أرباب الثقافة العالية — وأما اللفظ الانكليزي لهذا الطويئر فهو Warbler ومعناه المرنم والمغني والغرد ، واسم هذا الطويئر بالفرنسية Fauvette.

ومن أسمائها العربية : الشوّالة والدخناء والكحلاء إلى غيرها .

وقال الاستاذ في ح ٣ ص ٦٠٤ : « الروح النفس ، يذكر ويؤنث » — قلنا : يذكر ويؤنث إذا أريد بهِ ما تقوم به حياة الجسد . أما إذا أريد بهِ العقل والفكر والوحي إلى ما ضاهى هذه المعاني فلا يؤنث البتة . فالروح الأمين عند المسلمين لقب جبريل ، ولا يقال البتة : الروح الأمينة . ويقول النصارى : الروح القدس ولا يقولون : الروح القديسة ولا القدوسة ولا القدسة ولا ما يداني هذه النعوت من الألفاظ المؤنثة ، للدلالة على الاقنوم الثالث عندهم .

٧ — الخلاصة وهي الخاتمة : يتحقق القارئ مما كتبناه هنا أن الأستاذ عبد السلام محمد هارون هو من أحسن من تولى نشر كتب الأقدمين ، فانه صرف زمناً طويلاً في مطالعة الأسفار على اختلاف موضوعاتها ، لابراز نص الجاحظ بأبهى حلة وأصح عبارة ، نابذاً كل ما أدخله فيه النساخ والوراقون من التصحيف والتحريف ، والحذف والسخف ، والزيادة والنقصان ، حتى أصبح هذا الكتاب في جميع أجزائه من أصح وأنصح ما برز في المطابع المصرية منذ نشأتها إلى يومنا .

فنحن نشكره باسم العرب جميعهم ونتمنى أن يتمم ما شرع فيه ويوفقه الله لاخراج سائر مؤلفات الجاحظ ، وأثابه أحسن ثواب .

الأب أنستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

• مجموع رسائل الجاحظ •

نشره : باول كراوس ، ومحمد طه الحاجري

٢٤×١٧ سم ١٢٤ ص ومقدمة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٣

هذا المجموع النفيس يشتمل على أربع رسائل :

أولها : (رسالة المعاد والمعاش) في الأدب وتدبير الناس ومعاملاتهم . كتب بها الجاحظ إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد. وهي رسالة كبيرة تقع في ٣٦ صفحة يقول في صدرها : « ولم أزل — أبقاك الله — بالموضع الذي قد علمتَ : من جمع الكتب ودواستها والنظر فيها . . فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش ، أصف لك فيه علل الأشياء ، وأخبرك بأسبابها . . . »

ثم يمضي في رسم سياسة حكيمة لمن صنع له هذه الرسالة . وتتجلى لنا دقة الجاحظ واستكناهه لخفايا الغرائز في فرقه بين الغضب والحزن . ثم يحمل حملة شعواء على تلك الخلة التي فرّقت بين الأمم والأجيال في كل العصور ، وهي المفاخرة بالأنساب . ويسلك بعد ذلك مسلكاً دقيقاً إلى خطإ خلقي آخر يقع فيه كثير من الناس ، فيقول :

« ألاَّ يحدث لك انحطاط من حطّت الدنيا من إخوانك استهانة بهِ ، ولا لحقّه إضاعة ، ولما كنت تعلم من قدره استصغاراً . بل إن زدته قليلاً كان أشرف لك ، وأعطف للقلوب عليك . . ولا يحدث لك ارتفاع من رفعت الدنيا منهم تذللا ، وإيثاراً لهُ على نظرائه في الحفظ والاكرام . بل لو انقبضت عنه كان مادحك أكثر من ذامّك ، وكان هو أولى بالتعطف عليك » .

وثانيها : (رسالة كتمان السر وحفظ اللسان) وتقع في ٢٤ صفحة ، ولا تقل في الروعة عن سابقتها ، ويتجلى فيها اقتدار الجاحظ على الاحتجاج لما هو بسبيله .

هو يتحدث مثلاً عن الدوافع الملحة التي تدفع بعض النـاس أن يستعلنوا ما انطوت صدورهم عليه من السر ، ويصور ذلك في لباقة القصصي الماهر ، إذ يقول : « وكان الأعمش سيء الخلق غلقاً ، وكان أصحاب الحديث يضجرونه ويسومونه نشر ما يجب طيه عنهم ، فيقبل على شاة كانت له في منزله ، فيحدثها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول : ليت أني كنت شاة الأعمش (١) » .

---

(١) انظر ثمار القلوب للثعالبي ص ١٣٤

وثالثها : (رسالة في الجد والهزل) وهي في ٣٨ صفحة ، يسوقها الى محمد بن عبد الملك ابن الزيات . وهي كعنوانها أمشاج من فنون في الجد وأخرى في الهزل . ويسري فيها مثل الروح التي سرت في رسالة التربيع والتدوير .

ومما فيها من الطرائف عقده موازنة بين قراءة المستلقي وقراءة الجالس ، ويحتج للأولى بقوله في الكتب : « ورأيت أن أنظر فيها وأنا مستلق ، ولا أنظر فيها وأنا منتصب ، استظهاراً على تعب البدن ، إذ كانت الأسافل مثقلة بالأعالي ، وإذ كان الانتصاب يسرع في إدخال الوهن على الأصلاب ، ولأن ذلك أبقى على نور البصر ... »

ورابعها : (رسالة فصل ما بين العداوة والحسد) . تقع في ٢٦ صفحة . يقول في أولها : « أصحب الله مدتك بالسعادة والسلامة ، وقرنها بالعافية والسرور ، ووصلها بالنعمة التي لا تزول ، والكرامة التي لا تحول . هذا كتاب — أطال الله بقاءك — نبيل بارع فصل فيه بين الحسد والعداوة ، لم يسبقني اليه أحد » .

وصدق الجاحظ ، فإن أحداً لم يسبقه إلى هذه الدقة البالغة في تمييز هذين الطبعين ، وإن أحداً لم يكتب بعده هذا المعنى ، في مثل تلك القوة والبراعة .

١ — هذه الرسائل الأربع لم يسبق نشرها من قبل . فللأستاذين الناشرين فضل السبق إلى نشرها ، وتمكين الأدباء من تناول ما فيها من فضل بارع وخير وفير .

٢ — وقد سلك الناشران منهج النشر العلمي الصحيح ، وحرصا أشد الحرص على أمانة النقل وصدق الرواية عما بأيديهما من أصول . وهذا مبعث رضا ومثار تقدير لكل من يطالع هذا المجموع من رسائل الجاحظ .

٣ — وقد استعمل الناشران طريقة استحدثاها في التعليق على النصوص ، وأعدّا لذلك أهبة لا يستهان بها من الأقواس والمعقفات والنقط والرموز والنجوم والاصطلاحات . وهي بلا ريب ضرورية للتعليق والتحقيق . ولكنهما ربطا الجواد خلف المركب ، فظهر في طريقتهما (ولاسيما النجوم) كثير من العسر الذي لا يتغلب عليه إلاّ حشد قوى الدربة والرياضة . كما خالفا في ذلك الطريقة المألوفة التي جرى الناشرون عليها ، واستساغها جمهور القارئين والباحثين . ولعلّ من عذرهما في ذلك رغبة التغلب على مشكلة الورق . ولكن ذلك لا يقوم عذراً إزاء ما ابتدعا من صعوبة .

٤ — خلت هذه الرسائل من الشرح ، ولغة الجاحظ الذي كان يتنسم هواء القرن الثالث الهجري ، فيها إشارات وعبارات ومثل وشعر يخفى كثير منهُ على القارئ من الخاصة ، فما

بالك بالوسط ؟ الحق أننا في عصر يفتقر أهله أشد الافتقار إلى من يحسن صلتهم بتراثهم القديم ، وينهج لهم السبيل اليه .

٥ — في الرسائل كثير من الأعلام ، أعلام الناس والبلدان . وهي بحاجة إلى تحقيق وترجمة توضح الجو للقارئ ، وتسعفه بفهم النصوص فهماً كاملاً . ومع ذلك لم يظفر علم من أولئك بترجمة أو بتحقيق . ومما جاء محرفاً منها : « غيلان بن خرشة الضبي » ، (ص١١٧) إذ كتب محرفاً برسم : « خرشنة » . وغيلان هذا كان أعرابيًّا جافياً به لوثة ، وكان في أيام زياد ، وله معه حديث طويل سرده ابن قتيبة [١] . وروى أبو الفرج [٢] أن غيلان بن خرشة الضبي دخل إلى قوم من إخوانه وعندهم قينة ، فجلس معهم وهو لا يدري فيمَ هم حتى غنت القينة :

طبيبيَّ داويتما ظاهراً فمن ذا يداوي جوى باطنا

فغضب ووثب وهو يقول: السوط ـ وربِّ غيلان ـ يداوي ذلك الجوى ! وخرج من عندهم.

و « خرشة » بالتحريك . أما خرشنة فاسم لبلد قرب ملطية من بلاد الروم ، غزاه سيف الدولة ، وذكره المتنبي وغيره في شعره .

٦ — خلت هذه النشرة من الفهارس . ولسنا بصدد أن نبين قيمة الفهارس بعد ما وضح للباحثين ضرورتها ، وشدة الحاجة اليها . وليست المائة والأربعون صفحة بالقدر الهين الذي يستغنى فيه عن الفهارس .

٧ — تضمنت الرسائل آيات قرآنية كثيرة . وقد جرى الناشرون المحدثون تبعاً للسلف على تمييزها عن غيرها من النصوص بمميز يظهرها. ولكننا وجدنا الآيات الكريمة تجري مع النص لا يفصلها منه فاصل . بل إن بعض الآيات قد جاء متداخلاً في البعض الآخر ، كما في ص١٨ س ١٤ — ١٥ : « خذوا حذركم » « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » رسمت هاتان الآيتان على هذا الوضع : خذوا حذركم ولا تلقوا بأيديكم من التهلكة . مع أنهما من سورتين مختلفتين. وكان أولى من التنبيه في أسفل الصفحة أن يفرق بينهما في الرسم . وقد وردت هذه الآية التالية محرفة : «وتحبون المال حبًّا جمًّا » إذ رسمت بلفظ « ويحبون » بالياء التحتية . وهو سهو عظيم ما كان أجدر بالناشرين ألاَّ يقعا فيه . وقد أجمع القراء على لفظ التاء الفوقية المثناة لم يشذ منهم أحد [٣]

بذل الناشران جهداً موفقاً في تصحيح النصوص، ونترك الكلام لهما يقولان : « ومع

---

(١) عيون الاخبار (٣ : ٢٤٤ — ٢٤٦) (٢) الاغاني (١٢ : ٩٢ طبع الساسي)
(٣) انظر سورة الفجر في إتحاف فضلاء البشر ، والقراءات الشاذة لابن خالويه

ذلك بقيت في هذه الرسالة مواضع على فسادها ونقصها، لم نوفق إلى تصحيحها، ولم نجد العون على إقامة عوجها في أصل آخر، أو قراءة أخرى. ولكنا آثرنا أن أظهر هذه الرسائل على ما فيها مما فات طوقنا، فذلك خير من أن تظل حبيسة مقيدة. وما يزال أملنا كبيراً في أن يتاح لنا من الوسائل ما يمهد السبيل إلى تصحيحها، أو أن نجد من نقد الناقدين ما عسى أن يجلو هذه المواضع المغشاة فيها» (١).

وهذه المواضع التي أشار اليها كثيرة حقاً، ولعلي استطعت أن أجلو بعضها:

ص ٦ س ٥: «اتفقت عليه محاسن الأمم» والصواب: «محاب» جمع «محبة» ويؤكد هذا التصحيح قول الجاحظ في ص ١١ س ١٦: «وهاتان خلتان داخل فيهما جميع محاب العباد ومكارههم».

ص ١٣ س ٦: «لموافقتها» صوابه: «لموافقتهما».

ص ٢٧ س ١٤: «أنفس العقدة» وجهه: «العُقَد» جمع عقدة، وهو ما يعتقده المرء من مال ونحوه.

ص ٣٢ س ١٦: «فلا تستقبلها بالتضجع وتغبين الرأي» أما التضجع فهو التقعد في الأمر وعدم القيام به. وأما «تغبين» فتحريف، صوابه: «تغبيب» والمراد به الامهال والتأخير، مأخوذ من غب الورد: أن تشرب الابل يوماً، ويوماً لا. والمغببة: الشاة تحلب يوماً وتترك يوماً. أما «التغبين» بالنون في الآخر، فلم تعرفه اللغة.

ص ٣٢ س ١٨: «فإن الاعتذار يكسر حمَّى اللائمة». لا يقال كذلك. وإنما هي «حميَّا اللائمة» وحميا كل شيء: شدته وحدته. وانظر ص ٢ س ٥.

ص ٣٥ س ١٠: «إن ضبطت ذلك وقومت عليك نفسك» الصواب: «قومتِ عليه»

وفي ص ٣٥ س ١٤: «والمولّي لكل إحسان» بتشديد لام المولى. الوجه «المُولي» من: أولاه أنعم عليه. ومنه قول أبي الطيب:

وكل امرئ يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العزّ طيب

ص ٣٧ س ٨: «ولا يأنف شريف أن يقصر دونك، ولا يحشم عالم أن يأخذ عنك» صوابه: «ولا يحشى عالم».

ص ٣٨ س ١٩: «لأنه يزم اللسان ويخطمه، ويشكله ويزبنه» ليس للزَّبن هنا وجه فالزبن: الدفع. وإنما المراد هنا التقييد والحبس. والوجه: «يربثه» ربثه يربُثه، بالضم: حبسه.

(١) انظر صفحة (ي) من المقدمة.

ص ٣٩ س ٩ : « واستعمل فضول النظر فدعت إلى فضول القول » ليس كذلك ، إنما هو تعقيب على ما قبله ، صوابه : « واستعمال فضول النظر يدعو إلى فضول القول » وانظر ما في ص ٥٣ س ٧ .

ص ٣٩ س ١١ : « وجشّمه مؤونة الصبر على ستر الحلم والحكمة » الحلم لا يُتكاف ستره ، وإنما هو : « العلم » . ومما يؤيد هذا التصحيح قوله في الصفحة نفسها س ٤ : « وتنتجه الحكمة والعلم » .

ص ٣٩ س ١٩ : « ثم صرفه في أبواب الباطل والفسق ، فوجب عليه إثم الانفاق منها » الصواب : « فيها » أي في أبواب الباطل والفسق .

ص ٤٨ — س ٣ — ٤ : « الوُلوع بكل ممنوع ، والضجر بكل محصول » . ضبطت واو « الولوع » بالضم ، وصوابها الفتح . كما أن كلمة « محصول » محرفة ، والوجه : « مبذول » .

ص ٤٩ س ٥ : «وقضى ذلك الأرب وطر» وصوابه :« وقضى من ذلك الأرب وطرا » .

ص ٥١ س ١٤ : « تنقب العوام عن أسرار الملوك » وضبطت : « تنقُّب » بتشديد القاف المضمومة . صوابه : « تنقيب » مصدر « نقب عن الأخبار وغيرها بحث أو أخبر بها [1] »

ص ٥٥ س ١١ : « ولو حاجّه فيما ادعى ، ووقفه لانقطع » . إنما هي : « وواقفه » . والموافقة : أن يقف معه في حرب أو خصومة . [2]

ص ٥٩ س ١٢ : « كلمة غارت بجنت حربا عوانا » الصواب : « عارت » بالعين المهملة . وفي حديث عثمان « أنه كان يشتري العير حكرة . ثم يقول : من يربحني عقلها » قال ابن منظور : « العير الابل بأحمالها . فعل من عار يعير إذا سار » . وقال أيضاً : « وقصيدة عائرة سائرة » و « رجل عيار كثير المجيء والذهاب في الأرض » .

ص ٦٣ س ٧ : « يحذرك مُصارع البغي » الوجه : « مَصارع » بفتح الميم .

ص ٦٩ س ٣ : « وتقريظ الثمر » صوابه : « التمر » بالمثناة . ومبنى الكلام كله على الزرع والنخل [3] .

ص ٦٩ س ٣ : « تميزوا هذا التمييز » إنما هو : « التميز » .

---

(١) انظر اللسان (٢ : ٢٢٦ — ٢٢٧) (٢) انظر الحيوان (١ : ٩٢ س ٨ / ٤ : ٩٢ س ١٠) .

(٣) انظر السطر الاول من هذه الرسالة ص ٦١

ص ٦٩ س ٥ : « ومتى صار الحكم للنعجة نسبا وللكرمة صهرا » . ليس للنعجة هنا مقام. إنما هي : « للنخلة » والكلام في المفاضلة بين الزروع(١)

ص٦٩ س ١٣ « وليس هذا أول شرك نصبته ، ولا أول كيد أرغته » . ليس كذلك بل هو : « ولا أول صيد أرغتهُ » أراغ الصيد يريغه : طلبه .

ص ٧٠س١٥ :« وربت كلمة تدور مع خلتها ، وتتقلب مع جارتها ، وبارادة صاحبتها » . إنما يقول الجاحظ :« وبإزاء صاحبتها » .

ص ٧٥ س ١٠ — ١١ : « وإذا تطاول الكد رسخ الزُّهد » الصواب :« رُتِجَ الذهن » أي أغلق . ولا وجه للزهد في هذا المقام .

ص ٨١ س ١٥ : « فلعلّي كنت أعيش بالرفق . وأتبلغ بحشاشة النفس » الصواب : « بالرَّمق » . والرمق ، بالتحريك : بقية الحياة ، كما أن الحشاشة أيضاً بقية الحياة . ومنهُ قول امرئ القيس(٢) :

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوب ولا آلْ

ص ٨٣ س ١٤ : « والغضبان يشغلهُ الغضب ، ويغلي بهِ الغيظ » الصواب : « يشعله » من الإشعال. اعتبر هذا بقوله ص ٨٤ س١ : « واحترق حتى لا يفهم » وقوله س ٧ منها : « وأذكى ناره واشتعل » .

ص ٨٤ س ٤ :«وليس يصارع الغضب أيام شبابه وغرب نابه شيء إلاَّ صرعه » . ليس يقولها الجاحظ ، إنما هي : « إبان » أي وقت .

ص ٨٧ س٧—٨ : «فإني لا أعرف إلاَّ مجازها في الجملة، ولا أحقق خاصتها على التحصيل» الوجه : « على التفصيل » وهو ما يقابل :« الجملة » .

ص ٩١ س ١٥ : « وطبيعتك هي المسكنة » صوابه « المسكة » ، والمسكة ، بالضم : ما يتمسك به . وتقابل بها : « الحجة » في السطر السابق .

ص ٩٢ س ٢ : « بما يشيع لك من اسم المتسرع ، وبما تضاف اليهِ من سخف المتبرع » إنما هي « سخف المتترع » بتاءين . وفي اللسان : « تترع إلى الشيء : تسرع . وتترّع إلينا بالشر تسرّع . والمتترع : الشرير المسارع إلى ما لا ينبغي لهُ » .

ص ٩٢ س ٣ : « تكذب قولي ، وتفسد خبري » الوجه : « وتفند خبري » والتفنيد : التكذيب . وفي قول الله : « إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » .

---

(١) انظر السطر الاول من هذه الرسالة ص ٦١ . (٢) ديوانه ص ١٧ طبع هندية ١٣٢٤

ص ٩٢ س ١١ : « لاستواء الخواطر ، ولا يقافها على الارادة » . إنما هي : « ولا تفاقها »
ص ١٠٣ س ٥ : «فغلق المأمون واحتدم» . الصواب : «فقلق» بقافين، كما في الأصل . والقلق : الانزعاج وهو يجري مع الهياج والاضطرام الواردين في النص . وكلمة : « فغلق » التي جاء بها الأستاذان جميلة ، وهي بمعنى غضب واحتد . ولكن ليس ما يدعو إلى اجتلابها .
ص ١٠٣ س ٧ : « يدب عن كتابي » . هي : « يذب » بالمعجمة .
ص ١٠٥ س ١٤ « والعداوة « تخلق وتمل » . إنما هي : « وتبلى »
ص ١٠٧ س ١ : « وجه بلخ » بإهمال الكلمة الأولى كما في الأصل . هي : « وناحية بلخ »
ص ١٠٧ س ٤ : « وانتفض انتفاض الملّس الممطور » . صوابه : المغلّس » . والتغليس السير في الغلس أو ورود الماء فيه . وما يمطر فيه من الحيوان والطير يكون ذلك أشد لبرده وانتفاضه .
ص ١٠٧ س ٣ : « أخذته الأرَباء وتنفس الصعداء » إنما هي « الأرْباء » جمع ربو . والربو : البُهر والتهييج وتواتر النفَس .
ص ١٠٨ س ٢ — ٣ عند ذكر الكتب : « ولا يبلغ أقصى عله أمانيها » . الصواب : « ما فيها » وليس للكتب أماني .
ص ١١٠ س ١٠ : «وسبباً يستدعي بهِ ألبابهم » . لا يقال كذلك . هي : « يسترعي » بالراء . وجاء في س ١٢ : « استدعى » صوابها : « استرعى » . وهو مثل قولهم : أرْعني سمعك، وراعِني سمعك .
ص ١١١ س ١٥ : «من لطيف ما يستدعى به الصدْق » . صوابه : « يسترعى به الصديق » .
ص ١١١ — ١١٢ : « لما ساغ له في الناس وانتشر منه » . إنما هي : « لما شاع له في الناس »
ص ١١٧ س ١٤ : « وإن اكتمى ثوباً نسيساً » . وليس للنسيس هنا وجه . والصواب : « ثوباً نفيساً » .
ص ١١٧ س ١٥ : « وإذا تخرق في غناه وقرته » كذا وردت بالقاف ، وإنما هي : « وفرته » بالفاء بمعنى تركته ولم أتعرض له .
ص ١١٨ س ٥ : قول النابغة الجعدي :

وليس بمعروف لنا أن نردها صحاحاً ولا مستنكراً أن نعفرا

جاءت « نعفرا » بالنون بعدها عين وفاء . وهو تحريف . والصواب : « أن تعقّرا » بالتاء بعدها عين وقاف . وقد ورد البيت في مراجع كثيرة (١)

(١) انظر منها جمهرة أشعار العرب ١٤٨ طبع بولاق ، والاصابة ٣ : ٨٦٣٣ ، والخزانة ٣ : ١٥٢ طبع السلفية ، وأمالي المرتضى ١ : ١٩٤

ص ١١٨ س ١٨ (للفِنْد الزِّمّاني) : فلما صرخ الشر وأمسى وهو غرثان

وهو تصحيف عجيب ، إنما هو : فلما صرّح الشر فأمسى وهو عريان

صرح الشر : بدا وانكشف ، وعريه مثل لظهوره ووضوحه . والبيت من مقطوعة حماسية مشهورة ، هي ثاني مقطوعة في حماسة أبي تمام (١) .

ص ١١٨ س ٢١ : « كفم الزق وها » الصواب : « وهي » بالياء .

ص ١١٩ س ١٥ قول الراجز : « ومن عداء يتقي بالراح » هذا تحريف . والصواب : « ومن عديد » كما رواه الجاحظ نفسه في الحيوان وفي البيان (٢) .

ص ١١٩ س ١٩ : « بقاقية تقرى العروق فتحسم » إنما هي : « تفري » بالفاء ، أي تقطع .

ص ١٢٠ س ٩ : « وتتابعوا عليّ تتابع الدبر على مشتار العسل » الصواب : « تتايعوا » و« تتايع » بالياء المثناة التحتية قبل العين . وفي الحديث (٣) : « ما يحملكم على أن « تتايعوا » في الكذب كما يتتايع الفراش في النار » . والتتايع : التهافت والإسراع .

ص ١٢١ س ٤ : أما الحوادث من خليلك مثل جندلة المراجم

إنما هي : « أبقى الحوادث » . والأبيات قالها معاوية أو تمثل بها في قصة طريفة رواها ابن قتيبة والقالي والحصري (٤) .

هذا بعض ما بدا لي من غوامض هذه المجموعة ، ومنعتني خشية الإطالة أن أتم استيعابه

عبد السلام محمد هارون

٣ — التعقيب

تبيين

قرأت استدراك الأستاذ أحمد محمد شاكر في مقتطف مايو ١٩٤٤ على ما جاء في مقالي « دار الحديث النورية » . فشكرت له عنايته وحسن تدقيقه لاهتدائه إلى خطإٍ ومحال وقعتُ فيهما .

أما المحال فهو أن أروي عن الذهبي حوادث جرت في سنة ٧٩٩ وهو الذي قد توفي سنة ٧٤٨ على قول أكثر مؤرخيه ، وهو الصواب ، أو سنة ٧٥٣ على قول ابن إياس (بدائع الزهور ج ١ ص ١٩٩) ودائرة المعارف الاسلامية في أثناء ترجمتها للذهبي .

(١) حماسة أبي تمام (١ : ٦) وانظر حماسة البحتري ٧٤ وأمالي القالي (١ : ٢٩٠) والاغاني (٢٠ : ١٤٣) (٢) الحيوان (١ : ٣٥١/٣ : ٧٩ — ٨٠) والبيان (٣ : ١٩٠) طبع سنة ١٣٤٥
(٣) اللسان (٩ : ٣٨٧) (٤) عيون الاخبار (٣ : ٥٠) والامالي (٢ : ٣١١) وزهر الآداب (١ : ٤٦) .

وأما الخطأ فهو أن أقول أن التتار دخلوا دمشق سنة ٧٩٩ مع أنهم قد دخلوها سنة ٨٠٣ ، وهذا أمر معروف مشهور ، ذكره ابن العماد والسخاوي وابن تغري بردي ، وابن طولون الصالحي وابن إياس وكردعلي ، وغيرهم كثير . ولكن الحادث الذي نقلناه عن الذهبي هو حادث جرى سنة ٦٩٩ تسع وتسعين وستمائة — وقد كتبت الستة ، سهواً ، سبعة — فقد ذكر الذهبي في دول الاسلام (المطبوع بحيدر آباد سنة ١٣٣٧ — ج ٢ ص ١٥٧) ما نصه : « ثم دخلت التتار دمشق وشرعوا في المصادرة والعسف ونهبوا (نهبوا) الصالحية وسبوا أهلها وأتعبوا الخلق ووقع الحريق من صاحب سيس والكفرة فأحرقوا جامع العقيبة وعدة أماكن وحاصروا القلعة ودار السعادة ودار الحديث والعدلية والنورية وخربت تلك الناحية كلها وهرب أهلها وبقي باب البريد اصطبلاً فيه الزبل نحو ذراع . »

دمشق أسعد طلس

◆

ردّ

وردت الينا كلمة من الاستاذ محمد عبد العزيز مرزوق ردًّا على الاشارة التي نشرت في مقتطف يونيو الى رسالته « الاسلام والفنون الجميلة » . فجاء في الرد أن صاحب الاشارة لم يناقش آراء الرسالة ، وأنهُ أخذ عليهِ نشر صور منقولة عن كتب في الفن طبعت من قبل في مصر من دون أن يذكر تحت كل صورة المصدر المنقول عنهُ ، فهذا في رأي المؤلف مباح لأنهُ « من الاسراف حقًّا ألاَّ يستفيد الانسان من كليشهات أنفقت الدولة على صنع معظمها طالما انها تكشف عن الفكرة بجلاء فضلاً عن انهُ ذكر في احدى صفحات الرسالة أسماء الكتب التي نقل عنها الصور » .

والجواب عن هذا عند صاحب الاشارة انهُ ما أراد سوى التعريف بمضمون الرسالة ولم يرَ مجالاً لمناقشة الآراء وهي في نظره على حسن عرضها ليست على خطر ولا جدة . وأما قصة « الكليشهات » أي أصول الرسم المنقولة عن كتب أخرى فالرأي عند صاحب الاشارة انهُ لابد من ذكر المصدر تحت كل صورة فلا يكفي الايماء في هامش بذيل الكتاب. ثم ليس لانفاق الدولة دخل في هذا التدقيق من جانب المؤلفين ، إذ الفضل للمنقب عن الرسم والمختار له لا للدولة ،وهي هنا تقوم مقام ناشر من الناشرين . وكيفما كانت الحال فليس من المرغوب فيه — عامة — أن تستغل رسوم أنفقت عليها الدولة في كتاب من الكتب ليس مما تقوم الدولة على طبعه ونشره .

◆

باب الأخبار العلمية

تأثير النيكوتين حقناً يعادل تأثيره تدخيناً[1]

حقن النيكوتين تحت الجلد

يتخذ تدخين الأفيون وسيلة لتعاطي المورفين. كما يتخذ تدخين التبغ وسيلة لتعاطي النيكوتين. ولمعرفة مبلغ تأثير عقار النيكوتين في الجسم عني الأستاذ جونتسون[2] بتجربيه حقناً تحت الجلد في خمسة وثلاثين متطوعاً بمقادير معروفة للموازنة بين أثره فيهم وماهو معروف من أثره بالتدخين. فقد حقن سبعة منهم بجرعة واحدة أو حقنة على حين حقن الآخرين بمقادير تختلف بين جرعتين وخمس وثلاثين جرعة. وكان لحقن شخص لا يدخن بجزء $\frac{1}{5}$ من القمحة تأثير من العسير وصفه بأكثر من أنهُ يماثل التأثير الذي ينشأ عن التدخين؛ فكانت تبدو على المحقون الأعراض نفسها التي تبدو على المدخن الجديد كالدوار والغثيان والدوخة والصداع والاغماء وهي أعراض من السهل تمييزها وارجاعها إلى فعله الخاص به دون سواه. وفضلاً عن ذلك يقول المدخنون الذين حقنوا بالنيكوتين على اختلاف مزاجهم أنهم يشعرون بلذة بعد الحقن به بقليل كما لو كانوا يدخنون أنواع اللفائف التي اعتادوا تدخينها من زمن طويل.

وإذا حقنوا بجرعات متتابعة جرياً على نظام تدخينهم عزفوا عن التدخين فترة أطول من الفترة التي كانوا يقضونها بلا تدخين.

وأما غير المدخنين فيصفون شعورهم بعد الحقن به بأنهُ شيء غريب مزعج وأنهُ يماثل شعور المبتدئ بالتدخين، ولا يحس بهذا الشعور إلاَّ بعد مضي خمس دقائق على حقنه. ويستمر هذا التأثير والشعور نحو خمس عشرة دقيقة. ويشعر المحقون بالنيكوتين بألم في موضع الحقن وربما امتدَّ الألم من مكان الأبرة إلى طرف الفخذ أو الساعد المحقون ثم يتلاشى بعد زمن قصير. ويقول الأستاذ إنهُ حقن شخصاً لا يدخن بمقدار $\frac{1}{40}$ من القمحة فظهرت عليه أعراض التسمم في حين لم يتأثر المدخن المدمن من حقنه بمقدار $\frac{1}{20}$ من القمحة بعد مرور ساعة على تدخين لفافته. وفي هذا دليل على تأثير العادة وطاقة الجسم من تعود كمية النيكوتين بالتدخين.

أعراض التسمم

وأعراض التسمم تتجلى في دوار عنيف وسرعة في ضربات القلب وغثيان وقيء وإغماء. ومع أن نسبة النيكوتين في التبغ تختلف بين نصف الواحد وخمسة في المائة ونسبة ما حقن منه في الوريد بين $\frac{1}{500}$ و $\frac{1}{750}$ من القمحة، فان تأثيره في الحالين

---

(١) من محاضرة ألقاها الدكتور شخاشيري في مؤتمر الجمعية الطبية الملكية المصرية بدار الحكمة في ٧ ديسمبر ١٩٤٣

(٢) عن مجلة اللانست الطبية الانجليزية

كان واحداً . أي أن ما يشعر به المدخن عند استنشاقه نفساً من الدخان يماثل ما يحس المحقون به من تأثير . وهذا يؤيد ما تقدم وهو أن ما يحدثه التدخين في نفس المدخن من تأثير يعادل ما تحدثه حقنة منه تحت الجلد بمقدار $\frac{1}{٥٠}$ من القمحة في المحقون نفسه . وفي الغالب يحس بأثر النيكوتين بعد تعاطيه بخمس عشرة ثانية سواء كان حقناً أو تدخيناً . ويستمر ذلك الأثر من دقيقة إلى بضع دقائق . وأعطى الأستاذ النيكوتين بالفم بنسبة $\frac{1}{٥٠}$ من القمحة في مائة وخمسين جراماً من الماء فكان له بهذا المحلول طعم التبغ وخصائصه . وأعطاه في محلول آخر ولكن بنسبة أعلى فلم يسغ مذاقه وكان طعمه حريفاً مزعجاً . ويقول الأستاذ إن في تدخين لفافة كاملة ما يعادل تأثير $\frac{1}{٢٠}$ من القمحة لو أخذ بالفم .

أستاذ يفضل الحقنة على التدخين

وقد تناول الأستاذ نفسه ثمانين حقنة من النيكوتين بنسبة $\frac{1}{٥٠}$ من القمحة بمعدل ٣ في اليوم مع قليل من اللفائف فغدا بعد هذا الاختبار الطويل يفضل الحقنة على تدخين اللفافة . ويقول إنه شعر بشيء ينقصه عند ما أمسك عن حقن نفسه به . ويقول إنه أعطى النيكوتين سيدة مصابة بمرض عصبي دون علمها، وان المريضة قالت له عندما توقف عن إعطائها إياه إنه كان أشد وطأة في تأثيره فيها من الدواء « فينوبار بيتول » الذي كانت تتعاطاه من قبل بنسبة قمحة في كل جرعة ، وكان النيكوتين مع ذلك أدعى إلى تهدئة أعصابها منه ، وإن كان لم ينومها مثله . وأظهرت له استياءها عند توقفه عن متابعة إعطائها إياه .

ومدمنو اللفائف يشعرون قليلاً أو كثيراً بدوخة النيكوتين الخاصة به، ويطيب لهم بنوع خاص الاستمتاع بلذة التدخين في الصباح ، ولا سيما بعد القهوة أو الشاي، وهم لا يأكلون ولا يشربون القهوة وغير القهوة في ذلك الوقت إلاَّ لأجل اللفافة وإشباع رغبتهم من طعمها وإطفاء شهوتهم بتلك الرائحة المتصاعدة منها . وهذا ناشئ ولا شك عن إدمان ممارسة التدخين وتعوده لا عن شيء آخر .

سبب ارتياح المدخن

وإن الارتياح الذي يشعر بهِ المدخن عند ما يستنشق دخان اللفافة عائد إلى نوع من التخدير وتنبه كريات الاحساس في المخ . وإن الشهوة الملحة في طلب ذلك الارتياح ناشئة عن خلو الجسم من المخدر الذي هو النيكوتين وزوال تأثيره عنه . وبعبارة أوضح إن شعور اللذة في التدخين مسبب عن استفزاز خلايا الاحساس بالدماغ، وان الرغبة في طلبه من جديد منشؤها أولاً الارتياح الذي يشيعهُ في النفس من استنشاقه . وثانياً التهيج الذي يشعر به المدخن بعد زوال تأثيره عنهُ أو شعور التهيج في الأغشية التي

يلامسها الدخان كالفم . والمسالك الهوائية بعد زوال الأثر الذي أحدثهُ فيها .

وعلى هذا الضوء من البحث نحكم بأن النيكوتين أو التدخين على مختلف أشكالهِ مخدر كالمورفين وأشباهه ، وله من المزايا والخصائص ما لتلك « المكيفات » من مزايا وخصائص ، فهو يخدّر الأعصاب ويشيع الارتياح في النفس ويغري المدمن بالتعلق بهِ والاعتماد عليه في تخدير أعصابه المكدودة وتسكين أفكاره المضطربة . والشواهد على هذا كثيرة لا يتسع المجال لبحثها وعرضها الآن .

تجاوز الحدود يفقد اللذة

ولكن طاقة الخلايا للاستفزاز وقبول رسائل التنبه محدودة . ولذلك عند ما يتجاوز المدخن تلك الحدود لكثرة تدخينه يفقد شعور اللذة التي كان يشعر بها من قبل ، أو يخيل اليه انهُ قد فقدها أو فقد جزءًا منها ، ويظن أن ذلك راجع إلى قلة تدخينه لا كثرته ، فيندفع في مداواة ذلك التهيج والاضطراب بالتي كانت هي الداء — بالتدخين — على أمل أن يروي ظمأه ويرضي شهوته منه . ولكن إرضاء الشهوة محال ، وكلما تمادى في التدخين من جديد ازداد رغبة فيه وتعلقاً به ، وهكذا تتأصل العادة فيه ، ومبلغ تأصل العادة في مدمن المخدّر يقاس بالصعوبة التي يلاقيها عند ما يحاول الاقلاع عنه .

وانهُ لمن الصعب حقًّا على المدخن المدمن الذي قضى نصف عمره يدخن أن يقلع عن التدخين فوراً إلاَّ إذا وهبه الله عقلاً نيراً وإرادة قوية . والمدمنون عادة لا يكترثون لما ينتابهم من توعك ومرض معتقدين خطأ بأن أسباب ما يصابون بهِ من التهابات رئوية وشعبية وزكام وغير ذلك لا علاقة له ولا يمكن أن يكون له علاقة من قريب أو بعيد بالتدخين، ويستاؤون فعلاً ممن يقول لهم بأن التدخين قد يكون السبب في علتهم وما حلَّ بهم من أسقام. وعلى هذا تكون أقوالهم عن تأثير التدخين في صحتهم موضع شك كبير . والواقع أن ما يقوله معظم المدخنين في هذا الشأن يناقض دائماً الأعراض البادية عليهم منه بقدر ما يتفق مع زمن عهدهم به وتعودهم إياه . وقليل منهم يرغب صادقاً في الاقلاع عن التدخين. وقد يحاول بعضهم التغلب على شعور الاستمتاع به ولو إلى حين ، وقد ينجح في محاولاته حيناً ويخفق وياللاسف أحياناً. وفي حال امتناعهم عن التدخين تتحسن صحتهم وخصوصاً مدمن اللفائف ، وبعضهم ينكر التحسن في صحته ويدعي نقيض ذلك إما غفلة أو عمدا .

ومعظم الذين ظهرت عليهم أعراض الالتهابات الرئوية والشعبية والقرحة المعدية والعتامة في النظر يستحيل عليهم الكف عن

التدخين إلاَّ عند ما تسوء حالتهم الصحية ويتقدم فيهم الداء إلى مواطن الخطر . وإذ ذاك يكون انقطاعهم قصير الأمد لدنوهم من باب النهاية المحتومة عليهم وعلى الأحياء جميعاً .

الدكتور شخاشيري

الماء العذب في المحيطات

في أزمنة الحرب ، تكثر حوادث غرق السفن بأنواعها ، ويلجأ ركابها الى قوارب النجاة يتكدسون فيها منتظرين رحمة القدر تجيء اليهم في سفينة أخرى تنقذهم ، أو طائرة تهبط عليهم فتنجيهم من أهوال المحيطات

ولئن نجا ركاب هذه القوارب من غرق ، فلن ينجوا من جوع يفري أحشاءهم وظمأ يجفف ألسنتهم .

فرأى حاكم بنسلفانيا السابق ، جيفورد پنشو Gifford Pinchot أن يبحث ويستقصي عسى أن يصل إلى مخرج من غائلة الجوع ومهرب من وطأة الظمأ .

ومنذ عامين ، قرأ پنشو خبراً عن ثلاثة من الطيارين هوت بهم طائرتهم البحرية في المحيط ، واستطاعوا أن يعيشوا ٣٤ يوماً في المحيط الهادي على طوف من المطاط ، بفضل تناولهم طعاماً مؤلفاً من طائرين وسمكات ثلاث . وعلى أثر قراءة هذه القصة ، أطلق پنشو لتفكيره العنان ، فأدرك بعد أن عاد بذاكرته إلى السنوات التي قضاها في صيد الأسماك ، أن صغار الأسماك تتجمع حول الأجسام الطافية كالقوارب وحطام السفن وما إليها ، فتتبعها السمكات الكبار لقنصها وافتراسها ، وحدّث پنشو نفسه قائلاً : « ولِمَ لا تُجهَّز جميع قوارب النجاة بقناصة لصيد الأسماك ، لعلها ترد عن اللاجئين فيها وطأة الجوع وتبقي على حياتهم بضعة أيام .

ظلت أصداء هذه الآراء تتجاوب في عقله إلى أن ذهب مع أسرته إلى مدينة دانية لتمضية عطلة الأسبوع . وبينما هو في هذه البلدة ، خطر له أن يزور أحد المشافي المحلية ويتحدث إلى المرضى الذين نجوا من السفن المغرقة بفعل الطرابيد . فكانت لكل من نزلاء المستشفى آراء مختلفة ، ولكنهم اتفقوا جميعاً على أمر واحد ، وهو أن ما نهكهم لم يكن انفجار السفينة ، ولا الجوع ، ولكن الذي أصاب منهم مقتلاً هو : الظمأ .

وفي مساء ذلك اليوم ، طرح جيفورد پنشو جسمه على فراشه طلباً للنوم ، ولكن هيهات . وفي ذلك تقول زوجه : « لقد ظل طوال الليل ، وأنا يقظة ، إلى جانبه يردد : « لابد أن هناك وسيلة للظفر بالماء في المحيط » . وفي صباح اليوم التالي ، قفز پنشو من فراشه وقد اختمرت في عقله فكرة . لقد عرف أن جسم الانسان يحتوي على مقدار كبير من الماء ، فَلِمَ لا يصدق

ذلك على الأسماك ؟ ولِمَ لا يكون هذا الماء أو العصير ، صالحاً للشرب ؟

وتذكر أنه كان في حداثته يهوى صيد الأسماك ، ويقطع البحار الجنوبية في رحلات صيد يقضي فيها نفسه ، ويجوب بقاعاً مجهولة غير مطروقة ، إشباعاً لنهم الهواية وتلبية لندائها . وتذكر أيضاً أنه تناول طعاماً من السمك النيء ، فلم يجد طعمه مرًّا ، أو كريهاً .

ومن ثمّ ، قام الشيخ پنشو وهو في السادسة والسبعين ، يطوف بتجار السمك في وشنطن باحثاً عن سمك بحري طازج . ولما عثر على بغيته ، أخذ منهُ شريحة وخلطها بقليل من الأرز ثم لفّها في قطعة من القماش كالتي تستعمل في حفظ الجبن ، وأمسك بطرفيها وعصرها ، فانساب منها سائلٌ ورديّ اللون . ولما تذوّقه ، وجده عذباً ، وليس بهِ من طعم السمك إلاّ الشيء اليسير جدًّا . وبهذه الوسيلة السهلة ، استطاع پنشو أن يحول ١٢ ٪ من وزن السمكة إلى عصير ، وباستعمال ضاغطةٍ يدوية بسيطة استطاع مضاعفة مقدار العصير .

ولما أحرز هذا النجاح ، رأى پنشو بمساعدة أحد أطباء جامعة نيويورك ، أن يجري تجربة للتثبت من أن هذا السائل يؤدي وظيفة الماء في الابقاء على الحياة . فتطوع رجلان للامتناع عن شرب الماء عشرة أيام ، ولم يتناولا في هذه الفترة سوى عصير السمك والجراية العادية التي تمنح ركاب قوارب النجاة . فأسفرت النتيجة عن نجاحٍ تام ، إذ أمضى الرجلان المدة المعينة في صحة جيدة جدًّا .

« هذا جميل ، ولكن كيف يستطيع أناس قذفتهم الأمواج في قاربٍ للنجاة وسط محيطٍ مقفرٍ ، استخلاص العصارة من السمك ؟ » هكذا كان اتجاه تفكير پنشو

ووردت على خاطره أيضاً ذكريات الماضي ، فأدرك أنهُ كان قد خرج للصيد مع صديق يدعى تشارلس نوردف Charles Nordhoff ، فأرسل اليهِ يسأله ، أكان أهالي المناطق التي قصدوها للصيد ، يشربون عصير السمك . فردّ عليه نوردف قائلاً : « يقول الپولينيزيون إن الانسان يستطيع أن يعيش مدة طويلة دون تناول الماء إذا مضغ السمك النيء ، ولفظ الأجسام الصلبة جميعها »

فابتهج پنشو وقال : « لسنا في حاجة إذاً إلى ضغط السمك او عصره ، لأن كل رجل يحمل معصرته الخاصة ، وهي لا تزيد شيئاً على حمولة قارب النجاة . وأرجو أن لا يمضي طويل وقت ، حتى يكون كل بحّار قد عرف أنهُ يستطيع في زمن الضيق أن « يشرب » سمكاً نيئاً ويأكلهُ أيضاً . لأن نسيج السمك — كما قال نوردف — من أفضل الأطعمة المغذية وأسهلها هضماً »

وديع فلسطين

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الخامس بعد المائة

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الخامس بعد المائة

١ أغسطس سنة ١٩٤٤ — ١٢ شعبان سنة ١٣٦٣

العقل مناط الامل

قلّب النظر في شؤون الأمم ومشكلاتها المحتملة غداة هذه الحرب الطاحنة ، كيف تشاء فلا مفر لك من الحكم بأن تحقيق الرجاء المعقود على إنشاء عالم تتوافر فيه أسباب الرخاء لجميع الناس ، وتتوطد أركان السلام في جميع أنحاء الأرض ، مرتبط بتحكيم العقل والخضوع لسلطان المعرفة . فالحريات الأربع التي نصبت هدفاً للاجتماع البشري ، مرتبط تحقيقها أوثق ارتباط ، بهذا التحكيم وذلك الخضوع : « وتعرفون الحق والحق يحرركم »

١ — العقل وموارد الطاقة

قد يقتتل الناس في سبيل النفط والفحم ، لأن الصناعة لا تستغني عن أحدهما الآن ، لتدير الآلات المتحركة في المصانع أو السيارات والطائرات والسفن المتحركة على الأرض أو في الهواء والماء . وقد يكون توزيع النفط والفحم في جوف الأرض توزيعاً لا تعادل فيه بين الأمم ، إن أخذنا بالحدود الجغرافية القائمة الآن ، ولكن العقل يتعين عليه ، أن ينشئ النظام الذي يتاح فيه لكل أمة ما يكفي حاجتها المشروعة . على أن العقل لا يقف عند هذا الحد ، بل هو يسعى ، من طريق الأداة التي اخترعها — أداة العلم — إلى بلوغ اليوم الذي تصبح فيه موارد الطاقة المحركة ميسورة للجميع كالهواء في جو الأرض أو كالخضرة على سطحها أو كالأشعة التي تملأ رحاب الكون .

فمن المحتمل أن تكون الطاقة المستخرجة من الذرات أو من ضوء الشمس الأداة المرموقة لقلب أساليب العيش في المستقبل رأساً على عقب . فإذا تمكن العلماء من إطلاق الطاقة الكامنة

في الذرات على وجه عملي ، أو إذا استطاعوا أن ينفذوا إلى سرّ الأوراق الخضر في التقاط طاقة الشمس وخزنها ، فقد يكون العصر المقبل عصراً تتوافر فيه الطاقة المحركة توافر الهواء الذي نتنفسه أو الماء الذي نبل ظمأنا بهِ .

فالناس يعتمدون الآن على النفط ومشتقاته ، أو على الطاقة المولّدة من الماء المنحدر . والمصدران الأولان من مصادر الطاقة — أي النفط والفحم — مآلها إلى النفاد ، وإن اختلف العلماء في تقدير أمد الاعتماد عليهما قبل نفادها . فاذا وفق باحث علميّ إلى كشف أسلوب عملي قليل النفقة يُطلق بهِ الطاقة المذخورة في الذرّة أو يتناول بهِ الطاقة من ضوء الشمس ، فالنتائج الصناعية والاقتصادية التي يسفر عنها كشف من هذا القبيل تكون في الطبقة الأولى من عظم الشأن في الاجتماع البشري .

والشمس هي في الأصل مصدر كل طاقة متاحة لنا . فالحرارة والطاقة الكهربية مردّها جميعاً إلى الشمس ، سواء أمن الماء المنحدر تولّدت الطاقة ، أم من الفحم المحترق أم من النفط . وكل الطعام يصنع أصلاً في معمل الورق الأخضر ، فهو دون غيره من معامل الطبيعة والانسان يستطيع ان يلتقط طاقة الشمس بأسلوب هين ويستعملها في بناء المواد الغذائية الأساسية ، ثم يخزنها . ثم يأخذها الانسان والحيوان طعاماً . وما فتئت الشعوب تتزاحم بالمناكب وتتقاتل في سبيل « مكان في الشمس » على حد قول غليوم الثاني . والمكان في الشمس قد يعني الطعام الذي تولده الأوراق الخضر بفعل طاقة الشمس . وهذه الحرب الناشبة الآن مدار ناحية منها على الأقل على طاقة الشمس الجامدة في جزيئات النفط وأطباق الفحم .

إن موضوع طاقة الشمس موضوع واسع النطاق . ويقول الدكتور اثمن مدير معهد كترنغ الأمريكي ، لدراسة اليخضور (كلوروفيل) والتركيب الضوئي : إن سطح الأرض يتلقى كل سنة من طاقة الشمس ، قدراً يعدل الطاقة التي يولدها حرق ستمائة الف مليون مليون مليون (٦٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠) طن من أجود أصناف الفحم (الانتراسيت) .

والنبات الأخضر هو أعظم أداة وأدق أداة لتحويل طاقة الشمس إلى أشياء تنفع الناس . وطريقته في هذا التحويل يطلق عليها وصف « التركيب الضوئي » . أما سرّها فلم يتضح تماماً للعلماء حتى الآن . فالنفوذ إلى هذا السر في طليعة مشكلات العلم ، بل في طليعة مشكلات الحضارة . فعلى السياسة التي تبيح لأعمال الحرب ألوف الملايين من الجنيهات ، أن تبيح للباحثين في هذا الموضوع ما يكفيهم من المال للبحث ، فإذا وفقوا إلى حلّ المشكلة

كان ذلك خطوة كبيرة نحو تحقيق إحدى الحريات الأربع التي يريدها الناس أركاناً للعالم المرتجى ، وهي التحرر من العوز والفاقة .

ويرى الدكتور امن أن هذه المشكلة تعالج من ناحيتين . أما الأولى فدراسة أسرار النمو في النبات ، وهذا يتيح للعلماء والزرّاع متعاونين ، زرع نبات يفوق مئات الأضعاف النبات الذي يزرع الآن في جميع أنحاء الأرض ، فيحوّل جانب كبير منهُ إلى مصادر تستخرج منها الطاقة بأساليب جديدة .

وأما الثانية فالبحث الكيميائي الأصيل في التفاعلات التي تمكن العلماء من تقليد الورق الأخضر ، أو مجاراته في تركيب الكربون (المنتزع من ثاني اكسيد الكربون) والايدروجين (من الماء) في مركبات تشبه المثلين (غاز المستنقعات) أو البنزين ، ثم إضافة الاكسجين إلى هذه المركبات للحصول على السكر والشحم والخشب ، ثم إضافة النتروجين للحصول على البروتين . ومن هذه المركبات الأساسية تصنع مركبات أخرى متعددة تعد جزيئاتها مخازن للطاقة .

ومتى حلّ العلماء مشكلة التركيب الضوئي وأنشأوا طريقتهم الخاصة لخزن طاقة الشمس المشعة ، فقد تكون هذه الطريقة مماثلة في أصولها لطريقة الأوراق الخضر ، وقد تكون أفعل منها وأكفأ .

فالناس بوجهٍ عام يعتمدون بغير اهتمام بالمستقبل ، على قدرتهم أن يتناولوا الطاقة من الفحم والنفط وما أشبه ، ولكن مثلهم في ذلك كمثل التاجر الذي ينفق رأس ماله أو يبعثره رويداً رويداً . ولذلك يذهب الدكتور امن إلى أن البحث في هذا الموضوع ، ليس بحثاً نظريًّا وحسب ، بل هو بحث نظري فتان وعملي خطير في آن . وإذا لم يتنبه أقطاب الحكومات والشعوب إلى هذا البحث حالا ، ويرصدوا المال الوافي للعلماء ، ليشرعوا في بحث واسع النطاق منذ الآن ، فقد يواجه البشر المشكلة ، وليس بين أيديهم الأدوات اللازمة أو المعرفة الكافية لحلها . وقد يصاب الناس من جراء ذلك بنقص في الطاقة المتاحة لهم إذا أهمل هذا البحث .

وغني عن البيان أن الذرّة تحتوي على طاقة كامنة فيها ، تتيح للناس إذا أطلقت بأسلوب عملي غير كبير النفقة ، مقادير من الطاقة المحركة لا حدود لها .

فقبل أربع سنوات أو خمس ، كان هذا الموضوع لا يستوقف عناية العلماء الا من ناحيته النظرية . ولكن فلق ذرة الاورانيوم في أوائل سنة ١٩٣٩ ، فتح باباً جديداً في هذا الموضوع . لأن فلق ذرة الأورانيوم صحبه إطلاق قدر عظيم من الطاقة الذرية

الكامنة . فأقبل رجال علم الذرة ، في شتى أقطار الأرض على بحث هذه الناحية الجديدة في هذا الموضوع الخطير .

وأغلب الرأي — على ما استطعنا استخلاصه من المجلات العلمية التي وصلت إلينا — أنه إذا أتقنت طريقة إطلاق الطاقة من الأورانيوم إتقاناً عملياً تجارياً ، فانها لا تبيح لنا الا الطاقة المخزونة في قدر يسير جداً من ذرات الأرض ، وهي ذرات عنصر الأورانيوم . وإذن فالرجاء الأكبر معلق بكشف طريقة أخرى تمكن العلماء ورجال الصناعة بعدهم من إبادة الذرات أيةً كانت أو إفنائها . وهذا هو رأي الدكتور توف أحد علماء قسم المغنطيسية الأرضية بمعهد كرنيجي في واشنطن العاصمة . وهو في طليعة الباحثين في هذا الموضوع .

أما الدكتور كولدج مدير معامل البحث العلمي في الشركة الكهربية العامة فيرى أن البحث أفضى إلى طريقة تطلق من عنصر الاورانيوم قدراً عظيماً من الطاقة الذرية ، وأنه إذا أفضى البحث في المستقبل إلى فهم سر هذا الاطلاق فهماً دقيقاً فقد نستطيع أن نطلق من رطل واحد من الأورانيوم قدراً من الطاقة يفوق الطاقة المستخرجة من ملايين من أرطال الفحم . حتى إذا كانت نفقة إطلاق الطاقة من الأورانيوم أكبر من نفقة إطلاقها من الفحم ، كان ذلك خيراً لأنه يتيح مصدراً للطاقة حيث اعتبار خفة وزن الوقود له شأن عظيم . ومن المحتمل أن يفضي البحث الذري إلى وسيلة تطلق بها الطاقة الذرية من ذرات بعض العناصر المألوفة .

وسئل الدكتور لي دهفرست وهو من أعلام المخترعات اللاسلكية في ذلك فقال : « إن كشف الجهاز الرحوي والتوسع في بنائه واستعماله ، يسوغ الرجاء المعقود باحتمال اعتمادنا في المستقبل على الطاقة المنطلقة من الذرة من طريق تهشيمها فتتاح مقادير من الطاقة لا تحد » .

ومهما يبعد الزمن الذي تنفد فيه موارد النفط فالفحم فانها ماضية إلى النفاد لا ريب في ذلك . والبحث في هذا الموضوع ، كالبحث في موضوع طاقة الشمس وخزنها ، قليل قليل الآن بالقياس إلى الفائدة العامة التي تجنى من البحث لو حلت إحدى هاتين المشكلتين ، فالحاجة إلى إرصاد مبالغ وافرة المال تتيح لعشرات بل مئات من الباحثين التوفر على هذه البحوث الفتانة الجليلة النفع .

٢ — العقل وموارد الصناعة

مهما تكن وجوه التحول السياسي والاجتماعي التي يحتمل أن تطرأ على حياة البشر فلا مفر من اطراد اعتمادهم في الحرب والسلم على الموارد المعدنية ، أو ما يحل محلها . ومهما تكن قواعد النظام العالمي الذي يكافح في سبيله عشرات الملايين من الرجال والنساء ،

فلن يصبح هذا النظام حقيقة واقعة إلاّ إذا كان ملائماً لخصائص الطبيعة البشرية ، وأوصاف الموارد المتاحة لهم في طبقات الأرض .

وقد دلّ البحث الدقيق المحكم في موارد القارات جميعاً على أن فيها موارد وافية من المعادن الأساسية ، أي أن الطبيعة تتيح فرصاً متساوية للناس أو تكاد تتساوى ، ولكن الناس اختلف شأنهم حتى الآن في اغتنام هذه الفرص واستغلالها . إلاّ أن الطبيعة لا تميل إلى انعزال كل قارة عن الأخرى واستكفائها . والقول بأن كل قارة تحوي في طبقات ثراها موارد معدنية وافية ، ليس صحيحاً على إطلاقه ، حتى إذا سلمنا بأن بعض المعادن يصلح للاستعمال محل بعض آخر — كاستعمال النفط المستقطر من الفحم بدلاً من النفط الطبيعي في قارة أوربة — وجدنا شذوذاً من القاعدة العامة . ففي معظم المناطق التي ارتقت فيها الصناعة وازدحمت منشآتها ، نجد قلة ظاهرة في موارد القصدير ، فلا يكاد يكون في ثرى القارة الأميركية الشمالية ركاز قصدير ، وفي قارة أوربة موارد قصدير يسيرة ، لا تجهز تلك القارة بأكثر من خمسة في المائة مما تستهلكه من هذا العنصر . وكذلك قل — على تفاوت — في النيكل والراديوم وغيرها .

فاستغلال موارد الأرض المعدنية المتاحة استغلالاً كاملاً يقتضي تنظيم حياة الأمم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، على أساس عالمي ، يضع العقل أركانه على أساس البحث العلمي . ويقول مايذر أستاذ علم طبقات الأرض في جامعة هارفرد : إن اكتفاء كل قارّة وعزلتها أمر لا يقرّه علم طبقات الأرض . فليست هناك قارة ما ، تستطيع أن تجهّز الشعوب التي تقطنها بالمقادير الكافية من جميع المعادن اللازمة للحضارة ، وأن تكفي حاجات جميع الناس . فالاستغلال التام لموارد الأرض لا يتمّ إلاّ إذا ساهمت كلّ قارّة بنصيب في سبيل الخير العام ، ولا مفرّ للعالم الجولوجي — على قول مايذر — من القول بأن تنظيم هذا الاستغلال على أساس عالمي أدنى إلى تحقيق الخير العام .

على أنّ العلم استهلّ في العهد الأخير فصلاً جديداً وكتب فيه آيات تبشر بتخفيف ضغط الحضارة الجديثة على موارد الأرض التي تنفد مهما تكن عظيمة ، وذلك باستحداث مواد كثيرة تحلّ محلّ المعادن ، ولا تنفد . فموارد الطبيعة طائفتان بوجه عام ، إحداها طائفة المعادن التي تكوّنت في جوف الأرض في أحوال جولوجية خاصة عريقة في القدم ، وهذه المواد مصيرها إلى القلة والنفاد . والثانية طائفة المواد التي تتجدّد كلّ سنة ، لأن التراب والماء والهواء وضوء الشمس تتعاون على تجديدها ، فهي لن تنفد إلاّ إذا انصرف الناس عن الزراعة . والعلم الحديث أثبت أننا نستطيع ان نصنع من موارد الطبيعة التي تخرجها تربة الأرض طائفة كبيرة من

المواد التي كنا نعتمد فيها على المناجم والآبار . فمئات من العجائن الكيميائية تحل الآن محلّ عشرات من الفلزات في مئات من وجوه الاستعمال .

ولنضرب على ذلك مثلاً واحداً ، هو حبةٌ من فول الصويا ، الذي أصبح نفعه في نظر العلماء لا يقتصر على كونه طعاماً مغذياً ، بل صار عندهم مخزناً لا ينفد ما فيه من العناصر التي تصلحُ لاستخراج كثير من مواد الصناعة .

أقبلت شعوب الشرق الأقصى ، ولا سيما سكان الصين ومنشوريا ، من قرون على زراعة « فول الصويا » ، الذي أطلق لينيوس عليه اسمه العلمي غليسين هسبيد Glycine Hispide فغدت حبوبه مورداً لطعام سكان آسية الغربية في منزلة موارد الخبز واللحم والدهن جميعاً . أما في أوربة وأميركة ففضل الناس الحنطة والذرة والشعير ، في المقام الأول . وفي مستهل القرن التاسع عشر بدأ الأميركيون في الولايات المتحدة يزرعون فول الصويا ، ولكنهم لم يصنعوا منه طعاماً بل صنعوا منه علفاً للمواشي ، أو حرثوه في الأرض لتسميدها به . وقد بلغت المساحة المزروعة « فول الصويا » في الولايات المتحدة الأميركية بحسب الاحصاء الأخير أربعة عشر مليون فدان (ايكر) .

ولكن أصحاب العلم الجديد — علم « الكيمرجي » أي استخراج مواد للصناعة من منتجات الحقول — وجهوا النظر إلى أن حبوب هذا الفول كنز لا يفنى . ففيها طاقة يجهز بها من يأكلها ، وفيها مواد كثيرة تصلح لشتى الصناعات . وإذا كان الكيميائي الزراعي والصناعي في هذا العصر ، لا يحيط عمله كالكيميائي القديم ، بألوان السحر وضروب الخفاء ولا يحاول أن يحوّل المعادن السخيفة إلى معادن ثمينة ، فانه عند ما يستخرج حريراً من خشب الشجر ويصنع أبواباً وصوفاً من بروتين فول الصويا ، يصغر في جنب عمله ، عمل جميع الكيميائيين الأقدمين .

والنتائج التي يسفر عنها بحث الباحثين في هذا الميدان العلمي الجديد ، في فترة قصيرة لا تبدو سريعة ولا تستوقف النظر . ولكن إذا أحصي ما تحقق منها خلال السنوات العشر الأخيرة ، ثبت أنها خطوة عمرانية عظيمة الشأن لا تقوَّم بمال ، لأنها سبيل جديد إلى استعمال الموارد الطبيعية المتجددة سنة بعد سنة ، وإحلال منتجاتها محل بعض الموارد التي لا تتجدد إذا نفدت . فتأثيرها في العمران مزدوج ، فهي تتيح للناس ما لم يكن متاحاً لهم من قبل ، وهي تغني عن معادن آخذة في النفاد ، فتضعف من حدّة التنافس الدولي على حيازتها .

والأصل في هذه النهضة العلمية الزراعية الصناعية في ما يتعلق بهذا الفول هو جزيء البروتين في حبة « فول الصويا » . وكل من طالع كتب التغذية يعلم أن البروتين مصدر من

أعظم مصادر الطاقة . ودقيق فول الصويا نصفه بروتين ، تؤيده مواد أخرى مثل الدهون والمعادن اللازمة والفيتامينات ، ومادة « الليسيثين » وهي لازمة للأعصاب وللأعضاء الحيوية . أما النشا فقليل فيه ، وهذا مستحسن لأن أكثر الناس يكثر من تناول النشاء في الخبز والرز والبطاطس وما أشبه .

وهذه العناصر مركبة تركيباً متزناً في حبة فول الصويا ، حتى ليصح أن توصف بأنها غذاء طبيعي قائم بذاته . وقد استعملت في المانيـة عنصراً أصيلاً في جراية الجنود . وفي سنة ١٩٣٨ أصدرت القيادة الألمانية العليا كتاب طهي للجيش يحتوي على مائتين واثنتين وستين وصفة لطهي فول الصويا . ووزارة الزراعة الأمريكية أصدرت كتيباً من هذا القبيل ، ومما جاء فيه أن إضافة دقيق فول الصويا الى دقيق الحنطة ، يزيد مقـدار البروتين ويقلل مقدار النشا ، ويجعل العجين أصلح للخبز ، وأطيب طعماً . ومكتب الكيمياء بوزارة الزراعة الأمريكية قال في نشرة : إن إضافة عشرين في المائة من دقيق فول الصويا إلى دقيق الحنطة يزيد مقدار الجير في الخبز ويجعل البروتين أيسر هضماً . ويحتفظ الخبز بطراوته يوماً كاملاً أكثر مما يحتفظ بها خبز الحنطة . ويصلح دقيق فول الصويا لجميع أصناف الكعك والرقاق وعلى وجهٍ خاص لصنع خبز حسن النكهة للمصابين بالديابيطس (البول السكري) .

وإذا كانت آسية الغربية قد غذّت شعوبها بفول الصويا ألوفاً من السنين — وقد وصفت الكتابات الصينية هذا الفول منذ ثلاثة آلاف سنة قبل التاريخ الميلادي — فان الشعوب الصناعية أخذتْ تغذي « مكناتها » بهذه الحبوب . فالألمان يحاولون استخراج زيت (دهن) منه يحلّ محلّ النفط في محركات ديزل . والروس كشفوا أسلوباً لاستخراج بروتين الفول لاستعماله في كل ما يستعمل فيه البروتين . ومادة الليسيثين تصلح للمزج بأصناف البنزين الجـديدة . و « فورد » يصنع منه هياكل شبابيك ، ومقابض أبواب وأجزاء كثيرة من أجزاء السيـارات ، كما صنعوا منه صنوفاً تصلح لحشو الوسائد والمقاعد ، ونسج الملاءات والأقمشة ، ودهاناً يدهن به الخشب والحـديد (كالورنيش) . وهنـاك فريق من العلمـاء معنيّ الآن بكشف أساليب لتحويل جزيئات البروتين المستخرجة من فول الصويا إلى مطاط وقد صنع منه مطاط أطلق عليه اسم « نوربول » Norepol

* * *

وهذا التطوُّر العلمي لا يزال في مستهله ، فإذا قال رجال السياسـة « الرخاء » و « التحرُّر من العوز » قال رجال العلم « لبيكم ، بين أيديكم » ، ولو كان مستقبل العالم مرتبطاً بالموارد المتاحة لهُ وحسب ، لما كان هناك شكٌّ في كونهِ مستقبلاً باهراً مفاتيحهُ في أيدي العلماء

هل الشام الى السفور ؟

كنت في رأس تلك السوق الخاصّة بالألطاف ، سوق الحميدية ، أنقّل الطرف بين قاشاني ورديّ ولازورديّ من صنع أهل دمشق للمئة السادسة عشرة ، ونارجيلة من البلّور البوهيمي المطوَّس والمزوَّق ، وطنفسة إذا بُثَّت حسبتها روضة جاءت تؤنسك ، وديباج فارسي نمَّمته الأنامل الرقائق على تعاقب السنين الرخيّة . كنت في حانوتٍ حلف صاحبها لا أنقلب إلى مصر إلاَّ شاكيَ الجيب .

وإذا أصوات تصيح : « سكّر . سكّر » (١) .

خفَّ الفراش إلى الباب وغلَّقه . فصعدت إلى الطبقة الثانية من الحانوت وجعلت أتبصر من تفاريج مشربية تركية طغى نافرُها على غائرها . تبصرت فإذا لمة من الخلق في أيديهم عصيّ وحجارة وفي وجوههم غضب ينز و . . . أهل حيّ الميدان والشاغور نزلوا إلى الأسواق يثيرون الرهج .

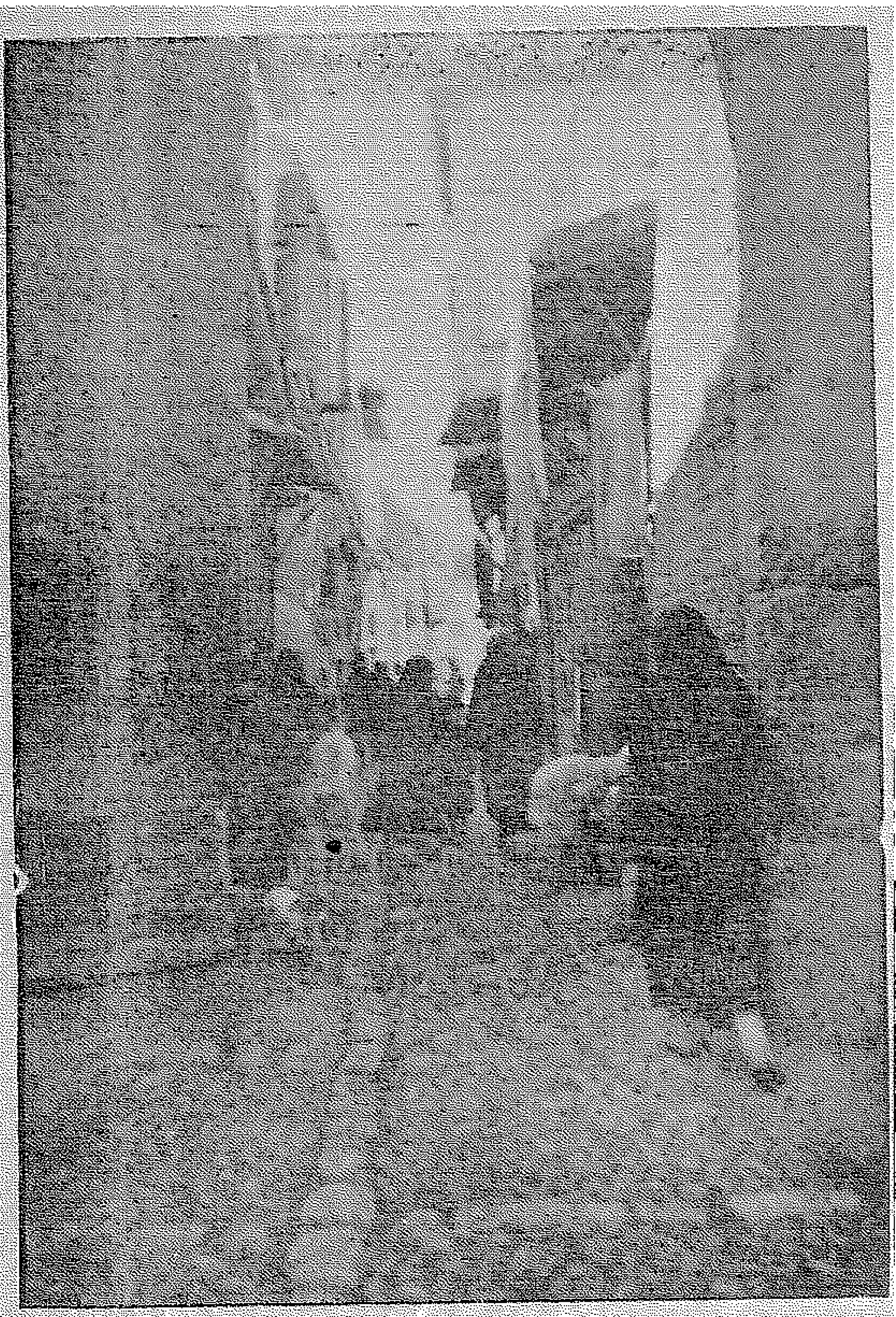
العصيّ تطوّح والحجارة تلقى . . . والزجاج أمسى أغلى من الألطاف وأندر . فـ « سكّر . سكّر » .

دفقت اللمّة نحو الجامع الأموي والحناجر تقذف بصيحات عافتْ أذني على سماعها ... « يحيا الحجاب والانتداب » . . . ما هذه الصيحة ؟ قاتل الله السجع العربي إن كان ما له نحو هذا . الحمد لله انها صيحة فرد .

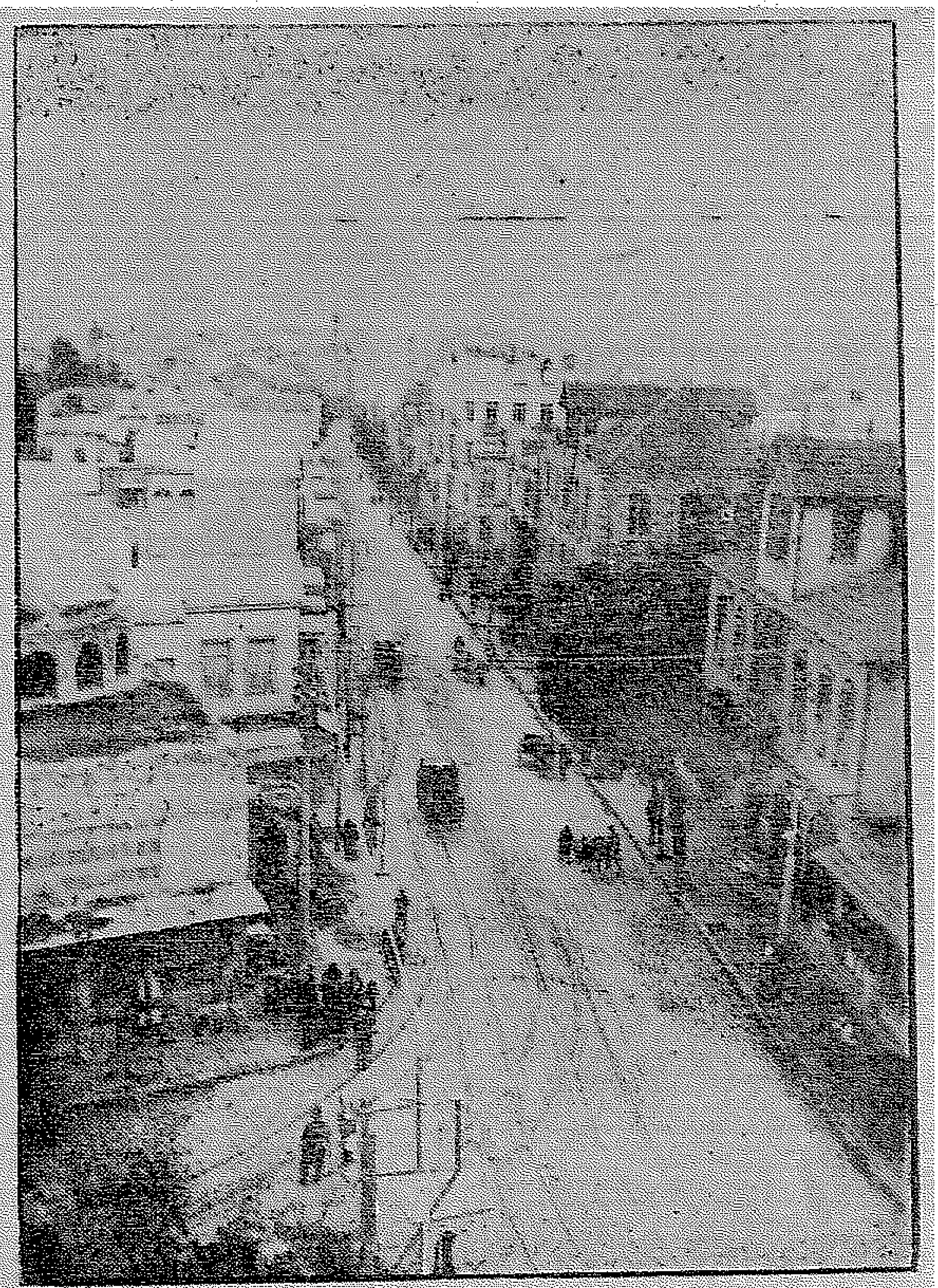
الحجاب ! حجاب المرأة الشامية ، ذلك كان مثار الفتنة . سالت وانتشرت فدام اختلاجها نحو أسبوع . وما أظن القارئ إلاَّ تواردت إليه أنباؤها وقد ابتدأت في العشرين من أيّار (مايو) سنة ١٩٤٤ ومن أنبائها الجسام أن تلك اللمّة — وقد أذكاها المتشددون — هاجموا في الصباح داراً للسينما كان العرض فيها للنساء خاصة . ولكن الشرطة ردّت هؤلاء الغلاة وأطلقت فيهم الرصاص فقتل رجل وفتى .

---

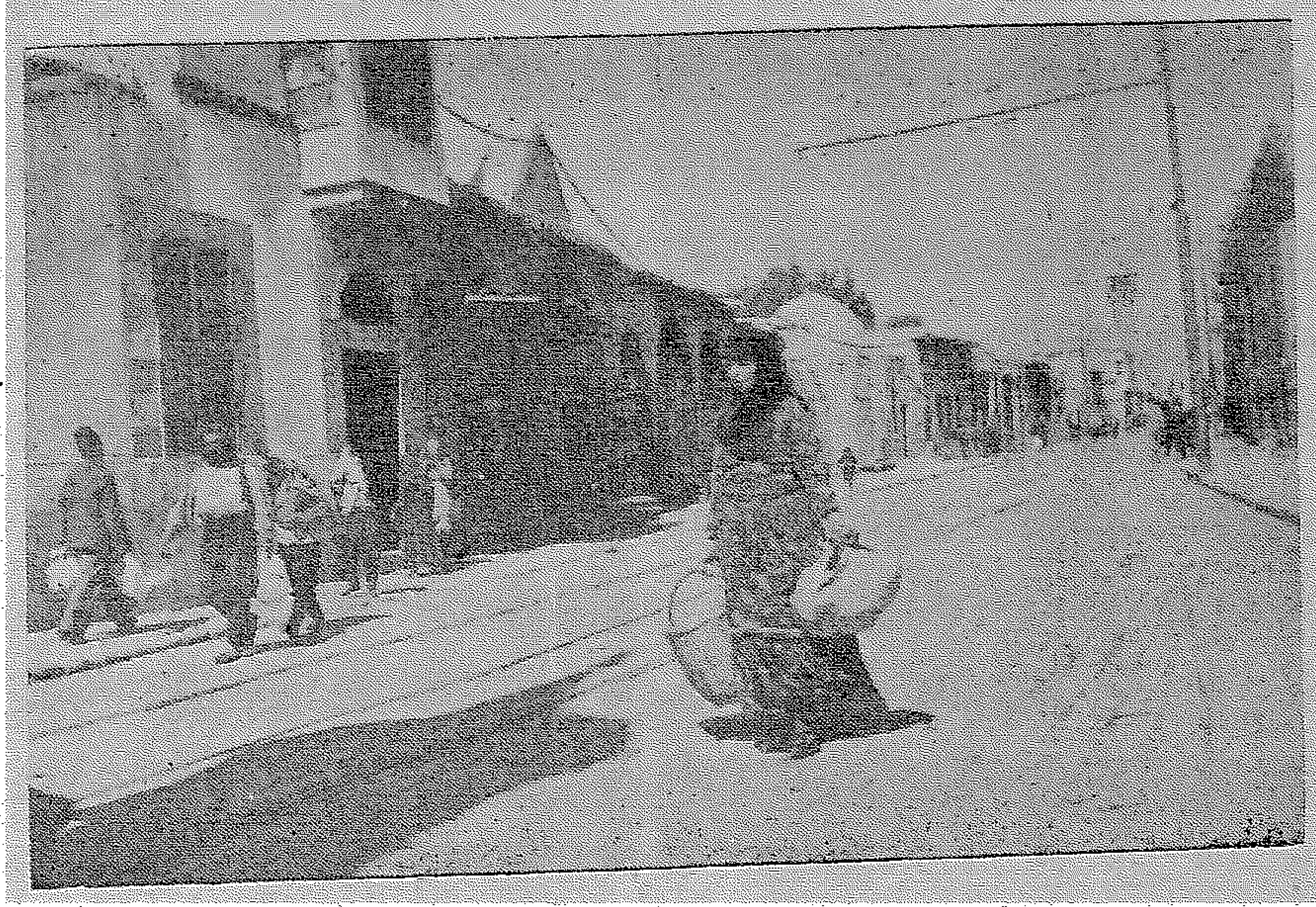
(١) « أغلق » في لغة الشام . والكلمة سريانية .



نساء محجبات في حي باب السلام بدمشق



حي الصالحية



قروية تسير في حي الميدان

مقتطف أغسطس ١٩٤٤ ، ص ٢٠٥

ليست الحوادث ما يعنيني ههنا ، فإن همي العرض والبحث من الناحية الاجتماعية . حتى الجانب السياسي لن أتمهل عنده . فقد بسط هذا الجانب وأظهر دفائنه رئيس وزراء سورية في الخطبة التي خطبها بين أيدي النواب في الرابع والعشرين من مايو ، وقد نشرتها صحف الشام . ومما جاء فيها نصًّا : « ان هنالك فئة من الناس يشجعون في الخفاء ومن وراء ستار أولئك الذين قاموا بهذا العمل . فهؤلاء المتصيدون في الماء العكر شهد الله ليسوا من أهل الايمان وأصحاب العقائد ولا من أصحاب الفهم بل هم دائماً أهل نقمة ولؤم وبغض لكل ما يقال له استقلال لأنهم نشأوا تحت ظلال العبودية » . (١)

***

مدار الصراع إذن مسألة الحجاب سواء كان السخط على السفور حقًّا أو مجتلباً أو مستثمراً . إن الباعث الظاهر هو ذلك السخط ، والصراع الملموس هو ذلك الذي يقوم بين التحرر والتقيد والترخص والتشدد . فلننظر في حال المتصارعين : النساء من جهة ، ومن جهة المتشددون . ثم لنتبين موقف الأمة والحكومة القائمة ، فقد يكون في هذا العرض وهذا البحث مادة لا يشوبها هوًى تُسعِدُ من يخطر له اليوم أو في الغد أن يتتبع جريان الحركة النسوية في الشام .

***

في دمشق جمعيتان للنساء تسعيان لترقية المرأة . الأولى جمعية « يقظة المرأة » ورئيستها الآنسة سعاد مردم بك ، والثانية « جمعية دوحة الأدب » ورئيستها السيدة عادلة خانم بيْهم وهي زوج الأمير مختار الجزائري . وللجمعيتين كاتمة سر واحدة هي ابنة الشيخ عبد القادر المغربي (٢) . ومن أغراض الجمعيتين مواساة الفقراء والمساكين . وللجمعية الثانية مدرستان إحداها لتعليم البنات والأخرى لتلقين فن الحضانة . وقد « احتجّت » (كما يُقال اليوم) هاتان الجمعيتان على غضبة المتشددين ، إذ رأتا أن المرأة على أيديهم موضع ذلة ، وقد أكد لي أبٌ لإحدى الداخلات في هاتين الجمعيتين « أن المرأة الشامية فوق استنكار المتصلبين » . ومما لا بدَّ من ذكره أن نساء الجمعيتين لا يعالجنَ قضية السفور ، ولا يخضنَ في أسبابها ، وفيهنّ المحجوبات والسافرات ، وفيهنّ مسيحيات أيضاً .

---

(١) صحيفة القبس ، العدد الـ٢٦٧٨ ٢٤ / ٥ / ١٩٤٤

(٢) وهنالك جمعية ثالثة أخرى اسمها « جمعية الاتحاد النسائي » وعهدها جديد وغايتها لم تظهر لي بعد

والحق أن الحجاب في مدن الشام كلها له سَيَـرانه وله سلطانه ، وكأني به أمر له قدسية : تستر المدنية وجهها بنقابين اثنين في الشام وحلب وحماة وحمص . وفي حمص رأيت بعيني السنة الماضية عجائز المسيحيات والبراقع لا تزال على وجوههن . وليس حال الحجاب كذلك في القرى ، فنساؤها سوافر حتى إذا جئـن في المدن . وفي حسباني أن المسلمات العاصيات حكم الحجاب في دمشق لا يتجاوزن المئة ، وهن معروفات ، مرموقات ، جلهن من علية الناس ، وفيهن زوجات وزراء لهذا العهد . ويبدو لي أن الدمشقيات المثقفات آخذات منذ سنتين في العصيان ، فهن يسفرن إذا اغتربن . وفي اللواتي يقمن بالحيين الحديثين : الصالحية والمهاجرين من أصبحت تعتاض عن النقاب الخمار تشده من الرأس حتى العنق مستديراً على نحو عرفناه في مصر من زمن قريب . وفيهن من ذهبت أبعد من ذلك فجعلت الخمار يتدلى على الكتفين ، فلا الشعر كله ولا الأذنان ولا العنق مستورة ، شأن كثير من المسيحيات في باب توما : حي النصارى . غير أن هذه وتلك ترسلان النقاب — أو النقابين — إذا انحدرتا إلى قلب المدينة ، إلى السوق ، إلى أحياء مثل الميدان والشاغور وقبر عاتكة حيث النساء يفرطن في التنقب والادناء من الحبرات الواسعة والادلاء . أين الرقة في برقع فتاة القاهرة أو الإسكندرية ، وأين « عروستها » ثم أين انضمام ملاءتها ؟

ومن طلائع ذلك العصيان أيضاً إقبال بعضهن على التبرج والتجمل ، فقد تلمح تحت النقاب الواحد أصباغاً شتى ، ثم تلحظ لفة الساقين حتى منشأ الركبتين ، وقد يبدو هذا غريباً والوجه مستتر . . . يا لمتناقضات النساء ! . . . ومن الطلائع كذلك أن النساء يحتذين الحذاء المفلّج ذا الكعب القائم الطويل ويؤثرن النعل المصنوعة من « الفلين » . كل ذلك إثم عند المتشددين . ودونك واقعة تدل على النضال الخفي قبل أن يستفحل الأمر فيقع في أمواج الفتنة :

حدثني من أثق به أن ربة بيت من بيوتات حي الشاغور — وهو حي محافظ على التقاليد كما قدمت لك — دعت سرباً من السيدات ، فجاء اللواتي يقمن بالصالحية والمهاجرين سافرات ، قد ضربن الخُمُر على رؤوسهن وجعلن في أرجلهن الأحذية والنعال المنكرة . فلما انصرفن أتى أهل الحي صاحب الدار ونصحوا له بالكف عن مثل هذه الدعوة ثم أنذروه وأوعدوه .

***

وسبب استفحال الأمر أن المتشددين بلغهم أن حفلة قومية ستجري في نادي الضباط الفرنسيين لأجل إعانة الأطفال الفقراء ، وأن المسلمات مساهمات فيها . فألقيت خطب في

الجوامع ولاسيما جامع تنكز[1]. وجامع تنكز مقر « الجمعية الغراء » التي عملت مع الحكومة الوطنية فرشحت نائب رئيسها للنيابة في المجلس ، وفي هذا الجامع خطب رئيس الجمهورية أيام الانتخابات في السنة الماضية . فللجامع خطره ، وللجمعية قوتها .

أبت الجمعية أن تنتهي والحكومة تبين لها سلامة الأمر وتتحرى لها وجوه النصح وتبصرها عواقب الفتنة ، على حسب ما جاء في خطبة رئيس الوزراء .

ثار المتشددون ، وقبل ذلك بقليل ثاروا على « جمعية المواساة » في حلب يزعمون أن نساءها يعملنَ لأجل السفور لا لأجل الخير . ثاروا في حلب ثم في دمشق ، وكيف لا يثورون وهم الذين نهضوا يدعون النساء سنة ١٩٣٠ و ١٩٣١ إلى ترك الزينة تركاً ولبس الملاءة البيضاء فهي أقرب إلى التقوى وأدل على الزهد وليت المرأة تُلف بها اللفة الأخيرة ، في ذلك الثواب . ثم هم الذين أسقطوا حكومة « الكتلة الوطنية » سنة ١٩٣٩ غضباً على مشروع قانون « الطوائف » الذي قدمهُ السيد جميل مردم بك . ثم هم الذين أجمعوا الرأي على مناوأة الشهبندر رحمه الله لاعتقادهم أنه من أنصار التجدد .

ثار المتشددون فطالبوا بإقامة الحجاب من غير تسمح ولا تهوين ، وبالغاء المدارس التجهيزية للبنات ، وبمنع النساء من حضور الحفلات على اختلافها ، وبغير ذلك مما أمضي عنه . ومما حدث أيام الرهج أن حبراً أسود أو أحمر ألقي على سيدات في الطريق ، وقديماً ألقي عليهنَّ « ماء النار » أو « ماء الفضة » ... اللهَ في قوارير دمشق !

***

وقفت الحكومة في وجه المتشددين وقفة صلبة ، فرئيس الجمهورية شكري بك القوتلي ورئيس الوزراء سعد الله بك الجابري ووزير الداخلية لطفي بك الحفار وسائر الوزراء أجمعوا الرأي على قمع الفتنة وعقدوا النية على العنف بمن أثارها ، ولم يكترثوا لهول الحجاب ولا لسلطانه فصرَّحوا بأن « هذه الحوادث جاءت نتيجة لهذه الحرية التي ظن بعض الجهلة أنهُ يستطيع بواسطتها أن يحصل على الحد من حرية بعض الناس ... » وأنهم « لا يستطيعون أن يفرضوا على الزوج إرادتهم بضرورة دعوته لعمل هو أولى به وقد أمره الشرع به ... » وأنهم « لا يمكنهم أن يدخلوا بيوت الناس ويفتشوا عما يجري فيها ، فالأصل براءة الذمة . » وأنهم « عند ظهور نتيجة الحوادث وظهور المسؤولين عما حدث سينظرون في أمرهم وقد

(١) أنشأه ملك الامراء تنكز ، وتكامل بناؤه سنة ٧١٨ . راجع « ثمار المقاصد في ذكر المساجد» ليوسف بن عبد الهادي ص ٢٠٢ . نشره محمد أسعد طلس ، بيروت ١٩٤٣ .

اتخذوا تدابيرهم في كل مدينة وفي كل مكان لقمع كل حركة يمكن أن تصطبغ بصبغة من هذه الأنواع ، إما بالتعدي على الحريات أو بالطعن في الأديان ... ومع الأسف تحت اسم الدعوة والتبشير لإقامة أسس الفضيلة والدين والأخلاق أصبحت القضية قضية تحكم . إنه إذا لم يعيّن من يريدون أو لم يعيّن إمام أو مدرس أو ينقل موظف أو يزد راتب تستغل هذه الأمور للشغب وفرض الأمر بالطلب وهذا ما لا يستطاع تحمله والقبول به » [1] .

وصفوة هذا الكلام القوي أن الحكومة الوطنية القائمة اليوم في الشام لا ترضى عن أمرين : الأول الحد من حرية الفرد ، فللفرد — من جهة الدستور — أن يرفض الحجاب . والثاني استثمار الدعوة الى إقامة الدين وبث مكارم الأخلاق في سبيل المنازعة والمجاذبة .

***

وأما أهل دمشق — ما عدا المتصلبين — فلا أظنني أغالي إذا قلت إنهم ارتاحوا إلى موقف الحكومة ، سواء كانوا من الناصرين لها أو المعارضين ، وفيهم من يسأل المضيّ في الحزم والشدة ، من ذلك ما كتبه الأستاذ نصوح بابيل في صحيفته « الأيام » (٢٦ / ٥ / ٤٤) قال : « إننا لا نحرص إلاّ على مكافحة الشر والاجرام . وليس للدين ولما يأمر به الدين علاقة ما في هذه الدعوة ، والله وحده أعلم بمن هم أصحاب الدين حقًّا ، وبمن يتخذونه وسيلة للاستثمار والاستغلال ، وستاراً يخفي وراءه شتى المآرب والغايات . نحن أمام حوادث وقعت وأرواح زهقت ومأساة مثلت ، فهل نكتفي منها بالانتقام من قبضة أفرادها في يد البوليس ؟ الحق يأمر أولاً بمحاكمة الدافعين والمدبرين » .

وقد وزع أصحاب الأذهان المستنيرة نشرات متعددة أعلنوا فيها استنكارهم للفتنة . ومن الجمعيات التي تضم هؤلاء المستنيرين : الحزب الشيوعي وهيئة التعليم الثانوي والابتدائي وجمعية الشبان المسلمين .

وأحب أن أنقل من هذه النشرات ما يتصل بقضية الحجاب ، إذ عليها مدار هذا المقال : جاء في « نداء طلاب الجامعة السورية » : « أثيرت في دمشق حركة سيئة أدّت إلى خلق جو خانق من الرجعية والخيانة تحت ستار الدين . وإن الشباب العربي المثقف الذي تعنيه هذه الظاهرة المصطنعة والمخجلة والتي تلطخ خلق الأمة وثقافة أبنائها وتقف في طريق نهضتها التحريرية وتطورها الطبيعي اللذين ينشدهما، يرى واجباً عليه أن يعلن استياءه

(١) من خطبة رئيس الوزراء .

واستنكاره . ومما يؤلمنا أن يتصدَّر هذه الأعمال رجال مغرضون ومن بينهم نائب أسندت اليه أمانة الأمة ليعمل على خدمة قضيتها لا ليمثل رجعيتها » .

وثمة « بيان جمعية خريجي المعاهد العلمية العالية في دمشق » وهي جمعية تضم نخبة من أهل التحصيل وأرباب الاجتهاد ، فيهم الأستاذ والطبيب والمهندس وغير ذلك ، وقد اجتمعتُ بفريق منهم ، بعد انكشاف الغمة عن دمشق ، وعلى رأسهم نائب رئيس الجمعية الدكتور زكي الجابي . فما جاء في بيانهم :

« إن جمعية خريجي المعاهد العلمية العالية ترى في الحوادث الأخيرة مظاهر مؤسفة لقضايا اجتماعية خطيرة ، تتصل بصميم حياة الفرد والأسرة والمجتمع ، وهي قضايا لم يكن لها في الماضي نصيب من التوجيه العلمي الصحيح ظنًّا من الكثيرين أن الزمن والتطور وحدهما كفيلان بإيجاد حل لها فكان أن زادها الزمن والتطور تأزماً . وإن الجمعية إذ تبتهج لما دلَّ عليه قرار المجلس النيابي من روح دستورية شريفة تعتقد أن هذه القضايا جديرة بالعناية . وتأتي قضية المرأة في رأسها : ويتضح حينئذٍ لكل ذي حسٍّ سليم أن الواجب الأول نحو المرأة هو أن تتهيأ لديها المناعة الخلقية القوية لكي تجابه ما تلاقيه وستلاقيه في الحاضر والمستقبل من تطور في وسائل العيش والتقدم المادي وشروط المجتمع وأحداث يفرضها الزمان فرضاً ، وإنما تتهيأ هذه المناعة الخلقية بطرق التربية والتهذيب والتثقيف في المنزل والمدرسة والمجتمع .

« إن الجمعية تعتقد أنه لا يصح أن يتكلم باسم الدين الحنيف من يشاء ويتشرَّف بزيه من يشاء ، ويدعو تحت ستاره إلى ما يشاء ، وأنه لا بدَّ من ضمانات خلقية وعلمية تفرضها وترعاها ، بالاتفاق مع أولي الامر . »

***

ذلك عرض مجمل لما جرى في دمشق قيَّدتُ فيه نواحي الجذب والدفع في قضية الحجاب . وهي قضية تشغل الشام اليوم وستشغلها زمناً لعلهُ لا يطول ثم تنحل عقدتها ، شأنها في بلاد أخر . فبالموازنة يستطيع القارئ المتأمل أن يدرك مغزى ما جرى في دمشق فيرتقب اليوم الذي تتفق فيه الأفهام على أن تخلي بين المرء وما يختار لنفسه ، وتتواطأ الهمم ولاسيما همم النساء أنفسهنَّ على رفع العوائق .

بشر فارس

اصلاح التربية

في المدارس المصرية

قرأت تقرير حضرة صاحب المعالي أحمد نجيب الهلالي باشا وزير المعارف العمومية المصرية في التعليم في مصر قراءة مقدّر له مُغْرم بموضوعه فاذا به يصوّر نقائص التعليم في إنجلترة والولايات المتحدة وما يقابلها من نقائص التعليم في مصر تصوير خبير عليم .

ولاشك أن المراد بالتعليم في هذا التقرير إنما هو التربية فهو في : إصلاح التربية في مصر . وبعبارة أدق : إصلاح التربية في المدارس المصرية . لأنهُ إنما بيّن عيوب التربية في المدارس وحدها ، وبيّنها فيها بأوسع معانيها وهي الجسديّة والنفسيّة والعقليّة لا عيوب التعليم وحده .

وهذا التقرير جديرٌ كل الجدارة بأن يتصدى لدراسته ونقده المربون والعلماء والأدباء والساسة وكل قادر على الدراسة والنقد ، وأن توليه الصحف والمجلات على اختلاف ألوانها وأقدارها أكبر نصيب من عنايتها، لأنه يدعو إلى نقض بناء قديم متداعٍ منهار وإلى بناء صرح حديث متين ، وما هذا البناء الذي يستحق كل هذه العناية ؟ إنهُ المدرسة وكفى . لأنَّ المدرسة مهد الحضارة ومصدر الحياة ومنبع كل قوة وعزّة للأمة .

وإذا لم يشأ حضرة صاحب المعالي واضعه أن يستثير الرأي العام المصري على نظم التربية المدرسية القائمة وأن يستنهض الهمم لدراستها ونقدها قبل أن يضع تقريره ويقدمه للمجلسين كما فعل وزير المعارف الإنجليزية قبل أن يضع الكتاب الأبيض ويقدمه للمجلسين فانه جعل التقرير مرناً قابلاً للتفاصيل الاصلاحية من كل لون فلا تزال أبواب القول فيه مفتحة .

وإذ كان ذلك كذلك وكانت وزارة المعارف جادةً الآن في وضع القوانين التي تنظم بها المدرسة على وفق ما جاء في هذا التقرير فإنَّ من التفريط في حقوق الوطن أن يسكت القادرون عن دراسة هذا التقرير ونقده وألاَّ تفسح الصحف والمجلات صدورها لكل كلام نافع في موضوعه .

ومن أجل ذلك أكتب هذا المقال لأعلى المدارس قدْراً وارفعها منزلةً وهي مجلة

المقتطف حاملة لواء العلوم والآداب والفنون في السبعين سنة الأخيرة في العالم العربي كله ، وبذلك أكون قد وضعت الأمانة التي في عنقي في عنقها هي ، وهي خيرٌ من يؤدي الأمانة الى أهلها وهم قراؤها فأقول :

إن هذا التقرير الجديد بأكبر عناية مرآة صافية مجلوّة تتجلّى فيها مشكلات التربية في المدارس المصرية أوضح تجلٍّ ويزيدها وضوحاً موازنتها بنظائرها في إنجلترة وأميركة ويمكن حصر هذه المشكلات فيما يأتي :

(١) أرستقراطية التربية (٢) انفصام عرا المدارس المصرية (٣) اقتصارها على تعليم العلم وحده (٤) انقطاع الصلة بينها وبين عضديها وهما المنزل والمجتمع (٥) توقيتها بأعمار وأوقات قصيرة (٦) المدارس الأهلية (٧) المباني المدرسية (٨) الامتحانات (٩) المعلمون (١٠) مواد الدراسة *

وشرّ هذه المشكلات وأجمها لكثير من النقائص هي أرستقراطية التربية أو اختصاص القادرين على بعض نفقاتها بخير وسائلها وهم الأقلية الصغرى وحرمان غير القادرين على بعض نفقاتها هذا الخير وهم الأكثرية الكبرى ، وقد عني هذا التقرير بهذه المشكلة أكبر عناية حتى كأنه ما وضع إلاّ لأجلها .

وذلك لأن هذا الاختصاص جديرٌ أن يرتفع بالأقلية إلى أعلى ما تحب من درجات الرقي الجسدي والنفسي والعقلي ومن رغد العيش وترف الحياة ونعيمها ومن مناصب السيادة والجاه العريض ، وحرمان الأكثرية حقيقٌ أن يهبط بها إلى أسفل ما تكره من دركات الاضمحلال الجسدي والنفسي والعقلي ومن المعيشة الضنك ومن المذلة والعبودية . وذلك قمين بأن يجعل الأمة طبقتين سيدة ومسودة ويوسع ما بينهما من خلاف ويقضي على وحدة الأمة وتجانسها وتماسكها القضاء المبرم ويسارع بها إلى أسوأ مصير .

وليس لهذا البلاء المبين من سبب إلاّ قدرة الأقلية على بعض النفقات وعجز الأكثرية عنها فالاختصاص بخير وسائل التربية قائم على القدرة المالية لا على قدر المواهب والملكات النفسية والعقلية التي تؤهل الطالب لاجتياز مراحل التربية حتى نهاياتها بِفَوَقان ثم التصدر لخدمة الوطن عن جدارة واستحقاق كما يقول التقرير .

ولا علاج لذلك إلاّ إلغاء النفقات المدرسية لا من المدارس الابتدائية والثانوية حسب كما ارتبطت حكومتا إنجلترة والولايات المتحدة وكما ارتبطت الحكومة المصرية بهذا التقرير الذي أقرّه المجلسان بل منهما ومن جميع مراحل التربية الأخرى كما فعلت دول أقل منا عدداً وثروة بل وحضارة .

غير أن هذا الالغاء في إنجلترة وأميركا سلاح "هَدَّام" سيقضي على أرستقراطية التربية فيهما قضاءً لا مردَّ له ، ولكنه في مصر سلاح كهام لا يمكن أن يبلغ المحز ما دام للتربية الأولى في بلادنا نوعان من المدارس أحدهما رياض الاطفال فالمدارس الابتدائية وباب هذا النوع مفتوح على مصراعيه لمراحل التربية الأخرى ، والآخر المدارس الأولية وبابه موصد كل الإيصاد دونها فلا منفذ منه اليها .

ولسنا نملك وسيلة لتوزيع الأطفال وهم أعظم كنوز ثروتنا على هذين النوعين توزيعاً عادلاً حكيماً على قدر المواهب والملكات والميول لا على قدر ما يملكون من مال ، وهم منذ قبولهم في النوعين من هذه المرحلة حتى نهايتها في سن لا يصح فيها الحكم على مصيرهم فقد كاد المربون في الدول التي نقل عنها التقرير وفي مصر يجمعون على أن أكثر الأطفال إن لم يكن جميعهم لا يمكن أن تظهر جميع مواهبهم وميولهم للأعمال التي سيزاولونها في كبرهم ظهوراً واضحاً صادقاً يعتد به ويعتمد عليه قبل سن الثالثة عشرة وهي السن التي يقضونها كلها في المرحلة الأولى بنوعيها . فقد جاء في التقرير : ويلاحظ أن رجال التربية يرون — مستندين إلى تجاربهم الماضية — أن اختيار نوع التعليم والتوجه إلى مهنة خاصة لا يصح أن يكون في سن الحادية عشرة كما لا يصح أن يستند إلى امتحان يعقد في هذه السن لأنها سن مبكرة وقد أخذ الكتاب الأبيض بهذا الرأي وقرن أنه لا يصح بمقتضى امتحان في هذه السن المبكرة الحكم على مستقبل الصبية والمهن التي ينبغي أن يمارسوها في حياتهم فضلاً عن أن المواهب والاستعدادات الحقيقية لا تبرز في هذه السن المبكرة ولذلك رأوا أن يكون توزيع التلاميذ في سن الحادية عشرة على مختلف انواع التعليم الثانوي توزيعاً مبدئيًّا يعاد النظر فيه في سن الثالثة عشرة (ص ٢٤ س ٢١).

ولسنا نملك وسيلة لا حرج فيها ولا ضرر لوصل أحد هذين النوعين من هذه المدارس بالآخر وصلاً يسوّي بينهما وبين تلاميذها في الوسائل والنتائج وييسّر لذوي المواهب والملكات الصالحة الاستمرار في مراحل التربية حتى النهاية ، ما دامت المدرسة الأوّلية لا تؤهل للمدرسة الثانوية كالمدرسة الابتدائية . وما دام هذا الفارق بين المدرستين الأولية والابتدائية قائماً لا يمكن ان يرجى لديمقراطية التربية قيام . إنهما نقيضان لا يجتمعان .

ولا علاج لذلك إلاَّ ما أقوله الآن وهو رأي لي قديم قلته في مؤتمر التعليم الأولي سنة ١٩٢٥ وما كنت أقوله قبل ذلك وهو إما إلغاء رياض الأطفال والمدارس الابتدائية وجعل المدرسة الأولية هي مدرسة المرحلة الأولى الالزامية الموصلة للمدرسة الثانوية وإما إلغاء المدرسة الأوّلية وإبقاء رياض الأطفال والمدارس الابتدائية وجعلهما المرحلة الأولى

الالزامية الموصّلة للمدرسة الثانوية . فاذا لم يكن بدٌّ من بقاء المدرستين الأولية والابتدائية فلتكن إحداهما وهي الأوليـة مقدّمة لا بدَّ منها لدخول الأخرى وهي المدرسة الابتدائية فتحل بذلك محل رياض الأطفال وتسمّى باسمها إن شئنا وتكون المدرستان مرحلة واحدة هي المرحلة الالزامية الموصّلة للمدرسة الثانوية . وفي كل حال من هؤلاء الأحوال الثلاث يُفْـرَض على جميع الأبناء الأغنياء والفقراء معاً اجتياز هذه المرحلة وتوجّه كل الجهود والعناية والمال لترقيتها وتعميمها حتى تتسع طولاً وعرضاً وعُمْـقاً على وَفْـق تعبير التقرير ويمكن مع ذلك أن يكون من مدارس المرحلة الأولى المذكورة في أي وضع من الأوضاع الثلاثة المذكورة ريفي وحضري ، فان ذلك لا يؤثر بأية حال في ديمقراطية التربية

فاذا لم نفعل شيئاً من ذلك وأبقينا المدرستين الأولية والابتدائية على ما هما عليه الآن من اختلاف في الوسائل والغايات كان من المستحيل أن تحقق العدالة الاجتماعية في أحق بيئاتها بها وهي المرحلة الأولى من التربية التي تعد من مراحل التربية الأخرى كالأساس من البناء .

أما العقبة الـكبرى في سبيل هذه الأوضاع وهي اللغة الأجنبية في المدارس الابتدائية فهذه يجب وجوباً تربويّـاً وقوميّـاً إلغاؤها إلغاءً تامّـاً لا رجعة فيه أَبَـدَ الآباد ، لأن اللغة أداة التثقيف والتهذيب ، والأطفال في هذه السنّ سنّ التربية الأولَى حديثو عهد باللغة وبالمعارف والتداريب التي لا بدّ منها لتثقيفهم وتهذيبهم ، ولا نعتمد في انتشارها بينهم إلاَّ على اللغة القومية ، هذه اللغة التي تملأ أسماعهم وأبصارهم وتملك مداركهم ومشاعرهم في بيئات التربية الثلاث المنزل والمدرسة والمجتمع ، ولا تدع لغيرها من اللغات سبيلاً إليهم إلاَّ إذا وهَـنَـت هي ووهَـنَ معها التثقيف والتهذيب القوميان . وأيّـة أمّـة من الأمم التي نريد أن نساير ركبها في الحضارة وفي مقدّمتها إنجلترة وأمريكة تعلّـم أبناءها في مدارسها الابتدائية لغة أجنبيّـة ؟ إنها إن فعلت ذلك كانت غير جديرة بأن تكون قدوة لنا وبأن نقلّـدها فيما فعلت من مُـنْـكَـرٍ بَيّـن .

ومن شرّ هذه المشكلات وأسوئها تأثيراً في حياتنا انفصام عُـرا المدارس المصرية أو عدم اتّـصال بعض مراحلها ببعض اتصالاً وثيقاً يُـيَـسّـر للطالب الانتقال من أيّـة مرحلة إلى غيرها أرقى منها أو أصلح له منها لِمـَا في هذا الانفصام من عُـقْـم محقّـق بالقضاء على كثير من المواهب والملكات ومصالح الوطن ، فكثيراً ما ظهر على كثير ممن أتمّـوا الدراسة في المدارس الأولية سلامة المدارك وسموّها والقدرة الفائقة المؤهلة لاجتياز مراحل التربية حتى نهاياتها العلياء ولكنهم حُـرِموا الاستمرار في معاهد التربية لتكميل أنفسهم ورفع شأنها

وحُرمت الأمة ثمرات أعظم غرس فيها لا لشيءٍ إلاّ لهذا الفارق الذي قطع صلة مدارسهم الأولية بالمدارس الثانوية فما بعدها وهو اللغة الأجنبية.

وكثيراً ما ظهر فيمن تربوا في مدارس المعلمين الأولية ما يؤهلهم لإتمام التربية في معقد آمالهم الأسمى وهو دار العلوم وتحرَّقت نفوسهم شوقاً إليها وحَفيت أقلامهم وأقدامهم في السَّعي لدخولها وهم يحرمون وتحرم الأمة ثمرات رقيهم النفسيّ والعقليّ. ولطالما ذابت نفوس المربين في المدارس الأولية للمعلمين والمدارس الأولية حسرات على النبوغ الذي قُبرَ فيهما لأنه لا يجد له منفذاً .

وفيمن يربَّوْن في مدارس التعليم الفني المتوسط الزراعي والصناعي والتجاري من إذا ذاقوا حلاوة الفن في هذه المدارس ومرنوا عليه وامتزجوا به فيهـا وتاقت نفوسهم إلى الاستزادة منهُ حتى نهايته وإلى الكمال والرقيّ في هـذه الحياة وجدوا أبواب كليّـاته ومدارسه العليا موصـدة في وجوههم فتموت فيهم الهمم والآمال وتفقـد الأمة بذلك ثروةً لا تقدَّر .

وفي معاهد الأزهر الشريف المختلفة طلاَّب يَتبيَّنُ لهم أنفسهم أنهم ليسوا أهلاً لما خلق لهُ الأزهر وهو مناصب الهداية والارشـاد الدينية وتنصرف نفوسهم عن معاهدهم ولا يبقون فيها إلاَّ لأنهم لا يجدون سبيلاً إلى المدارس المدنية . وفي المدارس المدنيـة من تنمي فيهم العاطفة الدينية نماءً كبيراً ويتوقون إلى الانتقال إلى المعـاهد الدينية فمناصب الهداية السامية ويزهدون فيما هم فيه ولكنهم لا يجدون إلى ما يبتغون سبيلاً

فهل من الخير والمصلحة للدين والدنيا معاً أن يبقى فريق من شـباب الأمة في ناحية وقلوبهم وعقولهم في ناحية أخرى . أليس انفصام عرا المدارس المصرية من شر نقائص التربية ومصائبها؟ وهل في إنجلترة وأميركة أمثال هذا الانفصام وهذا التعسير على طلاَّب التثقف والتهذب ؟ وهل في الدنيا عقمٌ شرٌّ من هذا العقم وخسائر أفدح من هذه الخسائر ؟

إني وإن لم أكن من أنصار مسايرة ركب الحضارة الغربية شبراً بشبر وذراعاً بذراع موافق على أن نساير هذا الركب فيما ورد في هذا التقرير من شؤون التربية، لأن المدرسة هي إحدى القوتين اللتين فاقتنا فيهما أوربة وأميركة كل الفوقان ، ويجب أن نلحقها فيهما . أما القوة الأخرى فهي المصنع وبخاصة المصنع الحربي . والمدرسة هي الأصل ، هي مصدر كل القوى بشرط ألاَّ نشذَّ عن مسايرة أوربة وأميركة فنستبقي بعض آثار الأرستقراطية وبعض آثار الانفصام .

عبد الله أمين

ديوان منسوب الى المعري

لأسعد طلس

الديوان الذي ننشره هنا هو أحد الآثار المجهولة من أدب المعري[1] وهو رسالة لطيفة محفوظة بدار الكتب الظاهرية تحت رقم ٥٥٤٢ في ثماني عشرة ورقة (٢١ × ١٧ سنتياً) مكتوبة بخط يرجع إلى القرن الحادي عشر. وقد اختلف العلماء في أمر هذا الديوان ، فالأستاذ سليم الجندي يرى في مقال نشره بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق عدد آذار (فبراير) ، نيسان (مارس) سنة ١٩٤٣ أنه لأبي العلاء لأسباب ذكرها . ويرى الأستاذ خليل بك مردم أنهُ لمتأخر حاكى في بعض الأبيات أسلوب أبي العلاء . ورأيي أن في الديوان ما يدعو الى الشك في النسبة إلى أبي العلاء ، وفيه ما يدعو إلى القطع بأنه من شعره .

أما ما يدعو إلى الشك فأمور ، منها : أن الديوان كله في الغزل كما سيرى القارئ وليس فيه إشارة إلى حلب ولا إلى ناحيـة من نواحيها ، كما يقول كاتب المقدمـة ، إلا في البيتين الآتيين . وهما قوله :

فُـرات الحمى من لي بتبريدك الحشا ودونك سورٌ من قنا وسيوف

وقوله : قتيلاً إذا ناديتمـــوه أجابكم له شرق بالدمع إن ذكر الشرقا

فأنت ترى أنه يتشوّف في البيت الأول إلى مياه الفرات ، والفرات من أنهار حلب كما أنه من أنهار العراق . وفي البيت الثاني يتشوّق إلى الشرق والشام شرق كما أن العراق شرق الشرق !!

ومنها أن في لغة الديوان — كما يرى الأستاذ الجندي — بعض الركاكة ، وإن كان يغلب على ظننا أن مصدر هذه الركاكة — أو أكثرها — راجع إلى الناسخ الذي شوّه الديوان تشويهاً ما بعده تشويه . وما نريد أن نضرب الأمثلة على ذلك فان في ذلك مضيعة للوقت .

ومنها ما في الديوان من استعارات وتشبيهات وزخارف يمجها الذوق ، ولم نتعوّد أن نجدها في الأسلوب العلائي ، كقوله :

---

(١) عكفت على دراسة أبي العلاء ، واعتمدت على مخطوطات في الخزائن ، من ذلك نبذة من « الأيك والغصون » وأخرى لم تنشر من « الفصول والغايات » وهـذا الديوان ، وقد وصلت الى نظرات جديدة ضمنتها كتاباً لطيفاً سميته : « نظرات جديدة في أدب المعري » وألحقت به ما لم ينشر بعد من أدب أبي العلاء . ثم بعثت بالكتاب الى الدكتور طه حسين بك بمناسبة إشرافه على إحياء آثار المعري .

رشأ صام علواً فادعت يثرب الحشا وأفطر سفلاً فادعت ردفه مصر

أما الأمور التي تدعو إلى القول بأنهُ من آثار أبي العلاء المعري فهي كثيرة :

منها أن من ينعم النظر في الديوان يرَ فيهِ شيئاً كثيراً مما كان أبو العلاء يأخذ نفسه به من لزوم ما لا يلزم ، وحسبك أول البيت وآخره وما الى ذلك من القيود . ومنها أن في لغة الديوان إغراباً كثيراً وأبو العلاء ممن كانوا يؤثرون الاغراب في شعرهم ونثرهم . ومنها أن الديوان مملوءٌ بالمحسنات المعنوية أو اللفظية التي كان المعري يتعمدها في شعره . ومنها أن روح الزهد والنسك التي تظهر في ثنايا بعض القصائد كثيرة الشبه بنهج أبي العلاء في اللزوميات .

لهذه الأمور نميل إلى أنه غير بعيد أن يكون لأبي العلاء ، وها نحن أولاء ننشره ليرى القراء رأيهم فيه والسلام .

دمشق أسعد طلس

ديوان أبي العلاء المعري رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أودع في كل قلب ما أشغله ، الخالق الذي خلق الإنسان وبالعقل فضّله ، وأوضح لذوي الأدب سبيل البلاغة فاتضح ما يجلو من وجوه المعاني عيون الملح ، وخصّ من شاء بالفضائل من العباد ، وقسمهم أقساماً فهذا مفيد وهذا مفاد ، وجعل هذا الإنسان قابلاً لكل مراد ، والصلاة والسلام على أشرف العباد ، وعلى آله الغر الجياد .

وبعد فقد قال أبو العلاء المعري وكان ببغداد يتشوّق الى حلب ونواحيها ، ونظم هذا الديوان ، وبالله سبحانه التوفيق (١) .

حرف الهمزة

أما لك يا داء المحب دواء بلى عند بعض الناس منك شفاء
أسيرُ العدى بالمال يفديه أهله وما لأسير الغانيات فداء
أسود الشرى في الحرب تحمي نفوسها بنجدتها ما لم تعنَّ ظباء
إذا كنت خلواً فاعذر الصبَّ في الهوى فما المبتلى والمستريح سواء
أتأمرني بالصبر عمن أحبهُ وهيهات ما لي في هواه عزاء
أموت اشتياقاً ثم أحيي لشقوتي كذاك حياة العاشقين شقاء

(١) هذه المقدمة مع العنوان من قلم الناسخ في رأينا

إليك فلو ذقت الهوى لعذرتني جفونك وسنا والفؤاد هواء
ألا إن قلب الصب في يد غيره (١) يقلبهُ بالطوع كيف يشاء
أنا لمت أهل العشق قبلك في الهوى فها أنا أدري مثلهم وأساء
أصابت فؤادي أسهم اللحظ إذ رمت فلله قتلى الأعين الشهداء

حرف الباء

بكت رحمة للصب عين عدوه فما لحبيب القلب لا يرحم الصبّا
بخيلٌ بأن يحيي القتيل بلحظه وأن يرد الظمآن بارده العذبا
بعيدٌ على أن الديار قريبة فحتى متى بالبعد تمزج لي القربا
بنفسي حبيبٌ خانني فوفيته فزاد قلىً فازداد قلبي له حبّا
بذلت له الود المصون وأدمعي ولم يقتنع حتى وهبت له القلبا
بدا لي فقلت اردده قال ملكته ولو لم تهبهُ لي تملكته غصبا
بعينين هاروتيتين كأنما يجرّد نحوي منهما صارماً عضبا
براني هوى الظبي الغرير وقادني ذليلاً وكم راض الهوى جامحاً صعبا
بللت ردائي بالدموع وإنما يزاد بها الباكي على كربه كربا
بعثت رسولي بالخيال الذي سرى إليك بدمعي والنسيم الذي هبّا

حرف التاء

ترى قبّلتك الريح عني وبلغت من السر ما استودعتها حين هبت
تحية مشتاق يعض بنانه إلى قدم زلت ولم تتثبّت
تركتُ التي من أجلها جدَّ بي السرى على أنني أحببتها وأحبّت
تعجبت إذ مدّ النوى لوداعها يداً كيف لم تشلل هناك وتبّت
تقول اصطبر كم ذا البكاء فقلت ما دموعي جرت بل أبحر الشوق عبت
تميمية ترقى الضجيع بريقها إذا عقرب منها على الصدغ دبت
تبيت على شمس الضحى فكأنها مع الحور في دار النعيم تربت
تهب رياح المسك من نفحاتها فما استنشقتها الريح إلاّ وهبت
تراءت لعيني في المنام فأطفأت بزورتها نار الهوى وهي شبت
تذكرتها حتى إذا ما تماثلت طربت كأني قد دعوت ولبّت

(١) على هامش الاصل: « في نسخة: حبه »

حرف الثاء

ثملت بذكراها وطبت كشارب لها بالمثاني وحده والمثالث
ثلاث سلبنَ القلب حسن عزائه وألبسنني ثوبي خليع وناكث
ثقالة ردفيها ورقة خصرها وسحر العيون القاتلات البواعث
ثقفت بعينيك الأسود كأنما هما سيف جبار مصلاً عائث (؟)
ثقي بي على ذا النأي إني لمقسم بعينيك لا أشكو ولست بحانث
ثبوتاً على عهدي الذي كان بيننا إذا غيّر الأحباب صرف الحوادث
ثنتني صروف الدهر عنك وما انثنى فؤادي لجسمي راحلٌ مثل لابث
ثمار المنى من يجنها دون إلفه يجد طيبات العيش مثل الخبائث
ثلمت ضوى صبري (؟) فأورثني الضنا فويح غرام للضنا فيك وارث
ثوائي على حر الغضا مذ فراقكم فهل من خيال عن غرامي باعث

حرف الجيم

جوًى تتلظى ناره في جوانحي فكيف ينام الليل حرّان منضج
جفاه الكرى والطيف مذ واصل البكا فتى متى يبكي ولا يتفرّج
جرى القدر الجاري عليه بفرقةٍ فليس له من داخل الهمّ مخرج
جليدٌ على الكتمان لو لم تبُح به دموع على خديه بالدم تمزج
جعلت امحّي ما كتبت بعبرتي وكدت لسقمي في كتابي أدرج
جزى الله من أدّى رسالة عاشق وحسن أعذاراً من البين تسمج
جواباً لعل الكتب تطفئ لاعجاً على كبدٍ من ذكركم تتوهج
جميلاً فما فعل الجميل بضائع ولاسيما في الصب والصب أحوج
جنيت على نفسي الهوى فقتلتها وحبي بريء من دمي متحرج
جلاء همومي طيفكم يوضح الدجى وإلاّ فأنفاس الصبا تتأرّج

حرف الحاء

حسبت النوى تسلي فزدت بها هوى واغلقت باب الوصل من حيث يفتح
حرمت وصال الحب في طلب الغنا وأي غنى في وجهه كنت أربح
حباني بياقوت من الدر أحمر ودر فم منه سنا البرق يلمح

حبيب أحيّا منه بالبدر ناطقاً وأغبق خمراً من جناه وأصبح
حسان الدمى تصبو إلى حسن وجهه وصلد الصفا من لمس كفيه يرشح
حُسدْت عليه قاتل الله حاسدي فضنَّ به الدهر الذي كان يسمح
حمدت زماني فيه ثم ذممته وما زال هذا الدهر يهجى ويُمدح
حديثٌ له في النفس لست أذيعه بتذكاره يؤذي الفؤاد ويجرح
حضرنا وإن غبنا جسوماً وخاطراً فنحن قريب والمنازل نزَّح
حيا عبرتي يحيي الثرى بعد موتها وأيسر منهُ الوابل المتبطح

حرف الخاء

خلعت عذاري في اللاح ولم أبل بما يستريح حاسد لي لاطخ
خليون يلحون الشجي على البكا وليس لأحكام الأحبة فاسخ
خدعتكم لما سلوت تجاهلاً وقلبي في علم الصبابة راسخ
خليلي إن النار في مشرقية لها فتكات الرد وهي مشايخ
خلا أن هذا الحب طلَّ به دمي وقومي جبال للملوك شوامخ
خضعت لمن أصبحت في الحب عبده على أن مجدي في الأعزّة باذخ
خطوب الهوى حلت فكم هدمت عليَّ وكم شيبة من عاشق وهو شارخ
خبت كل نار غير نار صبابتي ستبقى وإسرافيل في الصور نافخ
خذي أدمعي ياريح هدياً إلى الحمى لتسقيهم منها الغروب النواضخ
خواطر قلبي أخبرتني بأنهم على العهد لم ينسخ ودادي ناسخ

حرف الدال

ديارهم لا غيرتك يد البلى ولا زال يسقيك الحيا ويجود
دنوت من القلب العميد على النوى وكل له قلب عليك عميد
دعوناك مرضى لو شفيت مجيبة ألم تسمعينا نحن منك بعيد
ديون علينا يقتضيها غريمها فلا قضيت إلاّ وأنت شهيد
دجى الليل صبح فيك إذ أنت مطلع لكل هلال أطلعته سعود
دهتك الليالي بالنوى فتفرّقت جآذر كانت تلتقي وأسود
دوائر ذي الدنيا تدور بأهلها فتنقص حالات الفتى وتزيد

دراري سعد الفعل (؟) لما تجانحت فبيض الليالي في جفوني سود
دموعي لها من أربع وحشاشتي وفيها لباناتي فأين نريد
دفعت اليها في الوداع وديعة وقلت احفظيها إنني سأعود

حرف الذال

ذكرت زمان الوصل فيها فليس لي عزاء ولا صبر ولا متلذذ
ذهبت وقد سد الفراق مذاهبي وقلبي إلى نحو الأحبة مجبذ
ذهلت فما أدري إلى أين قادني قضاء على الانسان يجري فينفذ
ذممت حياتي كيف أحمدها وقد تركت من اللذات ما كنت آخذ
ذللت فطاماً بعد عزّ رضعته وعرّضت نفسي حيث مالي منفذ
ذنوبي لعمري غرقتني فأوبقت وإلاّ فاني قلّب الدهر جهبذ
زمام الهوى يرعى فهلاّ رعيته وكنت بقربي من نوى أتعوّذ
ذويت وعودي بالرضاب اخضراره صديت وقلبي بالتواصل يشحذ
ذكاء وبدر التم يحتجبان من محاسن من قلبي عليه مجذذ
ذوائبه مسكٌ ثنـاياه لؤلؤ وخداه تبر والعذار زمرذ

حرف الراء

رشا صام علواً فادعت يثرب الحشا وأفطر سفلاً فادعت ردفه مصر
ربيب مقاصير أبوه وأمه وإن كان أبهى منهما الشمس والبدر
رضيت به جوراً على حكم جوره وقلت لقلبي اصبر لعلّ الهوى أجر
رأى ذلتي في العشق فاعتزّ واعتدى على مهجة فيها له النهي والأمر
رفعت الى قاضي هواه ظلامتي فوقّع المظلوم موعدك الحشر
رحيمٌ لغيري والاخيم كلامه فما بالدماء (؟) ولا قلبه صخر
رعى الله من يهوى هواي وإنني على العهد باقٍ لا سلو ولا غدر
ربى الوصل قبل اليوم كانت حواليا بأوجه أحبابي فعطلها الدهر
رياضاً سقى ماء الغمام شقيقها وجادت بلا غيث أقاصيها الخمر
رياحين ما حيّا الوصال بشمها قبيل الهوى حتى أتيح له الهجر

حرف الزاي

زخارف دنيانا الأنيقة أصبحت هشيماً كما رث الرداء المطرز
زمان الصبا لله درك لم تزل مواعيد من نهوى لنا فيك تنجز
زيارتنا في كل يوم وسرنا جهاراً بلا واشٍ يرانا فيغمز
زررنا على غير الفواحش قمصنا ولم نستجز إلاّ الذي هو أجوز
زنت أعين منا وعفت ضمائر فبتنا وأيدينا من اللمس تحجز
زرى وجه من نهوى على البدر إذ بدا وأعجزه حسناً وما كان يعجز
زيادة بدر التمّ كالنقص عنده فللبدر منه خجلة حين يبرز
زمام قلوب العاشقين بكفه يقاد كمغلول اليدين ويحفز
زبى الأسد أو أشراكها لحظاته وسيف الردى فيها فكيف تحرز
زعمتم بأن الحب فيه تذلل صدقتم وفيه الملاح تعزز

حرف السين

سلامٌ على الأحباب تفتقه الصبا كما فتق المسك الزكي التنفس
سقوا الغيث حتى يورق العيش عندهم ويختال في حليٍ وأثواب سندس
سواء عليَّ الليل والصبح بعدهم ولو كنت (؟) لانحلى كل حندس
سناهم سراجي والخدود شقائقي وتلك العيون البابليات نرجسي
سألت وميض البرق حمل رسالتي إلى ذي دلال مطمع لي مؤيس
سرى موهناً يحدو دموعي إلى الحمى ويحكي لعيني ثغر أشنب ألعس
سموت بطرفي نحو إبريز خده لأغنى فقال ارجع غنيًّا كمفلس
سعيداً شقيًّا بين نار وجنة من الصبر عرياناً من السقم ملبس (؟)
سباني بمخطوط من المسك أسود على صحن مسبوك من التبر أملس
سويداء قلبي للأحبة منزل وذكراهم في ظلمة الليل مؤنسي

حرف الشين

شفار الهوى قصت جناحي فلم أطر وقد يطمع المقصوص أن يتريشا
شققت جيوب الدمع في الربع إذ عفا ونادت ربع الأنس إذ بات موحشا

شهدنا لقد أرواك غيث عيوننا (١)
شربناه فازددنا هياماً وغلة وهل تطفئ العينان ما شبّ في الحشا
شفا الله أكباد المحبين من جوًى وكف لسان الدمع عنهم فما وشا
شقى بالهوى العشاق أو سعدوا به وماتوا ولو داواهم الوصل عيّشا
شغفت بمن يحكي الغزال إذا رنا ويحكي قضيب الخيزران إذا مشى
شويدن أنس صاد قلبي بلحظه وطاووس حسن في فؤادي عششا
شرعت لقلبي الصبر عن حسن وجهه فما هو إلاَّ أن رآه فأدهشا
شديد القوى والصبر كنتُ فهدّني كفى حزناً أن يصرع الأسد الرشا

حرف الصاد

صدقت وقد أودى الهوى بحشاشتي عشية زمت للرحيل قلاص
صدرت عن الماء الذي كنت وارداً وأقوت رسوم للصبا وعراص
صممت عن الحادي عميت عن البكا لبين ليس منه مناص (٢)
صروف الليالي فوّقت لي سهامها فهل لي من الصبر الجميل دلاص
صرمنَ حبال الوصل عن شمس كلةٍ عليها من الليل البهيم عقاص
صبوت إليها فاشترتني بلحظها رخيصاً كذاك العاشقون رخاص
صفا ودها لو لم يحل دون وصلها وشاة وحراس عليَّ حراص
صبوت وكلتـا مقلتيَّ سخية لإنسانها تجري الدموع مقاص (؟)
صحا كل قلب فاستراح من الهوى وليس لقلبي من هواه خلاص
صلوا في الهوى نقتص منكم جروحكم فقد قال ربي والجروح قصاص

حرف الضاد

ضنى كان أبداه الهوى فأعاره سواداً بدا في حمرة وبياض
ضواحك أزهار وأعين نرجس أشارت بألحاظ إليّ غضاض
ضحىً وجنا ورد يعود بنفسجاً إذا ما اشتهاه عاشق لعضاض
ضع السيف واقتل مهجتي بمحاجر مراض وإن تخبر فغير مراض

(١) لم نستطع قراءة هذا الشطر لسوء حال المخطوطة (٢) بياض بالاصل

ضربت بها في كل قلب أسرته فكم من قتيل وهو ليث غياض
ضلالة قلبي وهي عندي هداية تنزه طرفي والملاح رياضي
ضمنت لها أن لست أسلو عن الهوى وحكمته فليقض ما هو قاضي
ضننت بسلواني وجدت بمهجتي فهل أنت عن فعل المتيم راضي
ضلوعي على نار من الوجد تنحني ولكنني جلد القوى متغاضي
ضغائن في صدر الليالي على الفتى فمستقبل من خطبهن وماضي

حرف الطاء

طباعي أبت إلاَّ التذلل في الهوى فلا زال خدي للحبيب بساطا
طريف الهوى بين الحشا وتليده طويتهما طي التجار رياطا
طعمت الهوى في لحظه وشربته فلم أستطع نحو السلوّ نشاطا
طلبت سبيلاً للسلوّ فلم أجد (١)
طمعت بأن أسلو الهوى فغلبتني وقد ضربتني مقلتاك سياطا
طويت بطون العيس نحوك حجة وأوثقت خيلي في هواك رباطا
طعنت بلحظ من بعيد وهكذا قنا اللحظ يبلغن النجوم شطاطا
طربنا ومن ألحاظ عينيك سكرنا فأية خمرٍ منهما نتعاطى
طوال الليالي فيك أرعى نجومها إذا ما غشى النوم الجفون نخاطا
طمى بحر شوقي والتظى جاحم الهوى وهذا بقلبي ثم ذاك أحاطا

حرف الظاء

ظفرت بقربٍ منك حتى إذا صفت حياتي وأحظتني لديك حظوظ
ظعنت وقلبي في يديك وديعة فهل أنت للمستودعات حفوظ
ظلمت فؤادي كيف أزمعت دونه وأنت فؤادي إن ذا ليغيظ
ظمئت وما يشفي لي الماء غلة وأشقى كأني للزفير أقيظ
ظلال الهوى عادت حروراً (وأصبحت) سموم اشتياق كدت منه أفيظ
ظننت بأن الدهر يبقى مسالماً وهيهات حرب النائبات كظوظ
ظباء الهوى والهجر والعذل في الهوى وواشٍ وغيران عليَّ حفيظ
ظلامٌ على صبحٍ وغصنٌ على نقا هنالك يختال الهوى ويحوظ

(١) بياض بالاصل

ظراف لعمري العاشقون وإنما يلومهم قاسي الفؤاد غليظ
ظهرت على الحساد في الفضل إنني صميمٌ وكل الحاسدين وشيظ

حرف العين

عجبت من الأيام كيف تقلبت بنا فتفرّقنا كأن لم نجمع
عباديد شتى مثل ما أسر الأسى فرائد من دمع الفريد مفجع
على بينكم أعزز عليّ ببينكم لقد زاد حرقاً في الحشا المتقطع
عدوني وإن لم تنجزوا ربَّ موعد شفاعلتي منكم وإن خاب مطمعي
عسى الطيف أن يزدارني فأبثه سرائر شوق للحبيب المودع
عهدت الهوى حلواً فلما شربته تجرَّعت منه غصة المتجرّع
عشيات أيام الحمى جادك الحيا لقد كنت ريحان المحبين فارجعي
عذارك مسك أذفر في أنوفنا فشوقاً إلى مشمومك المتو (١)
عميد الهوى يشفي به من سقامه فأهدي الينا نشره بالتمنع
عفا الله عن ذا الدهر إن ردَّ وصلها وشعّب منا كل قلب مصدّع

حرف الغين

غرقت ولا ماء سوى عبرة جرت وحق الأسى في باطل الصبر دامغ
غداة أجابت عيننا داعي النوى وودعني بدر من السجف بازغ
غضضت جفوني عن سناه مهابةً وفي القلب شيطان من الحب نازغ
غزال تحلى بالبهاء وبالسنا وناهيك من حلي له الله صائغ
غرير شممت منهُ فيه (؟) بسحرة فقلت له هل أنت للمسك ماضغ
غيوز أبوه كيف لي بلقائه ومن دونه سمر القنا والسوابغ
غوى القلب فيه وهو لولاه راشد ومُلّىءٌ وجداً وهو لولاه فارغ
غلبت عذولي حجة بجفونه وهل حجج العشاق إلاّ بوالغ
غريت أنا والعاذلون بحبه وفي مثله عذر المحبين سائغ
غزتني عيون أيدتها على دمي عقارب مسك للقلوب لوادغ

حرف الفاء

فنيت هوًى إلاّ حشاشة مهجتي أجود بها في مربع ومصيف

---

(١) لم نستطع أن نتبين بقية كلمة القافية. ولعلها : المتضوع

فريداً من الأحباب أبكي طلولهم   وأكثر فيها لو شفيت وقوفي
فيا أسفاهُ للمغاني كأنها   سطور محاها الدهر غير حروف
فقدت شموساً كنت أجلو بها الدجى   إلى أن أصابتها النوى بكسوف
فراق نعمنا بالتواصل قبله   ولكنها الأيام ذات صروف
فنيت بمهضوم الحشا ناعم الصبا   (١)
فتور بعينيه عليّ أمانه   فيا من رأى مستنصراً بضعيف
فداء لهُ نفسي على السخط والرضى   وطوبى لنفسي إن بليت وعوفي
فُراق الحمى من لي بتبريدك الحشا   ودونك سور من قنا وسيوف
فؤادي الصدى (١)

حرف القاف

قليلٌ لعيني أن تصوب صبابة   إذا شمت من تلقاء أرضكم برقا
قضاة الهوى والله يسألكم غداً   عن العاشق المسكين ما باله يشقى
قفوا وانصفوا من عاد من جودكم بكم   فلم يستطع صبراً فشأنكم رفقا
قتيلاً إذا ناديتموه أجابكم   له شرق بالدمع إن ذكر الشرقا
قيامته قامت ولكن خيالكم   يمنيه باللقيا فمن ذا يبقى (؟)
قليّ ووداداً هم (؟) في موضع الهوى   فلا سلوة عنكم وإن جل ما ألقى
قنعت بوصل الطيف إذ قادني الكرى   فكيف رقادي والمدامع ما ترقا
قسا قلب دهر حلّ عقد وصالكم   وسدّ علينا دون ذكركم طرقا
قديماً شفى (٢) من النوى   وردّت لنا الأيام باطلها حقّا
(٣)   ففك إسار الحب واستنقذ الطرقا (؟)

حرف الكاف

كفى حزناً أن لا صديق وأنني   فريدٌ بلا عيش يسر ولا نسك
كأني نضار ظنهُ الدهر بهرجاً   وألقاه في نارٍ ليخلص بالسبك
كرهت حياتي واستطبت منيتي   إذا ضحكت مني فعيني دماً تبكي
كبرت على شكوى الزمان وأهله   ودهر خئون لست عنهُ بمنفك
كفرتَ بدين الحب لولا مهفهف   قضت لدمي ألحاظ عينيه بالسفك

(١) في الاصل حروف غير مقروءة (٢) هنا كلمة غير مقروءة (٣) الشطر الاول متعسر القراءة

كتبت اليهِ بالدموع رسالة فجاوبني أنت القتيل بلا شك
كشفت قناعي فيك يا رشأ الفلا وما كنت أرضى قبل ذلك بالهتك
كذاك غزال الوحش في البر يرتعي وأنت غزال الإنس ترتع في الملك
وأيقنت (١) بأنك لو نظمت واسطة السلك
كلامك من ورد وثغرك مثله وريقك من خمر وريحك من مسك

حرف اللام

لحا الله دهراً حال بيني وبينهم وحرَّم وصل الحب وهو محلل
لبانات نفسي وهو عندي شفاؤها من السقم لو أن العليل يعلَّل
لبست الضنا حتى تبدَّل صورة سوى صورتي والحب لا يتبدل
لعلَّ الليالي والحوادث خصمنا كما حكمت فينا بجور ستعدل
لقد ضقت ذرعاً بالهوى ثم بالنوى ولا ذنب لي لكنني أتحمل
لمى شفة المحبوب أو ورد خده مدى أملي لو تمَّ لي ما أؤمل
لعمري لو قبلته حيث أشتهي لأعطيته دنياي لو كان يقبل
لموت به (٢) يولّي بتوقيع المدام ويعزل
لساني حلو وهو أحلى لو انه يعل بسلسال الرضاب وينهل
لي الويح إن لم أحب منك بنظرة معاودة أحيا بها حين أقتل

قافية الميم

متى يشتفي المشتاق ممن يحبه وهل تنفع الشكوى الى غير راحم
منيته أولى بها من حياته إذا كان شكوى الشوق ضربة لازم
مُنعت ورود الماء والنار في الحشا لختام أضحى مفطراً مثل صائم
مياه الغوادي والجداول جمة وأرغب عنها بالدموع السواجم
مواردكم أشهى إلى الحائم الصدي ولو أنها شيبت بسم الأراقم
مننتم علينا مرة بوصالكم وسالمتم والدهر غير مسالم
محوتم كتاباً للعتاب بخطه ومدّ إليَّ (٣) الرضا كف هادم
معالم أحيا الحب فيها قتيله وأنصف من تلك العيون الظوالم
ملكنَ فلما جرنَ كان انتصافنا بتلك الثنايا والخدود النواعم
ملالاً لأيام الزمان على النوى ومعذرةً لي في الصبا المتقادم

(١) لم نستطع تبين حروف الاصل (٢) بالاصل بياض (٣) هنا كلمة متعذرة قراءتها

حرف النون

نوى فرّقت شمل الهوى فيـاهه — نـنـال (؟) وأما عهده فيصـان
نعيمي وعزي كنتم ثم بنتم — فعيشي عذاب بعدكم وهوان
نصيبي من عهد الحبيب ووصله — به العيش عيش والزمان زمان
نهتني النهى عن حبكم فعصيتهـا — وهيهـات يثني للمحب عنـان
نسيم الصبا من أجلكم أستطيبه — وإن زاد في قلبي به الخفقان
ندمت عليهـا مثل ما يندم الفتى — فيقرع سن أو يعض بنـان
نفت عن جفوني النوم ورق حمائم — شكونَ ولم يفصح لهنَّ لسان
نعينَ اليَّ البين لا كان يومه — فما باله لم يخل منـه مكان
نعينَ ولم يذرفنَ دمعاً وإنما — تنـاثر من عيني لهنَّ جمان
نـكأنَ جروحي لو أعنَّ على البكا — بدمع ألا إن الحزين يعان

قافية الهاء

هوى الحب ريحان وراح لأهله — وإن نضجت أكبادهم بلظاه
هرقت دمي في حب صب ولا أرى الـ — ـمحب ليرضى أن يبيح حماه
هنيئاً مريئاً في الهوى لـكم دمي — رضاكم عن الصب العديم رضاه
هجرتم وخنتم عهد من لم يخنكم — وقلتم ملول والملول سواه
هدمتم بناء الحب منا بهجركم — وفي مثلـكم يرضى الحكيم صباه
هدي الله قلبي بالهوى وأضله — ولو شاء من بعد الضلال هداه
هوى عذرة أدنى هواه وإنما — بلية من يهوى بقدر هواه
هموم جلبنَ الشيب قبل أوانه — وصدَّعن قلباً لا يبض صفاه
هرمت وشابت لمتي غير أنني — فتى الحب والشيخ الظريف فتاه
هزمت جيوش الصبر في معرك الهوى — وقصر في الهيجاء طول قناه

حرف الواو

وفتني دموع العين والصبر خانني — فجرعت في حبي لك المر والحلوا
وضقت بهذا الحب ذرعاً وحيلة — وحتى متى أشكو ولا تنفع الشكوى
وهبتك حظي من سرور ولذة — فجازيتني أن زدت بلوى على بلوى
وشى عندك الواشون بي فهجرتني — وحملتني في الحب ما لم أكن أقوى
ولو أنني إذ كنت عندك مذنباً — وجدت سبيلاً فيه أسألك العفوا

وصالك لي محيا وهجرك قاتلي وحبك شغل كنت من قبله خلوا
وقفت على آثار وصلك في الحمى وأنكرت صبري في معارفها شجوا
وقلت لعيني دار حبك فاسجمي بكاءً كما فيها قررت بمن أهوى
وحق الهوى لاذقت غمضاً ولا رقت دموعك أو تحيي المحل الذي أقوى
ورود الردى أولى وإن عيف وسمه لمن بات ظمآناً إلى ريق من يهوى

حرف اللام الف

لأستسقينَّ العين غيثاً لربعكم وإن زاده صوب الدموع محولا
لأستنشقنَّ الريح شوقاً اليكم إذا هي هبت بكرة وأصيلا
لأنتم وإن خنتم مواثيق عهدنا أحبة قلبي لا أريد بديلا
لآخر عهدي مثل أوله بكم وإن كنتم لا تحفظون خليلا
لأسعدتم المشتاق لو ذقتم الهوى فأحييتم بالوصـــل منه قتيلا
لأجزاكم (؟) بالصب أفضل مغنم بعيشكم رفقاً عليه قليلا
لأن تحسنوا أولى بكم من مساءة وما كان أولى بالجميل جميلا
لأسترزقنَّ الله يوماً فربما وجدت اليكم في المنام سبيلا
لأحتسبنَّ الذل في طاعة الهوى وأي محب لا يعيش ذليلا
لآلئ عين عقدها متناثر وإن كان لا يشفي البكاء غليلا

حرف اليـاء

يدى كل قتال وطرفك لا يدي فلا تخش في قتلي سوى الله يا ظبي
يميناً لقد أفنى هواك تجلدي وأغوى فؤادي حيث لم أدر ما الغي
يقولون أقصر كم فؤادك هائم فقلت دعوني ميتاً إنما يسمع الحيُّ
يموت أسير الحب قبل انطلاقه وما يفقد المهلوك من أمره شي (؟)
يسير عليَّ الخطب حين ألفته وألبسته مستحسناً فهو لي زي
يكاد الصفا القاسي يذوب صبابة إذا وطئته الخرَّد اللعس اللمي
يئست من السلوان حتى بكيته فلو أنني غيلان ما سُليت ميُّ
يهجنَ الهوى حتى يرينَ كيوسف ويذممنَ حسناً زانه الحلي والوشي
ينابيع دمعي من جفوني تحدرت سقت ربعكم حتى أضرَّ به السقي
يكل ويفنى منطقي عن شكيتي ومنطق مثلي لا كليل ولا عيّ

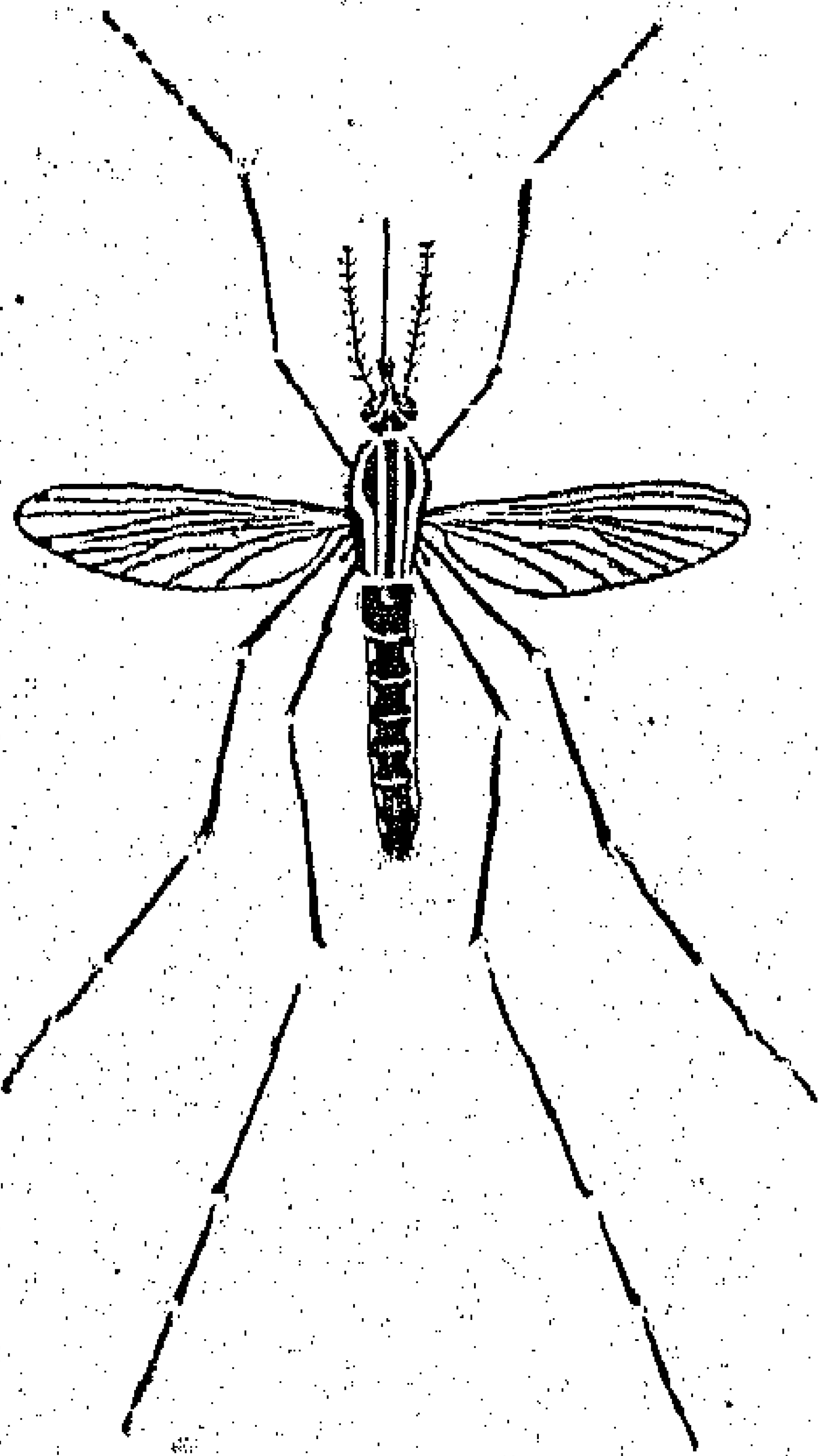
تم الديوان والحمد لله رب العالمين

الحمى الصفراء

هل هي موجودة في القطر المصري ؟

للدكتور محمد خيرت
كلية الطب — جامعة فاروق الاول

بعد أن اكتشف البرتغاليون غرب إفريقية في أواخر القرن الخامس عشر ، عرفوا هنالك حمى يصحبها اصفرار الجلد ويموت بسببها الكثيرون . ومن غرب إفريقية انتقل المرض إلى أميركة الجنوبية بواسطة الزنوج الأرقاء . ولهذا المرض الوبائي أعراض يسهل تمييزها . فاذا لدغت بعوضة معدية شخصاً ، فبعد مدة أقصرها ثلاثة أيام وأقصاها ستة ، تعتريه قشعريرة وارتفاع في درجة الحرارة يستمر ثلاثة أيام مع صداع أليم ووجع في الظهر . وتحمر العينان حتى تصيرا بلون الدم ، ويشح البول ويحتوي زلالاً كثيراً . ثم تهبط الحمى بالتدريج مع بطء بالغ في النبض ، ويتلو ذلك دور النقه إذا كُتب للمريض الشفاء ، وإلاَّ فترجع الحمى ويصفر بياض العينين ثم الجلد كله باليرقان (ولهذا سمي المرض بالحمى الصفراء) وينزف الدم من جميع فتحات الجسم ، من الفم والأنف والأذنين والعينين ، كما يتقيأ المريض دماً أسود ، ويبول دماً ويتبرز دماً . وقد يتهيج ثم يموت في غيبوبة . وأكثر الميتات تحدث في اليوم الخامس أو السادس من ابتداء المرض . وقد تصل نسبة الوفيات الى ٨٠ ٪ . ففي وباء ساحل الذهب سنة ١٨٢٦ مات من حامية المدينة ١١٥ جندياً من ٥٣٥ . وفي وباء عام ١٨٧٨ بالسنغال مات ٢٢ طبيباً من ٢٦ .



بعوضة الأيديز

ولما اشتدَّ الوباء في البرازيل عام ١٩٠٠ ، أوفد اليها جيش الولايات المتحدة بعثة طبية وكانت الشبهات قد حامت قبل ذلك حول البعوض باعتباره ناقلاً للمرض ، فارتدى بعض أعضاء البعثة جلابيب مرضى هذا الداء ملوَّثة بافرازاتهم وناموا بها ثلاثاً وستين ليلة مع المرضى في غرف محصنة من البعوض فلم يمرض منهم أحد . وربوا بعوضاً خالياً من الأمراض ، فقس

بيضه عندهم ، ثم جعلوه يلدغ مرضى الحمى الصفراء . فلما لدغ المتطوعين بعد ذلك أصابهم المرض ، وكان أولهم الدكتور جيمس كارول عضو البعثة . ثم أثبتوا أن جرثومة هذه الحمى من النوع المتناهي في الصغر بحيث يمر خلال مسام المرشحات ولا تمكن رؤيته بالمجهر (وهو ما يسمى ڤيرس virus)، وذلك بأن رشحوا مقداراً من دم مريض ليزيلوا أية جراثيم عادية قد تكون فيه ، ثم حقنوا به ستة متطوعين فأصيبوا جميعاً . وثبت أن بعوضة « أيديز إيجبتاي Aëdes aegypti » هي الناقلة للمرض ، وأنها إذا مصّت دم مريض في الثلاثة الأيام الأولى ثم لدغت أشخاصاً آخرين بعد ذلك باثنى عشر يوماً ولو لدغة واحدة ، مرضوا بهذه الحمى . وتظل البعوضة بعد ذلك تعدي الناس طول حياتها . ولا يلزم لتوالد هذه البعوضة برك أو مستنقعات بل تتوالد في أصغر مقدار من الماء في أي وعاء ولو كان علبة سردين فارغة بها قليل من ماء المطر . وإذا كان الجو مناسباً فقست البيضة بعوضة جديدة في مدة أسبوعين . وصدر هذه البعوضة مخطط على شكل قيثارة ، وذلك يميزها عن بعوضة الأنوفيليس التي تنقل الملاريا . ولقد ثبت أن نوعاً آخر من البعوض غير الأيبديز ينقل الحمى الصفراء ، حدث ذلك في بعض بقاع البرازيل . (ونصف البعوض المنتشر في المنازل في القطر المصري هو من نوع الأيبديز) .

وكانت نتيجة هذه الأبحاث الباهرة حرباً طاحنة شنتها حكومة البرازيل ضد البعوض ، فلم تترك له مكاناً يتوالد فيه حتى أصص الأزهار ، ففاقت نتائج هذه الحملة كل مأمول ، حتى ظُنّ وقتئذٍ أن البقعة الوحيدة التي بقيت مصدراً لهذا المرض هي غرب إفريقية . ولكن الأبحاث التي قامت بها مؤسسة روكفلر الأميركية قلبت هذا الرأي رأساً على عقب ، فقد أثبت سوبر Soper سنة ١٩٣٦ أن هناك نوعين من الحمى الصفراء وإن تكن جرثومتهما واحدة : النوع الوبائي الحاد القتّال الذي سبق وصف أعراضه ، ونوع آخر ما فتئ موجوداً ولكن في شكل حميد خفيف الوطء متوطّن لم ينتبه له أحد من قبل . وساعد على هذا الاكتشاف طريقتان من طرق الفحص : الأولى لزوم أخذ نموذج من كبد كل شخص يموت في العشرة الأيام الأولى من أيّ مرض . ولا لزوم لتشريح الجثة ، بل تؤخذ قطعة صغيرة من الكبد في حجم الفولة بواسطة آلة صغيرة تُطعن بها الكبد من الخارج viscerotome ، وتعمل منها قطاعات رقيقة تصبغ بلون خاص ، ثم يفحصها الطبيب الباثولوجي تحت المجهر ، فيعرف أن وفاة المريض بسبب هذه الحمى حتى لو لم يصحبها اصفرار في الجلد يدلّ عليها ، إذ يصيب المنطقة الوسطى من فصوص الكبد تلف وتحوّل دهني . والطريقة الثانية — طريقة حقن الفيران mouse protection test يمكن بواسطتها التحقق

من وجود الحمى الصفراء في بلدٍ ما ولو كانت مستترة في شكلها الحميد المتوطن . والطريقة باختصار هي أن تحقن الفيران في تجويف بطنها بمصل دم الشخص المراد فحصه بعد أن يمزج بالجرثومة مستخلصة من مخ فأر ، وفي الوقت نفسه يحقن مخ الفيران نفسها بقليل من محلول النشا المغلى ليجذب الجرثومة الى المخ . فان لم يكن الشخص قد أصيب مطلقاً بهذه الحمى ، فإن الفيران تموت في مدة أسبوعين . وأما إن كان مرض بها ولو من سنين كثيرة . فإن الفيران لا يصيبها أيّ ضرر ، إذ يقيها المصل فعل الجرثومة لاحتوائه على مواد واقية تبقى في الدم بعد الشفاء من المرض وتقي الشخص هذه الحمى طول حياته . وقد ثبت بطريقة حقن الفيران هذه أن الحمى الصفراء لا تزال متوطنة في منطقة تمتد من درجة ١٥ شمالاً الى ٥ جنوباً ، في إفريقية من السنغال غرباً الى مديرية بحر الغزال في السودان شرقاً ، وفي أميركة الجنوبية في البرازيل وبوليفيا وكولمبيا ، وما بين إفريقية وأميركة من جزر . وكذلك نزل المرض في المنطقة المعتدلة بالجهات الجنوبية من الولايات المتحدة كما أصاب أسبانية وايطالية .

ولا تندثر الجرثومة في الفترات التي تعقب موجات المرض الوبائي ، بل ينقلها البعوض إلى القرود والقنافذ ونوع من الحشرات القارضة ، فيحفظها فيها إلى أن يمص دمها بعوض جديد ينقلها إلى الآدميين من جديد ، وبذلك تبقى الحلقة متصلة .

والطريق الطبيعي العادي الذي يصاب به الناس بالمرض هو لدغة البعوضة ، ولكن الجرثومة يمكنها أيضاً اختراق الجلد السليم كما يمكنها الدخول من العين ومن غشاء الأنف متى لمست نقطة من دم مريض في الثلاثة الأيام الأولى أحد هذه المواضع . وقد يحدث هذا للأطباء ومساعديهم عند تحليل الدم أو تشريح القرود لعمل الأبحاث بها . ولقد شاهدت سنة ١٩٣٥ لوحاً من الرخام على باب غرفة المعمل بمستشفى طب المناطق الحارة في لندن ، عليه اسم فتىً كان مساعداً فنياً ومات بالحمى الصفراء بسبب نقطة دم لمست أصبعه ، من مريض كان يعدّ كرات دمه . وذلك لأن الڤيرس يوجد في الدم بمقادير لا يتصورها العقل في الثلاثة الأيام الأولى من المرض ، حتى إن القطرة الواحدة من الدم تحفظ قوّتها المعدية ولو خُففت بالماء عشرة آلاف مرة . والڤيرس لصغر حجمه لا تمكن رؤيته بأقوى المجاهر العادية ، فان حجمه يختلف بين ١٧ مليميكرون و ٢٨ (المليميكرون جزء من مليون من المليمتر) .

والفضل في اكتشاف لقاح واق من هذه الحمى يرجع إلى ثيلر Theiler فإنهُ وجد عام ١٩٣٠ أنهُ عند حقن مخ الفيران البيض بجرثومة المرض يصيبها الالتهاب في المخ

ولا تتأثر أحشاؤها . فبعد نقل الجرثومة من مخ فأر الى مخ فأر آخر نحو عشرين مرة ، تتحول جرثومة « مثبَّتة » fixed لا تصيب غير المخ ، فإذا حقن بها بعد ذلك قرد تحت الجلد ، فلا تتأثر أحشاؤه ولا تظهر عليه أعراض الحمى الصفراء ، بل بالعكس تتكوَّن فيه مناعة ضد هذه الحمى .

ولما كان معظم الأمراض التي جرثومتها ڤيرس (كالجدري مثلاً) لا ينفع في الوقاية منها إلاَّ لقاح جرثومته حية ليست مقتولة كما هو في الحال في اللقاح الواقي من التيفويد مثلاً ، فقد استعمل ليجريه Laigret الفرنسي سنة ١٩٣٣ لقاحاً مكوَّناً من مخ الفيران المصابة بڤيرس مثبّت ، جراثيمه حية . ولكن أُضعفت قوتها المعدية بتمريرها في مخ الفيران مرات كثيرة (١١٥ مرة) . ولكن لما كان استعمال مثل هذا اللقاح لا يخلو من خطر لاحتوائه جراثيم حية ، ابتكر فندلي Findley عام ١٩٣٤ في معهد « ولكم » للأبحاث بلندن طريقة حقن المريض باللقاح مصحوباً بمصل واقٍ يستحضر من دم شخص يكون قد شفي من الحمى الصفراء ، بعد ان يزاد مقدار المادة الواقية في دمه بحقنه بلقاح ليجريه . واجتناباً لما عساه يكون في مخ الفيران من جراثيم أمراض أخرى ، يُزرع الڤيرس الآن على جنين البيضة وهو داخلها . وبالرغم من أن المصل الواقي يرشّح لينقّى من أي جراثيم عادية قد يكون ملوَّثاً بها ، ثم يعقم بعد ذلك بتسخينه نصف ساعة في درجة ٥٦ سنتجراد ظهر أخيراً أن هذا التطهير غير كاف ، إذ ظهرت على بعض من لقحوا بلقاح فندلي أعراض مرض اليرقان الخاطي infective hepatitis بعد تلقيحهم باثنين وثمانين يوماً ، وهو مرض بسيط لا خوف منهُ إلاَّ في ما ندر ، وجرثومته نوع من الڤيرس . واتضح أنهُ لا بد أن بعض من أُخذ مصلهم لاستعماله في لقاح فندلي ، كانوا في دور حضانة هذا المرض لم تظهر عليهم بعد أعراضه كاليرقان وغيره . ولقد أجرى فندلي ومارتن Martin أبحاثاً في هذا الشأن ، نشرا نتيجتها في مجلة اللانسِت في العام الماضي ، ولا شك أنهُ اتخذت احتياطات لتطهير المصل الواقي بطريقة أوفى حتى لا يتكرر ما وقع .

وكما أن إبادة البعوض من أفعل الوسائل في قطع دابر هذه الحمى ، فتلقيح السكان كذلك لازم ، خصوصاً أهل المدن الساحلية والمدن التي بها مطارات وبلاد الدلتا الواطئة الرطبة . وفي جامبيا لُقح أغلب الأوربيين لعدم وجود المناعة عندهم ووجودها عند أهل البلاد الأصليين الذين يصابون وهم أطفال بالنوع الخفيف الوطأة المتوطن ، فتتكوَّن عندهم مناعة تبقى طول العمر ، فتقيهم المرض الوبائي الحاد . والخوف الآن هو من انتقال الحمى الصفراء إلى بقاع أخرى في إفريقية ، وإلى الهند والصين ، فإنها تفتك بالأقوام الذين لا مناعة عندهم فتكاً ذريعاً

ويظهر أن النوع الوبائي القتّال لم يزر مصر حتى الآن ، ولا أظن أن أحداً أجرى تجارب حقن الفيران فيها لمعرفة وجود النوع الحميد بها ، والناس يحسبونه انفلونزا بسيطة . ولا يبعد أن يكون هذا النوع الخفيف الوطأة الصعب التشخيص متوطناً بمصر ، فإنهُ موجود في السودان كما ظهر من تجارب حقن الفيران هناك ، وإن لم يظهر في شكله الوبائي . بل لقد أصاب المرض الوبائي الفتّاك بلاداً أبرد من مصر جوّاً هي إيطالية واسبانية ، ولا تعوز مصر البعوضة الناقلة لهُ ، فإن نصف البعوض المنتشر في المنازل منها . فإن كان هذا النوع الحميد من الحمى متوطناً بمصر فالخوف هو من أن تظهر بين وقت ووقت حالات من النوع الوبائي القتّال . وإن لم يكن للمرض وجود بمصر قط ، فالخطر من وروده من غرب إفريقية ومن السودان خطر جدير بكل عناية ، فقد تنقل الطائرات شخصاً في دور الحضانة لا تظهر أعراض المرض عليه إلاّ بعد وصوله ، فان لدغته بعوضة الأيديز ثم لدغت بعد ذلك أشخاصاً آخرين انتشر الوباء لا قدّر الله . بل قد تحمل الطائرات بعوضاً معدياً مستعدّاً لنشر المرض على الفور . وهناك بالطبع اتفاقات دولية بشأن تطهير الطائرات من البعوض في المطارات ، وأنظمة للحجر الصحي والتلقيح ضد هذا المرض .

والحرب ضد البعوض قد شنّتها وزارة الصحة في مصر فلم تنتشر بعوضة الجامبيا التي نقلت الملاريا في باقي مديريات القطر . ولكن على الجمهور أيضاً أن يقوم بواجبه ، فلا يخلو منزل سواء في المدن أو في الريف من أماكن تصلح لتوالد البعوض ، مثل الماء الذي في صينية القلل أو الذي في زير غير مغطي أو الاناء الموضوع تحته ، وكذلك ما يوضع من ماء قليل تحت أرجل خزائن الطعام لمنع وصول النمل اليها أو أيّ ماء في وعاء مهجور . كل هذه أماكن تصلح لتوالد بعوضة الأيديز مهما تردم الحكومة من برك ومستنقعات ، والواجب تغطيتها حتى لا يبيض فيها البعوض ، أو إذا لم يمكن تغطيتها يوضع فيها قليل من الجاز لقتل اليرقات . وإذا كان الجمهور في مصر لم يشارك الحكومة مشاركة جدية في حربها ضد البعوض أثناء وباء الملاريا الأخير ، فلأن بعوضته أصابت إقليمين فقط ولم تنتشر في القطر كله ، ولأن نسبة الوفيات من الملاريا نسبة ضئيلة ، ولم تفتك الملاريا بالفقراء في قنا وأسوان إلاّ لأنهم كانوا جياعاً ضعفت مقاومتهم . أما الحمى الصفراء فشأنها غير ذلك ، لا يفلت منها إلاّ من لقح ضدها أو من كان قد شفي منها ، ومن كل مائة تصيبهم قد يموت ثمانون شخصاً ، والبعوضة الناقلة لها موجودة في القطر المصري كله . فلا شك أن أول ما ينبغي عمله هو فحص دم أفراد كثيرين كبار في السن يختارون من كل مديرية في مصر ، بطريقة حقن الفيران ، لمعرفة وجود المرض بشكله الحميد أو عدم وجوده قطعاً .

من مناهج التأليف

في القرن الثالث الهجري

لمحمد عبد الغني حسن

يعدُّ ابن قتيبة من أقدم المؤلفين في اللغة العربية ، فقد عاش في القرن الثالث الهجري ، وأمدَّ المكتبة العربية بكثير من الكتب المتنوعة في الأدب والتاريخ واللغة والتفسير والحديث والفقه . وبعض هذه الكتب أدركته الحظوظ البواسم فطبع أحسن طبع وأكثره إتقاناً ، من ذلك كتاب « عيون الأخبار » الذي طبع جزء منه في مدينة « جوتنجن » سنة ١٨٩٩ تحت إشراف المستشرق بروكلن . ولكنه طبع كاملاً في مطبعة دار الكتب المصرية المشهورة بحسن القيام على ما تطبعه .

ويظهر أن ابن قتيبة كان مجموعة من المعارف الدائرة في عصره . فهو يشبه جماعة « الانسكلوبيديين » أصحاب الموسوعات في العصور الحديثة .

تراه في الشريعة عالماً متمكناً وخطيباً متدفقاً ، شهد له ابن تيمية الفقيه المشهور ، ولم ينقصه في المرتبة عن ابن الأنباري المحدث السلفي الجليل . وتراه في الرواية والتاريخ حجة ثبتاً ، وراوية محققاً ، يتنخل الأخبار ويميز بين الآثار . وتراه في الأدب صاحب ذوق سليم ومنهج قويم ، وطبع أصيل ، وفطرة مواتية ، وسليقة جارية ، لم يفسدها تشدد الفقهاء ، بل تراه على الضد من ذلك ينفر من التزمت ، ويتجافى عن التعنت ، ويأخذ نفسه بالمزح في غير إسراف والفكاهة في غير إغراق . لأنه يرى حاجة النفس البشرية إلى التخلص من قيود الجد أحياناً حتى لا تفسد الطباع .

ولقد جرت عادة ابن قتيبة أن يقدم لكتبه بمقدمة تختلف طولاً وقصراً وأهمية بحسب موضوع الكتاب وأهميته . فلكتابه « الميسر والقداح » مقدمة لا تتجاوز الثلاثين سطراً . ولكنها على إيجازها توضح الغرض من تأليف الكتاب ، وتبين الغاية التي قصد اليها مؤلفه ، والخطة التي سار عليها .

ولكتابه المشهور « أدب الكاتب » أو « أدب الكتاب » مقدمة طويلة شرحها ابن

السيد البطليوسي في صدر كتابه « الاقتضاب ، في شرح أدب الكتاب » . ولم يترك الشارح شيئاً في المقدمة إلا علق عليه تعليقات لغوية أدبية تاريخية .

وكتاب « الاقتضاب » هذا مطبوع في المطبعة الادبية ببيروت في بدء القرن العشرين . وقد صححهُ وضبطه وأشرف على طبعه العالم اللغوي الشيخ عبد الله البستاني صاحب معجم البستان .

أما كتاب « عيون الأخبار » فهو أضخم كتب ابن قتيبة المطبوعة ، وأحفلها بالأخبار. وهو من كتب الأدب الممتعة التي تتنقل بين صفحاتها كما تتنقل في الروض الأنيق بين ثمره وينعه . فتأخذ لنفسك ما طاب لها ، ووافق هواها ، بين تاريخ وأدب وملح ونوادر وشعر ونثر . وقد قسمهُ أبواباً عشرة ذكرها مفصلة في المقدمة ليعفي القارئ من كد الطلب وتعب التصفح وطول النظر عند حدوث الحاجة الى بعض ما أودع فيها .

والذي يعنينا من هذا الكتاب مقدمته . فهي تعرض علينا منهجاً من مناهج التأليف ، وترينا أسلوباً من أساليب الكتّاب في العصور الأولى للتأليف العربي . وهو منهج لم يخطئ صاحبه التوفيق ، وطريقة كانت قصداً لمن أتى بعده من المؤلفين .

وأحب قبل الاخذ في الموضوع أن أشير الى ناحية من أخلاق المؤلف في أدب نفسه . فقد كان رجلاً جليل القدر موفور المروءة مصوناً عن الدنية . ولهذا اشترط على المتأدب المتصدي للتأليف (أن يؤدب نفسهُ قبل أن يؤدب لسانه ، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه ، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة وصناعته عن شين الكذب) .

وتلك مثلى الخطط لمن يتصدى لتناول الأدب ، ويستهدف لمآخذ التأليف . فمن العيب أن يكون الأديب حلو اللفظ مرّ الفعال . ومن التنافر أن يكون الأديب رقيق العبارة وغليظ الطبع جافي الخصال .

وأول ما صنع ابن قتيبة أنه جعل الكتاب أبواباً متقاربة وفصولاً متشابهة ، وقرن الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ، ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الدارس حفظها ، وعلى المريد طلبها . وتلك طريقة تدل على العقل المنظم والذهن المرتب . ومزيتها أنها تسهل الرجوع الى الكتاب في أي باب . ونعرف فضل هذه المزية في كتاب عيون الأخبار ، إذا وازنا بينه وبين كتاب «الكشكول» لبهاء الدين العاملي ، وكتاب « المخلاة» له ، وكتاب « زهر الآداب » للحصري القيرواني . فهي كتب تتساق فيها الروايات والحكايات من غير جامع يجمعها أو نسب يؤلف بينها . ولهذا يصعب الرجوع اليها ، والبحث فيها . ولكنها تنفع لمن يمسك الكتاب من أوله فلا يتركه حتى يأتي على آخره . ولهذا كان

« عيون الأخبار » مرجعاً قديماً سهل المورد قريب التناول . وثاني ما صنعه ابن قتيبة أنه لم يجعل كتابه وقفاً على فريق دون فريق أو خاصًّا بجماعة دون جماعة . فلم يجعله وقفاً على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ، ولا على خواص الناس دون عوامهم ، ولا على ملوكهم دون رعاياهم . ولقد أنصف فيما صنع . . فان مزية الكتاب الطيب أن تأخذ منهُ الألباب على قدر القرائح والفهوم ، كما فعل ابن المقفع في كتاب « كليلة ودمنة » فللعاقل فيه مطلب ، وللجاهل كذلك . فالأول يلتمس العبرة ، والثاني يجد التسلية . وثالث ما صنع ابن قتيبة أنهُ جعل فيهِ باباً للمزح والفكاهة ترويحاً للقارئ من كد الجد . فان الأذن مجَّاجة . ولا بدَّ للطبع المكدود من فكاهة تريح عنهُ ، بشرط ألاَّ يخرج ذلك عن غرض الكتاب . فان المزح إذا كان مقارباً ، ولا حاجبينه مُشاكلاً ، كان أجدى على النفس وأروح للقلب . ولم يخرج بهِ ذلك إلى القبيح أو المنكر أو الكبائر والصغائر . فأن النبي عليه السلام كان يمزح ولا يقول إلاَّ حقًّا .

وقد التزم المؤلف الصراحة في هذا الباب جرياً على طريقته . فهو لا يرى أن الإفصاح بذكر العورة أو التصريح بوصف الفاحشة فيه خروج عن جادة الأدب ، أو انحراف عن منهج الأخلاق . وهو يرى أن أسماء الأعضاء لا تؤثم . . وإنما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب . ويروي تأييداً لمذهبه أخباراً عن النبي عليهِ السلام وأبي بكر وعلي بن أبي طالب والشعبي الفقيه .

والرجل هنا فطن لبيب ، فلا تفوته المهاجاة بين جرير والفرزدق ، هو يعرض لها ، ويعرِّض بها . ويذكر أن ما جاءَ في كتابهِ ليس من شكل ما جاءَ في شعر الشاعرين الأمويين . لأن شعرهما تعيير وابتهار في الأخوات والأمهات وقذفٌ للمحصنات الغافلات . . ولا يرى التصريح بالكلام إلاَّ عند ما لا يجد منهُ بدًّا ، وذلك حين لا تغني الكناية ولا يجدي التصريح .

ومما انتهجه ابن قتيبة أنهُ قد يروي الحادثة بألفاظ غير معربة وعبارات ملحونة ، حرصاً على حلاوة النكتة وملاحة النادرة . لأن الإعراب قد يفقد النكتة حلاوتها ويضيع مزيتها .

ومن العجيب أن يصدر هذا الكلام عن أديب كبير من أدباء القرن الثالث . وهو في الوقت نفسه عالم باللغة وأسرارها وله فيها مجال أي مجال . ولكن الرجل — كما أسلفنا — حين نصب نفسه للرواية والأدب طرح عن نفسه تزمت الفقهاء ، وجمود النحاة . فهو يصرح بالفكاهة ولو أغضب جماعة المتزمتين ، ويروي الحادثة على وقوع اللحن فيها ولو أسخط جماعة النحويين ، ما دام في ذلك إرضاء لحق النكتة . . وهو حق عند الأدباء واجب الأداء . . . .

وجميل من ابن قتيبة ألاَّ يزعم أنهُ اختار لكتابه أطيب ما في سوق الأدب ، وهو هنا يلتمس معذاره إذا لم يعجبك اختياره .. ويحسن الاعتذار بقوله : (إن الحسن إذا وصل بمثله نقص قدراهما ولم يتبين فاضل بمفضول ، وإذا وصل بما هو دونهُ أراك نقصان أحدهما من الآخر الرجحان) .

ومنهج آخر لابن قتيبة في جمع الأخبار والتقاطها . أنهُ ينشدها كل منشد، ويطلبها كل مطلب ، بغض النظر عن الأسنان والأقدار . فهو لا يستنكف أن يأخذ عن الحديث سنًّا لحداثته ، ولا عن الصغير قدراً لخساسته ، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها فضلاً عن غيرها . وقد أنصف الرجل ، فالحداثة لا تمنع فضلاً ، والفقر لا ينقص قدراً . وما أصدق الشاعر حين قال :

فما الحـــداثة من فضل بمانعـة   قد يظهر الفضل في الشبان والشيب

ويظهر أن الرجل كان له اطلاع على اللغة الفارسية ، فهو من أصل فارسي . وأبوه من مدينة مرو ، وإن كان صاحبنا ولد بالكوفة أو بغداد على خلاف بين المؤرخين في ذلك . ويعترف في مقدمة كتابه بأنهُ تلقط بعض هذه الأحاديث من كتب الأعاجم وسيرهم . وهي كتب أثرت في الأدب العربي أثراً واضحاً ، وتأثر بها طائفة من أدباء العربية الأوائل أمثال ابن المقفع وآل نوبخت والجاحظ والبيهقي وغيرهم .

وكان يختار من شعر المتأخرين وكلام المحدثين ما حسن لفظه ورقَّ معناه . فلم يتعصب للأوائل على الأواخر ولم يؤثر المتقدم على المتأخر . ولكنه راعى حسن الكلام ولم يراع سبق الزمان . فربَّ كلام قديم لم يرفعه قدم صاحبه . وكلام حديث لم يزن به تأخر قائله . بل العبرة بالقول ذاته دون زمانه ومكانه . إلاَّ أنه أغفل في كثير من الكتاب نسبة الكلام إلى أصحابه ، فهو يكتفي بقوله : « قال الآخر » تخلصاً من النص على القائل . وقد كان ذلك يكون مقبولاً في عصورنا المتأخرة لسعة المأثور وكثرة المروي واختلاط مذاهب النسب على مريده . أما في عصر ابن قتيبة فذلك كثير ...

ولم ينس ابن قتيبة على مكانه في الفقه والشريعة حظه من الدنيا ... فلم يكن من العلماء الذين لا يرون الدين إلاَّ صلاةً وقياماً وركوعاً وسجوداً ... بل كان يرى الطريق الى الله في كل شيء ... ويقول في ذلك : (ليس الطريق الى الله واحداً ولا كل الخير مجتمعاً في تهجد الليل ، وسرد الصيام ، وعلم الحلال والحرام ... بل الطرق اليهِ كثيرة وأبواب الخير واسعة ، وصلاح الدين بصلاح الزمان) .

وكان على دينه وعلمه وتقواه مرحاً في وقار ، لم يخرج عن سمته ، ولم يجرح المرح كرامته . وصفهُ الخطيب البغدادي صاحب (تاريخ بغداد) بأنهُ كان ثقة ديّناً فاضلاً .

الرؤساء الثلاثة

— ٣ —

ولسن : محرر الشعوب

للدكتور نجيب الأرمنازي

إذا كان مصرع لنكلن قد أشجى الولايات المتحدة وأمضها ، فان عاقبة ولسن كذلك لا تقل عنها في ما أبقته من شجو وحزن ، ولئن اغتال الأول متعصب أعمى لقد اغتالت الثاني المنازعات الحزبية والمنافسات السياسية ، وشيء آخر أراده أن يكون في العالم وهو رفعه إلى مستوى أعلى ، ولكنهُ كان فوق حقيقته وفوق ما يستطيعه ، وقد انتهت حياة الرئيس السياسية وطويت أخرى صحائفها سنة ١٩٢٠ لا سنة ١٩٢٤ حين وقَّع أحد الأطباء وثيقة تحمل اسم وودرو ولسن وتثبت وفاته . فأية علامة تهكم مخيفة تقترن بسيرة هذا الرجل الذي ظهر في حين من الأحيان كأنه بارقة أمل الانسانية بأسرها ، وأنهُ أقوى شخصية في تاريخ الولايات المتحدة وجمهوريتها ! ولكن سرعان ما اختفى وراء الأفق وسجل اسمه ذكرى أعظم إخفاق في تاريخ السياسة. وما هذا الاخفاق إلاَّ نتيجة اجتماع عناصر مختلفة أدت إلى تضاؤل حب شعب الولايات المتحدة له ، فقد أغضب الارلنديين لأنهُ لم يؤيد قضيتهم التأييد الذي كانوا يتوقعونه ، وأثار الألمان لأنهُ لم يرع عهده لوطنهم ولم يصر الاصرار كله على تنفيذ قواعده الشهيرة ، وأحفظ الايطاليين لأنه لم يدع بلادهم تحقق كل ما تصبو اليه من توسع ، ولم يطمئن كذلك رغبات منافسيه السياسيين في بلاده فجعلهم يتربصون به الدوائر . وقد سألت جريدة نيويورك افننغ بوست الأميركية الجنرال سمطس الذي اجتمع له من صفات القيادة العسكرية والبراعة السياسية ما لم يجتمع لسواه ، رأيهُ في عمل الرئيس ولسن وما صار اليه أمره ، فأجابها بقوله : « لقد اضطرَّ الرئيس ان يتسامح في كثير مما قرره من قواعده الأربع عشرة ، وليس هو الذي أخفق بل الانسانية هي التي أخفقت وسيبقى للمبادئ التي وضعها من الخلود ما يحسد عليه ... ولن يفوت الأميركيين في مستقبل

أيامهم أن يضعوا ولسن إلى جانب وشنطن ولنكان ، وستفوقهما شهرته بشمولها وأثرها في جميع العالم . »

حقاً لقد غلب الرئيس على أمره في أثناء مفاوضات الصلح ونزل عن عدة نواحٍ من مبادئه العليا ، ولكن المعاهدة مع ذلك كانت مطبوعة بطابع الرغبة في الصلح والسلام ، وقد أصرَّ ولسن على أن يكون السلم معقوداً في وضح النهار ومؤسساً على العدل المجرد عن الهوى وكان يريد من عصبة الأمم أن تكون ضماناً لصيانة السلم وأن تستمين لادراك غاياتها بقوى العالم المتمدن المتحدة ، غير أن أوربة كانت أميل لسياسة التوازن ومنافسات التحالف ، ومع ذلك استطاع الرئيس بما دعا اليه من المبادئ القويمة المؤسسة على الإيثار أن يغير كثيراً من أساليب السياسة الأوربية القديمة التي تستمد من قواعد الفتح وخطط مكيفلي ، وكانت عصبة الأمم الوسيلة الوحيدة لحماية الحضارة والدفاع عنها ، وهي فكرة عظيمة وطريقة محدثة في التاريخ العام ، لو استطاعت أن تسيطر على الدول بجملتها ، لا أن تضيع ثقة العالم بعجزها عن تحقيق مثلها العليا .

وقد أراد الرئيس في دعوته إلى إنشاء عصبة الأمم أن يجعل من قاعدة مونرو الأميركية قاعدة عالمية ، فقال في رسالته سنة ١٩١٧ : « أقترح أن تطبق هذه القاعدة في العالم كله ، بحيث لا تعمل دولة على إجبار أمة أخرى أو شعب آخر على الخضوع لسياستها الخاصة ، ولكن كل شعب تترك لهُ الحرية في تحديد السياسة التي يريدها والطريقة التي يختارها دون أن توضع العقبات في سبيله أو يعرَّض للتهديد والارهاب ، والشعوب الصغيرة في ذلك كالشعوب الكبيرة أو الشعوب العظيمة » . وقد انتقد الشيخ لوردج الذي كان رأس معارضة ولسن هذا ، وقال : إن معنى إعلان تطبيق قاعدة مونرو في العالم بأسره أنها لم يبق لها مجال تطبيق أو بقاء ، إذ هي في الحقيقة لم توضع إلاَّ لحماية نصف الكرة الأميركية . على حين أن هذا الشيخ نفسه كان يخطب في أثناء الحرب خطباً لا تخرج عن مبادئ الرئيس ولسن وما يدعو الناس اليهِ

ولم يكن الرئيس ولسن يعد نفسه محارباً في جملة المتحاربين ولكن حكماً بينهم ، وقد حاول في بادئ الأمر أن يحتفظ بحياد بلاده ، فالانكليز يعرقلون سير التجارة الأميركية والألمان ينسفون سفنها ، ولكن الأميركيين كانوا يخشون عاقبة انتصار ألمانية وبسط سيادتها على العالم ، وما يجر اليهِ ذلك من تهديد بلادهم وإفساد المبادئ التي تحيا لأجلها وتحيا فيها وخسران ما لها من مصالح خاصة وعامة ، وهي لم تكن تخشى أن تستعبدها ألمانية

إذا كتب لها النصر، ولكنها لم تكن تشك أن سحق ألمانية للدول المتحالفة يعرّض أميركة لأخطار عظيمة ويحملها على أن تتبع في بلادها خططاً ومناهج عسكرية وأن تكون دائماً مضطرة للتأهب والاستعداد، فكان رأي جمهور هؤلاء الاميركيين أنهُ يجب التدخل حتى يدفع هذا الخطر الداهم قبل أن يفوت الأوان، وكانت حرب الغواصات التي أعلنت ألمانية عزمها على القيام بها دون هوادة سبباً في دخول أميركة الحرب، وقد ارتكبت ألمانية أخطاءً كثيرة في الحرب الماضية، فقد ظنت أن إنكلترة لا تحارب في سبيل قصاصة ورق (حياد البلجيك). وحسبت أن باريس ستسقط قبل أن تكون روسية قد أتمت تعبئتها، وأن إيطالية ستكون في صفها أو أنها تبقى على الحياد. ولكن لم يرتكب شعب خطيئة سياسية تحمل بسببها أعباءً كثيرة كخطيئة الشعب الألماني عند ما دفع الولايات المتحدة ورئيسها الذي يحب السلم الى خوض غمرات القتال، فلم يقدر عواطف الأمة الاميركية حق قدرها ولا حسب حساب وسائلها العظيمة وقدرتها بذلك على أن تنقلب دولة عسكرية قوية.

وقد كان الرئيس ولسن — كما وصفه هنري وليم أستاذ التاريخ في جامعة نيويورك — على خلق عظيم وشرف رفيع، ممتعاً بأرقى مواهب الفكر، واثقاً بنفسه، مستقلاً برأيه، لا يخلو من الحذر والحيطة، ولا ترى فيه صفات الإيناس والتحبب أو الجاذبية الشخصية التي تعد سبباً جوهريّاً من أسباب النجاح في صناعة السياسة. وقد تلقى مبادئه وتعاليمه عن الأسس الدمقراطية الأميركية وتقاليدها ووجدها في النصوص التاريخية والقواعد الحرة حتى كأنهُ حاول أن يطبق أساليب بلاده في العالم كله. حقاً أنهُ كان ينتقد بشدة مناهج بعض الأميركيين في الإغراء والإفساد والرشوة وكان يرجو أن يشفي عالماً عليلاً مضطرباً ويجعلهُ صالحاً شريفاً بتنفيذ الخطط التي تغلغلت في فؤاده. وكان في بعض كتبه ومؤلفاته يشرح الحرية الانكليزية ويتخذها مثالاً يحتذيه، ويستحسن ما يصنعه المصلحون من الانكليز الذين يعملون على إنقاذ الامبراطورية دون أن يغيروا الدستور أو يبطلوا قواعده أو يغيروا جوهر الأمور وطبيعتها.

وكان الرئيس في مؤتمر فرساي يرسل نظراته إلى العالم وإلى ما يجري فيه من أحداث خطيرة ويريد تغييره واصلاحه دون أن يزلزل بنيانه ويقوّض أركانه، بل يعمد إلى تطبيق قواعد الحرية السائدة في أميركة وفي بريطانية العظمى بضمان عصبة الأمم وتعهدها، ولكن تقاليد الفتوح وضغائن الحروب التي أحياها النصر في النفوس، وبث المبادئ الوطنية المفرطة في صفوف الشعوب الكبرى والصغرى، جعل ممثلي جميع هذه الشعوب يتهافتون على إحراز ثمرات الانتصار، فأصبح هذا الوضع منذراً منذ افتتاح المؤتمر، وأخذ الرئيس يحذر عواقب

الطمع والحرص وما تجره من النكبات والكوارث ، وأنكر الاعتماد على السلاح للاستيلاء على بعض البلدان ، ففي ذلك ما فيه من نقص قيمة المطالب المنشودة وإضعاف شأنها ، لأن تحكيم القوة يؤدي إلى الاعتقاد بأن الذي يلجأ اليها يشك في عدل قضيته وصحة حجته ويريد أن يستحوذ على الربوع التي لا يجد لديه من الحق ما يكفي لتأييد دعواه فيها ، فيحل العنف والشدة محل الحق الذي يستند إلى الجنس والتاريخ والشعب ، ويثير الشبهات بعمله حول المستندات التي يعتمد عليها ، كما أنهُ يؤكد عدم ثقته بمؤتمر السلم .

وفي الحق أن قوى عظيمة كانت تتهيأ لنضاله ، وهي قوى مخيفة متألبة . وكان ولسن يمني نفسه بالانتصار على النظام القديم ، لأن العالم كلهُ كان يؤيده ويهتف له في ساعة من ساعات الحماسة وسمو النفوس ، ولكن هذا العالم كله كان يرتاب في نجاحه ويتجهم له ويحمل عليه ، وكان يعتقد باصلاح النوع الانساني ويقدر عظم التبعة وخطر المسؤولية . وقد قام بعمل من أعمال الدعاة والحكماء والفلاسفة ، فخاطب الشعوب وقرَّر المبادئ وحث على تطبيقها ولكنه لم يقارب بينها وبين حقائق الحياة كما هي ، وحقائق الشعوب كما هي ، لا كما يريد أن تكون هذه وتلك ، فلم يلبث أن وجد المبادئ التي قررها يُدال منها حتى إنها حوّلت في المعاهدة إلى نصوص أصبح الرئيس نفسه يجهل كثيراً منها . وقد خاض غمار مفاوضات سياسة عسيرة في باريس كانت أهبته لها أقل من أهبة مخاطبيه ومناظريه المجهزين بالأسلحة الماضية والبراهين القاطعة ، حتى إن بلاده تخلت عنهُ ، كما عارضه حلفاؤه وتنكروا له ، وبقي وحده يناضل في قتال عنيف ويعالج المصاعب الجسام ، وباح الرئيس بما يخامره من أسى في خطبة ألقاها بلهجة مؤثرة في جمعية الشرائع الدولية في باريس على أثر تقديم المعاهدة إلى مندوبي الألمان قائلاً : لقد خيبت تجارب الحياة ما تطلعت اليهِ الشعوب من آمال حسان ، وخيل إليها أن الشمس لا تشرق بضيائها دفعة واحدة ، ولكن تسير على مهل فتشق أشعتها الدياجي رويداً رويداً حتى تملأ الكون بنورها الوضاء .

إن هذا الرئيس الذي شعر بمرارة الخيبة كان يعتقد بكوكب سعده الطالع وكأنهُ رأى بعينه فجر الحرية قد انشقّ جانبه وبزغ تاريخه ، فحاول أن يجعل من أماني الأمس حقائق الغد ، فيالها من ساعة عظيمة في التاريخ ، ويا بؤس الذين اعترضوا مناهجه وقطعت بهم السبل دونه ! فقد كان في مصلحة الدول بل في مصلحة أوربة كلها تنفيذ شروط الرئيس ولسن والتقيد بها ، فهذه الشروط أعانت الحلفاء عوناً كبيراً في سنة الحرب الأخيرة بما بعثته في النفوس من العقيدة التي أخذت بمجامع القلوب ، بعد أن أصبح كثير من المحاربين

يتململون من القتال في سبيل غايات موهومة ، وقد أنكر على ولسن شأنه مفاوضاً ورجل دولة ، ولكن هل ينكر أن قواعده هي الوثيقة الأولى التي احتكم اليها الفريقان المتقاتلان ، وأن كلماته كان فيها من بعد الغور وعظمة الحقيقة ما لا ينسى أبد الدهر ؟ وقد حسب الرئيس الأميركي عند ما أعلن آراءه وقواعده أنه اقتربت ساعة التقاليد السياسية القديمة ، وأزيل الستار الذي كان يخفي وراءه الدول العظمى ، فأقبل الناس بعضهم على بعض يستبشرون بأن رجلاً في هذه المنزلة ، وهذا المقام والسلطة من أمة عظيمة ، رفع صوته بذلك النداء الذي خرج من كل قلب ، ولكنه كان كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وطويت الفكرة الجديدة في أعلام الظفر المبين الذي ينشئ في النفوس سكرة غرور واقتدار هي أشد خطراً من السم .

أما الولايات المتحدة فقد نفد صبرها يومئذٍ من الرجل الذي لا يعرف إلاَّ قليلاً عن حقيقة العالم ، والذي تكهن بوقوع الكارثة مرة أخرى إذا لم تعبئ أمته قواها الحربية والاقتصادية لمقاومة معكري صفو السلام ومهددي بنيان الحضارة . وقد ضحك الناس من أقواله سنة ١٩١٩ ، ولكن لم تأت سنة ١٩٤١ حتى أصبح هذا الضحك أشبه بالبكاء ... وأخذ الاميركيون يحيون ذكرى الرئيس الحكيم في البلد الذي ولد فيه وفي كل فرصة سانحة ، وقد بعثت نفخة الحرب عدداً لا يحصى من الموتى ، وبينهم وودرو ولسن الذي أشرق مجدداً في أذهان الاميركيين وأخذت آراؤه وكلماته تتردد على الأفواه والأقلام مستعيدة بهجتها ورونقها ، ورأى حتى الذين أنكروه ما كان من بعد النظر في قوله : لا ينبغي أن يسود العالم توازن قوى بل مجموعة قوى موحدة ، ولا منافسات منظمة بل سلام عام منظم .

لقد نشأ ولسن في الولايات الجنوبية ، وكان عمره تسع سنوات لما وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، فشبَّ في مناطق تبدو فيها الحياة أكثر مشقة وصعوبة ، ولا سيما بسبب الفقر الذي ضرب فيها بجرانه في السنوات الأولى بعد الحرب ، وما يعترض العمل من عقبات سياسية واجتماعية ، وبقيت آثار هذه النشأة مرتسمة على محياه ، وزاول ولسن صناعة التعليم حيناً ، وكان أستاذاً للتاريخ في جامعة برنستن ، وارتقى بعد ذلك منصب رئاسة الجامعة ، ثم انتخب حاكماً لولاية نيو جرسي ، فكان شعاره في المهمتين اللتين تقلدهما الحزم والنضال ، وتوجهت الأنظار إلى شخصية هذا الرجل القوية ، حتى فاز بانتخاب الرئاسة سنة ١٩١٢

فلا جدال في أن الرئيس ولسن كان فيلسوفاً اجتماعيـاً ، ولا جدال في أنه لم تكن تخفى عليه خافية من أوضاع الدولة في الولايات المتحدة ، وأتم برهان على ذلك ما حواه برنامجه التشريعي الذي أعدَّه في النصف الأول من مدة رئاسته ، وأول شيء أقرَّه هو أن الزعامة الحزبية من المهام الأولى التابعة للرئاسة ، وهي حقيقة أقرَّها وطبقهـا كل رئيس قوي ، لـكنها لم تعلن صراحـة من لدن أحد قبله ، وخلال السنتين الأوليين أحدث تغييرات في نظم الولايات المتحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية هي في الحقيقة إصلاحات عبقرية.. . وكان عند ما يجمع رأيه على شيء يعتقد فيه الصلاح يتشبث به ولا يحول عنه قيد شعرة ، وكان ينفذ ببصره إلى دقائق الأمور الادارية ويُـدهِـش بمعرفته أسرارها، والمصلحة العامة هي رائده الوحيد ، ولا يبالي ما صنع في مقاومة خصومها ، وفي هذه الـكلمة ما يترجم عما تنطوي عليه نفسه : يجب علينا أن نرتاب بكل رجل يريد أن يتخذ جهود البلاد وحاجاتها وسيلة لمآربه وزيادة ثرائه ، وأن نسهر حتى لا تـكون فتنة ولا تبث مكيدة تفسد نظامنا وتضير شعبنا ، وأن لا ندع سبيلا للحيلة ولا للرشوة تنفذان منه إلى حكمنا وإدارتنا . وكذلك قوله : المصلحة لا تؤلف بين الرجال بل إنها تفرقهم ، فتى حدثت ثغرة في المصالح التي كانت متفقة ، فان عواطف الحسد تهب على الأثر وتجر من ورائها الجرائر ، أما الذي يجمع بين الناس ويؤلفهم فهو إخلاص مشترك لمبادئ الحق الـكبرى ، وقد أخذ الرجال يبحثون منذ لاح فجر الحرية عن حقوقهم ، ومضت مئات السنين حتى أصبح الواجب العنصر الأول للحق ، والشرط الذي يدرك به الانسان حقه ، هو أن يقوم قبل كل شيء بواجبه .

لقد حالت حرب سنة ١٩١٤ دون تحقيق ما كان يريده لبلاده، ولـكن انقياده لخوض غمراتها جعله يفكر في تطبيق قواعد الحق والواجب في علاقات الأمم بعضها ببعض ، وفي حماية السلم واجتناب كوارث الحرب ، ومن الخطأ أن يظن أن المنازعات الحزبية هي التي كانت السبب في معارضة أمته لمناهجه ، فان الولايات المتحدة قد خرجت من الحرب وهي أكثر مالاً ، وأعز جانباً ، واختباراتها تدلهـا في مدى مئة سنة على أنها ليست معرضة لخطر ، ولا تدفعها حاجة لاتخاذ التدابير لحماية السلام والطمأنينة في جميع أقطار الأرض ، وهي تعتقد أن قوتها كافية لسد حاجاتها،وأن أوربة ستظل مفتقرة اليها ، وقد اكتفت من الحرب بالظفر ، وخرجت تمرح في جلابيب الغبطة والتفاؤل ، لم تسـتقر في نفوسها تلك الحـكم البالغة التي أنشأتها مصائب الحرب ومخاوف المستقبل ، وكانت عصبة الأمم في نظرها

مثلاً أعلى لا يستطاع تحقيقه وحل مشكلات العالم المقبلة بوسائله، فأميركة تنشد النصر وهزيمة ألمانية الجبارة ولا تبالي ما يجري بعد ذلك ، والرئيس ينشد النصر ويريد أن يربطهُ باقامة النظام الجديد . وكانت عصبة الأمم يمكن أن تصبح أداة الاصلاح لو أنها أمدت بالقوة الكافية وهذه القوة ما كانت لتجد تأييدها المعنوي عند قاضٍ غير مكترث، بل عند أمة كالولايات المتحدة التي رفضت أن تشترك في العصبة ، ففقدت منذ تلك اللحظة ، نصيبها من النجاح. لقد أخفق ولسن خطته لا لأنه كانت تنقصه الحكمة — كما ادعى بعضهم — ولا لأنهُ لم يستطع أن يغير نفسه ، بل لأن بلاده كانت في حال لا يمكن تغييرها ، ولم تكن فيها الكفاية للاضطلاع بالعبء العظيم الذي ألقاه على عاتقها ، وهو لم يكن يستطيع أنْ يعمل أكثر مما عمل ، كالرجل القوي الذي ذكر في أساطير اليونان وقدر لهُ أن يغالب القدر الذي لا يغلب ، ولو كانت لديه من المقدرة في علم النفس بقدر ما كان عند الرئيسين تيودور روزفلت وفرنكلن روزفلت ، لبقي كذلك من المحتمل أن يكون معرضاً للخطأ والإخفاق ، لأن عجز الولايات المتحدة عن فهم ضرورة إنشاء عصبة الامم كان شيئاً متأصلاً فيها ، ولا يمكن إزالته مهما يبذل الداعي إلى ذلك من ضروب المهارة والحذق ، وإذا كانت حجة ولسن أقل قوة وصلابة، فان نفوذه المعنوي كان أعظم أثراً وأبعد غاية ، وإذا كان قد أخطأ فذلك لأنهُ كان يعرف الكتب أكثر مما يعرف الرجال ، وكان كثير الاعتماد على حرية الفكر ، حتى إنه أراد أن يجرد العقل من العاطفة ، وفي الحق أن كثيراً من العلماء يخطئون .

على أن كل ما يقال في أغلاط الرئيس ولسن قد طوي معهُ في لحده ، ولا تستطيع أن تبعثه الصرخات المدوية المنبعثة من أرجاء العالم ، وليست الشخصية القلقة أحياناً هي التي تخلد الآن في النفوس ، ولكن الرجلْ السياسي الذي كان يسعى ، كما قال ، لمواجهة الحقائق وحدها ويجتنب مظاهر المجاملة المزخرفة ، والذي أراد أن يخرج السياسة الدولية من أساليب التسلط والإرهاب والدسيسة والخداع والاستئثار ، ويدخل في خططها وتقاليدها شيئاً أمنع من القوة وأجل من المنفعة وأثبت من سياسة التوازن وعقودها الملزمة ، شيئاً يفصل في الخصومات ويحمي حمى السلام ويصون حقوق الشعوب ويساوي بين الأقوياء والضعفاء : ذلك هو الحق العام الجديد الذي ما زالت تحن اليهِ الانسانية كما تحن إلى الخيالات والأحلام والأماني ، والذي لا تطلع شمسه فجأة — كما قال ولسن — ولكن تسير على مهل فتبدد الظلمات حتى تملأ الكون بضيائها .

الدين والفلسفة

نتيجة البحث (*)

لمحمد يوسف موسى

لقد انتهينا أخيراً مما أردنا من بيان معنى الدين والفلسفة ونشأتهما ، والصلة الطبيعية بينهما ، وما كان بين ممثليهما من خصومة سجلها التاريخ ، وما كان من محاولات الفلاسفة للتوفيق بينهما . فبعد هذا كله ننتقل إلى المسألة الأخيرة من هذا البحث ، أعني إلى الرأي الذي نرى في الصلة التي بين الوحي والعقل ، أو بتعبير آخر بين الدين والفلسفة ، إذ كانت هذه المسألة — ولا تزال — من المشكلات التي تشغل المفكرين الذين يعنون بالدين والفلسفة والمعرفة حتى هذه الأيام .

في رأيي أن هذه الصلة كان يجب أن تكون صلة تعاون في سبيل العلم وسعادة الفرد والمجتمع ، ما دام هذا هو جماع الغاية التي يهدف كل منهما إليها ، وما دام المرء لا يكاد يستغنى بالوحي وحده أو العقل وحده .

الفيلسوف في حاجة ماسة إلى الدين ، يجد فيه برد اليقين والملاذ الأمين في الاعتقاد بالله ، والقدر خيره وشره ، واليوم الآخر وما يكون فيه من جزاء ينعم به الخيّر وإن كان بائساً محروماً في الدنيا . ورجل الدين في حاجة للتفلسف ، يعرّفه ما غمض من عقائده وقضاياه ، والعالم ونشأته ونظمه وغايته ، وما يتشوّف إلى فهمه في العوالم العلوية ، ويساعده على درك حلول كثير من المشكلات التي يجول فيها الفكر ولم يبينها الوحي حين كان ينزل بياناً شافياً لحكم رآها العليم الخبير . وبالاجمال ، أو بعبارة أخرى ، الفلسفة في حاجة إلى الدين لما ذكرناه ، ولما قد تجده فيه من تصحيح لبعض نظرياتها وبيان الحق والباطل منها ، والدين في حاجة إلى الفلسفة ليمكن لنفسه في العقول .

(*) انظر أعداد المقتطف من يناير الى يوليو ١٩٤٤

إذاً لم يكن ضرورياً — وربما لم يكن طبيعياً — أن تكون خصومة بين الدين والفلسفة ، وكان طبيعياً وقد قامت هذه الخصومة أن توجد محاولات للتوفيق والجمع بينهما .

ومبدأ التوفيق في نفسهِ والعمل له حسنٌ وخير ، ويقول بهِ كثير من رجال الدين والفلسفة ، فالغزالي يذكر أن بين المعقول والمنقول تصادماً في أول النظر وظاهر الفكر ، وأن الذين خاضوا في ذلك التصادم صاروا فرقاً خمساً تبعاً للتعصب لهذا أو ذاك أو الوقوف بين بين ، وأن الفرقة المحقة هي الفرقة الخامسة المتوسطة الجامعة بين البحث عن العقل والشرع والمنكرة لتعارضهما والتي عنيت لهذا بالتوفيق بينهما [١]

لكن هذه المحاولة للجمع أو التوفيق بين العقل والوحي تعتبر في رأينا ناجحة أحياناً ومخفقة أحياناً ، أو كما يقول الغزالي أيضاً : « إن ذلك سهلٌ يسيرٌ في بعض الأمور . ولكن شاقٌ عسيرٌ في الأكثر » [٢] وليس الأمر مما لا يكون ولا يستطاع ، كما أكد من قبل أبو سليمان المنطقي السجستاني محمد بن بهرام ، للهوة التي لا يمكن اجتيازها في رأيه بين الدين المأخوذ بالوحي النازل والفلسفة المأخوذة من الرأي الزائل [٣]

نعم ، ليس الأمر مما لا يستطاع البتة كما يرى السجستاني . ذلك بأنهُ — على سبيل التمثيل — يمكن التوفيق إلى حد كبير بين ما يذهب إليه الفلاسفة في مسألة العقول وما جاء عن الدين في مسألة الملائكة . إنهُ مما لا حرج فيهِ من ناحية الدين أن نرى في عقول الأفلاك ومنها العقل الفعال ، أو الاسباب الثواني — كما يعبر الفارابي — التي هي أسباب وجود الأجسام السماوية وجواهرها ، كائنات روحانية أو الملائكة التي جاء بها الدين ، وأن نرى في العقل الفعال من بينها — الذي تفيض منه الحقائق على الفيلسوف والنبي — الروح الأمين وروح القدس الذي يتنزَّل بالوحي بأمر الله على من يشاء من عباده [٤] . من الممكن أن نقول هذا ونعتقده ؛ فنكون قد وفقنا في هذه الناحية بين الوحي والعقل ، على ألاَّ نتقيد بما ذكره الفلاسفة من عدد لهذه العقول ، وعلى ألاَّ ننسب اليها شيئاً من التصرف إلاَّ باذن ربها الذي يجعلها وسائط بينهُ وبين خلقه ، وأسباباً لتدبير ما يشاء من أمور ، كما جعل العالم الأرضي محكوماً بنظم وقوانين تسيِّره باذنه على مقتضى حكمته .

---

(١) قانون التأويل للغزالي ، طبع مصر عام ١٩٤٠ ، ص ٦ — ٩ (٢) المصدر نفسه ص ٩
(٣) المقابسات للتوحيدي ، نشر الاستاذ السندوبي بمصر عام ١٩٢٩ م ص ٢٤٧ ، ٢٤٩
(٤) السياسات المدنية للفارابي ص ٣ ، طبع حيدر آباد عام ١٣٤٦ هـ

ونذكر في هذا مثالاً آخر لم يتقدم له ذكر أيضاً ، وهو مسألة قِدَم ما قال به الفلاسفة من العالم قدماً زمانيًّا ، تلك التي كانت من المسائل التي كفّر بها الغزالي الفلاسفة . أعتقد أن الأمر هنا مزلقة ومن الخطر الخوض فيه ، ولكن مع هذا أشير إلى رأي يذهب إليه بعض المفكرين قد يكون الحق أو قريباً منه ، وقد يكون فيه تخفيف من عنف الخصومة بين الدين والفلسفة ، هذا الرأي هو أن القول بما ذهب الفلاسفة إلى قدمه من العالم قدماً زمانيًّا قول لا ينافي الدين ، ولا يتعارض والحديث المروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « كان الله ولا شيء معه » .

ذلك بأن أشد ما حاول حجة الإسلام الغزالي إلزام الفلاسفة به في هذه المسألة ، هو أن الذهاب إلى هذا يسلب عن الله الإرادة والاختيار ، ما دام هذا الذي يقال بقدمه زمانيًّا من العالم قد وجد عن الله تعالى ومعه في الأزل ، بلا فترة يتحقق معها الاختيار والإرادة. ولكن إذا أمكن أن نقول إن الله الغني بذاته عن كل ما سواه في إيجاد العالم ، العليم بعلم انكشف به كل شيء أزلاً ، المريد بإرادة لا تحتاج البتة إلى ما تحتاج إليه إرادة المحدثين من تروٍّ بتقليب الأمر على وجوهه يأخذ بعض الزمن وإن قلّ — إذا أمكن أن نقول إن الله تعالى الذي هذا شأنه وتلك صفاته ، قد أوجد فيما لا يزال ما يقال بقدمه من العالم من غير حاجة إلى ما نحتاج إليه من زمن نتروى فيه ونختار ثم نريد ، أمكن أن يقال إنه أوجده وهو في أعلى مراتب المختارين المريدين ، ولا يكون في القول بهذا إلحاد في الدين أو كفر . وبخاصة والعقل يتصوَّر فاصلاً مّا ، بين وجود الله ووجود هذا العالم عنه ، يتحقق فيه الاختيار والإرادة من جانب الله الذي جلّ وتعالى عن الحاجة إلى زمن يتروّى فيه ويختار ، كما يتصور العقل فترة بين حركة الأصبع وحركة الخاتم التي وجدت عنه .

إني لا أقول إن هذا الرأي الذي يذهب إلى قدم ما يقال بقدمه من العالم قدماً زمانيًّا على هذا الوجه هو الحق ، ولا أقول إن هذا هو ما أعتقده ، ولكن أقول إنه بعد أن يتبين الباحث التفرقة بين القدم الزماني والقدم الذاتي ، وأن الذهاب إلى الأول لا يستلزم الذهاب إلى الثاني ، لا يكون كافراً ولا ملحداً إن أداه نظره واجتهاده إلى القول بالقدم الزماني مع الفلاسفة والإعراض عن القول بالحدوث الذي قال به المتكلمون ، وغاية ما في الأمر أنه قد يقال عنه إنه اجتهد وأخطأ فهو معذور ولا ضير في ذلك عليه .

ومهما يكن من الأمر ، فإنا إذا قررنا أن الجمع بين الوحي والعقل ممكن أحياناً ، وآية هذا ما ضربنا من مُثُل، وما كان من الفلاسفة في هذا السبيل ، فإننا لا نستطيع أن نقرر

أن ذلك ممكن دائماً في كل ما يظهر تعارضه بين الدين والفلسفة ، لا نستطيع هذا إلاَّ إذا أغمضنا النظر عن بعض ما جاء بهِ الوحي مما لا يسلك مع مقررات الفلسفة في قرن أو أوّلنا بعض نصوصه تأويلاً تعسفيًّا تنبو الأفهام واللغة عنه . ومن المثل لهذا الضرب مسألة النبوّة والمعجزات التي تقوم في الدين على الوحي وخرق القوانين الطبيعية ، على حين أن الحال في نظر الفلسفة — كما ذكرنا من قبل — لا يعدو أمراً طبيعيًّا معقولاً يتم بصنيع النبي وكسبه بعد أن يعدّ نفسه له . وشتان بين النظريتين ، وعسيرٌ بل متعذر الجمع بين الرأيين !

هذا وربما كان من أهم المبادئ التي قررها الفلاسفة للتوفيق بين الوحي والعقل اعتبار أن الدين له ظاهر وباطن ، ولكلٍّ أهله ، وهو مبدأ يحسّهُ كل منا وليس من الحق إنكاره أو دفعه ، كما أن له ما يعضده من أقوال جماعة من السلف .

روى البخاري أن عليًّا رضي الله عنهُ قال : « حدّثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله ! » كما أُثِر عنهُ أنهُ كان يتألم مما يحبسه من علمٍ لا يجد حملةً له ، وفي هذا يقول وهو يشير إلى صدره : « إن ههنا علوماً جمة لو وجدت لها حملة (1) » . ومن ثمَّ كانت الحكمة التي يتداولها الناس : « ليس كل ما يعلم يقال ، ولا كل ما يقال جاء وقته ، ولا كل ما جاء وقته حضر ناسه » .

***

وأخيراً ، أحب أن أختم هذا البحث بالقول بأن الجمع بين الوحي والعقل — أو التوفيق بين الدين والفلسفة — من المطامع العصية ، وبأن السبيل إليهِ شاقٌّ وعرٌ ، فالمسير فيهِ إذاً على حذر . ذلك بأن نجعل أولاً ما جاء بهِ الدين من حقائق لا لبس فيها من الأسس التي يجب التمسك بها وإن خالفها رأي هذا الفيلسوف أو ذاك . ومثلها في هذا مثل ما يؤدي إليهِ النظر البرهاني الصحيح ، النظر الذي يحدث العلمَ اليقيني ، والذي يوجب لهذا تأويل ما يعارضهُ في الظاهر من النصوص ، فان الحق — كما يقول بحقٍّ ابن رشد — لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له . بذلك نكون أدنى إلى التوفيق ، وأقرب إلى إصابة الحق . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

(1) الذريعة للاصفهاني ، الطبعة الثانية بمطبعة الوطن ، ص ٨٧ .

عمر الخيام كما أعرفه

- ٧ -

بعث الخيام الى الشرق

في مصر

لمحمود المنجوري

لما أخرج الشاعر الرقيق وديع البستاني في فبراير سنة ١٩١٢ طائفة من شعر الخيام عن فتزجرلد في نشيدين عربيين ، قدمها بقوله: « أريد بالسباعيات هذين النشيدين اللذين عنيتُ بتضمينهما رُوحَ الخيام التي ضمنها رباعياته ، وعساني لم أظلم تلك الروح بنقلها من بيت فارسي إلى بيت عربي ، بل من رباعية إلى سباعية ، فعهدي باللغتين شقيقتين تتبادلان مواطن الأفكار ومساكن الخيال » وفي الحق أن البستاني لم يظلم الخيام في شيء ، بل إنهُ أسدى اليه وإلينا خدمة مشكورة ، وستبقى لهُ يد السبق دائماً ، إذ بعث الخيام إلى الشرق بعد رقدة طويلة كاد يطويه الزمن فيها طي النسيان .

وترجمة البستاني ليست تطابق المتن الفارسي في شيء ، لأنها منقولة عن الإنجليزية ، والإنجليزية قد تصرفت تصرفاً في الوضع جمعَ من الرباعيات المتناثرة تناثر الوحي العابر ملحمة منظومة العقد ، فليست هي بترجمة تحدد كل رباعية بمعانيها في شكلها ووحدتها ، ولكنها ترجمة استجابت لوحي الخيام وروحه وإلهامه ، وحرصت على المعالم الفنية والأدبية والفلسفية للأهداف التي كان يرمي اليها عمر الخيام على وجه عام ، ومن ترجمة البستاني قوله :

أمسِ أبصرتُ جارنا الخزّافا يجبلُ الطينَ كيف شاءَ اعتسافا

ويكيل المقدار منه جُزافا

وكأني أُسمِعتُ بين يديه صوتَ ذاتٍ مظلومةٍ تشتكيه

آه رفقاً فأنت طينٌ وماءٌ أيها المرءُ لا تسمني العذابا

بدا هذا القبس في الأفق المصري في فبراير سنة ١٩١٢ ، فلفت أبناء الأدب العربي إلى ما في الأدب الفارسي الشقيق من ذخائر ، وإلى ما لعمر الخيام الرياضي الفلكي من شعر فلسفي رائع ، فأقبلوا على رباعياته قراءة ودراسة وترجمة ، فانبرى المرحوم الأديب محمد السباعي وترجم ١٠١ رباعية عن الانجليزية في شعر رصين ليس له ما لترجمة البستانيّ من عذوبة ورقة ووداعة ، ولست أستطيع أن أقبل هذه الرباعيات ترجمة حريصة في أدائها للصور الصحيحة التي أرادها الخيام ، فقد لعبت بها يد الصنعة ، واستبقت اليها ألوان من الشعر العربي الخالص ، فجاءت صورة لشعر عربي يمكن أن يرد إلى عهد الشاعر ابن وكيع الذي قال :

غرَّد الطيرُ فنَبِّهْ من نَعَسْ وأدر كأسك فالوقت خُلَسْ
سلَّ سيفُ الفجر من غمد الدجى وتعرّى الصبحُ من ثوب الغَلَس
وانجلى عن حُلَلٍ فضيةٍ نالها من ظُلَم الليل دنسْ

وعفا الله عن السباعي الذي قال إنهُ ترجم الرباعية الأولى للخيام في قوله : (١)

غرد الطير فنبه من نعس وأدر كأسك فالوقت خلس
سلّ سيفُ الفجر من غمد الغلس وانبرى في الشرق رام أرسلا
أسهم الأنوار في هام القلاع

فلا يزال ابن وكيع يطالب السباعي حيث هما الآن بشعره وقد اتخذ الخيام حكماً ليقضي له بحقه !

فترجمة السباعي ترجمة غلبت عليها صور الشعر العربي ومعانيه أداءً ومذاقاً ، ولم تخلُ من الصنعة اللفظية والاقتباس الذي باعد بين الترجمة والأصل الفارسي .

ولعلَّ ترجمة السباعي لم ترق أنصار المدرسة الحديثة ، فاجتمع الرأي بين طائفة من الأدباء في سنة ١٩٢٣ ، على أن أقوم بترجمتها نثراً ، تحرراً من قيود النظم وأوضاع النقل ، فعكفت على الترجمة عن نسخة أوزلي وعن نسخة اعتمدها المستشرق الألماني الدكتور

(١) ص ٣٣ العراف ط دار السلام

فردريخ روزن ، وقد راجع الترجمة يومئذٍ أستاذنا المرحوم محمود مراد ونشرت طائفة منها في مجلة المحاسن بالقاهرة .

وتقدم إلى الأصل الفارسي الأستاذ أحمد رامي فترجم الرباعيات نظماً سنة ١٩٢٤ (١) فكانت محاولة موفقة من شاعرنا الغرّد زاد في قيمتها المراجع التي ذيلها بها في الطبعة الثانية التي نشرها سنة ١٩٣١ ، وإن هذه الطبعة لتكون وافية لو أن الأستاذ رامي نشرها مع المتن الفارسي . ومن ترجمة رامي قول الخيام :

سمعت صوتاً هاتفاً في السحر نادى من الحان : غُفاةَ البشر
هُبوا املأوا كأس الطلا من قبل أن تفعم كأسَ العمر كفُّ القدر

***

أين النديم السمح أين الصبوح فقد أمضَّ الهم قلبي الجريح
ثلاثة هُنَّ أحبّ المنى خمرٌ وأنغامٌ ووجهٌ صبيح

***

ولقد نظم الدكتور أحمد زكي أبو شادي ١٣٠ رباعية في سنة ١٩٢٨ معتمداً في نظمه على ترجمة نثرية عن الفارسية لشاعر العراق المرحوم جميل صدقي الزهاوي وقد نشرها كاملة سنة ١٩٣١، ومنها قوله :

لا تظنن أنني من يخاف الـناس أو قسوة المنية أخشى
لست أخشى حقيقة الموت لكن أنا أخشى أني أسأت العيشا ؟

***

ولقد عثرت في ديسمبر سنة ١٩٤٣ أثناء بحثي عن مراجع الأدب الفارسي في خزانة المرحوم نور الدين بك مصطفى (٢) بمدينة حلوان على ترجمة له مخطوطة للرباعيات ، ترجمها عن الفارسية نظماً إلى العربية والتركية مع المتن الفارسي ، ولقد تركها نور الدين بك مبعثرة

(١) عن نسخة المستشرق نقولا التي نشرها عن مخطوطة طهران

(٢) ولد نور الدين بك مصطفى سنة ١٨٨٣ بمدينة أهريدا من أعمال يوغسلافيا وتوفى بالقاهرة سنة ١٩٢٨ ، وكان وكيلا لديوان الاوقاف ، كما كان شاعراً في اللغات الثلاث التركية والفارسية والعربية ، وهو صاحب دائرة المعارف الطورانية في أربعين مجلداً وهو جهد منقطع النظير لا يزال يغني صاحبه مخطوطاً في مكتبته ، وله دواوين في الشعر العربي والتركي والفارسي منها : نور الالهام وأوهامي والبستان وغيرها وترجم اللزوميات وقصص لافونتين الى التركية .

بين أوراقه وتحفه واستطاع نجله الدكتور محمد نور الدين الاهتداء إلى ١٢٠ رباعية ، وقد ظهر لي من مراجعتها أن نور الدين بك حقق منها ٨١ رباعية قطع بصحة نسبتها إلى الخيام .

ومن ترجمته قول الخيام :

لك الشكر مني يَزَوَّد مَنِّكْ فكيف أعيش لأقضي دَيْنَك
فِعَالِي سوءٌ فتجزى بسوءٍ ؟ فما الفرق يا رب بيني وبينك !

***

ثَوْرٌ يقال كأنهُ تحت الثرى وكذاك ثَوْرٌ في النجوم منوّرا
أنا ما رأيتهما ، ولكن في الورى آلاف حُمر صرتُ بينهما أرى

وأغلب الظن أن هذه الترجمة كانت تنتظر مراجعة من صاحبها لولا أن المنية عاجلته .

وفي مصر في أوائل عام ١٩٤٤ ظهر لون جديد لترجمة رباعيات الخيام أخرجهُ إلى العامية شيخ الزجالين وإمامهم الأستاذ حسين مظلوم رياض فسكبها في ثلاث أناشيد ، جاءت مثالاً للأدب العامي الرفيع ، على أنه يلوح لنا أن الاستاذ مظلوم قد تأثر بناحية من نواحي الخيام الفلسفية ، فطبع زجله بطابع التصوف ، وحمل جميع المعاني المختلفة التي وسعتها الرباعيات على أنها من وحي الصوفية الخالصة . وليس الأستاذ مظلوم هو وحده الذي وقع في هذا الظن بل إن كثيراً من أهل التصوف في عصورهم المختلفة قد أدخلوا الخيام في زمرتهم وتغنوا برباعياته في أناشيدهم وفي مجالسهم ، ولقد أشار الوزير جمال الدين القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ الى ذلك فقال : « وقد وقف متأخرو الصوفية على شيء من ظواهر شعره فنقلوها إلى طريقتهم وتحاضروا بها في مجالسهم وخلواتهم ، وبواطنها حيّـات للشريعة لواسع ، ومجامع للاغلال جوامع ، ولما قدح أهل زمانه في دينه ، وأظهروا ما أسره من مكنونه ، خشي على دمه ، وأمسك من عنان لسانه وقلمه ، وحج متاقاة لا تقية ، وأبدى أسراراً من السرار غير نقية . . »

ولهذا أرى أن ترجمة الأستاذ مظلوم ، وإن دلت على مكانة وقدرة بالغة في هذا اللون الرفيع من الأداء ، لا تصور الخيام كما أراد الخيام أن يكون ، بل صورت الخيام كما أراد الأستاذ مظلوم أن يفهمه وهو متأثر بجلال الفكرة الصوفية وسموها وخلود المعاني الروحية الخالصة المستقرة في قلوب أهل الصوفية الواصلين .

المآصر في بلاد الروم والاسلام

— ٦ —

لميخائيل عوّاد

المآصر في البلاد المصرية

مصر العزيزة « إقليم قديم جليل عظيم ، جسيم العائدة في سالف الزمان ، كان قديماً قُعدَد الملك يسكنه عظام الفراعنة وكبار الجبابرة (١) » ، و « هو الاقليم الذي افتخر به فرعون على الورى (٢) » .

ومصر بلد الفضائل والمحاسن ، والطلسمات والعجائب ، والكنوز والدفائن . أما فضائلها فكثيرة ، « منها أن الله عزّ وجلّ ذكرها في كتابه العزيز بضعاً وعشرين مرّة ، تارة بصريح الذكر ، وتارة إيماء (٣) » ، وهي من الخصب وسعة الرزق على درجة عظيمة « بدليل قوله تعالى مخبراً عن قوم فرعون : (كم تركوا من جناتٍ وعيونٍ وزروعٍ ومقامٍ كريمٍ ونعمةٍ كانوا فيها فاكهين) (٤) »

وأشير في غير موطن من العهد القديم إلى خصب أرض مصر وغزارة محاصيلها ، ففي سفر التكوين (١٣ : ١٥) ، قال الله تعالى لابراهيم عليه السلام : (إنّ جميع الأرض التي تراها لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد) وجاء في سفر الخروج (١٦ : ٢ — ٣) : (فتذمّر كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهرون في البرية . وقال لهما بنو إسرائيل : ليتنا متنا بيد الربّ في أرض مصر حيث كنا نجلس عند قدور اللحم ونأكل من الطعام ، شبعنا فلم أخرجتمانا إلى هذه البرية لتقتلا هذا الجمهور كله بالجوع) .

(١) صورة الارض (ص ١٣٥) (٢) أحسن التقاسيم (ص ١٩٣)
(٣) خطط المقريزي (١ : ٣٥) (٤) صبح الاعشى (٣ : ٢٨٢)

وفي سفر العدد (١١ : ٥) ، قال بنو إسرائيل : (فقد ذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً ، والقثاء والبطيخ والكرّاث والبصل والثوم)

« ومصر خزائن الأرضين كلها : (وآويناهما الى ربوةٍ ذات قرار ومعين) ، وسلطانها سلطان الأرضين كلها ، ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام لملك مصر (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) [(١)] »

ومن ثمّ أصبحت « خزانة أمير المؤمنين التي يحمل عليها حمل مؤونة ثغوره وأطرافه ، ويقوّت بها عامة جنده ورعيته مع اتصالها بالمغرب ومجاورتها أجناد الشام [(٢)] »

أمّا محاسنها فلا جرم « أنها مع ما اشتملت عليهِ من الفضائل، وحُفَّت به من المآثر أعظم الأقاليم خطراً، وأجلها قدراً، وأفخمها مملكة، وأطيبها تربة، وأخفها ماء، وأخصبها زرعاً، وأحسنها ثماراً ، وأعدلها هواءً ، وألطفها ساكناً. ولذلك ترى الناس يرحلون اليها وفوداً، ويفدون عليها من كلّ ناحية ، وقلَّ أنْ يخرج منها من دخلها ، أو يرحل عنها مَن ولجها ، مع ما اشتملت عليهِ من حسن المنظر، وبهجة الرَّونق ، لاسيما في زمن الربيع ، وما يبدو بها من الزروع التي تملأ العين وسامةً وحسناً ، وتروق صورةً ومعنى » [(٣)]

قيل : « من أراد أن يذكر الفردوس ، أو ينظر الى مثلها في الدنيا فلينظر الى أرض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها ، وقال كعب الأحبار : من أراد أن ينظر الى شبه الجنة فلينظر الى مصر إذا أزهرت » [(٤)] .

ومصر « فرضة الدنيا ، يحمل خيرها الى ما سواها ، فساحلها بمدينة القلزم يحمل منه الى الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسند والشحر ، وساحلها من جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلاد الروم والفرنج ، وسواحل الشام والثغور الى حدود العراق ، وثغر الاسكندرية فرضة إقريطش وصقلية وبلاد المغرب . ومن جهة الصعيد يحمل الى بلاد الغرب والنوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن » [(٥)] .

ومصر هذه « إقليم العجائب ومعدن الغرائب، كان أهلها أهل مُلك عظيم وعزّ قديم ، وفيها من الكنوز العظيمة مالا يدخله الإحصاء، حتى يقال إنهُ ما فيها موضع إلاَّ وفيه كنز» [(٦)]

---

(١) معجم البلدان (٤ : ٥٤٥) ، وخطط المقريزي (١ : ٣٧)
(٢) معجم البلدان (٤ : ٥٤٧) (٣) صبح الأعشى (٣ : ٢٨٥)
(٤) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (١ : ٧ ، المطبعة الشرفية بالقاهرة)
(٥) خطط المقريزي (١ : ٤٣) (٦) صبح الاعشى (٣ : ٢٨٦)

ومن طريف ما قاله عبد الله بن عمرو بن العاص : « البركة عشر بركات ، في مصر تسع بركات ، وفي الأرضين بركة واحدة . والشرّ عشرة أجزاء ، بمصر جزء واحد ، وفي الأرض كلها تسعة أجزاء »(١)

أما خراجها فهو في مقدمة خراجات الأقاليم غزارة . قال ابن حوقل : « وجدتُ بخط أبي النمر الورّاق في أخبار أبي الحسين الخصيبيّ ،قال : حدثني أبو خازم القاضي، قال: قال لي أبو الحسن بن المدبّـر: لو عمرت مصر كلها لوفتْ بأعمالَ الدنيا . قال: وقال له إنه كان يتقلـد الدواوين بالعراق ، يريد ديوان المشرق والمغرب ، قال: ولم أبتْ قط ليلةً من الليالي وعليّ عملٌ أو بقية منهُ ، وتقلـدت مصر فكنت ربما بتّ وقد بقي عليّ شيء من العمل ، فأستتمهُ إذا أصبحتُ . . . . »(٢)

وقال غيره إنّ « خراج مصر وحدها يضعف على جميع خراج الروم، وحمل منها موسى ابن عيسى في دولة بني العباس ألفي ألف ومائة وثمانين الف دينار »(٣)

فلا عجب أن تكون مصر وهي مالكة هذه الصفات العديدة ، والنعم العتيدة ، محط أنظار الأمم ، من فرس وروم وفرنج وغيرهم ، ومعقد آمالهم وأمانيهم ، فطمع فيها الطامعون في السنين السالفة ، وغزتها الجيوش غير مرة ، فعاثت بأرضها فساداً .

وكانت المدن المصرية في كل هاتيك الغزوات تعاني شدائد الحصار ، خاصة ما توسد منها ساحل البحر ، مما اضطرها إلى دفع الخطر المتوقع في كل آن، بكل ما أوتيته من حيلة ووسيلة. فأقام أصحابها الأسوار المنيعة حولها من طرف البر ، ومدوا السلاسل الحديد (المآصر البحرية) ذات الأبراج الرصينة في موانيها من طرفِ البحر ، فأضحت منيعة لا ترام ولا يوصل اليها.

وكانت دمياط والاسكندرية والسويس وهي مفاتيح مصر ، أعظم الثغور ذات المآصر البحرية ، ولعلها نصبت في رشيد والبرلس وتنيس والفرما وشطا وأخنا ، وغيرها من المدن الساحلية ، غير أننا لم نقف فيما بين يدينا من مصادر على نص صريح يشير إلى ذلك .

(١) مختصر كتاب البلدان (ص ٥٧) ، وحسن المحاضرة (١ : ٩)

(٢) صورة الارض (ص ١٣٥) ، وانظر معجم البلدان (٤ : ٥٤٦) وقد تصحف اسم القاضي فيه الى « أبي حازم » بالحاء المهملة ، خلافاً لسائر المراجع . وهو عبد الحميد بن عبد العزيز . انظر أخباره في تاريخ الطبري (٣ : ٢٢٠٧ ، ٢٢١١ ، ٢٢١٢ ، ٢٢١٥ ، ٢٢٢٢) وفي ملحق الولاة والقضاة للكندي (ص ٥١٩ طبعة كست)

(٣) مختصر كتاب البلدان (ص ٧٦) .

شيروود أندرسن

ترجمة مقال بقلم

السيدة ثلى فورشيم زنانيرى

مثله كمثل كثير من إخوته في الأدب ، نشأ في أسرة رقيقة الحال ، وشقّ طريقه إلى المجد والشهرة عصاميًّا عتاده العزم والمثابرة .

ولد سنة ١٨٧٦ في ولاية أوهايو ، وكان والده سروجيًّا ميالاً إلى الترحل ، يتنقل من بلد إلى بلدٍ في الولاية ، ولكنه لم يوفق في حياته المعيشية توفيقاً مرضيًّا . وكانت والدته إيطالية الأصل ، على جانب من وسامة الطلعة وبسالة النفس . وقد توفيت في مقتبل عمرها بعد أن أعقبت سبع بنين . وقد اضطرّ هذا الصغير من أبنائها أن يحاول كسب القوت . وعلى الرغم مما كان يتصف به من ذكاء وهمة لم يكن لديه متسع من الوقت يسمح له بمواصلة التعلم . فجعل يمارس أعمالاً شتى ، فمرة يبيع الصحف ، وتارة يبيع الفول السوداني أو حصاد البرسيم ، وحيناً هو صبي في إصطبل ، ثم هو عامل في الزراعة . وكان يتمكن من كسب بضعة دولارات في سباق الخيل وفي المشارب والمصانع . فإذا خلا له وقت بعد تطوافه في الشوارع وتردّده على الحانات ، انكبّ على القراءة متعطشاً منهوماً .

ولما شارف السابعة عشرة ، قدم شيكاغو ليجرب حظه ، وبدأ يتكسب بالعمل في مصنع ، وشعر بميله إلى الكتابة ورغبته في التعبير عن أفكاره . واتقدت بين جوانحه تلك الرغبة والميل ، حتى إن منظر الورق والمداد كان يترك في نفسه مثل أثر المخدِّر .

وقد أخذت بغضاؤه لعمل المصنع المتشابه تزداد رويداً رويداً ، فانخرط في سلك الجيش أثناء الحرب الاسبانية الاميركية ، وكان لحسن سلوكه أثر في إصلاح شأنه .

وحين رجع إلى شيكاغو استكمل خبرته العملية ، فالتحق بمكتب لنشر الأخبار ، وتمرّس فيه بأعمال هذا الفرع الصغير من الصحافة التي رأى فيها عوناً للكاتب على أن يخلق لنفسه شخصية .

وقد استهوته الأعمال بعض الوقت ، فأدار مصنعاً للتصوير في مسقط رأسه ، وأفاد

منهُ مالاً . ولكنه لاحظ أن الأعمال الأدبية التي يقف عليها سويعات قليلة كانت تضر بانتاج مصنعه . وبينما كان يملي يوماً رسالة خاصة بالعمل غادر المصنع إلى غير رجعة .

وزاول بعد ذلك العمل في الصحافة والنشر ، واجتهد أن يعلي من صيته ، وأن يكتسب ما يعيد به إلى أصدقائه أموالهم التي فقدوها بعد أن كانوا قد أودعوها رصيداً في مصنعه .

وقد كان بادئ الأمر شاذ الأسلوب ، فلم يرض عنهُ أصحاب الصحف ، ولكن الكاتب الناشئ توالت عليه آيات التشجيع من أدباء مثل « تيودور دريزر » و « بن هشت » و « فلويد دل » .

وفي سنة ١٩١٦ نشر أولى رواياته « بن وندي ماك فرسن » . وفي سنة ١٩١٩ نشر مجموعة أخبار « ونسبورج — أوهايو » فطار في الجمهور اسمه .

ثم أقام في « نيويورك » وانضمَّ إلى طوائف الكتاب ، واشترك نشيطاً في مجلات أدبية وفنية وسياسية ، فكان ما يكتبه موضع تقدير نقاد يؤخذ عنهم الرأي .

وفي سنة ١٩٢١ منح جائزة مقدارها ألفا دولار ، وضعتها جريدة « ذي ديال » فسافر إلى أوربة ، ولما رجع أقام في « أورليان الجديدة » نحواً من سنة مع « وليام فوكنر » وبعد ذلك أقام في مزرعة في « فرجينيا » حيث أسس بماله الخاص جريدتين إحداها جمهورية والأخرى ديمقراطية .

وبمناسبة مروره بأوربة جاء في مذكرات « جرترود ستين » قصة هزلية تبين أسلوب صاحب تلك الشخصيّة المبتكرة : « زار شيروود أندرسن باريس هذا الشتاء ، وظهر بمظهر جذّاب ، وكان يسلينا كثيراً بما يسلّي به نفسه . ويجب أن أقرّ بأنهُ كان يتألق بطولة ولكن في شكل شاذ » . وجاء في موضع آخر : « كنا قد ركّبنا من مدة قريبة أجهزة التدفئة الكهربائية حينما قدم شيروود أندرسن باريس ، فأقمنا له حفلة استقبال بمناسبة عيد الميلاد . وكانت الأجهزة ترسل حرارتها بقوة ، حتى أصبح الجو حارًّا ، ولكن الجمع كان مبتهجاً مسروراً . كان شيروود متشحاً بوشاح أحمر جديد كعادته ، فبدا غاية في الأناقة . وقد أقبل مع ولديه جان وأخته إلى باريس . وكان جان شابًّا بطيء الحركة خجولاً » .

وقد اتفق شيروود أندرسن وجرترود ستين على نقط عدة ، أهمها التأليف الأدبي ، وعلى الرغم مما لشيروود من قلة المبالغة ومن زيادة الإيضاح فقد جرّد كلاهما أسلوبه من الطابع الروائي الكثير التطويل .

وقد تنوعت أعمال شيروود ، فمنها الروايات والأخبار والتجارب ومقالات الصحف والمجلات وقصص الأفراد والمقطوعات الشعرية وقطع التمثيل والدراسات الفنية . وبذلك تخصص أو كاد في جميع نواحي الانتاج الأدبي . فالتفت إليه عدد كبير من النقاد الاميركيين والأجانب .

وهو روائي ذو ضمير حي . ولذلك عني بصفة خاصة بتصوير التجارب اليومية المتكررة لأبطاله في شكل يظهر تضاربها . وهو حريص على تجلية الواقع ، يسعى في نقل حقائق الوجود إلى كتبه . ومع أن بعض مؤلفاته تعدُّ شروداً لفكره من الأوضاع الفنيـة ، فإنه يحق له القول بأن الروايات يجب انتزاع موضوعاتها من صور الحياة العادية ، وأن على الخيال المبدع ألاَّ يجعل له من غير منابع الواقع مستقى .

ولم يكن يعدّ الشؤون الاقتصادية والسياسية أو المسائل الخاصة بالاصلاح الاجتماعي مما يهتم به الروائي كبير اهتمام . وهو يقول : «أعتقد أن الروائي والمفكر شخصان مختلفان، فالروائي يرسم حيـاة عصره كما يشعر بها ويستنشقها ويتذوّقهـا . وأما إيقاد الثورة فليس من شأنه » .

ولهذا استقى شيروود من تجاربه الشخصية موضوعاته جميعاً ، وفي مختلف رواياته كثير من الأشخاص — عرضهم في قصصه الخاصة بحياة الأفراد — يظهرون تحت ستار خفيف للواقع . وأبطاله في الغالب أحياء ذوو حس لا يرضون عند اكتشاف شخصيتهم المفردة ، وهم يهربون من البيئة التي أوجدتهم فيها الملابسات ، ويهيمون على وجوههم دون أن يخبروا من لهم صلة بهم باحثين عن حل لمشكلاتهم ، آملين أن يجدوا هـذا الحل بفصْم جميع العرى التي تربطهم بماضيهم سواء أكان معززاً بأسرة يعولونها أم بضاعة يزاولونهـا . وأحياناً يكون اضطرابهم ناتجاً من عدم إيمانهم بأنفسهم ، فحين يجتذبهم هدف مثل حب امرأة كما في (ضحك عابث) أو فكرة اجتماعية كما في (الرجال العاملون) فإن قلوبهم تثوب إليها الطمأنينة .

وأسلوب شيروود يبسط بوضوح خاص الحالة النفسية لهؤلاء الأشخاص الحائرين المترددين . فالجمل المقتضبة أحياناً ، وتصوير العواطف المتتابعة دون أن يربط بعضها ببعض فكرة بينة ، وجميع المؤثرات المتتالية على حافة الخيـال والواقع — كل ذلك يمهد للقصة جوًّا يجعل القارئ الحائر يستبين تخيلاته وأحلامه التي لم تكد تتكوّن في قلبه المعذب .

رقصة

لعبد الله عبد الرحيم بك

لشكاية الأوتار هينمة الرياح الصاخبه
أو خفقة من جانح أشجته دمعة ناحبه
فكأنما الأوتار حين ترن همسة عاتبه
ما هيج الداء الدفين كزفرة من نادبه
تتنازع القلب الحزو ن وتستبيح غواربه
وتثور عاطفة الهوى في كل صدر لاغبه
حتى ترى الإلفين مختنقين من حمى الصدور

مالت عليه كأنها غصن تعابثه الرياحُ
وبعينها من سورة الـ أحلام للهيمان راح
فافترت الشفتان عن أمل كما افترَّ الصباح
وتفتقت في صدره من لوعة الذكرى جراح
فأسفَّ كالورقاء ها ض جناحها القدر المتاح
ويكاد يسبق لفظه من حرقة الشوق النواح
كتم اللسان ونمت العينان عن سر الضمير

دارا وفي صدريهما غصص وفي القلبين نارْ
ولغصة الشوق المبرح في ضلوعهما أوار
زنارها منه اليمين وطوقها منه اليسار
ولصدره عن نهدها من جامح الشوق اقتصار
ما كان من برح الجوى لهما على حال قرار

يتدافعان كموجة راحت تقاذفها البحار
وتراهما يتراجعان تراجع الطير الكسير

ترتد عنه إلى الوراء من الدلال وتهربُ
كالصب أوحشه من الماضي خيالٌ مرعب
هو ما تباعدت انبرى من جسمها يتقرَّب
يمراه عالقة بيمناها فأين المهرب
ولها إذا أنست اليه تضرُّع وتعتب
همسٌ كمعسول المنى يسبي العقول ويخلب
واللفظ يقطر سلسلاً كتقاطر الماء النمير

انظرهما غردين لفهما الصبا بجناحه
فاستسلما لهواهما يتساقيان براحه
كلٌّ تعلق في رداء أليفه ووشاحه
كتعلق المذعور خوف اليمّ في ملاَّحه
أو كالطعين تمسكت يمناه في جرَّاحه
ظمآنِ ليس لشوقها كبحٌ ولا لجماحه
قلِقانِ مثل فراشتين تبارتا قرب الغديرِ

تلقاهما روحين في بدنٍ يحوطهما ذراعُ
نشر الهوى بُرديه فوقهما كما نُشر الشراع
وإذا تقضَّي الفصل لاح على وجوههما التياع
كمخبل نفث السقام به وعاوده الصداع
أو طائر لما تملكه من الصياد باع
فالقلب يوحشه الفراق ويدمع العين الوداع
وإن استعيد العزف عاد اللحن موصول الصفيرِ

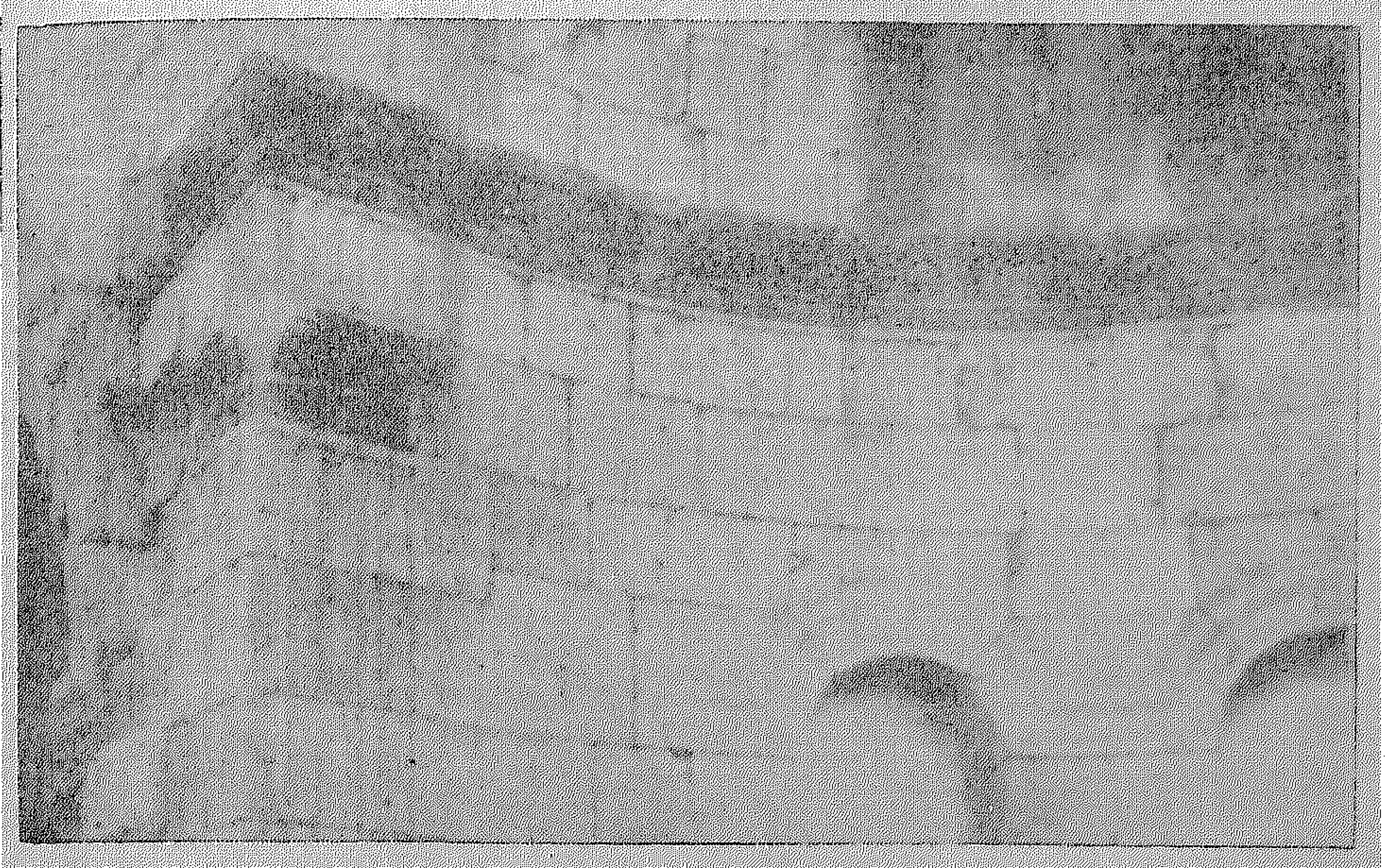
دمشق

التعريف والتنقيب

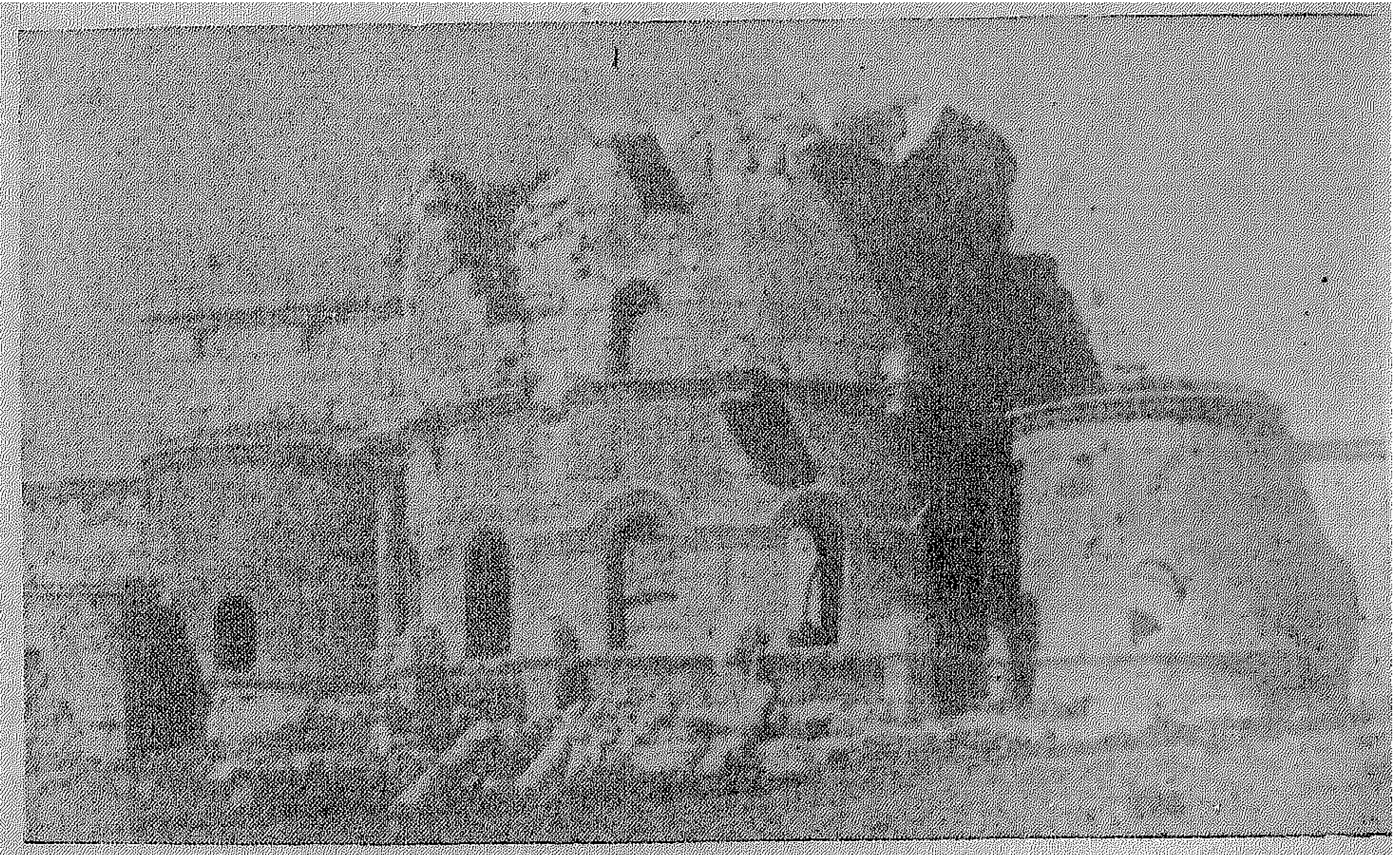
نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق، فنجريه إلى غايتين: إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة. ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن. هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى

بشر فارس

المشتمل



الجناح الشرقي : التزيينات في أواسط الحنايا



الكنيسة الشرقية : الحنايا من الفناء الخارجي

(تصوير درونيان ، حلب)

١ — الفنون الرفيعة

قلعة سمعان

افتتح اليونان سورية في عهد الإسكندر سنة ٣٣٣ ق . م . ثم افتتحها الرومان سنة ٦٤ ق . م . وبقيت كذلك الى سنة ٣٩٥ م وفيها انقسمت المملكة الرومانية إلى إمبراطوريتين شرقية وغربية — فتبعت سورية المملكة الرومانية الشرقية المسماة البيزنطية ، وكانت عاصمتها القسطنطينية ، وبقيت كذلك إلى الفتح العربي سنة ٦٣٦ أي أنه مرّ على سورية عشرة قرون من القرن الرابع قبل الميلاد إلى أوائل القرن السابع بعده وهي مزدهرة تؤلف جزءًا من ممالك عريقة في المدنية .

كانت بلادنا مأهولة بالسكان أكثر مما هي عليه اليوم . وقد أثرت من التجارة بين فارس والهند والصين وبلاد حوض البحر المتوسط . حكمها أباطرة يحرصون على الفن والترف وطبقة مثرية تبني القصور وتتنافس في تزيينها فكانت البلاد مسرح فن وعمارة .

وقد ساعد على انتشار البناء الحجر الكلسي الذي يسهل نحته والأشجار الكثيرة التي تنبت في الأمانوس ولبنان . وكانت سورية يغمرها الشعور الديني فشادت الكنائس الفخمة والقصور الشاهقة . وقد اكتسب المهندس السوري والصانع السوري خبرة فنية فائقة بعد بناء أنطاكية وتدمر وبعلبك فتابع عمله مثابراً على خطته في الإبداع .

إن أكثر هذه الأبنية قام على أسلوب خاص يعرف بالأسلوب السوري وهو يتأثر بالفن الإغريقي في طراز بنائه وبالفن الفارسي باستخدام القباب والحنايا ، وبالفن البيزنطي في نقش الأعمدة وتزيينها .

وقد خشي السوريون أن ينصهروا في بوتقة المملكة البيزنطية فاندفعوا يشجعون الانقسامات الدينية واعتنقوا مذهب أصحاب الطبيعة الواحدة حفظاً لكيانهم . وكان هذا النضال الديني يستر نضالاً سياسيًا . ثم حافظوا على لغتهم فتغلبت الإرَمية على اليونانية ، ووسموا فنهم بطابع خاص واتسع نطاق هذا الفن فشمل مصر وآسية الصغرى وإفريقية حتى سواحل الادرياتيك في أوربة .

يقول بنوا Benoit في كتابه « فن البناء في الشرق » : « إن مهندسي سورية كانوا بنائين بارعين يفتشون أبداً عن الطريف ، وقد جمعوا بين خبرة اليونان ودقة الفرس » .

***

هذا وإن النسك قديم في طباع البشر ، فلما جاءت المسيحية أنشأ الرهبان الديارات فانفردوا في المغاور والقبور المهجورة واجتمعوا في البيوت . ومنذ عام ٣١٢ في عهد الانبراطور قسطنطين الكبير انتصرت المسيحية على الوثنية فخرج الرهبان من مخابئهم ولجأوا إلى أبراج وصخور مرتفعة .

وقد ولد سمعان العمودي سنة ٣٩٠ وترهب منذ صغره ثم عكف على العبادة والتقشف وانتهى به الحال إلى إحداث مذهب جديد ، فقد بنى عموداً ضخماً ووضع في رأسه لوحاً مربع الشكل وبنى عليه كوخاً من خشب ، وبقي كذلك عدة سنوات ، ثم أزال هذا الكوخ وتعرّض للحر والقر ، وبقي كذلك أكثر من ثلاثين سنة . وانتشرت طريقة سمعان في عصر يسيطر فيه الدين على عقول البشر وأقبل كثير من الرهبان على تقليده .

إن سمعان فرَّ من العالم ونشد العزلة التامة ، ولكن سرعان ما ذاع صيته فأتاه جمٌ غفير من الحُمْس للتبرك به ، وقد لحق بهم عدد كبير خرجوا للنزهة . وتلا هؤلاء عدد أكبر من المرتزقة أتوا للبيع والشراء ، وتحوّل المنسك إلى مزار يزخر بالناس . فنشأت مدينة كاملة بأسواقها وقصورها وكنائسها وهي التي تعرف بدير سمعان على مسافة قريبة من القلعة ، وآثارها تدل على اتساعها .

جاوز صيت سمعان البلاد السورية واحتكم إليه البدو في خصوماتهم ، وأصبح قديساً يشفي المرضى فجاءته الوفود من أقصى البلاد المسيحية المعروفة في ذلك العصر من جرمانية وغالية وبريطانية وسواها . وتوفي سمعان سنة ٤٥٩ فوضع جثمانه في أسفل العمود ثم نقل إلى أنطاكية ودفن في كنيستها الكبرى .

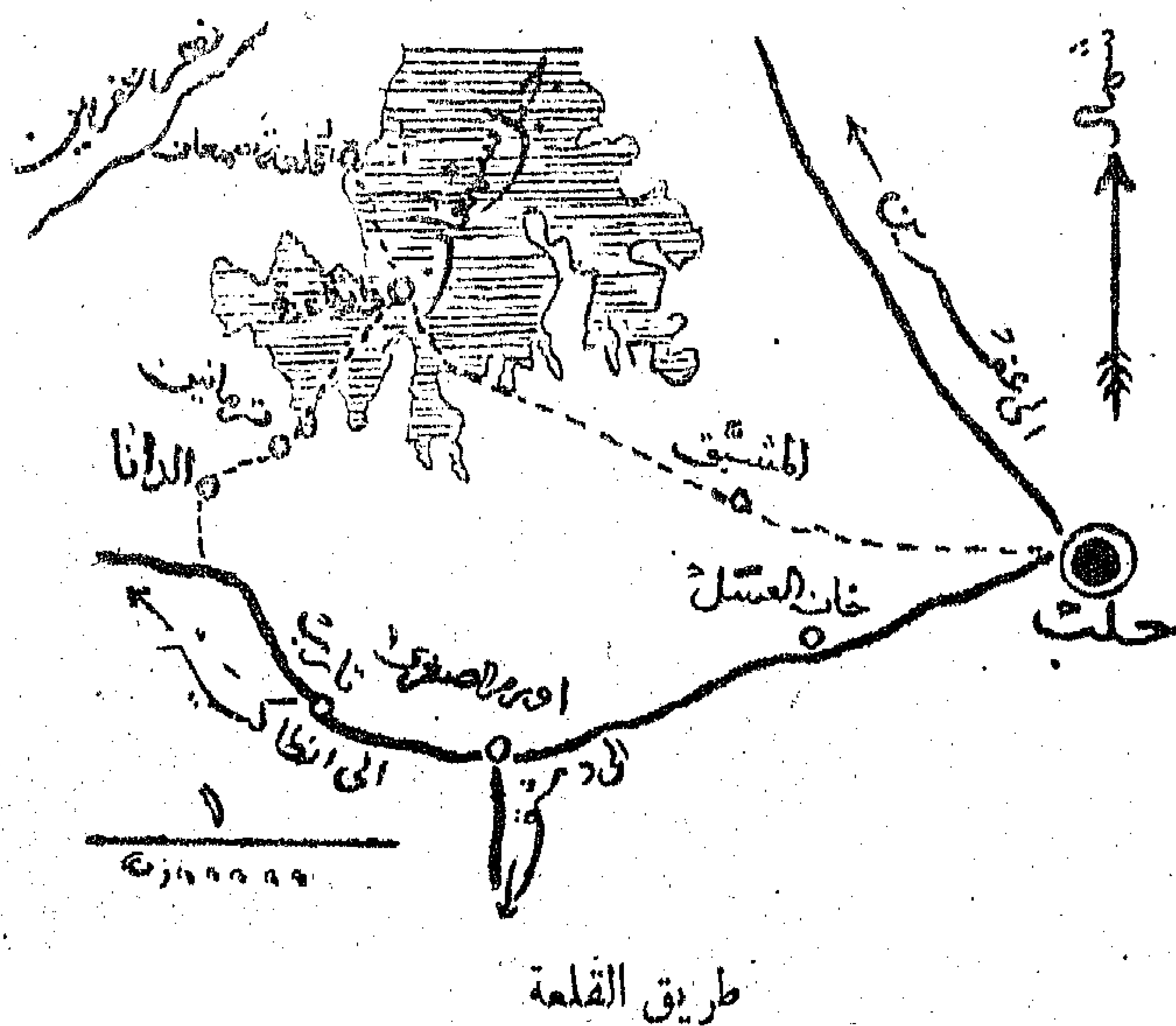
رأى الرهبان بعد موت سمعان أن المكان تحوّل إلى مزار تقصده قوافل الحجاج ، فبنوا كنيسة ضخمة أتموا عمارتها سنة ٥٠٠ ثم حصنوها بعد الفتح العربي فغلب عليها اسم « القلعة » . وظلّ الرهبان معتكفين في الدير ، والحرب سجال على الحدود ولا سيما في عصر الحمدانيين ، يغير الروم على حلب ويغير عليهم سيف الدولة .

ذكر المؤرخ يحيي بن سعيد « أنه في سنة ٩٨٢ استولى الروم على كلس وأوقعوا بجماعة من الحمدانيين وحاصروا أفاميه وقاتلوا أهلها اشد قتال وجاؤوا إلى حلب . فسار قرغويه

نائب سعد الدولة الحمداني إلى دير سمعان في مدة ثلاثة أيام وقاتل أهله أشد قتال وفتحه بالسيف وقتل جماعة من رهبانه وكان ديراً آهلاً عامراً وسبي خلقاً التجأوا اليه من أنطاكية».

وعلى ذلك تهدم القسم الأعظم من الدير وبقيت منه أطلال تدل على عظمته. وقد ذكر ديل Diehl «أن القلعة هي جوهرة الفن المسيحي» وهي أكبر كنيسة مسيحية عرفت قبل بناء الكنائس الكبرى في الغرب في القرن الثاني عشر ككنيسة القديس بطرس في رومة.

وقد ذكر المؤرخون الذين زاروا القلعة في إبان عظمتها أنها كانت مطلية بدهان جميل تتخلله خيوط مذهبة وأن الأرض كانت مفروشة بالفسيفساء وكان فيها قناديل من المعادن الثمينة وتصاوير رائعة.



طريق القلعة

واجتمعت بها كل طرف الفن فظهرت ألوانها البراقة وكانت هندستها مصنوعة بحيث تدخل الأنوار خفيفة فتزيد في جمالها وتجعل جوّها للخشوع والرهبة.

تقع قلعة سمعان في السفح الغربي لجبل سمعان في شمال غربي حلب، والطريق المؤدية إليها هي الطريق المعبدة العامة إلى أورم الصغرى، ومن هناك تسلك طريق أنطاكية إلى تارب، وبعد هذه القرية تترك الطريق المعبدة، وتسير يميناً في طريق ضيقة فتمر بقرى دانا وترمانين ودارة عزة، وبعد هذه القرية بعشر دقائق تصل إلى القلعة. وهناك طريق ثانية أقرب من الأولى إلى حلب، تمر فيها على قرية المشبق حيث تجد كنيسة قديمة قد احتفظت ببنائها، وهذه الطريق لا تصلح للسيارات.

يحتوي البناء على ساحة متسعة هي المدخل العام وعلى فناء داخلي. ويتألف بناء الكنيسة من مدخل مسقوف على شكل مستطيل ثم من كنيسة ذات أربعة أجنحة أو بعبارة أصح من أربع كنائس مبنية على الشكل الآتي:

يتوسط البناء عمود يحيط به مثمن منتظم له أربع فتحات على اربع كنائس، وأربع

فتحات على غرف صغيرة مبنية على شكل شبه منحرف . وتتألف كل كنيسة من ثلاث أسواق إحداها عريضة والأخريان ضيقتان . وتنفصل الأسواق بصفين من الأعمدة كانت تحمل أقواساً : ست في كل جهة ، وقد هدمت بكاملها إلاَّ قواعدها . ونلاحظ أن القسم الشرقي أطول من الأقسام الثلاثة الأخرى ففيه تسعة أعمدة من كل جهة، وتنتهي الأجنحة الثلاثة بجدران مستقيمة، والقسم ينتهي بثلاث حنايا ، وهذا القسم الشرقي كان للعبادة فقط . أما الأقسام الأخرى فلجلوس الزائرين .

يلاصق الكنيسة معبد صغير خاص بالرهبان ، وبناؤه فسيح فيه فتحات متعددة تدلّ على وجود غرف كثيرة في طبقات ثلاث . وفي شمالي البناء مغارة منقورة في الصخر فيها مقابر . وعند مدخل القلعة غرفة مبنية على شكل مثمن فيها بركة صغيرة « لتعميد » الأطفال ، وتحيط بها أطلال عدة غرف لمسكن الزوار ، ثم طلل كنيسة صغيرة .

ويحيط بهذا البناء سور متين فيهِ أبراج مرتفعة تشرف على القلعة وعلى السهل الذي يجاورها . وقد بني هذا السور بعد الفتح العربي ليستطيع الرهبان الدفاع عن قلعتهم .

وتطل من الجناح الغربي على سهل عفرين في منظر ساحر . ولدينا آثار شرفة متسعة ، فالبناء من هذه الجهة يلامس قمة الجبل . وقد تهدمت الشرفة ، إلاَّ أنها أجمل مكان يأوي إليه الزائر ويتمتع فيه بروعة سهل عفرين .

وتشغل القلعة مساحة ٣٨٤٠ متراً مربعاً . وطول البناء من الشرق إلى الغرب ١٠٠ متر ومن الشمال إلى الجنوب ٨٨ متراً . وعرض كل جناح ٢٤ متراً ، وقطر المثمن ٢٨ متراً . وتدلّ هذه الأبعاد على ضخامة البناء .

ويظهر البناء منتظماً على المخطّط . ولكن الجناح الشرقي ينحرف في الحقيقة قليلاً لأن الكنائس القديمة كانت تتجه دوماً نحو الشرق .

وتدل الأحجار المبعثرة على أن القسم الأعظم من البناء قد تهدّم فيضطر الزائر الى أن يسير على الأحجار ولا سيما في أطراف البناء .

ويتألف مدخل الكنيسة من ثلاثة أبواب أحدها متسع في الوسط . والآخران صغيران وهما على الأطراف . وتتكئ القوس الوسطى على عمودين نـحت كل منهما من قطعة واحدة ، ويعلو كلاًّ منهما تاج كورنثي الشكل ، وتتتابع الخطوط التزيينية في وسط الجدران ويعلو كل باب مثلث، وكان بين المثلثات أعمدة تربط الأبواب بعضها ببعض وتمكنها . وكان المثلث يُغطّى بسقف ذي منحدرين .

وإذا انتهينا من المدخل المسقوف وجدنا أربعة أبواب ، اثنان منها في الوسط ، واثنان

في طرفي الجناح الجنوبي . ويعلو البناء جدار فيه أربع نوافذ تحيط بها خيوط منحوتة نافرة . وتدل التيجان الباقية فوق هذه النوافذ أنها تنقسم قسمين ، وأن كل قسم يتألف من نافذتين تفصلها أعمدة دقيقة . ونلاحظ في هذا المدخل خصائص الفن السوري . فالكنيسة مزينة في جميع أقسامها الداخلية والخارجية ، والجدران مبنية من حجارة متوسطة في الحجم . وقد كان بامكان البنّاء أن يستخدم الأحجار الضخمة والبناء يرتكز على الصخر ، لكنه آثر أن يأخذك بدقة الصنعة وإتقانها لا بضخامة الأحجار . ونلاحظ أن النوافذ هي من ضمن البناء وليست نافرة ، ونرى تعدّد الأبواب تسهيلاً لدخول الزائرين وخروجهم . ونشاهد أمكنة كثيرة لأعمدة فقدت .

والبناء رائع في ائتلافه فلا تظهر مواد غريبة تربط الأحجار بعضها ببعض . والجدران متناسقة . وأحجارها كلسية تتصف بالبساطة وحسن الذوق زادها الزمن جمالاً ، وقد أجاد المهندس ، في رأينا ، المزج بين الأقواس الشرقية التقليدية والهندسة اليونانية .

لننتقل الآن إلى المثمّن ، وقد بقيت منه خمس أقواس وتهدّمت ثلاث . ويتوسط هذا المثمن عمود يقال إنه عمود سمعان . ومن المرجح أن المهندس قد وضعه في وسط البناء فان في الجهة الشرقية قاعدة عمود آخر عريضة جداً يُصعد إليها بدرجات . وقد تكون القاعدة الحقيقية لعمود سمعان . فقد أجمع المؤرخون على وجود عمود ضخم ، طوله أحد عشر متراً ثم زاده سمعان إلى سبعة عشر متراً ثم إلى واحد وعشرين متراً ، وقد صنعه تلاميذ سمعان تقديساً له وكان مؤلفاً من ثلاث قطع .

ويبلغ قطر أقواس المثمن الفخمة سبعة أمتار ، وهي ترتكز على أعمدة مستقلة عن أعمدة الزوايا ، ونلاحظ ذهاب أعمدة كثيرة من بين الأقواس ، فقد كانت تتمم البناء وتؤلف دائرة تتوجها . والمثمن يؤلف داراً مكشوفة . وسقوف الأجنحة الأربعة كانت تنتهي بميل قبل أن تصل إلى المثمن . لذلك كانت تبدو هذه الدار الفسيحة متناسقة البناء تدعمها أعمدة مؤلفة من ثلاث طبقات .

ونشاهد في الجهة الشرقية آثار باب مبني في القرن السابع يحتوي على ثلاث فتحات ، وهو قائم بين الكنيسة والدار المثمنة لئلاّ يزعج طواف الحجاج بالعمود وصلاة المصلين في الكنيسة .

وإذا نظرتَ إلى المثمن قلت ما كان أروع هذا البناء لو كان المثمن مسقوفاً على شكل الأجنحة الأربعة فيصبح بناءً واحداً متماسكاً وقد انفرد Krekner بهذا الرأي . ولكن

طراز البناء واتجاه الأقواس وضخامة المثمن تدلنا دلالة واضحة على أن الدار كانت مكشوفة، وهذا ما أجمع عليه الذين درسوا القلعة أمثال De Vogüé وButler وMattern .

ونشاهد التناسب الجميل بين الأحجار والخطوط النافرة التي تزيد على الثمانية ، وتختتم القوس بنحت ناعم نافر نجده في جميع أقواس البناء .

وفي الجناح الشرقي نجد الحنايا الثلاث . الحنية الوسطى فسيحة يصعد إليها بدرجات ، وفي وسطها كانت المائدة وفيها خمس نوافذ تعلوها خيوط نافرة يتصل بعضها ببعض وتزين الأقواس والأجزاء التي بينها .

ويتوسط الحنية تزيينات ، وتنتهي الحنية بغطاء على شكل نصف قبة ، تعلوها فتحة لدخول النور، ونجد من كل جهة حنية صغيرة ، لا تختلف بطرازها عن الحنية الوسطى . أما أسواق الكنيسة الثلاث فكانت منقسمة بالنسبة الى هذه الحنايا . ثم تدل آثار النحت الموجودة في الزوايا على أن الجناح كان مغطى بسقف ذي منحدرين .

أما النقوش التي في وسط الحنايا فتعلو أعمدة تتألف من رسوم متداخلة ومن صفين من ورق النخيل النافرة المنحنية إلى الأمام . وفي الإطار المنقوش ثلاث طبقات : يتألف الجزء الأسفل منها من نجوم ذات رؤوس دقيقة متداخلة بين خطوط معوجة ، والجزء الأوسط من ورود رؤوسها متعاكسة ، والجزء الأعلى من خط فيه زخارف ناتئة ، ثم تشبه حنايا الفناء الخارجي القسم الداخلي بأحجارها وزخارفها . بقيت قواعد الأعمدة وتيجانها وقد سقطت .

وتدل أطلال مساكن الرهبان على وجود دير كامل يتسع لإيواء عدد كبير ممن يؤمونه ويحرسون القلعة إذا دهمها خطر .

• • •

تلك صفحة رائعة من صفحات ماضينا الزاهر . وقد أردت أن أنشرها وأذيعها بعد أن تأملتها بإعجاب . وحداني إلى ذلك خاصةً أني رأيت أبناء وطني غير مكترثين لآثار بلادهم على انواعها ولا مقبلين على زيارتها ولا العناية بها ولا التعظيم لها إلاَّ في النادر .

حلب داود صليبا

٢ - الكتب

* ألف ليلة وليلة * بقلم سهير القلماوي

١٧ × ٢٢ ½ سم ٣٢٠ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٣

عجباً لخلود شهرزاد وما حملت في طواياها من صور وأحلام . لقد ولدت هذه المرأة الساحرة من خواطر مبتكرها المجهول كما ولدت الإلهة اليونانية الزهرة من دماغ جوبيتر ومرّت الأجيال وشهرزاد فتنة الأسمار وبهرة الأخبار ، وتصرّمت العصور والزهرة بهجة الفن وقريحة الشعر .

ولقد تعاقبت الأحقاب منذ مولد ألف ليلة وليلة وما زال فريق من الشرقيين يسكبون عليها أبصارهم ومشاعرهم مأخوذين بقصصها مفتونين بحوادثها ، يتقصون فيها روايات اللصوص والصعاليك ، وتشوقهم مطارحات المغرمين ومكايد الخبيثين ، يصدقون أساطير السندباد في البحر وطلاسم الجن في البر ويستخفهم كل ما في الليالي من حلاوة الكلام ، وأخذ ناس في الغرب ينشقون في ألف ليلة وليلة بخور الشرق عابقاً في قصور الخلفاء . وقد تألقت في جوّها الثريّيات والشموع فتكسرت أضواؤها على تاج مرصع بالدر والياقوت فوق هامة هرون الرشيد وهو على متكأ وثير ، وراءه «مسرور» ممسك بمروحة من ريش النعام وندمان من حوله ، وحاشية من خلفه ، وراقصات مياسات بالدلال ، وحجّاب بالباب ، وحشم يسعون بين النُدُل بسائغ الشراب وشهيّ الطعام .

صور تتابعت على خاطري وأنا أقرأ كتاب الدكتورة سهير القلماوي في « ألف ليلة وليلة » وهو رسالة جامعية ضافية جاءت حجة على مجهود المرأة في التأليف والتحقيق ، وأن في وسعها مضاهاة الرجل في مناهج البحوث العلمية وتاريخ الأدب .

لقد توفرت سهير على دراسة بحثها هذا فاغتربت من أجله ونقبت ، واطلعت على أكثر ما كتبَ الغربيون في ألف ليلة وليلة قديماً وحديثاً ، فاستقصت النصوص ومحصتها وعرضت آراء المستشرقين على بساط من النقاش ، فإن منهم جماعة أحبوا هذا الكتاب الشعبي وأكبوا على نحواه ، فحللوه وركبوه وعرضوه في معاريض النقد والاستقراء ، فذكرت

السيدة الباحثة في مستهل كتابها أدباء من الغرب حاكوا ألف ليلة وليلة، فانسحبوا على أذياله وتقيّلوا ظلاله. فمرَّ ببالي بعد الذين ذكرتهم سهير : ڤولتير في قصة «الوزير زاديج» فان على قصته هذه نفحات من ألف ليلة وليلة في تهويلاتها وفيما اشتملت عليه من الفواجئ والعجائب، ومنهم نفر كانوا دهاقين سياسة جاءوا بلاد الشرق من فرنسة بمراتب السفراء فتلهى منهم من تلهى عن سياسة الدول بفن القصص فعبرت حكاياتنا الشعبية من القسطنطينية إلى أوربة، فكانت في أدب الغرب متاعاً للأحاديث ومعازف للهو والسلوى، وإذا هي على مسارحهم روايات تمثيلية وفي دور السينما مشاهد رائعة وصور خالبة.

وقد حارت السيدة سهير كغيرها من الباحثين في واضع ألف ليلة وليلة، فهي ترى أن مؤلفها أكثر من واحد، ونقرت في تاريخ صدورها وحوادثها حتى استقرَّ رأيها على أن منجم الليالي ومطلَّ عهدها كانا في أيام المنصور أو المأمون، ثم جعل الشعبيون يلحقون بها كل قصة تستهوي العامة وتستريح إليها الخاصة، ولما عرضت المؤلفة لخصائص الليالي وتصنيفها أخضعتها لمؤثرات الحضارة الإسلامية ومظاهر الدين، إذ أن الروح الدينية تموج في أكثر مناحي الكتاب، ويظهر فيها الإذعان للقضاء والقدر، وقد بحثت النواحي الاجتماعية فيه فرأت صوراً صادقة لحياة المجتمع بمصر وبغداد في عصور تأليفه، وساقت بحثها إلى قضايا الأدب والشعر فدلت كيف خرجت أنباء الأدب من كتب الأصمعي وأنداده من الرواة لتدخل أبهاء ألف ليلة وليلة على يد قاصٍّ ماهر سكب عليها من فنه روحاً شعبيًّا ساحراً.

وهكذا قيض لصاحبة الكتاب أن تدرس نصوص الليالي وفصولها كما يدرسها الرجال الذين لا يعبأون بالمرأة على نحو ما ينبغي لها، لأنهم لم يكونوا نساء فيستطيعوا التسلل بدراستهم إلى سرّ المرأة، وأحسب صاحبة الكتاب قد هيبت هذه المولج بما هي أحرى به وأولى، ولم يستفض حديثها عن المرأة في ألف ليلة وليلة والمرأة فيها مغبونة منكودة، ولئن عقدت الباحثة فصلاً فيها في كتابها لقد جاءت به بسبيل التحقيق العلمي وإتماماً لرسالتها. ثم ربما كان القارئ يودُّ أنْ لو عرضت المؤلفة لمطارب الرقص وملاهي الموسيقى ولو من وراء حجاب، فهذا باب فيه طرفة وفيه فائدة.

وكذلك كان قلمها العلمي غالباً على قلمها الأدبي في كتابها، ولكم آثرت لو جرى هذا القلم بيد سهير على سجاياه منطلقاً من قيود الجامعة التي آثرتها في البحث.

وليت الأديبة المصرية تعود إلى شهرزاد ملفوفة بالديباج المفوف مضمخة بالعطور، قص أحسن القصص على شهريار وهو مجذوب النظر مخلوب الفكر، وقد انكسر سيفه

واستمر بطشه يهم به التهويم في قطع من الليل فيدفعه السهر وشهرزاد تصب في مسمعه ألحان كلامها وتملأ عينيه بروعة جمالها وتطبع على الليالي قلبه بالهوى ، فإذا لاح الصباح سكتت عن الكلام المباح ...

وداد سكاكيني

• بنت الشيطان • بقلم محمود تيمور

١٣½ × ١٩½ سم ١٥٠ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٤

ما كان لي أن أعرض لما كتب الأستاذ محمود تيمور وقد عرفهُ القارئ قاصًّا يتقدم فئة من قصاص العربية في العصر الحاضر ، ويفتنّ في سبك القصة وفي عرض الحوادث ، ويتصرّف في الغرض بحسب ما توحي إليه درايته وتجربته وتوفره على هذا النوع من الأدب زمانًا . وهو في كل ذلك سليم الخاطرة ، سلس التعبير .

والأستاذ تيمور – لطول خبرته – يستطيع أن يتخيّر السمين وينفي الغث . وإن مجموعته الأخيرة من القصص « بنت الشيطان وقصص أخرى » ينغمر فيها الحسّ فتلفه حتى تطوى القصة الأخيرة « قدح ماء وليمونة » وهي قصة الصراع العنيف بين القلب والعقل . وأي رجل يتغلب عقله على قلبه في ساعة ساحرة فيقذف بالكأس المشتهاة ، وهو يوشك أن يرتشف رحيقها اللذ ، ثم ينطلق عجلاً لا يلوي على شيء ؟ أي رجل يفعل ذلك إلاّ أن يكون رجلاً عظيما ؟

هذه القصة « قدح ماء وليمونة » هي و « خصام » و « الترام رقم ٢ » بلغت شأواً حقًّا في فن القصة القصيرة ، ولم تتخلف عنها « بنت الشيطان » لولا غموض ضئيل رانٍ على مرمى القصة : فهذا الخير الذي أراده رأس الشر « بلزعبول » لم يستطع أن يغير من طبيعة المخلوق أو أن يمحوها . أما كيف ارتدّ كل أمر الى أصله فهذا شيء يكشف عنه سياق الحديث . ثم لا عجب إن رحتُ أحاور الأستاذ تيمور فأقول : كيف غمّ على الشياطين أمر العباءة السحرية وكيف جازت عليهم حيلة الأمير زبرجد حين أراد الدخول الى حرمهم ففاز ؟ ولماذا انتحر صاحب « البومة تنعق » ألأنهُ كان يعيش في الريف وإن في طاقته أن يدفع عن نفسه هذا الكابوس فيرجع الى القاهرة حيث الهرج والمرج ؟ أم لأنهُ قسا على زوجته حيناً وكان يستطيع أن يكفّر عن سيئاته ؟ أم لأنهُ قتل البومة والإنسان في كل يوم

ألف قتيل ؟ وماذا عسى أن تكون العقدة في « ليلة عرس » ويا ليت عنوانها كان « أمانيّ قلب » أو ما أشبه ذلك .

هذا ولقد صدَّر الأستاذ كتابهُ بمقدمة انضمت على صرخة صريحة فيها عتب على الجمهور الذي انكبَّ على القصص الرخيص . هذا القصص الذي يجذب اليهِ النفوس الضعيفة والعقول السقيمة فيبذر فيها غراس الشر والأخيلة الخاوية والأوهام المبتذلة، وهو يفسد عقول النشء وأنصاف المتعلمين ، شأنهُ في ذلك شأن المقالة الواهنة الضعيفة التي تخلو من الفـائدة وتفهق بالشر ،ونحن أحوج ما نكون إلى أن ندفعهم عن كل ذلك . فهذا القصص ينحط بالشعب إلى أسفل ، وتلك المقالة تعصف بصبابة من الأخلاق نترجَّاها . وهما نوعان من الأدب يتعاوران الزعامة حالاً بعد حال .

هذه الصرخة فيها الحكمة والغيرة ، فهل إلى العمل على تحقيق أمانيّ المؤلف من سبيل ؟ سل الكاتب والناشر والقارئ وولي الأمر .

كامل محمود حبيب

• ثمار المقاصد في ذكر المساجد ، ليوسف بن عبد الهادي •

بتحقيق محمد أسعد طلس

١٦ × ٢٥ سم ٣٣٢ ص نشر المعهد الافرنسي بدمشق بيروت ١٩٤٣

قصد المؤلف إلى ذكر المساجد التي عرفت في عصره (القرن التاسع الهجري) في دمشق وما قرب منها،أحصاها إحصاءً جيّداً ، وأرخها تأريخاً مختصراً . ثم ختم الكتاب بفصول في أحكام المساجد ، ما يجوز فيها وما لا يجوز ، وآداب دخولها وآداب المكوث فيها ، إلى نحو ذلك مما عرف في كتب الفقه .

والكتاب تحفة طريفة من آثار علماء الشأم الأعلام ، مؤلفه ندّ السيوطي وشبهه وعصريّه ، كلاهما عالم واسع الاطلاع ، مؤلف مكثر ، يخوض في كل علم ويؤلف في كل فنّ . ابن عبد الهادي مات سنة ٩٠٩ والسيوطي مات سنة ٩١١ ، وأكثر مؤلفاتهما جمع أو تلخيص ، وكلاهما أنتج كثيراً ، ولكن السيوطي أشيع ذكراً ، وأبعد صيتاً بما نشر من مؤلفاته .

وميزة هذا الكتاب أنهُ ابتكار جميل ، لم يسبق إليه المؤلف فيما نعلم . وكم تمنينا على

وزارة الأوقاف المصرية أن تصنع مثل هـذا الصنيع ، تحصي مساجد المملكة المصرية في كتاب مستوعب يذكر فيه تاريخها مفصلاً وأماكنها مبينة محدودة . وقد بلغني أخيراً أنهم فكروا في ذلك واتجهوا إلى تحقيقه ، ولعلهم فاعلون إن شاء الله .

وأما إخراج الكتاب فقد أوفى فيه الدكتور أسعد على الغاية . إتقان مع أناقة ، في تحقيق علميّ تاريخيّ دقيق . زيَّن حواشيه بنفائس من نتاج بحثه في مصادر التاريخ وغيرها ، ومن آرائه ودراساته ومشاهداته ، ونحن نقدّر ما لقي من صعوبات في إخراج الكتاب ، فإنهُ نشره عن نسخة وحيدة من مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق وهي بخط المؤلف ، وخطه من الخطوط التي تصعب قراءتها إلاَّ على الخبراء الذين مارسوا مثل هذه الخطوط ، بل هو جديرٌ بأن يوصف بما وصفه به الدكتور أسعد أنه « رديء الكتابة » وقد اظهرنا على مثال منه بتصوير الصفحتين الأخيرتين من الكتاب .

وكلمة الدكتور أسعد في أواخر مقدمته تصوّر بعض ما لقي من صعوبة وما بذل من جهد : « والنسخة التي نقدمها اليوم لقراء العربية نسخة وحيدة في مكاتب العالم ، رأيتها منذ سنوات فأعجبتني وعزمت على نشرها ، وأخذت أفتش عن مصادر أستعين بها في عملي هذا فلم أهتد إلى شيءٍ سوى تاريخ ابن عساكر ، وتنبيه الطالب وإرشاد الدارس للنعيمي وبعض مختصراته ، ومنادمة الأطلال لبدران ، وخطط الشام لكرد علي ، فقرأت هـذه المصادر كلها قراءة أعانتني على اكتشاف بعض الأسماء والأمكنة ، وما اكتشاف هـذه الأمكنة بالأمر السهل ، فان للبلاد والأرض انقلاباً وتطوراً عجيباً كما للإنسان — على رأي ابن خلدون — والله وحده يعلم كم كانت مهمتي عسيرة . وما أقول إني بلغت فيـه الغاية ولكنني بذلت الجهد واستعنت بالمصادر من شرقية وغربية ، وسألت العلماء ، وهم جد قليلين في هذا الباب ، فكان لي من ذلك بعض العون » .

وقد وضع للكتاب ذيلاً ، وهو حافل نفيس ، إذ أحصى فيه مساجد دمشق الموجودة إلى نهاية سنة ١٣٦١ ، وقد زارها مسجداً مسجداً ، وهي أكثر من ثلاثمائة مسجد . وصفها وصفاً كاشفاً ، وحاول تعيين تاريخها مما وجد في نصوص المصادر التاريخية ، ومما قرأ على جدرانها من كتابات ونقوش ، ومن طرز البناء وأساليب عمرانه . وذكر من النقوش والكتابات ما لم يكن منشوراً في كتاب فرنسي سماه . وليته استوعب ذكر النقوش والكتابات في هذا السفر القيم ، ليكون عمله تامـاً وافياً ، ولأنه ليس من الفروض على الباحثين والمنقبين من الأمم العربية أن يعرفوا اللغة الفرنسية ، أو أن يستوعبوا قراءة ما كتب بها في علومهم وآثارهم ومفاخر بلادهم .

وقدّم الدكتور أسعد الكتاب بمقدمة جيدة ، ترجم فيها مؤلفه ترجمة وافية ، وأحصى مؤلفاته الباقية في دار الكتب الظاهرية ، وعرّفها للقارئ تعريفاً كافياً .

وصنع للكتاب فهارس متقنة ، للبقاع والمساجد والأعلام . وختم الكتاب بمصوّر جغرافي « خريطة » ذكر فيها المساجد الموجودة بدمشق ، قسّمها إلى مربعات صغيرة رمز لها بحروف وأرقام ، وذكر هذه الحروف والأرقام عقب الكلام على كل مسجد ، ليسهل على القارئ تعيين موضع المسجد في « الخريطة » .

ولكننا لاحظنا أن « الخريطة » موضوعة في الأصل باللغة الفرنسية وأنها صنعت بين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣٤ فهي على أكثر تقدير تنتهي في سنة ١٣٥٣ هـ وقد صرح المؤلف أنهُ أحصى مساجد دمشق الى سنة ١٣٦١ هـ .

وقد علمنا أن هذا العمل الجليل قد توّج بقرار نبيل من « المجمع العلمي العربي بدمشق تنفيذاً للمادة ٤٨ من النظام الداخلي للمجمع ، وهي تنص « أن المجمع يوزع سنويّاً ثلاث جوائز نقدية على ثلاثة مؤلفين سوريين صنفوا أو ترجموا كتباً قيمة . وعلى ذلك منح المجمع الدكتور أسعد طلس إحدى الجوائز الثلاث لسنة ١٩٤٤ لإجادته في نشر هذا الكتاب .

وهذا القرار النبيل وسامٌ أدبيّ ناله المحقق عن جدارة ، وشهادة وضعت موضعها ليس تقديرها بما فيها من جائزة مادية بل بصدورها عن رجال هم من أساطين العلم .

احمد محمد شاكر

• معارك العرب في الشرق والغرب • بقلم بطرس البستاني

١٥ ½ × ٢١ ½ سم ، ١٣٢ ص دار المكشوف بيروت ١٩٤٤

في هذه الأيام التي تطالعنا فيها الصحف وشركات الأنباء والإذاعات بأخبار المعارك التي تدور رحاها ويحمى وطيسها في أكثر من مكان من الأرض ، يظهر كتاب عربيّ يعيد إلى الأذهان تلك المعارك التي دارت بين العرب وجيوش الدول المنظّمة كالفرس والروم ومن إليهم .

والحرب كريهة إلى النفوس ، وخاصة لمن خاضوا في ويلها وذاقوا من مرها . وما أحكم زهيراً حين قال :

وما الحرب إلاّ ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضرَ إذا ضريتموها فتضرم ..

ألا إن الحديث عن المعترك ، ووصف الموقعة ، وتتبع الحوادث والتعليل لها قد يلذ

القارئ المتلهي بسير الأبطال كما يلذّ العالم المعنيّ بأحداث الزمان .

وخير كتب المعارك والوقائع ما جمع بين اللذتين . فلا تطغى فيه البطولة والاغراق والمبالغة على الشرح والتحليل والتعليل ، كما لا يطغى فيه هذا على ذاك . فاذا ما طغى الجانب الأول كان الكتاب أقرب إلى الأساطير منه إلى العلم ، وإذا ما طغى الجانب الثاني كان الكتاب أدنى إلى الجفوة وأبعد من اللذة .

والأستاذ بطرس البستاني أخذ في كتابه هذا مأخذاً يرضي عشاق البطولة وأنصار العلم فقد حسبتني حينما هممت بمطالعة الكتاب أنني أقرأ قصصاً شائقاً ، فاذا بي أقرأ بجانب ذلك علماً غزيراً وتحقيقاً في الروايات التي يصادفها قارئ كتب التاريخ الاسلامي .

والمؤلف نفسه يصرح بذلك في مقدمته المتزنة التي قدّم بها لكتابه . فهو يعرض الروايات العربية وغير العربية ، ويوازن بينها ويستخرج منها — بعد التمحيص والتفكير — أقربها إلى الحق وأشبهها بالصدق ، مع بُعد فيه عن التعصب والتحيز ، وإيثار لاصابة الحقيقة مهما كان مصدرها .

والمؤلف مدرك تمام الادراك لما يتعرض له المؤرخ من التأثر بنوازع العرق (الجنس) ومنازع الوطن والدين . لا يُستثنى من ذلك عربي ولا عجمي . وقد يجرّ ذلك إلى الجنف في الحكم والميل في الرأي . لهذا كان البستاني يقظاً في تقليب وجوه آراء الفرنجة حتى يميز الحق من باطلها .

ويظهر ذلك في مسألة « جوليان » وانحيازه إلى موسى بن نصير . فقد عللها لويس برتران مؤلف «تاريخ أسبانية» تعليلاً لا يتفق مع رواية مؤرخي العرب . ولكن بطرس البستاني يبين وجه الحق في المسألة في هدوء وحسن تقدير .

إلاّ أن بطرس البستاني قد ينسى أحياناً ما أَخَذَ به نفسه في مقدمة كتابه . فهو يشك في خطبة طارق بن زياد في غير مدعاة إلى الشك ويحاول أن يعقد شبهاً بينها وبين خطبة « يوناتان » في بني إسرائيل حتى يقول إن الرواة من العرب صنعوها على غرارها .

ومما يحمله على الشك فيها أن طارقاً استعمل .. « عُرباناً » وهي ليست من الكلم الفصاح .. ! ويخلص من هذا إلى قوله « فالخطبة كما يتبين لنا مصنوعة » وهذا تعسف في الحكم يستغرب من جانب مؤلف نصب لنفسه موازين قبل أن يشرع في الكتابة . وهل يجعل استعمال كلمة «عربان» الخطبة مصنوعة ؟ ألم يرجح البستاني أن طارقاً بربري مستعرب ؟ فلماذا يستكثر عليه لحنة واحدة ؟

« والغنائم » و « المغانم » ثم « نفائس » البلاد المفتوحة ألفاظ يديرها المؤلف في كل وجه من وجوه سياقه، حتى إنها لتكاد تطغى على « الروح » و « الايمان » اللتين استعملهما المؤلف قليلاً واللتين هما أيضاً من خصائص المعارك العربية الأولى ، وذلك موضع مراجعة وتدارك إن شاء الله في الجزء الثاني من الكتاب .

محمد عبد الغني حسن

ع الماشي بقلم ابرهيم عبد القادر المازني

١٤ × ٢٠ سم ١٠٩ ص لجنة النشر للجامعيين القاهرة ١٩٤٤

الأستاذ إبرهيم عبد القادر المازني أول من أثبت قدرة اللغة الفصحى على احتضان التعبيرات الدارجة ، وعلى صياغتها بحيث لا تفقد روحها ، ولا تنقص جاذبيتها ، أو يتلاشى سحرها ، وتبرد حرارتها . ولعله في هذه الناحية يكاد يتفرد بهذه الميزة كما يتفرد أسلوبه بحلاوة التأثير وطلاوة التعبير .

ولقد كانت للأستاذ المازني مشاركة حسنة في فنّ القصة والأقصوصة أفاد منها الأدب العربيُّ الحديث ، فأبرز طائفةً من آثاره في هذا اللون من الأدب ، وكان آخر ما أبرزه مجموعته التي أسماها عَ « الماشي » .

ولا يعجبنَّ القارئ من هذا العنوان فقد درج الأستاذ المازني على التواضع في عناوين كتبه، بل على التواضع في أسلوبه والبساطة فيه — تلك البساطة التي هي أولى مراتب البلاغة ، البساطة التي تبدو هيّنةً في التقليد على حين أنها بعيدةٌ عن ذلك لأنها من روح المؤلف وصورة من شخصيته . فأنت تراه قد سمّى قبل ذلك كتابين بعنوانين متواضعين : « حصاد الهشيم » و « قبض الريح » . ولعلّ هذا التواضع سرٌّ من أسرار اقتدار المازني على اجتذاب قرائه اليه ، وعلى كثرة المعجبين بأدبه .

ولا ينكر أحدٌ ما لقوّة أسلوب المازني وقدرته على تصوير الدقائق من الأشياء والتعبير الصادق عن الخواطر والخلجات النفسية ، والتغلغل في بواطن النفس ، والكشف عن أسرارها . وإن اختلف فريقٌ في مدى اقتراب بعض أقاصيصه وقصصه من شروط هذا الفن ، أو مدى بُعدها فان تعبير المازني وتصويره لمن أدقّ أدوات القاصّ ، وقد

لا يجاريه في ذلك إلاَّ القليل من كتَّابنا . فلا يملك قارئه إلاَّ أن يسايره في طريقه ، وإن اختلف معه في الغاية التي انتهى اليها .

ولقد انطوت مجموعته الجديدة على أربع عشرة أقصوصة ، استطاع فيها أن يثبت قدرة اللغة الفصحى على التعبير عن النكتة المصرية بل النكتة الشامية دون أن يحسّ القارئ فيها جموداً ، بل قد لا يتردد في الاعتراف بأن حلاوة هذه النكتة زادت وأن بهجتها لمعت ، وأنه يمكن التقريب بين العامية والفصحى بل إدماجهما معاً بحيث تستطيع الأخيرة أن تضم الأولى إليها بدون تنافر أو سقوط .

على أن لي بعض ملاحظاتٍ أذكر منها (عَ الماشي) تلك الجملة التي ختم بها أقصوصته الأولى « من ذكريات لبنان » ، وكان جميلاً لو حذف الفقرة الأخيرة منها وترك القارئ يقدر من خلال الحديث ونهاية القصة حيرة الرجل مع المرأة . كذلك الأقصوصة التي أسماها « نزهة وسليمه باشا » فانها أقرب إلى أدب المقال منها إلى أدب القصة .

أما بقية أقاصيص الكتاب فهي من القوة بمكان . ولن أنسى تلك اللوعة التي أثارتها في نفسي أقصوصته التي ختم بها كتابه وهي « كيف حفرت بئراً لنفسي ؟ » فهذه الأقصوصة إلى جانب ما اشتمل عليه كتابه الجديد من أقاصيص ، ثروة يغنى بها الأدب الحديث .

حسن كامل الصيرفي

◆

• خصائص الروح الفرنسي • بقلم عثمان أمين

١٢ × ١٨ سم ٣١ ص دار النشر هوروس القاهرة ١٩٤٤

رأى الأستاذ الدكتور عثمان أمين المتخرج في السُّربون ومدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب عندنا أن يفحص عن الروح الفرنسي ويذيع فضله ، ويريد بالروح كلمة Esprit ، Spirit . فبيّن خصائصه وهي : «القصد والاتزان ، والحكم السليم ، والبساطة والوضوح ، والاتصال بالجمهور ، والنفور من تكلف إقامة المذاهب الفكرية ، وإيثار الملكات البشرية ، والملاحظة الباطنية (يعني ملاحظة الباطن) » . والحق أن وراء تحليل المؤلف لذلك لروح وتفصيله لخصائصه اطلاعاً ودراية وتفهماً . ولا نشك أن الروح الفرنسي حقيق بمثل هذه العناية ، فهو في المراتب العليا ، وله فضل عظيم في غذو الضمير وتنوير الفكر . ومما

يبدو لنا أن في المؤلف تحمساً للموضوع الذي عالجه وإيثاراً لا ترتاب في صدقه للعقلية الفرنسية . وكان أدنى إلى الاعتدال أن يترك في المقدمة الموازنة المبتسرة التي عقدها بين العقلية الفرنسية والعقليتين الانجليزية والألمانية . هذا وإننا نرى أن المؤلف قصر نظره على ميدان الفلسفة ، وهو ميدانه ، وإن قال في الخاتمة : « تلك بعض الصفات التي تبدَّت لنا ممثلة للتفكير الفرنسي في جملته » ، على حين أن الروح الفرنسي في جملته يتجلى في الأدب والتصوير والنحت والموسيقى وغير ذلك أيضاً . ولو عرض المؤلف الألوان الحديثة للأدب وما إليه لراجع بعض تلك الخصائص مثل « البساطة والوضوح » (نذكر أصحاب الشعر الرمزي على طريقة Rimbaud و Claudel و Mallarmé وقصص جيرودو وأضرابه والموسيقى التأثرية على طريقة Debussy) ومثل « الاتصال بالجمهور » (نذكر أصحاب أدب ما وراء الواقع وتصويره) . والرسالة حرية بالمطالعة والتأمل .

* (١)

• سيدة القصور • بقلم علي الجارم

½١١ × ½١٦ سم   ١٥٢ ص   مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ »   ١٩٤٤

• من النقد الفرنسي • بقلم محمد روحي فيصل

½١١ × ½١٥ سم   ١٥١ ص   مكتبة البابيروس   دمشق ١٩٤٤

قدر هذا الكتاب الصغير أنه ينقل الى قراء العربية بعض آراء الغرب الحديثة في الفن والأدب نقلاً حسناً في عبارة سليمة ، أنيقة أحيانا . ولا شك أنَّ بالمقبلين على صناعة الأدب عندنا ولاسيما الهاجمين على نقد الشعر من غير أبوابه حاجة الى مطالعة فصل بول ڤاليري في « الشعر » وفصل آبل بونار في « الحيـاة والشعر » كما أن بهم حاجة إلى تأمل ما سطره لانسون في « العاطفة والأدب» وفي « البيان » . لعلّ في مثل تلك الفصول ما يثقف من ضؤل محصوله ويُفطن من بطؤ فهمه ويرهف من غلظ حسّه . هذا ولا بدّ من ترجمة الفصول الرفيعة في النقد والاسترسال حتى يحسن التوجيه ، وتستقيم المقاييس . وللمترجم فضل في الاختيار والنقل .

*

(١) النجم يرمز الى اسم من أسماء المتعاونين على الانشاء في هذا الباب .

٣ – المجلات

مجلة الحقوق

أتمت مجلة الحقوق للبحوث القانونية والاقتصادية سنتها الأولى بظهور العدد الرابع (أكتوبر — ديسمبر سنة ١٩٤٣). وهذه المجلة تصدرها كلية الحقوق في جامعة فاروق الأول تحت إشراف مؤسسها ورئيس تحريرها العميد الدكتور زكي عبد المتعال.

ونظرة سريعة إلى المجلة تبين لنا عظم المجهود الذي بذل في سبيل إخراجها على صورتها الحاضرة. فلقد بلغ مجموع الصحف المكتوبة باللغة العربية نحو تسعمائة صفحة، ومجموع التي بلغة أجنبية نحو المائة.

أما محتويات المجلة فهي متنوعة يجد القارئ في مختلف أعدادها مجموعة حسنة من المقالات لبعض القائمين بالتدريس في الكلية، كما ساهم فيها بعض أساتذة خارجين عنها. ويضيق النطاق هنا عن التنويه بموضوعات هذه المباحث وبأسماء كاتبيها فحسبنا أن نثبت أنها موضوعات شائقة وهامة، تناولت الشريعة الاسلامية والقانون الجنائي والقانون الدولي العام والخاص والقوانين المالية والادارية. ولا جدال في أن الباحث — سواء كانت بغيته علمية أو عملية — واجد فيها سنداً يركن إليه ومرجعاً يهتدي به.

ولما كانت هذه المباحث، كما قدمنا، متناولة لأغلب فروع القانون والاقتصاد كان من المستحسن، في نظرنا، أن يخصص كل عدد من الأعداد الأربعة لفرع معين، أي لنوع خاص من المباحث بحيث يكون العدد الأول للدراسات الشرعية ولتاريخ التشريع، وأن يكون الثاني للقانون الخاص وما يتصل به، وهكذا ...

وبجانب المقالات التي أشرنا إليها، يجد القارئ طائفة من التعليقات على الأحكام الصادرة من الجهات القضائية على أنواعها. ولهذه الناحية خطرها لدى الباحثين، إذ فيها يلتقي العلم بالعمل ويظهر مدى التفاعل بينهما. وهكذا يساهم الفقه في تكوين قضاء متئد يساير ضرورات الحياة المتحولة. والواقع أن هذا الباب من مظاهر التماسك بين اجتهاد الفقه ونشاط القضاء، ولذلك نود لو يفسح له المجال على وجه أوفى في المستقبل.

ولم يغفل المشرفون على تحرير المجلة تخصيص جانب للعمل التشريعي، فنشروا بعض

وثائق وتقارير تمس موضوعات ذات شأن في ميدان القانون . فالقارئ يطلع من ص ٢٩١ إلى ص ٢٩٤ على مذكرة وزارة العدل في مهمة لجنة التوحيد لجهات شهر التصرفات العقارية والسجل العقاري . وعمل هذه اللجنة غير يسير ، يعرف ذلك كل من اشتغل بدراسة القانون المدني علماً وعملاً . ومما هو جدير بالذكر أنه في المجلة باب للتعليق على المؤلفات القانونية والاقتصادية الحديثة . وفي هذا خدمة للاختصاصيين إذ تعرّف لهم المجلة ما يظهر من التآليف وتبيّن لهم قيمتها العلمية أو العملية . وفي مأمولنا أن يتسع الباب لتلخيص بعض المقالات والمباحث الهامة التي تنشرها المجلات الأخرى استكمالاً للفائدة .

والخلاصة أن مجلة الحقوق قد برزت في وقت وجيز إلى الصفوف الأول في ميدان النشاط العلمي . وعندي أنها ستحقق الأغراض التي ينشدها مؤسسها ، ولا يسعني إلاَّ أن أتمنى لها اطراد التقدم والفلاح .

حامد زكي

الاستاذ بكلية الحقوق (جامعة فؤاد الاول)
والعميد السابق لكلية الحقوق ببغداد

المشرق

احتجبت مجلة المشرق نحو سنتين فافتقد قراء العربية جانباً من زادهم . وقد ورد علينا العدد المنتظر وهو الأربعون (١٩٤٢ — ١٩٤٣) ووجدناه يضم ثلاثة مباحث تهم المتعقب للأدب العربي الحديث : المبحث الأول تاريخي بقلم إبراهيم عواد وعنوانه « لبنان في عهد المماليك » وفيه عرض لغزو مماليك مصر ولمحنة الجبل وأهله البواسل من دروز ونصارى . وفي المبحث الثاني : « الأدب وتطوره في جبل عامل » بسط الشيخ علي الزين خصائص أدب رجال الشيعة العامليين قديماً ونبّه إلى تحوّل النثر والشعر في العصر الحديث . ويجري هذا المجرى المبحث الثالث وعنوانه : « مظاهر الأدب في جبل الدروز » لسعيد أبي الحسن من السويداء ، وفيه طرائف كثيرة . ويلي هذه المباحث فهارس المشرق العامة وهي تتناول المجلدات الأربعين . وكنا نترقبها من زمن لأن الباحث لا يسعه إلاَّ أن يرجع الى المشرق الحين بعد الحين ، فهذه المسارد تُدني التفتيش وتيسر التنقيب .

وبعد فما ترامى إلينا أن المشرق خارج بعد اليوم في صورة جديدة بهمة الأب لويس خليل الماروني الذي أبرز هـذا العدد ، ونحن لا ننفك نرتقب الفوائد وقد أومأت اليها المقدمات .

٤ — الاستدراك

* **القاموس العصري** * عربي — انكليزي بقلم **إلياس أنطون إلياس**

١٦ × ٢٤ سم ٧٤١ ص المطبعة العصرية القاهرة ١٩٤٣

كنتُ قد ناهزتُ الخامسة عشرة من سنّي ، أو جاوزتها بقليل — إلّمْ تخني ذاكرتي — حينما قُلِّدت تدريس آداب اللغة العربية في المدرسة التي نشأتُ فيها في بغداد مسقط رأسي أي في مدرسة القديس يوسف للآباء الكرمليّين . وكنت قد لاحظتُ عهدئذٍ أن المعاجم الضادية اللسان تختلف كل الاختلاف عن الدواوين الإفرنجية اللُغَى ، لأننا نرى هذه تعرّف الحيوان والنباتَ والجماد تعريفاً يرشدك إلى عين الشيء أو يكاد ، على حين نرى معاجمنا لا تهديك إلى مطلوبك إلاّ من بعيد ، لأنها كثيراً ما تعرّفك بالشيء بقولها : حيوان ، طائر ، سمكة ، حشرة ، هامة ، أو ما يداني هذا التعريف العام ، المبهم ، الموهم ، الذي لا يسمن ولا يغني من جوع [١] .

فقلنا في نفسنا : إن سهل الله لنا السفر إلى ديار الأفرنج لندرسنَّ علوم التاريخ الطبيعي [٢] درساً متقناً يهدينا الى سواء السبيل ، ويرشدنا إلى كل خلق إرشاداً ، يجعلنا نعرف الاشياء بأعيانها ، من دون تردُّد ، ولا تريُّث ، ولا تريُّب .

ولما تغربنا في سنة ١٨٨٦ م الى سنة ١٨٩٤ ، ودخلنا مدارس بلجكة ، وفرنسة ، كان

---

(١) راجع مقالة لنا في المقتطف المجلد ١٠٤ : ٢٣٨

(٢) التاريخ الطبيعي ، Natural History ، تسمية جديدة لم تكن معروفة في سابق العهد ، وتعني العلوم التي تصف الاحياءَ وصفاً صادقاً ، وتبوبها تبويباً جامعاً مانعاً ، فتهديك الى معرفة الانسان ، والحيوان ، (من ذوات الاربع وغيرها) والطير ، والسمك ، والحشرة ، والهامة ، والجماد والسائل . — ولم تكن هذه الكلمة معروفة عند من تقدمنا في هذه الدنيا ، وانما هي منقولة نقلا عن ابناء الغرب ، إذ يوافق المبنى المعنى ، ولا يعترض عليه إلا من أعماه الهوى أو الغرض ، أي اولئك الذين حادت طبائعهم عن السراط المستقيم ، واشتهروا بمخالفتهم لارباب الذوق السليم . نعم ان بعض الناس من الاقدمين في عصر العباسيين سموه (علم المواليد) لكن «التاريخ الطبيعي» أصوب وأدل على المعنى المنشود .

أساتذتنا يأخذوننا إلى المتاحف (١) ، والمعارض وأحيار (٢) الحيوان ، والطير ، والسمك والحشرات ، والنبات ، لنرى رأي العين ما يريدون أن يُرسخوه في أذهاننا من الحقائق والدقائق إرساخاً مكيناً ، فنجحوا في عملهم هذا . وبهذه الطريقة ، عرفنا أشياءَ جمة ، كان يستحيل علينا معرفتها معرفة تامة ، لولا هذه الوسيلة العلمية ، الناجحة ، البديعة.

ثم دخلنا في دير الرهبان الكرمليين في بلجكة ، وأتممنا ما كنا قد بدأنا به ، ولما عدنا الى بغداد ، دار السلام ، سنة ١٨٩٤ ، أخذنا بإتمام ما كنا أنشأْنا فيه قبل الغربة ، وهو تصنيف معجم واسع أسميناهُ «المساعد» ، يوضح الألفاظ المبهمة المدلول إيضاحاً يشفي ما في النفس من العلة ، وما في الصدى من الغُلَّة .

وكنا في هذه الأثناء نبحث عن المعاجم المختلفة الألسنة من خطية ومطبوعة ، فنقتنيها . فاجتمع عندنا منها قدر غير يسير ، أي نحو من ثلثمائة ، ورأينا فيها من القُصور ، والأغلاط ، والأوهام المتنوّعة ما يُثَبّط الهمم ، ويغلّ الأيدي ، ويقيد الأرجُل ، لكن مع كل ذلك ثابرنا حاقّ المثابرة ، وأبينا أن نرجع القهقرى ، فبلغنا — والحمد لله — مبلغاً ظهر لنا فيه أننا لم نضع أوقاتنا ، وكان كثيرون — من ربوع شتّى ، وأصقاع نائية — يستشيروننا في بعض الألفاظ ، فيرجعون عنا بما يرضيهم حافلي الوفاض ، أكثر ممّا كانت ترضيهم المعاجم الأخرى ، الغالية الثمن ، المختلفة المباحث والموضوعات ، التي كانت في أيديهم ، وحتى التي كانت بين أيديهم

وفي الآخر ، وقع بيدنا ، المعجم العربي الإنكليزي الموسوم بالقاموس (٣) العصريّ : تأليف الياس أنطون الياس ، فألفيناهُ الضالة المنشودة ، بل قلنا : **كل الصيد في جوف الفرا** لأننا قدرناه أفضل من جميع ما أُلّف في هذا الموضوع ، إلاَّ أننا وقعنا فيه على أوهام

(١) المتاحف جمع متحف كمصحف ، وغلط من فتح أوله . وأحسن منه المتحفة وهي الدار التي تكثر فيها التحف .

(٢) الاحيار جمع حير ، زنة خير ، هكذا جاءت هذه اللفظة في تواريخ عهد العباسيين ، ويراد بالحير: حديقة الحيوانات وبالانكليزية Zoological Garden.

(٣) اعترض كثيرون على المؤلف لكونه عنون كتابه بالقاموس . قالوا : وهذه الكلمة لم ترد عند العرب بمعنى المعجم أو كتاب متن اللغة . فنقول لهم : اعتراضكم بارد لأن العرب أسمت (أوقليدس) كل كتاب في الهندسة . وأوقليدس اسم الحكيم الذي وضع كتاباً في الهندسة . ومن هذا القبيل (المجسطي) (وآجرومية ، والعامة تقول أجرومية) فتأمل ثم تذكر اسم معجم الفيروزابادي المسمى «القاموس المحيط» ..

فاتت المؤلف أو نَدَّت من أنامل المنضِّد ، فأحببنا أن ننبه صاحبهُ على وقوعها ، ثم استأذنّاه في أن نصلحها بيراعتنا الضعيفة المرتجفة ، حتى لا نتعبهُ في هذا العمل الشاق ، ولما كان المصنف مطبوعاً على أصدق التواضع رضي بأن نتولى هذه الخدمة الصغرى بطيبة خاطر كما هو شأن العلماء العاملين ، فقمنا بها بأحسن ما في طاقتنا .

• • •

وأول شيء جلب نظرنا اليهِ أنهُ أعرب جميع أواخر الأسماء أو يكاد ، بعلامة الرفع . والمشهور أن أطراف الكلم تجرّد من كل حركة ، إلاَّ في المبنيّات ، فتبقى على ما بنيت عليه ، كما في أواخر الأفعال الماضية . مثل علمَ وفهمَ وأكرم . وأواخر الضمائر كما في هُوَ وهمْ وهنَّ . وأواخر أدوات الحروف ، كما في على ولنْ وحيثُ إلى نظائرها .

ولما سألنا المؤلف عن سبب ضبط أطراف الأسماء بعلامة الرفع ، منوناً كان أو غير منون ، قال : عمدنا إلى ذلك ، تمييزاً للأسماء من الأفعال . فلو قلنا مثلاً وخم ، وزانَ كتِف ، بمعنى وخيم ، بلا رفع ، اختلط على القارئ بفعل وَخُمَ ، زنة علِم . فمنعاً لهذا الوهم ، اضطررنا إلى هذا الاستعمال ، فهو اصطلاح خاص بنا لا قاعدة عامة للجميع .

فقلنا لهُ : ان هناك أسامي لا تشبه الأفعال في صيغتها ، أفما كان الأحرى أن تهمل علامة الإعراب ؟ قال : من اتخذ قاعدة في البعض ، جرى عليها في الكل .

ومن الأمارات الدالة على قيمة كل معجم ، مراجعة اصطلاحات علم المواليد ، أي الأوضاع العائدة إلى علم الحيوان والنبات والجماد . وقد راجعنا أسفاراً عدة ، فألفيناها لا تُعنى عناية صادقة بوضع المقابل لها في لُغَى الافرنج . وربما شرحوا الحرف الافرنجي بعبارة طويلة عريضة ، وأهملوا اللفظ العربي الصحيح الفصيح ، ففات المقصود من استشارة المعجم ومنبب وضعهِ .

أما الأستاذ الياس فقد أفرغ كل وسعه في وجود اللفظ الافرنجي المقابل للعربي أو بالعكس . ومع ذلك فقد وجدناهُ يخطئُ في بعض تلك الأوضاع ، أو في رسمها ، لأنهُ اعتمد على بعض نقلة العلوم والفنون والصنائع من أهل هذا العصر ، فانهُ رسم مثلاً (الكهربا) بهمزة في الآخر ، وينسب إليهِ بقوله (الكهربائي) ، مع أن الأقدمين منّا صرَّحوا بأنها مقصورة ، وليس وراء الألف القائمة حرف أو همزة ، كما ليس وراء عبادان قرية (راجع تاج العروس في مستدرك كهرب) .

ومما تبع فيهِ بعض كتبة هذا العصر ، أنهُ قال في (ص ٢٨٦ من الطبعة الثانية) : « سيارة : كوكب يسير حول الشمس » مع أن الكوكب المذكور يسمى (سياراً) ، بلا هاء في الآخر ، بخلاف (السيارة) المتخذة الآن للركوب ، فانها تختم بهاء .

ومن اسماء الحيوان التي لم يصب فيها المحزّ ، قوله في ص ٢٠٩ : «رجل الغاب : حيوان بين القرد والانسان » وتبع في هذه التسمية كل من كتب في الأوران أوتان . ولا جرم ان قولنا : رجل الغاب لا يصح إلاّ على الذكر من هذا القرد ، دون الأنثى . ولهذا وجب علينا أن نقول : إنسان الغاب ، ليقع على الذكر والأنثى معاً . فضلاً عن أن معنى (أوران أوتان) إنسان الغاب ، لا رجل الغاب .

وفي باب الواو : ذكر الوز العراقي (في ص ٧٠٨) وهذه كلمة شائعة على ألسنة الأدباء شيوعها على أسنة يراع العلماء ، مع سوء وضع هذه الكلمة في غير موضعها ، لأنها تدل على أوز يسبح دائماً في الماء ويلتذّ بهِ . وليس لهذا الطائر وجود في بلادنا لينسب إليها ، إنما سبب هذا الوهم الشنيع أن مطبعة من مطابع بيروت أصدرت كتيباً لتعليم الصبيان أوائل القراءة ، ورسمت فيهِ صورة هذا الطائر ، وكتبت تحته (وز عراقي) وذلك قبل نحو ٦٥ سنة . ولما كانت سنة ١٨٩٥ أخذت نسخة من هذا الكتيّب إلى أشهر علماء العربية في بغداد يومئذٍ ، وهو السيد الشيخ نعمان الآلوسي مدرس العربية في جامع مرجان ، من أشهر جوامع بغداد . وقلت لهُ . ما تسمي هذا الطائر المرسوم شكلهُ هنا ؟ — ووضعت يدي اليمنى على ما كتب تحتهُ — فقال : هذا الأوز الغِيْراق — (ولفظ الكلمة بكسر الغين المعجمة ، تليها ياء مثناة تحتية ساكنة فراء مفتوحة ، فألف فقاف) .

فقلت لهُ : يا سيدي ، المكتوب هنا (وز عراقي) . فقال : هذا غلط طبع ، أو غلط يدل على جهل صاحبه ، إن كان المؤلف كتب الكلمة عمداً بهذه الصورة . فقلت لهُ : يا سيدي ، لكلمة المؤلف (وز عراقي) معنى ، وأما (وز غيراق) فلا معنى لهُ . . . — فقال : ليس في بلادنا وزّ بهذا الخلق حتى ينسب اليهِ . وثمَّ سبب آخر لتسميته بالغيراق ، لأنك تراه دائماً سابحاً في الماء على ما وصفه الكتّاب الأقدمون مثل الدميري ، والكتّاب المعاصرون كأحمد فارس . ولما كان بعضهم يجهل معنى (الوز الغيراق) لأنه لم يألف سماع الكلمة هذه ، وقد ألف سماع (العراق) ، ظنَّ أن اللفظ الصحيح هو هذا ، دون ذاك ، وهكذا سرى الوهم من واحد إلى آخر ، وليس هناك من ينبه على هذا الوهم ، ولا من يضرب على ايدي النقلة الجهلة والنساخ المساخ لكلام الأقدمين .

والآن أزيد على ما تقدم : وأما الذين عربوا كتب الأقدمين من اليونانية، فانهم ذكروه باسم (القُقْنُس) بقافين والأولى منهما مضمومة والثانيـة ساكنة ، فنون مضمومة ، وفي الآخر سين مهملة ، وقد يعجمها بعضهم فيقول : الققنش وباليونانية Kuknos . ولغويُّونا حذفوا علامة الإعراب اليونانية . وقالوا (قوق) و (قاق) . وكنت قد وضعت مقالة في مجلة المجمع العلمي العربي الدمشقية في سنيها الأولى . وهي ليست الآن بين يديّ لأذكر السنة والصفحة . وبينتُ بعض هذه الأسماء وشرحتها .

ومن الأغلاط التي ركب متنها الأستاذ ، سائراً بها وراء بعض الـكُتَّاب المعاصرين ، قولهُ في ص ٦٩٤ : « آبش : سفرجي » فوجدنا فيها وهمين : الأول وضعهُ الـكلمة في مادة (و ب ش) مع أنها ظاهرة الاشتقاق من (ا ب ش) . والثاني أنهُ فسرها بـكلمة مصرية عامية مشهورة على الألسن وهي (سفرجي) . وذكرها جميع اللغويين في مادة (ا ب ش) مع أن الـكلمة يونانية من Abax ومعناها : « ما يُـزين فناء الرجل وباب دارهِ ومحل طعامهِ وشرابهِ ، وهو زِلّـيج مربع من رخام أو كَيْـصَـمِـيّ أو زجاج ملوّن ، تُـزيَّـن بهِ بعض المواطن التي يتردَّد إليها صاحب المنزل ليَـأْنَـسَ بالنظر اليها . على أن لغويينا ، ذكروها بقولهم : الآبش الذي : يزيّـن فناء الرجل وباب دارهِ بطعامهِ وشرابهِ » — وصواب الرواية : « ما يزين بهِ فناء الرجل وباب دارهِ ومكان طعامهِ وشرابهِ » والذي ساقهم إلى الوهم هو : أن الآبش ، وردت بصيغة الفاعل ، فأوّلوها بما أوّلوها ، وقد قلنا كلمتنا في هذا البحث في كتابنا (أغلاط اللغويين الأقدمين) ، وهو ليس بيدنا الآن لنحيل النظر فيه .

ومن أوهام أهل هذا العصر (ص ٢٦١) أنهم يظنون أن السُّعَادي العاميَّـة ، وزان الغُـرَابي ، وهو السُّعْـد عند الفصحاء أي بضم السين المهملة ، وإهمال الدال بعـد العين الساكنة هو المسمى بالانـكليزية Sedge وليس الأمر كذلك، بل الذي يقابل هذه الانكليزية هي سعادى ، بضم السين المهملة وعين مهملة مفتوحة يليها الف فدال مهملة مفتوحة وفي الآخر ياء مهملة . وأما السُّعَادي العامية فهي عنـد الفصحاء ، هو النبت المسمى بالانـكليزية English galangale, Cypress, galingale لـكن المؤلف تبع خطأ المتحذلقين ، ولم يتبع علماء الفن الذين يخالفون العوام كل المخالفة .

• • •

هذا بعض ما لاحظناه في هذا المعجم ، فلم يبق علينا إلاَّ أن نبيِّن مزايا هذا السِّفْـر ، والسبب الذي حملنا على أن نعتمد عليهِ دون غيرهِ ، فنقول :

من خصائص هذا الديوان اللغوي : أنه معجم حيّ لا معجم ميت . إنك تلفي جميع المعاجم التي تطبع أو تؤلف في هذه السنين الأخيرة ، أي منذ نحو مائة سنة ، تدوّن الكلم القديمة منذ نأناة الاسلام إلى هذا العهد ، ولا تقيد حرفاً واحداً من فصيح كلام المعاصرين . وهذه الصفة تجعل الكتاب من كتب الأموات لا من كتب الأحياء ، تقّر فيها مثلاً عن سيارة ، وطيارة ، وغواصة ، ومدرعة ، ودبابة (بالمعنى الحديث) ودرّاجة ، وسحّابة ، وجميع أوضاع المحاكم ، ومصطلحات القضاء ، والقانون ، وألفاظ النصرانية فانك لا تجد لها ذكراً ، ولا إشارة ولو من طرف خفي إلاَّ في النادر ، لكنك تجدها في « القاموس العصري » . فلقد تفرَّده بأن وضع بجانب الكلمة العربية التي ينشد نقلها إلى الانكليزية ما يفيد معناها بالعربية أيضاً ، لكن بما يبينها لك تبياناً آخر ، يفهمك الأولى ، بلا تعب ولا نصب . وأنه يسرد لك جميع الألفاظ التي وضعها المعاصرون ، من أرباب الصحف والمجلات ، والمؤلفات المصرية ، في العلوم ، والآداب ، والفنون ، والصنائع المستحدثة ولا تكاد تجد لها أثراً في سائر الدواوين . وأنه تجد فيه كيف تقع على الكلمة التي لا تسقط عليها في مظنتها ، فهو يرشدك إلى محل الاطلاع عليها ، وهي ميزة تفرّد بها هذا السفر الجليل ، فانك تجد مثلاً في مادة (اح . ويليهما حرف ثالث) في ص ٨ محل وجود الكلم التي لا تراها في ما تركب من هذه الأحرف الثلاثة وأنه جمع إلى مراجعة الجرائد والمجلات والدواوين الخاصة والعامة قديمة وحديثة لأبناء العرب والغرب طبعاً متقناً ونظيفاً ، وحروفاً أفرنجية وعربية ضخمة ودقيقة .

فلتلك الخصائص أقبل العراقيون على اقتناء هذا القاموس ولم يحبوا أن يضعوا بجانبه معجماً آخر ضخماً كان أو غير ضخم ، لأنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة ، وجميع أمانيهم ، من ألفاظ عربية ، ومصطلحات إنكليزية . وقد رأيناه في أيدي كثيرين حتى عند سكان سواحل البحار المحيطة بجزيرة العرب ، كالكويت ، والبحرين ، ونجد ، والمحميات التسع أوَ النواحي التسع . فلا شك أن هذا الأستاذ يستحق من أهل اللغة الانكليزية جزاءً يعادل الخدمة التي خدم بها لغتهم وحببها إلى الناطقين بالضاد .

الأب انستاس ماري الكرملي

من أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

باب الأخبار العلمية

من معجزات العلوم والفنون

كيف ينتفع الأميركيون بالمخلفات الزراعية

إنتاج الفحم الحجري والبنزين من الحقول لا من المناجم في ساعتين!

وقود معدني من المزارع

في أميركة عالم كيميائي مشهور، هو الدكتور إرنست برل Berl أستاذ المباحث العلمية في معهد كرنيجي الصناعي الفني في مدينة بتسبرج بالولايات المتحدة. وقد أعلن برل منذ أواخر سنة ١٩٤٠ أنه سوف يأتي يوم نستطيع فيه أن نستخرج الفحم الحجري والبنزين من المزارع، لا من المناجم والآبار. ثم صرّح بأنه قد أتيح له في معهد مباحثه استخراج الزيت المعدني الخام وضروب الفحم الحجري القاريّ والأسفلت وفحم الكوك، وذلك من مواد شتى، أخصها الذرة والخشب والأعشاب البحرية والأوراق النباتية والعسل الأسود، لأن هذه المواد جميعها غاصة بالمركبات التي تسمى بالمواد الهيدروكربونية، التي يتألف منها النشا والسكر.

ويعترف هذا العالم بأن أصناف الفحم الحجري والأسفلت والزيوت المعدنية التي استخرجها تحتوي على خصائص تشبهها في المنتجات الطبيعية المعروفة كل الشبه وبأنه لم يكن في وسعه في بدء أمره إنتاج الفحم الحجري الصلد ولكنه قال: إنه لن يألو جهداً حتى يفوز بما يبغي في المستقبل القريب.

وسيجني الأميركيون من هذه الطريقة منافع جمة إذ تنشئ لهم مصدراً للوقود يتسنى تجديده على الدوام. فقد كان المعروف أن الموارد الطبيعية للفحم الحجري والزيت المعدني قابلة للنفاد. وإذا نفدت فلن يمكن تعويضها إلاّ بعد انقضاء حقب طويلة لا يستطاع تحديدها.

أسلوب سريع للإنتاج

وأعرب الدكتور برل أن في مقدوره صنع الفحم الحجري أو الزيت المعدني في خلال ساعة أو ساعتين. وذلك بطريقة هينة. ومدارها تسخين المواد الهيدروكربونية تحت الضغط بعد خلطها بحجر الجير.

بيد أنه لا يتاح الآن أن تنافس أسعار هذه المنتجات أثمان الزيت المعدني الخام الذي يستخرج من باطن الارض ولكنها أرخص من البنزين الذي يستخرج من الفحم الحجري لأن هذه الطريقة الاخيرة تحتاج إلى أجهزة غالية ذات ضغط مرتفع .

المخلفات الزراعية موارد لا تحد

ثم جاء في أحدث ماورد علينا من أنباء أميركا الخاصة بهذا العالم واختراعه ، ما يأتي نقلاً عن إحدى المجلات العلمية : —

لو تمكنت ذات يوم من دخول المعمل الكيميائي الذي يديره الدكتور إرنست برل في معهد كرنيجي الصناعي الفني ، حاملاً بوشلاً من الحنطة (البوشل مكيال للحبوب يساوي ثمانية جالونات) أو سلةً من الأوراق النباتية العتيقة ، لاستطعت بعد ساعة مزايلته وممك قدرٌ من الفحم الحجري القاري أو زيت الوقود ، هو نتيجة تحويل ما قدمت إليه من الحاصلات الزراعية ، إذ نجح ذلك العالم الشيخ الوقور الذي يعمل في مدينة بتسبرج الأميركية الصناعية ذات الجو الملبد بدخان المصانع ، منافساً الخليقة في منتجاتها الطبيعية ، فينتج في ستين دقيقة مواد تشبه ما تقضي الطبيعة في إنتاجه ملايين السنوات .

تزيل بعض بواعث الكفاح

فتراه هنالك ينتفع بالحاصلات الزائدة على الحاجة وبالمواد الزراعية المهملة في الحقول أو أية مادة تحتوي على كربوهيدرات . فقد اخترع طريقة لتحويل هاتيك الحاصلات الى موارد وقود لا تُحدّ . وتسنَّى له بوسيلة واحدة التخلص إلى الأبد من التهديد الخاص بعجز موارد الزيت الطبيعي في المستقبل البعيد . فأنشأ سوقاً واسعة الأرجاء لجميع ما قد يستغني عنه الفلاحون من مخلفات حقولهم . كما نسخ أيضاً مذهب « البلاد الضئيلة الزيت » لأن أية دولة في وسعها زرع البسلة الصينية أو فول الصوية والبرسيم الحجازي ، ستغدو واثقة من حصولها على مورد ثابت من النفط السامي الدرجة . وربَّ سائل يسأل : هل يؤثر العالم الالتجاء إلى مكتشفات الدكتور برل التجاءً تاماً في الأحوال الحاضرة ، أو هو لا يكترث لها ؟

الانسان يستنفد والخليقة تغدق

وجوابنا عن ذلك : أنهُ يخيل الينا أنهُ في خلال السنوات العشر القادمة ، لامندوحة عن الانتفاع إما بطريقة هذا العالم ، وإما بغيرها من وسائل التركيب الكيميائي للوقود لأن الموارد العالمية للزيت المعدني تستنفد استنفاداً ذريعاً . وفي هذا الصدد يقول الدكتور برل : « ولكن هذا الاستهلاك السريع للزيت المعدني الطبيعي لا يسوغ أن يكون باعثاً فعليًّا على اضطرابنا ، ما دامت الخليقة تغدق علينا كل سنة حاصلات زراعية ،

وما بقيت الحاصلات تصنع لنا بطريقة التركيب الكيميائي الضوئي أي بتأثير الشمس في الخلايا النباتية، جميع المواد الهيدروكربونية اللازمة للانتاج الزيت ، ممثلة في السكر والسليلوز . وعندي أن الحاصلات الزراعية التي تستغل من العالم في ثلاث سنوات يمكن أن تمدنا بمقادير من الزيت المعدني تعدل جميع الزيوت المعدنية المدخرة الآن في باطن الأرض »

ومن المعتقدات الشائعة أن الزيت المعدني والفحم الحجري ، قد تولدا حينما كانت الأرض في حال التكوين . وأن هاتيك الحاصلات كانت مثل فصل غامض في تاريخ علم طبقات الارض . ومما لاشك فيه أن هذه الطريقة ما فتئت جارية على ذلك النمط ، إذ الفحم الحجري والزيت المعدني ما زالا يتولدان في باطن الأرض . ولكن من سوء حظنا أننا لا بدّ أن نقضي ملايين السنين ريثما نظفر بالحاصلات الأخيرة من ذينك المعدنين .

المواد الهيدروكربونية هي الاساس

فأضحى هذا العالم الشيخ يستبدل الدهور الطويلة التي تقضيها الطبيعة في خلق تينك المادتين المعدنيتين بالضغط والحرارة وغيرها ، فيتمكن من تعجيل الانتاج مئات البلايين من المرات . فيقوم أولاً بتحويل المواد الهيدروكربونية النباتية الى منتجات تشبه القار أو القير الطبيعي ، ثم يواصل العمل إما بطريقة التقطير المتلف (ومداره تسخين المواد المقصودة دون ملامستها للهواء تسخيناً يفضي الى انحلال أغلب الأجسام العضوية انحلالاً مقترناً إذ تتولد طائفة من أجسام جديدة وذلك باعادة تنسيق الذرات بتأثير الحرارة) وإما باخراج الاوكسجين وإما بمزجه بالهدروجين فيحصل على مادة تشبه الأسفلت والزيت الخام الطبيعي . ومن هذه يسهل استخراج المواد الهيدروكربونية الدنيئة الرتبة مثل البنزين والكيروسين . والبنزين الذي يستخرج بهذه الوسيلة يفوق النوع الذي يحوي كثيراً من المواد المانعة لدويّ السيارات .

مقابلة النفقات

والزيت الذي يستخرجه الدكتور برل بطريقته المتقدم وصفها أثمن من الزيت الطبيعي الخام . ولكن ينتظر أن تنعكس الآية في المستقبل وذلك حينما يفرغ الزيت الطبيعي الموجود تحت سطح الأرض ، فترتفع أسعاره ارتفاعاً فادحاً .

وحين يستطيع برل إنتاج مقادير كبيرة من زيته الصناعي ، تنخفض أثمانه انخفاضاً نسبيًّا . وجدير بنا أن نذكر أن البنزين الصناعي يتيسر إنتاجه بنصف النفقات التي تنفقها ألمانية الآن في تحويل الفحم الحجري الى غاز يحل محله .

الاصل بحث مذهب علمي

ويرجع اختراع طريقة برل هذه الخاصة بتحويل المواد النباتية الى الزمن الذي عقب الحرب العالمية الأولى حينما كان هذا المخترع أستاذاً للكيمياء الصناعية والكيمياء الكهربية في الجامعة الصناعية الفنية في دارمستاد في ألمانية حيث وقع حينئذٍ في حيص بيص لأنهُ كان مفروضاً عليه باعتباره أستاذاً في ذينك العلمين أن يدرّس مذهباً علميًّا لم يكن هو يعتقد صحتهُ . ونعني به (أن الزيت المعدني بأجمعه قد تولد من السمك) وكان التعليل المعروف في ذلك العهد أنهُ في غضون دهر من دهور تاريخ نشوء العالم ، وقعت كوارث عالمية معروفة فأهلكت رِبوات من السمك (الربوة هنا بكسر الراء هي الجماعة العظيمة نحو عشرة آلاف ، وجمعها ربىً بكسر الراء وتنوين الألف المقصورة) ثم تحولت هاتيك الأسماك بعد ردح من الزمن إلى زيوت معدنية . وكان الدكتور برل لا يصدق ذلك التعليل بل يحسبهُ هُراء ، فكان يحتج على هذا الرأي بدليل وجود آبار للزيت المعدني في بلاد المكسيك وفي ولاية تكساس (إحدى الولايات المؤلفة لجمهورية أميركة الكبرى) حيث يوجد الزيت المعدني في اثنتين وعشرين طبقة مختلفة من طبقات الأراضي . وهذا يعني أن الكارثة التي أشار إليها العلماء القدماء كانت عامة فتكررت بنفسها ٢٢ مرة . وهذا أمر غير معقول . فلم يقر الدكتور برل قائليهِ عليه بل خالفهم فيه كل المخالفة ونقض رأيهم في منشأ الفحم الحجري القائل بأنهُ مواد من هيا كل أشجار عتيقة . فنفى ذلك الاعتقاد القديم في سنة ١٩٢٦ إذ قام بتجربة علمية مشهورة وذلك في معهد مباحثه . فهدم بها ذينك المذهبين هدماً حاسماً . وتفصيل الخبر أنهُ دخل معمله الكيميائي يقلّ علبة من الورق المقوّى ملآى بغلاف الذرة وغيره من الأعشاب ، فلم يلبث حتى خرج من المعمل ظافراً بدلو مُفعمة بالفحم الحجري القاريّ ، فجعل يضيف مقادير قليلة من القلي إلى ذلك الفحم النيء حتى حوّلهُ إلى فحم كوك . ثم عاد فغيّر تلك المواد القلوية فاستطاع إنتاج القار والأسفلت والزيت الخام والبنزين والكيروسين أيضاً .

لا حاجة إلى الأنابيب

ويثق بعض الخبراء بأن طريقة برل هذه التي تقضي بتحويل قمامات الحقول في مواضعها إلى وقود . ستقضي على ضرورة مدّ الأنابيب من قطر إلى آخر أو من قارة إلى جارتها ، وتجعل كل فلاّح وحطّاب (قاطع لقرم الأشجار) منتجاً للزيت المعدني . وعلى هذا الغرار يمكن تحويل الحاصلات الزراعية التي لا يجني منها أربابها أرباحاً تذكر ، إلى موارد كسب ثابتة تدر عليهم النضار . إذ يسهل تحويل الشجيرات النفاشية « التي

وقف نموها » في الغابات ، وسيقان الذرة وغلاف كيزانها وما شاكلها من مهملات الحقول بأسرها ، إلى المواد الهيدروكربونية التي نحن في أمس حاجة اليها . وربما تؤول طريقة برل إلى إمكان تحويل القمامات التي تجمع من المدن إلى مواد نافعة لأنها حافلة بمخاليط تحول فيها المواد الهيدروكربونية التي نخسرها حينما نعمد إلى إحراق القمامات بحسبانها مواد مضرة بالصحة العامة.(*)

عوض جندي

فول الصوية

أحدث ما عرف عنهُ

بين النباتات الغريبــة المهمة في الغذاء والتي زرعت في مصر بين سنتي ١٨٧٠ — ١٨٨٠ فول الصوية (١) وموطنه الصــين واليابان حيث زرع من قديم الزمن حاصلاً غذائيًّا للانسان والماشية كما يزرع في شرق البنغال والهند الصينية وغيرها . وهو عشب سنوي قائم يتردد ارتفاعه بين قدمين وثلاث أقدام بحسب صنفه وتربة الأرض المزروع فيها وقد يبلغ من الارتفاع أربع أقدام إلى ستّ أو يزيد .

وفلاحته سهلة . يجود في الأقاليم الموالية للحارّة التي يهطل فيها المطر باعتدال وتكون تربتها خصبة مفككة هيّنة الحرث . فتبذر البزور بذراً ضيّقاً في صفوف متباعد بعضها عن بعض قدر قدم وبين البزرة والأخرى قدمان أو تبذر بذراً أوسع بحسب الصنف المراد زرعه . ومقدار البذار « التقاوي » نحو ٣٠ رطلاً للفدان . فلا تلبث البزور أن تنبت بسرعة ويكون الحاصل صالحاً للجني بعد ثلاثة أشهر من وقت الزرع . وهو يختلف بحسب الصنف وتربة الأرض والأقليم وغير ذلك لكنه يبلغ في المتوسط ١٠٠٠ رطل من الفدان . وقد تزرع الأصناف الطوال علفاً أخضر للماشية فيحصل على سبعة أطنان أو ثمانية من الفدان .

وتشتمل القرنة من القرنات القصار المزغّبة على ثلاث بزرات أو أربع . وهذه البزور طعام مغذٍ ومقياس للغذاء في موطن النبات ، إذ تلي الأرزّ في الاعتبار . وهي ملساء تشبه بزور البسلّة ويختلف لونها بحسب الصنف من الأسمر إلى الأسود إلى الأصفر إلى الأخضر . وتطهى وتعدّ طعاماً

(١) اسمه العلمي Glycine hispida وبالانجليزية Soy or Soya-bean وبالفرنسية Soja من الفصيلة القرنية

(*) نقترح على القراء أن تكون مطالعة هذه الحقائق والاتجاهات العلمية مقترنة بمطالعة المقالة الأولى في هذا الجزء من المقتطف ، فهذه تكمل تلك .

بطرق كثيرة فقد تغلى أو تشوى أو تطحن دقيقاً . وهاك تحليلها الكيميائي نقلاً عن الأستاذ ا. ه. تشرتش «حبوب الغذاء بالهند» ماء : ١١ ٪ — مواد زلالية أو پرتيدات (مكونات للحم) : ٣ و ٣٥ ٪ — مواد كربوهيدراتية (نشا وسكر وغيرها) : ٢٦ ٪ — زيت أو دهن : ٩ و١٨ ٪ — ليف أوخلوز سلليلوز : ٢و٤ ٪— رماد : ٦ و ٤ ٪ .

وبما أن هذه البزور تشتمل على نشا قليل أو لا تشتمل عليه أصلاً فهي تعمل كعكاً يابساً « بقسماطاً » أو خبزاً للمرضى بالبول السكريّ . وقيل إنها تستعمل أحياناً لغش القهوة . ويستخلص منها دهن قيّم يدخل في الزبد الصناعي « المرغرين » أو في صناعة الصابون وغيرها . أمّا الكُسْب المتخلّف فيعمل أقراصاً تعطى علفاً مغذّياً للماشية .

وغالب ما تصدَّر البزور من منشوريا وبالأخص لاستخلاص الدهن فتأخذ لندن وحدها ما يزيد عن مليون طن في السنة قدَّروا ثمن الطن منها قبل الحرب بمبلغ ١٢ — ١٥ جنيهاً إنجليزيًّا . هذا وقد يعمل من البزور نوع من الحساء يعرف باسم « حساء الصوية »

محمود مصطفى الدمياطي

انتهاج أسلوب واحد في كتابة الاسماء العربية بالانجليزية

وجّه الميجور وليم أستُر عضو البرلمان البريطاني ورئيس لجنة شؤون الشرق الاوسط المتفرعة من لجنة الشؤون الامبراطورية في حزب المحافظين البريطاني سؤالاً في مجلس النواب البريطاني في شأن انتهاج أسلوب واحد لكتابة الأسماء العربية المستعملة في بريطانية باللغة الانجليزية .

وقد سأل الميجور استُر وزير الخارجية هل بلغهُ أن السلطات البريطانية المختصة في الشرق الاوسط استخدمت طريقة واحدة لهجاء الاسماء العربية وأن وزارة الخارجية وغيرها من المصالح البريطانية تستخدم أساليب شتى . وكذلك سئل الوزير : هل يرى اقتباس الأسلوب الشائع في الشرق الأوسط واستخدامه في لندن ؟

وقد أفضى الميجور استُر الذي قضى في القوات البريطانية في الشرق الأوسط ثلاثة أعوام ونصف عام منذ سنة ١٩٣٩ بحديث إلى وكالة الأنباء العربية قال فيه : « إن الجنرال ويفل استخدم طريقة واحدة لهجاء الكلمات العربية دلّت على نجاحها في الشرق الأوسط ، ولكني وجدت المصالح الحكومية المختلفة في لندن تستخدم أساليب متعددة في هذا الشأن . وكثيراً ما يؤدي هذا إلى التأخر في الوصول إلى التفاهم وعلى الرغم من بساطة هذا الموضوع فانني أعدُّهُ هامًّا جليل الشأن » .

مستقبل النقل الجوي بين نيويورك والقاهرة

أبرق مراسل حربي أميركي الى نيويورك يقول: «إن ازدياد حركة النقل الجوي للبضائع والركاب بين القاهرة ونيويورك قد قصر أمد الرحلة الجوية بينهما الى ٣٨ ساعة فقط» ثم قال: «ولا يزال الطريق الجوي القديم إلى الشرق الأقصى عبر شمال إفريقية ومصر هو الطريق العادي المألوف. وكان السائد فيما مضى أن يطير المرء أياماً من نيويورك الى ميامي ثم تحمله الطائرة الى ناتال عبر المحيط الأطلسي الجنوبي وتذهب بعد ذلك الى الدار البيضاء ثم تعبر جبال أطلس بمحاذاة ساحل البحر المتوسط الى الجزائر ومنها تنطلق الى القاهرة في رحلة تستمر ثماني ساعات».

«أما اليوم وقد ازداد عدد طائرات النقل التابعة للجيش الأميركي التي تهبط الى المطار الجديد المنشأ أخيراً في عرض الصحراء فان الطائرات الأميركية تعمد الى اختصار الرحلة من نيويورك مقتصرة على التوقف في جزر آزور، والدار البيضاء، والجزائر، ثم تصل الى القاهرة في مدة تقل عن يوم ونصف يوم منذ ساعة قيامها من نيويورك

«وهذا المطار الجديد حقيق بأن يستوقف أنظار معظم الأميركيين المعنيين بشؤون النقل الجوي. وهو يعرف باسم «مطار باين» نسبة الى الليفتننانت كولونيل «جون باين» الذي قتل في غضون معركة جوية دارت رحاها في العام الماضي فوق أراضي العدو.

«وقد افتتح هذا المطار منذ سنة أو أقل قليلا. وصار بعد هذه المدة القصيرة منافساً او فائقاً على طائفة من المطارات الكبيرة مثل مطار اطلنطا بولاية جورجيا، ومطار دلاس بولاية تكساس، ومطار «سولت ليك سيتي» في يوتاه، ومطار دنڤر في كولورادو. بل بزّ تلك المطارات جميعاً في حجمه واتساع مؤسساته، وهو يكاد يناهز اليوم حجم مطار لاجواردیا بمدينة نيويورك.

«ولقد بدأ مطار «باين» نشاطه في أغسطس من العام المنصرم، بعد أن تم إنشاؤه في شهرين اثنين. واستمرت الاعمال الانشائية فيه بعد ذلك على نحو أسرع وأحكم الى أن أصبح معسكراً حربيًّا كبيراً».

هل تعلم؟

* أن استهلاك البنزين في الدنمارك لم يزد في سنة ١٩٤٣ على واحد في المائة من استهلاكه قبل الحرب.

* أن المباحث النفسية في جامعة كاليفورنية تدلّ على أن ذا الفكر البطيء ليس ضعيف العقل حتماً.

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الخامس بعد المائة

باب التعريف والتنقيب

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الخامس بعد المائة

١ نوفمبر سنة ١٩٤٤ — ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٦٣

النقل الجوي الدولي

آفاقه ومشكلاته — بعد الحرب

لباب المشكلة

هي المقاتلات والقاذفات التي تستوقف أخبارها الأنظار وتغصب فعال رجالها الإعجاب ، ولكن طائرات النقل هي الطائرات التي أحدثت انقلاباً خطيراً في ميدان النقل العالمي ، ربما لا يجاريه انقلاب آخر أحدثتهُ هذه الحرب في سعة مداه وعمق أثره .

فحين نشبت هذه الحرب في خريف سنة ١٩٣٩ كان النقل الجوّي الدولي آخذاً في الاتساع . فقد تضاعف طول الخطوط التي تجتازها طائرات النقل بين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣٨ وزاد عدد الأميال التي تقطعها ثلاثة أضعاف . ومع ذلك فلا بدَّ من التسليم بأن الطائرات لم تحوّل قارات الأرض ومحيطاتها « عالماً واحداً » على حدّ قول ويلكي إلاَّ خلال هذه الحرب . فقد اختزلت مسافات السفر وقصرت زمن الرحلة بين مواقع بعيدة ، من أسابيع وأيام في السفينة وسكة الحديد ، إلى ساعات في الطائرات . ففي كل أسبوع يرحل قومٌ من الشرق الأوسط إلى الولايات المتحدة ، أو من الولايات المتحدة إلى الشرق الأوسط ، فلا تستغرق الرحلة أكثر من ثلاثين ساعة إلى أربعين .

وقد روت مجلة الميكانيكا العامة منذ أشهر الحادثة التالية : جاس عامل الإشارة اللاسلكية في مقرّ القيادة في وشنطن أمام جهازه . وإذا الجهاز يسجل رسالة من قيادة ماك آرثر في الجانب الآخر من الكرة . وكان مؤدَّاها أن الجنرال يحتاج إلى طنين من قطع الغيار في أستراليا وأن حاجته إليهما شديدة . فلم تمض دقائق معدودات ، حتى كانت قيادة

التموين في الجيش الأميركي قد عيَّنت المصنع الذي يمكن أن تؤخذ منه هذه القطع ، وبعد دقائق أخرى تلقى قائد طائرة من طائرات قيادة النقل إشارة ، وكان في طريقه بين مدينتين أميركيتين ، وطائرتهُ مشحونة شحناً ما . وكان الزمن قرب منتصف الليل حين تلقى الطيار هذه الإشارة ، فانحرف عن سيره إلى مدينة لم تكن في جدول سيره . فأفرغ شحن طائرته وشحن القطع التي طلبها ماك آرثر واتجه بها إلى مطار على ساحل أميركة الغربي فبلغهُ في الصباح ، وتولّت طائرة أخرى نقل هذه القطع إلى أستراليه فبلغتها في ثمانٍ وأربعين ساعة !

وإذن يحق لنا أن نتوقع ، غداة نهاية الحرب ، أن يتحقق ما تعلن عنهُ بعض شركات الطائرات ، من أن أبعد مكان على سطح كرة الأرض لا يبعد عن أي مطار أكثر من ستين ساعة بالطائرة . ولذلك ينتظر أن يتسع نطاق النقل الجوي الدولي ، حين تضع الحرب أوزارها اتساعاً يفوق اتساعه فيما بين سنة ١٩٣٠ و ١٩٣٨ .

على أن هذا الاتساع لن يتمَّ على وجههِ الصحيح ، إلاّ إذا نظرت الحكومات وشركات الطيران إلى الموضوع نظرة التعاون الصحيح ، بدلاً من أن يكون مثاراً للنزاع بينها . وقد دارت في العهد الأخير مناقشة على جانبي المحيط الأطلسي ، أثارت بعض النفوس . ولكن يرجى أن يسفر المؤتمر المعقود في شيكاغو عن التفاهم على مسألة النقل الجوي ، كالتفاهم الذي أسفر عنهُ مؤتمر خبراء النفط منذ أشهر . فليس ثمة خدمة ما تسدى إلى أحد ، إن قال الأميركيون إن مستقبل الولايات المتحدة يتعرَّض للخطر إن لم يسمح لطائراتهم بأن تطير في كل جوٍّ وفوق كل أرض ، أو إن قال البريطانيون إن بريطانية يحف بها الخطر إن لم تكن جامعة الأمم البريطانية مباحة لخطوط النقل الجوي البريطانية محرَّمة على غيرها . ويزداد الموضوع غموضاً حين يتحدَّث الذين لا يحملون تبعة ما يقولون ، حديث المستخفّ عن «السيادة» و «حرية الجوّ» وما أشبهها . فالنقل الجوّي الدولي ، لهُ وجوهٌ متعددة من النفع ونواحٍ لا تحصى للاتساع ، وحدودٌ لا يمكن أن يتعدَّاها الآن . فيجب أن تبحث جميع هذه المسائل بحثاً يتحكم فيهِ العقل الراجح والفكر الموزون . وهذا المقال يفرض استقرار العالم استقراراً سياسيًّا ، يتيح للباحث أن يقيم الوزن للاعتبارات الاقتصادية المحض دون الحربية . وإلى أن تنتهي الحرب ويستتب السلام وتنفذ أحكامهُ ، يجب أن يفرض كذلك أن دول المحور لن يكون لها نصيب في شبكة المواصلات الجوّية الدولية ، خلال سنوات بعد الحرب على الأقل ، أو إطلاقاً .

مستقبل النقل الجوي

لا مفرَّ من الاعتراف بأن الضرورة الحربية تفرض الآن طبيعة المواصلات الجوّية العالمية ومشكلة خطوطها المتقاطعة . فطائفة كثيرة من خطوط النقل الجوّي المألوفة الآن ،

لا صلة بينها وبين خطوط النقل الجوي التي يحتمل أن تظلّ مستعملة بعد الحرب . فقد تقتضي الضرورة الحربية إنشاء خط جوي يتبع دائرة كبيرة على سطح الكرة مارّة بالقطب ، لكي تنقل الطائرات عتاداً حربيًّا لازماً من اميركة إلى أستراليه أو الفيلبين في أقصر مدة، ولكن من الجائز حين تنقضي هذه الضرورة أن تعجز شركة من شركات النقل الجوّي عن أن تنشيء خطًّا جويًّا يتبع هذه الدائرة ، وأن تقيمهُ على أساس تجاري .

وثمة عاملان أساسيان في تقرير هذه الخطوط ، أما الأول فهو أن معظم المدن الكبيرة في شتى بلاد الأرض واقعة إلى الجنوب من خط العرض الستين . وإذن فالطيران من إحدى هذه المدن إلى مدينة تقابلها على الناحية الأخرى من الكرة ، فوق القطب — وهذا هو أقصر طريق بينهما — لا يحتمل أن يجنى منه نفع تجاري ، لأن الطائرة ، في طيرانها فوق منطقة القطب الشمالي حيث تتبع دائرة كبيرة مارة بمركز القطب ، لا تمر فوق بلاد كثيرة يمكن أن ينقل منها أو إليها ما يستحق الذكر. ولذلك قد تفضل طرق أطول لكي يتاح للطائرات أن تمر فوق بلاد تستطيع أن تنقل منها أو إليها شحنات يدفع أجر نقلها . وأما العامل الآخر فهو الوقود الذي تستهلكه الطائرة بالقياس إلى وزن الشحن المأجور . وقد ثبت أن طائرات النقل الأميركية ، من طراز دوغلاس د س ٣ التي تحمل ٢٠ راكباً مسافة ٥٠٠ ميل تستهلك ألفي رطل من الوقود لكل ٥٠٠٠ رطل من الحمل الذي تحمله . فاذا طبقنا ذلك على رحلات أطول مدى فوق القطب ، وجب أن تنقلب النسبة ، أي أن يصبح مقدار الوقود المستعمل ٥٠٠٠ رطل من الوقود لكل ٢٠٠٠ رطل من الحمل. فالطائرة التي تعبر المحيط الأطلسي تحمل الآن ١٨٠٠٠ رطل من الوقود مقابل ما وزنه ٤٠٠٠ رطل من الركاب أو الشحن . ومع ان ارتقاء صناعة الطائرات يتيح رحلات طولها ٣٠٠٠ ميل أو ٤٠٠٠ ميل، فان تسييرها على أساس تجاري هذه المسافة غير مستطاع لارتفاع نسبة الوقود اللازم بالقياس إلى ما تحمله الطائرة مما يدفع عنه أجر للشركة التي تسيرها .

ومهندسو الطيران يصممون الآن طائرات نقل تستطيع أن تقطع المسافة بين نيويورك ولندن في اثني عشرة ساعة ، ولكن هذا ليس مستطاعاً إلاّ بتقليل ما تستطيع الطائرة أن تحمله لزيادة الوقود اللازم للرحلة . والطائرة نفسها تستطيع أن تقطع المسافة بين المدينتين إذا هي وقفت ثلاث مرات في الطريق — في نيوفندلند وجرينلند وأيسلند . وهذا يمكنها من أن تقلل ما تحمله من الوقود لكل مرحلة من الرحلة كلها ، فتزيد ما تحمله من ركاب أو بضائع ، وهذا يتيح للشركة التي تسيّرها أن تخفض أجور النقل . نعم إن المدة التي تستغرقها الرحلة تكون أطول من مدة طائرة تطير رأساً من نيويورك إلى لندن ، ولكن زيادة المدة

تجعل تسيير الطائرة على أساس تجاري أمراً مستطاعاً . ولذلك يحتمل أن تشتمل خطوط النقل الجوي بين أميركة وبريطانيـة ، على النوعين جميعاً ، وفقاً للحاجـة . وعلى أن بعض المشتغلين بالطيران يقولون إن أجر النقل الجوي للراكب الواحد بين نيويورك ولندن سيكون ٢٥ جنيهاً ، وأن البعض الآخر يقول إنه ستصنع طائرات تتسع لأربع مئة راكب ، فالمحتمل أن تكون الطائرات التي تعبر شمالي المحيط الأطلسي ، ممـا يتسع لأربعين أو خمسين راكباً وأن أقل أجر لن يقل عن خمسين جنيهاً . وقد يكون هذا الأجر دون الحقيقـة إن لم يتح للطـائرات أن تحمل بريداً مستعجلاً يعوّضها من بعض النفقة الكبيرة .

والغـالب كذلك أن تكون الطائرات التي تنقل البضائع ممـا يقطع الطريق بين أميركة وبريطانية أو بريطانية وأميركة في مراحل قصيرة . فقد يضطر القواد أن ينقلوا بالطائرات سيارات ومدافع في أثناء الحرب ، ولـكن لا يحتمل أن يعمد المصدّرون والمستوردون إلى إصدار الثلاجات الكهربائية واستيرادها بالطائرات — إلاَّ إذا عزَّت كلُّ وسيلة أخرى من وسائل النقل. فنفقة النقل الجوّي عالية والتقدير الغالب الآن هو أن أجرة النقل الجوي لما زنته طن مسافة ميل ، تتفاوت بين خمسة قروش وعشرة قروش . على حين لا يكلف نقل الطن مسافة ميل بالقطار أكثر من ربع قرش وبالسفينة ربع المليم . وقد يتمكن رجال النقل الجوّي من خفض أجرة النقل إلى نصف ما هي عليهِ الآن ، بعد سنوات ، ولـكنها تظلّ مع ذلك عالية جدًّا إذا قيست بأجرة النقل بالقطار والسفينة . ولذلك يشكُّ الخبراء في أن تستعمل طائرات الشحن لنقل شيءٍ عدا البضائع التي لها قيمة عظيمة ، أو التي تقضي الحاجة الملحة بنقلها على أسرع وجهٍ مستطاع .

نظام جديد للنقل الجوي

فإن لم يكن ثمة ما يحول دون التوسّع العظيم في النقل الجوّي ، من نواحي الصنـاعة والتجارة ، فما هي المشكلة التي تحيّر الحكومات ودوائر الطيران ، وتثير الجدال وتعقد المؤتمرات لبحثها كمؤتمر شيكاغو الذي ذهب إليهِ وفد مصري من أيام ؟

في الوسع تلخيص المشكلة في السؤال التالي : هل يسمح القانون الدولي الخاص بالطيران ، بهذا التوسّع دون عائقٍ يعوقهُ ، ودون نزاع بين الدول يثيرهُ ، وإذا كان الجواب بالنفي فأي نظام يجب أنْ يحلّ محلهُ ؟

بحث الخبراء المنزّهون عن الهوى هذا الموضوع فإذا هناك خمس قواعد عامة تستطيع الدول وشركات الطيران أن تختار بينها ، لاتخاذ إحداها أساساً لهذا النظام المطلوب . وهي :

(أولا) تجديد النظام الذي كان متبعاً قبل نشوب الحرب وهو قائم على مبدإ « النطاق الجوّي الخاص » والاتفاقات المتبادلة . (ثانياً) جعل جميع خطوط الطيران — ما عدا الخطوط الداخلية في بلدٍ ما — خطوطاً دولية . (ثالثاً) إطلاق حرية الجوّ على نحو ما كانت الدول تسعى إلى تحقيق « حرية البحار » . (رابعاً) حرية العبور أي إطلاق الحرية للطائرات أن تعبر جوّ أية دولة ، وأن تقف في قواعد معيّنة للتزوّد بالوقود والمعونة الفنية ولكن دون أن يكون لها الحق في أن تنقل شحناً من القواعد التي تقف فيها . (خامساً) حرية العبور مقرونة بتوزيع الخطوط الجوية الدولية فيما بين الدول المختلفة .

١ — كانت القاعدة التي قام عليها النقل الجوّي الدولي قبل نشوب الحرب ، تعرف بقاعدة « سيادة الجوّ » في الولايات المتحدة وقاعدة « النطاق الجوّي المقفل » في بريطانية . وعلى أن « السيادة » صورة قانونية لا يحتمل أن تتبدَّل الآن ، فيجوز أن تظلّ الأمم محتفظة بسيادتها القانونية ، دون أن يحول ذلك دون اتفاقها على الحدّ من ممارسة تلك السيادة في بعض النواحي . ولذلك يفضل الخبراء التعبير الإنكليزي — النطاق الجوي المقفل — لتصوير مبدإ النظام القديم في النقل الجوّي الدولي ، على التعبير الأميركي .

وهناك اتفاقان دوليان — أحدهما اتفاق باريس سنة ١٩١٩ واتفاق هافانا سنة ١٩٢٨ — يحكمان النقل الجوي الدولي ، وبمقتضاهما يتعين على كل شركة طيران تسير طائراتها بين الدول أن تظفر بإذن في تسيير هذه الطائرات من حكومات الدول التي تجوزها هذه الخطوط أو تطير الطائرات في جوّها . وهذا الإذن لا يقتصر على المرور فوق أرض هذه الدولة أو تلك ، بل يشمل كذلك النزول في قواعدها الجوّية ، وتفريغ الشحن وإنزال الركّاب ، وأخذ شحن جديد أو مسافرين ، وكذلك التزوّد بالوقود والظفر بما يلزم لإصلاح الطائرة ، واللجوء إلى هذه القواعد أو الهبوط في أرض خلاءٍ ، نجاةً من عاصفةٍ تهبّ او عطل يصيب الطائرة .

وقد اقتضى تطبيق هذه القاعدة مساومة طويلة معقدة بين الحكومات للظفر بترخيص من هذا القبيل ، وللاتفاق على تبادل الترخيصات . وقد بلغ عدد الاتفاقات التي تشمل بلاد أوربة وحدها مئة اتفاق أو تزيد ، قبل سنة ١٩٣٩ . نعم كانت هناك رقع من سطح الأرض يتاح فيها لشركات الطيران نفسها أن تتفق مع الحكومات مباشرةً على حقوق النزول في أرضها والطيران في جوّها وما أشبه ذلك وفي طليعتها بلاد أميركة اللاتينية ، فإذا استثنيت هذه البلاد ، فإن المفاوضة والمساومة اللتين كانت تسبقان كلّ اتفاق ، كان من شأنهما تعويق تقدم النقل الجوّي . وقد ظلّت خطوط كثيرة للنقل الجوّي غير مستعملةٍ ، لتعذّر الاتفاق على الدول صاحبة الشأن فيها ، مع أنها كانت تبشر بنجاح عظيم .

فإذا اختارت الدول ودوائر الطيران بعد الحرب أن تسلك هذا الطريق، طريق المفاوضة على إنشاء الخطوط الجوية، فعسى أن لا يتعذر عليها أن تتفق، ولكن ليس ثمة ريب في أن المفاوضة والمساومة على الحقوق وعقد الاتفاقات المتبادلة من شأنها أن تؤخر توسيع شبكة المواصلات الجوية الدولية، في المراحل الأولى التي تلي انتهاءَ الحرب. خذ على ذلك مثلاً واحداً. فقد تطلب إحدى شركات الطيران الأميركية ترخيصاً بانشاء خط جوّي يتبع الدائرة الكبيرة، من شيكاغو إلى سنغافورة وباتافيا. فإذا أُريد إنشاء هذا الخط على قاعدة المفاوضة والمساومة، وجب أن تعقد اتفاقات خاصة مع كندا واتحاد السوفيت والصين وفرنسة وبريطانية وهولندة. ومن المرجَّح أن تتطلَّع كل دولة منها إلى الظفر بحقوق خاصة بها لقاءَ ما تمنحهُ من حقوق للآخرين. وفي وسع دولة واحدة منها أو مجموعة من الدول أن تؤخر — إن قصدت — إنشاء هذا الخط حتى تصبح قادرة أن تستفيد من الحقوق التي تستطيع أن تظفر بها من وراء المفاوضة والمساومة.

وعلى أنَّ التأخير في إنشاء خطوط الطيران الدولية خطر في حد ذاتهِ على تقدم النقل الجوّي، ولكنهُ ليس الخطر الأكبر، ذلك بأن هذا الضرب من المساومة والمنافسة، قد يفضي إلى قيام نزاع بين الدول، قد يعكّر صفو السلام، ولاسيما لأن بعض الدول، ستكون في الفترة التي تلي نهاية الحرب مباشرة، ونتيجةً لجهودها الحربيّ، أقدر من غيرها على النزول إلى ميدان النقل الجوّي الدولي، لما ظفرت بهِ من تجربة في بناء طائرات النقل العظيمة وتسييرها وتدريب عدد وافر من الرجال على ذلك.

٢ — تحويل خطوط الطيران خطوطاً دوليةً. هذا المقترح، هو أجرأ المقترحات، ولبابُهُ تحويل جميع خطوط الطيران بين الدول خطوطاً دولية. ولكنَّ تعبير «تحويلها خطوطاً دولية» يحتاج إلى توضيح. هل يعني الاتفاق الدولي على أجور النقل والسفر، والمساعدات التي تسديها الحكومات لشركات الطيران؟ هل يعني إنشاء هيئة دولية تملك القواعد الجوية ووسائلها، أو هل يعني إنشاء شركة دولية ذات رأس مال مختلط وموظفين من جميع البلاد، تشرف على تسيير هذه الخطوط.

لا مرية أن المعنى الثالث هو المعنى الوحيد الذي ينطبق عليهِ وصف «الدولي» ومع ذلك فإنهُ في حاجة إلى التحديد. هل تكون هذه الشركة هيئة تساهم فيها الدول المتحدة، كما يساهم الناس في شركة تجارية، أو تكون شبكة من الخطوط الجوّية المنتشرة فوق وجه الأرض ويُشرف عليها السلاح الجوّي الدولي — أحد فروع «قوة المحافظة على السلام» — كما يقترح هنري ولاس وكيل رئاسة الولايات المتحدة؟

ولكن على رغم المزايا الكبيرة التي تلازم تحقيق هذا المقترح ، يبدو أن الاهتمام به يسير ، فليس في الولايات المتحدة من يؤيده من الكبار سوى ولاس وهو معتزل وكالة الرئاسة في ٢٠ يناير القادم . أما في بريطانية ، فحزب العمال فيها يميل إلى تأييده وكذلك بعض الصحف الكبيرة . ويقال إن الحكومة معنية به . ولكنّ دوائر الطيران في بريطانية لا ترى حكمة في تطبيقه تطبيقاً عامًّا وقد تستثنى من ذلك تطبيقهُ على الخطوط الجوّية في القارة الأوربية . وكندا أقلُّ ميلاً إلى تطبيقه من أميركة . أما روسيا السوفيتية فلم توضح موقفها ، والغالب أنها معارضة .

٣ — حرية الهواء . يغلب في بعض الدوائر أن الأخذ باطلاق « حرية الهواء » هو البديل الوحيد من النظام القائم على قاعدة « النطاق الجوّي المقفل » . على أن التعبير نفسهُ قد يعني واحداً من ثلاثة أشياء . فقد يعني أولاً حرية العبور أي أنهُ يحق لطائرة تابعة لدولة ما أن تجوز هواء دولة أخرى دون النزول في ارضها . وقد يعني ثانياً حرية الانتفاع بوسائل الطيران كالنزول في المطارات والاطلاع على الأرصاد الجوية والاتصال اللاسلكي . وقد يعني ثالثاً حرية النقل الجوي فيؤذن لطائرة من دولة ما ، أن تنقل ركاباً أو شحناً إلى دولة أخرى أو منها أو فيها . والمعنى الثالث هو أوسعها وأحراها بأن يكون المقصود بحرية الهواء . وقد يقتصر على النقل إلى دولة ومنها ، دون القيام بأعمال النقل فيها .

ولكنَّ حرية الهواء بهذا التفسير الواسع ، تتصل اتصالاً وثيقاً بالسيادة في معناها القانوني ، وبالسلامة في معناها الحربي . ولذلك يحرص دعاة هذا الرأي على أن يضمّنوا مقترحاتهم الاعتراف بحق الدولة أن تعيّن مناطق تعدُّها لازمة للدفاع ، فيحرَّم الطيران فوقها ، ويذهب بعضهم إلى القول بأن المقتضيات العملية تقتضي ، حين تزدحم طرق الهواء ، أن تعيّن كلُّ دولة طرقاً خاصة تجعلها مباحة للطائرات الأجنبية .

على أن المبدأ الأصيل في مذهب حرية الهواء ، هو إطلاق التنافس في النقل الجوّي الدولي من كل قيد . والرأي أن هذه المنافسة الحرة هي خير وسيلة لنموّ النقل الجوّي نموًّا يعتمد على « بقاء الأصلح » أو ما من قبيله في عالم الاقتصاد . ولكن هذا الإطلاق يفضي إلى مشكلات خطرة ، إن هو ذهب إلى أقصى حدوده . فإذا سيَّرت الشركات الأميركية طائراتها فوق كل قارة آسية ، والصينية فوق كل قارة أوربة ، والأوربية فوق قارتي أميركة الشمالية والجنوبية ، فالعاقبة هي منافسة غير اقتصادية ، أو هو تناحر يفضي إلى ضرورة عون الشركات من مال دولها ، فإلى المشكلات السياسية التي يحتمل أن تلابسها . (للبحث تتمة)

رحلة خابت

أما سمعتم معي صوتاً صريع النغمْ
تلفظه أضلعي منخلعات الهمم ؟

أضلعُ صدرٍ هفا
ـ وما علمْ ـ
إلى خليج الشّفا
من الندم

هناك حيث انفصم
ماضي العمُرْ
فلا أثُر !
طوى الجراحَ العدم

في صدريَ المُقلعِ
هفّ العلَمْ ،
فانتشرت أضلعي
تُجري الحُلُمْ

أما سمعتم معي صوتاً صريع النغم ؟
وا ضجّة المطمع من يأس شوقٍ فُطِم !

صوتَ شراعٍ وَنى
ثم انحطم
يا للعلّم
أعياه هولُ الفَنا

لندن ٦ يوليو ١٩٣٦ بشر فارس

هل نجحت الحرية

في التاريخ ؟

لقسطنطين ثيودوري

قال إبرلهام لنكولن : « إنه من المهم أن نتساءل : هل في مكنة أية حكومة لا تملك القدر الكافي من الحرية لتعزز به شعبها أن تحافظ على وجودها وكيانها عند حدوث الطوارئ الجدية ؟ » . إن هذه الملاحظة الخطيرة التي أبداها الرئيس لنكولن تتصل بمنشأ قضية من أهم القضايا في التاريخ الإنساني، فهناك توازن بين الحرية التهذيبية والحرية السياسية والحرية الاقتصادية ، وهناك توازن بين حرية الفرد وقوة الدولة . وهذا التوازن في القوى الذي من شأنه أن يضمن استقراراً كافياً دون أن يعوق نجاح الحرية يعد من أعظم المعضلات التي لقيتها الدول منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا .

إن هناك عاملاً عظيماً يجب أن نلتفت إليه إذا تأملنا التباطؤ الظاهر في تقدم البشرية ولكن هذا العامل العظيم انعكاسات لاشعورية ذات حالات خاصة Conditioned Reflexes تسيطر على نفسية الفرد وعلى نفسية الجماعة بوجهٍ عام . ولسنا نقدر مبلغ تأثير هذه الانعكاسات في الحياة البشرية إلاَّ بتفطننا إلى أخلاق الفرد والعادات التي تتحكم في أخلاق الجماعة مبنية عليها ، مستندة إليها . ثم إذا كان التقدم البشري يستأصل خلقاً سيئاً واحداً فانه في الوقت نفسه يعرّض للخطر عشرة أخلاق على الأقل ليست كريمة . ويرجع ذلك إلى طبيعتنا السيكولوجية التي نستخدم في اصطناعها الانعكاسات ذات الحالات الخاصة بطريقة لاشعورية في أكثر الحال، وبطريقة شعورية اختيارية أحياناً .

ولا يمكن لأي تقدم تدركه البشرية أن يدوم ويثمر ، إلاّ إذا تأصلت أصوله في الأذهان. وفي هذه الحالة تمتد هذه الأصول — بطريقة الانعكاسات اللاشعورية — إلى عدد كبير من الناس ، فيغتذون بها وينتفعون ، ويصبح التقدم حينئذٍ حقيقة محسوسة وعملاً نافعاً مثمراً . ولقد حاولت البشرية في أدوار التاريخ المختلفة أن تظفر بتقدم عظيم القدر فنجحت

في ذلك مدة قصيرة من الزمن ، ولكن سرعان ما تداعى هذا التقدم لأن جذوره لم تتأصل في عقول الناس تأصلاً . وحين كانت تعفو آثار التقدم في العالم كان ذلك التوازن القديم يعود إلى الظهور وهو أشد رسوخاً واستقراراً من ذي قبل . ومن أجل ذلك أخفق المصلحون الدينيون في بناء وحدة دينية كاملة ، ومن أجل السبب نفسه بلغ إخفاق الثورة الفرنسية التي نشبت في سنة ١٧٨٩ مبلغاً كبيراً ، فماذا أفادت الحرية والمساواة والإخاء الشعب الباريسي بعد أن قضى مئة سنة يقاسي خلالها الجور والظلم ؟ إن هذا الشعب بمعاناته العبودية وتحمله القوانين الجائرة ، فقد — من حيث لا يدري — تلك الانعكاسات اللاشعورية المنطوية على القوة الطبيعية التي تسيّر أخلاقه وتكيّف حياته بمقتضى سنة التطور الطبيعي . والنتيجة التي تنشأ عادةً من فقدان هذه الانعكاسات تفضي إلى إطلاق العنان لغرائز الحياة الحيوانية في الإنسان . ومن الطبيعي أنه لا ينتظر أن تصدر عن مثل هذه الحياة حياة اجتماعية منظمة من الطراز الرفيع . على أننا إذا نظرنا من الناحية الأخرى إلى الثورة الأميركية رأينا أن النتيجة التي أسفرت عنها كانت بعكس ذلك ، فالأميركيون في سنة ١٧٧٦ كانوا يستمتعون بحرية المساواة الشخصية أو ما يسمونه الأخوة التعاونية Co-operative Fraternity وكان من أثر الثورة الأميركية وقتئذ أن أيدت الأميركيين في طرائق حياتهم ووافقت على تصرفاتهم وباركت أعمال اعتدائهم . لذلك ليس من العجب ألاّ يثير إعلان الاستقلال الأميركي وحصول الأميركيين على حقوقهم تلك الضجة المدوّية التي أثارها الفرنسيون لما فازوا باستقلالهم ونالوا حقوقهم .

وعلى الرغم من هذه الحقائق التاريخية الساطعة التي تجلت في كل من الثورة الأميركية والفرنسية ، فإن الثورة الفرنسية لم تلفته بتقهقر تام . ففي ثورة تموز (يوليه) سنة ١٨٣٠ ولدت فرنسة جديدة ، ولدت فرنسة الديمقراطية . ومع أن مرمى هذه الثورة كان أقل شأناً من ثورة سنة ١٧٨٩ فإنها قد نجحت في تأييد مناهج الحياة التي كانت تسلكها الطبقة الفرنسية المتوسطة ، هذه المناهج التي ارتقت في العهد الواقع بين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٨٣٠ . وقد أدّى هذا الارتقاء في مناهج الحياة إلى جعل المبادئ الأدبية للحرية الثقافية والسياسية سائدة في ذلك العصر .

إن الثورة الفرنسية قد وضعت حدّاً لعصر كانت فيه الحضارة مشوّشة لا تناسق فيها ولا توازن، وقد ذهب بعض المفكرين إلى أنهُ كان بالإمكان أن تقف هذه الثورة لو أن طبقة الأشراف التجأت إلى القوة آنذاك . وقد استحوذت هذه الفكرة على كثير من الطبقات

والهيئات ، وتغلغلت في الأوساط والبيئات المختلفة ، وآمن بها فريق من مفكري عصرنا الحاضر ، فأفضى كل ذلك إلى خلق المذهب الفاشستي الذي يقوم على تمجيد القوة وإعلاء شأنها وتقديس الذين يعتنقونها. ولنبحث فيما يلي هذا المبدأ القائم على تمجيد القوة لنرى صحته أو بطلانه : تساقط النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في فرنسة في القرون الوسطى لما اعتلى لويس الرابع عشر عرش فرنسة ، فقد ركز هذا الملك جميع القوى في دار القضاء التي بناها في فرسايل ، إذ جعلها المحجة الوحيدة للطبقة الحاكمة في البلاد ، وجمّلها بأفخم الأثاث وأندر التحف والآثار ، وأسكن فيها الأسرة المالكة ومئات النبلاء وطائفة كبيرة من الجند والحشم ، وصيّرها مرتعاً خصباً لألوان الرفاهية والنعيم. فاسترعت محكمته هذه الأنظار في فرنسة وفي أوربة أيضاً إذ تجلت فيها روح الأتوقراطية — روح الاستبداد بالسلطة — بأجلى مظاهرها . فوسائل القوة التي تذرّع بها هذا الملك جعلته محاطاً بالنفوذ والهيبة . وغنيٌّ عن البيان أن هيبة من هذا النوع لا يظفر بها المرء إلاّ إذا ارتكزت على القوة والاستبداد . وقد سرى ردّ الفعل الذي أحدثته أعمال هذا الملك الاستبدادية في فرنسة وفي سائر أوربة كذلك ، وكان من نتيجة ذلك أن رأس وليم البرتقالي الذي استوى على عرش إنجلترة سنة ١٦٨٩ حركة ناجحة قاوم بها هذه الأعمال الأتوقراطية .

وبينما كان النبلاء في فرنسة منهمكين في استبدادهم بالناس واستخدام وسائل نفوذهم وهيبتهم إذ عقد وليم المذكور حلفاً أضعف به قوة لويس الرابع عشر في الحرب المعروفة « بالخلافة الأسبانية » التي نشبت بين فرنسة من جهة وإنجلترة والنمسة وبروسية وهولندة والبرتقال من جهة أخرى ، وذلك دفاعاً عن الاستقلال وعن حرية البروتستانت الثقافية في فرنسة . وقد استمرت هذه الحرب إحدى عشرة سنة ، وبعد مئة سنة تقريباً صار النظام الاستبدادي الذي اتبعه لويس الرابع عشر إلى الخراب والدمار . وربَّ سائل يسأل : لماذا لم يتذرّع أشراف فرنسة بالقوة في سنة ١٧٨٩ لقمع الثورة الفرنسية كما اعتقد بعض المفكرين فإن ذلك كان ممكناً ؟ والجواب أن نظاماً مرتكزاً على الهيبة لا يمكن أن يدوم إذا تجرّد منها ، فالهيبة التي كانت سائدة في عصر لويس الرابع عشر كانت مرتكزة على مجد عسكري ملكي فقط ، وما عتم هذا المجد أن تفكك واضمحلّ . وهكذا نرى أن الهيبة العظيمة التي كان يتمتع بها لويس الرابع عشر وينافس بها غيره من ملوك أوربة قد تحداها ملكٌ هيّن كوليم البرتقالي . حقّاً كان في مقدور أولئك الأشراف أن يحاربوا في سبيل إعادة ملك لويس الرابع عشر وفي سبيل تجديد هيبته وكرامته ، وكان في مقدورهم أيضاً أن يحاربوا من أجل القضاء على الحرية التي رفرفت أعلامها في هولندة وفي غيرها من البلدان

البروتستانتية المذهب، ولكنهم لم يستطيعوا إلى هذه الحرب سبيلاً ، إذ كان من المستحيل عليهم أن يستردوا هيبة كالهيبة التي كان يتمتع بها لويس الرابع عشر . ولكن ما كان ممكناً أن يتوقعوا الحصول عليه هو مارسمهُ لهم ميرابو : أن يقطعوا الجسر المؤدي إلى عالم ديمقراطي قبل فوات الوقت . ولو أن ميرابو زعيم الثورة وخطيبها طال عمره لتحقق ما وسمهُ لهم ولسارت الثورة الفرنسية في طريق إنشائي أوصل فرنسة إلى تلك الحرية التي نالتها هولندة بفضل انتصارها التام على النظام الفرنسي الأتوقراطي .

***

ولنستعرض الآن بعض الحوادث التاريخية، لنبرهن بها على أن الحرية إذا لم ترسخ جذورها في حياة البشر الثقافية كان نصيبها الإخفاق التام .

استطاعت بروسية في عهد فردريك الكبير أن تستمر على النظام الإقطاعي حتى الحرب العالمية . ذلك لأنها أدمجت — في عهد أبي فردريك — نظام لويس الرابع عشر في حرية هولندة الثقافية واتخذت من هذا الإدماج نظاماً للحكم سارت بمقتضاه . وكان من نتائج هذا الإدماج في عهد فردريك الكبير أن فصل العدل عن قوة الدولة التنفيذية، فكان في استطاعة المرء في بروسية — استناداً إلى ذلك — أن يقاضي الملك بدون استشارته ، في حين أن الدستور في أمريكا لم يخوّل الأميركي مثل هذا الحق .

إن بروسية في تطبيقها سياسة الإدماج استطاعت أن تنشئ خلال القرن التاسع عشر نظاماً من التقدم الثقافي كان منطوياً على طراز رفيع من الحرية ، وقد مكّنها هذا النظام من إصابة تقدم غير قليل في الحرية ، إلا أن انهزامها في الحرب العالمية أفقدها عنصر الهيبة الذي لازم سياسة الإدماج هذه . فالجمهورية الديمقراطية التي تأسست بعد الحرب الأخيرة على أساس الهزيمة — بعكس الجمهوريات في سويسرة والولايات المتحدة التي أُنشئت على أساس النصر — كانت في حاجة إلى عنصر أساسي من الهيبة في أول الأمر ، بل كانت في حاجة ماسة إلى من يثير عواطفها ويوقظ مشاعرها . فلو وجد من يطالب بإرجاع الملكية إليها لأدى ذلك إلى تجديد عوامل التنبيه والإنعاش التي فقدها البروسيون بسبب سقوط عنصر الهيبة في حياتهم . بيد أن الحرب العالمية أوجدت لهم بديلاً من ذلك تجربة ظهرت لأول مرة في إيطالية ، وهذه التجربة عبارة عن نظام جديد فريد يحتوي على عناصر من الهيبة تبدو من خلالها الروح الديمقراطية ، ذلك هو النظام النازي الذي تجري الهيبة في ثناياه

من مصدر مركزي واحد ثم تتفرّع إلى شُعب تضيق شيئاً فشيئاً ، وذلك كله بأسلوب لم يسبق له مثيل .

ويجب أن نعترف هنا أن الحرية الديمقراطية قد أخفقت لأنهـا لم تملأ الفراغ الذي خلا بسقوط الملكية في ألمانية، ولأنها عجزت أيضاً عن منع النظام النازي من الظهور، وينبغي أن نتعلم من هذا كله أن الحواجز التي تعوق اطراد الحرية السياسية أو الحرية الاقتصادية أو الحرية الثقافية لا يمكن أن تزول إذا كانت هذه الحواجز تسدّ الحاجات الثقافية والسياسية في العالم وتساعد على إمداد المجتمع بقوة الاستقرار . لذلك لم يكن بالإمكان أن تُنقذ حرية ألمانية ويصان نجاح هذه الحرية فيها، إذ لم تستطع هذه الجمهورية الظفر بهيبة واسعة كما أنها لم توفق لعقد اتحـاد مع النمسة كما سعى إلى ذلك وزيرها بروننغ . ولـكن إذ تزول حواجز كثيرة في آن واحد من طريق الحرية فمعنى ذلك أن عجلات الانعكاسات اللاشعورية التي تقدم الكلام عليها تقف فجأة عن العمل ولا يعود الفوز بالحرية مضموناً .

وقد أصبح من الأمور الواقعة أن ما يبلغهُ المرء من نجـاح في الحرية في مختلف أدوار التاريخ إنما تعيّنهُ طبيعته السيكولوجية ، فعلى هذه الطبيعة يتوقف الشيء الكثير من نجاح الإنسان أو خيبته .

***

ومما قوّى الدعامة التي قام عليها نظام الحرية السيـاسية في الولايات المتحدة أن الحرية الاقتصادية والحرية الثقافية لم تكونا إبان ظهورها في هذه البـلاد من القضايا المعضلة كل الإعضال ، ذلك لأن الحواجز التي اعترضت طريق هاتين الحريتين كانت قليـلة الأثر . ثم إن مسألة التدقيق في الدين وتجريده من « الطقوس » والشعـائر المختلفة كانت مستحوذة على عقول الأميركيين في ذلك الوقت ، حتى إنهم لم يتطلعوا إلى الحيـاة العابثة التي كان يحيـاها الأوربيون .

وقد سهّـل ذلك إزالة الحواجز التي اعترضت سير الحرية السياسية في الولايات المتحدة ، حتى سارت هذه الحرية شوطاً بعيداً في مضمار التقدم والفـلاح . ولـكن الذي يدعو إلى العجب والدهشة أن مشكلة الرق التي كانت موضوع عنـاية رجال الدستور الأميركي حتى السنين الأخيرة ، لم تنل اهتمام أحد منهم حين ظهورها .

ولنضرب الآن مثلاً آخر نبين به كيف أضرّ الضغط المتزايد على الحرية الثقافية إضراراً

بالغاً بكل من الحرية الاقتصادية والحرية السياسية . ويدور مثلنا هذا على اليونان في العصر الكلاسيكي والعصر البيزنطي :

إن اليونان بانغماسهم في ثقافتهم الشخصية قد أضعفوا — قبل الأوان — رغبتهم في الدفاع عن استقلالهم ، وقد نتج عن هذا الارتقاء الشخصي أن صار الفرد اليوناني عبداً للسيد الروماني الفظ القاسي ، وصار البيزنطي التاعس الحظ في آسية عبداً لنظام الأتراك البربري .

وليس من الحق أن نوجه اللوم في هذا إلى بعض الشخصيات اليونانية الممتازة ، لأن اليونان كانوا مستمتعين وقتئذٍ بالاستقلال ، وما دام الأمر كذلك فإنهُ لا ينتظر أن يختلفوا في أخلاقهم عن غيرهم من الأمم المستقلة . ولكن إذا نظرنا إلى هذه القضية من ناحية أخرى رأينا أن تحرير العقل ، بمثل هذه السرعة الظاهرة ، يُفضي عادةً إلى فقدان عناصر القوة في الخلق الذي يستقرُّ فيهِ الاستقلال ، وبضياع الاستقلال قضي قضاءً تامًّا على الصفات الأدبية للثقافة اليونانية . وإننا نرى من هذه الملاحظات التي لا سبيل إلى إنكارها أو تجاهلها أن نظرية ماركس القائلة بأن الحرية السياسية من دون الحرية الاقتصادية لا قيمة لها ، بعيدة عن الصواب . وهذا ما يحملنا على القول بأن السعي الجدي لتحقيق نظريةِ ماركس في الحرية الاقتصادية قد أدَّى إلى هدم الحرية الثقافية ولم ينجح في إيجاد الحرية السياسية .

***

وفي ضوء الأمثلة التي أوردناها فيما تقدم نقول إن كل تقدم ناقص غير متناسق الأجزاء في الجهة الواحدة يسبب خسارة الحرية والاستقلال في الجهة الأخرى . وقد أثبتت الوقائع التاريخية والاختبارات العلمية والعملية أن أضمن وسيلة لنجاح الحرية هي أن تزول بالتدريج الحواجز والموانع التي تعترض طريقها مع الاحتفاظ التام بجميع الفوائد التي أدركتها البشرية في هذه السبيل .

ففي الولايات المتحدة مثلاً نرى أن الحرية السياسية لا تحتاج إلى إصلاح أو تحسين في حين تحتاج الحريةُ الاقتصادية والحرية الثقافية في هذه البلاد إلى الإصلاح والتحسين . ثم إن التوزيع الناقص للفرص التي تنهض بالحرية الاقتصادية قد أدَّى إلى الكساد الحالي في ميدان الحرية الاقتصادية ، وفي هذا الميدان يجب أن يفوز العالم بقسط أوفى من هذه الحرية في المستقبل القريب .

وفي ختام بحثنا نقول إن رأي روسو القائل بوجوب تحرير الإنسان من قيود الثقافة ليكون كاملاً ، يعد اليوم رأياً خيالياً لا مبرر له في نظر العلم ، لأننا نعلم أن الإنسان إذا تحرر من بعض هذه القيود سيسعى حتماً إلى تقييد نفسه بأغلال جديدة ، إذ ليس في الطبيعة البشرية توازن له من القوة ما تستطيع أن تعزز به نفسها . لذلك فالعقل والخلق الأدبي ضروريان كل الضرورة لتأييد التوازن الاجتماعي وتثبيته من جهة ، ولمنع المجتمع البشري من الانحطاط والتدهور من جهة أخرى .

إن علم وصف الإنسان الشامل المعروف « بالانثروبولوغيا» Anthropology « أرانا أن كثيراً من الثقافات البشرية التي كنا نحسبها أساسية جوهرية قد انطوت على عناصر ضعيفة من التقدم الاجتماعي · وقد وقفت هذه العناصر حاجزاً ذاتياً دون التقدم العام . ولكن على الرغم من ذلك صح ما ذهب إليه مفكرو القرن الثامن عشر من أن الرغبة في إدراك التقدم في الحرية كائنة في كل مكان في الطبيعة البشرية ، فبشيء بسيط من التعديل في أسس أولئك المفكرين نستطيع اليوم أن نبني مبادىء الحرية على الأساس نفسه تقريباً ، لأن الفرق الجوهري بين وجهة نظر أولئك المفكرين وما يجب أن تكون عليه الحرية في يومنا هذا كائن فقط في الموقف الجديد الذي أوجدته نظرية النشوء والارتقاء في هذا القرن .

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن المفكر الألماني Sessing كوّن رأياً يمكن موازنته بهذا الرأي ، إذ عالج موضوع الحرية فقال : « إن مبادىء الحرية يمكن أن تصيب نجاحاً في هذا القرن إذا طبقت في العالم كله فكرة التعليم » وإذا نحن أحللنا تطبيق فكرة النشوء والارتقاء محل فكرة التعليم العالمي لم يعد هناك فرق يعتد به بين وجهتي النظر المتقدمتين .

***

وخلاصة القول أنهُ لن يتسنى للحرية أن تدوم وتثمر إلاّ إذا ارتكزت على أسس علمية وتعليمية صحيحة ، وسايرت سنة النشوء والارتقاء ، ورسخت فيها جذور حية من المبادىء الأدبية الخالدة .

(القدس)

صاحب المزمار

أقصوصة للكاتب الأسباني « بلاسكو ايبانيز »

نقلها عن الترجمة الفرنسية : صديق شيبوب

كان معروفاً في الريف المحيط بمدينة بلنسية لا يجهله أحد من سكان القرى والمزارع ، وكان صوت مزماره لا يكاد يسمع في إحداها حتى يسرع إليه الأولاد وتتنادى النساء ويخرج الرجال من الحانات .

ديموني ، هذا هو : ديموني .

أما هو فكان ينفخ في مزماره متورّم الخدين ، فاتر العينين ، غير عابئ بهذه الحفاوة الشعبية كالصنم لا يبالي بما يثير حوله من إعجاب . وكان أبداً يُرى متأبطاً مزماره إلاّ إذا اشتدّ به السكر فسقط حيث هو في الحانة أو نام في أحد الأهراء فوق أكداس التبن ، فكأن مزماره عضو جديد وهبته إياه الطبيعة في طفرة موسيقية عجيبة .

وكانت النساء على سخريتهنّ بهذا الأفاق الشريد قد وجدنَ فيه كثيراً من الجمال . . . كان مديد القامة ، مفتول الأعضاء ، مستدير الرأس ، عالي الجبهة ، كثيف الشعر ، أقنى الأنف في حدبة جريئة . وكان منظره ينم عن جلال وصفاء كأنهُ أحد نبلاء الرومان .

كان « ديموني » سكّيراً . ولم يكن الفن العجيب الذي يستنطق به مزماره يثير من الاهتمام قدر ما يثير سكره العنيف في المجتمعات الكبيرة .

وكانت شهرته بالزمر تحمل جميع القرى على دعوته إلى الاشتراك في حفلاتها ، فيحضر بقامته الطويلة مدشياً ، صامتاً متجهماً ، يتأبط مزماره ومعه صبي يحمل طبلاً صغيراً ينقر به

وديموني يزمر . وكان من عادته أن يختار صبية من امثاله المشردين ، فيلازمه الصبي ملازمة ظله في غدوه ورواحه ، وفي نهاره وليله، فلا يغادره حتى يدمن الشراب إدمانه .

لم يكن أحد في المقاطعة يجاري ديموني في فنه ، على أنه كان يكلف الذين يسرهم أن يدعوه إلى حفلاتهم مشقة كبيرة ومالاً موفوراً . فقد كان عليهم أن يراقبوه منذ وصوله إلى القرية، وأن يتوعدوه بالضرب إذا دخل الحانات قبل قيام الحفلة، غير أن تعبهم كان في غالب الأحيان يذهب سدى . فكم من مرة ، وهو في طواف كنسي ، عزف النشيد الوطني عند مروره بحانة القرية ، أو صلاة الموتى عند وصول الطواف إلى الكنيسة حيث يجب عزف نشيد الابتهاج .

وكان القوم يضحكون من غفلته هذه ومن استهتاره بالحفلات الكنسية ، وكان غلمان القرية يطوفون به هازئين ساخرين من تظاهره بالجد في سيره قدّام صليب القرية . وكثيراً ما رفعوا قِبَل عينيه كأس نبيذ ، فكان ينظر إليهم في خبث كأنه يقول لهم : « إلى وقت قريب » .

وكان هذا الوقت القريب كل سعادة ديموني ، لأنه يمثل له انتهاء الحفلة وخلاصه من رقابة وجهاء القرية واستئناف حريته في الحانة .

***

هناك ، بجوار الدنان الملأى بالنبيذ الأحمر القاتم ، بين المناضد المكسوّة بالصفيح عليه آثار الأكواب المستديرة ، وسط روائح الزيت والثوم والسمك المملح والسردين المشوي ، تحت سقف الحانة يتدلى منه لحم الخنزير والنقانق ، وقد تكاثف عليه الذباب . هناك كان ديموني يشعر بأنه في محيطه .

أما الحانة فكانت تحس بالزهو عند حضور هذا الضيف، وفي إثره عدد كثير من المعجبين به حتى إن صاحبها كان يحار كيف يلبي طلب كل واحد من الجمع الحاشد ، ويسرع في ذلك . وكانت تتصاعد في جوّ الحانة رائحة الصوف وريح الأقدام ، وكان هذا الجمع الجمّ يُرى على ضوء مصباح يتطاير منهُ الدخان ، وقد جلس بعضه على القاعد الخشبية المربعة ، وقعد بعضهُ القرفصاء ، وكل واحد يمسكُ بيده الخليطة أسفل وجهه كأنه يخاف أن تتقطع أوصاله من شدّة الضحك .

ثم لا تلبث الأنظار أن تتجه نحو ديموني ومزماره .

— الجدَّة ، انفخ مثلَ الجدَّة .

فلا يأبه ديموني في بادئ الأمر للملتفين به ، ولكنه لا يبطىء أن يتناول مزماره وينفخ فيه مقلداً صوت الجدَّات العجائز بين ضحك الحاضرين وسرورهم .

ثم يسألونه أن يقلِّد السكِّيرة . وكانت فتاة مشرَّدة تنتقل من قرية إلى أخرى تبيع المناديل وتنفق كسبَها في شرب الخمر . والطريف أن السكِّيرة كانت كثيراً ما تشهد هذه الاجتماعات وتضحك قبل جميع الجالسين ، بل أكثر منهم ، حينما يقلدها ديموني بمزماره وهي تنادي لبضاعتها وتخاصم النساء اللواتي يقبلن على الشراء .

فإذا استنفد ديموني ألحانه المرحة ومشت الخمر فيه مال إلى أنغام شجية ، فيصمت الحاضرون مأخوذين . وكان عندئذٍ يحاكي زقزقة العصافير وحفيف السنابل في الحقل والرياح تداعبها ، ورنين النواقيس المتباعدة .

كان القوم عند ذلك لا يشعرون بالميل إلى السخرية من ديموني ومن ألحانه الجميلة ولا من الضرب الذي ينهال به ، بين حين وحين ، على الصبي الذي ينقر بطبله الصغير ، وذلك لأن فنه المحكم قد أثر في نفوسهم الطيبة . بل كانوا يعجبون بهذا السكِّير الذي يُشجيهم بمزماره وهو لا يتركه إلاَّ ليشتفَّ الكأس في عبَّة واحدة .

ولم يكن قط يتكلم ، لذلك لم يعرف أحد من أمره شيئاً . وإنما اشتهر بأنه من مدينة « بنيكوفار » حيث يملك بيتاً قديماً احتفظ به لأنهُ لم يجد من يشتريه ، وبأنهُ باع ما ورث من والديه من أطيان ومواشٍ فأنفق الثمن في الشراب . أما أن يتعاطى عملاً ما فكلاَّ ، وألف مرَّة كلاَّ . إنه ولد ليكون سكيراً ، وما دام مزماره بين يديه فهو لا يعدم الطعام . وكان ينام في آخر الليل سكران في إحدى زوايا الخانة أو في أحد أهراء القرية ، وينام الصبي عند قدميه كأنه كلب صغير ، وهو لا يقلُّ عنهُ سكراً .

***

لم يدر أحد كيف تمَّ اللقاء ، ولكنهُ كان من الواجب أن يكون ، فكان ... اتصل ديموني بالسكِّيرة وتحابَّا .

كان كل واحد منهما يسلك مسلكه في عالم السكر ، فالتقيا واتحدا ليسيرا معاً في طريق واحدة . وقد صارت المؤاخاة التي قامت بينهما إلى الحب ، فانقطعا إلى البيت الذي في قرية « بنيكوفار » يخفيان فيه سعادتهما . وكانا ينظران طول الليل إلى النجوم تضطرب في السماء من خلال الثقوب الواسعة في سقف الغرفة التي ولد فيها ديموني ، وكان البيت متداعياً . وقد حدث لهما في إحدى الليالي العاصفة أن سقط المطر عليهما من السقف فهربا من غرفة إلى غرفة حتى انتهيا إلى كهف منمي في أحد أركان المنزل نسج العنكبوت فيه خيوطه ، فأويا اليه ليزدهر بين جنباته ربيع حياتهما .

ولماذا يقبلان على الزواج وهما لا يقيمان وزناً لأقاويل الناس ؟ إن الشرائع والتقاليد الاجتماعية لم تُسنّ لهما . يكفيهما أنهما يتحابّان ويجدان كسرة خبز للغذاء وحانة ترضى بأن تسقيهما الخمر على أن يدفعا ثمنها حين يكسبان بعض المال .

***

كانت علامات التفكير تظهر على ديموني كأنّ باباً مجهولاً قد انفتح في مجرى حياته، فأبصر منهُ سعادة عظيمة لا عهد له بها . لقد كان ولعه منذ حداثته : المزمار والخمر . أما الآن وقد بلغ الثامنة والعشرين فإنهُ زهد في الشرب بعض الزهد وصار يشعر بأنه يُذوب ، كما تذوب الشمعة المتقدة ، وهو بين ذراعي صاحبته تلك السكيرة النحيلة الجسم كأنها الحشرة القبيحة المنظر ، السوداء الوجه من فرط ما أحرقتها نار الخمور الملتهبة في أحشائها ، تلك المخلوقة الحادة الغريزة التي تضطرب كالوتر المشدود ، التي تمثل في عيني صاحبها أبعد معاني الجمال . وكانت سعادتهما عظيمة، وكانا لا يقنعان بالتنعم بها في البيت، فكانا يتداعبان خارجه بين أيدي الناس ... في مجونٍ صافٍ .

وكان الحب والخمر قد أكسبا ديموني جمالاً وقوة على حين زادا في نحول صاحبته وسواد بشرتها . وكانت تعنى به كل العناية وتهمل نفسها حتى إنها كانت ترتدي ثياباً ممزّقة .

وصارت لا تفارقه أبداً لأن شاباً وسيماً مثله عرضة لأخطار جمة . فهي لا تكتفي بالانتقال معه في جولاته الفنية بل تبرز إلى جانبه وهو يسير في الحفلات الدينية ، غير عابئة بما يقال ، مسددة لحاظها إلى جميع النساء في قسوة تنم عن عداوة .

وقد برزت ذات مرة وعليها أمارات الحمل ، فأغرق الناس في الضحك، حتى كادوا يفسدون مغزى الحفلة الدينية .

أما هو فكان ينم مظهره عن لذة الظفر . كان يمشي نانخاً في مزماره كأنه أنف طويل ينساق إلى السماء ، وإلى جنبه الصبي يحمل الطبل الصغير ، وإلى جنبه الآخر السكيرة وقد استدارت فارتفعت ثيابها الممزّقة وظهرت ساقاها النحيلتان كأنهما ترقصان في حذائهما الواسع ، وهما جافتان قذرتان كالنقّارة التي ينقر بها الصبي الطبل .

وقد أثار هذا المنظر اشمئزاز رجال الدين ، فحاولوا أن يحملوا ديعوني على الزواج وفقاً للمراسم المتبعة : فأبى ، فمنعوه دخول الكنيسة والاشتراك في الحفلات الرسمية ولكنهم لم يستطيعوا أن يستغنوا عنهُ أيام الطواف في المدينة .

***

على أن السكيرة لم تلد، أعسرت فانتُزع الجنين انتزاعاً، فقضت بمرأى من عيني ديعوني المذعورتين . ولم يدرِ ، وقد رآها تلفظ نفَسها الأخير من غير توجع ولا حشرجة : أذهبت هي إلى غير رجعة أم نامت كما كانت تنام عند قدميه إعياءً وسكراً ؟ .

كان للنبأ دويٌّ عظيم في قرية « بنيكوفار » فاجتمع الأهلون على باب البيت القديم ليروا السكيرة مدرجةً في النعش وديعوني بجانبها يبكي وقد انحنت قامته الطويلة وتهالك رأسهُ كأنهُ ثور حزين .

ولكنّ أحداً لم يتواضع فيدخل البيت . ولم يمش في الجنازة غير عدد قليل من أصدقاء ديعوني المشردين مثله .

وكان هؤلاء قد أمضوا ليلاً ساهراً بجانب الجثة. وكانوا في كلّ ساعة يذهبون إلى الحانة فيملأون قارورة خمراً حتى نال منهم الشراب فناموا . ولما أشرقت الشمس وأرسلت أشعتها من خلال ثقوب السقف استيقظوا فوجدوا أنفسهم نياماً حول الميتة كما كانوا يفعلون في بعض الليالي وهم مطرّحون سكارى لا يلوون على شيء .

أية دموع ذرفوا عليها ؟ .. إنها تنام الآن في نعشها ، نعش الفقراء ، لا تستطيع النهوض لتأخذ قسطها من لهو مجلسهم . تعساً لها من حياة ... أهذه نهاية كل حيّ ؟ ..

وقد بكى هؤلاء السكارى طويلاً . وكان الحزن والسكر يعتلجان في نفوسهم وهم يحملون

النعش إلى المقر الأخير . وقد شهد كل أهل القرية الجنازة من بعيد . وكان النساء يُغربن في الضحك من المنظر العجيب . كان أصدقاء ديموني يتمايلون يميناً ويساراً والنعش فوق أعناقهم يهتز كأنهُ باخرة عتيقة وسط عاصفة هوجاء . وكان الغلمان يطوفون بهم كعادتهم في الحفلات، وكان الناس يضحكون كأن الجنازة مهزلة وكأن الفتاة ماتت شهيدة نشوة عنيفة .

أما ديموني فلم يكن قد استفاق بعدُ من سكرة أمس ، فكانت دموع الخمر تمتزج بدموع الحزن على رفيقة عمره ونديمة شرابه . وبعد أن أودعها اللحد ذهب إلى الحانة وتناول الأقداح بيده ، وكانت لم تنفض بعدُ أثرَ التراب المهيل .

***

تغيرت حال ديموني منذ ذلك اليوم . ودَّع الأسفار البعيدة والليالي الجائشة في الحانات. لقد اعتزم ألاّ يغادر قريته أو يشترك في الحفلات الدينية .

وتوكيداً لاعتزامه أطلق الصبي من خدمته والتزامه . فقد كان يؤمل أن يرزق من صاحبته غلاماً يرافقه في غدوه ورواحه بدلاً من هذا الأجير . أما الآن فهو وحيد . هل يشعر بالسعادة حيناً ليصير إلى هذه المأساة ؟ . حالتان لم يعرفهما قبل أن يحب السكيرة . فلم يجد غير الشراب صديقاً ومعزياً .

كان يلزم داره طول النهار ، فاذا جاء الليل تسلل إلى خارج القرية كأنهُ لص حتى يصل إلى المدفن ، فيدخله من ثغرة في أحد جدرانه.

وكان العمال عند عودتهم إلى القرية في المساء يسمعون أنغاماً ناعمة شجية تتصاعد من بين القبور ، فينادون :

أهذا أنت يا ديموني ؟

فتصمت الموسيقى في وجوه هؤلاء الجبناء الذين إنما يتكلمون ليستروا جَزَعهم ورعبهم .

فاذا ابتعد وقع خطاهم وخيمت السكينة على الحقول ، استردَّت الموسيقى أنغامها في جوف الظلمات كأنها إرنان طفلٍ ينادي أمًّا لن تعود .

الحيوان المنسي

لللأب أنستاس ماري الكرملي

توطئة

الغاية من وضع هذه المقالة إرشاد القارئ إلى الألفاظ العربية لأسماء حيوانات مذكورة في تآليف الغربيين ، لكنها غير منصوص عليها في مصنفات من تقدّمنا ولا مذكورة فيها بالأسماء التي نتعرّض لها هنا .

والذي أهاب بنا إلى هذا العمل ، أننا وقفنا في أسفار الأجانب ، وتآليف أدبائنا على مقالات شتى ، يذكر فيها أصحابها : أن العرب أمعنوا في أصقاع آسية وإفريقية وأميركة منذ عهد واغل في القدم، من غير أن يدروا كيف تم ذلك ولا كيف بلغوها ، مع ما كان لديهم من الوسائل البسيطة الضعيفة التي لا تمكنهم من تحقيق أمانيهم . وقد أيد أصحاب تلك الآراء ما أتوا به من أدلة ليست بسهلة التجريح ولا بهينة النقض ، ولا يمكن أن تنكر .

فجئنا نحن لنؤيد تلك الأقوال ونسندها بما بدا لنا من أسماء بعض الحيوانات التي لم يتمكن العلماء من معرفة معناها الأصلي، كما لم يتمكن أرباب تلك الأنحاء من شرح سبب تسميتها . فنلقي هذه الدلو في الدلاء دعماً لما ذهبوا إليه . أي أن العرب رحلوا إلى تلك الأرجاء منذ أقدم الأزمنة ، فوضعوا لها تلك الأسماء التي لها معنى يؤيد سبب وضعها في العربية ولا معنى لها في لغى أهل البلاد الموجودة فيها تلك الحيوانات . فنقول :

١ — ﴿ الكميشيّ أو الشاجّة ﴾ : في أميركة الجنوبية طائر غريب الأمر ، وعجيب الشكل ، اسمه العلمي Palamedea cornata أو Annima وكثيراً ما يدجنه أهالي تلك الأرجاء الوطنيون ليودعوه حراسة الدجاجيات من مخالب الجوارح ومن أنياب الضواري فيدفع عنها عواديها . وهو يمتاز بقرن طويل مزجج يزين رأسه ، وهو في الوقت عينه آلة يدافع بها عن نفسه وعمن يناضل عنه . وله في كل من جناحيه مهماز مسنن للغاية عينها . وأما منسره ورجلاه وساقاه فتشبه ما كان من هذا القبيل في الدجاجيات . ويتصل بالبط والوز من جهة بنية خلقه ، واسمه بالإنكليزية Kamichi .

ومن أسماء الكيشي : (الناعق الأقرن) وهو ترجمة الانكليزية Horned Screamer والشاجة . وسمي (ناعقاً) لأنه ينعق بعدوه إذا ما رآه قادماً إليه، فان ارتدع فبها ونعمت ، وإلاَّ فإنه يطعنه بقرنه المسنن ويورده حياض المنايا .

واسمه الثاني (الكيشي) مشتق من الكش، يقال : كش فلاناً بالسيف : إذا قطع أطرافه فهو فعيل بمعنى فاعل، وزيدت الياء في الآخر للمبالغة كما قالوا : أحمر وأحمري، ديار ودياري، دوار ودواري ، إلى نظائرهنَّ . وذلك لسبب فتك هذا الطائر بقرنه فهو كالسيف القاطع .

واسمه الثالث : الشاجة ، اسم فاعل من شج رأسه يشجه : جرحه وكسره . وزيدت التاء للمبالغة أيضاً كما قالوا : راوية والأصل راوٍ . وبالانكليزية Chaja وبلسان العلماء Chauna Chanaria وهذه اللفظة مترادفة لما ذكرناه في صدر هذا البحث .

٢ — ﴿ الكانس ﴾ : واسمه بالإنكليزية Kanchil قال لغويوهم : إن هذا الاسم ماليزي الوضع، أما نحن فنراه من نجار عربي هو كانس ، من كنس الظبي يكنس (بالكسر) كنوساً دخل كناسهُ . وهو ظبي ظريف الشكل رشيق القوام سريع الحركة ، اسمهُ العلمي Tragulus Pygmaeus أو T. Kanchil ويرى في جزر زانج أي في جاوة وسومطرة وما جاورها من الخُرص (أي جزر البحار) ويحتال على صائده بأن يكنس في كناسهِ حالما يراهُ مقبلاً إليهِ ليصطاده .

٣ — ﴿ كانّ الجرو أو كانّ الأجرية ﴾ : كانّ الجُرْو ، بكاف مفتوحة يليها ألف فنون شديدة وهي مضافة إلى الجرو المثلثة الجيم، وهو صغير كل شيء حتى الحنظل والرمان والبطيخ والخيار ، وغلب على ولد الكلب والأسد . ومعنى (كانّ الجرو) مخفي ولده الصغير ، وذلك أن لهذا الحيوان جراباً في أسفل بطنهِ يخفي فيهِ أجراءَه كل مرّة يرى خطراً على نفسهِ ولاسيما على فراخهِ ،وهـذا يرى في الأنثى فقط . ويكتب اسمهُ بالإنكليزية هكذا Kangaroo وبالفرنسية Kangouroo أو Kangourou وسماه بعض كتّابنا المعاصرين (القنقر) وزان جعفر ، من باب التعريب . ونحن نفضّل العودة إلى الأصل العربيّ وهو واضح كل الوضوح ويقال في جمعه : (كوانّ الأجرية) أو (كانّات الأجرية) واسمهُ العلميّ Macropus Major وموطنهُ أسترالية ولا يرى في غيرها من البلاد . ونكتفي بهـذه الكلمة ، لأن غايتنا ذكر الأسماء دون وصف الحيوان، ومن أحبَّ التوسع فليراجع الكتب الموضوعة في علم الحيوان.

٤ — ﴿ القهقة ﴾ القهقةُ[1] ، وبالإنكليزية Kaka قيل في أصل الكلمة إنها من اللغة

(١) راجع الذيل

الماورية ومعناها الببغاء ، وقال الإنكليز : إنما سمي بحكاية صوته فكأنهُ قهقه . فقد يكون ذلك وقد يكون أنه سمي بالقهقهة من العربية ، فهذا الفعل معروف في لغتنا وغير معروف في لغى الغير ، واسمهُ العلمي نسطور الجنوبي Nestor Meridionalis وهو ضرب من الببغاء موطنهُ نيوزيلندة . والقهقه الجبلي واسمهُ العلمي نسطور الجليل N. Notabilis معروف بحرصهِ على أكل اللحم . ولذا يتهجم على الحملان والخنانيص ليفترسها ، ولهذا أيضاً يطارده أهل تلك البلاد درءًا لكل ضرر عن صغار الحيوانات من ذوات الأربع .

٥ — ﴿ القحقاح ﴾ : القحقاح وبالإنكليزية Kahkapo وبلسان العلم Strigops Habroptilus طائر من جوارح الليل يشبه الببغاء كل الشبه ، وموطنهُ نيوزيلندة يقضي نهاره في النقوب ويسعى لرزقهِ في الليل ، ولون ريشهِ كلون ريش البوم وكذلك ظاهر خلقهِ . وأجنحتهُ عريضة ، وهو لا يستطيع أن يطير مدة طويلة . ومن أسمائهِ (البوم الببغاء) و (ببغاء الليل) و (قهقه الليل) . والقحقاح مشتق من العربية ، من قولهم : قحقح القرد : إذا ضحك . وصوت هذا الطائر في الليل يشبه قحقحة القرد ، ومنهُ اسمه .

٦ — ﴿ القبع ﴾ القُبع كزفر هو الذي يسميهِ المصريون (أرنب هنديّ) أو (رومي) وبالانكليزية Guinea Pig وبالفرنسية Cobaye وبلسان العلم Cavia Cobaya واللفظ العربي من القبوع ، لأنهُ كثير القبوع أي النخير وهو صوته وإن لم يكن شديداً كقبوع الخنزير (المقتطف ١٠٤ : ٢٠٠)

٧ — ﴿ الجوب ﴾ : ظبي موطنهُ غربي إفريقية ، اسمهُ الانكليزي Guiba أو Guib والعلمي Tragelaphus Scriptus وهو مخطط الجلد تخطيطاً غريباً ، فانك ترى عليهِ نكتاً وجدداً حميراوات ، على مفترشٍ أصحر . ومن أسمائهِ (الظبي المكتَّب) أي المخطط خطوط الكتب . وأما اسمهُ (الجوب) فمن العربية ، من جاب الأرض يجوبها جوباً : إذا قطعها ، لخفة تنقّله من أرض إلى أرضٍ بسرعة مدهشة .

٨ — ﴿ القاهي أو القاهة ﴾ : (القاهي) أو (القاهة) قرد طويل الأنف حديد الفؤاد اسمهُ الانكليزي Kahau أو Kaha واسمهُ العلمي Semnopitecus Nasalis موطنه برنيو من جزر أرخبيل الصُنْد . والغالب على لونهِ الكبدة اللامعة ، ولون بطنه وكتفيهِ وجانبي هامتهِ أصفر ذهبيّ وأعلى رأسهِ ورقبتهِ أسمر . ومن أسمائهِ عند الانكليز ما معناه القرد الخرطم : Proboscis Monkey . ويقولون : إن اسمهُ مأخوذ من حكاية صوتهِ . والذي عندنا أنهُ من أصل عربيّ صميم ، فقد قال اللغويون في تفسير القاهي : الحديد الفؤاد المستطار أي المُسْرع الجري . وهو كذلك .

٩ — ﴿ العداء ﴾ : العَـدَّاء من ظباء إفريقيـة العظمى ، وهو مشهور بشدة عدوه واستطارته ، ومنهُ اسمهُ العربيّ ، وباللاتينية Addax وبلغة العلماء Hippotragus, or Oryx, Nasomaculatus أي الأرخ المبقّع الحَطم . وهو ملويّ القرنين ، وكان يعرفهُ الأقدمون . ويظن لغويو الإنكليز أن اسمهُ إفريقي الوضع ولم يعرفوا أنهُ من العربيـة (وراجع المقتطف ١٠٤ : ١٩٩)

١٠ — ﴿ القموص ﴾ : القَمُـوص من أجمل الظبَـاء وأبدعها خلقة وأسرعها حركة واستطارة . واسمهُ واضح الأصل العربيّ ، وهو فعول من القمَاص كَسَراب وغراب ، وهو الوثب المشهور بهِ هذا الحيوان الظريف الرشيق . ووُزن زنة فعول للمبالغة في وثبهِ . واسمهُ بالفرنسية والإنكليزية واحد Chamois وبلسان العلم Rupicarpa Tragus ويُرى على رؤوس الشوامخ من جبال أوربة كالألب والبِرَانس وما ضاهاها . والصيادون يفتخرون بصَيْدهِ ، لأنهم لا يحصلون عليهِ بسهولة (راجع المقتطف ١٠٤ : ٢٠٠) .

١١ — ﴿ البواع ﴾ : البَـوَّاع ثعبان هائل العظم يسمّيهِ الإنكليز والفرنسيون باسم واحد Boa . ويقول الأولون إن الكلمة من Boa اللاتينية وهو ضرب من حيَّات الماء ، ولعلّ أصلها Bos وهي الثور لعظم خلقها . وأما الآخرون فيقولون إنهـا من اللاتينية Bos ومعناها القُلْب وهي الحُفَّـاث أيضاً ، وموطن البوّاع أميركة الجنوبية والوسطى وجُزُر الأنتيـل . والاسم يشمل البواع العَصَّار ، وبلسان العلم Boa Constrictor والبوّاع الأنبراذور B. Imperator ويكون في المكسيك ، والبواع الفارس B. Eques ويكون في بيرو . ويبلغ طولهُ أكثر من ستة أمتار ، وطعامهُ صغار ذوات الثدي ، فهو يهجم عليها ويلتف عليهـا التفافاً حتى يعصرها عصراً فتختنق . وهو مولع بنوع خاصّ بصغار القوارض فيؤدي للزراع خدمة صادقة . ولا يتعرض للإنسان البتة (راجع المقتطف ١٠٤ : ٢٠٠)

١٢ — ﴿ الشعاب ﴾ : الشعَّـاب ، طائر هو القرّاع والثقّـاب والنقاب والنقّـار ، مضافات إلى الخشب ، وأكثر ما يرى في أميركة وهو الأحمر البطن ، واسمـهُ الشَعَّـاب وبالإنكليزية Chab للقرّاع الخاص بأميركة ، والعلماء لا يعرفون أصل هذه الكلمة . وعربيتها واضحة تفقأ حصرماً في عين المنكر لهـا ، وهي من شَعَب الشيء : صدمهُ . وهو يشعب خشب الأشجار ليستخرج ما فيها من الدود والهوام المختلفة ، واسمهُ العلميّ Melanerpes Carolinus أي القَرَّاع ، والشَعَّاب الكارولينيّ نسبة إلى كارولينة من ديار أميركة .

١٣ — ﴿ القلب ﴾ : القُلْب ، بضم القاف ، هو على ما في كتب متون لغتنا : الحيَّـة البيضاء ، ولم يزيدوا على هـذا القَدْر ، واظن أن هذا الحرف ينظر إلى اللاتينية Coluber

أو إلى مؤنثها Colubra بمعناها، وبالفرنسية Couleuvre وبالإنكليزية Common Snake وهي حيـة بيضاء لا تؤذي، وهي كثيرة الوجود في منازل الأهلين في العراق، لكن الناس يهابونها لجهلهم حقيقتها ويخافونها خوفاً عظيماً، لظنهم أنها سامة وقتـالة. وقد قبضت على كثير منها، فهي تعض بفمها [2] لـكنها لا تؤذي لعدم وجود ناب فيها. والبغداديون يسمونها (غزالية) نسبة إلى الغزال للونها الأبيض الغزالي. وأما القلب فاسمها العربي الفصيح القديم ولا بد من أن الأجانب اقتبسوها منـا أو أننا نحن اقتبسناها منهم بحذف الهجاء الأخير من اللاتينية [3]

(الذيل)

(١) القهقه، هنا فعل ماض مبني على الفتح، وقد عد هنا اسماً ودخلت عليه أداة التعريف. ولا غرابة في هذا، فقد ورد مثله في كثير من كلام الاقدمين منا. فقد ورد عنهم أنهم قالوا: القال والقيل، مبنيين على الفتح: الاول فعل ماض معلوم والثاني فعل ماض مجهول. وقيل غير هذا القول، لـكن المشهور ما أوردناه هنا وهو الغالب في آرائهم.

ولا عجب في دخول (ال) على الفعل، فقد قال السلف: الـكنتي (وزان الـكردي) والـكنتني (بزيادة نون بعد التاء المثناة الفوقية) وهو أغرب للـكبير العمر، وهو منسوب في كلا اللفظين نسبة يندر ورود مثالها. قال الشاعر:

وأصبحت « كـنتياً »، وأصبحت عاجنا ... وشر خصال المرء « كـنت » وعاجن

وهو الذي يقول « كـنت » في شبابي كذا وكذا. و (كـنت) الواردة في العجز منونة مرفوعة.

وقالوا: « اليلمعي » بياء النسبة في آخر المضارع « يلمع » من لمع يلمع. ثم قلبوا الياء ألفاً فقالوا: « ألمعي » والاصل ما ذكرناه وقالوا: « اليرنأ » وهو ماض بصيغة المضارع المعلوم وهذا أعجب وأغرب. قال ابن جني: « وقالوا يرنأ (زنة بفتح ويفتح الآخر) لحيته: صبغها باليرنأ. بضم الياء المثناة التحتية، وفتح الراء وشد النون المفتوحة. وفي الآخر همزة مكسورة). وقال: هـذا يفعل (بالفتحات وسكون الفاء) في الماضي. وما أغربه وأطرفه! اه (عن اللسان في ز ن أ)

وقالوا: الـكان كان مبنيتين، لنوع من الغناء في عهد العباسيين. الى غير ذلك.

(٢) كـنت أقمت في جبل الـكرمل سـنة ١٩٢٤ و ١٩٢٥ وأذهب كل صباح الى دير الـكرمليات اليوسفيات في عسفيا من قرى ذلك الطود. ولاحظت في صباح ٧ مايو (أيار) من سنة ١٩٢٥، أن الراهبات لا يدخلن قاعة الاكل، صباح ذلك النهار، وهن خائفات مذعورات، فسألت عن السبب، فقيل لي: إن حية عظيماً قد دخل القاعة، ولا تجرؤ واحدة منهن على أن تدخل فيها. فقلت: علي بهراوة، فأعطيتها. ولما ولجت القاعة، وأنعمت النظر في رأسه، وجـدته مفلطحاً، وهو علامة على أنه حفث لا أفعى. فذهبت اليه وقبضت عليه من رقبته وغمزتها غمزاً وقست طوله فاذا هو متر و ٧٥ سنتيمتراً، وغلظه فاذا قطره ثلاثة سنتيمترات غزالي اللون. ولما أمسكته التف على ساعدي التفافاً شديداً وكان يعصره عصراً. فلما رأتني الراهبات أخذن يصرخن ويولولن. فقلت لهن: لا تخفن، فهذا حفاث لا أفعى، وهو ينفخ ليخيفني ولست ممن يقعقع له بالشنان، فلا خوف علي ولا عليكن. ثم وضعت رأسه في فمي، لأبين لهن أن لا خوف علي منه ولا ضرر. فكان إشفاقهن علي أعظم واستطرن جميعهن. ومن بعد أن بقي ملتفاً على ساعدي ساعات، أخذت فهراً وشدخت به رأسه فمات، ولم يقع ما يسوء أحداً.

(٣) إن اعتبرنا القلب من اللاتينية، بخلاف ما ذهبنا اليه، فتكون عربت أولا بصورة (قلوب)، ولم تكن بصورة (قلب) المفردة. ثم عدت جمعاً ومفردها (قلب) بالضم من باب الوهم، كما قالوا غرش أو قرش مع أن الاصل المعرب هو غروش أو قروش أي Groschen الالمانية.

التكيف الاقتصادي

لسعد ابراهيم البحري

التكيف الاقتصادي من القضايا الاقتصادية التي تكون جزءاً من مادة علم الاقتصاد وتستلزم جهداً وعناءً في التفكير .

والاقتصاد علم اجتماعي يبحث في أعمال الإنسان الصناعية . ويستخلص من هذا أن علم الاقتصاد يتناول أموراً ثلاثة ، هي الإنسان ونظام العمل والعلاقة بينهما . أما البحث في الإنسان وطبيعته فذلك من اختصاص علم النفس الاقتصادي . وهو لا يختلف عن علم النفس العام إلاّ في أنه يعني بتطبيق علم النفس على الاقتصاد أو المعاش . ولست أقصد التوسع في هذا الموضوع ، ولكني سأقتصر على ذكر الشيء اللازم لموضوعنا ، فأقول :

في الإنسان جملة دوافع أو غرائز تسيره وتتفاعل فيه ، أهمها ما يلي هذا :

١ — غريزة التسامي : وهي التي تبعث في الإنسان الرغبة في السيطرة والزعامة والقوة .
٢ — « الحيازة : وهي تدفع الإنسان إلى الحصول على الثروة والغنى .
٣ — « العمل : وهي تسوق الإنسان إلى إظهار كفايته وابتكاراته .
٤ — « الحنوّ : وهي تحمله على إظهار اللطف والعطف والبذل والخدمة سواء لأسرته أو بيئته .
٥ — « الاجتماع : وهي التي تجعل الإنسان يأنس بأخيه الإنسان ويشعر بشعوره .
٦ — « الإذعان : وهي التي تجبر الإنسان على الإذعان للواقع أو تجعل العمال ينقادون للزعماء .
٧ — « الجنس : وهي أقوى الغرائز وأفعلها فيما يظن .
٨ — « المنازعة : وهي سبب الأحزاب في النظام القائم .
٩ — « التفكير والاستطلاع : وهي التي تؤدي إلى الاكتشاف والاختراع والتنظيم
١٠ — « الخوف : وهي التي يهاجم التاجر فيحمل همّ الخسارة ، والعامل فيحمل همّ الفصل من الوظيفة .

وأهم خصائص هذه الغرائز أو الدوافع أنها تولد مع الإنسان على درجات متفاوتة، وأنها تؤثر فيه فتجبره على نوع ما من السلوك، وأنها تتحوّل وتنشأ، وأنها تتشابك. ولهذا لا بد أن ينظر إليها نظرة شاملة لفهم السلوك الاقتصادي للإنسان بوجه عام.

فماذا نعني بالتكيف الاقتصادي؟

نعني بالتكيف الاقتصادي التوفيق بين طبيعة الإنسان والنظام، ولإيضاح المقصود بهذه اللفظة لا بدّ من بعض الشرح.

تحيط بالإنسان بيئة اقتصادية هو جزء منها، وفي هذه البيئة يصرف أموره للحصول على الثروة واستهلاكها إشباعاً لرغباته وحاجاته. وتظهر ميول الفرد وأفكاره وأعماله من تصادم طبيعة البشرية والبيئة التي يولد فيها المرء. وهنا تلتقي الطبيعة البشرية بالبيئة، فإما أن تندمج فيها وتستسيغها وإما أن تنفر منها وتسعى لهدمها. وفي هذا التصادم يجري تغيير في الطبيعة البشرية قد نسميه «تضارباً داخلياً» فأحدنا يحب أن يلهو ولكنهُ يقبل على إتمام ما يجب عليه، وآخر يتهافت على جمع المال ولكنه يجود بسخاء لمساعدة مشروع خيري، وآخر موظف كبير يؤثر أن يرقي شخصاً ما أكثر كفاية من قريبه، وآخر يحب أن ينتقد القادة أو الزعماء فيضبط نفسه ليتهيأ له البقاء في العمل أو الترقي فيه. والخلاصة أن بعض الميول يموت جملة وبعضها يعيش والبعض الآخر يتحوّل ويتجه اتجاهاً جديداً. إن هذا الصراع بين الميول الغريزية مستمر، ونتائج هذا الصراع وطرائق التحكم فيه تقودنا إلى تحليل المسلك الاقتصادي للإنسان. إن نتيجة الصراع هو تكييف طبيعة الإنسان الأصلية للبيئة الاقتصادية أو التوفيق بين إظهار الميول الغريزية وكبتها. ففي البيئة الاقتصادية تجد مطامح الإنسان فرصاً للظهور. وفي الوقت نفسه يكون الحد من هذه المطامح شاملا. ومن هاتين الناحيتين نشأت مدرستان للفكر: الأولى تقول بلزوم تغيير الطبيعة الإنسانية، والأخرى تقول بوجوب تغيير النظام الاقتصادي. وبكلمة أوضح إحداهما تقول إن الطبيعة البشرية تحتاج إلى تهذيب وضبط وإرشاد وتوجيه حتى تلائم النظام. والأخرى تقول إن النظام الاقتصادي يحتاج إلى تحويل يلائم الطبيعة الإنسانية. ولكل من هاتين النظرتين فائدتها العلمية، ولكن كلتا النظرتين غير صواب، لأن كلاً منهما تبسط المسألة وتهوّن من شأنها فتبعدها عن إمكان الحل. والرأي الصائب هو التوفيق بين هاتين الفكرتين، فالتحسين يجب أن يتناول الطبيعة الإنسانية مرةً والنظام الاقتصادي مرةً أخرى. وأكثر الأحيان يتناول الطبيعة والنظام معاً. وهذا ما أعنيه بالتكيف الاقتصادي.

والتكيف الإنساني أو النفساني يتم بطرق متعددة ، ولكنَّ أهم أنواعه خمسة :

١ — الترويض — ويقصد بذلك ضبط النفس وتعويدها السير بحسب مقتضيات النظام الاقتصادي، ولولا هذا الضبط لما تقدمت المدنية هذا الشوط البعيد . إن هذه الفكرة واضحة تمام الوضوح في ما كتبه العالم النفسي المشهور ثورندايك فاسمعه يقول : « إن الحياة التي تفرضها الطبيعة الأصلية في الإنسان ربما كانت شبيهة بحياة الذئب أو القرد أكثر مما هي شبيهة بالحياة الحاضرة نتيجة للفنون الإنسانية والعادة والتفكير — تلك التي تظهر في اللغات والآلات والبناء والكتب والعادات . إن الطبائع الأصليَّة في الإنسان لم تكن صحيحة من قبل ، وليست هي صحيحة الآن ، وربما لا تكون صحيحة في المستقبل . وبهذه الطبائع وحدها لا يشعر الإنسان إلاّ بحاجات قليلة في الحياة، وأقل منها ما يتوفر للإنسان إشباعهُ . الإنسان في الوقت الحاضر متمدن عاقل إنساني لأنه غيَّر في الماضي الأشياء إلى أشكال أكثر فائدةً لنفسه وغيَّر أجزاءً من طبيعتهِ الخاصة إلى صفات أكثر فائدةً للإنسان بمجموعه . ولهذا فالإنسان يغيِّر نفسه دائماً لمصلحته . إن طبيعته غير مستقيمة في نظره . ولكن شيئاً واحداً جمَّل حياته هو القدرة على جعل تلك الطبيعة أفضل مما هي عليه الآن، إن السيطرة على هذه الميول الأصلية تحتاج إلى استثمار الميول النافعة والاحتراس من الميول الضارة . إن الدوافع الطبيعيَّة والشهوات الإنسانية يجب أن تُطوَّع وأن تُرقَّى بعادات الحياة المتحضرة وفنونها وعلومها، ولكن كل جزء من هذه الفنون والعلوم خلقتها قوى كامنة في الطبيعة الإنسانية . ولا يمكن الركون إلى الغرائز بتأليف عادات مستحبة إلاَّ بتأثير ضغط اجتماعي قوي، بحيث إن حاجات الفرد تندمج في حاجات المجموع » . ومعنى هذا أن الإنسان يكيِّف نفسه لمصلحة المجتمع، ومفاد هذا أنهُ لا بد من حدوث بعض الضرر النفسي للأفراد ولكنهُ ضرر لازم لسير الحضارة .

٢ — القضاء على الدوافع الضارة — وأهم طريقة لإزالتها هي الإهمال . فالكره والحسد والطمع والقسوة والاضطهاد والمنازعة تتسنى إزالتها إلى حدٍّ كبير . ولا ريب أن روح المزاحمة قد تؤدي إلى تخاصم نفعي خسيس . وبذلك يمكن إحلال التساند من محل المزاحمة للمصلحة المشتركة على أننا نجد أشخاصاً كثيرين في هذا العالم قد تبدَّلت طبائعهم ، فمنهم من مات فيهم الشوق إلى اللعب والمرح أو مات فيهم الحنوّ أو انتفت عنهم غريزة الحيازة أو الغضب أو التفكير ، وعلى هذا فإنه بالقضاء على الدوافع الضارة لا بُدَّ من القضاء على بعض الصفات المستحبة في الإنسان . ولكن البيئة يجب أن تطرح الدوافع الوحشية فقط ، تلك التي لا تلائم روح

العصر والحضارة ، وأن تستثمر الطبائع الممتازة في الجهد الاقتصادي .

٣ — تحويل الميول — وأقصد بهذا الانتفاع بالغرائز الفعّالة في أعمال نافعة، فبدلاً من إماتة هذه الغرائز الخطرة يجب تحويلها إلى اتجاهات مفيدة . من هذه الغرائز غريزة الجنس، وأبرز المفكرين الذين أشبعوها بحثاً هو فرويد . ولكن فرويد نفسه يقول : « إن الدوافع الغريزية تتحوَّل من هدفها الجنسي وتسير نحو غايات اجتماعية عالية غير جنسية » . أي أن الغريزة المتدفقة يمكن تحويلها إلى اللعب أو الفن أو الدين . وقد قال وليم جيمس : إن حب الحرب متأصل في الإنسان ، ولكن يمكن إيجاد الوسائل التي تقوم مقام الحرب . فالإحساس بالعظمة والمجد والبطولة يمكن أن يستبدل به شعور الكرامة في ميدان الاختراع أو تحمل التبعات في ميدان العمل أو الترقي من طريق إجادة العمل أو البروز في الألعاب الرياضية. حتى لقد ذهب بعض المفكرين إلى القول بأن «وراء الشر قوة» لا يتعذر استخدامها والاستفادة منها بواسطة التثقيف والتعليم .

٤ — التسويغ — وأعني به استخراج الأسباب بعد الانتهاء من عملٍ يرغب المرء في إنجازه . أي أن يفعل الانسان ما يشاء ثم يسعى لتفسير ذلك تفسيراً مقنعاً لنفسه ولغيره . مثال ذلك : أن الزعيم يطلب من الشعب البذل والاخلاص في قضية من القضايا فيلتف حوله دون أن يدرك القضية نفسها، فبعد أن يسلم الناس تسليماً أعمى بصدق القضية يبدءون في بحث الأسباب التي حملتهم على التشيع لها . وهنا نستطيع أن نثبت شيئاً يجرى عليه إجماع الهيئة البشرية . ذلك أن الجماعة تعد الشيء المكروه غير صحيح والشيء الجديد غير مقبول،لأنهُ يخالف ما تعودتهُ . وإذا اعتقد الانسان شيئاً تؤمن به الجماعة كان من العسير عليه أن يخرج عن حكم المألوف . وكذلك يود الشخص المتطرف أن تقوم ثورة لأنهُ يرى أن النظام الرأسمالي كله مساوئ وليس فيه عدالة .إن اعتقاد الناس من هذه الناحية أمرٌ لا يرتكز على التفكير أولاً . فاذا أخفق عامل أو صانع أو موظف في عمله فإنه لا يقر بعجزه بل يسعى إلى الإنحاء باللوم على غيره، ويجب أن يقنع نفسهُ بأن الملابسات هي التي عاكسته، كأن يقول إن رفقاءه الموظفين أرهقوه بالعمل أو تدخلوا في شؤونه أو أزعجوه، ولذلك لا يستطيع أن يقوم بالعمل . والرئيس يفرض سلطته على مرءوسيه،لأنهُ يعتقد أنهم لا يتبعون النظام، على حين أن قصده الأول إثبات سلطته.

يحكى أن أحد الضباط جاء إلى اللورد كتشنر وهو في حرب جنوب إفريقية يشرح لهُ الأسباب التي حملته على عدم تنفيذ أمر عسكري . فأجابه كتشنر : « إن الأسباب التي

ذكرتها هي أحسن أسباب سمعتها في حياتي، ولكن اذهب الآن ونفذ الأمر ».

ويمكن أن يقال إن الشخص إذا أراد اتباع ميوله أحاط نفسه بأسباب وفروض تسوّغ عمله وأظهرها بأشكال تلائم طبيعته . في ميدان الاقتصاد نجد التاجر الذي يحس احتمال هبوط السعر في المستقبل ويخشى الخسارة يخفض الأسعار لينفد ما عنده من البضائع المكدسة ، ثم يقول إنه يحارب جماعة المستغلين . والعامل الذي يخشى ضياع وظيفته يشايع فكرة التخريب أو حصر الإنتاج — إنه يفعل ذلك ملبياً داعي الغريزة التي تتطلب حلا وإن كان غير معقول .

٥ — الثورة — ويقصد بها الخروج على أوضاع المجتمع . وسبب ذلك أن فريقاً من الناس لا تلتئم حياتهم مع النظام الاجتماعي مهما يكن سهلاً ، ولهذا إذا عاشوا في محيط صعب أصاب جهازهم العصبي الهدم، فتحدث من جرّاء ذلك حوادث مروعة أساسها الضعف النفسي . ومنشأ هذا الضعف اختلال التوازن بين الميول الغريزية . أما فرويد فقد أرجع الضعف العصبي إلى الغريزة الجنسية التي تحد من ظهورها أحكام المجتمع وعرفه . ولكن غيره من العلماء يرى أن عدم فسح المجال للشخص في إظهار نشاطه الحيوي في المجتمع سبب آخر لاختلال التوازن . وقال آخرون إن أية عاطفة كالحب والكره والجوع والخجل والحزن والخوف قد تؤدي إلى النتيجة نفسها . وقال غير هؤلاء إن الحواجز التي تضعها الهيئة البشرية هي التي توجد خللاً في التوازن العقلي لأنها تعاكس مشارب الإنسان . ومثل هؤلاء الناس إما أن يهملوا أعمالهم ويستولي عليهم اليأس والقنوط وإما أن يعمدوا إلى الثورة . وإذا عمد أحدهم إلى الثورة فليس ذلك ناجماً إلاَّ عن خوفه من ضياع عمله . فإذا أمكن تأمين مورد العيش للإنسان لم يندفع صوب الأعمال الهدَّامة بل نحو التفكير والعمل المثمر والخير العام . وقد ظهرت الديانات والفلسفات في العالم لمقاومة وحشية الإنسان وقسوته، فوضعت الخير المطلق ليحل محل الأنانية والإيمان ضد الخوف .

وهكذا نخرج بالنتيجة التالية، وهي : أن جهاز الانسان يحتاج إلى تنظيم وإرشاد في طرق نبيلة، ويحتاج إلى فرص لإظهار الميول الغريزية الرئيسة التي ليس فيها خطر على المجموع . والآن ماذا يجب أن يقال في تكييف النظام ؟ أو ما هو التغيير الذي يجب أن يصيب النظام الاقتصادي كي يلائم مصلحة الفرد والمجموع ؟ إن هذا السؤال ينطوي على حقيقة هامة وهي أن النظام الاقتصادي القائم ناقص ، ولكني أحسب القارئ يدرك هذه الحقيقة ، فأتجاوزها إلى بحث الموضوع الأساسي .

يتم هذا التكييف (تكييف النظام) بطرق عدة : بطريق المصادفة أو الاتجاه الأعمى أو العنف أو التسليم أو التعاون أو الثورة أو التنظيم العلمي .

إن النظام الاقتصادي واسع الآفاق بحيث إن كثيراً من المفكرين حينما يرون تعقيد مسائله ييأسون من حلها ويقنعون أنفسهم بأن التحسين الاقتصادي آتٍ بطبيعة الحال ولكنهم يتناسون المصائب البشرية التي يفرضها النظام . أما التفكير الصحيح فهو أن التكييف يجب أن يتم على ضوء الحقائق العلمية وبالأسلوب العلمي والفلسفة الأخلاقية الحديثة واكتشاف طرقٍ جديدة للحياة الاقتصادية : إن الطريقة المثلى هي معالجة هذه القضايا — كما قلت — بالبحث العلمي الذي يستوجب الاستقصاء والتجربة والتفكير والملاحظة والتحليل والاستنباط ثم البرهان . ولا يتوافر ذلك إلاّ إذا انصرف المختصون كل إلى عمله ليوفقوا حينئذٍ إلى حل معقول . على أن هذا لا يعني عدم إعطاء الحق لكل فردٍ في التفكير في هذه القضايا ، بل نحن نقول إن عليه واجب التفكير ، وعليه أن يكيّف المحيط الذي يحتويه بقدر ما فيه من مقدرة وشخصية ، أي أن الفرد يجب أن يكون حرّاً طليقاً قادراً على تحسين العمل الذي يزاوله بشرط أن يضبط نفسه ويوجهها توجيهاً رشيداً يلائم محيطه .

يقول جون ديوي في هذا الصدد :

« إن أحسن ضمان للجهد العام هو إطلاق القدرة الفرديّة المتنوعة واستعمالها في الإنشاء والتنظيم وبعد النظر والنشاط والاحتمال . يجب أن نهذّب الشخصيّة . ولا يمكن تهذيبها إذا حصرنا مدى تأثيرها في الأمور الفنيّة أو الاختصاصية أو شؤون الحياة التي ليس لها منزلة عالية ولكن التعليم الكامل يتم حينما يُعطى لكل فرد نصيب في المسؤولية يناسب مقدرته وكفايته في توجيه الغايات ووضع الخطط للهيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها . هذه الحقيقة تحدد معنى الديموقراطية ومنزلتها .... ترقى طبيعة الإنسان إذا اشتركت عناصرُها في توجيه الأمور المشتركة ، تلك الأمور التي من أجلها يكوّن الناس جماعات كالأسرات والشركات الصناعية والحكومات والأديان والجمعيات العلمية وغيرها .. . حينما تعمل مقدرة الإنسان المحرَّرة قوة اجتماعية مبدعة ... وحين يتيسر تحصيل المعاش — من جهة اقتصادية — في ظل حياة جديرة بالكرامة » .

شعب پولندة وطبقاته

لحسين المهدي غنام

---

١ — شعب پولندة

الپولنديون من أقدم الشعوب الأوربيــة ، فقد تحــدث عنهم بطليموس الجغرافي المعروف، في القرن الثاني للميلاد ، وسماهم (البولانيز) ، كما أن جوردانيز من القرن السادس للميلاد يتحدث عن السلافيين الذين عاشوا على ضفاف الفستولا ، ولــكنهُ لم يقطع بتسميتهم قطعاً باتّــا . وفي القرن السادس أو السابع استقر بعض الناس على هــذا النهر، وكانوا يسمون (الليخ) ، ولم يستطع أحد أن يفسر معنى هذه التسمية تفسيراً مقبولاً معقولاً ، ولــكن بعض المؤرخين يقولون إن كلمة (ليخ) تطورت حتى صارت (بولياني) أو (بولاكي) . والمؤرخ الروسي القديم (نسطور) نطق باسمين ، أحدهما (پوليــان لياخوف) على نهر الفستولا ، والثاني (پوليان روسوف) على نهر الدنيبر .

ثم إن (شاينوخا) ، المؤرخ الپولندي نفسه ، تحدث في أصل الشعب الپولندي فقال إنهم انحدروا ، كالروسيين ، من سلالات أتت من الشمال فاستوطنت روسيــة وپولندة ، وحاول أن يعلل نظريته تلك بترجمة بعض الأسماء ولــكنه لم يفلح ، وخاصة في تطبيق هذه النظرية على الروسيين .

أما سكان پولندة عامة فيشتملون على العناصر الآتية :

أولاً — الآريون . ويتألفون من :

ا — الپولنديين ، ومنهم القشوبيون، وهم يقيمون في ساحل البلطيق بالقرب من دانزيج. والبولنديون الذين يمتون إلى الفرع الغربي من الجنس السلافي ، كما تدل على ذلك لغتهم التي ما زالت تحتفظ ببعض النبرات السلافية .

ب — الروسيين الحمر ، وهؤلاء يمتون إلى الفرع الشرقي من الأسرة السلافية .

حـ — الروسيين البيض ، وهؤلاء يؤلفون القسم الأكبر من سكان لتوانية .

د — اللتوانيين واللت والساموجيت ، ويقيمون عند ضفاف نهر ڤلنو .

هـ — الجرمان ، وقد نزحوا إليها في أوائل القرن الثالث عشر .

و — الأرمن ، وقد رحلوا إليها سعياً وراء التجارة ، واستوطنوها في القرن الثالث عشر كذلك ، أما ذراريهم، فأغلبهم يعيشون في جاليسية ، وما زالوا يحتفظون ببعض لغتهم ولهجتهم .

ثانياً — الفنلنديون : ومن هذا الجنس انحدر (الأستونيون) المقيمون عند شاطىء البلطيق ، ولكنهم ظلوا محتفظين بآدابهم ولغتهم وطابعهم الفكري وقوميتهم .

ثالثاً — الساميون : ومن هؤلاء اليهود الذين نزحوا إلى بولندة في عصور متقدمة جدًّا ، واحتكروا التجارة فيها .

وكانت هجرة اليهود الأولى من الدانوب الأدنى ، ومن مملكة الخزر الذين دخلوا في الديانة اليهودية ، وكان عددهم عظيماً وتأثيرهم في بولندة ظاهراً .

وفي نهاية القرن الحادي عشر نزح إلى بولندة فوج آخر من اليهود قدم من ألمانية ، وفي منتصف القرن الثالث عشر منحهم (بولسلاس الورع) امتيازات كثيرة ، ولما تولى (كازيمير العظيم) في النصف الأول من القرن الرابع عشر زاد لهم في هذه الامتيازات، ولعله توسع فيها محاباة لليهود الذين فطنوا لحاجته إلى المال فأمدوه به لسد نفقات حروبه الكثيرة، ومع أن عددهم في تلك الفترة قارب مليونين ونصف مليون . فانهم لم يندمجوا في الشعب البولندي ، بل ظلوا مترفعين عازفين عن الاختلاط إلاّ في المعاملات التجارية ، وكانوا يستعملون اللغة الألمانية بدلاً من اللغة البولندية ، وكانوا يعتبرون أحط طبقة من طبقات الشعب البولندي ، كما سيأتي بعد .

٢ — طبقات الشعب البولندي

يبدو أن طبقة الفلاحين في كل أمة هي الطبقة التي يقع عليها الغبن الأكبر ، وخاصة في الشعوب الشرقية أو المختلطة بها ، كالشعب الروسي ، وابن عمه الشعب البولندي ، على حين أن طبقة النبلاء في تلك الشعوب تتمتع بالنعيم كله .

ففي أوائل القرن السادس عشر كان النبلاء في بولندة يستأثرون بالسلطة كلها ، ولم يكن هناك ترتيب تدريجيّ بين الطبقات في تلك الأيام ، فطبقة النبلاء الرفيعة كانت تتلوها طبقة

المدنيين أو (أبناء البلد) ، وهؤلاء كانوا في الغالب من الجرمان . أما الفلاحون فلم يكن لهم قدر مطلقاً ! ولم يكن لهم قط حق في معارضة سادتهم النبلاء في شيء . . حتى في الحياة أو الموت . . .

وتبعاً لذلك انحط الأدب القومي بل انعدم ، أما المؤلفون الذين ظهروا وقتئذٍ فكانوا قساوسة استعملوا اللغة اللاتينية في كتاباتهم ، فاندثرت أشعارهم وأناشيدهم وأغانيهم القومية ، ولم يبق من ذلك الشعر القومي غير قصيدة واحدة مخطوطة في خزانة زامويسكي بمدينة وارسو ، وقد نشرها الأستاذ نهرنج في برلين سنة ١٨٨٧ ، وهي تصف حادثة وقعت سنة ١٤٦١ ، وقد صورت هذه الحادثة حالة الشعب في ذلك الحين ، وإليك مجملها :

« كان محافظ مدينة كراكوف يان تنشينسكي من أسرة نبيلة في بولندة ، وقد رفض أن يصحب الملك في حملة تأديب شنها على فرسان الألمان ، أما شقيق ذلك المحافظ واسمهُ أندرو ، فقد أراد أن يصحب الملك ويساعده في تلك الحملة ، ولكن أسلحته لم تكن صالحة فذهب بها إلى حدّاد اسمه كليمنت بمدينة كراكوف ، فأصلحها الحداد وطلب أجراً لذلك قيمته جنيهان تقريباً ، فنقده النبيل ربع الأجر ، ولكن الحداد أصر على تناول الأجر كله ، فلكمه النبيل ، ثم ذهب إلى مجلس الشورى وشكاه مدعياً أنه اعتدى عليه ورفض تسليمه سلاحه ! .

فأرسل المجلس إلى الحدّاد ، ولكن النبيل لم يقوَ على الانتظار ، فترك ساحة المجلس ووقف مع أصدقائه أمام منزل أحد أعضاء ذلك المجلس ، فإذا كليمنت يدخل ساحة المجلس والرسول معه ، وما كاد الحداد يرى النبيل حتى توجه إليهِ وقال له : سيدي ! . . . إنك أهنتني في بيتي واعتديت عليّ وصلمت أذني ، والآن ستلقى جزاءك الحق . فانهال النبيل وابنه وأصدقاؤه على الحداد بالضرب على قارعة الطريق ، فصرخ الشعب وهاج وماج ، وانطلق ناقوس المدينة يدق ، وأقبل الناس من كل حدب وصوب مهطعين إلى ذلك النبيل وأصدقائه ليثأروا منهم ، ففر النبيل واحتمى بمنزل أحد محصلي الضرائب ، ثم عدا إلى كنيسة ، ولكن الناس لحقوا بهِ وذبحوه فيها !

ولما عاد الملك غضب لهذا الحادث أشد الغضب ، وأمر بالقبض على المذنبين ، فاتهم أخو النبيل القتيل تسعة أشخاص ، منهم عمدة المدينة وثلاثة أعضاء من المجلس ، وخمسة أعضاء مساعدين ، ولكن ثلاثة منهم برئوا ونفذ حكم الإعدام سرّاً في الآخرين ، لأن النبلاء خافوا أن يقتل هؤلاء جهراً فيثور الشعب ! »

هذه هي القصة القديمة ، وقد تناولها المؤرخ البولندي (دلوجوش) . وأضاف إليها ان جثة ذلك النبيل ألقيت على قارعة الطريق وبقيت هنالك ثلاثة أيام ، ولكن بعض المؤرخين الآخرين يقول إن هذه الرواية لا تخلو من مبالغة .

ومن هذه الحادثة تعرف مدى الامتيازات والكراهية التي كان يتمتع بها هؤلاء النبلاء في مختلف العصور ، والتي ازدادت على مرّ الأيام . . .

كان النبلاء يستعملون الفلاحين كقطعان الماشية لا أكثر بل أقل ، يغلون لهم محصول أرضهم . فأثروا إثراءً فاحشاً ، وأصبحوا في سعة تمكنهم من إرسال أبنائهم إلى بلاد أجنبية يتلقون فيها التعليم مع ما في هذا من النفقات الباهظة في ذلك العهد .

وقد وصف القسيس الإنجليزي الدكتور روبرت ساوث ، لما زار بولندة في الربع الأخير من القرن السابع عشر ، كثيراً من أخلاق البولنديين وملكيهم وشعبهم عامة ونبلائهم خاصة . فقال في هؤلاء النبلاء :

« إن للنبيل البولندي الحق في حياة فلاحيه أو موتهم ، فهو يقتلهم أينما شاء ، حتى لو كان لمجرد التسلية »

وقد ذكر كثيراً من الحوادث المخزية التي فعلها هؤلاء (الأشراف !) مع نساء فلاحيهم ! وكان هؤلاء النبلاء يعيشون في أفق من الأبهة والمهابة والعظمة المتكلفة .

وكانت تلك الحال التي عليها النبلاء ، من أكبر العوامل التي أدت إلى انحلال بولندة في القرن الثامن عشر ، حينما خسرت استقلالها . فقد كانت عاملاً في اضطرابات داخلية ، وتفكك بين عرى الشعب ، حتى انقسم عدة طبقات ليس فيما بين إحداها والأخرى نسبة معقولة ، في الغالب . وتأتي بهذا الترتيب :

١ — النبلاء ٢ — رجال الدين ٣ — المدنيون ٤ — الفلاحون ٥ — اليهود .

* * *

١ — النبلاء : أما النبلاء فكانوا على ما وصفنا آنفاً ، وكان فيهم إلى جانب ذلك غطرسة ، حتى الذي يُعسر منهم ويضطر إلى العمل بيده وإن كان أجيراً في حقل ، تراه سائراً وراء محراثه حافي القدمين ، وهو يعلق سيفاً قديماً صدئاً في جانبه بقطعة من الخيط ، علامة على أنهُ من أرومة النبلاء !

ومن أمثال البولنديين الشعبية في ذلك قولهم : (النبيل في عشه ، كالملك على عرشه !)

وقصدهم النبيل الفقير ولو في كوخ حقير، وهم في هذا المثل يوافقون المثل المصري : (إن دبلت الوردة ريحتها فيها !) ، ولكنهم أشبه بصلف الأتراك الذين جاوروهم مئات السنين . من ذلك قصة بعض شحاذي الأتراك المشهورة بيننا حينما كانوا يجوبون قرى مصر — في نهاية القرن التاسع عشر وبداءة هذا القرن — فإنهم كانوا ينظرون إلى المصريين نظرة الزراية والتعالي حتى حين يسألونهم إحساناً !

ولم تقتصر جناية النبلاء البولنديين على الحياة الاجتماعية بل أضعفوا بلادهم سياسيًّا وحربيًّا ، ولكن سبباً عظيماً من تلك الأسباب التي أضعفت بولندة ، كان افتقار النبلاء أنفسهم إلى الروح الوطنية الخالصة، فقد كانوا يفضلون منافعهم الشخصية والبيتية على مصالح الشعب في مجموعه ، ولقد زادتهم الامتيازات التي منحت لهم تهالكاً على منافعهم المادية . . .

وكان لكل نبيل أن يؤسس له جيشاً خاصًّا ! ومن هنا كانت تنشأ مشاجرات خاصة لا تلبث أن تصير نوعاً من الحرب والفتنة الداخلية بين نبيل وآخر أو بين نبيل وعامة الشعب ، وبهذا ضعف جيش الدولة الرسمي .

هؤلاء كانوا نبلاء بولندة ، وهذا بعض شيء عنهم وعن حياتهم ، وسيرتهم طويلة عويصة ، ولكنهم أخذوا يضمحلون ويقلون قبل اضمحلال الجمهورية نفسها ، وأخذ الكثيرون منهم يهجرون ضياعهم ومزارعهم ، بعد أن يرهنوها أو يبيعوها ، ثم ينزحون إلى المدن ليعيشوا عيشة السرف والترف التي قلدوا فيها أغنياء الفرنسيين.

* * *

٢ — رجال الدين : أما الطبقة الثانية ، وهي طبقة رجال الدين ، فقد احتلت مكاناً عظيماً في الحياة الاجتماعية منذ عرفتها البلاد البولندية ، وكانت لها أملاك شاسعة وضياع كبيرة ظلت تنمو وتزداد ، بما كان يمنح أو يوهب لها ، حتى خشي على أملاك الدولة كلها أن تصبح في يد الكنيسة ، فاستصدر قانون خاص سنة ١٦٦٩ يحظر على الكنيسة أن تحوّل أملاك أحد إليها أو يعاقب بنزعها منه وضمها إليها .

وكان للقسس كراسي في مجلس الشيوخ ، وكان العضو منهم يعين فيه بواسطة الملك ، ويصدق البابا هذا التعيين ، وقد بلغ رئيس أساقفة (جينزن) رياسة هذا المجلس ، كما أنهُ كان (قائمقام) الملك في فترة خلو العرش من أحد الملوك . .

ولكن القسس كانوا خاضعين للقانون المدني فيما يكون أمام المحاكم الأهلية ، وإذا اتهم

أحدهم بارتكاب جريمة قبضت عليه (الشرطة) المدنية ، ولكنه يحاكم أمام هيئة دينية ، فإذا ثبتت إدانته سلمته هذه الهيئة إلى السلطات المدنية تفعل به ما يشاء القانون .

ومع أن رجال الدين كانوا يتمتعون هناك بسلطة روحية عظيمة ، فإن طبقات أخرى من الشعب ممن كان لهم صوت أرقى من صوت الفلاحين ، لم تأذن لهم بالتوسع في امتيازاتهم خشية أن يستبدوا استبداد طبقة النبلاء .

وكان القساوسة حتى سنة ١٥٣٨ يؤذن لهم في شغل الوظائف المدنية العامة ، ولكن هذا التقليد أبطل وحظر بعد ذلك التاريخ ثم سُنّ قانون جعلهم يدفعون الضرائب التي يدفعها سائر أبناء الشعب الآخرين ، ما عدا النبلاء ...

وكان التعليم كله تقريباً في يد الإكليروس الذين أشرفوا على الجامعات ، وكانت مهنة الطب مقصورة عليهم .

***

٣ — المدنيون : أما المدنيون ، أو (أبناء البلد) على حسب اصطلاحنا الدارج ، فقد كانوا في الغالب تجاراً وصناعاً ، ولكن معظمهم كان من الألمان وبعض اليهود .

وذلك لأن العبودية التي فرضها النبلاء على الفلاحين والطبقة المدقعة من أبناء بولندة الخلّص وقيدوهم بها حظرت عليهم العمل إلاّ في حقول ساداتهم ، فصارت التجارة والصناعة في أيدي الأجانب .

وترتب على ذلك عدم وجود طبقة متوسطة من الشعب الأصيل كما تقدم ، فكان هذا سبباً من أسباب سقوط الدولة .

ولم يكن هؤلاء المدنيون خاضعين لقانون الدولة العام ، فكانت لهم قوانين خاصة في المقاطعات المختلفة ، ففي الجنوب كانوا خاضعين لقانون مجدبورج ، وفي الشمال لقانون كولم .

وكان الخصام قائماً بين هؤلاء المدنيين والنبلاء ، وقد حرم على النبلاء الاشتغال بالتجارة والصناعات ، ويبدو أن المدنيين — وكانوا كلهم تقريباً من الألمان واليهود — أرادوا احتكار التجارة والصناعة . ومنهم من تبوأ مركزاً كبيراً ، حتى إن أحد الرعايا الألمان دعا الملك كازيمير وكثيراً من الملوك إلى وليمة أقامها .

ولكن التجارة لم تفلح في بولندة طويلاً ، لأنهُ لم يكن هناك محاكم ودور للقضاء

تفصل بين النبلاء والمدنيين إذا قصدوا إليها للحكم في مطالبة بدين أو حقوق مالية ، كما رأينا في حادثة الحداد السابقة . فقد تسلط النبلاء على كل شيء ، وكانوا يملكون مدناً بأكملها .

وفي سنة ١٧٦٨ سنَّ قانون للحد من فساد هؤلاء النبلاء وجرائمهم الكثيرة ، ولكنه عوَّضهم عن هذا ، في الوقت نفسه ، بأن جعل لهم الحق في مضاعفة خدمات المدنيين لهم فلم يكن هذا القانون إلاّ ذرًّا للرماد في العيون !

***

٤ — الفلاحون : وتأتي بعد ذلك طبقة الفلاحين ، وهي تنقسم قسمين :

ا — الكميتون : أي الفلاحون الأحرار . هؤلاء كانوا — كما أطلق عليهم — أحراراً إلاّ في وجوب تأديتهم خدمات معينة .

ب — الفلاحون العبيد : وهؤلاء كانوا ملكاً مشاعاً لساداتهم النبلاء ، وليس لهم حقوق مطلقاً .

أما (الكميتون أو الـ (كميتسي) ، كما كانوا يسمون في اللغة البولندية ، فقد جعلوا يفقدون حريتهم على مرّ الزمن ، وصاروا مثل الآخرين لا يبرحون الأرض التي يفلحونها .

وكان النبلاء يهربون من دفع الضرائب للدولة ، ولكنها كانت تجبى من الفلاحين فقط ، حتى ساءت أحوالهم . ولم يكن الفلاحون الأحرار يملكون من الأرض إلا أحد نوعين :

الأول — قطعة يرثها الفلاح ، ولا تزيد على ثلاثين فداناً قطعاً وتسمى (الفاسكا أو اللان) ، ويكون الفلاح قد ورثها عن أحد من أسرته .

الثاني — قطعة أرض يؤجرها النبيل للفلاح لبضع سنوات ، وكانت السنة الزراعية تنتهي عادةً في عيد الميلاد من كل عام .

ولكن النبلاء — مع هذا — كانوا يسطون على أراضي الفلاحين المملوكة ويغتصبونها منهم ، والفلاح الذي كان يعترض أو يتظلم يتلف النبيل أرضه ، وكانت للنبلاء في ذلك آلاف الطرق . . !

ومع أن الملك كازيمير العظيم كثيراً ما حدّ من جور هؤلاء النبلاء ، فقد خلفه من سنّ قانوناً يحرم على أي فرد عامي — من الطبقة الوضيعة — أن يمتلك أرضاً !

وكان محرّماً كذلك على التجار والصناع أن يمتلكوا أرضاً ، وهكذا صارت (الأطيان) كلها تقريباً ملكاً للنبلاء !

ويقول المؤرخ البولندي (ليلفل) : إن هذا الظلم أدّى بالشعب إلى الثورات والمطالبة بالحرية الشخصية ، فقد كان محظوراً على أي فلاح أن ينتقل من مكان إلى مكان إلاّ باذن من سيده ، أي صاحب الأرض التي يعمل فيها ، فإنهُ عبد من عبيده !

وقد كان محظوراً على حكام المقاطعات الأخرى أن يأذنوا لأي فلاح من مقاطعة أخرى بدخول مقاطعاتهم إن لم يكن يحمل أوراقاً رسمية من مقاطعته الأولى تخوّله دخول المقاطعة الثانية ، ومن كان يحاول الانتقال من مكان إلى مكان من غير جواز يُعدّ هارباً أو طريداً . . .

ومهما يبلغ الظلم بأحد الفلاحين فإنهُ لا يستطيع معارضة ظالمه (النبيل) إلاّ إذا وجد نبيلاً آخر يحميه ويدفع عنه ، ولكن مثل هذا كان كثيراً ما ينتهي في جانب مصلحة النبيل الأول فيضيعُ الفلاح بينهما ، إذ يفضل النبيل خصمه النبيل على عبده الفلاح الذليل !

ولم ينصف الفلاحين إلاّ الملك (كازيمير العظيم) الذي اعترف بحريتهم الشخصية، وحرّم على النبلاء اغتصاب أرضهم الموروثة ، وجعل للفلاحين الحق في ترك سادتهم متى شاءوا .

ويقول المؤرخ البولندي كروم إن الطبقات الدنيا في بولندة كانت مثلها في روسية ، تعيش في عبودية مطلقة ، وكان الذي يقتل فلاحاً يدفع غرامة مالية زهيدة ، وكان للسيد الحق في قتل عبيده أو الإبقاء على حياتهم . وقد ظل هذا التقليد قائماً حتى سنة ١٧٦٨ ، حيث أعلن وقتئذٍ أن قتل فلاح جناية كبرى ، ولكن صعوبات كثيرة اعترضت هذا القانون ، فلم تكن تثبت إدانة قاتل إلاّ إذا شهد عليه اثنان من النبلاء ، أو أربعة من الفلاحين ، باعتبار شهادة النبيل الواحد بشهادة اثنين من الفلاحين !

وإذا لم يشهد هؤلاء على قاتل حكم عليه بغرامة مالية فقط . وكان القانون الأسبق يحكم على القاتل بغرامة قدرها عشرة (مارك) أي ما يقرب من ستين قرشاً مصريّاً !

وكان النبلاء ينظرون إلى الفلاحين نظرتهم إلى الحيوانات أو أذل ، وقد كتب المؤرخ الرحالة الفرنسي (أوتفي) عن هذه النقيصة فقال : إنه كان يراجع بعض النبلاء في معاملتهم للفلاحين قائلاً إن هذه المعاملة لا تتفق مع الروح المسيحية ، فيقولون إن هؤلاء الفلاحين أقوياء ولكنهم لا يشتغلون . ولا يستعملون قوتهم إلاّ كما نستعملها نحن في قتل جيادنا ،

وإن هؤلاء الفلاحين يخدموننا بدلاً من الحيوانات .

وقد ذكر مثل هذا الرحالة (بيتر موندي) ، وزاد أن الفلاحين يعيشون كالعبيد أو الحيوان ولا يسمح لهم بشيء من الغذاء إلاّ ما يمسك الرمق .

يقول الأستاذ مورفيل : (إن پولندة تألمت كثيراً واحتملت كثيراً وتعذبت كثيراً على يد هؤلاء النبلاء ، ولا نود أن نسترسل في نقد حياتها القديمة وهي في محنتها الحاضرة (القرن التاسع عشر) ، ولكن عدالة التاريخ يجب أن تظل باقية قائمة ، وان نفضلها على العواطف الشخصية ، ولهذا يجب أن ننتقل إلى صفحات « كوكس ») وهو ينتقل إلى هذه الصفحات التي ينقد فيها القرى البولندية نقداً قاسياً ، أشبه بالنقد الذي نوجهه إلى قرانا المصرية القذرة الحقيرة ! . فلم يكن السائح الإنجليزي يجد إلاّ فنادق صغيرة يملكها (اليهود) ، كما نجد اليونانيين « الأروام » في قرى مصر البعيدة أو القريبة ينشئون المقاصف والمشارب الصغيرة ! ولكن المسافر كان يضطر أن ينام مع الجياد والأبقار والخنازير . . .

يقول كوكس : (إننا لم نكن نجد في بيت القروي إلاّ حجرة واحدة تنام فيها أسرتهُ كلها ، ولم نكن نجد من الطعام إلاّ بيضاً ولبناً ، وغالباً ما كنا نفقدهما أيضاً فلا نعثر عليهما ، وكان فراشنا تبناً نبسطة على الأرض ، وما كان أسعدنا إذ نجد بعضاً من هذا التبن نظيفاً ! . والقرويون فقراء مدقعون ، خاملون ، وضعاء ، وقد بدوا لنا أيأس وأشقى ناس وقع عليهم نظرنا في أية بقعة من بقاع الأرض جبنا آفاقها . وكانوا عندما يروننا يلتفون حولنا ويسألوننا إحساناً ، متوسلين إلى ذلك بمختلف الأساليب والإشارات) .

ويصف (أوتڤي) ، الذي تقدّم ذكره ، الأكواخ البولندية فيقول : إن أثاث البيوت البولندية يتكوَّن من أوانٍ طينية أو خشبية ، أما فراشهم فيصنع من القش والريش ، وليس عليه غطاء ما ! .

ولم يكن لأفرانهم ومواقدهم مداخن تصرف الدخانَ ، فينطلق هذا في البيت فيمتلئُ بهِ ، ولم يكن لبيوتهم منفذ غير نافذة صغيرة ترتفع عن الأرض أربع أقدام ، وعندما يدخل الناس أكواخهم يضطرون إلى الانحناء وهم داخلون حتى لا يختنقوا بالدخان الكثيف الذي يقابلهم ، ولم يكن في استطاعة أحد أن يرى السقف من كثافة الدخان ، ومع هذا فانهُ من العسير أن ينام أحد في الشتاء إلاّ إذا أوقد ناراً بجانبه !

أما في الصيف فلا تفتح النافذة مطلقاً مهما يكن الجو حارًّا ، كما هي الحال في الفنادق

الصغيرة التي يملكها اليهود ، حتى إن السائح يفضل أن ينام في (الإسطبل) ولا ينام في الحجرة الداخلة المخصصة للمسافرين ، فهي في حال من القذارة لا تقاس بجانبها حظائر الخنازير ... أضف إلى ذلك أن تلك الحجرة في الفندق كانت تستعمل للمسافرين ، ولأفراد أسرة صاحب الفندق جميعاً أن يناموا معهم فيها ، على القش الذي لا يستبدل إلاّ إذا تفتت وتآكل ! [1] .

وكانت هذه المساكن ، بل جميع مساكن البولنديين عامة ، مصنوعة من الخشب تتألف من طبقة واحدة .

***

٥ — اليهود : ثم تأتي طبقة اليهود .

وكان هؤلاء منتشرين في بولندة انتشاراً واسعاً، وهم يؤلفون عنصراً هامًّا قويًّا بها ، وقد دخلوها في عصور متقدمة ، ومنحهم الملك كازيمير العظيم (كاچيميش)، امتيازات كثيرة.

وكان هذا الرجل العظيم حقًّا يعطف على الطبقات المفلوكة ، فهو الذي أنصف الفلاحين ، كما تقدم ، وعطف على اليهود ، ومنحهم تلك الامتيازات الكثيرة . أما اليهود فقد أمدوه من جانبهم بالأموال الكثيرة قروضاً ، ليستخدمها في حروبه ، مع أنهم كانوا أوضع طبقة في بولندة .

ولعل الملك كازيمير أخطأ في تقديره لهم خطأً كبيراً أو قليلاً ، فقد استأثروا بتجارة المملكة كلها واحتكروها تقريباً بعد ذلك .

وقد تحدث عنهم المؤرخ البولندي لنجنخ ، الذي عاش في أول القرن الثامن عشر ، فذكر أنهم دخلوا بولندة واشتغلوا خدماً للنبلاء ، وبعضهم أنشأ تلك الفنادق الحقيرة القذرة هناك ، وقد تقدم ذكرها .

وقد عطف عليهم كذلك الملك سوبيسكي ، فانتشروا في بولندة ولا يزالون يؤلفون جزءًا كبيراً من سكانها إلى اليوم .

ومع أنهم بلغوا ذلك الشأو فإنهم كانوا كما تقدم يُعدّون من الضالين ، وينزلون منزلة الطبقة السفلى في بولندة ، وكانوا مرغمين على أن يضعوا شارات صفراً لتميّزهم عن الفلاحين البولنديين ...

---

(١) وكانت هذه حال كثير من شعوب أوربة في ذلك الزمن ، ولكنها تقدمت ، وحالة الاغلبية من فلاحي مصر أشبه بتلك الحال ، ولم تتقدم شيئاً !

المدرسة الأمجدية

للدكتور أسعد طلس
من أعضاء المعهد الفرنسي بدمشق

لمحة تاريخية

المدرسة — التربة الأمجدية منسوبة إلى الملك الشاعر بهرام شاه بن الملك المنصور فرخشاه بن شاهنشاه المشهور بالملك الأمجد.

وبهرام شاه هذا تولى بعلبك بعد وفاة أبيه سنة ٥٧٨ هـ ولم يزل أميراً عليها حتى قدم الملك الأشرف موسى بن الملك العادل إلى دمشق فملكها في سنة ٦٢٨ وأراد انتزاع بعلبك من صاحبها الأمجد فرفض هذا أول الأمر النزول عنها، ثم اضطره ابن عمه فأعطاه الزبداني وما إليها وانتزع منه بعلبك وهو كاره وكان ذلك في سنة ٦٢٧، ويظهر أن الملك الأمجد سكن بدمشق في دار أبيه مدة قصيرة ومات في سنة ٦٢٧ أو سنة ٦٢٨ قتله غلام مملوك له [1]. ويظهر أن الملك الأشرف موسى كان قاسياً في معاملته الأمجد وآل بيته فقد امتلك أموالهم وتصرّف فيها تصرّف المالكين. فقد حدّثنا ابن كثير في حوادث سنة ٦٣٥ أن الملك الأشرف وقف دار فرخشاه التي يقال لها دار السعادة وبستانه بالنيرب على ابنيه [2]. فلا شك عندنا في أن الملك الأشرف تملك أملاك الأمجد وتصرّف فيها وحرم أبناءه إياها وإلاّ فكيف يتصرف فيها وأبناء صاحبها أحياء. وقد يقال ربما باعوه إياها ولكن ما عرف عن قسوة الملك الأشرف يجعلنا نستنتج هذا الاستنتاج.

وكان الملك الأمجد شاعراً مجيداً بل هو أشعر ملوك بني أيوب، وكان له ديوان شعر، وقد أورد له ابن شاكر الكتبي وابن كثير بعض مقطعات من شعره منها قوله:

يميناً لقد بالغت يا خل في العذل ... وما هكذا فعل الأخلاء بالخل
إذا أنت لم تسعد خليلك في الهوى ... فذره فقد أمسى عن العذل في شغل
ولا تحسبنّ اللوم يذهبُ وَجْدَهُ ... فلومك بالمحبوب يغري ولا يسلي
وما كنتُ ممن يُذهب الوجدُ حزمَه ... لعمرك لولا أسهم الأعين النجل

قال بدران نقلاً عن النعيمي: إن الملك الأمجد كان أوصى بوصية كبيرة ثم قتل فقام بعده

---

(١) انظر ترجمته في المعلمة الاسلامية النص الفرنسي ١/ ٥٩٩ والبداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ١٣١ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١/ ٨١ ومنادمة الاطلال لبدران ١/ ١١٣ (٢) البداية والنهاية ١٣/ ١٩٧

ولده الملك المظفر نور الدين عمر فعمر تلك المدرسة بمال الوصية وجعلها على الحنفية والشافعية، وكانت في موضع لطيف جداً لها شبابيك تطل على الميدان الأخضر المسمى بالمرجة الفيحاء، وتظهر للواقف بالميدان الأخضر قصراً بديعاً لأنها تعلو عنه علواً كثيراً، وإلى جانبها كانت المدرسة الفرخشاهية

وقد ذكر العلموي المدرسة الأمجدية في المدارس الشافعية وقال: إنها في الشرف الأعلى وأول من درس فيها رفيع الدين الجيلي، ثم تعاقب عليها مدرسون كثير منهم أمين الدين ابن عساكر وجمال الدين المحقق الفقيه الطبيب بالمارستان العوزي (— ٦٩٤)[1] والسيد ناصر الدين نقيب الأشراف (— ٨١٤ﻫ)[2] وابن قاضي شهبة المؤرخ الدمشقي المشهور وابن قاضي عجلون[3]. قلت: ويظهر أن هذه المدرسة — التربة قد عاشت مع شقيقتها المدرسة الفرخشاهية، فاننا لم نعثر لها على خبر في تواريخ دمشق المتأخرة. وممن كتبوا فيها: النعيمي في تنبيه الطالب والعلموي في مختصره وبدران في المنادمة.

وصف بنائها

تقع هذه المدرسة — التربة لصيق المدرسة الفرخشاهية التي سنصفها لك وهي في حالة أحسن من الفرخشاهية. وقد ساءت حالتها في العصور الأخيرة حتى قال بدران: «إن هذه المدرسة قد أصبحت اليوم بستاناً كالمدرسة الفرخشاهية، ومن يفتش ير موضع هذه المدارس التي كانت بالشرف الأعلى دوراً وحدائق[4]» ويظهر أن الشيخ بدران مبالغ بعض المبالغة، فإن القبة ما تزال كما كانت في عهدها الغابر، إلا أن علائم الشيخوخة بادية عليها ولم ينتقص الناس منها شيئاً. وإنما أتى الخطأ الشيخ بدران لأنه ظن أن المدرسة غير التربة وأنها بناء مستقل مؤلف من غرف وقاعات وأبهاء مع أن هذا ليس شرطاً في المدارس، فقد تكون المدرسة عبارة عن قبة التربة ليس غير، وهذا النوع من المدارس هو الذي اصطلحنا على تسميته باسم — التربة المدرسة — وهذا النوع من المدارس كان فاشياً جداً في العصر الايوبي والعصور التي جاءت بعده. وتحت هذه القباب كانت تقام الدروس وتحلق الحلقات ونحن نشاطر السيد Sauvaget رأيه في أن هذه المدرسة — التربة والمدرسة الفرخشاهية أيضاً لم تكونا أكثر من هاتين القبتين ومن حولها صحن فيه بركة ومرافق. وقد بقي إلى أيامنا هذه شيء من الصحن، والبركة كذلك ما تزال باقية، وقد تعدى الناس على الصحن فاختلسوا قسماً كبيراً منه.

(١) انظر ترجمته في ابن كثير ١٣ / ٣٤٢ (٢و٣) انظر ترجمتا في Y. A. سنة 1894 ص ٤٥٩
(٤) منادمة الاطلال ١ / ١١٢

أما مخطط هـذه القبة فهو كمخطط القبة الفرخشاهية : أقيم على أرض مربعـة الشكل مساحتهـا (٦٫٥٠ × ٦٫٥٠) من الأمتار ، وهي بناء مربع الشـكل يحيط به حيطان من الحجارة الضخمة من أرضه في إفريز القبة ، وقد كسيت حجارة الحيطان من الخارج بقشرة من الجص الأبيض ما يزال قسم منها باقياً . ومن فوق هـذه الحيطان إفريز قامت فوقه أقواس القبة الأربع التي سنصفها لك في كلامنا على القبة الفرخشاهية ، لأن هذه القبة مثلها تماماً ، ومن فوق هـذه الأقواس يقوم السطح الأصفر الذي تقوم فيـه الست عشرة كوة ، واحدة مفتوحة وأخرى صماء ، وهذه الـكوى الصمّ شباك صغير مربع من فوقه نقش غائر على شكل مروحة أو صدفة لها خمس تخاريم . وهذا الشـكل من الـكوى هو شـكل عراقي بحت جاء الشـام في العصر الأموي ومنه انتشر في العـالم الاسلامي حتى بلغ تونس وجزيرة صقليـة[(1)] ومن فوق هذه الـكوى تقوم قبة على شـكل نصف دائرة وفي هـذه القبة طاقات صغيرة جداً تساءل المسيو Sauvaget عن فائدتها فقال لعلها للتنوير ، ثم قال إن هذا تعليل بعيد لصغر حجمها فان قطر الواحدة لا يزيد على عشرة سنتيمترات ، ثم قال لعلها للتهوية ولـكنهُ استبعد هـذا أيضاً لعلوها علوّاً شاهقاً ، ثم قال فلعلّ هـذا نوع من الحيل الشرعية لجأ إليه البناة لئلاّ يخالفوا الإشارة النبوية التي تنهى عن بناء القبـاب على القبور فكأنهم بهذه الخروق يوهمون أنهم لم يبنوا قباباً تامة . ثم قال ولـكن هذا التعليل غير كاف وهو في الوقت نفسه يثير إشكالات أخرى ، فلعلّ دراسات أخرى تكشف حقيقة هذه الطاقات أو الخروق وتبين الفوائد والعلل التي حدت بالبناة أن يفعلوها[(2)] .

قلت : أما أنا فأستبعد هذا التعليل الثالث كل الاستبعاد ، فإن هذه الحيلة سخيفة وبعيدة من المنطق ، فلا يظن أن قوماً كالأيوبيين يلجأون إليهـا ولا سيما أن أمامهم قبة القبر النبوي وغيرها من القباب وليس فيها شيء من أثر هذه الطاقات أو الخروق . وإنما الذي نراه أنهم إنما جعلوها للتهوية لأنها في مكان عالٍ يسهل معه توريد الهواء وتصديره .

والقبة بصورة عامة حسنة الحالة خارجها وداخلها ، وتمتاز عن القبة الفرخشاهية ببقاء القبر فيها ، وهو فرشة من الحجارة الضخمة حجمها (٢٫٢٠ × ١٫٢٥ × ٠٫٨٠) ومن فوق هذه الفرشة فرشة أخرى من حجارة ولـكنها مسنمة ، وقد جعل لها إطار لينقش عليه شيء من الـكتابة ولـكنهُ لم يُـفعل . وليس في حيطان هـذه القبة ما يدل على أنهـا كانت منقوشة أو مزخرفة .

---

(١) انظر G. Marçais, Manuel I, 32. Der Islam V, 358.

(٢) انظر les Monuments I, 40

المآصر في بلاد الروم والاسلام

لميخائيل عوّاد

— ٧ —

(ب) مأصر الإسكندرية

الإسكندريّة أجلّ ثغور الديار المصريّة وأعظمها شأناً، فهي تطلّ على بحر بحر الروم، وإليها تهوي ركائب التجّار في البرّ والبحر، وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض، وهي فرضة بلاد المغرب والأندلس وجزائر الفرنج وبلاد الروم والشام.

أمّا أهلها فهم على يقظة من أمور البحر والاحتراز من العدوّ الطارق، ومع هذا لم تنجُ من هجمات العدوّ الذي انتابها غير مرّة، واجتاح أهلها، وقتَل وسَبى، فكان ذلك سبباً محتوماً للعمل على تحصينها تحصيناً منيعاً من البرّ والبحر، فنصب المأصر ذو السلاسل الحديد على فم مينائها، ورتبت المقاتلة على أبراجه.

والذي يؤسف له أنّ أنباء هذا المأصر ضئيلة المقدار في المراجع القديمة، فهذا القلقشندي (المتوفّى سنة ٨٢١ هـ) أشارَ إشارةً خفيفة إليه في عرض كلامه على آلات الحصار، فقال: « . . . وقد رأيتُ بالإسكندريّة في الدولة الأشرفيّة، شعبان بن حُسَيْن في نيابة الأمير صلاح الدين بن عَرّام رحمه الله، بها مدفعاً قد صُنِع من نُحاس ورصاص، وقيّد بأطراف الحديد، رُميَ عنه من الميدان ببُنْدُقة من حديد عظيمة محماة، فوقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر، وهي مسافة بعيدة »[1].

وقد تدارك المرحوم علي باشا مبارك بعض الخلل فأفاض في صفة الإسكندريّة، وأشار غير مرّة إلى برج سلسلة المأصر في مينائها. ودونك بعض ما دوّنه، قال في أسوار مدينة الإسكندريّة: « قد استدلّ من البحث الذي أجراه العالم الفاضل محمود بك الفلكي على جدران السور القديم الذي كان لهذه المدينة أن عرضه كان خمسة أمتار .... وقد تتبع أثره من ابتداء برج السلسلة الذي كان يُسمّى قديماً (رأس لوشياس) إلى الحدرة . . . . . . وقد ظهر أنّ السور من برج السلسلة إلى الميناء الغربية كان يتبع مسير الساحل .. »

---

(١) صبح الاعشى (٢ : ١٣٧)

ثمّ قالَ : « .... وكان مِن ضمن الحارات العرضية شارع يخرج مِن برج السلسلة بسبب أنّه كان به سراية ملوكية .... ، إنّ أراضي المدينة لم تكن مستوية ، وكانت منقسمة بطبقة الأرض إلى قسمَيْن بوادٍ يختلف عرضه .... وابتداء الوادي المذكور من برج السلسلة ، ويمتدّ إلى بحيرة مريوط .... » .

ولدى كلامه على جزيرة فاروس قال : « كانت هذه الجزيرة في الأيام الخالية محصنة بأسوار وأبراج في دوائرها.... والشعب الممتد في البحر بين برج السلسلة والجزيرة مِن جهة وبين العجمي والجزيرة مِن الجهة الأخرى ، فدلّ ذلك على أنّ هذه الجزيرة والشعب المذكورة أصلها مِن الساحل وانفصلت منه بحادثة حدثت في الأزمان العتيقة .... » .

ثم واصل كلامه على الميناء الشرقية التي يطل عليها برج السلسلة ، فقال إنّ « هذه الميناء هي التي مشهورة (كذا) في الأيام العتيقة ، ويسميها الإسكندرانيون الآن بالميناء الجديدة . وكان مدخلها ضيقاً وبه شعب وصخور كثيرة ، منها ما يظهر على سطح الماء ، ومنها ما هو مغطى به ، وكان في داخلها سرايات كثيرة للملوك ، بعضها مبني على الصخور الطبيعية ، وبعضها بني فوق صخور حادثة ، وكان ساحلها من ابتداء برج السلسلة إلى آخر السبع غلوات (الجسر المسمى هيبتاستاد) مزيناً بالسرايات الفاخرة والمباني البهجة . وقد عثر محمود بك أثناء بحثه عن آثار اسكندرية القديمة على بواقٍ من الجسر المذكور . وتلك البواقي متجهة من برج السلسلة إلى جهة مدخل الميناء ويمتد إلى مائتي متر تقريباً ، ويظهر أن الحفر الموجودة الآن في مدخل الميناء كانت من ضمن الجسر . فان كان كذلك ، كان طول الجسر من ابتداء برج السلسلة نحو ٩٠٠ متر في الطول و ٦٠٠ في العرض ، ومن هذا يعلم أنّ الميناء كانت مقفولة من جميع الجهات ما عدا الفم الذي كانت السفن تدخل منه ، الذي هو من جهة المنار وعرضه ٦٠٠ متر ، والظاهر أنه كان منقسماً إلى قسمين ، أحدهما صغير وهو الذي كان من جهة المنار ، وقدره ١٠٠ متر تقريباً ، والآخر عرضه ٢٠٠ ، وكانا منفصلين بصخرة وهي الآن تحت الماء بقدر ٧ أمتار . وفي كتاب ماني الفرنساوي (ألفهُ سنة ١٧٣٥ وهو يبحث في مصر) ، أن الفتحة الكبرى كانت بقرب المنار وتنتهي بصخور بني فوقها قلعة ومنارتان ، والفتحة الثانية كانت بعد هذه ، وكان على نهايتها من جهة برج السلسلة منار ثالث انهدم ولم يبقَ له أثر في وقته ، وكانت المراكب تمرّ بين الثاني والثالث من المنارات ، ولكنه لصغره وكثرة صخوره كان لا يستعمل إلاّ للمراكب الصغيرة ، والآخر هو الذي كان يكثر استعماله ، وكانت الفتحات المذكورة تقفل بسلاسل من الحديد ، وقد عثر محمود بك أيضاً على آثار الميناء الصغيرة التي غربيّ برج السلسلة

ومتصلة به ... وظنّ أنها الجزيرة التي كان فوقها سراية التيمنوم وكان يتوصّل منها إلى البرّ بجسر في منتصف المسافة التي بين برج السلسلة وجسر السبع غلوات . . . ، والمسافة الكائنة بين برج السلسلة وجسر السبع غلوات طولها ٣٢٠٠ متر ، وكان به السرايات الملوكية ومباني البحرية ، وكانت إحدى السرايات المسماة بالسراية البرانية محل برج السلسلة ، ولعلّ سبب تسميتها بذلك خروجها عن الميناء ... ، وكان بقرب السراية من جهة الشرق ما بين برج السلسلة والمسلة برج عظيم السعة ... ، والسرايات الأخر كانت بين هذه السراية وبرج السلسلة ... »

وفي عرض كلامه على خليج الإسكندرية قال إنّ « هـذا الخليج كان محاذياً لسور المدينة القبلي ... وكان على الخليج القديم ثلاث قناطر .. وكانت القناطر المذكورة على أبعاد متساوية ، الأولى في جهة البلد ... والثانية في مقابلة الشارع الموصل لرأس السلسلة... »(١)

(ج) مأصر شيديا

لم نعثر على نبإ صريح يذكر وجود مأصر في هذه البليدة ، ولكنّ إشارة خفيفة ذكرها علي باشا مبارك أثناء كلامه على الإسكندرية ، قال إنّ شيديا « كانت على بعد أربعة وعشرين فرسخاً من إسكندرية بناءً على ما ذكره استرابون وغيره ، وكانت كثيرة العمران تقرب من أن تعدّ من المدن لكثرة أهلها . وكانت مركزاً لأخذ الجمرك من المراكب الحادرة والمقلعة ولذا قال استرابون إنهُ كان هناك قنطرة من المراكب على النهر ، واسم القرية مستعار من اسم القنطرة . . . » (٢)

(د) مأصر السويس

السويس بليد متوسّد ساحل بحر القُلزم ، وهو ميناء أهل مصر إلى مكة والمدينة ، بينه وبين الفسطاط سبعة أيام . وأخبار مأصره ضئيلة ، وقد انفرد المقريزي بالتلميح إلى برجه في كلامه على حوادث سنة ٥٧٧ هـ . قال : « في (شهر) ربيع الأول طرق الفرنج ساحل تنّيس ، وأخذوا مركباً للتجار ، ووصلت مراكب من دمياط كانت قد استدعيت من خمسين مركباً لتكون في ساحل مصر ، وكمل بناء برج بالسويس يسع عشرين فارساً ، ورتّب فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد التي يجلب منها الشبّ إلى بلاد الفرنج ، وأمر بعمارة قلعة تنّيس... »(٣)

أفكان هذا البرج من الأبراج البرية التي تشاد لحفظ الطرق وتأمينها من غائلة العدو ، أم من أبراج المآصر البحرية التي مرّ بنا خبرها في تضاعيف بحثنا ؟ .

(١) خطط مصر الجديدة (٧ : ٣٥ — ٤٥) (٢) خطط مصر الجديدة (٧ : ٤٥ — ٤٦)
(٣) السلوك (١ : ٧٢)

عمر الخيام كما أعرفه

— ٨ —

بعث الخيام إلى الشرق

في غير مصر

لمحمود المجبوري

أما الجهد الذي بذلته في هذه الناحية الأقطار العربية الشقيقة ، فللعراق فيه السهم الموفق ، فقد تقدم إلى الرباعيات الشاعر السيد محمد الهاشمي وترجم نحو ٣٠٠ رباعية في سنة ١٩٢١ كما ذكر الأستاذ أحمد حامد الصراف في مقدمة كتابه عن عمر الخيام الذي نشره في سنة ١٩٣١ ، وقد راجعت الأمثلة التي نشرت من هذه الرباعيات فاذا بها تطابق الأصل الفارسي دقة ورقة وسلاسة . وإليك مثلاً منها :

يا إلهي إذا جنيتُ فإثمي　　يا إلهي على شبابي وجسمي
وعلى نفسي الحزينة جُرْمي　　أنا جان رجوت عفواً وصفحا
منك قد غرَّه رضاك نجارا

يا إلهي أوعدتني بعذاب　　أنا منه في حيرة واضطراب
أين ؟ قل يا ربي مكان العذاب　　حيثما كنتَ لا عذابَ ، فأنَّى
هو إذ أنتم بكل مكان

جيئتي في الدنيا أذى واضطراب　　وبقائي تحير وارتياب
وبقسْرٍ يكون مني ذهاب　　أي قصدٍ من جيئةٍ وبقاء
وذهاب ؟ قد ضَلَّت الألباب

بيدٍ مصحفٌ وكأسٌ بأخرى　　تارةً بالحلال آتي ومرًّا
بحرامٍ آتي فأحمل وزرا　　لست تحت السماء بالكافر الحـ
ـرِّ ولا كنت كامل الإسلام

ثم ترجمها نثراً الأستاذ الصراف في سنة ١٩٣١ ترجمة اشتملت المتن الفارسي تقابله النصوص العربية نثراً، وقد ترجم منها ١٥٣ رباعية نقلها عن نسخة الدكتور فريدريخ رُوزن وراجعها بنسخة الكاتب التركي المعروف حسين دانش . والترجمة دقيقة صادقة تطابق الفارسية نصًّا ومعنىً تمام المطابقة ، وهي آية الترجمات النثرية وأدق ترجمة ظهرت لرباعيات الخيام ، في اللغة العربية من حيث الحرص على أداء المعاني كما أرادها الخيام . وإليك نماذج منها :

« قوم يتفكرون في المذهب والدين ، وآخرون محتارون بين الشك واليقين . وإذا بمنادٍ يهتف من عالم الغيب : أيها الغافلون الطريق لا هذا ولا ذاك » .

« نحن يامفتي المدينة أصلح منك عملاً ، ومع كل هذا السكر أصحى منك ، إنَّما نشرب دَمَ العنب ، وأنت تشرب دم الناس . فأنصف ! أينا أشد سفكاً للدماء ؟ »

وترجمها شعراً الشاعر العراقي السيد أحمد الصافي النجفي ونشرها مع المتن الفارسي في ٣٥١ رباعية عن نسختين ، واحدة طبعها في طهران السيد رشيد الياسمي ، وثانيتهما قديمة قابلها بنسخة الدكتور فريدريخ روزن . وإليك مثلاً منها :

بدا الصبح وانشقَّ جيب الظلام فقم ودع الهم واحسُ المدام
فكم من صباحٍ سيبدو لنا ونحن نيامٌ ببطن الرّغام

***

إلهي قل لي من خلا من خطيئةٍ وكيف تُرى عاش البريء من الذنب
إذا كنت تجزي الذنب مني بمثلهِ فما الفرق ما بيني وبينك يا ربي ؟

***

أما ترجمة فيلسوف العراق المرحوم جميل صدقي الزهاوي فقد انطوت على المذاهب الفلسفية التي أرادها الخيام صريحة في غير مواربة ، وهي صورة استطاع فيها جميل صدقي الزهاوي الثائر المتمرد أن يطبع في معالمها ما كان يجول في نفسه مما طابق دعوة الخيام من تمرد وتجديد وانقلاب وثورة . وإليك طرفاً منها :

اسقني الكأس فهي تعدل عندي ألف دين وألف ملكٍ وطيد
ليس من مرة سواها تساوي ألف حلو في كل هذا الوجود

***

أيها المفتي نحن أتقى وأصحى منك لا نقسو مثلما أنت تقسو
أنت تحسُو دَمَ الأنام وإنا لدم الكرم وهو في الجام نحسو

هذا هو الجانب الأكبر من الجهد الذي بذله العقل العربي في دراسة الخيام ، وهو

جهد متواضع لا يكاد يوازن الجهود التي بذلها العقل الغربي في دراسته . ولقد استطعنا أن نطوف بالجهدين وأن نذكر منهما ما وصل إلينا حتى اليوم ، ولا شك أن الجهود العربية سوف لا تقنع بهذه المباحث المتواضعة وسوف تستأنف نشاطها في ضوء البحث العلمي الخالص، فسيبقى الخيام حيًّا في أدبه وفلسفته ومعانيه ما بقي للأدب دولة، بل إن الصور التي بعثها أدب الخيام ستبقى قوية ناصعة حاملة المعاني التي أحلته مكاناً رفيعاً بين الشعراء العالميين أمثال شكسبير وهايني وجوتيه وموليير ، فلقد جمع الخيام ما لكل من هؤلاء من خيال ونقد وتهكم ومزاح وفلسفة ودعوة إلى حرية الفكر والانقلاب .

﴿ ذيل ﴾

مؤلفات الخيام (١)

١ — رسالة في الجبر والمقابلة نشرها الأستاذ ويبك F. Woepcke عام ١٨٥١ م باريز .

٢ — رسالة في شرح ما أشكل من مبادئ إقليدس — مكتبة متحف ليدن .

٣ — التقويم الجلالي (زيجي ملك شاه) جداول في الأرصاد الفلكية ، ذكره صاحب كشف الظنون .

٤ — رسالة في الصيد والذهب والخمر والحب والجمال ضمن كتاب نيروزنامه تاريخه سنة ٧٦٨ هـ

٥ — رسالة الكون والتكليف في الطبيعيات — رسالة فلسفية كتبها رداً على سؤال عبد الرحيم النسوي ونشرها محيي الدين صبري .

٦ — رسالة في كليات الوجود في الطبيعيات كتبها لفخر الملك بن المؤيد ، وقد ذكر رس أنه اطلع عليها بالمتحف البريطاني بلندن ، وأنهُ قرأ في صدرها الجملة الآتية : هذه رسالة فارسية لعمر الخيام .

٧ — رسالة في الاحتيال لمعرفة مقداري الذهب والفضة في جسم مركب منهما ، مكتبة جوتا بألمانية .

٨ — ميزان الحكم في العلوم ، لم نعثر عليه .

٩ — لوازم الأمكنة في العلوم الطبيعية، لم نعثر عليه

١٠ — ضبط القواعد في تخريج المربعات والجذور التربيعية

١١ — رسالة في جواب ثلاث مسائل وفي كشف الحجاب عن ضرورة التضاد في العالم ، نشرها محيي الدين صبري مع رسائل أخرى بعنوان (جامع البدائع)

(١) راجع نزهة الارواح والمستشرق فريدريخ روزن ورس وبرون والصراف

مناظرك نظيرك

باب المراسلة والمناظرة

حول المجلد الخامس

من كتاب الحيوان للجاحظ

قرأت ما دبجته يراعة المحقق الكبير الأب أنستاس ماري الكرملي فيما سبق من أعداد « المقتطف » تعليقاً على المجلد الخامس من كتاب الحيوان ، فزاد إعجابي بهذا المحقق الغيور على العلم . وبهرني ما شهد له الناس به من سعة الاطلاع ، والإخلاص في البحث والتحري .

وزرته في الدير بشبرا القاهرة ، فكدت أقضي العجب حين طلب إليّ في صدق أن أجادله في ما أراه موضعاً للجدل، ثم هو يعيد عليّ هذا الطلب ، فاذا العلم يرتفع ثم يرتفع في ناظري ، وإذا جلال العلماء يأخذني فيما أشهد من كرم هذا الخطير وتواضعه ، فالحق وحده يبقى وتفنى الزخارف والأباطيل .

— قال الأب : « نقل المحرر بعض عبارات إفرنجية تفسيراً لبعض الكلم العربية نقلاً عن الأجانب ، وكان يحسن بهِ أن يترجمها إلى العربية ليستفيد منها من لا يفهم الإفرنجية » ، ومثل بما جاء في الحاشية ١ ص ٣٥١ و ح ٧ ص ٤٦٨ .

أما ما جاء في الموضع الأول وهو : ... a stone

فقد أثبتُّ ترجمته قبلهُ ، وهي : « المينا حجر يشبه حجر اللازورد تزخرف به الفضة ». وأما ما جاء في ص ٤٦٨ فهو : ... a privy فقد أثبت تفسيره قبل : « هو الكنيف الذي يكون مشرفاً على منطح بقناة من الارض » .

— أخذ عليّ حضرته استعمال « التنبيه » مكان « الحاشية » مع أن كلمة التنبيه أعرق في الاستعمال من الحاشية ، وأوسع مدلولاً . وقد عرف من مؤلفات الأقدمين « التنبيه » لأبي عبيد البكري ، على أمالي القالي . و « التنبيهات ، على أغاليط الرواة » لعلي بن حمزة البصري ، وهي حواشٍ وتعليقات وتصحيحات لبعض كتب اللغة ، وهذا نحو ما أنا بسبيله من إخراج مكتبة الجاحظ .

— وفي ص ٦١ قول الجاحظ : « وإذا انحط شرقاً أو غرباً صار كل شيء بين عينيك وبين قرصها من الهواء ملابساً للغبار والدخان والبخار وضروب الضباب والأنداء ، فتراها إما صفراء وإما حمراء » . قال الأب : « الصواب إما صفراً وإما حمراً ، أي أن كلاً من صفراً وحمراً بالجمع المنصوب غير الممدود . والمد من جهل النسـاخ » . وليأذن لي أن أقول إن العبارة سليمة ، وأن كلمتي « صفراء وحمراء » هنا ليست صفة للجمع ، وإنما هي صفة للشمس المفردة ، فإن الضمير في « انحط » عائد إلى « قرص الشمس » في كلام قبله ، وهو : « ولو أن دخاناً عرض بينك وبين قرص الشمس أو القمر لرأيته أحمر . وكذلك قرص الشمس في المشرق أحمر وأصفر ، للبخـار المعترض بينك وبينه » فالـكلام في لون الشمس ، لا لون ضروب الضباب والأنداء .

وليأذن لي كرة أخرى أن أعلن له أن وصف الجمع المـكسر بفعلاء المفرد صحيح لا ريب فيه ولا شية ، وقد سبق لي تحقيق قديم في ص ٢١٥١ من مجلة الثقافة ، توجهت بهِ إلى الأب الجليل . ولست أملك أن أعيده هنا مكرراً ، ولـكني أضيف اليهِ أموراً (١) جاء في اللسان تعليقاً على حديث : « ليس في الخضراوات صـدقة » : « قياس ما كان على هـذا الوزن من الصفات ألاَّ يجمع هذا الجمع ، وإنما يجمع بهِ ما كان اسماً لا صـفة ، نحو صحراء وخنفساء . وإنما جمعه هذا الجمع لأنهُ قد صار اسماً لهذه البقول لا صفة ، تقول العرب لهذه البقول : الخضراء » فتسمية البقول بالخضراء ، مسبوقة بوصفها بهذا اللفظ ، فهي وصف قد سمي به . (٢) ونظير هذه العبارة ما ورد في المادة نفسها من اللسان ص ٣٢٩ س ٣ : « والخضراء من الحمـام الدواجن وإن اختلفت ألوانها ، لأن أكثر ألوانهـا الخضرة » (٣) وجاء في اللسان (٦ : ٤٢٥ — ٤٢٦) : « وحكى ابن الأعرابي ليل قمراء . قال ابن سيده : وهو غريب . قال : وعندي أنهُ عنى بالليل الليلة ، أو أنثه على تأنيث الجمع » يعني أنه جعل الليل جمعاً لليلة ، كما تجمع البقرة على البقر ، والتمرة على التمر . فهذا نص قاطع أيضاً في أن جمع المـكسر المؤنث يسوغ وصفه بفعلاء المفرد . وممـا هو جدير بالذكر أن ابن سيده من أشد اللغويين تزمتاً وتحفظاً . (٤) وأما ما يذهب اليهِ الأب من أن ما يرى في الـكتب القديمة هو من جهل النساخ ، فإن هذه حجة ذات وجهين ، إذ نستطيع أن نقول إن الناسخين أهملوا بعض الهمزات في هذه الـكلمات ، إهمال تحريف أو إهمال رسم (١)

— وفي ص ٨٤ قلت : « البركان عامية ، مأخوذة من : volcano » وقال الأب : «والذي

(١) من قواعد علماء الرسم الأقدمين حذف الهمزة خطا ، إن سبقت بساكن ، فيكتبون نحو حمراء : « حمرا » . انظر المطالع النصرية ص ٨٢

عندنا أنها معربة ، وقد وردت في شعر ابن حمديس » وهو يشير بذلك إلى ما ورد في ديوانه ص ٢٤١ من قصيدة له يذكر فيها صقلية :

إذا عشّـت فيها التنانير خلتها تفتح للبركان عنها منافسا

لكن ابن حمديس ليس ممن يحتج بعربيته ، وهو من شعراء القرن السادس الهجري ، توفى سنة ٥٢٧ . ولعلّ أقدم نص وردت فيه هذه الكلمة ما جاء في التنبيه والإشراف للمسعودي المتوفى سنة ٣٤٥ . قال في ص ٥٢ : « وجزيرة صقلية وما يليها من جبل البركان ، ومنهُ تخرج عين النار التي تعرف بأطمة صقلية » والرجلان ليسا ممن يعتد بتعريبه .

— وفي ح ٢ ص ٩٥ : « فذا توفى حوالي سنة ٣٣٧ » أنكرها الأستاذ الأب ، وقال : إن الفصحاء من الكتبة لم يعرفوها . وليست هذه بحجة قاطعة في نفي صحة هذا الاستعمال ، فإن فصحاء الكتبة الأقدمين لم يعرفوا كثيراً من العبارات التي نتداولها اليوم ونديرها على المجاز والاستعارة والتمثيل . أفيمنع ذلك صحة تلك العبارات ؟ وفي اللسان : « ورأيت الناس حواله وحواليه ، وحوله وحوليه » فهذه الألفاظ أخوات يحل أحدها في مكان صاحبه .

— وفي ح ٩ ص ١٥٢ : « فيما عدا (ل) : فه . وأنى يكون له فم ؟ » وهو تعليق على قول الجاحظ : « إذ مرّ العقعق والسّخاب في منقاره » قال الأب : « ورواية الفم أصح من رواية المنقار » . واستشهد بقول صاحب المصباح إنهم قالوا : فم الحيوان . أما أن رواية الفم أصح من رواية المنقار فلم يأت لها الأب بدليل ، إذ لا ريب في أن الاسم الموضوع للشيء أولى من الاسم المستعار له ، والمنقار هو الموضوع للطير . وأما استشهاده بما جاء في المصباح من إضافة الفم إلى الحيوان وإدخاله بذلك الطير في جملة الحيوان ففيه نظر آخر ، إذ أن المراد بالحيوان هنا ما عدا الطير الذي خص به لفظ المنقار . ومما هو جدير بالذكر أن نسخة « ل » المشار إليها في التعليق هي أصح نسخ الحيوان وأقومها .

— وفي ح ٥ ص ١٥٨ كتبت في قول الشاعر : « معي كل فضفاض القميص » بقولي : « (ط) فقط فضفاض الثياب . ولم أجدها في مرجع ». ظنّ الأب أني أستنكر العبارة ، وأنا إنما عنـيت أن نسخة ط من الحيوان أتت وحدها بهـذه الرواية ، ولم أجدها في مرجع آخر من المراجع التي سقتها لتخريج هذا البيت ، وسردتها في ص ١٥٧ — ١٥٨ .

— وفي ح ٥ ص ٢٠٩ قال الأب : « وقد أخطأ استينكاس بتسميته بالإنكليزية : black partridge والحق أن استينكاس لم يسمه هكذا ، بل سماه : Francolin وأما الذي سماه Black Partridge فهو المعلوف في معجم الحيوان ص ١٨٤ .

— وفي ص ٢٧٩ : « تبت بلاد بالصين » قال الأب : «الصواب أنها بلاد واقعة في شرقيها

وليست منها » . وأمامي الآن مصور (مصلحة المساحة المصرية) للدولة وفيه رسم للدولة الصينية وهي تشتمل على بلاد الصين الأصيلة ، وبلاد المغول ، وبلاد التركستان الشرقية ، وبلاد تبت، وموقع بلاد تبت في الغرب لا الشرق، فليس في شرق الصين إلاّ بحر الصين .

— وفي ص ٢٩٩ ، قال الأب : إن « سم بريص» ليس من كلام العوام ، وإن الشاعر تصرّف في هذه الكلمة « تصرف الشعراء في الكلام من قصر وزيادة وتغيير » . وهذا التصرف الذي عناه له حدود وقوانين ، دوّنها النحاة في أبواب الترخيم ، وقيدها الأدباء في ضرائر الشعر ، « وسم بريص » ليس على قاعدة من قواعد الترخيم ولا مما يجيزه الأدباء في ضرائر الشعر .

— وفي ص ٣٣٥ قال الأب في الكلام على « بيشة » : « والذي في حفظنا أنه من مواضع العراق » . وليس الأمر كذلك ، فإن بين بيشة والعراق بوناً شاسعاً . قال ياقوت : « بيشة من عمل مكة مما يلي اليمن ، من مكة على خمس مراحل ، وبها من النخل والفسيل شيء كثير . وفي وادي بيشة موضع مشجر كثير الأسد » .

— وفي ص ٣٦٦ قال الجاحظ : « وليس للكلب اسم سوى الكلب ، وللديك اسم إلاّ الديك » . فذهب الأب إلى أن الجاحظ يعني أن الديك ليس له اسم سوى الديك ، واستدرك على الجاحظ بكلمتي « العترسان والعترفان » ، والحق أن الجاحظ إنما يعني الأسماء الجامدة التي ليس لها أصل في الاشتقاق ، فهو يقول قبل هذا الكلام : « وللسنور فضيلة أخرى ، أنهُ كثير الأسماء القائمة بنفسها ، غير المشتقات » وذكر من أسمائه القط ، والهر ، والضيون . أما الديك فليس له اسم آخر من الأسماء الجوامد مثل ما للسنور . وأما ما ذكره الأب من « العترسان والعترفان » فإن الواحد منهما مشتق من العترسة ، وهي الغصْب والغلبة ، والأخذ بشدة وعنف وجفاء وغلظة ، ومنه العنتريس للداهية وللناقة الصلبة الوثيقة والرجل الشجاع . والآخر مشتق من معنى الشدة والخبث . قالوا : جمل عتريف وناقة عتريفة شديدة . ورجل عتريف وعتروف أي خبيث فاجر جريء ماض .

— وفي ص ٣٧٣ ذكر الأب أن « الضمج » وهو ما يعرف في مصر بالبق لا يعيش بالعراق ، وأنه يموت هناك لشدة الحر . وهذا عجب ، فإنه إنما يتكاثر ويظهر في مصر في شدة الحر ، ويختفي في الشتاء والربيع . وقال أيضاً : إن صواب العبارة « يكون في السرر والحصر » لا « السرر والجدر » وأيد ذلك بقوله : « إنه يعيش فيها — أي الحصر — بمئات وألوف » مع أن المشاهد الواقع بين ظهراني المصريين أن الضمج إنما يشتد تكاثره في شقوق الجدران وثقوبها . ولذلك يلجأون إلى رأب تلك الصدوع وسد تلك الثقوب . أما الحصر فأقل شأناً من الجدر في إيواء الضمج وتكثيره . وأما كلمة « القتل » فقد نبهت عليها في أخطاء الطبع .

— وفي ص ٤٦٣ عبارة : « التياس صاحب التيوس » قال الأب : « يكفي التياس أن يكون له تيس واحد ، أو أن يكون ممسكاً تيساً واحداً ليصح فيه هذا الاسم » . وعلى قياس قوله ينبغي أن نفسر « الكلاَّب » بأنه صاحب الكلب ، و « البقَّار » بأنه صاحب البقرة ، وهكذا . وليس ذلك بمألوف في عبارات المفسرين من اللغويين ، فهم يقولون في تفسير الكلاَّب إنه صاحب الكلاب والقرَّاد صاحب القرود ، وفي تفسير البقَّار صاحب البقر ، والبغَّال صاحب البغال[1] ، ولعل ما دفع الأب إلى ذلك ما ورد في اللسان من قوله : « والتياس الذي يمسكه » وفي القاموس : « والتياس ممسكه » فهما في ذلك تابعان للجوهري في الصحاح . والجوهري إنما تكلم بالإفراد هنا لأنهُ أراد أن يرجع الضمير إلى « التيس » الذي سبق ذكره قبله ، وهو مفرد .

— وفي ص ٤٧٣ كتبت « الغراير » كما وردت في أصل الحيوان بالياء ، على التسهيل ، فقال الأب : « الصواب أنها مهموزة ... لأنها غير جوفاء ولا يائية البناء » . وليس في الأمر خطأ ولا صواب ، وإنما هما مذهبان يجري أحدهما على الهمز والآخر على التسهيل . والتسهيل هو لغة قريش في جميع كلامها ، وإن كان النحاة قد وضعوا للتسهيل قيوداً ورسوماً لم تعرفها قريش ، فإن النصوص متواترة أن قريشاً لم تستعمل الهمزة في كلامها . قال الرضي[2] : « تخففها قوم ، وهم أكثر أهل الحجاز ولا سيما قريش . روي عن أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه : نزل القرآن بلسان قريش ، وليسوا بأصحاب نبر ، ولولا أن جبريل عليه السلام نزل بالهمزة على النبي صلى الله عليه وسلم ما همزنا » .

وقال السيوطي[3] : « والكُتَّاب بنوا الخط في الأكثر على حسب تسهيلها لوجهين : أحدها أن التسهيل لغة أهل الحجاز ، واللغة الحجازية هي الفصحى » .

وقال ابن منظور[4] : وفي الحديث : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : يا نبيء الله . فقال : لا تنبر باسمي — أي لا تهمز — وفي رواية : فقال : إنا معشر قريش لا ننبر . والنبر : همز الحرف . ولم تكن قريش تهمز في كلامها . ولما حجَّ المهدي قدم الكسائي يصلي بالمدينة ، فهمز ، فأنكر أهل المدينة عليه وقالوا : تنبر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن » . على أن المتصفح لكثير من المخطوطات القديمة يرى كتابة التسهيل شائعة فيها .

— وقال الأب في ص ٤٧٤ في بيت أبي الأسود الدؤلي :

ولا بسبس كالعنز أطول رسلها ورِمَّانهـا يومان ثم يزول

---

(١) انظر اللسان (٢ : ٢١٨ س ٢ / ٤ : ٣٥٠ س ١٠ / ٥ : ١٤٠ س ١٣/٨ : ٦٣ س ١٠) .
(٢) شرح الشافية (٣ : ٣١) . (٣) همع الهوامع (٢ : ٢٣٣) . (٤) اللسان (٧ : ٣٩ — ٤٠) .

« الكلمة مصحفة أصلها بشيش بشينين معجمتين يتوسطهما ياء مثناة تحتيّة ساكنة ، والشيش الصيص ... » إلخ . وهذا التصحيح الذي أورده لا يستقيم به الوزن، ومن أين لنا تشبيه الصعب الخلق بالرديء من التمر .

— وفي ص ٥٢٥ : « الرق ، بالفتح : السلحفاة المائية » . وقد استغرب الأب هذا التعبير لأن السلحفاة تكون دائماً مائية برية » .

والحق أن السلاحف على ضربين : سلحفاة برية لها طبع الحيوان البري، وأخرى بحرية لها طبيعة التمساح تعيش في البحر وتضع بيضها في الشطوط . وقد عقد الدميري فصلاً لكل منهما . وفي اللسان : « والرق ضرب من دواب الماء شبه التمساح » . ويقال للسلحفاة البحرية أيضاً الحمسة والدجأة . وقد خصصت المعلمة البريطانية فصلين للسلحفاة البحرية : Sea tortoise و Sea turtle جاء في الأول منهما : these all have the limbs formed as flippers : أي أن لها أطرافاً كهيئة الزعانف . كما خصصت فصلين للسلحفاة البرية : Land tortoise و Land turtle جاء في الأول منهما : a chelonian of terresterial habits أي السلاحف ذات الطبائع البرية .

—وفي ص ٥٦٦ ورد ذكر « النقل » وهو ما يعبث به الشارب على شرابه ويتنقل به. وجاء في نصوص القدماء : « ويقال أيضاً بالضم ، وقيل الضم عامية » قال الأب : « وعندنا أن الضم هو الأفصح ، لأنهُ معرب عن اللاتينية : Nucleus » . والحكم بتعريبه ليس من القوة بمكان ، لأن المادة في العربية واسعة ، واشتقاق هذه الكلمة من مادتها ليس فيه شيء من العسر . ولو قد ذهبنا إلى أنها معربة ، ما كان هذا اللفظ الذي عرب حكماً ومقياساً في تقدير الفصيح والأفصح ، إذ أن اللغة العربية لغة مروية ، وللرواية فيها السلطان والحكم . والعرب لم يلتزموا في التعريب مداناة الأصل ولا مقاربته ، وإنما يلزمون ما تطوّع لهُ ألسنتهم وأذواقهم .

هذه بعض ما أسعفتني به هذه الصفحات المحدودة من « المقتطف » وبقيت مواضع لم أعرض لها خشية الإطالة .

وإني لأقدم إلى الأستاذ الأب الجليل شكراً صادقاً، واعترافاً خالصاً بجميل صنعه فيما درس من هذا الجزء من كتاب الحيوان ، وندعو الله أن يمتعه بالسلامة والعافية ، حتى نقرأ دراسته لسائر هذا الكتاب وما يتلوه من مكتبة الجاحظ ، ولنفيد من أدبه البارع وعلمه الوافر الغزير .

عبد السلام محمد هارون

التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى .

بشر فارس

المشتمل

١ — الكتب

الحياة الإنسانية عند أبي العلاء نقد بقلم إبرهيم عبد القادر المازني

كتب ظهرت :

إبليس يغني ، أبو نواس ، جحا في جانبولاد ، حلاوة الفراق في العراق ، المجتمع الأفضل

٢ — التحقيق

كلمتان في الديوان المنسوب الى المعرّيّ بقلم خليل شيبوب / محمد عبد الغني حسن

٣ — المصادر

ما سلم من تواريخ البلدان العراقية بقلم كوركيس عوّاد

١ – الكتب

• الحياة الإنسانية عند أبي العلاء • بقلم بنت الشاطيء

١٥ × ٢٢ سم ٢٠٨ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٤

هذا كتاب قيم، وضعته الأديبة «بنت الشاطئ» (السيدة عائشة عبد الرحمن) وتقدمت به إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول في سنة ١٩٤١ فنالت به درجة الأستاذية «ماجستير» في الآداب مع مرتبة الشرف الأولى، ونشرته في الشهر الماضي من هذا العام لمناسبة الاحتفال بمرور ألف عام على مولد المعري، بعد أن أعادت فيه النظر وراجعته.

ومما يجب أن يذكر لها بالحمد والإعجاب قولها في «مقدمة النشر» إن من خير ما انتفعت به عند مراجعة البحث وإعداده للنشر «الرجوع إلى التقرير القيم الذي كتبه عنه حضرة شيخي الجليل «الأستاذ أمين الخولي» والنظر في مناقشاته لي أثناء الامتحان. وأشهد أن هذا التقرير قد غيَّر من رأيي في غير مسألةٍ تغييراً جوهريًّا، فما أتردد في الاعتراف بأنه كان تكملة للتوجيه المنهجي الذي تدين به حياتي الفكرية لشيخي الجليل».

والكتاب فصول كثيرة بعضها أطول من بعض، تناولت فيها بالبحث الدقيق المعتمد على النصوص من شعر الشاعر ونثره، منهج أبي العلاء في تفكيره، ومكانه بين الشعر والفلسفة، وأبا العلاء أمام هذه الحياة، ومراحل الحياة الإنسانية، من النشأة إلى الموت، وما عسى أن يكون بعده. فتكلمت على إيمانه بالعقل تارة وكفره به تارة أخرى، وعللت اضطرابه وتناقضه، وعرضت أقوال من زعموه فيلسوفاً أو غير فيلسوف، وشاعراً أو غير شاعر، وانتهت إلى أن شأنه ليس بشأن الفيلسوف، وأنه قد يلتقي مع الفيلسوف في النهاية «ولكنه يأخذك إليه واثباً مسرعاً»، وأنهُ بين الشعراء في الذروة من حيث وضوح الشعور وصفاؤه وقوته، وبينت الفرق بينه وبين غيره من الشعراء، وكيف أنه لا يكذب ولا يقول إلاّ ما يعني، وأن شعره ترجمة صادقة عما يجد ويرى.

وتناولت تشاؤمه — وردَّته إلى دواعيه — ومتاعبه الخاصة في حياته ونضاله للدنيا وهزيمته، وسوء الحياة العامة في زمانه ومكانه، وعللت خروجه إلى بغداد بأنه فوق حب العلم وطلب الشهرة، كان مظهراً لنضاله، وتحديه للدنيا، والاستخفاف بمتاعبه وبآفته، ولكنهُ

وجد أن مكانه قلق في بغداد ، وإن كان قد زعم أنه ما رحل عنها إلاّ لمرض أمه وإخفاقه في طلب الثراء .

وانتقلت بعد ذلك إلى رأيه في الخلق وهل له علة غائيّة ، فاستخلصت من كلامه أنه يرى أن الكون لم يخلق لنا أو من أجلنا ، وأن ظواهره لا تتأثر بنا ، وأن لكل كائن حقه في الحياة ، وأن الكون لم يخلق عبثاً ، ولكنا نجهل العلة والحكمة وإن كان جهلنا لا ينفي وجودهما . وتكلمت على الخير والشر ، والجبر والاختيار ، ورأي أبي العلاء في ذلك كله ومذهبه فيه ، وكيف أنهُ كان متشائماً يرى الكون حافلاً بالشر ، وأن إرادة الله شاملة فهو تعالى خالق الخير والشر ، وأنه سبحانه لا يقع في ملكه ما لا يريد ، وأن الله لا يُحكم عليه بما يُحكم علينا بهِ ، وأننا لا نملك سوى مقاييسنا المحدودة وجلّ الله عن التشبيه والقياس وبينت أن الرجل كان متردداً بين الجبر والاختيار لا يثبت على رأي في أحدهما ، بل لقد بلغ من حيرته أنهُ كان أحياناً يجمع بين النقيضين ، وقد اختلف رأيهُ أيضاً تبعاً لذلك في الثواب والعقاب .

وساقت الشواهد على أن الشاعر ، على الرغم من سوء ظنه بالدنيا وما يعرب عنه من رغبتهِ في التخلص من محنة الحياة ، لم يبرأ من حب الدنيا ، بل كان متشبثاً بالحياة ، شديد الفزع من الموت ، لجهله بما وراءه وخوفه مما عسى أن يصير إليه بعده

وليس هذا الذي ذكرته إلاّ سرداً لما حواه هذا الكتاب من البحوث الدقيقة المحكمة وأشهد أنه خير ما قرأته في موضوعه ، بل خير ما نشر في عامنا هذا من المباحث المتصلة بأبي العلاء . والاستقصاء فيه تام ، والتحقيق وافٍ ، والآراء سديدة متزنة .

وليس ينقصهُ ليتمّ به انتفاع القراء إلاّ أن يضاف إليه شرح بعض الغريب ، فقد كان أبو العلاء مولعاً بهِ ، حتى لقد وصفه ياقوت في معجم الأدباء بأنه متفاصح متحذلق ، بل شتمه وقال إنه حمار ، ومعتوه ، ومجنون ، واتهمه بالزندقة وكفره . ولكن هذا لا يعنينا في هذا المقام ، وإنما أردنا أن نقول إنهُ كثيراً ما يستعمل ألفاظاً حوشية غير مأنوسة أو مألوفة مثل الضَّعْو للعصفور ، والمَعْو للرطب ، والنطف لفاسد النية ، والكر للحبل إلخ . . . ولا سيما في نثره ، ومن حق القراء على المؤلفين أن يتوخوا شيئاً من التيسير عليهم . فإن بنا حاجة إلى تحبيب الأدب العربي القديم إليهم ، وتألفهم من نفرتهم منه .

ابرهيم عبد القادر المازني

• إبليس يغني • بقلم صلاح الدين المنجد

١٤ × ٢١ سم ١٣٥ ص مطبعة الترقي دمشق ١٩٤٣

رأى الأديب الدمشقي صلاح الدين المنجد أن يشارك في بعث الأدب العربي القديم وصبه في قالب حديث منشط، فاختار قصتين من ذلك الأدب بطلهما إبليس، وهو تارةً يغني وأخرى يلهو، والقصتان من « الأغاني » في معرض أخبار الموصليّين إبراهيم وإسحق، وفيهما خفّة. والقصة الثالثة « حسناء البصرة » تمثل لوعات الوجد ولهفات الهيام. وقد اختار المؤلف قالب المسرحية للقصص الثلاث ولم يطلق مخيلته ولم يستثمر تجربته. ولكن توسم خطط الأصل متلطفاً فلم يتجاوز الترتيب والتفصيل والتقطيع. *(١)

• أبو نواس • بقلم عبد الحليم محمود

١١½ × ١٦½ سم ١٣٦ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

• جحا في جانبولاد • بقلم محمد فريد أبو حديد

١١½ × ١٦½ سم ١٤٤ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

• حلاوة الفراق في العراق • بقلم عبد الحليم اللاذقي

١٤½ × ٢٠ سم ٨٤ ص دار النهضة بيروت ١٩٤٤

في هذه الرسالة العجلى يحكي لنا المؤلف رحلة قام بها في العراق. وعلى قصر هذه الرحلة استطاع أن يجلو لنا مرآة تعكس بعض خصائص المدن العراقية الكبرى على تفاوتها وألواناً من النشاط الذي يقبل عليه أهلوها.

ولم يسطر المؤلف رحلته تسطير الأديب أو الشاعر أو المنقب، ولكنه أراد أن يقرر وأن يصف وان ينبه على طريقة الجوّال المستطلع في بساطة وسهولة. وله على وجه التخصيص التفاتات مفيدة إلى ناحية تخطيط المدن.

هذا ولعلّ المؤلف أراد بعنوان الرسالة — وهو مستغرب — أن يقول إن العراق حلو عنده إلى حدٍّ يجعل حلواً فراقَ الأهل والأحباب من أجله. *

(١) النجم يرمز إلى اسم من أسماء المتعاونين على الإنشاء في هذا الباب.

• **المجتمع الأفضل** • بقلم **أندره فكتور**

١٤×٢٠ سم ٧٨ ص دار المكشوف بيروت ١٩٤٣

يحسن التنويه بإقبال دار المكشوف على نشر سلسلة من التآليف التي تتناول « مشاكل اليوم » وذلك بجنب إخراجها مجلتها المتداولة ومنشورات في فن النثر والشعر وقف قارئ هذا الباب على طائفة منها . وأما تلك السلسلة فتصفها الدار تقول إنها « غذاء عقلي يستسيغه كل طالب معرفةٍ وراغبٍ في الاطلاع على ما يضطرب به العصر من معضلات » .

و « المجتمع الأفضل » رسالة لطيفة ألفها كاتب فرنسي ثم نقلها إلى العربية الأستاذ إلياس أبو شبكة، فهو حريّ بشكر الشاكر . وتتصل الرسالة من حيث المجرى والمقصد بسياسة النفس البشرية ، وروائدها المحبة والعمل والإتقان وغير ذلك من البواعث الشريفة .

ويا ليت الرسالة خرجت في لغتنا سليمــة الأداء ، محكمة السبك . فإن في أسلوبها أثر التركيب الفرنسي في مواضع ، مما يُخرج التعبير عن نسجنا وصياغتنا ، وقد يزلقه إلى جانب العُجمة . في الرسالة مثل هذا : « فهل فكرتم مرة في أهمية ما يصدر عن اقتناء مذهب اجتماعي سليم » ، ومثل هذا : « المناضل لأجل مصالحه الذاتية ضد مصالح الآخرين » .

وأما الزلات فقول المترجم : « تبريراً لما يأتونه من مظاهر العنف » . والصواب « تسويغاً » لأن المقصود هو التجويز لا التزكيــة — وقوله : « أسياد العالم » . و « أسياد » من لفظ العامة على ما نبه عليه الشيخ إبرهيم اليازجي في « لغة الجرائد » (١) — وقوله : « فهل هي مذهب فناء أم هي مذهب حياة للمجتمع ؟ » فوضع علامة الاستفهام في آخر الجملة ينخرج معنى أم من الإضراب ، فالغرض إذاً طلب التعيين ، ولا بدّ من استعمال الهمزة — وقوله : « منهمكاً بمصالحه » والمسموع : « همكه في الأمر ، وانهمك فيه وتهمك فيه » عن « لسان العرب » .

هذا وحسب المترجم هذا القدر من المآخذ ، وهي بعض ما وقفنا في خمس الصفحات الأوليات من الترجمة . على أننا ندري أن في القطر الشقيق : في بلد اليازجيين والبستانيين أولئك الأئمة الأعلام ، من تسلم العبارة على طرف قلمه ويروق البيان ، فهنالك الفاخوري والعلايلي وعبّود وزريق وزخريّا ، وأضرابهم غير قليل فلسنا ها هنا في سبيل الإحصاء .

وبعدُ فليس الأصل الفرنسي بين يدينا فلا سبيل إلى الحكم في شأن الترجمة وفي مبلغ انطباقها على الأصل .

*

(١) من غرائب العاميات في هذه الرسالة كلمة « ورشة » ص ٢٢ . والمقصود المصنع أو المعمل ، فلفظة الورشة مما عربه العامة عن الانجليزية workshop .

٢ – التحقيق

نشر المقتطف في جزء أغسطس الذاهب ديواناً منسوباً إلى أبي العلاء المعري، عُني بإخراجه الدكتور أسعد طلس . وقد وردت علينا كلمتان في تحقيق هذا الديوان ننشرهما بعد :

— ١ —

إن من قرأ ديوان اللزوميات وديوان سقط الزند للمعري وألِف بعض الشيء طريقته في التفكير والنظم يقطع قطعاً باتّاً بأن الديوان الذي نشر في المقتطف في عدد أول أغسطس سنة ١٩٤٤ لا تصح نسبته إليه، بل هو لبعض المتأخرين من شعراء القرن العاشر أو الحادي عشر الهجري، لأن في روح هذا الشعر وأسلوبه ومعانيه واستعاراته دليلاً واضحاً على أن ناظمه متأثر ببعض الشعراء الغزليين من المائة الأولى للهجرة، كقوله :

نفت عن جفوني النوم ورق حمائم شكون ولم يفصح لهن لسانُ
نعين ولم يذرفن دمعاً وإنما تناثر من عيني لهن جمان

فإن فيه التفاتاً إلى الأبيات المشهورة لابن الدمينة :

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة فإني إلى أصواتكن حنونُ
ولم ترَ عيني قبلهن بواكياً بكينَ ولمّ تدمع لهنّ عيون

أما تأثره بديوان ابن الفارض فجليّ كل الجلاء ، حتى إن كثيراً من معانيه مقتبس منه ، بل إن طريقته في الوصف مطبوعة بطابعه ، كقوله :

إليك فلو ذقت الهوى لعذرتني جفونك وسنى والفؤاد هواء

قال ابن الفارض :

دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى فإذا عشقت فبعد ذلك عنّفِ

وقوله :

عدوني وإن لم تنجزوا رب موعد شفى علتي منكم وإن خاب مطمعي

قال ابن الفارض :

عديني بوعدٍ وامطلي بوفائه فعندي إذا صح الوفا حسُن المطْلُ

وقوله : ضمنت لها أن لست أسلو عن الهوى وحكمته فليقض ما هو قاض

قال ابن الفارض :

ولك الأمر فاقض ما أنت قاضٍ فعليَّ الجمال قد ولاكا

إلى غير ذلك من الأبيات الكثيرة المنبثة في الديوان ، حتى إن في قصائد حروف الراء والطاء والعين وبخاصة النون معاني منسوخة نسخاً وممسوخة مسخاً لبعض المتقدمين ، ولابن الفارض هذا . وهناك صيغ شعرية ، كقوله «عشيات الحمى »و«موعدك الحشر »تثبت أن الناظم لم يكن يجري على سليقة مستقلة أو أسلوب شخصي . إلاّ أننا في الأبيات الأولى من قصيدة حرف الزاي نتبين بعض الشيء روح المعري ، والبيت الوحيد الذي يتمشى مع نفس المعري هو قوله :

ضغائن في صدر الليالي على الفتى فمستقبل من خطبهن وماض

على أن قولهم إن في هذا الشعر قيوداً مما كان المعري يأخذ نفسه بها ، ليس على شيء من الصحة ، لأن المعري لم يأخذ نفسه إلاَّ بالتزام ما لا يلزم ، كما انقاد في بعض المواقف إلى الإكثار من الجناس اللفظي من مركب ومصحف وتام وغير ذلك .

أما ناظم هذا الديوان فقد تقيد بعدد الأبيات في كل قصيدة فجعله عشرة ، وأخذ على نفسه ما يسميه البديعيون « الحبك » وهو ابتداء كل بيت بحرف القافية وهي طريقة متأخرة لم يجر عليها المعري بل ابتدعها صفي الدين الحلي في القرن الثامن الهجري في مجموعة قصائد عددها تسع وعشرون قصيدة وعدد كل قصيدة تسعة وعشرون بيتاً مدح بها الملك المنصور نجم الدين بن أرتق ، وأسماها : « درر النحور في امتداح الملك المنصور » وقدمها إليه سنة ٧٠١ للهجرة مع قصيدة جاء فيها :

أهدي قلائد أشعار فرائدها درا نهضت به من أبحر عمق
تسع وعشرون إذ عدت قصائدها ومثلها عدد الأبيات في النسق
لم أقتنع بالقوافي في أواخرها حتى لزمت أواليها فلم تعق

وإنه لمن الخير أن ينشر مثل هذا الديوان حتى يُنفىَ عن حكيم المعرة في عهد يحيي فيه العالم العربي عيده الألفي ، ويعمل على نشر كل ما قيل فيه . فللناشر ولمجلة المقتطف كل الشكر على ذلك .

الاسكندرية خليل شيبوب

— ٢ —

عرفت من أحد علماء العربية مشافهة أن المخطوط ليس عليه تاريخ يعين زمانه ، وأن بهِ مقدمة قصيرة ، وأن الخط المكتوب بهِ بقلم النسخ القريب من خطوط القرن العاشر فما بعده .

أما المقدمة القصيرة فقد نشرتها المقتطف ، وهي ليست من أسلوب أبي العلاء بسبيل . فإن عبارات التحميد فيها ليست مما جرى عليهِ المعري في مقدمة « سقط الزند » ، ومقدمة « لزوم ما لا يلزم » . فهو في هاتين المقدمتين بعيد عن التحميد ، وإن كان يختمهما بطلب التوفيق من الله . أضف إلى هذا ورود لفظة « أشغل » وهي لغة رديئة في « شغل » .

وهناك أمور تجعل القارئ في شك مريب من نسبة هذا الديوان إلى أبي العلاء المعري . وقد يكون « لأبي علاءٍ معريٍّ » آخر ممن ولدوا بالمعرة واشتركوا مع شاعرنا المشهور في الكنية والنسبة وعاصروهُ أو تأخروا عنه ، مثل أبي العلاء بن أبي الندى ، وأبي العلاء أحمد بن أبي اليسر ، وأبي العلاء بن عبد الله بن المحسن وغيرهم .

ومما يحمل على الشك في نسبة هذا الديوان إلى شاعرنا المعري التنوخي أمور منها :

(١) أن طريقته التي التزمها من حبك أول البيت وآخره هي طريقة متأخرة لم تكن معروفة في عهده . والمتتبع لتطور الشعر العربي يلاحظ أن « الحبك البديعي » لم يظهر قبل عصر « صفي الدين الحلي » من شعراء القرن الثامن (٦٧٧ — ٧٥٠ هـ) . ولعلَّ « الحلي » أول من استعمل « الحبك » في شعره . وكان ذلك في قصائده المعروفة « بالأرتقيات » التي مدح بها المنصور أحد ملوك الدولة الأرتقية بماردين . على أن طريقة الحبك هذه لم تجد لها — بعد صفي الدين الحلي — سوقاً رائجة عند الشعراء وعلماء البديع . فان تقي الدين بن حجة الحموي (٧٦٧ — ٨٣٧ هـ) لم يشر إليها في « بديعيته » ولا في شرحها المعروف (بخزانة الأدب) مع أنهُ أورد فيها مائة واثنين وأربعين نوعاً من البديع . ولعل هذا يدل على أن تلك الطريقة غير متأصلة في أدبنا .

ولقد قال — وقد يقول قائل — إن الأخذ « بالحبك » والتزامه والتزام العدد نوع من « لزوم ما لا يلزم » الذي أخذ أبو العلاء بهِ نفسه في كثير من شعره . ولكن الرد على هذا أن التزام ما لا يلزم هو شيء شرحه المعري في مقدمة اللزوميات شرحاً فائضاً . وهو شيء يتعلق بالقافية فقط وما يتصل بها من الروي . أما أوائل الأبيات واتفاقها بعضها مع بعض

واتفاقها مع أواخر الأبيات ، والتقيد بعدد معين من الأبيات في كل قصيدة ، فذلك ليس من لزوم ما لا يلزم في قليل ولا كثير .

(٢) هذا الديوان في الغزل وفيه صبابات وأشواق لم تعرف عن أبي العلاء المشهور . وليس معنى هذا أن أبا العلاء لم يتغزل قط . فله القافية التي أولها : « زارت عليها للظلام رواق » ، وله الضادية التي أولها : « منك الصدود ومني بالصدود رضا »

وأبو العلاء أعقلُ من أن يعنّيَ نفسه بغزل متكلف ، وأن يختص به ديواناً برمته . فقد صَحَّ له بعض الغزل والشوق الملحّ إلى المعرة ، كقوله وهو في الكرخ مخاطباً البرق :

فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسالي

(٣) يقول في المقدمة : إن هذا الديوان في التشوق إلى حلب ونواحيها . وليس فيه إلاّ بيتان اثنان فيهما إشارة إلى ذلك ، ذكرها الأستاذ أسعد طلس في كلمته التي قدّم بها بين يدي الديوان . على أن المعري في شعره الصحيح في الحنين إلى وطنه يصرّح بذكر المعرة ولا يذكر « حلب » كما تقول مقدمة الديوان . ومن شعره في المعرة غير ما أوردته سابقاً قوله :

سرى برق المعرة بعد وهن فبات برامةٍ يصف الكلالا

(٤) في الديوان أخطاء في اللغة والنحو نعجب من صدورها من أبي العلاء المعروف بعلمه الواسع . وفيه تساهل وتجوّز لم يعرف في عصر أبي العلاء . فهو يقول : « وقلبي إلى نحو الأحبة مجبذ » . والصحيح أنها مجبوذ بمعنى مجذوب . لأن الفعل ثلاثي لا رباعي . ويقول : « فما استنشقتها الريح إلاّ وهبت » . والواو هنا بعد إلاّ لحن لا يفوت على مثل أبي العلاء . قال تعالى : « ما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزئون »

ويقول : « قفوا وانصفوا » بهمزة الوصل ، والصحيح قطع الهمزة لأن الفعل رباعي . وكان الأولى أن يقول : « قفوا أنصفوا » بحذف واو العطف ليتم القطع . ثم يقول : « وما المبتلي والمستريح سواءٌ » برفع سواء . والأولى نصبها على لغة الحجازيين الغالبة ، لا رفعها على لغة تميم .

(٥) في الديوان تعابير ليست لأبي العلاء ولكنها لشعراء قبله مشهورين . والمعروف أن المعري كان حريصاً في أخذه معتزًّا بتفرده في تعبيره .

فقوله : « موعدك الحشر » من الهذلي في رائيته الفاتنة . وقوله : « زنت أعين منا وعفت ضمائر » من قول الهمداني : « لقد كرمت نجوى وعفت ضمائر » .

وقوله : « عشيات أيام الحمى » من قول شاعر الحماسة : « فليست عشيات الحمى برواجع »
وقوله : « وحراس عليّ حراص » من قول ابن حجر الكندي :

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً علىَّ حراصاً لو يشرُّون مقتلي

(٦) في الديوان تعبيرات ركيكة واستعارات وتشبيهات سخيفة أو غير مألوفة في عصر المعري . كقوله :

ذوائبه مسك ثناياه لؤلؤ وخداه تبر والعذار زمرذ

فالخدود تشبه بالورد. والعذار يشبه بالنمل أو النبت الناجم ولا يشبه بالزمرذ. ثم كقوله :

غرير شممت منه فاه بسُحْرةٍ فقلت له هل أنت للمسك ماضغ ؟

يريد أنه عَذْب المقبَّل ، طيب رائحة الفم . والتأليف هنا سخيف .

ومن التأليف الركيك قوله :

جلاء همومي طيفكم يوضح الدجى وإلاّ فأنفاس الصبا تتأرج

وقوله : جميلاً فما فعل الجميل بضائع ولاسيا في الصب والصبّ أحوجُ

ومن الاستعارات السمجة قوله :

رشا صام عُلْوا فادعت يثرب الحشا وأفطر سفلاً فادعت ردفه مصر

(٧) في الديوان تذلل في الغزل ، وهذا ليس بأخلاق المعري أشبه . وكلمة الذل والتذلل تدور في هذا الديوان مرّات كثيرة كأنها مضروبة على صاحبه ! فهو يقول : « طباعي أبت إلاّ التذلل في الهوى » ويقول : « رأى ذلتي في العشق فاعتز واعتدى » وغير ذلك .

الحق أن هذا الغزل المنسوب إلى أبي العلاء يشبه غزل ابن الفارض في تذلله حيث يقول :

مني له ذل الخضوع ومنهُ لي عزّ المنوع وقوة المستضعف

ولعلّ ناظم هذا الديوان المريب متأخر جرى فيه مجرى « عمر بن الفارض » في غزله الصوفي .

(٨) في بعض أبيات هذا الديوان رقة ذائبة أراها كثيرة على أبي العلاء المعري الزاهد المخشوشن حتى في لفظه ... كقوله :

أصابت فؤادي أسهم اللحظ إذ رمت فلله قتلى الأعين الشهداء

وكقوله : دفعت إليها في الوداع وديعة وقلت احفظيها إنني سأعود

ولقد ورد في الديوان بعض التصحيف مما سها عنه الناشر مثل : « فها أنا أدري مثلهم وأساء » والصواب : أوذي . ومثل : « فقلت دعوني ميتاً إنما يسمع الحي » والشطر مكسور لزيادة كلمة ميتاً ، والصواب حذفها ليقوم الوزن . ورحم الله أبا العلاء .

محمد عبد الغني حسن

٣ – المصادر

ما سلم من تواريخ البلدان العراقية

١ — تصدير

لم يبق لنا في الخزائن إلاّ نزر يسير من الكتب العربية . ولو حاولنا الموازنة بين ما أُلِّف من التصانيف منذ بدء التأليف في الإسلام حتى سنة ١٢٥٠ للهجرة مثلاً ، وما بقي من ذلك، لاختلَّ بيدنا الميزان، ولتعذَّر التعادل بين الموجود والمفقود . والأمثلة على ذلك تفوق الحصر . فأبو الريحان البيروني الذي أَرْبت مؤلّفاته على مائة وعشرين مؤلفاً ، بين مجلّد ورسالة ، لم يتّصل بنا منها سوى عشرين ، ثمّ إنّ المطبوع من هذا العدد الأخير لا يتعدّى عدد أصابع اليد الواحدة .

وكذلك إسحق بن إبرهيم الموصلي ، فقد ذكر له ابن النديم نحواً من أربعين كتاباً، فأين هي الآن ؟ ومن يصدق أنها أصبحت اليوم أسماءً بلا مسمّيات ؟

وهشام بن محمد بن السائب الكلبي أثبت ابن النديم أسماء مؤلفاته ، فإذا هي قد جاوَزَت مائة وأربعين تأليفاً . فأين نحن من ذلك التراث الأدبي ؟ والمعروف منها في عصرنا لا يزيد على الثلاثة ؟

ومثل هذا في ذكر التآليف شيء كثار ، نخشى أن نُمعن فيه إلى أكثر ممّا ذكرنا ، فنسئم به القرّاء وهو مما نتحاماه .

٢ — البلدان العراقية

ولقد نالت البلدان العراقية حظًّا حسناً وعنايةً فائقة عند قدماء المؤلّفين . فصنّفوا الكتب في أغلبها ، باحثين عن خططها وحوادثها وأخبار رجالها . ولا نجانب الصواب إذا ما قلنا إنّ المؤرخين لم يَدَعُوا مدينةً عراقية ذات شأن ، إلاّ عُنوا بتدوين تاريخها فإربل والانبار والبصرة وبغداد وتكريت والحيرة وسامراء والكوفة والموصل وواسط

وغيرها ... كل هذه المدن عثرنا في المراجع المختلفة على أسماء تواريخها [١] . ونضيف إلى ما تقدم أنّ أغلبها لم يُصنَّف فيه كتابٌ واحدٌ فحسب ، بل كان لبعضها ثلاثة كتب أو خمسة أو عشرة أو عشرون أو ثلاثون أو ما يزيد على ذلك .

٣ — سبيلنا في هذا البحث

وقد حاولنا في هذا المقال أن نستقصي ذكر ما انتهى إلينا خبره وما وقع إلينا من هاتيك المؤلّفات الموضوعة منذ أوائل التأليف في الإسلام حتى سنة ١٢٥٠ للهجرة (١٨٣٤ م) ، مشيرين إلى المطبوع منها والمخطوط . فإن كان مطبوعاً ذكرنا محل طبعه وسنته واسم ناشره إلى غير ذلك من البيانات الضرورية . وإن كان مخطوطاً دللنا على نسخه ومظانها على قدر ما أُتيح لنا من الوقوف عليه ، ووصفناها بما يناسب المقام . ولم نغفل عن تعيين سني وفيات المؤلفين ولا عن ذكر المراجع [٢] التي تطرّقت إليّ أخبارهم . هذا وقد راعينا في ترتيب المدن التسلسل الهجائي في أسمائها ، ورتّبنا أسماء المؤلفات ذاتها في هذا المقال بحسب قدمها ، الأقدم فالقديم والحديث فالأحدث .

أما المؤلفات القديمة التي ضاعت بمرور الأيام ، فإنها لا تدخل في نطاق بحثنا هذا ، كما أننا لم نتكلّم على ما صنّف من تواريخ هذه المدن بعد سنة ١٢٥٠ للهجرة . فلهذه ولتلك حديثٌ طويل ربما نعود إليه في فرصة أخرى .

◆◆◆

﴿ البصرة ﴾ : الكتب المؤلفة في تاريخها وأخبارها ورجالها ، ناهزت عدّتها عشرين كتاباً ، لا نعرف منها اليوم سوى :

١ — أخبار الوافدين من الرجال من أهل الكوفة والبصرة والوافدات على معاوية ابن أبي سفيان : جمعهُ أبو الوليد العباس بن بكّار الضبّي [٣] ، المتوفى بالبصرة سنة ٢٢٢ هـ رواية أبي القاسم التنوخي ، عن أحمد بن عبد الله الدوريّ ، عن شيوخه ، عنه .

لم يرد ذكر هذا الكتاب في كشف الظنون . وقد وقفنا على خبر نسخةٍ منه في خزانة

---

(١) للمؤلفين المحدثين تصانيف في تواريخ هذه المدن العراقية : إربل ، البصرة ، بغداد ، تلكيف ، الحلة ، الحيرة ، سامراء ، العمارة ، كربلاء ، الكوفة ، الموصل ، النجف .

(٢) كثير من هذه المراجع يتكرر ذكرها في هوامش هذا المقال . وسنذون عناوينها كاملة في المرة الاولى ومختصرة فيما يلي ذلك

(٣) انظر ترجمته في لسان الميزان لابن حجر العسقلاني (٣ : ٢٣٧ — ٢٣٨)

كتب الأسكوريال (١) قرب مدريد ، ضمن مجموعٍ رقمه ٤٦٧ (الورقة ٧٣ — ١٠١ منه) وهو غير مطبوع .

٢ — أخبار النحويين البصريين : لأبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي ، المتوفى سنة ٣٦٨ هـ . قال في أوّله إنه « كتاب فيه أخبار مشاهير النحويين ، وطرف من أخبارهم ، وذكر أخذ بعضهم عن بعض ، والسابق منهم إلى علم النحو » .

وقد احتوى الكتاب بعد المقدمة ، على أخبار عشرة من أولئك النحاة البصريين ، وهم : أبو زيد والأصمعيّ وأبو عبيدة والجرْميّ والمازنيّ والتوزيّ والزياديّ والرياشيّ والسجستانيّ والمبرّد .

عُنيَ بتحقيقه ونشره المستشرق فرتس كرنكو F. Krenkow عن نسخةٍ في إستانبول (٢) ، كتبت سنة ٣٧٦ هـ فهي قريبٌ عهدها جدًّا من عصر المؤلف . طبع في بيروت سنة ١٩٣٦ (المطبعة الكاثوليكية ، ١١١ صفحة صغيرة المتن ، معها ٣ صفحات مصوَّرة بالشمس ، وفيها ٩ صفحات لمقدمة فرنسية للناشر)

ترجمة السيرافي في : الفهرست لابن النديم (ص ٦٢ — ٦٣ فلوجل) ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٧ : ٣٤١ — ٣٤٢) ، ونزهة الألبّاء للأنباري (ص ٣٧٩ — ٣٨٢ طبعة سنة ١٢٩٤ هـ) والمنتظم لابن الجوزي (٧ : ٩٥) ، ومعجم الأدباء لياقوت (٣ : ٨٤ — ١٢٥ مرجليوث) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (١ : ١٨٣ بولاق ١٢٧٥ هـ) ، والبداية والنهاية لابن كثير (١١ : ٢٩٤) وبغية الوعاة للسيوطي (ص ٢٢١ — ٢٢٢) ، وشذرات الذهب لابن العماد (٣ : ٦٥—٦٦) . وفي كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (١ : ١٢٩ وما بعدها) تقريظٌ له ونعتٌ لمعارفه .

٣ — منظومة في آل أفراسياب : للشيخ ياسين بن حمزة بن أبي شهاب البصري . والأسرة التي وُضعت لها هذه القصيدة ، تنتسب إلى أفراسياب الديريّ (نسبة إلى الدير ، موضع في شمالي البصرة) المتوفى سنة ١٠١٢ هـ ، وكان تولى أمارة البصرة سنة ١٠٠٥ هـ ، في عهد السلطان العثماني مراد الثالث . من هذه المنظومة نسخة خطّية في خزانة الأستاذ عباس العزاوي ببغداد .

---

(١) Derenbourg: Mss. Ar. Escur. (Vol. I. Paris, 1884, p. 311, No 467, 5-6)

(٢) أفادني الدكتور مصطفى جواد أن في خزانة الجامعة المصرية بكلية الآداب نسخة من هذا الكتاب

٤ — زاد المسافر ولهنة [1] المقيم والحاضر فيما جرى لحسين باشا بن أفراسياب حاكم البصرة : تأليف الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي ، المولود سنة ١٠٥٣ والمتوفى بعد سنة ١٠٩٠ هـ . يتناول هذا الكتاب أخبار البصرة وأحداثها في أواخر المائة الحادية عشرة للهجرة (١٦٤٥ — ١٦٦٥ م) . نشره خلف شوقي أمين الداودي (مطبعة الفرات — بغداد ١٩٢٤ ، ٥٦ ص) . أما مؤلف الكتاب ، فقد دوّن الناشر ترجمته في صدر الكتاب وأورد شيئاً من شعره .

٥ — سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد : للشيخ عثمان بن سند البصريّ المتوفى ببغداد سنة ١٢٤٢ هـ ، وقيل في سنة وفاته غير ذلك

في هذا الكتاب ترجمة الشيخ أحمد المذكور ، المتوفى سنة ١٢٢٤ كما أن فيه تراجم أعيان البصرة خاصة ، في أوائل المائة الثالثة عشرة للهجرة ، هذا إلى ما تضمنه من تراجم رجالٍ من البحرين والكويت ونجد والبلاد العراقية . ألّفهُ ابن سند لأولاد الشيخ أحمد ، وكانوا خمسة ، وقد خصّ كلاًّ منهم بترجمة (انظر الصفحة ١٠٧ — ١١٥ من السبائك) ، وذكر أخبار أصحابهم معهم . وعبارات الكتاب مسجّعة كلها ، يتخلّلها أشعار كثيرة . طبع بمطبعة البيان في بمبي سنة ١٣١٥ هـ في ١٢٠ صفحة .

أما ابن سند ، مؤلف الكتاب ، فقد دوّن ترجمته غير واحدٍ ، منهم : كاظم الدجيلي (لغة العرب ٣ (١٩١٣) ص ١٨٠ — ١٨٦) ، ومحمود شكري الآلوسي (المسك الأذفر في تراجم علماء بغداد في القرن الثاني عشر والثالث عشر ص ١٤١ — ١٤٦) والأب لويس شيخو اليسوعي (الآداب العربية في القرن التاسع عشر ١ : ٩٤) .

• • •

❋ بغداد ❋ : أما المؤلفات الموضوعة في تاريخ بغداد ، فكثيرة جدًّا تنيف على أربعين مؤلفاً ، منها ما هو في مجلدات كثيرة . والذي سلم منها على ما نعلم :

١ — كتاب بغداد : لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر المعروف بطيفور ، المتوفى سنة ٢٨٠ هـ (طالع ترجمته في الفهرست ص ١٤٦ ، وتاريخ بغداد للخطيب ٤ : ٢١١ — ٢١٢ ، ومعجم الأدباء ١ : ١٥٢ — ١٥٧) . وهذا الكتاب أقدم تاريخ وضع لمدينة بغداد [2] لم يسلم من آفات الدهر سوى جزئه السادس ، كان محفوظاً في خزانة المتحف البريطاني [3]

(١) اللهنة : ما يتعلل به قبل الغداء (٢) كشف الظنون (٢ : ١١٩ فلوجل)

(٣) Cat. Cod. Man. Or. Mus. Br. (London, 1846, p. 545; No. 1264

بلندن ، فاستخرجه المستشرق هنس كلر H. Keller واستنسخه باليد وطبعه على الحجر ، ثم نقله إلى الألمانية وعلق عليه (ليبسك ١٩٠٨ م ، ٣٨٢ ص للمتن و ١٨٥ للترجمة) . وكان المستشرق المذكور قد نشر جانباً من هذا الجزء (الورقة ١ — ٢٦ من المخطوط) في أطروحته التي وضعها بصدد هذا السفر التاريخي ، وطبعها في ليبسك سنة ١٨٩٨ (٢٧ ص المتن و ٦٠ ص للترجمة والمقدمة والتعليقات بالألمانية) .

إن الأجزاء الخمسة الأولى من هذا الكتاب ، لا تزال ضائعة [١] . وهذا الجزء السادس يتناول أخبار المأمون منذ شخوصه إلى بغداد في سنة ٢٠٤ هـ (وهي سنة مولد المؤلف) إلى وفاة الخليفة المذكور عام ٢١٨ هـ ، مع ما ينوط بأحوال زمانه ، وذكر الأدباء والشعراء الذين اختلفوا إلى مجلسه .

ولسنا نعلم علم اليقين كم كان عدد أجزاء هذا الكتاب الجليل . غير أن ابن النديم (الفهرست . ص ١٤٧) ذكر أنهُ ضمنهُ الأخبار إلى آخر أيام المهتدي [٢] .

فالأجزاء التي قبل السادس ، تناولت على ما نظن ، أخبار خمسة من خلفاء بني العباس وهم : المنصور (باني بغداد) والمهدي والهادي والرشيد والأمين . فهل كان المؤلف قد خصّ كل خليفة منهم بجزء من كتابه ؟

ثم يجيء الجزء السادس وهو الذي طبع ، فيستوفي أخبار المأمون كما أسلفنا . ومن ثمة لا نشك في أن الكتاب يحوي بضعة أجزاء أخرى ، فيها أخبار من تولى زمام الخلافة بعد المأمون ، وآخرهم المهتدي [٣] .

وقد ذكر ابن النديم (الفهرست. ص ١٤٧) . أن عُبَيد الله بن أحمد بن أبي طيفور « زاد على كتاب أبيه أخبار المعتمد وأخبار المعتضد وأخبار المكتفي وأخبار المقتدر ، ولم يتمه » ولكن هذا التاريخ لم ينته إلينا مع الأسف وإنما وقفنا على نقول منهُ في كتاب بدائع البدائه لابن ظافر الأزدي (ص ٣٦ و ٤١ و ١١٩ بولاق ١٢٧٨ هـ) ومعجم الأدباء (١ : ١٥٣) ولسان الميزان (٩ : ١٩٠) .

٢ — تاريخ بغداد مدينة السلام : للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ . طبع هذا الكتاب بكماله في القاهرة (مطبعة السعادة ، سنة ١٩٣١ في

---

(١) وقفنا على نقل من أحدها في تاريخ بغداد للخطيب الآتي ذكره (راجع مقدمته الخطية ، ص ٤ ٧ طبعة سلمون)
(٢) دامت خلافته نحواً من سنة ، وانتهت في شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ (٣) هؤلاء الخلفاء سبعة وهم المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي. وكثيراً ما تمنينا أن تكون هذه الاجزاء بيدنا ، لنستدل بها على ما كانت عليه بغداد في عهد انتقال الخلفاء العباسيين منها الى مدينة سامراء .

١٤ مجلداً[1] ، تبلغ في مجموعها نحو ٦٨٠٠ صفحة . ويدور هذا التاريخ على أمرين :

الأول : خطط بغداد القديمة . وقد تكلّم فيه على بناء مدينة بغداد ، وتحديدها وذكر محالّها وطاقاتها وسككها ودروبها وأرباضها وقصورها ومساجدها وأنهارها الجارية بين الدور والمساكن وجسورها ومقابرها .

الثاني : رجال بغداد أو مَن طرأ عليها من بلدانٍ شتّى . وقد ترجم منهم ٧٨٣١ شخصاً وهذه التراجم تكاد تكون مرتّبة فيه على حسب حروف الهجاء ، غير أنهُ ابتدأ بالمحمّدين ثم بالأحمدين ، ثم اتبع حروف المعجم .

وكان المستشرق جورج سلمون (G. Salmon) قد نشر القسمَ الأوّل المتضمّن خطط بغداد من تاريخ الخطيب ، في باريس سنة ١٩٠٤ ، مترجماً إياه إلى الفرنسية بعنوان . L'Introduction Topographique à l'Histoire de Baghdad (٩٣ ص للمتن ، و ٢٠٦ ص للترجمة والمقدمة والتعليقات والفهارس) .

وقد ألّف الملك المعظّم أبو المظفّر عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب الحنفي ، المتوفىَّ سنة ٦٢٤ هـ ردًّا على تاريخ الخطيب فيما يتعلّق بفقه الإمام أبي حنيفة النعمان الذي ورد في المجلّد الثالث عشر منه . وعنوان هذا الردّ « السهم المصيب في كبد الخطيب » . طبع في القاهرة سنة ١٩٣٢ (مطبعة السعادة ، ١٨٤ ص) وللجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ ردّ آخر بعنوان « السّهم المصيب في نحر الخطيب » ذكره صاحب كشف الظنون (٣ : ٦٣٢) ولا نعلم أنه طُبع .

ولتاريخ بغداد للخطيب ، « ذيول » و « مختصرات » متعدّدة ، صنّفها جماعة ممّن جاء بعده من المؤرّخين ، وسنذكر ما بقي لنا منها في سياق هذا المقال .

ترجمة الخطيب في : تاريخ ابن عساكر (التهذيب ١ : ٣٩٨ — ٤٠٠) ، والمنتظم (٨ : ٢٦٥ — ٢٧٠) ، ومعجم الأدباء (١ : ٢٤٦ — ٢٦٠) والوفيات (١ : ٣٧ — ٣٨) ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣ : ١٢ — ١٦) ، والبداية والنهاية (١٢ : ١٠١ — ١٠٣) وطبقات الشافعية المصنف (ص ٥٧ — ٥٨) ، والشذرات (٣ : ٣١١ — ٣١٢) .

٣ — تذييل تاريخ بغداد : لأبي سعد السمعاني صاحب كتاب الأنساب ، المتوفّى سنة ٥٦٢ . وقد ضاع أكثره في ما أظنّ ، وبقي قليلٌ منه أدخله البنداري في تاريخه الذي

(١) ذكر الحاج خليفة (كشف الظنون ٢ : ١١٩) أن نسخة منه بخط المؤلف كانت في وقف المستنصرية أربعة عشر مجلداً .

ألّفه لبغداد على ما سيجيء خبره ، وشيءٌ من مختصَره الذي لابن منظور كما سنذكره أيضاً ، وكان السمعاني قد ذيّل بكتابه هذا « تاريخ بغداد » للخطيب وجرى فيه على أسلوبه ، وجعله في خمسة عشر مجلداً على ما ورد في المظان التاريخية .(١)

والسمعاني هذا ، عَلَم من أعلام التأليف في الإسلام ، وتجد ترجمته في المنتظم (١٠ : ٢٢٤ — ٢٢٥) ، واللباب في الأنساب لابن الأثير (١ : ٩ — ١١) ، والوفيات (١ : ٤٢٦ — ٤٢٨) ، وتذكرة الحفاظ (٤ : ١٠٧ — ١١٠) ، والبداية والنهاية (١٢ : ٢٥٤) ، وطبقات السبكي (٤ : ٢٥٩ — ٢٦٠) ، والشذرات (٤ : ٢٠٥ — ٢٠٦)

٤ — مُعجم شيوخ بغداد ، ويُعرف بالمشيخة البغدادية : لأبي طاهر السلفي الأصبهاني الشافعي ، نزيل الإسكندرية ، المتوفى سنة ٥٧٦ هـ . منه نسخة في خزانة الأسكوريال(٢) كُتبت سنة ٥٩٤ هـ . قوامها ٢٤٧ ورقة .(٣) وهذا الكتاب لم يطبع .

وللاطلاع على ترجمة أبي طاهر السلفي راجع : الوفيات (١ : ٤٣ — ٤٤) ، وطبقات السبكي (٤ : ٤٣ — ٤٨) ، ولسان الميزان (١ : ٢٩٩ — ٣٠٠) ، وتذكرة الحفاظ (٤ : ٩٠ — ٩٦) ، والشذرات (٤ : ٢٥٥) .

٥ — ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد : لأبي عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي(٤) الواسطي ، المتوفى سنة ٦٣٧ هـ . جعله ذيلاً على تاريخ بغداد لأبي سعد السمعاني الذي ذيّل به تاريخ بغداد للخطيب .

وقد ذكرنا أنّ غالب تاريخ بغداد للسمعاني قد نالته يد الضياع . أما تاريخها لابن الدبيثي ، فالذي سلم منه(٥) بضعة مجلدات ، تفرقت في خزائن الكتب على الوجه التالي :

---

(١) كما في الوفيات (١ : ٤٢٧) وكشف الظنون (٢ : ١١٩) وذكر صاحب تذكرة الحفاظ (٤ : ١٠٨) والشذرات (٤ : ٢٠٦) أن « الذيل على تاريخ الخطيب أربعمائة طاقة » .

(٢) وصفها ميخائيل الغزيري في فهرسته :

Casiri: Bibl. Ar. Hisp. Escur. (Vol. 2, Madrid 1770, p. 330, No. 1778)

وكذلك وصفها ليفي بروفنسال في فهرسته :

Levi-Provençal: Mss. Ar. Escur. (Vol. 3, Paris 1928. p. 281, No. 1783)

(٣) ذكر جرجي زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ٧١ طبعة سنة ١٩٣١) أنه في نحو مائة كراس .

(٤) الدبيثي ، نسبة إلى دبيثا (بفتح الدال على المشهور وقيل بضم الدال وآخره مقصور) من قرى واسط الحجاج بالعراق .

(٥) أشار السخاوي (الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ١٢٣) إلى وجود نسختين من هذا الكتاب في مكة وثالثة عند السبط . لكننا لا ندري اليوم مآل هذه النسخ الثلاث !

(أ) المجلّد الأول : في خزانة شهيد علي باشا في إستانبول .[1] رقمه ١٨٧٠ . أوّله : « الحمد لله الأوّل بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء ... الخ » . وجاء في آخره : « وقع الفراغ منه في غرّة جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ ، كتبهُ عبدالرحيم بن عبدالخالق الشافعي الدمشقي » فتكون هذه النسخة قد كُتبت قبل وفاة المؤلّف بسنتين .

ومن المجلّد الأوّل أيضاً نسخة بدار الكتب المصرية سُمعت على ابن الدبيثي سنة ٦١٧ هـ ، وقد صوّر منها المجمع العلمي العربي نسخة لخزانته . أخبرني بذلك الدكتور مصطفى جواد .

(ب) المجلّد الأوّل أيضاً : في الخزانة الوطنية بباريس . رقمه ٥٩٢١ [2] وهو مكتوب بخط تعليقي رديء في ٢٩٨ ورقة . وقد انتسخ الدكتور مصطفى جواد نسخاً لنفسه على هذا المجلد وما سنذكره من مجلداته التي بدار الكتب الوطنية بباريس .

(ج) المجلد الثاني : وهو في باريس أيضاً ، رقمه ٢١٣٣ [3] يبتدئ باسم أحمد ، وينتهي بترجمة الحجاج بن علي . وقوامه ٢١١ ورقة . ويظن أن هذه النسخة كتبت في المائة السابعة للهجرة ، أي في عصر المؤلف .

(د) المجلد الثالث في باريس أيضاً . رقمه ٥٩٢٢ [4] ، وقد كتب سنة ٦٣٦ للهجرة ، أي قبل وفاة المؤلف بسنة واحدة ! قوامه ٢٢٣ ورقة .

(هـ) المجلد الثالث أيضاً : في خزانة كتب جامعة كمبردج (برقم ١٦٩ Add. 2924)[5] يبدأ بمواصلة حرف العين في سياقة التراجم ، وفيه ترجمة أحدهم المتوفى سنة ٦١٥ هـ وهو من معاصري المؤلف . يقوم هذا المجلد على ١٨٥ ورقة ، وخطه نسخي ، ولعلّه كُتب في المائة السابعة للهجرة . جاء في آخره : « انتهى حرف العين ، ويليه المجلد الرابع وأوله حرف الغين » .

إن هذه المجلدات المتبقية من تاريخ ابن الدبيثي غير مطبوعة ، وهي تتناول تراجم

---

(١) أفادني وصف هذه النسخة الاستانبولية ، الاستاذ عباس العزاوي ، الذي أتيح له الوقوف عليها .

(٢) Blochet : Cat. Coll. Mss. Or., Scheffer. (Paris, 1900 p. 21)
وكذلك: Blochet : Cat. Mss. Ar. Nouv. acq. 1884-1924 (Paris, 1925 p. 140)

(٣) De Slane : Cat. Mss. Ar. (Paris, 1895 p. 378)

(٤) Blochet : Cat. Mss. Ar. (p. 140)

(٥) Browne : A. Hand-List Muh. Mss. Univ. Cambr. (Cambridge, 1900 pp. 26-27)

رجال بغداد ، ممن لم يرد لهم ذكرٌ في المؤلفات التي سبقت الإشارة اليها .

وترجمة الواسطي : في الوفيات (١ : ٧٤٤) ، وطبقات السبكي (٥ : ٢٦) ، والحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة لابن الفوطي (ص ١٣٥—١٣٦) وتذكرة الحفاظ (٤ : ١٩٩ — ٢٠٠) وغاية النهاية في طبقات القرّاء للجَزَري (٢ : ١٤٥ الرقم ٣٠٣٠) ، والشذرات (٥ : ١٨٥ — ١٨٦) .

٦ — مختار مختصر تاريخ بغداد لأبي بكر الخطيب : المختصر المذكور هنا لأبي عليّ يحيى بن عيسى بن جزلة الحكيم البغدادي المتوفى سنة ٤٧٣ وقيل ٤٩٣ هـ . و « المختار » هذا للقاضي أبي اليمن مسعود بن محمد بن أحمد بن حامد ، ولم نتحقق سنة وفاته . منه نسخة في خزانة المتحف البريطاني [1] جاء في أولها : « الجزء الأول من مختار مختصر كتاب تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن عليّ الخطيب رحمة الله عليه ، اختيار أبي علي يحيى بن عيسى بن جزلة الحكيم البغدادي رحمه الله » .

وفي مقدمته يقول : « وهذا الكتاب الذي صنّفه الشيخ أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب الحافظ البغداديُ رحمه الله وسماه تاريخ بغداد ، كتابٌ جليلٌ في هذا العلم نفيسٌ ، وقد تعب فيه وسهر وأطال الزمان ، والله تعالى يثيبه ويحسن إليه . إلا أنهُ طويل ، وللإطالة آفاتٌ أقربها الملل ، والملل داعيةُ الترك . وقد استخرت الله تعالى ، واختصرته ، وذكرتُ أسماء الرجال الذين ذكرهم على ترتيبه ، وما استحسنته من خبر وحكاية وشعر وحديث نقلتهُ . فالأغراض تختلف ، ولهوى القلوب سريرةٌ لا تُعلم . اختصره القاضي أبو اليُمن مسعود بن محمد بن أحمد بن حامد رحمه الله ، لنفسه ولمن عساه يرغب في الاختصار أو نقل شيء منه » اهـ .

وجاء في آخره : « تمّ المختار من مختصر كتاب تاريخ بغداد ، بعون الله تعالى ، في العشرة الأولى من شهر رمضان المبارك سنة ستة (كذا . والصواب ستّ) وسبعين بعد الألف والمائتين من هجرة سيّد الثقلين . . . على يد العبد الفقير الراجي رحمة ربه العليّ ، محمد عليّ » اهـ .

وترجمة المؤلف : في المنتظم (٩ : ١١٩) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي اصيبعة (١ : ٢٥٥) ، والكامل لابن الأثير (١٠ : ١١٢ بولاق ١٢٩٠ هـ) ، وأخبار الحكماء للقفطي (ص ٣٦٥ — ٣٦٦ طبعة ليبسك) ، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٣٣٩)

(١) Cat, Cod, Or, Mus, Brit. (p. 733-734, No 1625)

والوفيات (٢ : ٣٨٧ — ٣٨٨) ، والمخطوطات العربية لمكتبة النصرانية للأب لويس شيخو (ص ٦ و ٢٣٠)

٧ — ذيل تاريخ بغداد ، ويسمى أيضاً التاريخ المجدد : للحافظ محبّ الدين محمد بن محمود المعروف بابن النجّار البغدادي ، المتوفى سنة ٦٤٣ هـ . وهو ذيلٌ عظيم على تاريخ بغداد للخطيب . ذكر ابن كثير (البداية والنهاية ١٣ : ١٦٩) أنه أكمله في ستة عشر مجلداً . وقال الحاج خليفة (كشف الظنون ٢ : ١٢٠) إنهُ يتمّ في ثلاثين مجلداً ، وإنهُ رأى المجلد السادس عشر منهُ في حرف العين ، يذكر تراجم الرجال كالطبقات . وقال ياقوت الحموي (معجم الأدباء ٧ : ١٠٣) إن لابن النجار « التصانيف الممتعة ، منها تاريخ بغداد ذيل به تاريخ مدينة السلام للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، واستدرك فيه عليه . وهو تاريخ حافل دل على تبحره في التاريخ وسعة حفظه للتراجم والأخبار » .

وحكى السخاوي (الإعلان بالتوبيخ ص ١٢٣) أنهُ وقف على نسخة منه في سبعة عشر مجلداً ، بخط الجمال الظاهري في الأوقاف التي بجامع الحاكم ، وأن بعضه فقد . ترى أين اليوم هذه النسخة التي أشار إليها السخاوي ؟

لقد ضاع أغلب تاريخ ابن النجار ، وغاية ما انتهى الينا منهُ :

(ا) المجلد العاشر منهُ : في الخزانة الظاهرية بدمشق[1] ، وهو في ٤٦٠ صفحة كبيرة ، أوله ترجمة عبد المغيث بن زهير الحربي المتوفى سنة ٥٨٣ هـ ، وآخره ترجمة علي بن الحسين المقري الحنبلي[2] .

(ب) مجلد في باريس[3] ، رقمهُ ٢١٣١ . لعلهُ أن يكون المجلد السادس عشر وجانباً من السابع عشر . وفيه تراجم الأشخاص من « علي بن محمد الدامغاني ، إلى آخر العلميين . ثم يبدأ بالعمرين ، وينقطع في عمر بن محمد السهروردي (المدفون في بغداد) بعد أن يورد نحو ثلث ترجمته أو نصفها . ثم يقفز إلى حرف الفاء الذي من تراجمه « الفضل بن محمد ابن سعيد الحداد » . كتب هذا المخطوط سنة ٧٤٨ للهجرة ، وفيه ١٤٥ ورقة .

وقد انتسخ الدكتور مصطفى جواد عليه نسخة لنفسه ، وفي آخرها ما نصهُ : « آخر

(١) قائمة مخطوطات الخزانة الظاهرية بدمشق (ص ٨٤ ، الرقم ٤٢) ومجلة المجمع العلمي العربي «١٢ (١٩٣٢) ص ٥٠٦ ، و ١٨ (١٩٤٣) ص ١٨٢ »

(٢) حبيب زيات : خزائن الكتب في دمشق وضواحيها (ص ٧٧ ، الرقم ٤٢)

(٣) تكرم الدكتور مصطفى جواد بوصف هذه النسخة الباريسية ، التي وقف عليها بنفسه وتوفر على مطالعتها واستنساخها .

المجلد الثالث والعشرين من الأصل من التاريخ المجدد لمدينة السلام وهو آخر المجلد الحادي عشر من هذه النسخة ، يتلوه أول المجلد الرابع والعشرين من الأصل، وأول الجزء « الفضل ابن محمد بن عبد الله العطار » . هذان المجلدان لما يطبعا .

وترجمة ابن النجار في : معجم الأدباء (٧ : ١٠٣ — ١٠٤) ، والحوادث الجامعة (ص ٢٠٥ — ٢٠٦) ، وطبقات السبكي (٥ : ٤١) وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (٢ : ٢٦٤ — ٢٦٥) ، وتذكرة الحفاظ (٤ : ٢١٢ — ٢١٤) ، والبداية والنهاية (١٣ : ١٦٩) والشذرات (٥ : ٢٢٦ — ٢٢٧)

٨ — مختار ذيل تاريخ بغداد للسمعاني : لجمال الدين عبد الله بن مكرّم بن منظور صاحب « لسان العرب » ، المتوفى سنة ٧١١ هـ .

وهذا « المختار » في تراجم رجال بغداد ، اختصرهُ ابن منظور من «ذيل تاريخ بغداد» لأبي سعد السمعاني الذي مرَّ بنا ذكره في الرقم ٣ .

ومن مختصره نسخة من المجلد الثاني في خزانة كمبردج[١] ، تبدأ بترجمة «محمد بن أبي بكر البردوي الصابوني» . وهي تتناول تراجم المحمدين ، ثم الأحمدين ، ثم الأسماء الأخرى مصنفة على حروف المعجم ، حتى تبلغ الحسينيين .

ومنهُ أيضاً نسخة في خزانة ليدن في هولندة ، برقم ١٠٢٣ [٢].

وترجمة المؤلف في : فوات الوفيات (٢ : ٢٦٥) ، ونكت الهميان في نكت العميان للصفدي (٢٧٥ — ٢٧٦) ، والدرر الكامنة للعسقلاني (٤ : ٢٦٢ — ٢٦٤) ، وبغية الوعاة (ص ١٠٦) ، والشذرات (٦ : ٢٦) .

(٩) — تراجم علماء بغداد [٣] لأبي الخير نجم الدين سعيد بن عبد الله الدهلي البغدادي [٤] ، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ . قال ابن حجر العسقلاني بحقه (الدرر الكامنة ٢ : ١٣٥) إنه «جمع التراجم لكثير من أعيان دمشق وبغداد» . ونحن لا نشك في أن هذه التراجم البغدادية المذكورة أعلاه ، هي التي أشار إليها ابن حجر ونقل منها ابن قاضي شهبة

---

(١) Palmer : Cat. Ar. Pers. Turk. Mss. Lib. Trin. Col. (Cambridge, 1870 p. 152-153, No R, 13. 66)

(٢) De Goeje et Jurnboll : Cat. Cod. Ar. Bibl. Acad. Lugd-Bat (II, 1907 p. 110-111)

(٣) نبهنا الى هذا الكتاب الاستاذ المحامي عباس العزاوي .

(٤) ترجمته في : تاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار للتقي الفاسي المكي (ص ٥٧ — ٥٨) والدرر الكامنة: (٢ : ١٣٤ — ١٣٥) .

في ذيل تاريخ الذهبي كما في ترجمة صفي الدين الحلي وعبد الرحمن الفاروثي من الذيل .
وكان الشيخ طاهر الجزائري (مجلة المقتبس ٢ سنة ١٩٠٧ ص٣) قد وقف على نسخة خطية من هذه التراجم ، بيد أننا لا نعرف الآن شيئاً من أمر تلك النسخة .

١٠ — المستفاد من ذيل تاريخ بغداد : للحافظ أحمد بن أيبك بن عبد الله الحسامي الحسيني المعروف بابن الدمياطي المتوفى بمصر سنة ٧٤٩ هـ . وهو مختصر «ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار(انظر الرقم ٧ من تواريخ بغداد) . ذكره جرجي زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية ٣:٧٥) ويعقوب سركيس (لغة العرب ٦ (١٩٢٨) ص ٣٥٦) . ولم يتطرق إلى ذكره صاحب كشف الظنون .
منه نسخة في دار الكتب المصرية بالقاهرة [1] في ثمانية أجزاء قوامها ٨٢ ورقة بخط المؤلف نفسه . والكتاب مجموعة تراجم روعي في كتابتها الاختصار ، تبتدئ بالمحمدين أما غيرهم فعلى حروف المعجم .
وترجمة ابن الدمياطي في : الدرر الكامنة (١ : ١٠٨) ، وذيل تذكرة حفاظ الذهبي لأبي المحاسن الحسيني الدمشقي (٥٤—٥٧) ، وذيل طبقات حفاظ الذهبي للسيوطي (ص ٣٥٥) .

١١ — تاريخ بغداد : للفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني [2] ، المتوفى بعد سنة ٦٠٩ هـ . وهو معجم لتراجم مشاهير رجال بغداد ، جمع فيه تاريخ الخطيب وذيله للسمعاني وذيل هذا لابن الدبيثي ولم يزد إلاّ سطوراً . الموجود منه اليوم مجلده الأول ، في باريس برقم ٦١٥٢ Blochet, p. 198 ، وهو بخط مؤلفه ، كتبه سنة ٦٣٩ هـ بخط نسخي ، وفيه خرم ، وأوراقهُ الحالية تبلغ ١١٦ .
وقد انتسخ الدكتور مصطفى جواد عليه نسخة لنفسه لكنهُ لم يذكر المترجَين في تاريخ الخطيب .
نقل عنهُ الأستاذ حبيب زيات (الخزانة الشرقية ٢ : ١٩ — ٢٠) شيئاً من ترجمة أحمد ابن إبراهيم بن أيوب المسوحي . وما زال هذا المجلد غير مطبوع .

١٢ — مناقب بغداد : طبع على غلافه أنهُ لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي

(١) فهرست الكتبخانة الخديوية (٥ : ١٥٠) ، وفهرست دار الكتب المصرية (٥ : ٣٤٤) .
(٢) هو مترجم الشاهنامة الترجمة العربية التي نشرها الدكتور عبد الوهاب عزام ، وصدرها بترجمة البنداري .

الشهير بابن الجوزي ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ . والظاهر أنّ هـذا المطبوع ليس لابن الجوزي المذكور ، فقد ذكر سبط ابن الجوزي (مرآة الزمان ٨ : ٣١٢) أن لأبي الفرج المذكور « كتاب مناقب بغداد في مجلد » على حين أن هذا المطبوع لا يعدو أن يكون رسالةً صغيرة. ومن ثمّـة نرى أنهُ مختصر للأصل .

وأول من تنبه إلى أن هذا المطبوع ليس لابن الجوزي هو الأستاذ يوسف غنيمة (لغة العرب ٤ سنة ١٩٢٦ ص ٢٧٤) استناداً إلى ما ورد فيه ، حيث يُـقرأ (في الصفحة ٣٤ من المطبوع) أن مؤلفه كان حيًّـا يرزق بعد سنة ٦٥٤ هـ . وعلى ذلك : مال الأستاذ إلى أن الكتاب من تأليف الشيخ أبي محمد يوسف بن أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، المقتول في فتنة التتار في بغداد سنة ٦٥٦ هـ . فكأنه أراد أن يقول إن المؤلف كان ابناً لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

وارتأى الأستاذ يعقوب سركيس (لغة العرب ٥ (١٩٢٧ ص ٢١٦ — ٢٢٤) ومجلة (المجمع العلمي العربي بدمشق ٨ (١٩٢٨) ٦٢٩—٦٣٢) ، ووافقه على ذلك الأستاذ عبدالله مخلص (مجلة المجمع ٩ سنة ١٩٢٩ ص ١١٨ — ١١٩) أنه تأليف جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي ، الذي قتل سنة ٦٥٦ هـ [1] . لأن اسمه ولقبه وكنيته تتفق كل الاتفاق وما يماثلها في ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ . بيد أن المراجع الحالية التي بأيدينا لا تشير إلى أن لهذا المقتول سنة ٦٥٦ هـ كتاباً في هذا الموضوع .

وحاول الأستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي (مجلة المجمع ٩ : ١١٩ — ١٢٠) والأستاذ محمد راغب الطباخ (مجلة المجمع ٩ : ٤٣٩ — ٤٤٠) أن يثبتا صحة نسبة هـذا الكتاب إلى ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

ويرى الدكتور مصطفى جواد (راجع : الجامع المختصر لابن الساعي . المقدمة ، ص يح ، والحاشية ١ من ص ٨٠) ، أن هذا الكتاب من مختصرات ابن الفوطي المؤرخ البغدادي [2] صاحب كتاب الحوادث الجامعة وغيره من التصانيف ، المتوفى سنة ٧٢٣ هـ ، بدليل أن مخطوطة الكتاب كانت هي والحوادث الجامعة في مجلد واحد ، مكتوب بخطّ واحد في زمن واحد [3]

(١) انظر خبره في الحوادث الجامعة . ص ٣٢٨

(٢) ترجمه محمد رضا الشبيبي في مجلة المعلم الجديد (٦ (١٩٤٠) ص ١ — ١٥) ، وترجمه مصطفى جواد في صدر طبعة كتاب الحوادث الجامعة (ص ١٤ — ٢١)

(٣) وهذا ما حققه نجيب هواويني الذي فحص عن المخطوطة الاصلية (وهي بدار الكتب المصرية ، برقم ١٣٨٣) وأبدى رأيه القاطع في رسالته التي بعث بها إلى الأب أنستاس ماري الكرملي ، بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٣٤ وقد وقفني عليها يعقوب سركيس .

فإذا أمكن إثبات أن الكتابين هما بخطّ ابن الفوطي نفسه ، صحّ لنا عندئذٍ اعتبار ابن الفوطي ملخصاً لكتاب مناقب بغداد ومضيفاً إليه .

ومهما يكن من أمر مؤلفه ، فانّ هذا الكتاب ، على صغر حجمه ، ذو فائدة كبيرة ، لما تضمنه من الحقائق الثمينة عن خطط بغداد ومجمل أحوالها ، خاصة ما ورد فيه من المقتبسات الخطيرة الشأن التي نقلها عن كتاب « أخبار بغداد » لهلال بن المحسن الصابئ ، المتوفى سنة ٤٤٨ ﻫ ذاك الكتاب الذي ضاع ويا للأسف فيما ضاع من التآليف .

إن كتاب مناقب بغداد ، عُني بنشره الأستاذ محمد بهجة الأثري (مطبعة دار السلام ـ بغداد ١٣٤٢ ﻫ ، ٤٨ ص)

وترجمة ابن الجوزي في : مرآة الزمان (٨ : ٣١٠ — ٣٢٥ طبعة شيكاغو) والجامع المختصر لابن الساعي (٩ : ٦٥ — ٦٧) ، والوفيات (١ : ٣٩٥ — ٣٩٦) ، وتذكرة الحفاظ (٤ : ١٣١ — ١٣٧) ، وطبقات القراء (١ : ٣٧٥ الرقم ١٥٩٢) ، والشذرات (٤ : ٣٢٩ — ٣٣١)

١٣ — المختصر المحتاج إليه من تاريخ بغداد : للحافظ شمس الدين الذهبي ، المتوفى سنة ٧٤٨ ﻫ . اختصره من ذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثي (انظر الرقم ٥ من تواريخ بغداد) وقد أتمّ اختصاره في سنة ٧٠٤ ﻫ وإليك ما قاله الحاج خليفة (كشف الظنون ٢ : ١٢٠) بصدده : « وأخذ شمس الدين محمد بن أحمد الحافظ الذهبي ، المتوفّى سنة ٧٤٨ ذيل ابن الدبيثي ولخّصه واختصره في نصفه » .

منه نسخة بخطّ المؤلف بدار الكتب المصرية [1] ، وهي في خمسة أجزاء تدخل في مجلّد واحد ، رقمه ٣٢٤ تاريخ ، وقوامه ١٣٢ ورقة .

والذهبي صاحب هذا المختصر ، من أشهر المؤرخين في الإسلام ، وممّن عرفوا بسعة التأليف . راجع ترجمته في فوات الوفيات (٢ : ١٨٣) ، وطبقات السبكي (٥ : ٢١٦-٢٢١) والدرر (٢ : ٩٦) ، والشذرات (٣ : ٣٩٥) ، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (٢ : ١١٠ — ١١٢) .

١٤ — تاريخ علماء بغداد المسمّى منتخب المختار : للتقي محمد بن أحمد الفاسيّ ، المتوفّى سنة ٨٣٢ ﻫ . انتخبهُ من « المختار المذيَّل على تاريخ ابن النجار » لابن رافع السلامي ، المتوفّى سنة ٧٧٤ ﻫ . إنّ « المختار » لابن رافع قد ضاع على ما يُظَنّ . قال فيه

(١) فهرست الكتبخانة الخديوية (٥ : ١٤٥) ، وفهرس دار الكتب المصرية (٥ : ٣٣٥)

ابن حجر (الدرر ٣ : ٤٣٩) : « . . . وجمع ابن رافع ذيلاً على تاريخ بغداد لابن النجّار في ثلاث مجلدات أو أربع ، رأيتُ بعضه بخطّه » . وقال ابن العماد الحنبلي (الشذرات ٦ : ٢٣٤) إنّ ابن رافع « صنّف ذيلاً على تاريخ بغداد لابن النجّار أربع مجلّدات ، وقد عُدِم هو والمعجم في الفتن » . وقال الجَزَري (طبقات القرّاء ٢ : ١٣٩) إنهُ « لو ذيّل على تاريخ دمشق لكان أولى » !

أمّا منتخب المختار للفاسيّ ، وقد عني بنشره الأستاذ عبّاس العزّاوي (مطبعة الأهالي — بغداد ١٩٣٨ ، ٢٨٦ ص) . وهو يحتوي على مائتي ترجمة وترجمة لمن اشتهر في بغداد .

وترجمة الفاسي في : لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ لابن فهد المكي (ص ٢٩١-٢٩٧) والضوء اللامع للسخاوي (٧ : ١٨ — ٢٠) ، والشذرات (٧ : ١٩٩) ، والبدر الطالع (٢ : ١١٤) — وترجمة السلامي في : ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني الدمشقي (ص ٥٢ — ٥٤) وطبقات القراء (٢ : ١٣٩ الرقم ٣٠٠٢) ، والدرر (٣ : ٤٣٩ — ٤٤٠) ، وذيل طبقات الحفاظ للسيوطي (ص ٣٦٦) ، والشذرات (٦ : ٢٣٤ — ٢٣٥) . وقد تحرف الاسم في الشذرات إلى « ابن شافع » بدلاً من « ابن رافع » .

١٥ — جامع الأنوار في مناقب الأبرار : وهو كتاب في تراجم أولياء بغداد . ألّفه باللغة التركية مرتضى افندي الشهير بنظمي زاده ، المتوفّى سنة ١١٣٣ هـ .

لهذا الكتاب ترجمتان عربيتان : الأولى نقلها أحمد بن السيد حامد فخري زاده الموصلي مفتي الموصل ، المتوفّى سنة ١٢١٩ هـ ، بإشارةٍ من سعد الله بك نجل الحاج حسين باشا الجليلي الموصلي ، الذي تولى حكم مدينة الموصل في سنة ١١٤٣ هـ ، ثم تداول أمرها سبع مرات ، وكانت وفاته سنة ١١٧١ هـ . ومن هذه الترجمة نسخة خطية في المدرسة الحسينية بالموصل (مخطوطات الموصل ، ص ١٢٢ رقم ٢٨) بخطّ المترجم ، وأخرى في خزانة الأستاذ عباس العزّاوي ببغداد ، وثالثة في خزانة المتحف البريطاني برقم Or. ٨٨٦٣ وهي في ٨٤ ص .

والترجمة الثانية لعيسى صفاء الدين البندنيجي ، المتوفّى سنة ١٢٨٣ هـ . نقلها بزيادات واستدراكات عليها . منها نسخة في خزانة الأب أنستاس ماري الكرملي ببغداد ، في ٦٦ ص.(١) ونسختان في خزانة الأستاذ عبّاس العزاوي ، إحداها قديمة . وهنالك نسخة رابعة عند جميل بك الطالباني في كركوك ، وخامسة عند الشيخ إبراهيم الدروبي ببغداد .

هذا وإنّ الكتاب بكلتا ترجمتيه غير مطبوع .

---

(١) فهرست مخطوطات خزانة ميمش الكرمليين ببغداد (مخطوط ، الرقم ٣٣٦)

لقد كتب المستشرق كرنكو نبذة في لغة العرب (٧ سنة ١٩٢٧ ص ٢٩٨، ٢٩٩) عرّف بها هذا الكتاب. ثم تلاه الأستاذ يعقوب سركيس فوفاه حقه من الوصف والتدقيق في لغة العرب (٧ «١٩٢٧» ص ٥١٨ — ٥٢٧). وقد استفدنا من كليهما في ما كتبناه على هذا الكتاب.

وترجمة الموصلي في غاية المرام (سيأتي الكلام عليه) لياسين العمري (ص ٣٩٩ من مخطوط يعقوب سركيس). وفي تاريخ الموصل للقس سليمان صائغ (٢ : ٢٢١).

وترجمة البندنيجي في تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد وكتابها في أيام وزارة داود باشا لعبد القادر الخطيبي الشهرباني. (ص ٣٤ الرقم ٢١ طبعة الأب أنستاس ماري الكرملي)، والمسك الأذفر (ص ١٣٠ ـ ١٣٢).

١٦ — رسالة في وصف حصار الأعجام لمدينة دار السلام: لعبد الجمال حسن بن عبد الباقي بن أبي بكر، المتوفى في حدود سنة ١١٥٦ هـ (راجع ترجمته في تاريخ الموصل لصائغ ٢ : ١٥٩ — ١٦٦). كتبها من بغداد إلى أحد أصدقائه في الموصل. وقد وقف على نسخة منها في ١٧ صفحة الأب صائغ فوصفها في تاريخ الموصل (٢ : ١٦٦) أولها: «تحية ألذ من نمير ماء الامداد لدى اشتداد ظماءِ الحصار... الخ». ولم يشر إلى محل وجودها. والمحاصرة المذكورة جرت سنة ١١٥٥ هـ.

١٧ — تاريخ قضاة بغداد: للشيخ محمد بن عبد الرحمن الرحبي البغدادي، المتوفى سنة ١١٩٧ هـ. الكتاب لما يطبع. ومنه نسخة بخط المؤلف تاريخها سنة ١١٧٣ هـ في دار آل الرحبي، وهي اليوم عند عبد القادر الرحبي المقيم في قرية بوهريز في العراق. ومنه نسخة ثانية عند الاستاذ الشيخ إبراهيم عبدالغني الدروبي، نقلها سنة ١٣٦٠هـ عن النسخة المذكورة.

١٨ — تاريخ نساء بغداد: لمحمد بن عبد الرحمن الرحبي المذكور أعلاه. وقفنا على نسخة منه لدى الشيخ ابراهيم الدروبي، نقلها بيده سنة ١٣٦٠ هـ عن النسخة الأم المحفوظة في بعض بيوتات بغداد.

١٩ — بهجة الإخوان في ذكر الوزير سليمان: لمحمود بن عثمان الرحبي. وهو في تاريخ الوزير سليمان باشا مؤسس دولة المماليك ببغداد سنة ١١٦٣ هـ. منه نسخة في خزانة المتحف البريطاني Cat. Cod. Mss. Or., No. 385 وأخرى في خزانة الأستاذ عباس العزاوي.

٢٠ — حديقة الورود في ترجمة أبي الثناء شهاب الدين محمود: وهو السيد محمود أفندي المعروف بالشهاب الآلوسي، المولود في بغداد سنة ١٢١٧ هـ، والمتوفى فيها سنة ١٢٧٠ هـ.

وهذا الكتاب مجموعة المدائح التي قالها بعض الفضلاء في حياته ، والمراثي التي رثوه بها بعد مماته . جمعها تلميذه الملاّ عبد الفتاح أفندي المعروف بشواف زاده . وهو كتاب كبير ، وقفنا على نسخة منه عند الأستاذ إبراهيم الدروبي نقلها بيده عن نسخة أخرى في بغداد .

وللشهاب الآلوسي ، ترجمة ثانية ، كتبها بعض تلاميذه طبعت في المجلد الأول من تفسيره الشهير الموسوم «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» (بولاق ١٣٠١هـ) ، وعنوان ترجمته هنالك « أريج الند والعود في ترجمة أبي عبد الله شهاب الدين محمود » .

٢١ — غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام : لياسين العمري بن خير الله العمري الخطيب الموصلي المتوفى بعد سنة ١٢٢٥ هـ . ألفه سنة ١٢٢٠ هـ وأهداه إلى الوزير يحيي باشا بن نعمان باشا الجليلي . منه نسخة في خزانة الأستاذ يعقوب سركيس ببغداد ، ونسختان أخريان في خزانة الأب انستاس (فهرست مخطوطات الكرمليين ، الرقم ٢٣٦ و٦٥٩) كتبت الأولى سنة ١٣٣٥ والثانية سنة ١٣٣٦ هـ ، وفي كل منهما ٤٣٠ ص . وهنالك نسخة رابعة في خزانة الأستاذ عباس العزاوي ، وخامسة لدى الشيخ إبرهيم الدروبي كتبها بيده .

وترجمة المؤلف في : منهل الأولياء (مخطوط عندنا ، ص ١٣٥ — ١٣٦ وسيرد ذكره في هذا المقال) ، وتاريخ الموصل لصائغ (٢ : ٢٠٨—٢١٠) ، والآداب العربية في القرن التاسع عشر لشيخو (١ : ٣١)

٢٢ — لقط المفقود في آثار آل عبود : تأليف المقدسي يوسف بن ديمتري بن جرجس الحوزي عبود . أصله من حلب ، وقد غادرها سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) وقصد بغداد . ثم طوّف في البلدان ، وعاد أخيراً إلى مسقط رأسه حلب ، فتوفي فيها سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٦م) . وقد كتب يعقوب سركيس ترجمة المؤلف في لغة العرب (٤ سنة ١٩١٤ ص ١٩ـ٢٣) . وسيأتي بنا في الرقم ٢٣ من تواريخ بغداد ، الكلام على تأليف لابنه .

وكان المقدسي يوسف في أثناء إقامته ببغداد ، قد دوّن ما شاهده فيها من الأمور في كتاب وقفنا على نسخته الفريدة بخط مؤلفها في خزانة الأستاذ يعقوب سركيس . وقد نشر حضرته جانباً منه بمقدمة وتعليقات في لغة العرب (٤ (١٩١٤) ص ١٩ — ٢٣ و ٧٠ — ٨٠) ثم جاءت الحرب العظمى الماضية ، فاحتجبت تلك المجلة ، وظلّ باقي الكتاب غير مطبوع .

إن ما نشره الأستاذ سركيس يحوي أخبار السنوات ١٢١٥ — ١٢١٧ هـ .

٢٣ — نبذة من تاريخ بغداد والبصرة والمنتفق في أوائل المائة التاسعة عشرة للميلاد : كتبها الشمّاس ميخائيل بن المقدسي يوسف (انظر الرقم ٢٢ من تواريخ بغداد) بن ديمتري ابن جرجس الخوري عبّود المتوفى في كلكتة في ١٨ آب ١٨١٤ م (١٢٣٠ هـ) . دوّنها حينما كان في البصرة بعنوان « بيان مقتصر شرح ما حدث بأيام عبد الله باشا والي بغداد الذي هو أول مملوك اشتراه سليمان باشا » .

نشرها يعقوب سركيس ، عن نسخة وحيدة بخطّ المؤلف محفوظة في خزانته في مجلة لغة العرب (٣ سنة ١٩١٣ ص ٥٦٣ ـ ٥٧٤ ، ٦٣٩ ـ ٦٥٩) . وفي عباراتها ركاكة، قال الناشر (لغة العرب ٣ : ٥٦٣ الحاشية ٤) : « لقد أبقيتُ سبك عباراتها على حالها بغير أدنى تغيير وما لم يتيسر لي قراءته أبقيتُ محله خالياً منه . وقد علقت بعض الحواشي على ما ظننت أنه يحتاج إلى فهمه الذين لا يحسنون لغة عوام العراق أو ليسوا منه »

٢٤ — تاريخ بغداد : لأبي المعالي الشيخ علي بن الشيخ محمد سعيد ابن الشيخ عبد الله السويدي البغدادي المتوفى سنة ١٢٣٧ هـ . أنبأنا مدوّنو سيرته ـ وهم قريبو عهدٍ منا ـ أن للسويدي هذا « تاريخ بغداد » لكنهم لم يشيروا إلى مواطن وجوده . ولم يتحقق لدينا وجود شيء من نسخه في خزائن الكتب المشهورة ، فلعلّه مزويّ في أماكن مجهولة .

وترجمة المؤلف في : تذكرة الشعراء (ص ٥٨) ، والمسك الأذفر (ص ٧٣ ـ ٧٩) ، والآداب العربية لشيخو (١ : ٩٣) ، ولغة العرب (٢ (١٩١٣) ص ٣٨٣ ـ ٣٨٥) من مقالٍ لكاظم الدجيلي .

٢٥ — مَطَالع السُّعُود في أخبار أعلم الوزراء وأعظمهم داود : لعثمان بن سند البصري ، المتوفّى سنة ١٢٤٢ هـ وقيل في وفاته غير ذلك (وقد مرّت الإشارة إليه في الرقم ٥ من تواريخ البصرة) . وهو تاريخ بغداد من سنة ١١٨٨ إلى ١٢٤٢ هـ . منه نسخة في خزانة كتب الأوقاف العامة ببغداد ، تتقوّم من ٣٠٨ ورقات ، وثانية في خزانة كتب المتحف العراقي (في ٣٩٥ ص) ، وثالثة في خزانة الأستاذ العزّاوي . وهاتان الأخيرتان منقولتان عن نسخة الأوقاف . والكتاب غير مطبوع .

وقد اختصره في سنة ١٢٩٠ هـ أمين بن حسن الحلواني المدني ، المتوفّى سنة ١٣١٦ هـ وطبعه على الحجر في بمبي (المطبعة الحسينية ١٣٠٤ هـ ، ٦٤ ص) بعنوان « مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود » . وقد أضاف إليه المختصر زيادات إلى ما بعد سنة ١٢٤٢ هـ .

وترجمة الحلواني في دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية ٢ : ٦٥٩) وقد جاء هناك

قول القائل : « ومما صنّفه ، مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود . وهذا ليس بصواب فإنه مختصره لا مصنَّفه .

أما داود باشا ، فهو الذي تولّى الحكم في بغداد من سنة ١٢٣٢ إلى ١٢٤٦ هـ . وكانت ولادته في تفليس نحو سنة ١١٩٠ هـ . ثم تقلّبت به الأحوال حتى بلغ تلك الرتبة . مات سنة ١٢٦٧ هـ .

• • •

﴿ الكوفة ﴾ : كثرت المؤلفات القديمة الموضوعة في أخبار هذه المدينة العراقية الشهيرة حتى جاوزت الخمسة عشر ، لا نجد منه اليوم سوى :

١ — أخبار الوافدين من الرجال من أهل الكوفة والبصرة والوافدات على معاوية ابن أبي سفيان : لأبي الوليد العباس بن بكار الضبّي ، المتوفّى سنة ٢٢٢ هـ . وقد أسلفنا القول في هذا الكتاب (انظر الرقم ١ من تواريخ البصرة) .

٢ — فضل الكوفة وفضل أهلها : للسيد الشريف أبي عبد الله محمد العلوي الحسني الموجود منه المجلد الأول في الخزانة الظاهرية بدمشق [1] .

• • •

﴿ الموصل ﴾ أمّا ما أُلّف في الموصل وأخبارها ورجالها ، فالذي أحصينا [2] منه يُنيف على الثلاثين كتاباً ، ضاع منها الكثير ، والذي صمد منها بوجه الدهر :

١ — تاريخ الموصل : للإمام المؤرّخ أبي زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدي [3] الذي كان قاضياً في الموصل ، وعاش في أواخر المائة الثالثة للهجرة . ذكره السخاوي (الإعلان بالتوبيخ . ص ١٣٣) والحاج خليفة (كشف الظنون ٢ : ١٤١ فلوجل) وغيرهما . والكتاب على ما ترجح الرأي عندنا يتألف من ثلاثة مجلدات ، سلم منها الثاني ، وهو مخطوط فريد في خزانة المتحف البريطاني ، كُتب سنة ٦٥٤ هـ ، وعنه نقلت بعض النسخ : ففي دار الكتب المصرية (انظر فهرستها ٥ : ١١٧ الرقم ٢٤٧٥) نسخة مأخوذة بالفتغراف . كما أنّ

---

(١) حبيب زيات : خزائن الكتب في دمشق وضواحيها (ص ٣٥ الرقم ٩٣)

(٢) في مقالنا « الموصل وكتب التاريخ » المنشور في مجلة « النجم » بالموصل (٧ سنة ١٩٣٥ ص ٣٧١ — ٣٨٢) تفصيلات وافية في هذا الموضوع

(٣) أعددنا بحثاً لهذا الكتاب ولمؤلفه ، ننشره في فرصة أخرى .

في خزانة الخوري سليمان صائغ بالموصل نسخة فتغرافية ثانية ، نقلت عنها بيدي سنة ١٩٣٦ نسخة هي الآن في خزانتي ببغداد .

إنّ هذا المجلد ، يتناول أخبار الموصل في أواخر عهد الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية ، أي من سنة ١٠١ إلى سنة ٢٢٤ للهجرة .

وقد نشر يوسف أليان سركيس (لغة العرب ٦ : ١٩٢٨ ص ١١٢ — ١١٦) نبذتين قصيرتين من هذا التاريخ :

الأولى في ذكر « الدار المنقوشة » في الموصل ، والثانية في حفر « النهر المكشوف » في الموصل . أما المجلد بكماله فلمّا ينشر .

٢ — تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل : لعز الدين بن الأثير الجزري ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ . وهو صاحب التاريخ المشهور بالكامل .

وتاريخ الدولة الأتابكية ، يتناول أخبار الموصل من سنة ٥١٢ إلى ٦١٢ للهجرة . وقد طبع في باريس سنة ١٨٧٦ في ٣٩٤ صفحة بقطع الربع الكبير ، نصف الصفحة الأعلى للمتن العربي ، والنصف الآخر للترجمة الفرنسية التي وضعها ناشره المستشرق البارون دي سلان De Slane ، وذلك ضمن المجلد الثاني من مجموعة تواريخ الحروب الصليبية حسب أخبار المؤرخين الشرقيين » Recueil des Historiens des Croisades : Historiens Orientaux (T, II, 2e Partie, Paris, 1876) مأخوذاً عن النسخة الخطية الباريسية المرقمة ١٨٩٨ . ويرى عنوانه في قائمة باريس هكذا : « الباهر في تاريخ الموصل » . وكلاهما شيء واحد .

وابن الأثير هذا تجد ترجمته في : الوفيات (١ : ٤٩٤ — ٤٩٥) ، وطبقات السبكي (٥ : ١٢٧) وتاريخ أبي الفداء (٤ : ٣٩٨ طبعة ريسكي = ٣ : ١٥٤ طبعة مصر) ، والبداية والنهاية (١٣ : ١٣٩) ، ومفتاح السعادة لطاش كبري زاده (١ : ٢٠٦) ، والشذرات (٥ : ١٣٧) .

٣ — الروض النضر في (تراجم) أدباء العصر : لعصام الدين عثمان بن عليّ العمريّ الموصلي ، المتوفّى سنة ١١٨٤ هـ . ترجم فيه ١٢٣ أديباً أغلبهم من أبناء الموصل ، وأورد قطعاً من شعرهم ونثرهم . الكتاب لم يطبع . منهُ نسخة في خزانة العزاوي ببغداد . وذكر الأب صائغ (تاريخ الموصل ٢ : ١٨٢) أن منه نسخة في المتحف البريطاني ، وأخرى في برلين ، كما أنهُ وقف في الموصل على نسخة أخرى في ٧٤٨ صفحة من القطع الكبير .

أما المؤلف فتجد ترجمته في : منهل الأولياء (مخطوط عندنا ، ص ١٠٠ — ١٠١) ، وسلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر للمرادي (٣ : ١٦٤ — ١٦٦) ، وتاريخ الموصل لصائغ (٢ : ١٨١ — ١٨٥) .

٤ — شمامة العنبر والزهر المعنبر : لمحمد بن مصطفى الغلامي ، المتوفى سنة ١١٨٦ ﻫ . أغلب ما فيه تراجم شعراء الموصل وأدبائها من أهل المائة الثانية عشرة للهجرة . والكتاب في ٢٧٠ صفحة بقطع الثمن ، يشتمل على تراجم ٤٢ أديباً من الموصل ، وخمسة من بغداد ، وما لكلٍ منهم من آثار وتصانيف . ويعدهذا الكتاب أدبيًّا أكثر منه تاريخيًّا أو سيريًّا ، فقد صرف المؤلف جلّ عنايته إلى تنميق عبارته ، وأهمل في الغالب تعيين السنين وربط الحوادث بها . منه أربع نسخ في الموصل : إحداها في خزانة الخوري سليمان صائغ (تاريخ الموصل ٢ : ١٧٧) ، والثانية في خزانة شريف چلبي ابن الحاج عبد الله زكريا (مخطوطات الموصل . ص ٢٨٧ الرقم ١ أسفل) وهي في ١٢٤ صفحة ، تاريخها ١٢٠٧ ﻫ . والثالثة في خزانة عبد الله افندي ابن الحاج علي افندي العمري (مخطوطات الموصل . ص ٢٩١ الرقم ٢) والرابعة في خزانة مصطفى أفندي ابن محمود افندي العمري (مخطوطات الموصل . ص ٢٩٨ الرقم ٥) تاريخها ١٢٣٠ ﻫ . ومن هذا الكتاب أيضاً نسخة في خزانة الأب أنستاس ماري الكرملي ببغداد (مخطوطات الكرمليين . الرقم ٣٥٤) كتبت سنة ١٣٢٢ ﻫ في ٣٣٢ ص . وأخرى في خزانة الأستاذ العزاوي .

الكتاب لم يطبع ، وإنما نشر خلاصته الأستاذ محمد رؤوف الغلامي (1)

وترجمة المؤلف في سلك الدرر (٤ : ١٢٤) وقد قال إن وفاته كانت في سنة ١١٧٦ ﻫ بخلاف المراجع الأخرى . وله ترجمة في منهل الأولياء (مخطوطنا . ص ١١٠ — ١١٢) ، وتاريخ الموصل (٢ : ١٧٦ — ١٧٩) وفي « الشمامة » ذاتها : وقد أفرد الأستاذ محمد رؤوف الغلامي كتاباً قائماً بذاته في ترجمته عنوانه » العلم السامي في ترجمة الشيخ محمد الغلامي » (الموصل ١٩٤٢) .

٥ — منهل الأولياء ومشرب (ومورد) الأصفياء في سادات الموصل الحدباء : لمحمد أمين بن خير الله الخطيب العمري الموصلي ، المتوفى سنة ١٢٠٣ ﻫ . دون فيه تاريخ الموصل منذ عصورها حتى نهاية سنة ١٢٠١ ﻫ . ووطأ له توطئة في وصف موقع الموصل وما يجاورها من القرى والبقاع .

(١) راجع ذلك في كتاب العلم السامي (ص ٢٦٥ — ٢٩٧)

ثم بحث في حكومات الموصل، وقد أوجز في هذا الباب واستعان فيه بما تقدمه من الأسفار التاريخية وعلى الأخص تاريخ أبي الفداء. ثم أفرد بحثاً خاصاً لرجالات الموصل وفضلائها مع إيراد شيء من نظمهم أو نثرهم. ثم ذكر سير الأنبياء والأئمة والشيوخ والصالحين ذوي المراقد والمقامات في مدينة الموصل. وهذا البحث، مع ما يعتوره من مواطن ضعيفة، يعدّ من أهم وأقدم ما كتب في المراقد والمزارات الموصلية [1]. ثم ختم المؤلف كتابه ببحث في كرامات الأولياء. فالكتاب إذن مرتب على مقدمة وأبواب وخاتمة. وهو لم يطبع. منهُ نسخ خطية كثيرة: إحداهنّ في برلين Ahlwardt, No 9801 كتبت سنة ١٢٦٣ هـ. وقد وصفت هذه النسخة أيضاً في فهرست المخطوطات السريانية في برلين Sachau, No. 335 والنسخة الثانية في خزانة المتحف البريطاني بلندن Rieu, No 679 تاريخها ١٢٩٧ هـ. وفي الموصل نسخة في خزانة سليمان بك الجليلي (مخطوطات الموصل. ص ٢٨٧ الرقم ٢)، وثانية في خزانة الدكتور داود الجلبي (مخطوطات الموصل. ص ٢٨٥ـ ٢٨٦ الرقم ٧٦)، وثالثة في خزانة الخوري سليمان صائغ. وفي بغداد نسخة في خزانة كاتب هذه السطور، وأخرى في خزانة الأستاذ عباس العزاوي. كما أن في دار الكتب المصرية (فهرست الدار ٥ : ٣٧٢) نسخة رقمها ٣١٩٣، وأخرى في خزانة كتب البلدية بالإسكندرية (معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف إلياس سركيس. حاشية الصفحة ٣٥) وأخرى في خزانة جامعة استانبول.

فتكون نسخ هذا الكتاب التي وقفنا على خبرها بلغت عشراً. فليته ينشر بالطابع لتعم فوائده القراء.

وترجمة المؤلف في: الدر المنتثر لأخيه ياسين العمري (مخطوط)، وغرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر لياسين العمري أيضاً (ص ١٩ طبعة صديق الجليلي) وتاريخ الموصل (٢: ٢٠٥ — ٢٠٨).

وقد اختصر هذا الكتاب الأستاذ سليمان الدخيل. ومن هذا المختصر نسخة في خزانة الأب أنستاس (مخطوطات الكرمليين ببغداد. الرقم ١٤٨).

٦ — منية الأدباء في تاريخ الحدباء: وهو في أخبار الموصل وأدبائها وشعرائها، لياسين

(١) لنذكر في هذا المقام كتاباً ألفه نقولا سيوفي، قنصل فرنسة في الموصل (المتوفى سنة ١٩٠١) جمع فيه ما وقف عليه من الكتابات العربية المحررة فوق أبنية الموصل كالمساجد والمراقد والمدارس وغيرها. وهو مخطوط في باريس Blochet, Eo 5142 وعنه صورت نسخة لخزانة كتب المتحف العراقي ببغداد. وقد وصفنا هذا الكتاب النفيس في مجلة النجم (١٠ سنة ١٩٣٨ ص ١٣٥ — ١٤٤).

الخطيب بن خير الله العمري الموصلي ، المتوفى بعد سنة ١٢٢٥ هـ . لقد ذكرنا في مطاوي بحثنا (انظر الرقم ٢١ من تواريخ بغداد) كتاب ياسين في تاريخ بغداد) الموسوم بغاية المرام . أما هذا الثاني الذي وضعه في تاريخ الموصل فمنه نسخة في المتحف البريطاني Cat. Cod. Mss. Or., p 578 برقم ١٢٦٥، تاريخها ١٢٣٢هـ وهذه موضوعات الكتاب:

فصل في ذكر الموصل الحدباء . فصل في ذكر من ملكها في الاسلام . فصل فيما في الموصل من مراقد الأنبياء. فصل في ذكر ما كان للموصل من القرى والحصون في الزمان القديم. فصل فيما وقع بها من الحوادث السماوية والأرضية والفتن . خاتمة في ذكر دجلة ومحاسنه وسبب أصله . وهذا الكتاب غير مطبوع

٧ — شجرة في نسب نقباء الموصل: لا نعلم واضعها ، منها نسخة في خزانة المحامي محيي الدين أبي الخطاب بالموصل (مخطوطات الموصل ص. ٢٩٨ الرقم ٤ في الأعلى) . كان هؤلاء النقباء فيما مضى أسرة كبيرة ، تولت النقابة في الموصل قروناً ، وصار لها فروع في نصيبين وغيرها ، ثم انقطع ذكرها في نحو أواسط المائة الثامنة للهجرة .

٨ — تراجم بعض علماء الموصل : مخطوطة جاء في أولها : « هذه أوراق في ترجمة بعض العلماء والشعراء والأدباء الناشئين في بلدة (الـ) موصل الحضراء ، في تاريخ المائة الثانية عشرة من هجرة سيد البشر الذين هم قبل المائة بسنين . والمخطوطة في خزانة الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف بزحلة (لبنان) ، في مجموع يتألف من ١١ قسماً ، والبحث المشار إليه هو السادس من أقسام ذلك المجموع (راجع : مجلة النجم ١ (١٩٢٩) ص ٥٦٨ — ٥٧٣ ، المراجعة ص ٥٧٢ ، ولغة العرب ٥ (١٩٢٧)ص ٧٠ — ٧٦) . ويرى الدكتور داود الجلبي (لغة العرب ٥ (١٩٢٧) ص٢٣٤) أن هذه المخطوطة إنما هي كتاب الدر المنتثر في تراجم فضلاء القرن الثاني عشر لياسين العمري .

٩ — حصار نادرشاه (طهماسب قولي) للموصل وانسحابه عنها خائباً : وهي أرجوزة تاريخية في ٤٥٨ بيتاً ، وصف فيها الناظم محاولة نادرشاه الاستيلاء على الموصل سنة ١٧٤٣ م وخيبته في ذلك ، مطلعها :

أحمدُ ربي خالقي معيني في كل وقت وكل حين

وهي لم تطبع . منها نسخة في خزانة امين بك الجليلي بالموصل (مخطوطات الموصل . ص ٢٦٤ المجموع رقم ١٢) ، وأخرى في خزانة الدكتور داود الجلبي (مخطوطات الموصل . ص٢٧٩ ، الرقم ٦١ ، الفقرة ٣) .

١٠ — أرجوزة خليل افندي البصيري في وصف حصار الموصل : وهو خليل بن علي البصير ، المتوفى سنة ١١٧٦ هـ ، بعث بها إلى السيد عبد الله افندي (سيأتي ذكره) وصف فيها محاصرة الموصل أيضاً . وهذا مطلعها :

الحمد لله السلام المؤمن الملك المقتدر المهيمن

وآخرها : ماشتدّتِ الفتنةُ والمخاصمه وامتدّتِ الهُدْنَة والمسالمه

إني أنا المُقِرُّ بالتقصيرِ المستهامُ الحافظُ البصيري

والأرجوزة في ٦٩ بيتاً . منها نسخة في خزانة برلين Ahlw, No, 9802. A, تاريخها ١٢٤١ هـ . وهي لم تطبع .

ترجمته في : منهل الأولياء (مخطوطنا ، ص ١٠٥)، وسلك الدرر (٢ : ١٠٢ — ١٠٣) وقد أورد المرادي له هناك ثمانية أبيات ضادية القافية ، أرّخ فيها محاصرة الموصل ، مطلعها:

كفى الله أهل الموصل الشر إذ أتى عدوٌّ لهم من جانب الشرق ناهض

ولخليل البصيري ترجمة مطولة في تاريخ الموصل (٢ : ١٧١ - ١٧٤) ، ومتوسطة في تذكرة الشعراء (ص ٢٣ — ٢٤) ، وموجزة في مخطوطات الموصل (ص ١٥) والعلم السامي (ص ٥٢ و ٢٧٠) .

١١ — أرجوزة أخرى في حصار نادر شاه للموصل: قوامها ٢١٥ بيتاً ، هذا مطلعها :

الحمد لله العزيز الغالب الناصر المعد ذي المواهب

وآخرها : ما أغمدت قواضب الكفاحِ بين الورى في السلم والصلاح

من المحبّ المخلص الباهي بحب أهل الفضل عبد الله

و « عبد الله » هذا ، هو الذي بعث إليه خليل البصيري بأرجوزته المارة الذكر . وهو السيد عبدالله الموصلي المعروف بالفخري ، المتوفّى سنة ١١٨٨ هـ (طالع ترجمته في : منهل الأولياء) مخطوطنا ، (ص ١٠٤ ـ ١٠٥)، وتاريخ الموصل (٢ : ١٨٧ ـ ١٨٩) ، والعلم السامي ص ٢٦٩). وهذه الأرجوزة لم تُطبع . منها نسخة في خزانة برلين Ahlw, No 9802. B, تاريخها ١٢٤١ هـ . ونسخة أخرى في خزانة الأستاذ يعقوب سركيس ببغداد (ضمن مجموع أدبي، وهي في الصفحة ٢٣٦ إلى ٢٥٠ منهُ) وقد أوردها الشيخ عبدالرحمن السويدي المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ في كتابه « حديقة الزوراء في تاريخ الوزراء » .

وترجمة السويدي في : سلك الدرر (٢ : ٣٣٠) والمسك الأذفر (ص ٦٥ — ٦٨) ، والآداب العربية لشيخو (١ : ٩٢) ، ولغة العرب (٢ (١٩١٢) ص ٢٧٨ — ٢٨٠ من مقال للاستاذ كاظم الدجيلي) .

ومن هذا الكتاب النسخة الأمّ في المتحف البريطاني ، وعنها نسخة مصوّرة في خزانة عباس العزاوي . وذكر الأستاذ عز الدين التنوخي (مجلة المجمع العلمي العربي ٨ سنة ١٩٢٨ ص ٤٤٩) أن من حديقة الزوراء نسخة في المدينة المنوّرة ، في خزانة شيخ الاسلام عارف حكمت . وقد اختصر هذا الكتاب سليمان الدخيل ، فجاءت « الأرجوزة » في المختصر ، الذي نجد نسخته الأصلية في خزانة الأب أنستاس ماري الكرملي ، وعنها نقلت نسخة الأستاذ يعقوب سركيس .

١٢ — أرجوزة السويدي في حصار الموصل : وهي للشيخ عبد الله السويدي المتوفى سنة ١١٧٤ هـ ، عارض بها أرجوزة البصيري ، مطلعها :

الحمد لله المعزّ الحافظ إذ بات ذو الفتوى بعيش خافض

وآخرها :

ما قامت الفرسان المجادلهْ لنصر دين الله في المباهلهْ

والأرجوزة تقوم على ١٦٨ بيتاً . منها نسخة في خزانة الأستاذ يعقوب سركيس ، ضمن المجموع المذكور آنفاً [1]

وترجمة المؤلف في : سلك الدرر (٣ : ٨٤ — ٨٦) ، والمسك الأذفر (ص ٦٠ — ٦٤) والآداب العربية لشيخو (١ : ٩٢) ، ولغة العرب (٢ (١٩١٢) ص ٢١٩ — ٢٢٣)

• • •

﴿ النجف ﴾ لمدينة النجف أخبار كثيرة في المصنّفات التاريخية والبلدانية . وقد بلغت المؤلفات الموضوعة فيها خاصة نحواً من خمسة ، انتهى إلينا منها :

١ — كتاب فرحة الغري [2] : للنقيب السيد العلامة الفقيه غياث الدين عبد الكريم ابن السيد أحمد الطاووسي [3] ، المتوفّى سنة ٦٩٣ هـ من آل طاووس العلويين المشاهير . طبع في إيران سنة ١٣١١ هـ .

٢ — الدلائل البرهانية في تصحيح الحضرة الغروية : وهو مختصر فرحة الغري ، لمؤلف مجهول . قال صاحب ماضي النجف وحاضرها (ص ٣) : إنه رآه في الخزانة الرضوية مسنة

(١) في مخطوطات الموصل (ص ٢٦٤ ، الرقم ١٢) وصف مجموعة في خزانة أمين بك الجليلي ، « فيها ثلاث رسائل تبحث عن محاولة نادرشاه الاستيلاء على الموصل وعن خيبته . إحداها منظومة تركية ، والثانية نثر تركي ، والثالثة منظومة عربية » . ونحن لا نعرف شيئاً عن هذه الثالثة ولا عن قائلها .

(٢) راجع ماضي النجف وحاضرها : لجعفر ابن الشيخ باقر آل محبوبة النجفي (ص ٣)

(٣) نود أن نشير خاصة إلى أن له ترجمة موجزة في الحوادث الجامعة (ص ٤٨٠)

١٣٤٩ هـ . وقد نسبه السيد جعفر آل بحر العلوم (ماضي النجف وحاضرها . ص٣) إلى الشيخ أحمد الجؤذري النجفي ، الذي اختصره سنة ١٠٤٨ هـ .

* * *

﴿ واسط ﴾ كانت مدينة واسط عظيمة الشأن في تاريخ العراق ، ممّا حمل المؤرخين على العناية بتدوين أخبارها . وقد بلغت المؤلفات الموضوعة في تاريخها خمسة ، لا نعرف منها اليوم سوى واحدٍ فقط ، وهو :

« تاريخ واسط » : لأسلم بن سهل الرزّاز الواسطي المعروف ببَحْشَل ، المتوفّى سنة ٢٨٨ وقيل ٢٩٢ للهجرة . نسخته الفريدة في الخزانة التيمورية (الرقم ١٤٨٣ تاريخ) بدار الكتب المصرية . وعنها نُقِلَتْ نسختان هما الآن في خزانة كتب المتحف العراقي ببغداد ، إحداها مصوّرة ، والثانية مخطوطة . وعن هاتين النسختين نقلنا نسخة لخزانتنا .

وكنّا قد نشرنا في جريدة « الأخبار الأسبوعية » (1) بحثاً مستفيضاً عن هذا الكتاب الذي لم يطبع وعن مؤلفه ، كما أننا اخترنا منهُ فقرات كثيرة ، كانت أول ما نشر من هذا التاريخ .

وترجمة المؤلف في : معجم الأدباء (٢٥٦:٢) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢١٢:٢) ، وتاج العروس للسيّد مرتضى الزبيدي (٢٢٢:٢) . وقد نوه بذكره السمعاني في الأنساب (مادة : الواسطي) ، وياقوت الحموي في معجم البلدان . والرزاز نسبة إلى « الرزازين » المحلة السفلى بواسط على ما في معجم الأدباء وتذكرة الحفاظ . وقد أغفلته كتب الأنساب التي يصل اليها الباحث ، فهو من المستدركات عليها .

* * *

﴿ خاتمة البحث ﴾ فهذه على ما رأيت ، قرابة مائة وعشرين كتاباً عربيًّا قديماً ، صنفت في تاريخ ست مدن عراقية لا غير . ولسنا نعرف منها اليوم سوى ثلثها ، بل أقل من ذلك إن تحرينا الأمر تحرياً صادقاً . فكم خسارتنا يا ترى في هذا الشأن ؟ وأين نحن من مخلفات السلف التي جاوزت حدود التصديق لسعتها ووفرتها ؟ وهل يأتي يوم يعثر فيه على ما ضاع أو على بعضه ، فتقر به عيون العلماء والباحثين ، وتتسع به ثروتنا الأدبية والتاريخية ؟

بغداد كوركيس عواد

---

(١) راجع أعدادها ٧ و ٨ و ٩ الصادرة في بغداد ، بتاريخ ٨ و ٢٢ تشرين الأول و ٥ تشرين الثاني من سنة ١٩٣٨

باب الأخبار العلمية

جوائز نوبل في الطب ووظائف الأعضاء

أذيع من ستوكهلم عاصمة السويد أن جائزتي نوبل في الطب ووظائف الأعضاء في سنتي ١٩٤٣ و ١٩٤٤ منحتا لأربعة علماء في الولايات المتحدة، ثلاثة منهم أميركيون والرابع دنماركي فرّ من الدنمارك ولجأ إلى أميركا منذ أربع سنوات.

وقد منحت جائزة سنة ١٩٤٣ للدكتور إدورد أدلبرت ذويزي أستاذ الكيمياء الحيوية في مدرسة الطب بجامعة سان لويس، وللدكتور هندريكس دام الدنماركي الملحق الآن بمستشفى سترونغ التذكاري بمدينة روتشستر في ولاية نيويورك.

أما جائزة سنة ١٩٤٤ فقد منحت للدكتور جوزيف إرلانجر أستاذ وظائف الأعضاء في جامعة وشنطن بمدينة سان لويس وللدكتور هربرت سپنسر جاسر مدير معهد روكفلر، لبحثهما في الوظائف المختلفة لأعصاب معيّنة

فيتامين النزف

إن البحث الذي منحت من أجله جائزة ١٩٤٣ للعالمين دام ودويزي مداره كشف الفيتامين K المانع للنزف وتحقيق فوائده ووجوه استعماله. وقد وصفنا بحثهما في المقتطف (إبريل ١٩٤١ صفحة ٣٨٩) وقد روينا حينئذٍ حادثة نعيدها هنا لأنها تمثل خير تمثيل، تأثير هذا الفيتامين ونفعهُ :

فالمعروف الآن ان مقدار المادة التي تجمد الدم، قليلة جدًّا في الوليد لأسباب مجهولة. وأصغر جرح يصيب الصغار عند الولادة أو في الأيام الأولى بعدها يستنزف دمهم فيموتون. ومن الشواهد على نفع هذا الفيتامين أن طفلاً ولد وبعد ولادته بثلاثة أيام، وجد دم في أنفهِ فاستخرجت قطرة دمٍ من قدمهِ للبحث، فوجد أنها جمدت بعد ١١ دقيقة من استخراجها. وبقي دم جرح القدم يسيل ١٢ ساعة فجُرّع مقداراً صغيراً من فيتامين K فوقف النزف من قدمهِ وبعد ٩٠ دقيقة قصر وقت تجمُّد الدم إلى النصف ثم إلى الوقت العادي وهو ٣ دقائق.

الكينا المصنوعة

وفّق عالمان أميركيان شابان – روبرت ودوارد ووليم دورنغ – إلى صنع الكينا بالتأليف الكيميائي، فحلّا بذلك مشكلة ما فتئت تشغل فريقاً من الكيميائيين منذ قرن من الزمان.

والكينا المصنوعة بالتأليف الكيميائي، تختلف عن البلاسموكين والأتبرين، وهما كالكينا عقّاران فعّالان في قتل طفيلي الملاريا. على أن البلاسموكين والأتبرين بديلان من الكينا أي أنهما مادتان تفعلان فعل الكينا، على حين أن الكينا المصنوعة هي الكينا الطبيعية ذاتها ولكنها مصنوعة بأيدي البشر بدلاً من أن تستخلص من لحاء الشجر.

وفائدة الكينا المصنوعة، أنها تضمّ إلى الكينا الطبيعية وغيرها من العقاقير الصالحة لمكافحة الملاريا، في شن حرب شعواء على الملاريا في البقاع التي يكثر فيها المصابون ويعزّ العلاج. فإذا استطاع المهندسون الكيميائيون تطبيق أسلوب ودوارد ودورنغ على مقتضيات الانتاج التجاري الواسع النطاق كان عمل هذين العالمين نعْمة من أعظم نعم العلم الحديث.

مركز الحياة في البيضة

ليس صفار البيضة هو الذي يتحوّل جنيناً وفرخاً. إنما هو معين الطعام الذي يعتمد عليه الجنين في التغذية بعد تكوّنه. أما مركز الحياة في البيضة، فهو خلية صغيرة مكانها في أحد جانبي الصفار، ولا تمكن رؤيتها إلاّ مكبرة بالمجهر.

للكرنب نفع طبي

في القرن الثالث قبل التاريخ الميلادي أشار أحد حكماء الرومان باستعمال الكرنب المعروف في علاج الجروح. والبحث العلمي الحديث يميل إلى تأييد هذا القول. فقد وجد بيدرسون وفيشر، الباحثان في مركز التجارب الزراعية في نيويورك، أن في الكرنب مادة تفتك ببعض أصناف البكتيريا، وقدما نتيجة بحثهما في رسالة تليت في جمعية البكتريولوجيين الاميركيين. وهذه الأصناف هي ما يوصف عادةً بلفظي: «جرام السلبية» أي التي لا تنصبغ بحسب طريقة جرام للفحص المجهري، ومن أمثالها باشلس القولون. فأكل الكرنب الغض قد ينفع في السيطرة على نموّ بعض أنواع البكتيريا في المعى.

ولهذه المادة تأثير في بعض أنواع الستافيلوكوكس، التي تكثر عادة في الجروح، وهو تأثير لا يجاري تأثير البنيسيلين، ولكنه يكفي لتأييد ما قاله الحكيم الروماني، منذ ثلاثة وعشرين قرناً تقريباً.

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الخامس بعد المائة

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الخامس بعد المائة

١ دسمبر سنة ١٩٤٤ — ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٦٣

التعرض للضوء

وتأثيره في خواص الأحياء وتكاثرها

الشمس هي المصدر الذي تستمد الأرض منه الطاقة اللازمة لكل عمل طبيعي أو حيوي على سطحها . وقد تؤخذ الطاقة مباشرة من الشمس كما تفعل حبات اليخضور في أوراق النبات الأخضر ، أو قد تؤخذ مداورة كما يفعل الانسان حين يولد الطاقة المحركة من الماء المنحدر . فهذا الماء لم يرتفع إلى رأس المنحدر ، إلاّ بفعل حرارة الشمس التي بخرته ثم انعقد في الجو غيماً فمطراً يجري منحدراً من أعلى إلى أسفل .

فمن البداهة أن يكون لأشعة الشمس تأثير في حياة النبات والحيوان ، وأن يتباين هذا التأثير ، بتباين مدّة التعرض لضوء الشمس ، وباختلاف الأشعة التي يتألف منها هذا الضوء وبعوامل أخرى .

إن طول النهار يختلف باختلاف خط العرض ، وباختلاف الفصل من السنة ، فطول النهار وطول الليل متساويان تقريباً عند خط الاستواء . أما عند القطبين ، فان الشمس تشرق نحو أربع وعشرين ساعة متصلة في بعض الصيف يوماً بعد يوم ، والظلام يرين نحو أربع وعشرين ساعة متصلة في بعض الشتاء يوماً بعد يوم ، والبلاد الواقعة بين خط الاستواء والقطبين يتفاوت فيها طول النهار والليل بتفاوت الوضع الجغرافي وفصل السنة .

ولكن مدّة الاشراق والظلام ، ليست العامل الوحيد ، في ما لضوء الشمس من تأثير . فشدة ضوء الشمس تختلف كربع البعد عن الشمس ، ولما كان فلك الأرض إهليجيًّا والشمس

في أحد محترقيه ، فشدة ضوء الشمس الساقط على الأرض تزيد أو تنقص وفقاً لوجودها في نقطة الذنب أو نقطة الرأس ، وهذا الفرق يبلغ نحو ٧ في المائة . ثم إن بعض الاختلاف في شدة ضوء الشمس يرجع إلى ما في الهواء من دقائق الغبار أو بخار الماء ، وإلى انحراف الشمس عن السمت ، وهو كبير في الشتاء ، ولذلك نجد أن مقداراً واحداً من ضوء الشمس في وقت واحد من النهار ، أضعف وأقل حرارة في الشتاء منهُ في الصيف .

وأنواع الأمواج التي يتألف منها ضوء الشمس ، تختلف كذلك . فالضوء الأبيض — ومعظم طاقته مركز في منطقة اللون الأصفر — تكثر فيه الأشعة الحمر حين تنحدر الشمس إلى المغيب ، والأشعة الحمر أطول أمواجاً فهي أضعف طاقة من الأشعة الصفر . والتبديل في أنواع الأمواج التي يتألف منها ضوء الشمس الواصل إلينا ، مردّهُ إلى تأثير الغلاف الغازي الذي يحيط بالأرض ، في الأشعة حين تخترقهُ . فضوء الشمس أغنى بالأمواج الزرق البنفسجية في الصيف في المنطقة الشمالية المعتدلة ، منهُ في الشتاء .

***

إلى هذه الحقائق تردّ المباحث الحديثة في النبات والحيوان ، لمعرفة مدى تأثرها بطول تعرضها لأشعة الشمس أو بقصره . وقد أسفرت هذه المباحث عن حقائق غريبة ، في نمو النبات والحيوان ، وخواصهما وتكاثرهما .

من الأمور التي في حكم النواميس الطبيعية التي لا تحول ، انتظام ازدهار أصنافٍ من النبات في فصولٍ معيّنة من السنة .

وقد أثبت البحث أن للحرارة شأناً عظيماً في هذا الإزهار ، ولكنهُ أثبت كذلك أن العامل المسيطر على الإزهار هو طول النهار ، أو مدة التعرّض لضوء الشمس . فمن النبات ما يزهر في الخريف حين تكون مدّة التعرض لضوء الشمس أقصر منها في الصيف . فهذا النبات يزهر في الصيف إذا وضعتهُ في مستنبت معتم وعرضتهُ لضوء في المستنبت تعريضاً لا تزيد مدتهُ على مدة تعرضه لضوء الشمس في الخريف . وقد أثبت باحثان يدعيان جارنر والارد أنهما يستطيعان أن يحملا نباتات شتى على الازهار ، في غير مواعيد إزهارها الطبيعي بضبط ساعات تعرّضها للضوء . وذلك بغرسها في مستنبتات معتمة ، وتعريضها تعريضاً دقيقاً لضوء الشمس عدداً معيّناً من الساعات .

والنباتات الزهرية — في عرف هذين الباحثين — ثلاثة أصناف عامة ، من حيث تأثرها

بزمن تعرضها للشمس . فالصنف الأول يبدأ الإزهار حين يكون النهار قصيراً ، وآخر يبدأ الإزهار حين يكون النهار طويلاً ، والثالث لا يتأثر تأثراً ظاهراً بطول تعرّضه لضوء الشمس أو قصره .

وقد طبقت هذه الحقائق تطبيقاً عمليًّا على أحد أصناف التبغ . فهو ضخم الأوراق وإذن فالعناية بانباته لها فائدة اقتصادية . ولكنهُ لا يزهر ولا يولد بزراً في أيام الصيف الطويلة . فأجريت التجارب عليه في مستنبت في فصل الشتاء لجاد ، وإذا ظهر أن قصر تعرّضه لضوء الشمس في أيام الشتاء لا يكفيه للإزهار والبذر ، عُرِّض مدة إضافية معيّنة للضوء الكهربي .

***

هذه البحوث الحديثة ، تفتن الالب ، وتكشف عن بعض أسرار الحياة ، وتعين على تحسين أصناف النبات . وقد فصلنا بعض نواحيها في المقتطف ، ثم في كتاب « الفتح مستمرّ » .
على أننا اطلعنا منذ عهد قريب على وصف مباحث من هذا القبيل أجراها العالم بيسو نيت Bissonette — وهو عالم أميركي وأستاذ في كلية ترينتي بهارتفورد كونكتكت — على أصناف من الحيوان ، أسفرت عن نتائج تبعث على العجب والإعجاب ، ولا بدَّ أن تجنى منها فائدة علمية واقتصادية عظيمة .

فحين قال الشاعر تنيسون ، في قصيدته لكسلي هول : « إن هوى الشاب يتجه إلى الحب في الربيع » كان الرأي أن عودة الدفء إلى الأرض يوقظ الطبيعة من غفوة الشتاء ، ويحث على النشاط ، وأنَّ دفء الفصل المقبل يجهز الأحياء من نبات وحيوان بفيض من الطاقة لا بدَّ منهُ في النموّ والحركة .

ولكن التفسير الجديد الذي أسفر عنهُ بحث بيسو نيت في الحيوان ، وبحوث الآخرين من أمثال جارنر وألارد في النبات ، هو أن زيادة التعرّض لضوء الشمس ، في أيامٍ آخذة في الطول ، هو سرّ الميل إلى الحب والنموّ .
يعد الأستاذ بيسو نيت ، أعظم ثقة في العالم في موضوع تأثير الضوء في وجوه التغير الذي يقع في الأحياء في الفصول المختلفة . وقد أجرى تجارب على حيوانات شتى ، أسفرت عن وجوه من التأثر والتغيّر ، كانت تسنَد من قبل ، إلى اختلاف درجة الحرارة وحسبُ .
فقد تمكن بيسو نيت من أن يحمل بعض الحيوانات على أن تتخذ لها في الشتاء الفروة التي

تتخذها في الربيع ، وبعضاً آخر على أن يلد بطنين من الولد في السنة بدلاً من بطنٍ واحد ، وقسر طيوراً على أن تبيض في ثلج الشتاء بيضاً لم تكن تبيضه إلاّ في أيام الربيع الدافئة .

وقد ظفر بهذه النتائج ، بتغيير مدى تعرضها للضوء سواءٌ أصناعيًّا كان الضوء أم طبيعيًّا . فبعضها ظفر بهِ باطالة النهار — أي مدة التعرُّض للضوء — وبعضها بتقصير هذه المدة . والبعض الآخر بتعريض الحيوان للضوء زمناً قصيراً فزمناً طويلاً على التوالي .

وقد أثبتت طائفة من التجارب أن ثمة زمناً معيناً من التعرض للضوء ، يجعل بعض الأنواع من الحيوان في حالة قابلة للاستجابة للمؤثرات الطبيعية . وبهذا يفسر سر الطيور القواطع . فطول النهار أو قصره هو العامل الحاسم في هجرة هذه الطيور ، ولا يتغير تأثيره في حر أو برد .

وقد أجريت إحدى التجارب على ابن عرس ، فاستطاع بيسو نيت أن يحمل هذا الحيوان على أن يرتدي في الربيع الثوب الأبيض أو القريب من البياض الذي ألف ارتداءه في الشتاء وعلى الاحتفاظ بهذا الثوب الأبيض خلال الصيف والخريف ، ثم على أن يرتدي في يناير وفبراير الثوب الأسمر الأدكن الذي ألفه في الصيف ، وقد كانت درجة الحرارة هي الدرجة الخاصة بكل فصل من الفصول لم يعترها تبديل ، ولكن زمن التعرض للضوء وحده هو الذي تبدَّل . فعرض ابن عرس في الصيف لجو حرارته كحرارة الصيف ، ولكن مدة تعرضهِ للضوء فيهِ كانت كمدة تعرضهِ للضوء في يوم من أيام الشتاء ، فاتخذ ابن عرس في الصيف الثوب الأبيض أو القريب من البياض الذي يألفهُ في الشتاء .

وقد تمادى بيسو نيت في تجربتهِ التي أجراها على ابن عرس ، فجعلهُ يغير لون ثوبه أربع مرات — من أبيض إلى أسمر ثم إلى أبيض فأسمر — بدلاً من مرتين بتعريضهِ للضوء مدداً تحكم في طولها وقصرها .

من الفراء المشهورة فراء حيوان يعرف باسم «المنك» وهو ثمين فاخر ، وأنخرهُ وأغلاه ما كان مصنوعاً من فراء هذا الحيوان في فصل الشتاء . وجلد حيوان واحد قد يبلغ ثمنهُ ٢٥٠ جنيهاً ، ولكن بيسو نيت أثبت بالتجريب العملي في مزرعة لحيوان المنك في أميركا انهُ يستطيع أن يجعل فراء الحيوان في الصيف كفرائهِ الثمينة المطلوبة التي يمتاز بها في الشتاء .

ويلوح أن حيوان المنك رقيق المزاج فقد أثر في بعضه تقصير زمن تعرضه للضوء ، في فصل الصيف ، فاضطرب جهازه العصبي ، فلم يتخذ لنفسه ثوبهُ السويّ ، حتى حين حلّ فصل الشتاء فعلاً .

وقد حمل حيوان « الراكون » على أن يولد مرتين في السنة بدلاً من مرة واحدة ، بزيادة تعريضه لضوء المصباح ، في فصل الخريف بعد أنْ يقلّ الضوء الطبيعي ، حين يقصر النهار . وحين أُعيدت هذه التجربة ، للاستيثاق ، ظهر أمر عجيب . ذلك بأن الطعام المقدَّم لهذه الحيوانات ، كان ينقصهُ بعض المواد البروتينية . وكان النقص راجعاً إلى خطإٍ في تدبير الطعام . ولكن ظهر أن هذا النقص أسفر في الحيوانات المعرَّضة لضوء المصباح ، عن معدَّل أعلى في حمل الإِناث ، وعددٍ أكبر من الولد في كل بطن ، بالقياس إلى الحيوانات الأخرى التي ظلت في المعمل تعيش عيشتها السوية المألوفة .

ويقابل هذا أن الماعز يزداد تناسلهُ حين يكون النهار قصيراً . ويقل تكاثرهُ حين يكون النهار طويلاً .

ولعلَّ أبلغ دليلٍ على أن درجة الحرارة ليست العامل الفاصل في إحداث التغيُّرات الفسيولوجية التي تحمل بعض الطيور على أن يبيض في فصول دون فصول ، هو هذه التجارب التي أجراها بيسونيت وصاحبهُ « تشيك » Csech على الطائر المعروف باسم التَدْرُجْ Pheasant وهو شبيه بالحجل جميل المنظر . والتدرج يبيض في العادة في شهر ابريل والطائفة التي اعتمدها بيسونيت في هذه التجربة لضبطها ، جرت على عادة أن تبيض في ابريل ولكن الفريق من هذه الطائفة الذي أجرى بيسونيت التجربة عليهِ ، بدأ يبيض في شهر فبراير .

قال بيسونيت : وكنا نجمع البيض لنمنع تجمدهُ لأن التدرج كان كثيراً ما يلقي بيضهُ في الثلج . وكانت طيور منهُ تقف عند حافة أقفاصها فتتجمد وتموت ، وبعضها كان يحاول التخلص من قبضة الجمد فينزع ريش ذيلهِ .

وقد بدأ تطبيق جدول تعريضها للضوء في الثالث من يناير فأضيء مصباح كهربي مدة ساعة في الأسبوع في القفص الخارجي ، ثم زيدت المدة حتى صارت سبع ساعات في الأسبوع ثم ظلَّت كذلك إلى أن انتهت التجربة .

وللاستاذ بيسونيت تجارب ، تشير إلى أن الضوء يؤثر في الحيوان من طريق العينين فيؤثر بدوره في الغدة النخامية ، وهذه الغدة تؤثر في أجهزة التناسل ونموّ الريش والفراء . فعصب البصر يتصل اتصالاً مباشراً بالمخ ، والغدة النخامية موقعها عند أسفل المخ من الخلف . ولكنّ الأستاذ بيسونيت لم يكشف بعد ، أي شيءٍ في العين أو المخ يؤثر في الغدة النخامية ؟

قوس الغمام

قوسٌ من الألوان لا تنحني مشدودةٌ في الجوّ أوتارَها
في كل لونٍ ماثلٌ أزرق تلمسهُ الشمسَ وأقمارُها

قاعدةٌ في الأفق مرفوعةٌ فوق المياهِ الزرقِ أحجارُها
الذهبُ الإبريزُ فولاذُها واللؤلؤ المنثور مسمارُها
غصنٌ من الأنوار إما التوى تشمّهُ الأرضُ وأبحارُها
طيرٌ من الجنة ريشاته منثورة في الجو آثارها
قصيدةٌ للشمس أبياتها وللنجوم الزهر أشعارُها

كأن هذي الأرض في عرسها تاهت على الإنسان أقطارها
فضفّـرت للصبح إكليله وطاب واخضرّ له غارُها
واختلجت بالنور أبرادها وفُتّقت في الجو أزرارُها
ولوحت زهواً بمنديلها ورقّصت في الروض أسمارُها
فرنّ في الأجواء خلخالها وشُدّ في الآفاق زنارُها

كأن عينَ الشمس في جوها تُلَوّنُ الأمطارَ أنوارُها

بيروت الدكتور حبيب ثابت

البنسلين والرمد

حديث للدكتور علي توفيق شوشة بك

وكيل وزارة الصحة

يُعد الرمد الصديدي من أهم العوامل التي تؤدي إلى فقدان البصر ، وخاصة إذا كان ناشئاً عن عدوى « الجونوكوك » وهو ميكروب السيلان . فلما كشف البنسلين ، وعرف تأثيره العجيب في علاج السيلان ، كان من الطبيعي أن يتجه التفكير إلى استخدامه في هذا النوع من الأرماد الصديدية ، ما دام الميكروب المسبب لهما واحداً . وقد جُرب — أي البنسلين — في شكل قطرة ومرهم، يوضعان مراراً في العين، فوجد تأثيره ضعيفاً وفائدته محدودة ، لذلك رؤي أن يجرّب بطريق الحقن . فاستعمل حقناً في العضل كل أربع ساعات مدة ٢٤ ساعة، واقتصرت التجارب على الرمد الصديدي الناشيء من ميكروب الجونوكوك وحده .

وقد اختيرت لهذا الغرض ثلاث حالات لأشخاص تتفاوت أعمارهم ودرجات إصابتهم . الأولى حالة غلام في التاسعة من عمره ، والثانية حالة طفلة عمرها أربع سنوات ، والثالثة حالة رجل عمره ٤٥ سنة .

وكانت إصابة الغلام برمد صديدي خفيف غير مصحوب بمضاعفات ، وقد أظهر الجونوكوك عند هذا الغلام قوة مقاومة شديدة للبنسلين، فلم يختف الميكروب من عينه إلاّ بعد عشر ساعات أي بعد ثالث حقنة . ومع أن الحالة تحسنت من الوجهة الاكلينيكية — إذ قلت الافرازات واختفى ورم الجفون واحتقان الملتحمة، واستطاع المريض فتح عينيه — فقد ظهر الميكروب ثانية بعد ٢٥ ساعة من آخر حقنة .

وكان الرمد الصديدي الذي أصيبت به الطفلة مصحوباً بقرحة خفيفة في العين اليسرى ، وقد اختفى الميكروب بعد ثلاث ساعات من أول حقنة ، وتحسنت حالة الجفون والملتحمة من الوجهة الاكلينيكية ولكن بقيت القرحة كما هي ، ثم عاد الميكروب إلى الظهور بعد ٢٤ ساعة من آخر حقنة .

أما إصابة الرجل فكانت أشد . وذلك أن الرمد الصديدي كان مصحوباً بقرحة مع فتق (قرحة منبثقة) في العين اليسرى . وقد اختفى الميكروب بعد ثلاث ساعات أيضاً، وتحسنت

حالة الجفون والملتحمة ، وخاصــة في العين اليمني ، إلاَّ أن القرحة والفتق القرحي واحتقان العين وما بهــا من الآلام ، كل هذه لم تتحسن ، ولذلك ظهر الميكروب بعد ٤٨ ساعة من آخر حقنة .

وقد وُضعت الحالات الثـلاث التي تقدم ذكرها موضع الملاحظة والفحص ثلاثة أيام أخرى بدون أي علاج . فلما لم يختف الميكروب ولم تلتئم القروح أجريت بعض العلاجات النوعيــة ثلاثة أيام فاختفى الميكروب من أول يوم ، والتأمت القروح .

وقد تبين أن الوقت الذي أعطيت فيه الحقن « وهو ٢٤ ساعة » لم يكن كافياً . ولهــذا أجريت التجربة في حالتين ، وأعطيت الحقن فيهما مدة ٤٨ ساعة ليلاً ونهاراً . فشوهد التحسن من الناحية الاكلينيكية ، إلاَّ أن هذه الطريقة كانت متعبة وغير عملية ، لأنها تستدعي تخصيص طبيب لاعطاء الحقن ليلاً ، كل ثلاث ساعات . وهذا يتعذر تنفيذه إذا كان عدد المرضى كثيراً كما هي الحال في الأرماد الصديدية .

والخلاصة أننا وجدنا أن هناك تأثيراً لمادة البنسلين في الأرماد الصديدية البسيطة ، والتي لا تكون مصحوبة بالمضــاعفات الناجمة عن ميكروب الجونوكوك ، غير أن طريقة العلاج به تحتاج إلى تخصيص أداة طبية تتفرغ لحقن المريض ليل نهار ، مما يجعل تنفيذها من الوجهة العملية غير مستطاع ، وبخاصة إذا لاحظنا أن حالات الأرماد الصديدية كثيرة الانتشار في المدن والريف .

وأرى أن أذكر في هذا الصدد ، أن كثرة انتشار الرمد في مصر حملتني على التفكير في استخدام بعض المركبات النوعية التي أثبتت التجارب والمشاهدات شدة تأثيرها ، على ألاَّ يكون استخدامها مقصوراً على المستشفيــات الرمدية ، بل يشمل ذلك جميع الوحدات التابعة للوزارة ، في الأقاليم ، سواء أكانت منشآت صحية أم مستوصفات .

ولقد استأنست في ذلك بالدكتور ولسون مدير المعهد الرمدي التذكاري ، فأيد هذه الفكرة كل التأييد بمذكرة نفيسة سأعرضها على معالي الوزير ، ليضع ما ورد فيهــا من المقترحات موضع البحث . فإذا استقرت النية على الأخذ بها بدأت الوزارة في التنفيذ . وبذلك نكون قد خطونا خطوة جريئة في مكافحة مرض من أشد الأمراض خطراً على المصريين . (١)

---

(١) نشر في الاهرام ٢٠ نوفمبر ١٩٤٤

الروح العلائية

وأثرها في أدبنا الحديث

لأنيس الخوري المقدسي

كان الشعر القديم عموماً يدور حول نفس الشاعر أو من يتّصل بهم من عظماء الناس ، إليهم يتزلّف ، وبوقائعهم يهتم ، ولانعام رغائبهم يسرع . أما الشعب ورغائبه والمجتمع وحاجاته والحياة ومشكلاتها والطبيعة ومعانيها فقلّما كانت تهمّه أو تسترعي انتباهه . وإن كان شيء من ذلك فعرضاً في مقدّمات قصائده أو خطرة خاطفة من بعض خواطره — وبعبارة أخرى كان الشاعر موضوع شعره ، فالمديح أو الرثاء لمن يستعظمه أو يستوهبه ، والغزل أو العتاب لمن يحبه أو يلازمه ، والفخر بنفسه أو بعشيرته . وقد نسج أكثر الشعراء على هذا المنوال لم يشذ عنهم في ذلك غير النادر ومن هذا النادر شاعر المعرّة . بل هو عند التحقيق نسيج وحده بين القدماء وسابق لأوانه دون سائر الشعراء .

انفرد هذا الحكيم في عهده بمزية النظر الحرّ إلى الكون والمجتمع البشري فلم يكن قبله من حمل حملته على الفساد العام والمعتقدات الشائعة . وقد مرّت قرون قبل أن بعثت روحه ثانية تحرّك في أدبنا الحديث روح التأمل العميق والنظر الواسع . هذا البعث هو الذي نحاول أن ندرسه في حياتنا الأدبية لنبيّن ولو بإيجاز كلّي مدى أثره فيها.

كانت حياتنا الروحية حتى أواخر القرن الماضي لاتزال جارية على سنّة القرون الوسطى، وطفيفاً جدًّا كان تأثرنا بالنضال المحتدم يومئذٍ في أوربة بين آراء الطبيعيين وتعاليم الإلهيين . فظلّت رهبة الدين مستولية على المجتمع العربي . وظلّ الإيمان بالله وبالآخرة راسخاً في نفوسهم . الله أكبر بيده نواميس الكون وإليه مصير الانسان ، وما السماء والجحيم والخلود والتنزيل والنبوءة إلاّ بديهيّات لاتقبل مناقشة ولاتحتاج إلى برهان . وإلى ذلك يرجع كل أدب روحيٍّ في الأقطار العربيّة قبل الانقلاب الفكري الذي عمّ الغرب لبروز نظرية التطور الطبيعي واهتمام العلماء والفلاسفة بها .

فلمّا انتشر كتاب دارون في أصول الأنواع وأخذ أرباب العلم والنظر يبحثون في

نظرياته بين مناقش! ومدافع لم يستطع العالم العربي أن يبقى بنجوة من هذه الموجة الفكرية العامّة ، فنشأ فيه كما نشأ في الغرب قبله فئة من مريدي التحقيق العلمي كان لها أثر كبير في إثارة الشكوك وتنشيط البحث الحر ورفض ما لا يجاري السنن الطبيعية مما أدّى إلى كثير من الجدل والمناظرة (١) .

وكان لذلك نتيجتان ، الأولى تطرّف البعض في رفض النصوص الدينية المخالفة للعلم — وهو مذهب الدكتور شبلي شميّل ومدرسته — والثانية الأخذ بتأويل تلك النصوص للجمع بين العلم والإيمان وهو مذهب كثيرين ومنهم جمال الدين الأفغاني (٢) والشيخ محمد عبده (٣) وقد توسع في ذلك محمد فريد وجدي حتى جعل التأويل قاعدة الأصول الاسلامية وأوجب تأويل نص الكتاب إن أوهم ظاهر ألفاظه مخالفة للعقل والعلم (راجع مقالة الاسلام والعلم الحديث في عدد الهلال الممتاز « العرب والاسلام في العصر الحديث » سنة ١٩٣٩) .

وقد ظلّ هذا النزاع بين الطبيعيين والإلهيين محتدماً حتى مطلع القرن العشرين، ولعلّه لا يزال في بعض الأنحاء إلى الآن . على أن النزعة الفكرية في أدب هذا القرن هي نزعة التجديد، تجديد المعتقدات وتحريرها من قيود التقاليد والخرافات . فالأدب القديم المحافظ يتراجع اليوم أمام أدب ينادي بالحرّية الفكرية والتساهل الديني لا من طريق الالحاد كما قد يتبادر إلى ذهن البعض « فلا شيء — كما يقول الدكتور صرّوف — أفسد من هذا الوهم ولا أقبح منه تهمة على العلم لأن العلم والكفر مستقلان كل الاستقلال، فكم عالم من أشد الناس تديّناً وكم كافر يجهل مبادئ العلم » (٤) .

هذا الأدب الجديد أدبٌ فكريّ ومن مزاياه الشكّ في كلّ ما يناقض العلم أو يغلّ العقل عن التقدم . ولا أقول إنهُ صدى لشعر المعرّي ولكنّي أقول إنهُ يستقي من نفس المنبع ، منبع التفكير الحرّ المنبثق من اصطدام النظريات العلمية بالتقاليد الدينية والاجتماعية . فكيف تسنى لشاعر اللزوميات في القرن الخامس الهجري ما يتسنّى لمفكري القرن العشرين؟ وهل كان في بيئته ما يدفعه إلى ورود هذا المنبع الفكري ؟ سؤال لا بدّ في الاجابة عنه من الرجوع إلى عهد الشاعر وإلقاء نظرة على أثره في نفسه .

﴿ بيئة المعري الفكرية ﴾ : عاش شاعرنا ما بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس

(١) من رام الاطلاع على ما كان يدور من خصومة في هذا الباب فليراجع المقتطف مج ٨ ص ٧١٢ — ٧١٩
(٢) راجع خاطرات الافغاني للمخزومي ١٦١ و ١٨٥
(٣) راجع مقال الدين والفلسفة ، المقتطف مج ١٠٥ (٤) المقتطف ٧ — ٥٦٥

للهجرة — أي في إبّان الحضارة الفكرية العربية. في ذلك العصر كان قد تم نقل العلوم اليونانية وسواها إلى العربية ونبغ في الشرق العربي كثيرون من العلماء والمفكّرين. فكانت بغداد وعدد من المدن الشرقية الأخرى مراكز علمية احتكت فيها « الروحانية » السامية التي حملت إلى الناس الإيمان بالتوحيد والمعاد بالعقلية اليونانية التي حملت اليهم البحث المنطقي والنظريات الفلسفية. وكان من جرّاء هذا الاحتكاك تعدّد المنازع الفكرية والكلامية مما أحدث في العقول ميلاً إلى النظر النقدي. فتسرّب الشك إلى عقول الكثيرين واستولى على البعض منهم روح الإنكار أو اللاأدرية، فرفضوا ما لم تقبله عقولهم من تعاليم وسنن. ومن هؤلاء المعرّي فقد نشأ في هذا الجوّ الفكري المضطرب توّاقاً إلى المعرفة وبلوغ الحقائق المشبعة للعقل، وفي نفسه الحساسة كان اصطدام التقاليد بالتفكير الحرّ اصطداماً عنيفاً. حقّاً لا نعرف بالضبط متى كان ابتداؤه ولكننا نعلم أن أثره لم يبرز إلاّ بعد رجوعه من بغداد وحبسه نفسه على العلم في المعرّة. وفي كلامه على نفسه في كتابه الفصول والغايات[1] ما يدل على نزعته منذ الثلاثين إلى التأمل العقلي يقول مخاطباً النفس: « قد أخلقت الجسد فما تريدين، اظعني عنه لا يحمدك في الحامدين. ما زلت آمل الخير وأرقبه حتى نضوت كمالاً ثلاثين . . . فلما تقضت الثلاثون وأنا كواضع مرجله على نار الحباحب علمت أن الخير مني غير قريب. الرجل كل الرجل من آتى الزكاة ورحم المسكين، وتبرّع بما لا يجب عليه وكره الحنث وكفّر عن اليمين». ومن قرأ هذا الفصل كله كما ورد في الكتاب يستشف ما استشفه الدكتور طه حسين من نزعة المعرّي إلى التأمل في النفس وتبعتها وفي الشر وأنه غريزة في الحيوان وفي طلبه التزهد والتعالي عن سفاسف الحياة[2].

وقد نرى نزعة التأمل العقلي قبل ذلك فيه في رثائه لوالده وهو في شبابه، إذ يقول عن مصير الأموات:

طلبت يقيناً يا جهينة عنهم ولن تخبريني يا جهين سوى الظن
فإن تعهديني لا أزال مسائلاً فإنيَ لم أُعط الصحيح فأستغني

ولكن نفسيته على ما يظهر لم تنضج إلاّ في دور العزلة — دور اللزوميات، وفيه يظهر طابعه الروحيّ الخاص.

❁ طابعه الروحي ❁ : ليست اللزوميات عند التحقيق إلاّ انعكاساً لحالاته النفسية الناشئة عن بيئته الفكرية والاجتماعية. ويظهر فيها مطبوعاً بطابع خاص يميزه عن سائر الشعراء

(١) ص ٢٧٩ (٢) مع أبي العلاء في سجنه ص ٢٢٥ — ٢٢٣

والـكتّـاب وهو يتألف من ثلاثة عناصر رئيسية هي : الحيرة والتشاؤم والاخلاص .

١ — الحيرة : وهي وليدة التفكير في ما لا يحده العقل المحدود . أهناك حياة ثانية أم لا حياة؟ هل الله كما تصوّره النصوص الدينية أو هو شيء آخر ؟ أيتفق العقل والايمان أم لا يتفقان ؟. مثل هذه الأسئلة كانت تضطرب في نفس المعري وكان لديها كالقارب تتقاذفه اللجج . فبينا تراه يقينيـّـا يهاجم الجاحدين والمعطلين في مثل قوله :

إذا كنت من فرط السفاه معطّـلا فيا جاحد اشهد أنني غير جاحد

وقوله : وقال أناس ما لأمر حقيقة فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعمى
فنحن وهم في مزعم وتشاجر ويعلم رب الناس أكذبنا زعما

وقوله : لا ريب أن الله حق فلتعـد باللوم أنفسكم على مرتابهـا

تراه يتابع اللاأدريين فيقف من الغيبيات موقف المشكك بل موقف المناقض نفسه إذ يقول :

دفناهم في الأرض دفن تيقن ولا علم بالأرواح غير ظنون
وروم الفتى ما قد طوى الله علمه يعد جنوناً أو شبيه جنون

*

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البرية أن يبكوا
يحطمنا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

*

خذ المرآة واستخبر نجوماً تمر بمطعم الأري المشور
تدل على الحمام بلا ارتياب ولـكن لا تدل على النشور

والآراء في تفسير حيرة الشاعر وتناقضه مختلفة . ومهما تكن فما لا شك فيه أنه لم يصل إلى درجة الالحاد فهو يقول بإلـه حكيم متعال عن البشر . ولكن صورة الله في نفسه ليست الصورة ذاتها التي يتخيلها المؤمن العادي . ولعلنا من دراسة أقواله ومقابلتها نخلص إلى الحكم بأن نظره إلى العالم الثاني لم يكن إلاّ نظر لاأدريٍّ متأثر بالاسلام أو مسلم متأثر باللاأدرية .

٢ — تشاؤمه : وهو ظاهر في أكثر شعره — كقوله في الإنسان والطبيعة البشرية :

قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياهـــا وأجناسها
وكل حي فـــوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها

وقوله :

قالوا فلان جيّـد لصديقه لا يكـذبوا ما في البرية جيّـد
فأميرهم نال الإمارة بالخنـا وتقيهـّم بصـلاته متصيّـد

وجبلة الناس الفساد وضلّ من يسمو بحكمته إلى تهذيبها

ولو تابعناه في آرائه ووقفنا عند ظاهر أقواله لقلنا حتماً بالجبرية المطلقة ولما رأينا من حاجة إلى معاهد تربوية أو علمية ولا إلى شرائع دينية . فباطلة كل وسائل الثقافة أو الإصلاح . أليس الانسان ولد فاسداً وسيبقى كذلك إلى أن يزول ؟ ولكن هل كان المعري جبريًّا وإلى أي حدّ ؟ وللجواب عن هذا السؤال يجب هنا أن نفرّق بين الجبرية الفلسفية والجبرية الشعرية . فالأولى تفكير منظم ينتهي فعلاً إلى القول بأن الإنسان غير مكلّف وأنهُ لا سبيل إلى خروجه عما رسم له منذ الأزل، وهي فكرة تهدم كل ما يحاوله الانسان من ترقية نفسه كفرد أو كمجموع ، وتجعل الشرائع الدينية والاجتماعية قيوداً لا معنى لها في الحياة . أما الجبرية الشعرية فهي شعور فقط بضعف الانسان إزاء المجهول . فبينا ترى الشاعر من جهة يقول بالقدَر ويصف فعله وأثره في الناس . كقوله :

وللحيّ رزقٌ ما أتاه بسعيه وعقلٌ ولكن ليس ينفعه العقل

*

قضى الله فينا بالذي هو كائن فتمّ وضاعت حكمة الحكماء

*

كتب الشقاء على الفتى في عيشه وليبلغنّ قضاءه المكتوبا

*

ما حركت قدم ولا بسطت يد إلاّ لها سبب من المقدار

*

قضاءٌ يوافي من جميع جهاته كما هو عن أيماننا والأياسر
ولو لم يرد جور البزاة على القطا مكوّنها ما صاغها بمناسر

*

وهل ألوم غبيًّا في غباوته وبالقضاء أتته قلة الفطن

*

وما دفعت حكماء الرجال حتفاً بحكمة بقراطها
ولكن يجيء قضاء يريك أخا غيّها مثل سقراطها

تراه من جهة أخرى يدعو الناس إلى مثل عليا ينشدونها ويحضهم على فضائل يعيشون بموجبها . وهو في هذه الدعوة جادّ فيما يقول، ويحملنا ضمناً على الاعتقاد بأنه مؤمن بقدرة الإنسان على الخير . وإلاّ فما معنى طلبه الاصلاح الديني والاجتماعي وما معنى نقده حياة الأفراد والجماعات،ولماذا يدعونا إلى اتباع العقل والبعد عن الكذب والرياء والتمويه والادعاء حاضًّا على العمل الصالح وضبط النفس عن الشهوات وغير ذلك من الفضائل . إن المعري جبري

إذ يرى ضعف الانسان أمام الكون وحوادث الأيام أمام نظام الحياة والموت . ولكنه غير جبري في الدعوة إلى البر والتقوى والحض على الحياة الفاضلة .

نعم إنه على ما يظهر يأس من تهذيب الطبع البشري :

فلا تأمل من الدنيا صلاحاً فذاك هو الذي لا يستطاع

ولكن يأسه لا يمنعهُ عن تبيان ما يجب عليهم أن يفعلوه لينالوا التهذيب الحقيقي. فكأنه يترك للانسان شيئاً من الحرية ، ولهذا تسمعه يعارض الجبرية بقوله :

إن كان من فعل الكبائر مجبرا فعقابه ظلمٌ على ما يفعل

٣ — الاخلاص : وهو من أبرز صفاتهِ . فهو مخلص إلى العقل الهادي الوحيد في الحياة:

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

*

جاءت أحاديث إن صحت فإن لها شأناً ولكنّ فيها ضعف إسناد

فشاور العقل واترك غيره هدرا فالعقل خير مشير ضمّه النادي

ولا يعني ذلك أن المعرّي كان معتزليًّا في آرائه ونظرياته إذ كان يهاجم بنقده جميع الفرق، ولكنهُ كان كالمعتزلة في تعظيمهِ شأن العقل . ويظهر إخلاصه أيضاً في نظره إلى الدين . وهو عنده على وجهين. الأول : وضعي أي نظام بشري قائم على مراسيم وفرائض، وهذا باب للاختلاف بين الناس ولنشوء التحزب والتنافر بينهم بل التباغض وسفك الدماء ، وفي ذلك يقول :

إن الشرائع ألقت بيننا إحناً وأودعتنا أفانين العداوات

والثاني : روحي عملي وهو رياضة النفس على عمل الخير والتمسك بأهداب الفضيلة والتعالي عن الأطماع الضارّة والشهوات الفاسدة .

وقد يكون في الوجه الوضعي من الدين فائدة لمن فهم حقيقته وعرف كيف يستخدمه لتقوية الروح الدينية الحقيقية في النفس . ولكن المعري قلما يرى ذلك فهو صريح في مهاجمته النظم الخارجية زاعماً أن أربابها إنما يحرصون عليها لما يرجونه من فائدة مادية :

إنما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء

*

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكم مكرٌ من القدماء

أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء

هكذا ينظر إلى النظم الدينية . بل كثيراً ما نراه يسرف في تهجمه على رؤساء الدين وينعتهم عموماً بما قد يصدق فقط على بعض الأفراد ، فيقول مثلاً :

رويدك قد غررت وأنت حرٌّ بصاحب حيلة يعظ النساءَ
يحرّم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمد مساءَ
يقول لكم غدوت بلا كساءٍ وفي لذاتها رهن الكساءَ
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساءَ

ومن إسرافه في ذلك قوله :

كم قائم بعظاته متفقه في الدين يوجد حين يكشف فاهرا

ومع تفضيله الاسلام على سواه يدمج أهله مع أهل سائر المذاهب والفرق فيقول :

وكلّنا قوم سوء لا أخصّ به بعض الأنام ولكن أجمع الفرقا

*

دينٌ وكفرٌ وأنباءٌ تقصّ وفرْ قانٌ ينصّ وتوراة وإنجيل

*

في كل جيل أباطيل يدان بها فهل تفرّد يوماً بالهدى جيل

*

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضلّله
اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر ديّن لا عقل له

وأقواله في ذلك أكثر من أن يحصرها هذا المقام . ومهما يكن من إسرافه وتعميمه فهو لا شك حرب على الرياء في الدين والانصراف إلى الأوضاع الخارجيـة . وإنما الأمر عنده الجوهر لا العرض — الروح لا المسوح — فلا عجب أن نراه يخاطب الديّن الذي لا يأمن الناس بوائقه بقوله :

توهمت يا مغرور أنك ديّن عليَّ يمين الله ما لك دين
تسير إلى البيت الحرام تنسكاً ويشكوك جار بائس وخدين

والذي يستسلم إلى أطماعه وشهواته :

سبّح وصلّ وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعاً فلست بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له أطماعه لم يلف بالمتماسك

فالدين الحقيقي عنده هو الانصاف وإعطاء كل ذي حق حقه :

الدين إنصافك الأقوام كلّهم وأيُّ دين لآبي الحق إن وجبا

وكما أن إخلاصه للحقيقة يدفعه إلى تلمّس الدين في قلب الإنسان وتصرّفاته لا في فروضه ووسائل عباداته ، كذلك هو يدفعه إلى التصريح برأيه في موقف الحكومة من الشعب . فالحكومة عنده إنما هي خادمة للشعب مستأجرة بماله لأجل مصالحه ، لا سيدة

مستبدة به تسومه العذاب وتتمتع بما يجنيه من مال . فيؤلمه أن يرى الحكام في أيامه :

يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه
فأفٍّ من الحياة وأفَّ منّي ومن زمن رئاسته خساسه

ويصوّرهم بأقبح الصور فيقول :

ساس الأنام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان

وقد يحمل المعري إخلاصه أيضاً إلى مهاجمة العلماء ذاهباً إلى أن علمهم ليس بشيء بل هو الجهل :

وما العلماء والجهال إلاّ قريب حين تنظر من قريب

ولا يستثني نفسه بل يصرّح بكل تواضع أنهُ جاهل :

الله يشهد أني جاهلٌ ورعٌ فليحضر القوم إقراري وإشهادي
أعمى البصيرة لا يهديه ناظره إذ كل أعمى لديه من عصا هادي

*

أقررت بالجهل وادّعى فهمي قومٌ فأمري وأمرهم عجب
والحقُّ أني وأنهم هذر لست نجيباً ولا همُ نجب

*

علمي بأني جاهلٌ متمكنٌ عندي وإن ضيّعت حق العالم

*

لقد علم الله رب الكمال بقلة عقلي وديني ومالي

*

دعيت أبا العلاء وذاك مينٌ ولكنَّ الصحيح أبو النزول

ومن ظواهر صراحته ذهابه إلى أن الكون سائر على نظام أزلي ثابت ، فإذا حبس المطر أو فاض فإن الصلاة إلى الله مثلاً لا تحمله على تغيير طبيعة الجو :

قضى الله في وقت مضى أن عامكم يقلّ حياه أو يزيد به السّجم
فقولكم ربّ اسقنا غير ممطرٍ ولكن بهذا دانت العُرب والعُجمُ

ومهما يحاول الإنسان أن يغالب هذا النظام المحتوم فإنهُ لا يرجع إلاّ بالخيبة ولا يلاقي غير العناء :

والطبع أحكمه المليك فلن ترى حجراً يقول ولا هزبراً يبغم
وإذا غدوت على القضاء مغالباً فأذاك تستمري وأنفك ترغم

وإذا كان الأمر كذلك فعبث تعلقنا بالخوارق واتكالنا على التدجيل والتنجيم والسحر وما إلى ذلك من ضروب الأباطيل ، ومن العبث أن نقول إن بركات الطبيعة متعلقة بأعمال الإنسان :

لم يسقكم ربكم عن حسن فعلكمُ ولا حماكم غماماً سوء أفعال
وإنما هي أقدارٌ مرتبةٌ ما علقت بإساءات وإجمال

فالمعري مخلص للحقيقة ينفر من الرياء والاستبداد والادعاء ويطلب الصراحة والابتعاد عن الغرور ونبذ كل ما لا يوافق العقل ، فلا بدع أن نرى الكثيرين في عهده وبعد عهده بعيدين عن إدراك كنه نفسه يرمونه بالكفر أو يتقوّلون عليه ما يمليه عليهم الجهل وسوء الظن .

كان المعري في القرن الخامس الهجري يعيش في جوّ قرننا الحاضر بل نستطيع أن نعده من حكماء هذا القرن ومن روّاد التفكير الروحي الحديث . ومن يقرأ أدبنا التأملي اليوم ولا يراه مشبعاً بالروح العلائية — روح الحيرة والتشاؤم والإخلاص للحقيقة — تلك الروح التي تفيض من قلب الشاعر متأثرة بمساوئ الحياة . كان الشعراء قبله وهم مبصرون لا يرون في الحياة إلاّ أنفسهم ولا يرون في الأدب إلاّ ما يوصلهم إلى أغراضهم ، لكن المعري وهو الأعمى قد ألقى على الحياة نظرة أوسع من نظراتهم وتطلع إلى آفاق أبعد من آفاقهم ، فانعكست نظراته عن بيئة قاتمة كأنما هي أشعة تنفذ إلينا من وراء زجاجة سوداء ، وهي نفس الروح أو النظرات التي نراها في أدبنا الحديث . ولا أعني أن هذا صدى أو تقليد لشعر المعري بل أعيد القول أن شاعر المعرة وشاعر القرن العشرين يستقيان من نبع واحد .

والغريب أننا لا نرى في هذه القرون العشرة التي تفصلنا عن أبي العلاء عهداً شملته هذه النزعة الفكرية التي نراها اليوم ، ولماذا؟ لأن هذه القرون شهدت انحطاط الحركة العلمية الحرّة وسيطرة التقاليد القديمة ، فاتجه العقل فيها نحو الجمع الأدبي والتصنيف الديني والتفسير اللغوي والبياني وغرق في تيار الرجعية فلم تتهيأ له بيئة تساعده على النظر الحر كما تهيأت له في الآونة الأخيرة ، وإذا قلت الآونة الأخيرة فإني أعني ما أقول ، إذ هي لا تتجاوز الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية ، بل لعلها لا تتجاوز المدى القائم بين الحرب العالمية الأولى وهذه الحرب . ففي هذه الفترة نرى الشعر العربي يخرج عما كان عليه في أواخر القرن التاسع عشر ، يخرج عن الموضوعات القديمة التي عرفت في كل الأجيال إلى آفاق جديدة يطل منها على المدنية الحاضرة ويرى ما فيها من قبح أو جمال .

﴿ ظواهر الاتفاق والاختلاف بين أدب المعري وأدب القرن العشرين ﴾ : إن أدبنا الفكري إزاء الروح العلائية بين عاملي جذب ودفع . الأول يقوده إلى نفس المنهل الذي نهل منه المعري والثاني يدفعه عنه إلى منهل آخر . فلو راجعنا الشعر العربي الحديث لوجدنا فيه ما نجده في اللزوميات من نظر إلى الحياة وما وراء الحياة . خذ مثلاً هذين البيتين :

خبرت دنياي وأبناءها مذ نشأتي خبرة مستقرئ

فلم أشاهد غير ما حالة أرتني السوء بكل امرئ

هذا صوت يرتفع من العراق على لسان الدجيلي وهو شبيه في تشاؤمه بصوت الرصافي إذ يقول ضارباً على هذا الوتر :

أرى الخير في الأحياء ومض سحابة بدا خلباً والشر ضربة لازم
إذا ما رأينا واحداً قام بانياً هناك رأينا خلفه ألف هادم
وقما جاء فيهم عادل يستميلهم إلى الخير إلاّ ضده ألف ظالم
جهلت كجهل الناس حكمة خالق على الخلق طراً بالتعاسة حاكم

ألا يعكس لنا هذا الكلام روح أبي العلاء المتبرمة بالانام ؟ وأمثال هذه الأبيات كثيرة في هذا العصر . وكما لام المعري والده على الاتيان به إلى هذا العالم المملوء بالشقاء هكذا يفعل الشاعر المصري محمود أبو الوفا إذ يصيح بمرارة اليائس :

أبي ! وفي النار مثوى كل والدة ووالدٍ أنجبا للبؤس أمثالي
خلفتني فوضعت الحبل في عنقي يشده لف دهر جد ختال
ما كان ضرك لو من غير صاحبة قضيت عمرك شأن الزاهد السالي

وهوذا العقاد وهو الأديب القائل بوجوب الانضواء إلى كنف الثقافة الحديثة ، والمعنيّ في كتاباته باصلاح المجتمع . تجيئه أحياناً ساعات يقع فيها تحت تأثير أبي العلاء فيقول :

لقد كنت أرجو في الحياة لبانة فعدت وما لي في الحياة رجاء
وكنت أخال الناس إلا أقلهم كراماً إذا هم كلهم لؤماء

وهذا شاعر مصري آخر ، هو أحمد رامي ، وهو من ناظمي الأغاني المرحة تحل به أحياناً الروح العلائية فيصبح متظلماً من الحياة وأبنائها :

كثر اللؤم في بني الانسان وقسا قلبهم من الأضغان

وبعد أن يعدد مساوئ الحياة من غدر وظلم وقسوة وسلب يدعو الطبيعة إلى البكاء على الإنسان . وعلى طريقة المعري يصرّح ان لا خير إلاّ في امحاء هذه الدنيا من صفحة الاكوان :

إن دنيا تضج باللؤم أولى بامحاء من صفحة الأكوان

وإنك لتحسّ بهذه الروح المتبرمة في كل الأقطار العربية حتى في المهاجر الاميركية ولعلها بين اللبنانيين والسوريين هناك أشد لاصطدام خياليتهم الشرقية بالمادية الغربية .

فجبران مثلاً لا يرى بين الناس ما نسميه خيراً أو عدلاً أو ديناً . وفي مواكبه يصرّح قائلاً :

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا والشرّ في الناس لا يفنى وإن قبروا
والعدل في الأرض يبكي الجن لو سمعوا به ويستضحك الأموات لو بصروا

والدين في الناس حقلٌ ليس يزرعه إلاّ الأُلى لهمُ من زرعه وطر

وهو يزعم أن هذه المثل العليا لا توجد على حقيقتها إلاّ في الطبيعة بعيدة عن صخب المدن وتكالب سكانها — ففي الطبيعة لا تعدّي ولا حسد ولا ظلم ولا أوهام بل كل شيء يجري على مقتضى ما خلق له. ومثلهُ فوزي المعلوف في قصيدته على بساط الريح وأخوه شفيق في عبقر ورشيد الخوري في قروياته وأعاصيره ورهط غيرهم من أدباء المهاجر. وقد تجاوزت هذه الروح العلائية الحديثة مصر وسورية ولبنان والعراق إلى سائر الاقطار العربية فدخلت الحجاز وتونس وسواها وتغلغلت في نفوس النشء الجديد.

وكما تنبعث روح أبي العلاء في عصرنا بالتشاؤم تنبعث بالحيرة أو النزعة اللاأدرية. ويكفي للتمثيل هنا أن أنوّه بقصيدة أبي ماضي «الطلاسم» وقصيدة الرصافي «من أين من أين يا ابتدائي» والزهاوي «حول الحقيقة». ويمثل ذلك قول الزركلي من قصيدة «في سرّ الوجود أو الحياة»:

لجّةٌ مزبدة أم نَهَرٌ معتكر أم هو سيلْ ما أمامي؟ حيرة لا تنتهي ما دام هذا الليل ليلْ

وقد تصل هذه اللاأدرية في الصافي النجفي حدود الإنكار في قصيدته الخلود الزائف وسواها. فهو يقف هناك موقف المتهكم من اليقينيين الذين ينظرون إلى ما بعد الموت نظرهم إلى أمر واقعي.

وفي أدبنا الجديد نزعة علائية شديدة إلى محاربة التعصب الديني والتقاليد البالية والدعوة إلى التمسك بجوهر الدين دون العرض، بالعمل دون العقيدة. ولا أبالغ إذا قلت إن هذي هي النزعة العامة في الشعر العصري في كل الأقطار العربية، وهي أوضح من أن أمثّل لها في هذا المقام. وقد دعت إليها دواعي المدنية الحديثة المبنية على روح العلم والنّظر الحرّ إلى الحياة. وأوقدها في الأدب حدَثان هامان — الأول إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨. والثاني الدعوة إلى الملك العربي أيام المغفور له فيصل. فهذان الحدَثان كانا مبعثاً لتموجات أدبية مندفقة من قلوب تؤمن بالإخاء والوئام. وتختلف عن دعوة المعري بأنها أكثر اتصالاً بالعاطفة القومية. فالمعري لم يعنَ بهذه الناحية الخاصة ولم يكن في بيئته ما يدفعه إلى غير النظر الروحي أو الاجتماعي البحت. أما الأدب الحديث فيجعل الدعوة إلى جوهر الدين والتعالي عن القشور الفارغة والأنظمة المفرقة وسيلة لتقوية الرابطة القومية بين مختلف العناصر، وهنا تشتبك السياسة بالدين أو الدعوة إلى القومية بالدعوة إلى شجب النعنعات الطائفية الحائلة دون الاتحاد القومي. وقد قاد ذلك بعضهم إلى التهجم على رؤساء الدين — كما فعل المعري — وعزو كثير من السيئات إليهم — وكما أسرف شاعر المعرة أسرفوا هم أيضاً وأطلقوا لأقلامهم العنان دون رادع في هذا الميدان.

ومن أمثلة هذا الإسراف ما جاء للريحاني من خطبة له موضوعها «الثورة الأدبية» قال:(١)

« وأما الكهان ياسادتي فهم أول من عاثوا في الأرض فساداً. هم أول من قيدوا النفوس البشرية واستعبدوها ، هم أول من تاجروا بالخداع والتغرير. هم أول من استولوا على الأمراء والملوك وأيدوا سلطانهم بأنباء من السماء كاذبة . والكهان اليوم أو رؤساء الأديان كلها هم أعداء الحرية الروحية الأدبية». إلى أن يقول : «على الكهان وآلهة الكهان امتشق نبي العرب حسامه في الكعبة . وصبَّ أشعيا نار غضبه في أورشليم على الكهان ومذابحهم وتزاويقهم وأصنامهم ، وانقضت صواعق حزقيال في إسرائيل ، وزمزمت رعود دانيال في بابل . على تغريرات رجال الدين وخزعبلات العبادات قام ابن عبد الوهاب في نجد ولوثيروس في وتنبورغ ونوكس في إنكلترة ، وغيرهم في البلاد كثيرون» .

وكما كان الأدب العلائي ينزع إلى العقل ويؤمن بالنظام الأزلي وينفر من التدجيل والأوهام هكذا نرى أدبنا الآن . على أن في الأدب الحديث برغم ما يشمله من ظلام التشاؤم والحيرة مسحة من التفاؤل أو الرضى بالواقع والايمان بقدرة الإنسان على التقدم . وقد مرَّ معنا أن المعري لم يكن جبريًّا مطلق الجبرية وأن في شعره ما يسمح للإنسان بشيء من حرية الإرادة في التصرّف . ولكن ذلك لم يبلغ فيه درجة الرضى والايمان بقدرة الإنسان كما نراه في الأدب الحديث . إن المعري يكاد يقف أمام القدر موقف الوهن والتردد :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلاّ من راغب في ازدياد

أما الشاعر الحديث فينزع إلى المناضلة والجهاد . المعري لم يكن يرى في الحياة ما يستحق السعي لأجله ، أما شاعر اليوم فالحياة عنده برغم قتامها ذات قيمة ولكن قيمتها لن تبلغ إلاّ بإرهاف العزم واطّراح الخوف والاقدام على المصاعب. وعلى ذلك قول الشاعر المصري عبد الرحمن شكري :

انضُ عنك الحذار من حادث الدهر فليس الحذار يغني فتيلا
إنما العيش أن تكون جريئاً ليس ترضى الحياة غمراً ذليلا

ويقول : هو العيش كالحسناء تبغض محجماً جباناً ويحظى بالوصال جسور
بدا لي أن لا سعد إلاّ تصبّر تقرّبه في النائبات صدور
وعزمٌ وإيمانٌ وطبعٌ وحكمةٌ ورأيٌ بآلاء الحياة خبير

فالكدّ والجرأة والصبر هي مفاتيح الحياة المثلى، وإذا صحّ ذلك فالحياة التي هذه مفاتيحها حياة ثمينة جديرة بالاهتمام والجهاد . وهذا الجهاد كثيراً ما يعني التمرد على القديم . ولا ينكر أن المعري كان متمرداً يدعو إلى اطراح كل ما لا يقبله العقل السليم، ولكن تمرده مقيد بالاستسلام للقضاء ، وبهذا يختلف عن الشاعر الحديث الذي يعني بالتمرد التخلص

(١) راجعها في الريحانيات ٢—٤٣

المطلق من كل ما يقيد النفس البشرية ويقف في سبيل تقدمها المطرّد. ويتمثل لنا ذلك في جبران ومدرسته. فالتمرد عنده ليس هدماً فحسب بل هو الخطوة الأولى في سبيل البناء الأثبت وهو التخلص من العوائق التي تعوقنا عن النمو إلى ما هو أفضل [١]. وفي هذا الجهاد والسعي نحو الأفضل تنكشف لنا معاني الحياة الحقيقية. فاللاأدرية الحديثة مع اعترافها بجهل الانسان للحقيقة ترى لزاماً عليه ابتغاءها أو الطموح إليها إذ على هذا الابتغاء والطموح تقوم دعائم العمران والتقدم.

ويكثر في أقوال المحدثين القول بأن السعادة حالة وجدانية نفسية لا أمر موضعي نحصل عليه من الخارج. فالبعض يلتمسها في القناعة والبعض في بساطة العيش والبعض في الالتجاء إلى حمى الطبيعة والبعد عن عناء المدنية والبعض يراها في السعي المستمر والاختبار المتجدد كقول أحدهم [٢]: «لذاتنا في الشوق لا في الوصال» ولا ينكر أن فكرة القناعة والبساطة فكرة قديمة وهي بارزة في حياة المعري وأقواله. أما فكرة السعي المستمر والاختبار المتجدد ففكرة حديثة مستمدة من الأدب الغربي، ولعلّ غوته في روايته فوست هو أعظم من أثار هذه الفكرة في نفوس المحدثين. [٣]

ومهما يكن من علاقة بين أدبنا الحديث والروح العلائية فما لا شك فيه أن العصر الحاضر متأثر بهذه الروح وأن شاعر المعرة لا يزال حيًّا في نفوس المفكرين. ولا أعلم شاعراً قديماً بلغ تأثيره الروحي في أدبنا ما بلغه تأثير هذا الشاعر العظيم — شاعر واحد فقط يقاربه هو أبو الطيب المتنبي ولكن من سبيل آخر. فهذا يثير فينا روح الفخر القومي أو الفردي. ويرفعنا إلى ذروات الاختبار الحي ولكننا لا نقف معه كما نقف مع المعري متسائلين عن الحياة والانسان، عن الشرائع والعمران، عن الأكوان وما وراء الأكوان.

ليس المعري أشعر شعراء العرب فقد نرى كثيرين ممن يفوقونه في نواحٍ مختلفة من الفن الشعري، ولكنك قلما تجد فيهم من يضاهيه في تأثيره الروحي على الأجيال. ولماذا؟ أليس لأنهُ يطبع شعره بطابع الصراحة والاخلاص، ولأنهُ ينظر إلى الحياة نظرة المترفع الحقيقي لا المقلّد للمترفعين أو المرتزق بادعاء الورع والدين:

فلتفعل النفس الجميل لأنه ‎ ‎ ‎ خيرٌ وأحسن لا لأجل نوالها

إن المعري أسمى تراث روحي وصل إلينا من الأجيال الغابرة وقد زالت منذ أيامه إلى الآن دول وتيجان، وبادت أمم وبلدان، ولكن روحه لا تزال حية لأنها روح النابغة الذي يعيش لكل زمان.

---

(١) راجع مقالة البنفسجة الطموحة في العواصف (٢) يوسف غصوب في القفص المهجور ١٤٩
(٣) وقد توسع الاستاذ أحمد أمين بك في شرح هذه الفكرة (راجع كلامه في كتابه فيض الخاطر ٣ — ٩٤ فهو حري بالمطالعة)

حمى البرداء ومقاومتها

للدكتور بشير العظمة

رئيس السريريات الطبية في معهد الطب بدمشق

كان الطب الوقائي وما يزال غاية عزيزة من غايات الطب، فانهُ بالرغم من معرفتنا لعدد من الادوية الناجعة ضد بعض الأمراض لا نزال عاجزين عن تعقيم الجسم أو تنقيته من جميع آثار تخريب الجراثيم متى صالت عليه .

كانت البرداء أو الطاعون الأخضر منذ قديم العصور أخطر جائحة هددت كيان الجنس البشري، فهي متى ظهرت في بقعة من الأرض زادت الوفيات في المنطقة الموبوءة بعضها بالبرداء والبعض الآخر بتسهيل البرداء لفتك العوامل الممرضة الأخرى . وزيادة الوفيات بين الأطفال خاصة وهرب من تبقى من الكهول على قيد الحياة من المرض والموت يؤديان الى قلة السكان فتقفر الأرض وتبور زراعتها وتشتد وطأة البعوض على العدد القليل الذي جالد فبقي في تلك الناحية، وإن نقص السكان ونقص الحيوانات الداجنة التي تقل مع خراب الأرض وحاجة البعوض الخبيث إلى الدم بأي ثمن تجعل أجسام المتخلفين في الأرض المقفرة فرائس يتهالك آلاف البعوض على الوصول إليها . فالبرداء تخف وطأتها في المناطق المأهولة عما هي عليه في المناطق القليلة السكان ، كما أن الفقر والجوع عونان للبرداء في عملها الفتاك . ويقول المثل الإيطالي : إن علاج البرداء في القدر قبل كل شيء .

من الثابت أن انتشار البرداء في بلاد اليونان كان من العوامل الفعالة في الاجهاز على مدنية طالما فاخر بها التاريخ القديم ، فان هذا العرق البشري الذي اشتهر بقوته وحسن بنائه هو اليوم شعب هزيل نحيل لا يفترق عن غيره من الشعوب المتأخرة ، كل ذلك نتيجة إصابة أجداده بالبرداء واجتياحها مناطق كان الري والعمران فيها مما تغنت به القرون زمناً طويلاً .

ومالنا نذهب بعيداً والشواهد ماثلة للعيان في بلادنا ، فأرض الشام درة إمبراطورية الرومان ومن قبلهم من الحثيين والفرس واليونان حتى صدر الاسلام كانت أرضاً مشهورة بخصبها وعمرانها ، فقد كان عدد سكان هذه البقعة من الشرق الأدنى على ما يقرر المؤلفون عشرين مليوناً من الأنفس، وما ازدهار تدمر والبتراء ودور ادروبوس (خرائب الصالحية عند الفرات اليوم) وبعلبك وجرش وغيرها من آلاف القرى المندثرة إلاّ شواهد على ما كانت عليه بلاد الشام من ازدهار وعمران . وقد كانت أفامية وإنطاكية من أعظم مدن

السلوقيين والرومان، بل كانتا عاصمتين كبيرتين،وتقع خرائب أولاهما في وسط ما نسميه اليوم مستنقع الغاب الرهيب، وتقع ثانيتهما في منطقة مستنقع العمق الوبيل .

وليس من الضروري أن تصاب البلاد بنكبة لتندثر معالم مدنيتها التي عاشت قروناً طويلة، بل يكفي أن يهمل الري فيها زمناً ما لتصبح قفراً يباباً موطناً للبعوض ومقبرة للبشر سكانها . فالفناء رابض أبداً إلى جانب البقاء ، والتبدل على قيد غلوة من الاستقرار .

وهناك برهان عكسي على ما أقول ، وهو أن البعوض يتراجع متى تقدم العمران وكثر السكان، فإن منطقة جزيرة ابن عمر الموبوءة بالبرداء دخلها عام ألف وتسعمائة وثلاثين أقوام لاجئون من المناطق المجاورة عُنوا بأمور معاشهم وتوافر لهم الغذاء والكساء والدواء فعاشوا في الجزيرة الموبوءة وعمروا مدناً لم تعرف قبل ذلك إلاّ بأنها قرى صغيرة لا يمكن للبشر أن يعيش بها . فبلغ عدد سكان القامشلية عشرين ألفاً أو يزيدون ، وكان من نتيجة عمران الزراعة وازدهارها حولها نقص إصابات البرداء فيها .

فالكفاح بين البعوض والإنسان أو بين الخراب والعمران قديم العهد وهذا العدو الصغير المستكين عدو خطر قضى على مدنيات قديمة أو سهل السبل إلى ذلك . فكفاح البرداء في بلادنا كفاح ضروري للبقاء، وليست مشكلة البرداء مشكلة اليوم ولا الأمس القريب بل هي خطر لا يزال يهدد بالفناء سكان هذه البقعة منذ قرون كثيرة .

ينتقل عامل البرداء بين البشر والبعوض الخبيث فقط، ويكفي للقضاء على البرداء ومكافحتها كفاحاً ناجحاً القضاء على معين الحمة في أحد الطرفين .

لقد كلفت إيطالية البرداء المستوطنة بعض أرجائها بما سموه إصلاح الأرض bonification ولم تفكر في النفقة التي اقتضاها هذا الإصلاح، كما ان أميركة عند ما أخذت في كفاح البرداء في منطقة قناة باناما لم تنظر إلى تكاليف ذلك . فإذا كان ذلك جائزاً وممكناً في البلدين حيث المناطق الموبوءة محدودة فإن التفكير في ذلك أي في القضاء نهائيًّا على البرداء بإزالة جميع ملاجئها في سنة أو سنين معدودة حلم بعيد المنال في بلاد أكثر مناطقها موبوء. فالمشكلة المالية أكبر من أن تسوى وتكاليف تجفيف مجامع المياه وإصلاح شطوط مجاريها وتنظيم الري المهمل منذ قرون بعيدة ووفرة مياه أرضنا، كل هذا يجعل التفكير في إصلاح أرضنا إصلاحاً أساسيًّا كما ذكرت أمراً لا يمكن تحقيقه إلاّ بصورة تدريجية .

وأما محاولة الأمر الثاني أي معالجة جميع المرضى المصابين مرة واحدة حتى الشفاء التام فإن عدد هؤلاء المصابين قد يبلغ في بعض البقاع الموبوءة مئة في المئة من السكان ولا يقل في أكثرها عن ستين إلى سبعين في المئة منهم، فمعالجتهم مرة واحدة حتى تعقيم أجسادهم مما

تحمل من مصوّرات أمرٌ عسير . فإن مداواة المريض بالبرداء المزمنة قد تقتضي عناية متصلة مدة أشهر أو سنين كثيرة إذ تختبيء المصورات غالباً في أعماق الأحشاء فلا تنالها الأدوية .

وتنتظرُ الفرصة المواتية للنكس، وقد شوهدت حوادث نكس بها الأنتان البرداني بعد مرور عشر سنين وعشرين سنة الى ستين سنة من الاصابة الأولى برغم ابتعاد المصاب عن المنطقة الموبوءة طول هذه المدة ، فتعقيم أجسام البشر مما يحملون من عوامل البرداء أمرٌ خيالي لا يمكن تحقيقه أيضاً . فغاية الكفاح في بلادنا يجب أن تكون بمنع تحول البرداء المستوطنة السليمة في منطقة ما إلى برداء خبيثة وأن تكافح البرداء الخبيثة لنجعل منها برداء سليمة . وتلخص طرق هذا الكفاح في ما يلي هذا : ١ — في المناطق التي لا تخشى فيها إصابة الشخص بعدوى جديدة تجب معالجة المريض حتى شفائه التام . ٢ — في المناطق التي يتعرض فيها الشخص إلى انتانات مكررة يجب أن تقتصر المداواة على شفاء النوبات الحادة شفاءً سريرياً ولا فائدة من معالجة المريض حتى الشفاء النهائي إذ سيتعرض لإصابة جديدة حين توقف المداواة . ٣ — وقاية الأطفال والكهول المسالمين المعرضين للإصابة .

وإذا كان سكان المنطقة الموبوءة هم سكانها في القديم أعني حاملي المناعة النسبية prémunition عولج المرضى منهم كما ذكرت حتى شفاء الأعراض الحادة . أما إذا كان سكان المنطقة لا يحملون مناعة نسبية لأنهم غرباء أتوا للعمل بها من منطقة غير موبوءة فهم أشخاص معرضون للإصابة بأشكال خطرة كثيراً ما تكون مميتة . ويكتسب الشخص المناعة النسبية ضد البرداء بعد أن يعيش مدة لا تقل عن خمس سنين في المنطقة الموبوءة فلا تظهر البرداء في هذا الشخص بعد ذلك إلاّ بنوبات سليمة عارضة أو أنها لا تظهر بأية ظاهرة سريرية .

ويتعرض الأطفال للإصابة غالباً إصابة مميتة ، فيجب أن توجه العناية لهم فإن أبدانهم الغضَّة الفتية لا تعرف كيف تدافع عن نفسها كما اعتاد ذلك الآباء . فالوقاية الدوائية توجه إلى الأطفال جميعاً وإلى الأغراب عن المناطق الموبوءة، ومداواة المرضى بغية كفاح البرداء يجب أن تقتصر على شفاء الظواهر السريرية في المستوطنين، وتكون بتعقيم الجسم من آثار المصورات للذين يعيشون بعيداً عن المنطقة الموبوءة حذراً من انتشار البرداء في مناطق سليمة .

وإذا شوهد أن حمة البرداء شديدة وجب فرض نطاق صحي barrage sanitaire خوف انتشار وباء مخيف ، فالبعوض الذي لا يقوى على الطيران إلا مسافات ضئيلة قد يقوم البشر عنه بنقل المرض إلى مناطق بعيدة جدًّا عن البؤرة الموبوءة .

فإذا أدت وسائل الكفاح التي أجملتها إلى زيادة عدد السكان انقلبت المشكلة رأساً على عقب ، فازدهرت الزراعة وتحسن العمران واشحبت البرداء تدريجيًّا حتى يقضي عليها

نهائيًّا . ولن يقضى عليها قضاءً مبرماً إلاّ متى صلح حال الأرض ومن عليها .

ولتنظيم العلاج في المناطق الموبوءة تؤسس مستوصفات بسيطة يعالج بها المرضى مجاناً وأحياناً بالرغم منهم أو على الأقل بالرغم من إهمالهم وتهاونهم . ويقوم على هـذه المستوصفات طبيب يساعده ممرضون جوّالون لـكل منهم دراجة بخارية أو دابة على حسب طبيعة الأرض ومجهر لفحص دماء المرضى . يأخذ الممرضون الجوالون الدم من المرضى وبعد الفحص عنهُ يشير الطبيب على ورقة خاصة بالدواء اللازم فيأخذه الممرض الجوّال ويوزع العلاج على مستحقيه . ويراقب الممرضون الجوالون مجامع المياه الصغيرة المهملة أو الري المهمل الذي يترك فيه فلاحو القرى المياه ليالي وأياماً كثيرة تسير كما تشتهي في أرض غير مستوية ، ويعلّم هؤلاء الممرضون القرويين كيف تنتشر البرداء وكيف تتقى فان معرفتهم بذلك تسهل جدًّا مهمة الـكفاح وتجعل من السكان مناصرين للمشروع لا حرباً عليه . ولهذه الطريقة فوائد كبيرة إذ لا تتطلب من المريض نفقة ولا جهداً وخاصة في المناطق التي يؤمها العرب الرحل ولا تجعل من الطبيب موظفاً لتوزيع الـكينين ، وتوفر على الدولة مبالغ كبيرة هي فروق الرواتب بين عدد من الأطباء وعدد مماثل من الممرضين المدربين ، ويكون نظام العمل فنيًّا فيوفر ذلك مقادير كبيرة من الأدوية . في كل قرية من القرى المجاورة للمستوصف يراجع المرضى القادرون على التنقل طبيب المستوصف مرتين أسبوعيًّا ويحمل الممرضون الجوالون المصابين إصابة شديدة إلى المستوصف للعناية بهم في أسرة تجهز لذلك كما يراقبون تعاطي الأدوية الموصوفة أمامهم .

أما توزيع الـكينين أو غيره دون رقابة علمية ودون التفريق بين المرضى ففيه إسراف كبير ولن يكون من نتيجة ذلك القضاء على البرداء ولا التخفيف من إصاباتها بل هو تبذير للمال وتبديد للأدوية وتخدير للأعصاب لا للبرداء ، فان هـذا المرض المستوطن منذ أجيال كثيرة في أكثر بقاع أرضنا لن يقضى عليه ولن يحد من نشاطه ملايين حبات الأتبرين ومعه الـكينين الذي يوزع دون نظام دقيق وخطة مرسومة تطبق تدريجيًّا وعلى مراحل طويلة في المناطق الموبوءة حتى يقضى نهائيًّا عليه .

أما البعوض وهو صاحب البيت الذي استوطن بلاد الشام كما ذكرت منذ أحقاب بعيدة فأكثر سكان البلاد دخلاء عليه في موطن يجد من كثرة مياه أرضه واتساعها ما يجعله يقاوم بدون عناء كفاحنا ، فالتفكير في القضاء على البعوض مرة واحدة عبث لا جدوى منه . وقد باءت تجربة الانكليز في تجفيف مجامع المياه في مكدونية بالإخفاق المروع بعد أن أنفقت في سبيل ذلك مبالغ طائلة . فلنقنع من كفاح البعوض بازالة مجامع المياه الصغيرة القريبة من المدن والقرى والتي تفيد إزالتها الزراعة ، وكذلك إزالة المواقع المائية التي تترك نتيجة إهمال

السقي وهي ملاجيء للبعوض يسهل ردمها وتستفيد الزراعة من ذلك أيضاً. ولا بدّ قبل بدء كفاح البعوض من دراسة أنواعه فإن للبعوض الخبيث مائة وخمسين نوعاً تنقل ستة وثلاثون نوعاً منها البرداء وإن هذه الانواع تختلف في طرق معاشها وتفريخها وكل ما يتصل بحياتها اختلافاً بيناً. ولهذه الدراسة شأن بعيد في نجاح الكفاح. وقد يستفاد من تكثير بعض أنواع السمك الذي يتغذى بيرقات البعوض في التقليل منهُ في مجامع المياه التي لا يمكن تجفيفها، وأحسن هذه الأنواع النوع الأميركي Gambustion Halbrooki وهو سمك صغير يتكاثر بسرعة في المياه الراكدة ولاسيما أيام الصيف والخريف ويزهد فيه الصيادون فلا يلاحقونه. على أنه ينبغي أن نصرف العناية إلى شطوط المياه فنتمهدها ونعتني بغرس أشجار الأوكاليبتوس وخاصة في الأماكن التي يكون بها مستوى الماء مرتفعاً فتمتص هذه الأشجار ماء الأرض، على أن يحترس من إحداث غابات كثيفة في هذه المناطق إذ أن مجامع المياه في وسط الغابات هي خير الأماكن لتفريخ البعوض وتكاثره.

وقد ساعد هذا التشجير وازدهار الزراعة في فلسطين على نجاح كفاح البرداء.

ويعمد في الينابيع القليلة الماء الراكدة تقريباً إلى طريقة لطيفة طريفة لمنع تفريخ البعوض فيها، وذلك بأن يحفر مجريان متوازيان يجري الماء في كل منهما أسبوعاً فقط وعندئذٍ تموت اليرقات التي قد توجد في الماء قبل تمام نضجها.

ولا يعتمد على البترول ولا أخضر باريس إلاّ في كفاح البعوض بصورة مؤقتة في مجامع المياه الصغيرة أيضاً بانتظار تجفيفها، فإن هذه الطريقة كثيرة التكاليف ويرجح المازوت على البترول الصافي لقلة تبخره ويحسب ١٥ سم ٣ لكل متر مربع بشرط أن لا تزال الأعشاب والطحالب من سطح الماء وأن يحرك لينتشر البترول على جميع السطح ويجدد رش البترول كل خمسة عشر يوماً في الربيع والخريف وكل عشرة أيام في الصيف. أما كفاح البعوض الكهل فيكون بتجهيز البيوت بوسائل الدفاع السلبي من مناخل وأبواب محكمة الاغلاق والنوم داخل الكلال، فإن أقل فتحة في الكلة أو النافذة كافية لوصول البعوض المتعطش للدم إلى فريسته. يفتش عن البعوض الكهل خلف الستائر والأثاث خاصة أيام الشتاء حيث قد يقضي البعوض الشتاء في المنازل ينقل المرض من المريض إلى السليم، فالقضاء على أفراده الشاتية قضاء على آلاف أو عشرات الألوف من أنسالها. وينتبه في كفاح البعوض الكهل إلى تطهير القاطرات والطائرات والسيارات قبل سفرها من منطقة موبوءة وعند وصولها إلى منطقة سليمة، فربما رحل البعوض في وسائل النقل هذه حاملاً البلاء تحت أجنحته كما حدث ذلك في العام الماضي في صعيد مصر. وعلى الذي يضطر للمبيت في منطقة موزغية أن يبتعد عن القرى

الموبوءة ومجامع المياه فيها مسافة لا تقل عن ٢ — ٥ كيلو مترات . على أن أسباب الحيطة الشخصية مهما بولغ في إتقانها قد لا تمنع عن الشخص الإصابة بالبرداء ، فإن البعوض الفتي يسعى إلى فريسته في الظهيرة وخاصة في الغرف المعتمة أو المناطق المشجرة الكثيرة.

يعطى من يتعرّض مؤقتاً للإصابة ٠٫٤٠ سنتغرام يوميًّا من الكينين، ويرى البعض أن إعطاء ٠٫٥٠ سنتغرام كل ثلاثة أيام أو غرام كامل كل أسبوع فقط مقدار كاف للوقاية أو يعطى بدلاً من الكينين الأتبرين بمقدار ثلاثة أقراص كل خمسة أيام .

وإذا هددت جائحة البرداء بالاستيلاء فإن من التدابير السريعة التي يلجأ إليها في القضاء على جائحتها توزيع الأدوية على سكان المنطقة جميعاً للوقاية مرة في الأسبوع ثم كل عشرة أيام ثم مرتين في الشهر. وقد نجح هذا التدبير المؤقت نجاحاً باهراً في وقف الجائحات الاستيلائية في تونس وإيطالية . وقد امتاز الأتبرين عن الكينين في تأثيره الواقي للبرداء بعد التجارب التي أجريت في الهند الصينية وخاصة إشراك الأتبرين مع البلاسموشين، ويحضر للاطفال مركب يدعى بالشوكولاتين تحوي القطعة منه على ٠٫١٠ سنتغرام اريستوشين ممزوجة بالشوكولاته وهي سهلة الاستعمال لذيذة الطعم .

إن لكل بلد موبوء بالبرداء معهداً لدراستها العلمية تدرس فيه أنواع البعوض الناقل وطرق معاشه ومناطق تفريخه وأشكال البرداء ومناطق توزعها في الاقليم، وتقرر هذه المؤسسة بناء على المعلومات التي توصلت إليها طرق الكفاح الواجب اتباعها، فهي بمثابة أركان الحرب دماغ الجيش، ولاسيما أنهُ ليس هناك قواعد مقررة لكفاح البرداء بل تختلف الأساليب التي تتبع باختلاف الأرض والسكان . وتتولى هذه المؤسسة تنظيم دروس سنوية للأطباء الموكلين بالكفاح وتهيئة العدد اللازم من المرضين وتنبيه الرأي العام والحكومات إلى ضرورة هذا الكفاح ونفعه بالمحاضرات والاعلان والخطابة، كما تعلم أساتذة المدارس وموظفي الحكومة في المناطق الموبوءة ليكونوا عوناً لها. فالبرداء في بلادنا التي كانت قديماً مصدر خراب لا تزال تهدد الثروة الوطنية والإنتاج الزراعي والصناعي بجائحاتها التي تفتك ويشتد سعيرها أيام الصيف وأيام الخريف أيام العمل المثمر، فهي تكلف الثروة العامة سنويًّا بين فرائس تقضي عليهم بالموت ومرضى تحبسهم عن عملهم وأدوية تصرف في سبيل ذلك مبالغ من المال إذا أردنا تصورها أعجزتنا الأرقام في مقاربة الحقيقة مهما بالغنا فيها. فليست المبالغ التي يمكن أن تنفق أو تخصص سنويًّا في موازنة الدولة لكفاحها والجهد الذي يبذل في سبيل ذلك إلاّ شيئاً ضئيلاً مما يجب علينا ، فكفاح البرداء عمل اقتصادي وطني جليل .

أنواع القطن

وتخصيص مناطقها *

يوسف فارس

لا يفوت أحداً — زارعاً كان أو تاجراً أو غازلاً — أن يلاحظ أن أنواع القطن المختلفة جملت تظهر وتختفي بسرعة تثير القلق في نفوس من تتصل أعمالهم بالقطن من قريب أو بعيد ، وقد أدّى ذلك إلى التفكير في علاج تلك الحالة، فهل يكفي في علاجها أن نكثر من الأنواع حتى لا ينقرض نوع إلاّ ظهر لهُ بديل ؟ وهل تصل بنا هذه السياسة إلى الغاية المرجوة من الحصول دائماً على أنواع قطنيــة جيدة تلائم مصلحة الزارع والتاجر والغازل جميعاً ؟ ليس ثمة خلاف على أن السعي الدائب لاستنبات أنواع جديدة من القطن أمرٌ لا ينكره أحد ، بل إنهُ لخليق بالتقدير والتشجيع . بيد أن نتائج هذا السعي غير مقرونة دائماً بالنجاح ، فكثيراً ما ينشد العالم النباتي نوعاً من الزرع يتميز ببعض الصفات ، وقد يوفق إليهِ في بعض الأحيان ، فيعيش هذا النوع مدة طويلة أو قصيرة من الزمن ، ولكنهُ على الأيام يفقد صفاته كلها أو بعضها ، فلا يلبث أن يزول ويصبح أمراً قد كان . وإذن فالنجاح في استنباط الأنواع في كف القدر ، وقد يخلف الغيب الظنون !

فعلينا إزاء ذلك أن نفكر في طريقة أخرى غير التهافت على الإكثار من الأنواع الجديدة ، وليس لدينا من طريقة سوى الاحتفاظ بالأنواع التي نتداولها جهد المستطاع، على أن من المشكوك فيه أن يستمر علماؤنا النباتيون في استنباط أنواع تفوق ما لدينا الآن، وربما مرت بهم فترة لا يحصلون فيها على نوع مستحسن . وقد يتفق أن تقع تلك الفترة في وقت يتدهور فيهِ نوع على غرّة ، ويصبح على وشك الزوال من الحقل، وذلك على نحو ما حدث منذ عشرات السنين ، فكيف يكون الموقف عندئذٍ ؟ إما أن نمضي في زراعــة النوع الذي فقد صفاته فكسدت سوقه فيخسر الزراع وتخسر من ورائه البلاد ، وإما أن نلوذ بنوع عاديّ الصفات أو غير ثابتها مما يكون لدى الفنيين ، فنزرعه على مضض، وهــذا شرّ من الفرض الأول ، ولنا في الماضي عبر ما برح يذكرها كثير . فاتقاء هــذا الشر ميسور إذا اتبعنا سياسة الاحتفاظ بصــفات أقطاننا الممتازة أطول زمن ممكن ، وفي خلال هــذا

---

* قدم هذا البحث الى لجنة « بورصة مينا البصل » بالاسكندرية ، وصاحب البحث من أعضائها .

الزمن الطويل يتسنى للنباتيين أن يستنبطوا على مهل أنواعاً طيبة مركزة الصفات تركيزاً ثابتاً ، فإذا دفعوا بها إلى الحقول والأسواق كانوا واثقين أنها بصفاتها الثابتة المركزة لا تتزعزع ولا يدركها التدهور العاجل الذي أدرك النوعين : المسمّى بالفؤادي والمسمّى بالوفير ، وغيرهما .

***

يعزو بعضهم التدهور إلى النبات نفسه ، ويعزوه بعضهم إلى الجو ، ويرى آخرون أن التدهور راجع إلى التربة أو إلى المياه الجوفية مع علاقتها بالصرف وما إلى ذلك . وقد تكون هذه الأسباب على جانب من الصحة ، ولا سيما إذا ارتبط بعضها ببعض ، واتفقت في المكان والزمان والحال ، ولكنها ليست فيما نرى السبب الأكبر لانحطاط ما يستجد من أنواع القطن ، وحسبنا على ذلك دليلاً أن نوعاً يزرع في مصر العليا من نحو نصف قرن ولم يدركه التدهور ، وهو الأشموني . وهذا النوع المحتفظ بصفاته يقبل فلاح الصعيد على زرعه وجنيه ، ويشتريه تاجر القطن راغباً فيه ويفتش عنه الغزال في كل حين . فهذا الأشموني قطن ممتاز ، وصفاته الحسنة باقية ، وفضائله ثابتة ، مع أن الأنواع التي من عهده أسرع إليها الزوال فانقرضت ، وآخرها « السكلاريدس » الذي أخذ يهجر الحقل بعد ملازمة طويلة ، وقد يقال إن الاشموني هو النوع الوحيد الذي ثبت حتى الآن في ميادين الزراعة والتجارة والصناعة دون الأنواع التي سبقته أو نجحت في عهده [1] .

فما سر ذلك وما سببه ؟ خيرٌ لنا أن نلجأ في الجواب عن هذا السؤال إلى البحث المقارن بين الأشموني وزراعته في الوجه القبلي وبين الأنواع الأخرى وزراعتها في الوجه البحري . أما الفوارق بين الوجه القبلي والوجه البحري من حيث الجو والتربة والري والصرف والدورة والمعاملات الزراعية ونحوها فلن يبلغ بها التباين أن تؤدي إلى التأثير في صفات النبات حفظاً أو ضياعاً .

اختصت مصر العليا بزراعة الأشموني مستقلاً دون غيره في الحقول إلاّ ما سمي بحقل التجارب ، وذلك بخلاف سائر الأنواع في مصر السفلى فانها تزرع فيها بعضها بجوار بعض ، وإن هذا لهو الفارق العظيم بين الوجهين : القبلي والبحري . ففي حقول الصعيد كلها نجد ذلك النوع الواحد ، وأما في الوجه البحري فالأنواع المختلفة مزروعة في حقول متجاورة ، وقد نرى في البلدة الواحدة أنواعاً متعددة ، وأيضاً في الضيعة الواحدة . ولما كان القطن من النبات ذي الزهرة التي تقبل التلقيح بالعوامل الطبيعية فمن اليسير أن نستنتج أن زرع أنواعه المتعددة في حقول متلاصقة يساعد على التلقيح الخلطي ، وذلك مؤدٍّ إلى

---

(١) نقول على سبيل التذكرة إن اسم الزاجورة كان يطلق على نوع الأشموني المزروع في الوجه البحري بمصر .

التهجين الطبيعي ولو بنسبة ضئيلة كل سنة، وقد تبلغ هذه النسبة خمساً في المائة ، فاذا انقضت عشرون سنة أصبح القطن من نوع آخر .

وربَّ قائل يقول : أليس السكلاريدس ناجماً من هذا التهجين الطبيعي، فما بالك تنكره ؟. فأقول إن التهجين إنما يحسن إذا خصصت لهُ حقول تجارب يتولاها الفنيون ، فأما أن تكون أرض مصر كلها حقول تهجين فذلك هو الخطأ الوخيم العقبى . ولقد زال السكلاريدس من حيث نشأ، فالعامل الذي أحياه هو العامل الذي أماته . وقد انقرضت قبله تلك الأنواع التي كان لها الفضل في شهرة القطن المصري ، أمثال النوباري والعفيفي واليانوفتش وغيرها ، وربما انقرض على نحوها الوفير ولحق بهِ السكرنك والجيزة (٧) وكل ما قد يظهر من بعد إذا اطردت الحال على هذا المنوال .

وهناك أيضاً سبب شديد هو قيام المحالج بحلج أقطان من أنواع مختلفة. فالعناية في المحالج مهما تكن بالغة من حيث النظافة والنظام، لا يمكن معها الجزم بأنهُ لن يحدث خلط بين أنواع البذرة حين تتوالى الأقطان على المحلج وتمر مختلف البذور في الغرابيل واحدة بعد أخرى .

فإذا ابتغينا الاحتفاظ بأنواع القطن فلزام علينا أن نحدد مناطق خاصة للأنواع المختلفة ما أمكن ذلك . وبتحديد كل منطقة لنوع ما سيخصص محلج المنطقة لهذا النوع وحده فيؤمن الخلط، ولا ريب أن لهذا الإجراء تبعاته من الإضرار ببعض الأفراد ، ولكن المصلحة الفردية تهون بجانب مصلحة الجماعة ومصلحة البلاد .

إن فوائد هذا الاقتراح إذا أتيح لهُ التنفيذ جديرة أن تحل من التقدير أكرم محل . إلاَّ أن بعض الزرَّاع قد يعترضون عليه من الوجهة الاقتصادية، فهم يصبحون بهِ طوع سعر لنوع واحد، وهذا شأن زرَّاع الوجه القبلي ، فإنهم كما قدمنا لا يزرعون إلاَّ نوعاً واحداً . ونحن نعلم أن أنواع القطن تتفاوت أسعارها زيادة ونقصاناً بحكم الأسعار العالمية وعوامل المضاربة ، وقد شاهدنا في الماضي كيف زاد سعر الأشموني على سعر السكلاريدس، على أن النوع الذي يقل سعره الذاتي عن غيره يكون إنتاجه أقوى والعكس بالعكس ، فكأن الطبيعة بهذا تقيم بين النباتات ميزان عدل .

أضف إلى هذا أن الفلاح الصغير يوجّه عادةً إلى زرع نوع دون نوع بغير دافع من الإنتاج الزراعي نفسه ، بل بتأثير من التاجر الذي ييسر لهُ البذرة للتقاوي . وقد يكون هذا الفلاح الصغير على غير علم بالنوع الذي يجود أكثر من غيره في منطقة أرضه .

وأما اعتراض التجار وأصحاب المحالج فحكمهم حكم زملائهم في الصعيد أيضاً . وعلى أية حال فأغلبهم تهمهم الكمية لا النوع، فإذا تبين لهم أن تنفيذ هذا الاقتراح مؤدٍّ إلى زيادة

المقدار بطلت الشكوى . ولمن يرغب من التجار في شراء أنواع أخرى أن ينشئ مكاتب في كل المناطق التي تزرع النوع الذي يرغب في الحصول عليه .

والآن نلمع إلى بعض الفوائد الزراعية والاقتصادية التي يواتينا بها تنفيذ هذا الاقتراح:

الفوائد الزراعية

في علم الزارع أن لكل نبات مزايا ومطالب تختلف — ولو بنسبة ضئيلة — عما هي في غيره، وهذا الاختلاف قائم بين الأنواع حتى لو كانت من فصيلة واحدة ، وأنواع القطن أشد من سواها اختلافاً في المعاملات الزراعية مثل طريقة الزرع ومواعيده أو تخطيط الأرض ومسافات البرك « وخف » النبات، وأنواعه تختلف أيضاً من حيث قابليتها للتسميد الفني أو عدم قابليتها ، ومن حيث الري الكثير أو القليل ، وجودة الصرف وضعفه ، وكذلك من حيث مناعتها من الأمراض ومقاومتها للعواصف الجوية ، ومن حيث مواعيد الجني وطرقه . وبعض أنواع القطن تختلف عن بعض من الوجهة النباتية فهناك أنواع تمتاز في نموها الخضري فلا تصلح في الأراضي الموفورة الغرين ، وهناك أنواع مبكرة لا تمكث طويلاً فيستحسن فطامها عن الري قبل غيرها ، وأنواع إذا زرعت في منطقة ما بلغت نسبة تصفية حلجها درجة عالية ، وأنواع يكبر حجم بذرتها إذا زرعت في تربة خاصة ، وأنواع يؤدي زرعها في جهة ما إلى أن تنخفض في تيلتها درجة النعومة والمتانة والطول. وهذا كله يميل بنا إلى القول بأن في مكنتنا تلافي نواحي الضعف جميعاً إذا اتخذنا قاعدة تحديد المناطق ، وخصصنا لكل منطقة النوع الذي يجود فيها من مختلف الوجوه .

ويحتمل أن يكون اتخاذنا لهذه القاعدة منشأ لعامل التنافس بين الزراع في العناية والتجويد، فتوحيد النوع يغري كل زارع ببذل الجهد في إيجاد محصول أوفر كمية وأجود رتبة. فتكثير الأنواع يسقط فضيلة التنافس ، فأما التوحيد فإنه يحركها .

الفوائد الاقتصادية

إذا خصصت كل منطقة لنوع معين أصبح تخصيص المحالج لهذا النوع المعين أمراً محتوماً. وفي ذلك فوائد جمة :

أولاً : منع أسباب الخلط في أنواع البذرة وأيضاً في أنواع القطن وبذلك تسهل مهمة القائمين على منع الخلط .

وثانياً : عدالة التوزيع بين المناطق فيما يتعلق بمقادير القطن التي تحلج في محالج كل منطقة فلا يشحن قطن منطقة إلى أخرى ، فيستفيد بحق أهل كل منطقة من عمليات الحلج فتتعادل

المحالج وتزول أهم الأسباب التي تؤدي إلى أن تتوقف بعض المحالج عجزاً . على أن هناك محالج ستقف عجزاً عن مجاراة تيار المنافسة بين مديرية وأخرى.

وثالثاً : يصبح اختصاص هذه المحالج مقصوراً على النوع الذي يزرع في منطقتها دون سواه فتجيد حلجه مع الاقتصاد في النفقة ومع المحافظة على « التيلة » وزيادة تصافي المحلج وزيادة معدل إنتاج الدولاب الواحد .

ورابعاً : يصير التاجر أيضاً بفضل التخصيص على دراية تامة بنوع القطن في كل بلد من المنطقة في مختلف السنين ، إذ تتزايل أسباب التدهور فيبقى النوع محتفظاً بصفاته فترة مديدة فيطمئن التاجر اليه ويبتاعه بأسعار مرتفعة ، وكذلك يعود الفلاح إخصائيّاً في النوع ، وينجم عن هذا أيضاً أن نرى مقادير النوع الواحد من القطن أقرب تجانساً في التيلة واللون مما كانت عليه من قبل إذ يخلط قطن نوع واحد ناتج في الشرقية بغيره من نوعه ناتج في الدقهلية أو الغربية فلا يكون هذا الخليط إلاّ قطناً غير متجانس مهما تحكم تضريبه وحلجه . ولا مرية في أن التجانس في كل أنواع القطن يجعلها ممتازة يقبل الصانع على شرائها غير هيّاب ولا متوجس ، باذلاً لها أرفع الأثمان .

وهنالك ملاحظة أخرى ، وهي أن الفترة بين زوال نوع من القطن وظهور نوع آخر هي فترة خسارة على الفلاح والتاجر والصانع . فالنوع إذا أوشك أن يزول أهمل وخسّ ثمنه ، وتعب التاجر في بيعه بالخارج ، وقلق بال الصانع لمشاهدته ضعف النوع وقرب زواله مما يحتم عليه إدخال بعض التغيير في آلاته .

وإلى جانب هذا يصعب على الفلاح عند ظهور نوع جديد أن يبيعه في السوق فيضطر إلى قبول الحط من ثمنه ، كما حدث في أنواع المنوفي ، وكذلك يزهد التاجر فيه خشية بقائه في مخازنه فلا تمتد اليه يد الصانع ، كما حدث في نوع البهتيم ، فإذا قبل الصانع شراءه تحكم في سعره حتى يأخذه بأبخس الأثمان . ويظل الأمر كذلك فوضى واضطراباً حتى تتوطد قدم النوع في السوق وتُظهر المنافسة حقيقة سعره كما حدث في نوع الملكي .

وقد ينشأ من كثرة الأنواع قلق التجار ، إذ يحار الفرازون إزاء الكثرة والتشابه بين نوع ونوع . وقد يساعد هذا التشابه على خلط الأقطان كما حدث بين المعرض والوفير . وتلك حالات تضايق التجار وتبعث في نفوسهم القلق حين يقدرون السعر ، فلا يبذلون إلاّ أسعاراً وأثماناً أقل من الحقيقة احتياطاً للمغالطة . وواضح من هذا كله أن تغيير الأنواع بسرعة يترتب عليه إضرار بالجميع . فمن الصواب الواجب ألاّ يحدث ذلك التغيير إلاّ بعد أطول زمن ممكن وعند الضرورة القصوى ، أو في الحالات التي يتميز فيها نوع ما من القطن تميزاً بارزاً .

عادات البولنديين وعقائدهم

لحسين المهدي غنام

كانت ملابس النبلاء وأزياء الأغنياء البولنديين تتفق وأزياء العصور المتقدمة ، وخاصة الفرنسية ، إذ كانوا يأخذون كثيراً عن الفرنسيين، إلا أنها كانت تمتاز بغلاء أثمانها وأبهتها وكانت في الغالب من فراء ثمينة تشترى من روسية .

أما الطبقة الدنيا فكانت تقنع بجلد النمر وأبي الأبرد والعُنبر إذا استطاعوا الحصول عليها.

وكانت نساء الطبقة العالية يرتدين الملابس التي توافق مكانتهن السامية ، ويحلين رؤوسهن بأكاليل مذهبة وجواهر نادرة وزهور وغير ذلك ، كما أنهن كن يقتبسن الأزياء الفرنسية .

وكانوا يسرفون في الزينة إسرافاً بالغاً ، فكان الرجل أو المرأة يمتلك ما يقرب من خمسين حُلة للزينة ، ويزينون خدمهم كذلك ، وكانت هذه الحال تسوقهم إلى الإفلاس في الغالب.

وكان الرجال محاطين دائماً بعدد عظيم من الخدم، والنسوة بعدد جم من الوصائف .

وكان يُسمّى النبلاء والأشراف الذين لا يعملون ولا يأبهون بالسياسة : « شلاختا » وكلمة (شلاختا) مأخوذة من الكلمة الألمانية (خشلخت) ، ولعلها تفيد معنى التبطل .

ومن هؤلاء (الشلاختا) برز بعض الأفراد في القرن الثالث عشر والرابع عشر ، وعنوا بالسياسة، فكانوا نواة لطغيان النبلاء في ما جاء من العصور !

وكان من شأن مجلس أعيانهم أن يبرم كل شيء ، فهو الذي يعلن الحرب أو السلم . وهو الذي يجند الجيش ، ويجبي الضرائب ، ويشرّع القوانين .

ولكن الذين كانوا ينفذون الأمر هم حكام عسكريون في الغالب ، يعينهم الملك أو الأمير برتبة جنرال ، ويسمونهم الحرّاس أو المحافظين.

وكان مجلس الأعيان ينعقد كل عامين ، إلا في أحوال استثنائية عند الحاجة ، فيجتمع اجتماعاً خاصاً، ثم يجتمع بعد ذلك كل خمسة وعشرين عاماً في دورة استثنائية لمراجعة ما جرى في الأعوام السابقة ... ولكنه كان مجلساً شاذاً في الكثير من عادات أعضائه وطباعهم .

فهم يتكلمون متى أرادوا بالقسوة أو هجر الكلام ، ويعنفون حتى ملوكهم ، وسيأتي الكلام على هذا المجلس في موضع آخر . . .

وكان في المملكة ، ثلاثة عشر أسقفاً ورأسهم، يتمتعون جميعاً باحترام عظيم عام .

ويليهم في الاحترام أمراء المقاطعات الخمسة والثلاثون ، والثلاثون محافظاً الكبار والتسعة والأربعون محافظاً من الدرجة الثانية، وكان هؤلاء جميعاً مع عشرة ضباط يؤلفون مجلس الشيوخ.

وكان هؤلاء الأمراء والحراس والمحافظون حكاماً على الإمارات والمقاطعات طول حياتهم ،

وكانوا يتمتعون بسلطة تخوّلهم توجيه مقاطعاتهم وحكمها حكماً ذاتيًّا . وإذا اجتمعوا في مجلس الشيوخ جلس الملك تحت ظلة تخيم على عرش مرتفع وجلس إزاءه القساوسة والأمراء والمحافظون في ثلاثة صفوف من الجانبين في قاعة المجلس ، وجلس من خلفهم حكام الدرجة الثانية فالضباط .

ولم يكن المُلْك وراثيًّا حتى عهد قريب ، فكان الذي يبرز من الأمراء أو يغتصب الملك بقوته ينتخب ملكاً ، حتى لو كان غريباً غيرَ بولندي !

وكان من عادة البولنديين المتقدمين أن يحلقوا رؤوسهم ويتركوا خُصلة في وسطها ولم يركبوا اللحى مستعارة على عادة بعض الشعوب الأخرى . ولكنهم ركّبوا شوارب طويلة كانت تغطي أفواههم تقريباً .

وكانت السيدات والنبيلات يرتدينَ الأزياء الفرنسية . وكانت السيدة لا تخرج إلاَّ في عربة مطهمة تجرها ستة جياد ! حتى إن قصدت إلى الكنيسة أو ذهبت إلى زيارة من يقيم على عشر خطوات .

وإذا خرج بولندي أو بولندية من الطبقة العالية في الليل توضع على عربته أو عربتها ما لا يقل عن أربعة وعشرين مشعلاً موقدة بالشموع تنير الطريق أمام العربة ، ويحفها بعض (اليسقجية) كشأن الأتراك والمصريين في تلك السنوات ! .

هذا وكان الفلاحون يتدثرون بالجلود الخشنة والصوف الرخيص ، ويستعملون لحاء الأشجار أحذية تقيهم وطأة البرد أو غلظة الصخور .

على أن مظاهر أبهة النبلاء والأشراف كانت أروع من الأبهة التركية في كثير من الأحوال ، وبخاصة حفلاتهم الرسمية وولائمهم ، وإن كانت موضع نظر من الناحية الخلقية .

فقد كانت عادتهم أنهم إذا أقاموا وليمة ، وجب على كل ضيف يدعى إليها أن يحضر معهُ سكيناً وشوكة وملعقة ليتناول بها طعامه ، فلم يكن من عادة الداعين أن يقدموا هذه الأدوات . وكانوا يخيطون قطعة من الكتان الأبيض في مفرش المائدة فتستعمل منشفة .

وحين يحضر المدعوون جميعاً تغلق الأبواب كلها ولا تفتح — مطلقاً — إلاّ عند ما ينتهي العشاء وينهض المدعوون وبين يدي كل واحد منهم الطبق الذي أكل فيه، وهكذا لا يفقد طبق واحد! وذلك لأن السابلة كانوا يسرقون الأواني . وكان لكل ذي مقام قاعة في بيته تكون للضيوف . وكانت هذه القاعة تضم مائدة جانبية مبنية بناءً يحيط بها درابزين ويخاط في مفرش هذه المائدة قطعة كتان ، كما مرّ بك ، لا ترفع حتى تصير قذرة جدًّا بما يتساقط عليها من فضلات الطعام!

وعلى هذه المائدة مكان مخصص للموسيقى التي كانت تتألف من (كمان وأرغن) . . .

وكان كل مدعو يصحب معه تابعه إلى الوليمة ، وعند ما يجلس الضيف إلى المائدة يقطع نصف رغيفه ويعطيه لتابعه مع طبق مملوء لحماً ، فيقف هذا الخادم وراء سيده يتناول طعامه .

وإذا طلب السيد كوب نبيذ أو كوبين ، أحضر خادمه مثلها لنفسه ، وشرب في الكوب الذي شرب فيه سيده .

واللحم الذي يقدَّم للضيف كثير جدًّا حتى إنهُ يتجاوز حاجة الآكلين بقدر كبير ، ولكن شيئاً من هذا اللحم لا يعود إلى المطبخ ، لأن الخدم يستولون عليه جميعاً ، وقد يعودون به إلى بيوتهم .

وكانت عادة كل سيدة أن تزوّد خادمها بمنديل يحمل إليها فيه الحلوى الجافة أو الفاكهة التي تزيد على حاجة الآكلين . . .

وبعد أن يتناولوا الطعام يرقصون على أنغام الأرغن والكمان . . .

ولعلّ الاضطهاد الذي عاش فيه البولنديون الأقحاح والظلم الذي شملهم على أيدي سادتهم ، أورثهم الخضوع للقضاء والقدر .

وأعان على قيام هذه العقيدة طبيعة بلادهم الهادئة ، والنهر الذي أقاموا على ضفافه ، كما أن وادي النيل الوادع والظلم الذي حاق بأهلهُ في عصور الظلام الماضية أنشأ شعباً قانعاً مستسلماً في الغالب .

والبولنديون يردّدون كثيراً كلمة العناية الإلهية . فقد كانوا حتى سنة ١٨٥٥ يعتقدون أن « العناية الإلهية » أبقت لهم أميرهم البولندي آدم تشار تورسكي ، حتى يستطيع أن يتكلم باسم بلاده مطالباً بانصافها وتخليصها من غاصبيها . . .

فالعناية الإلهية عند البولندي عقيدة ، حتى في حياة الفرد العادي منهم ، وقنوته ملحوظ ، وخاصةً في العصور التي قسّمت فيها بولندة . . .

ومثل هذه العقيدة استحوذت على شاعرهم الأعظم آدم متسكيفتش ، فقد كان يؤمن أن

« القدر » اختار الأسرة البونابرتية لإنجاء بولندة من غاصبيها جميعاً : روسية وبروسية والنمسة . . . وصار هذا الإيمان فكرة قوية ثابتة ، وصارت جزءاً من فلسفته التصوفية التي مال اليها قبل أخريات أيامه .

وكان هذا إيمان الكثيرين من البولنديين — نازلهم وعاليهم — وظل باقياً إلى الآن ، ولكنهُ انحرف قليلاً فصار افتخاراً بعظمتهم ومباهاة برجالهم .

***

قال الكاتب الانجليزي المعروف ج . ك . تشسترتن في كتابه « أحاديث عامة » : لقد صدمتني جملتان سمعتهما لما زرت بولندة ، قالهما لي ضابط الفرسان الذي لقينا مع فرسانه لأجل حراستنا ، وكان يتكلم بلغة فرنسية صحيحة كأنه أحد الفرنسيين الأقحاح ، أما الجملة الأولى فهذه : « إني لن أدعوك صديق بولندة الأول فالله تعالى وحده هو الصديق الأول لبولندة » . والجملة الثانية قالها لي الضابط نفسه بعد قليل ، في شيء من الدعابة : « وبعد ، فلا يوجد في الحياة غير وظيفتين ، الأولى وظيفة الشاعر ، والثانية وظيفة الجندي الفارس » .

وقد ردَّ تشسترتن على الجملة الثانية مازحاً ساخراً . فقال : « إنك أنت الشاعر وأنا الجندي الفارس ! » .

وكتب تشسترتن غير هذا في وصف هؤلاء البولنديين وأخلاقهم وشعورهم ونفسيتهم فقال : « إنهم ناس ورعون يخشون الله ويتقون قتل الناس » . وكان يسمع من الكثيرين هذه الجملة : « إن الله تعالى هو الصديق الأوحد لبولندة » .

والبولندي في الغالب رجل فخور بقومه ولكنه وديع الطبع مسالم محب للخير ذو أخلاق عالية . وحبه للهدوء يجعل قومه ميالين إلى حياة الوحدة ، كما هي حال كثير من أهل الشرق الآن .

ويرجع فخر البولندي بوطنه إلى حب أصيل لبلاده ، وتاريخها المجيد ، حتى إذا رأى البولندي شيئاً عظيماً أو فعلاً مجيداً يفعله أي رجل نسب هذا الفعل إلى أعمال شبيهة بأعمال البولنديين ، على الرغم من هزيمة بولندة وتعاستها في العصور الأخيرة . فقد قال الشاعر الإنجليزي بلاوك يصف نظرة البولندي العليا في تقديس مقام عظيم :

« رجاء نصف المهزوم : بيت من ذهب ، ومقام سيف ، وبرج من عاج . »

المدرسة الفرخشاهية

للدكتور أسعد طلس
من أعضاء المعهد الفرنسي بدمشق

١ — لمحة تاريخية

تنسب هذه المدرسة إلى الملك المنصور عز الدين فرخشاه بن الملك شاهنشاه بن أيوب ابن شاذي، وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين بن أيوب . وكان صاحب بعلبك كما كان ينوب عن عمه صلاح الدين كثيراً إذا ما غاب عن دمشق. وكان صلاح الدين يثق بهِ ويكرمه ويفضله على جميع آله، وكان شجاعاً كريماً فاضلاً له شعر جيد . قال في الروضتين نقلاً عن ابن أبي طي: « كان فرخشاه من أكرم الناس وأطهرهم أخلاقاً وأسدهم رأياً وأشجعهم قلباً، مضافاً إلى شجاعته كونه عالماً متفنناً كثير الأدب ، مطبوع النظم والنثر . . . وكان من أخص خواصه وذوي اصطفائه الصدر العالم الكبير تاج الدين أبو اليمن الكندي ، أوحد دهره ، وعلامة زمانهِ ، ووزير دسته ، ورفيق درسه ، وشعاع شمسه ، اجتمع بهِ في مجلس القاضي الفاضل بالقاهرة ، فجاء ذكر بيت لأبي الطيب ، فتكلم فيه تاج الدين بما يليق ، فأعجب فرخشاه وسأل القاضي الفاضل عنه ، فقال : هذا تاج الدين الكندي ، وعرفه بفضله ، فلما قام فرخشاه أخذ بيد الشيخ تاج الدين وخرج به ولزمهُ إلى أن توفي »[1] .

ومن جيد شعر الملك فرخشاه قوله :

أنا في إثر السقام من هوى هذا الغلام
رشأ ترشق عينا ه فؤادي بالسهام
كلما أرشفني فا ه على حرّ الأوام
ذقت منه الشهد بالثلج المصفى بالمدام

وقوله :

إذا شئت أن تعطى الأمور حقوقها ... وتوقع حكم العدل في حسن موقعه
فلا تضع المعروف في غير أهله ... فظلمك وضع الشيء في غير موضعه .

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لابن أبي شامة طبع مصر سنة ١٢٨٨ ، ص ٣٤

وقد امتدحه كثير من شعراء عصره ، من أشهرهم ابن سعدان والعماد الكاتب، فما قاله ابن سعدان فيه :

تخذ الساري لبداً وعود الـــزان نابا والهندواني ظفرا
أعجمي الأنساب قصرت الأعراب عنهُ نجراً ونظماً ونثرا
هزمت كتبه الكتائب جفلا وأعادت دجى الحوادث فجرا
فهو كالمازني علماً وكالأحـــنف حلماً وكالفرزدق شعرا

ومما قال فيه العماد الكاتب من قصيدة طويلة :

قد قلت للحادي وقد ناديته في مهمه أقصِرْ وصلت مهٍ مهٍ
حتام جذبك للزمام فأرْخه فلقد أنخت إلى ذرى فرّخشه
متكرم بالطبع لا متكره شتان بين تكرم وتكره
إحسان ذي مجد وهمة ماجد مُتمجد وتقوى عابد متأوه

وقال ابن كثير : امتدحه كثير من الشعراء ، ومات بدمشق في جمادي الأولى[(١)] سنة ٥٧٨ (وقيل سنة ٥٧٩) ولما ماتت بنت أمه خطلخير خاتون بنت إبراهيم بن عبد الله له تربة — مدرسة ، هي بالشرف الشمالي (وقد طبع خطأ بالشرق) بدمشق ، وإلى جانبها التربة الأمجدية لولده الملك الأمجد وهما وقف على الحنفية والشافعية [(٢)].

وقال الأسدي : « إنها على الحنفية فقط، ولكن صاحب تنبيه الطالب وغيره لم يذكروا من درس بها من الشافعية ولم يتقدم لها ذكر في مدارسهم »[(٣)] وقد درس بهذه المدرسة — التربة من الحنفية : العماد بن فخر الدين وابن الحريري محمد بن عثمان الأنصاري رئيس الحنفية وقاضيهم بدمشق (— ٧٢٨) . وقد ذكر هذه المدرسة وطرفاً من تاريخها جماعة ممن كتبوا في تاريخ معاهد دمشق، أولهم :

النعيمي صاحب « تنبيه الطالب وإرشاد المدارس » وقد تحدثنا عنه وعن تاريخه المخطوط فيما سبق . ثم محيي الدين عبد الباسط العلوي مختصر كتاب « تنبيه الطالب . . . . . » وقد ترجم المختصر إلى الفرنسية وعلق عليه المستشرق Sauvaire [(٤)] وأخيراً جاء الشيخ

(١) كتاب الروضتين ٢ / ٣٤
(٢) البداية والنهاية ١٣ / ٣١١
(٣) منادمة الاطلال لبدران ، مخطوطة المعهد الفرنسي بدمشق ٢ / ٢٥٣
(٤) انظر Journal Asiatique 1894-69

عبد القادر بدران الدمشقي فألف « منادمة الأطلال » وتحدث فيه بآثار دمشق في زمنه [١]

ويظهر أن هذه المدرسة — التربة ظلّت عامرة إلى أواخر القرن الثامن ، فقد رأيت أن ممن درسوا فيها في هذا العصر قاضي الحنفية بدمشق ، ثم يبدو أنها ظلّت عامرة إلى أيام العلموي الذي كان يعيش في أوائل القرن العاشر [٢] ، فقد ذكرها وقال : إن النعيمي لم يذكر من شيوخها الشافعيين أحداً ، فهو يريد بهذا القول أن يثبت أنها خاصة بالحنفية .

ويظهر أن العطب ابتدأ يدب اليها في القرن الحادي عشر ، فإننا لا نجد لها ذكراً منذ هذا القرن في تواريخ العصور المتأخرة ، كخلاصة الأثر المحبي ، وسلك الدرر المرادي . وآخر من ذكرها مشيراً إليها الشيخ بدران (— ١٣٢٣) وإليك نص كلامه : « قال ابن كثير : إنها للحنفية والشافعية ، وقال الأسدي ، إنها على الحنفية فقط ، ولكن صاحب التنبيه (النعيمي) وغيره لم يذكروا من درس بها من الشافعية ، ولم يتقدم لها ذكر في مدارسهم . وهذا الخلاف لا طائل تحته بعد ما صارت بستاناً . ولقد وقفت على ما بقي من آثارهم فقرأت كتابة في حائط قبتها الشرقي فوق الشباك ، فإذا هي ، (ثم سرد الكتابة التي سترد عليك ثم قال) : ثم دخلت القبة ، فإذا لها باب صغير من الجانب الغربي وهي متسعة وقد سقط أعلاها وبنى بها أصحاب البستان الذي كان مدرسة إصطبلاً صغيراً وحجرة ، وجُعل فوقهما غرفتان . وجدران تلك القبة الأربعة في غاية المتانة ، مبنية بالحجارة الضخمة ، وفي جدارها القبلي باب يتوصل منه إلى قبَّة ثانية أصغر منها وهي على حالها لم يتغير منها شيء . وهي التربة الأمجدية ، وبها قبر بني بالحجارة الكبيرة وارتفاعه عن الأرض أكثر من ذراع ، ولها باب من الجانب الغربي . وأمام القبتين الآن من الجانب الغربي بركة صغيرة يمر فيها الماء . وأما المدرسة فهي الآن بستان ولم يبق من آثارها سوى أساس جدارها الذي كان محيطاً به ، وقد جعل أساساً لدكّ [٣] البستان ، ولسوف تذهب هذه الآثار أيضاً فلا يبقى لها ذكر إلاّ في القرطاس [٤] .

جاء بعد بدران المستشرق سوڤجيه Sauvaget فذكرها في كتابه وقال : إنها قد ساء

---

(١) انظر مخطوطته المحفوظة بالخزانة التيمورية ، ومنها نسخة بمكتبة المعهد الفرنسي بدمشق (في فصل المدارس الحنفية)

(٢) لا نعرف بالضبط سنة وفاته ويغلب على ظن Sauvaire أنه مات في سنة ٩٢٣ (انظر J. A سنة ١٨٩٤ ص ٤٥٩)

(٣) الدكّ كلمة شامية يطلقونها على حيطان البساتين من الطين النيء المعمول على شكل قوالب طولها ذراع في ذراع أو أكثر

(٤) المنادمة ، مخطوطة المعهد ٢ / ٢٥٤

حالها جدًّا وتبدلت معالمها وخصوصاً حينما حوّلت في سنة ٢٧ — ١٩٢٦ إلى مسجد، فقد شوهت معالمها تشويهاً قبيحاً بهذا التبديل الذي لم يقم به أناس لهم خبرة بالترميات والاصلاحات الأثرية . ثم ذكر أنك إذا خصصت عن القبة وما يجاورها لا تجد أثراً آخر لبناء آخر، فالمدرسة التي يذكرها المؤرخون لم تكن شيئاً غير هذه القبة، ففيها كانت تلقى الدروس وتستدير الحلقات [١] .

قلت : ويظهر أن العمران لما امتد إلى تلك المنطقة أصبح البستان الذي أشار اليه بدران دوراً وحوانيت، فقام أهل الحي وجعلوا من المدرسة مسجداً في سنة ٢٧ — ١٩٢٦ ولكنهم شوهوه هذا التشويه الذي تحدث عنه السيّد Sauvaget .

والمدرسة اليوم تقع في دخلة صغيرة تسمى دخلة القزاز (في شارع زقاق الصخر) غير بعيدة من بناء مدرسة التجهيز .

٣ — وصف البناء

المدرسة — التربة بناء مربع مساحته ٨٫٧٠ × ٨٫٧٠ من الأمتار، له حيطان من الحجر الأصفر الضخم (٤٤ سم) وتشكل هذه الحجارة الضخمة من مدماكات [٢] ثم تصغر الحجارة فتصبح (٠٫٢٥ سم)

وقد فتح في كل جهة من جهات البناء المربع باب إلى الجهات الأربع جعل الباب الشرقي المدخل الرئيسي وجعل الباب الجنوبي مدخلاً إلى القبة الأمجدية التي تحدثنا عنها من قبل . أما الباب الشمالي فقد جعل شباكاً يشرف على دخلة صغيرة وهو مسدود اليوم . والباب الغربي يؤدي إلى صحن المدرسة، وقد سدّ اليوم بخشب وطين سدًّا قبيحاً، ومن فوق هذه الحيطان كانت تقوم القبة الجميلة . وهي قائمة على أربع أقواس من الآجر يغطي كل قوس حائطين من الحيطان الأربعة، وبين كل قوسين قوس ثالثة تقوم على حائط واحد من هذه الحيطان وقد قسمت هذه القوس إلى كوتين صغيرتين . ومن فوق هذه الأقواس جميعاً كانت تقوم ست عشرة كوة على سطح أصغر من السطح الذي قامت عليه الأقواس ومن فوق هذه الكوى تقوم قبة شكلها نصف دائري . وهذا الشكل من القباب هو الشكل الدارج في دمشق الأيوبية وحدها في القرنين السادس والسابع على ما يذكره السيد Sauvaget هذا وصف مجمل لحالة القبة من الخارج قبل أن تتهدم، كما يدل نمط القبة التي إلى جانبها

(١) Monuments, I, 35. (٢) المدماك : كلمة شامية تطلق على الصف الواحد من الحجارة في الحائط أو غيره .

ونمط كثير من القباب التي رفعته في هذا العصر . أما اليوم فقد تهدمت الكوى الست عشرة والقبة الكروية ، وأقيمت من فوق الأقواس قبة من خشب وطين قبيحة الهيئة والشكل .

هذا وصف القبة كما كانت من خارجها ، فأما داخلها فقد كانت حيطانها مغشاة بقشرة من الجص الأبيض ، من تحته طبقة من الآجر . ويظهر أنه كان لها محراب جعل مكانه باب حينما بنيت القبة الأمجدية إلى جانبها . وتحت هذه القبة كان يقع قبر الملك فرخشاه ، وليس له أثر اليوم ، فقد درس تماماً ، وفرشت أرض القبة بالموزييك الحديث .

٣ — زخارف القبة ونقوشها

قلنا إن حالة القبة اليوم جد سيئة لا تبين لزائرها الحالة الزاهية التي كانت عليها ، ولكنك تشاهد على كل حال آثاراً عظيمة فخمة وبناءً مهندساً . أما من الخارج فالقبة ساذجة وليس فيها شيء من الزخرفة البنائية ، إلاّ قفل قوس الباب فإنه نحت من الحجر الأسود تكتنفه صفحات من الحجارة البيض المصفرة . ومن تحت هذه القوس تقع أسكفة الباب ، وهي قطعة ضخمة من الحجر الأبيض طولها ١٫٢٠ متر وقد حفر طيها إطار مستطيل في طرفيه مثلثان وضمن هذا نقشت الكتابة الآتية : (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه التربة المباركة الفقيرة إلى رحمة الله تعالى برسم ولدها الملك المنصور معز الدين والدنيا فرخشاه بن شاه شاه (هكذا) بن أيوب الملكي الناصري توفى مستهل جمادى الآخر (هكذا) سنة تسع وسبعين وخمسمائة) (١) .

أما نقوش القبة من الداخل فكانت نوعين : ١ — نقوش بالحبر الأزرق على أرض من الجص ، وهي زخارف هندسية ونباتية رائعة تشبه نقوش تربة البدري . وقد طمست هذه النقوش كلها لما طليت حيطان التربة وجعلت مسجداً ، وقد حفظ لنا السيد Sauvaget بعض هذه النقوش في كتابه (٢) وقد أسف جدًّا لعجزه عن نقل كثير من هذه النقوش ، فالظاهر أن الناس قد طلوا القبة بالجص ثانية فذهب كل أثر للنقش . ومن الواجب على رجال مصلحة الآثار رفع هذه الغشاوات وإعادة النقش إلى حالته الأولى . ٢ — نقوش جصية ألصقت على الحيطان في الزوايا والأطراف . وقد بقيت هذه النقوش لأن طبقة الجص التي طليت بها الحيطان لم تقو على تشويهها ، وهي نقوش جميلة بارعة في أشكالها الهندسية وتعاريجها .

---

(١) أورد هذه الكتابة بدران في « المنادمة » باختلاف بسيط ، وقد مر بك أن بعض المؤرخين يجعلون وفاته سنة ٥٧٨ (٢) Les Monuments Ayyoubites, I, 29-3

التكيف الاقتصادي

بقلم ابراهيم الحيدري

— ٢ —

ما هو العلاج لمشكلات النظام الاقتصادي ؟ قبل الاجابة عن هذا السؤال أود أن ألجأ إلى التاريخ لأقص بإيجاز التطور الذي أصاب النظم الاقتصادية ، فأقول :

أول نظام اقتصادي نشأ في العصر الحديث هو النظام التجاري (Mercantilism) أو مذهب الكسبيين كما سماه البعض ، وأساسه أن الثروة تتألف من المال والمعادن الثمينة التي إن حازتها الدولة أصبحت منيعة الجانب . وقد ظهر هذا المبدأ منذ فجر القرن السابع عشر وكان مثار الحروب طوال القرن الثامن عشر في القارة الأوربية وسبب المشاحنات الدولية للاستيلاء على المستعمرات . وكان من نتائجه أيضاً وضع القوانين في كل دولة للتضييق على حرية التجارة والصناعة . وفي أواخر القرن الثامن عشر بدأ آدم سمث هجومه العنيف على هذا النظام حين نشر كتابه (ثروة الأمم) وجاهر بأن الفرد أصلح ما يكون للتحكم على منافعه الاقتصادية . وقد كانت فكرته هذه تتمشى مع الفلسفة السياسية لذلك العصر وما تلاه . إذ أن مفكري الثورتين الأميركية والفرنسية وكتاباً كثيرين مثل توماس پين وبنتام ووليم فون هامبولت قالوا إن مهمة الحكومة تنحصر في إقامة العدل أو القضاء وليس لها حق التدخل في الشؤون الاقتصادية . وهكذا نشأ نظام جديد ساعدت الثورة الصناعية على ظهوره هو النظام الفردي (Indviidualism) أو النظام الحر (Laissez-faire) على أن السير بموجب هذا النظام أدّى إلى ويلات بشرية أوجبت تفكيراً جديداً يقضي بتدخل الحكومة في الأعمال الاقتصادية تأميناً لمصلحة الأمة ، فظهر مذهب آخر هو المذهب الجمعي (Collectivism) القائل إن الديمقراطية السياسية لا تكفل سعادة المجموع ولاسيما أن المصالح الاقتصادية تسيطر عليها وتتحكم فيها . أو بمعنى آخر إن الديمقراطية الاقتصادية يجب أن تكون أساس الدولة . وهكذا نشأت وزارات العمل والصحة والزراعة في بريطانية وظهرت حركة النقابات في فرنسة والشيوعية في روسية والمجالس الاقتصادية في أرلندة وألمانية والفاشستية في إيطالية . ومن هذا العرض الوجيز نفهم أن النظم الاقتصادية قابلة للتغيير وأنها في طريق التغيير ، وكلما تقدم الانسان في العلم والاختراع ظهرت ملابسات جديدة تقتضي التوجيه . إن أول قانون في الحياة ليس هو الجمود بل الحركة والتغير أو التكيف لملاءمة الأحوال الجديدة

وعلى هذا يجب أن تُسيَّر النظم الاجتماعية تسييراً علميًّا بحيث لا تثار طبيعة الانسان بل ترضى وتقنع ضمن حدود صالحة . قال أحد المفكرين : « إن أول علامة للانسان المتمدن تشككه في المبادئ التي يعتنقها » ولكننا نجد فرقاً في الأشخاص من هذه الناحية . فالرجعي يعتقد أن الأوضاع الاجتماعية صحيحة لا تحتاج إلى تبديل ولا يعتريها ضعف ما ويفرض أن المتطرفين في حاجة إلى تذليل لينقادوا لقوانين المجتمع . والمفكر الحر يرى أن الطبيعة البشرية كاملة ويفرض أن الرجعيين مرغمون على تغيير النظم لتتفق والأهواء البشرية . على أننا أوضحنا فيما سبق الحاجة إلى تطويع الميول الإنسانية وترقيتها، فبقي علينا أن نبحث التغيير الواجب إحداثه في التنظيم الاجتماعي .

أهم نواحي التغيير ثلاث، هي : التدخل الحكومي والراديكالية الاقتصادية والديمقراطية الاقتصادية . اما مسألة التدخل الحكومي فلا تزال من الأمور الجدلية ولكن الاقتصاديين الأحرار يرون ضرورة التدخل الحكومي لازالة الأضرار الاجتماعية وتسيير الأعمال الصناعية ، وهم يقولون إن مهمة الحكومة ليست هي التدخل حيث لا مسوّغ لتدخلها بل مهمتها أن تعاون وتوجه وتبني حيث لا تستطيع الأحوال الاقتصادية أن تصح من تلقاء نفسها . وعلى ذكر مسؤولية الحكومة تحسن الإشارة إلى قول العالم السياسي المعروف هارولد لاسكي : « إن أهم تغيير في النظام السياسي في النصف الأخير من القرن الماضي هو السرعة التي سيقت بها الدولة بضغط الحوادث لاتخاذ شكلٍ إيجابي في المسائل الاقتصادية . . . وعلى الجملة فإنه من الواضح أن الحيز السياسي يحدد اليوم في الغالب باعتبارات اقتصادية »

وقد بلغ التدخل الحكومي أوجه في الحرب العالميَّة الأولى تبعاً للضرورة في جميع البلدان المحاربة ؛ فسيطرت الحكومات على جميع مرافق الحياة لكسب الحرب ولم يبق للتوجيه الفردي قيمة ما . وما إن وضعت الحرب أوزارها حتى ظهر رّد الفعل في جميع الدول ضد التدخل وفعلاً عادت تدريجيًّا الصناعة والتجارة إلى ما كانت عليه قبل الحرب ، وأصبحتا تسيران على قاعدة الحرية الفرديّة والجهد الشخصي . غير أن الحكومات لم تعد قادرة على التنصل من الاهتمام بالشؤون الاقتصادية، ولهذا أصبح التدخل الحكومي أشد مما كان عليه قبل الحرب ، وصار من المتفق عليه أن تتدخل الحكومة في القضايا التي ثبت لزوم التدخل فيها كالمنافع العامة مثلاً . وقد سارت الحياة الاقتصادية سيراً حسناً إلى أن حلّت الأزمة الاقتصادية العالمية سنة ١٩٢٩ وبذلك اضطربت الأمور وأصبحت الدول الرأسمالية ملزمة أن تتدخل في مشكلات الصناعة والتجارة والعناية بالتبطل . وهنا يحسن بي أن أشرح تاريخ التدخل الحكومي أو تطوره . ففي الولايات المتحدة بدأ تنظيم الأعمال الاقتصادية المعروفة

بالمنافع العامة كالتلغراف والتلفون والماء والنور والطرق الحديديَّة قبل الحرب الأولى لحماية الجمهور من الأجور الباهظة وتزويده بخدمة صالحة . وكذلك بوشر تنظيم المصارف لتثبيت مستوى الأسعار بعد الحرب . ثم تولت الحكومة تنظيم التجارة والصناعة للحد من الاحتكار أو للمحافظة على مبدأ التزاحم . فنشأت اللجنة التجارية التي من مهمتها البحث عن تنظيم المؤسسات التجارية وسيرها وأعمالها وإدارتها ، وهل تنطبق على قوانين الدولة أو لا تنطبق؟ . وكذلك أوجد تشريع يعرف بقانون كلايتون غايته محاربة المزاحمة غير المشروعة أو توجيه التجارة والصناعة تبعاً لمصلحة الأمة . ووضعت أساسات التعاون الذي يعتبر متمماً للتزاحم بقانون « وب » للتجارة الخارجية وقانون « إدج » للمصارف التي تتعامل بتلك التجارة . وأصبحت وظيفة الحكومة التوفيق بين مبدأ التزاحم ومبدأ التعاون في النظام الاقتصادي.

وقد كان الداعي إلى اتخاذ هذا الموقف اتساع حجم المؤسسات والاتجاه نحو التكتل التجاري الذي يؤدي إلى الاحتكار . وتعجز الحكومة التي تقصد محاربة هذه الظاهرة لأن انتشار الطرق العلميَّة ووفرتها مما يدعو إلى الإنتاج الواسع النطاق ، وكل ما تستطيع الحكومة أن تفعلهُ هو السعي لإبقاء مبدأ التزاحم سليماً إلى أبعد حدٍّ ممكن . وقد حاولت الحكومة البريطانية أن تحارب هذا التضخم فوجدت أنها غير قادرة فعدلت عن خطتها .

وقد ظهر في العصر الحاضر من استطاعوا أن يذللوا مصاعب النظام الاقتصادي فكانوا إذا صُدّوا في ناحية ولجوا أخرى. فالنشاط الإنساني لا يمكن أن يحد ولكن يمكن تنظيمه وتوجيهه لخدمة الجمعية البشريَّة . ومن هنا حدث تغيير في وجهة نظر قادة الصناعة والتجارة فلم يعد جمع المال أو البروز الشخصي في رأيهم العامل الأساسي في الموضوع ، بل إن أسساً معنوية جديدة أضيفت كالشرف والخلق والمثالية التجارية القائمة على فكرة الخدمة العامة . وهذا ما عناه جورج بيركن حين قال : إن العصر الفردي الذي كنا نعيش فيه . . . أغدق الثروة بسرعة على الأفراد وكان جمع المال الهم الوحيد للناس في هذه البلاد في الأربعين سنة الأخيرة. ولكن العصر الفردي على الإجمال لم يكن ناجحاً لا للفرد ولا للمجموع ، ولذلك فهو آخذ في الزوال ، وليس في نظريّ ما هو أوضح من ذلك ، وأعتقد أنه كلما أسرع إنسان المستقبل في فهم هذا الأمر وسلك بموجبه كان نجاحه مضموناً وسعادة بلاده محتومة . إن زينتنا الوحيدة وهي (الدولار) لم تعد ذات قيمة كما كانت فالرجل ذو المقدرة الفائقة سينظر من الآن فصاعداً الى مكافأته على عمله لا من جهة واحدة بل من الاثنتين : سينظر أولاً وفي الدرجة الأولى إلى إتمام عمل المنفعة العامة . وثانياً إلى كسب الثروة الخاصة . وفي اعتقادي أن عادة جمع الثروة من أجل حيازتها فقط قد وصلت إلى أوجها . وعادة إنجاز مهمة عامة من أجل

إنجازها أصبحت متمكنة في النفوس » . فالمشكلة إذن هي توسيع مجال الخير العام وإيجاد المنافذ للميول الفردية ، وإذن لا بدَّ من التدخل الحكومي لضمان الناحيتين .

ولم يقتصر تدخل الحكومة على التجارة والصناعة فحسب بل تناول مشكلة العمال لأن العمال ركن هامٌ من أركان نظام الإنتاج . فأصبحت الحكومة تهتم بأمور العمال وأحوال العمل وتنظر في الخلافات الناشئة بين العمال وأصحاب العمل وتصدر أحكامها وتجبر هؤلاء العمال على استئناف العمل بشروط تراها مناسبة . فساءَ هذا الأمر العمال لأنهُ انتزع منهم حرية الإضراب . وحجة الحكومة في ذلك أن وقف العمل يسبب خسارة عظمى للهيئة الاجتماعية . ولكن تذمر العمال على كل حال أدَّى إلى تغيير جوهري هو إعطاء العمال حرية الإضراب وقد أيد هذا ما اقترحته اللجنة التي ألّفها الرئيس ولسن عام ١٩١٩ من أن الاجبار خطأ وأن الطريقة المثلى هي التحكيم ، ولكن الحكومة ما لبثت توحي إلى المحاكم بمنع الإضراب . فأسفر هذا عن وضع مادة في القانون تقول : إن عمل الفرد ليس هو سلعة معدة للبيع وإن تنظيم صفوف العمال قانوني . ولا يمكن منع العمال « من تنفيذ أغراضهم المشروعة » على أن هذا التشريع لم يحمِ العمال من أحكام المحاكم ، لأن المحاكم هي التي تقرر الأغراض المشروعة والأغراض غير المشروعة ، أيّ أن العمال ما زالوا تحت سلطة المحاكم . والاختبار يثبت أن الوضع يستدعي التقليل من استعمال سلطة الحكومة الاجبارية وإيجاد سلطة منظمة لجميع مشكلات العمال خارجة عن المحاكم . لأنه إذا استرسلت الحكومة في سياسة القهر فسيؤدي ذلك إلى نتائج نفسية عند العمال تدعو إلى الثورة والتخريب . إذ ليس من الحكمة الاكتفاء بكبح جماح الطبقة العاملة بل بإيجاد الوسائل لإظهار قوة هذه الطبقة ومساعدتها . وفعلاً خطت الحكومة الأميركية خطوة طيبة هي التحكيم ، وعلى الأخص في قضايا السكك الحديدية . وقد زاد التدخل الحكومي في أميركة كثيراً بعد الأزمة الاقتصادية سنة ١٩٢٩ وذلك لمنع انهيار النظام الاقتصادي الرأسمالي فأدخل قانون الإنعاش القومي N. R. A. وغايته تنظيم الصناعة من حيث الإنتاج والأسعار على نحو التنظيم الزراعي الذي سبق ذلك . ولكن الخطوة الجريئة تمت حينما وضع الرئيس روزفلت مشروع التعامل الجديد New Deal موضع التطبيق سنة ١٩٣٤ وذلك الذي يتعلق بالتأمين الاجتماعي والتبطل والأشغال العامة والاحتفاظ بالمواد العامة . وكان من أثر هذا المشروع الاعتراف بحقوق العمال من حيث التنظيم والمساومة المشتركة واتخاذ محكمة العدل العليا طابعاً جديداً . وسارت الحياة الاقتصادية في أميركة بشكل مرضٍ حتى إعلان الحرب حينما سيطرت الحكومة على جميع نواحي الإنتاج مرة ثانية .

أما في بريطانية فقد بدأ التدخل الحكومي على شكل إصلاح في زمن لويد جورج قبل الحرب الماضية واستمرَّ بعدها . والإصلاح الذي تمَّ يشمل وضع حدٍّ أدنى للأجور ومنع تشغيل الأولاد وحماية النساء اللواتي في الصناعة وإيجاد مبدأ التعويض والتأمين والوقاية من الحوادث الخطرة والنار وتوفير الأحوال الصحيَّة وتحديد ساعات العمل وإيجاد أماكن السكن الملائمة وتأليف اللجان الصناعيَّة وإنشاء هيئات للتوظيف . وقد أدَّت هذه الحركة إلى تحسين يذكر ولكن يجب أن ندرك أن التحسين الناشيء عن الإصلاح له حدود فالإصلاح ليس برنامجاً شاملاً موحداً ولكنهُ مجموعة من المشروعات الفرديَّة، ولهذا يبقى النظام الاقتصادي دون تغيير أساسي وتبقى مساوئه تفعل فعلها . وما دامت حالة الطبقات وحقوقها وميزاتها في النظام الاجتماعي بدون هذا التغيير الأساسي فإن حركة الإصلاح تبدو سطحية . فالإصلاح الحقيقي يجب ألاَّ يعني هدية من الهيئة الاجتماعية للمحتاجين بل يجب أن يعني تنظيم المجال للإنتاج الشخصي. وتقدم المجموع عن طريق الجهد المبدع لجميع الأفراد. ولما نشبت الحرب الماضية صار التدخل في بريطانية فعليًّا وزال بزوالها، وذلك لأن بريطانية كانت أمنع من أن تتعرض لانهيار اقتصادي، ومع ذلك فقد عدَّلت بريطانية سياستها الجمركية وتدخلت في شؤون الزراعة والمناجم . ولما حلَّت الحرب الحاضرة استولت الحكومة على كل الأعمال وظهر مشروع بيفردج وأعلن مشروع السنوات الأربع على لسان المستر تشرتشل .

أما في ألمانية وإيطالية واليابان فكان التدخل الحكومي عامًّا وغايته تهيئة كل من هذه البلدان للحرب بتوسيع برامج التسلح، وهذا النوع من التدخل مخفق من الناحية الاقتصادية لأنه يفقر الدولة ويخفض مستوى المعيشة وإن قضى مؤقتاً على مشكلة التبطل . وقد أُعطي التدخل الحكومي اسماً جديداً في السنوات الأخيرة فأصبح يعرف بالتوجيه الاقتصادي Economic planning ومدلول هذه التسمية ضبط أمور ثلاثة : وهي ماذا يجب أن ينتج ؟ وما سعر المنتوجات ؟ وكيف توزَّع الثروة بين طبقات الشعب ؟

وليس بين حكومات العالم ما يجاري روسية في هذا الميدان ، وسبب ذلك أنها دولة اشتراكية . فالنظام الرأسمالي في بريطانية وأميركة وأضرابهما قائم على الربح الفردي، والنظام الاقتصادي في الدول النازية قائم على سوق الفرد لمصلحة التسلح فالحرب، والنظام الاشتراكي في روسية قائم على أساس الربح الاجتماعي العام . غير أن النظام الديمقراطي يكفل الحرية الفردية والنظامان النازي والشيوعي هدفاها . فالمشكلة إذن هي وجدان نظام يمكنه التوفيق بين الحرية الفردية والتوجيه الحكومي . ولسنا نعلم ما مصير الأمور بعد الحرب القائمة

« شرق الاردن »

الحيوان المنسي

للأب أنستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

— ٢ —

---

١٤ — ﴿ الحفث ﴾: الحَفث ككتف: حية عظيمة كالجراب. وهو اسم آخر للقلب المتقدم ذكرها ولكن باللغة اليونانية، أي Ophis وتلفظ (حفس) لوجود حرف حلق في الأول يشار اليه عندهم بعلامة حلقية. أفنحن أخذنا كلمتنا من اليونانيين، أم هم استعاروها منا؟ فالأمر يحتاج إلى درس. والمظنون أن الأسبقية لنا لأن الهلنيين أهملوا حلقية الحرف الأول ولم يبقوا منه إلا الاشارة، بخلاف بني عدنان فانهم احتفظوا به. والكلمة مشتقة من فحّ فحيحاً، ثم ذيل الفعل بالثاء المثلثة إبقاءً لصوت الحاء على قوته وصوناً له. قال لغويونا: الحفيف يكون من جلد الأفعى، والفحيح من فيه. وكذلك الطائر والشجرة: إذا سمع لهما صوت، ويقال في الحفث الفحيث والفيثح أيضاً والوزن واحد.

١٥ — ﴿ الزريقاء ﴾: الزريقاء، وبالانكليزية Suricat وتكتب عندهم أيضاً Surikate و Suricate هو حيوان كالسنور يكون في جنوبي إفريقية. ويظن لغويو الإنكليز أن الكلمة من لغة أهل تلك الديار، ولا يعرفون سبب هذه التسمية. والذي عندنا أنها من وضع العرب الذين وصلوا إلى تلك الديار من قديم الزمن. قال صاحب القاموس: الزريقاء دابة كالسنور. وكذلك قال سائر اللغويين، ولم يزيدوا على هذا القدر. وسماهُ الإنكليز أيضاً Zenick وهو تصحيف للأول. وهو حيوان لبون من ذوات الأوجرة. اسمهُ العلمي Suricata Tetradactyla (أي الزريقاء ذات الأربع أصابع) وهو يشبه سنور الزباد، ولونهُ السمرة الضاربة إلى الرُّمدة، وهي من معاني الزرقة عند العرب ومنها اسمهُ، مع جُددٍ على ظهره.

١٦ — ﴿المغوار﴾: المغوار في اللغة: المقاتل الكثير الغارات وهو يناسب الإفرنجية Jaguar وهو نمر موطنهُ أميركة، واسمهُ في اللغة البرازيلية (يَغوارا) Yagoara ولهُ

اسم آخر في الانكليزية هو (البَبْر الأميركي) American Tiger وبلسان علماء الحيوان Felis onca وهو ضارٍ ضخم من فصيلة السنانير مفتول العضل مأسوره قوي البنية ، يُظعن من تكساس والمكسيك إلى پتاغونية . ولونهُ في الغالب أصفر أُسيْمر ، وعليه دارات عريضة مشبعة اللون وقد تكون تلك الحلق مزوّاة ، وتحوي كلٌّ منها في الغالب جُدَّة أو جُدَّتين مشبعتين ، وأكثر إقامته على الأشجار فإذا رأى فريستهُ أغار عليها فانقضَّ انقضاض الطائر الجارح ، ومنهُ اسمهُ المغوار وهو من وضع أبناء عدنان في غابر الزمان .

١٧ — ﴿ الغويثيّ ﴾ : الغويثيّ ، بضم الغين المعجمة وفتح الواو وإسكان الياء المثناة التحتية يليها همزة مكسورة فباء موحدة تحتية مكسورة وفي الآخر ياء مشدّدة من الظباء بل من أصغر ما يعرف منها اسمهُ الانكليزي Kleeneboc واسمهُ العلمي Cephalophus Pygmaeus وموطنهُ جنوبي إفريقية ، علوّهُ قدم واحدة عند كتفيهِ ، فإذا رأى عدوّاً يهجم عليهِ غاب عنهُ بلمح البصر ومنهُ اسمه ، وهو في منتهى الخفَر وقد صحف الانكليز وغيرهم هذا الاسم بصورة Guevi ومن أسمائهِ الانكليزية Pygmy Antelope أي الظبي القزم .

١٨ — ﴿الشقيح﴾ : الشقيح ، أقبح القردة خلقة ومنهُ اسمهُ في العربية ومنهُ الانكليزية Saki وكذلك في سائر اللغات الجارية في ديار أميركة، ويظن الغربيون أن الكلمة من لغة البلاد التي يوجد فيها إذ لم يعرفوا أصلها ولا من أي لغة هي ، فهي عندنا عربية بلا شك . وأنواع الشقيح كثيرة وموطنها أميركة الجنوبية وهو من جنس الفاتكات[1] Pitheci التي تشمل قسماً من الحيوانات اللبونة فيها القردة Apes والهجارس Monkeys . والشقيح بوجهٍ عام آذنُ (أي عظيم الأذنين طويلهما) في جميع ضروبه، ولهُ ذنب وافر الشعر سبطهُ واسم الشقيح الأسود عند العلماء Pithecia Satanas أي الشقيح الشيطان واسم الشقيح الأبيض الرأس P. Leucocephala والأحمر الظهر P. Chiropotes وهي أحسن ضروب هذا الجنس المعهودة

١٩ — ﴿الهر الأميركي﴾ : الهر الأميركي ، واسمه بالانكليزية والفرنسية Eyra واضح أنهُ من العربية هرّة ، وعلماء الحيوان من إنكليز وفرنسيين لا يعرفون هذا الأصل إذ يقولون إنهُ بلغة أهالي أميركة الجنوبية وهو سنور وحشيّ ، وإنما نعتناه بالأميركي تمييزاً لهُ من سائر السنانير ، واسمهُ العلمي Felis Eyra وهو ينتقل من البرازيل إلى تكساس ،

(١) راجع الذيل

ولونهُ أصفر أحيمر . وحجمهُ يداني حجم السنور الأهلي لكنهُ أدق منهُ جسماً وأقصر رجلاً .

٢٠ — ﴿ النفوح ﴾ : النفوح ، فعول من نفح الطيب ينفح للمبالغة ، أي فاح وانتشرت رائحتهُ ، والنفوح ظبي صغير تفوح منهُ رائحة مسك طيبة واسمهُ بالانكليزية والفرنسية Napu وهو واضح الأصل العربي بيد أن علماء الحيوان من إنكليز وفرنسيين وأميركيين يقولون إن اللفظ من لغة أهالي زاوج . واسمهُ العلمي Tragulus Yavanicus وحجمه حجم الخزز (الأرنب البرية) ، وهو معروف بسرعة حركته ووثباته الرشيقة . ومن أسمائه الانكليزية Java musk deer أي ظبي[٢] المسك الجاوي ، وظبي المسك القزم Pygmy musk deer و Deerlet أي الظُّبَيّ ، بصيغة التصغير .

٢١ — ﴿ الفكّة ﴾ : الفكّة ، لغةً ، مصدر فكّ يفكّ ويفكّ كعلم وكرم أي حمق في استرخاء . والفكّة هنا : حيوان صغير موطنه أميركة الجنوبية ، وهو من القوارض ومشهور بحمقه المسترخي حتى إنه كثيراً ما يفاجأ ليقتل فلا يلتمس لنفسه مفرًّا فيؤخذ ويُذل . واسمه الغربي Paca وهو بين من أنه منقول مبنىً ومعنىً عن العربية ، بيد أن البصراء في علم العجماوات يجهلون هذا النجار ، وكذلك قل على أهالي الأرجاء التي يرى فيها . واسمه العلمي Coelogenis Paca ولونه أسمر أسيود ، وعلى جانبيه خطوط متوازية هي جُدد بيض كأنه قُبع مخطط ، ويتصل بالغوطي والقبع .

٢٢ — ﴿ الفلاّح ﴾ : الفلاّح ، لغة من يفلح الشيء ، أي يشقه ويقطعه ، وفعال من صيغ المبالغة والمراد به هنا : ضربٌ من الظباء يكون للذكر منه قرنان طويلان ، ذوا عقد وأنابيب على شكل قيثارة . واللون الغالب عليه الكمتة . وعلى عجزه ما يشبه الهلال ، أسود اللون . وموطنه إفريقية الجنوبية . وسمي فلاّحاً لأنهُ يطعن عدوه بقرنيه الحادين ويبقر بهما بطنه فيورده حياض المنايا . ولا يعرف علماء الحيوان أصل هذه اللفظة ، وهو واضح أنهُ من العربية ، واسمه بالانكليزية Pallah وبلسان العلم Aegyceros Melampus ومن أسمائه الانكليزية Roodebok .

٢٣ — ﴿ الغوطي ﴾ : الغوطي[٣] بضم الغين المعجمة ، جمع غوط بالفتح والغوطي مختومة بياء النسب والغوط والغائط المطمئن الواسع من الأرض ، وهو حيوان لبون من

(٢) راجع الذيل (٣) راجع الذيل

القوارض ، موطنه أميركة وأوقيانية وهو بحجم الخزز يألف غوطها ومنه اسمه بالعربية وفي الانكليزية يسمى Agouti وكذلك في الفرنسية . وقد قال علماء الحيوان من أبناء الغرب إن هذا اللفظ مأخوذ من لسان الأميركيين الأصليين ولم يعرفوا أصل وضعه . وجنسه يعود إلى ما يسمى في اللغة العلمية Dasyprocta

٢٤ — ﴿ الحبس بمعنى الوعل والبدن ﴾ : الحبس⁽٤⁾ ، بفتح الحاء المهملة : الجبل العظيم ويضاف إليه الوعل والبدن فيقال ، بدن الحبس ووعل الحبس ، ثم اكتفوا بالاحتفاظ بالمضاف إليه وقالوا : الحبس ، وباللاتينية Ibex و Ibicis . وهو ضرب من القموص موئله الجبال العالية العظيمة . وله قرنان عريضان يشرفان على جبهته وينعطفان على ظهره . ومن أسمائه بالانكليزية Steinbock ومعناه تيس الصخر . وقد خصّ هذا الجنس بالأوربي منه وبالوعل المتوطن الجنوبي إفريقية . واسمه العلمي Nanotragus Tragulus وهو يألف الأصقاع اليابسة الجافّة الصخرية ، ويكتب اسمه بالانكليزية بصور مختلفة وهي : Steinbok, Steinboc, Stonebock, Stonebuck والمعنى واحد والمعيَّن بها واحد أيضاً

﴿ ملاحظة ﴾ — اعتمدنا لوضع هذه المقالة على معجم وبستر واسمه Webster's revised unabridged dictionary of the english language— Springfield, Mass., U. S. A.

﴿ الذيل ﴾

(١) (الفاتكات) ، جمع (فاتك) لغير العاقل هنا . وهو اسم فاعل من فتك في الخبث فتوكاً ، أي بالغ فيه . ويراد بالفاتكات ، جنس من القردة معروفة بخبثها ودهائها ونكرها . ويقال فيها أيضاً (الفواتك)

(٢) للكلمة Deer الانكليزية ثلاثة معان في الغالب فهي تعني الظبي وبالفرنسية Daim والايل Cerf والآبد Bête fauve . ورأينا هنا أن يقال ظبي ، لان هــذا الحيوان يشبه الظبي دون الايل وأي آبد كان .

(٣) أصل الكلمة الاجنبية Algouti; Agout أي أنهم أسقطوا منهــا لام التعريف ، لانها ليست من أصلهــا . والاجانب كثيراً ما يعبثون بألفاظنا كما نتصرف في كلمهم . فقد يحذفون اللام كما رأيت ، وكما في النفير ، فانهم قالوا Ana fin (أنافين) والتنور فقالوا Athanor (اثنور) ، والحبارى فقالوا Aubère (أوبير) والمصلى ، فقالوا Aumusse (أومصل) الى غيرهن . — وقد يحتفظون بها ، كما في الـكيمياء Alchimie والقرآن Alcoran ، والغارة Algarade — وقد يزيدون عليها اداتهم للتعريف ، فيكون هناك تعريف على تعريف ، فقد قالوا l'Alcool, l'Alcoran, l'Alchimie

(٤) لما لم يكن في لغى الافرنج أحرف حلق كأحرفنا فانهم كثيراً ما يسقطونها في كلامهم ، فيقولون في المسيح : Messie وفي يسوع Jésus وفي نوح Noé وفي حواء Ève الى آخر ما هنالك من هذه الالفاظ وهكذا أسقطوا من الحبس الحاء فقالوا Ibex

المآصر في بلاد الروم والإسلام

لميخائيل عوّاد

— ٨ —

(أ) مأصر دمياط *

١ — ﴿ في كتب البلدان ﴾ دمياط على ما جاء في كتب البلدان العربية ، مدينة قديمة بين تنّيس ومصر على زاويةٍ بين بحر الروم الملح والنيل ، وهي ثغر من ثغور الاسلام ، ومن شمالي دمياط يصبّ ماء النيل إلى البحر الملح في موضع يُقال لهُ الأشتوم حيث يبلغ عرض النيل هناك نحواً من مائة ذراع . قال ياقوت الحموي : « وعليه من جانبيه برجان بينهما سلسلة حديد عليها حرسٌ ، لا يخرج مركب إلى البحر الملح ولا يدخل إلاّ بإذن ، ومن قبلها خليج يأخذ من بحرها سمت القبلة إلى تنّيس ، وعلى سورها محارس ورباطات . . . . » (١)

وممن تطرّق إلى ذكر المأصر الدمياطي هذا ، اثنان من مشاهير البلدانيين ، نعني بهما زكريا القزويني ، وابن عبد الحق ، غير أنهما لم يخرجا في ما سطّراه عمّا ذكره ياقوت من قبلهما . ومما يحسن التنبيه عليه ، أن لفظة « عليها حرسٌ » الواردة في عبارة ياقوت أعلاه ، قد خرّفت في كل من كتاب القزويني (٢) ، وكتاب ابن عبد الحق (٣) إلى « عليهما جرسٌ » فليصحّحا .

٢ — ﴿ في كتب التاريخ ﴾ كانت المائة السابعة للهجرة مشحونة بأنباء غزو الفرنج للديار الشامية والثغور المصرية ، فطلائع جيوشهم كانت تطرق موانئ هاتيك البلاد بين حين وآخر ، ولكنهم يُصدّون عنها في غالب الكرّات بفضل المآصر البحرية ذات السلاسل الحديدية المحكمة الصنع ، والأبراج المنيعة ، ويردون من حيث أتوا وتخيب آمالهم في الاستيلاء على نِعم البلاد وخيراتها ، والتمتع بحسنها وطيب هوائها .

وفي الأسفار التاريخية كلام مسهب على حملات الفرنج هذه ، وهي التي أطلق على أغلبها في التاريخ اسم « الحروب الصليبية » .

(*) رأينا تأخير هذا الفصل عن الفصل السابق ورقمه ٧ وهو : (ب) مأصر الاسكندرية ، المنشور في مقتطف نوفمبر وذلك لاستفاضته وضيق المقام . هذا والسياق متصل . فلزم التنويه

(١) معجم البلدان (٢ : ٦٠٢ مادة دمياط) (٢) آثار البلاد (ص ١٢٩) . (٣) مراصد الاطلاع (١ : ٤١١)

وبين المؤرخين طائفة ممّن شهد أو سمع بالكثير من حوادث هذه الحروب ، فلم يلازموا الصمت إزاءها ، بل دوّنوا أخبارها ، وفصلوا وقائعها ؛ ولا غرو أن يكون ما كتبوه متقارباً في المطلب متباعداً في الطرز واللون ، مما حدا بنا إلى جمع ما تيسر لنا جمعه من أنبائها المتعلقة بأمر المآصر وإيراده في محله من بحثنا هذا .

ولقد كان ابن الأثير (المتوفّى سنة ٦٣٠ هـ) من أوائل المؤرخين الذين سمعوا بخبر هذه الغزوات ، لأنهُ كان حيًّا يومذاك ، فنقل الينا خبر حصر الفرنج مدينة دمياط ، واستيلائهم على سلسلة مينائها . ودونك ما قاله في هذا الصدد ، نرويه هنا لما له من الخطر : « لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكة إلى أن دخلت سنة خمس عشرة وستمائة ، فساروا في البحر إلى دمياط ، فوصلوا في صفر فأرسوا على بر الجيزة (١) بينهم وبين دمياط النيل ، فانّ بعض النيل يصبُّ في البحر المالح عند دمياط ، وقد بني في النيل (٢) برج كبير منيع ، وجعلوا فيه سلاسل مِن حديد غلاظاً ومَدّوها في النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة مِن البحر المالح أنْ تصعد في النيل إلى ديار مصر ، ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدوّ لا يقدر أحدٌ على منعها عن أقاصي ديار مصر وأدانيها ، فلمّا نزل الفرنج على برّ الجيزة وبينهم وبين دِمياط النيل ، بنوا عليهم سوراً وجعلوا خندقاً يمنعهم ممّن يريدهم ، وشرعوا في قتال مَن بدمياط ، وعملوا آلات ومَرمّات (٣) وأبراجاً يزحفون بها في المراكب إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه ، وكان البرج مشحوناً بالرجال ، وقد نزل الملك الكامل بن الملك العادل وهو صاحب دِمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تُعْرف بالعادليّة بالقرب مِن دِمياط ، والعساكر متّصلة من عنده إلى دمياط ليمنع العدوّ مِن العبور إلى أرضها ، وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه ، فلم يظفروا منهُ بشيءٍ ، وكسرت مرمّاتهم وآلاتهم ، ومع هذا فهم ملازمون لقتاله ، فبقوا كذلك أربعة أشهُر ولم يقدروا على أخذه ؛ ثمّ بعد ذلك ملكوا البرج فلمّا ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم مِن البحر المالح

(١) الجيزة في اللغة : الناحية وجانب الوادي

(٢) يظهر أن هناك برجاً آخر — غير هذا البرج الذي نحن بصدده — ، شيد في دمياط باسم برج السلسلة . فقد حكى المقريزي (السلوك ١ : ٤١٧ — ٤١٨ حوادث سنة ٦٥٧ هـ في معرض كلامه على الملك المظفر سيف الدين قطز) أنه « بعث بالمنصور وأخيه وأمه إلى دمياط ، واعتقلهم في برج عمره وسماه برج السلسلة . . . . . » .

(٣) مرمات ، واحدتها مرمة : وهي ضرب من مراكب البحر العظيمة . ذكرها ابن الاثير في حوادث سنة ٦١٤ هـ بقوله : « . . . . وصل اليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى مرمة وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوءة من الميرة والسلاح » .

في النيل ويتحكموا في البرّ ، فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسراً عظيماً امتنعوا بهِ من سلوك النيل ، ثمّ إنّهم قاتلوا عليه أيضاً قتالاً شديداً كثيراً متتابعاً حتّى قطعوه ، فلمّا قطع أخذ الملك الكامل عدّة مراكب كبار وملأها وخرقها وغرّقها في النيل فمنعت المراكب من سلوكه . . . . » [(١)].

وممّن كان عائشاً في هاتيك الأيّام المؤرّخ الشهير سبط ابن الجوزي (المتوفّى سنة ٦٥٤ هـ) ، وقد تناول بإيجاز خبر حصار الفرنج مدينة دمياط والتضييق على مآصرها البحريّ ، وممّا ذكره في حوادث سنة ٦١٥ هـ ، أنّ « في جمادى الأولى أخذ الفرنج برج السلسلة ، وأرسل الكامل شيخ الشيوخ صدرالدين إلى العادل يخبره ويستصرخ . فلمّا اجتمع بالعادل أخبره ، فدقّ يده على صدره ومرض مرض الموت » [(٢)]. ثمّ واصل كلامه فذكر وفاة الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب بن شادي بن مروان ، وقال : « قد ذكرنا وصول شيخ الشيوخ بخبر برج دمياط وأنّه انزعج ودقّ بيده على صدره ، وأقام مريضاً إلى يوم الجمعة سابع أو ثامن من جمادى الآخرة فتوفّي في عاكفين . . . . » [(٣)]

ويُعدّ شهاب الدين أبو محمّد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسيّ المعروف بأبي شامة (المتوفّى سنة ٦٦٥ هـ) من أولئك المؤرّخين الذين اتّصلوا بأمور هذه الحروب، ووقفوا على الكثير من حوادثها وأنبائها ، وقد وصف برج السلسلة في ميناء دمياط خير وصف لأنّه رآه رأي العيان ، وأفاض في رواية استيلاء الفرنج على هذه السلسلة بقوله : « وفيها (سنة ٦١٥ هـ) أخذ الفرنج النازلون على دِمْيَاط برج السلسلة في آخر جمادى الأوّل فأرسل الكامل إلى ابنه العادل شيخ الشيوخ صدرالدين يخبره ويستصرخ به ، فلمّا اجتمع بالعادل ، فأخبره ، فَدَقَّ بيده على صدره ومرض مرض الموت — . قلت : وأذكر وأنا بدمشق حين بلغ الناس أخذ برج السلسلة وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة منهم شيخنا أبو الحسن السخاوي (علي بن محمد السخاوي) ، ورأيته يضرب يداً على يد ويعظم أمر ذلك ، وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأله عنه فقال : هو قفل الديار المصرية ، وصدق ، فاني لما رأيته في سنة ثمان وعشرين .... بان لي صحة ما أشار الشيخ اليه ، وذلك أنه برج عال مبني في وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه ، وفي ناحيته

---

(١) الكامل في التاريخ (١٢ : ٢١٠ — ٢١١ ، أوربة) — (١٢ : ١٣٣ ، بولاق) . — وانظر خزانة كتب الحروب الصليبية (١٢ ، ١١٤ — ١١٥ ، باريس سنة ١٨٨٧ ، القسم المستل من كتاب كامل التواريخ لابن الاثير) . (٢) مرآة الزمان (٨ : ٣٨٩) . (٣) مرآة الزمان (٨ : ٣٩١).

سلسلتان تمتد إحداها على النيل إلى دمياط ، والأخرى على النيل إلى البحيرة فيمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو ، فهو قفل البلاد بالديار المصرية ، إذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور اليها ، ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة ومصر وإلى قوص وأسوان والله المستعان [1] »

ثم ذكر وفاة العادل في نفس السنة وأن « سبب موته انزعاجه من الخبر الذي جاءه من دمياط ، أن الفرنج استولوا على برج السلسلة ، فدق بيده على صدره وأقام مريضاً إلى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة فتوفى بعالقين ... » [2] .

وفي المائة الثامنة للهجرة نقل خبر هذا الحدث الخطير في تاريخ مصر ، مؤرخ من أشهر المؤرخين ، نعني به شمس الدين الذهبي (المتوفى سنة ٧٤٨ هـ) ، فانه في مجرى كلامه على خلافة الناصر لدين الله العباسي ، تعرض بشيء من الايجاز إلى نزول الفرنج على دمياط فجهز العادل العساكر إلى ابنه الكامل ليكشف عنها ، فأقبل ونزل تجاه دمياط ، فدام الحصار والقتال أربعة أشهر ، فمات الملك العادل في وسط الشدة واستراح ، فأخذت الفرنج برج السلسلة من دمياط ، وهو برج شاهق في وسط النيل ، وسابط من شرقيه والجيزة بحذائه من غربيه ، وعلى جنبي البرج سلسلتان عظيمتان تمتد هذه إلى سور دمياط ، والأخرى إلى سور الجيزة ، تقفل السلسلتان فتمنع المراكب من العبور إلى ديار مصر في النيل » [3] .

وقد نحا ابن كثير الدمشقي (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) نحو سلفه الذهبي ، فيما رواه في حوادث سنة ٦١٥ للهجرة أنه في شهر ربيع الأول « نزلت الفرنج على دمياط وأخذوا برج السلسلة في جمادى الأولى ، وكان حصناً منيعاً ، وهو قفل ديار مصر ... » .

ثم واصل كلامه بقوله : « وفيها توفي السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، فأخذت الفرنج دمياط ، ثم ركبوا وقصدوا بلاد مصر من ثغر دمياط ، فحاصروه مدة أربعة شهور ، والملك الكامل يقاتلهم ويمانعهم ، فتملكوا برج السلسلة وهو كالقفل على ديار مصر وصفته في وسط جزيرة في النيل عند انتهائه إلى البحر ، ومنه إلى دمياط ، وهو على شاطىء البحر وحافة سلسلة منه إلى الجانب الآخر ، وعليه الجسر ، وسلسلة أخرى لتمنع دخول المراكب من البحر إلى النيل فلا يمكن الدخول . فلما ملكت الفرنج هذا البرج ، شق ذلك على

(١) منتخبات من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : النورية والصلاحية ، — وهو الجزء الخامس من خزانة كتب الحروب الصليبية ، (ص ١٦٧ —١٦٨ ، طبعة بربيه دي مينار في باريس سنة ١٩٠٦)
(٢) منتخبات من كتاب الروضتين (ص ١٧٠) (٣) دول الاسلام (٢ : ٨٨ طبع حيدر آباد ١٣٣٧ هـ)

المسلمين ، وحين وصل الخبر إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر ، تأوّه لذلك تأوهاً شديداً ودقّ بيده على صدره أسفاً وحزناً على المسلمين وبلادها، ومرض من ساعته مرض الموت لأمر يريده الله عزّ وجلّ ، فلما كان يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة توفي بقرية عالقين (كذا ، وصوابها عَالِقين) » (١) .

وكان تقيّ الدين المقريزي (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ) مؤرّخ مصر ومدوّن خططها وأخبارها وآثارها ، قد أفاض الكلام في دمياط وزمن إنشاء مأصرها البحريّ وما أصاب تلك المدينة والمأصر من نكبات الفرنج على كرّ السنين ، وفي قوله فائدة وموعظة تاريخية بليغة . قال : « دمياط كورة من كور أرض مصر ، بينها وبين تنّيس اثنا عشر فرسخاً . . . ولمّا قدم المسلمون إلى أرض مصر ، كان على دمياط رجل من أخوال المقوقس يقال له الهاموك . . . ، وما زالت دمياط بيد المسلمين إلى أن نزل عليها الروم في سنة تسعين من الهجرة ، فأسروا خالد بن كيسان وكان على البحر هناك وسيّروه إلى ملك الروم ، فأنفذه إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك من أجل الهدنة التي كانت بينه وبين الروم ، فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك نازل الروم دمياط في ثلثمائة وستين مركباً فقتلوا وسبوا ، وذلك في سنة إحدى وعشرين ومائة . ولمّا كانت الفتنة بين الأخوين محمد الأمين وعبد الله المأمون وكانت الفتن بأرض مصر ، طمع الروم في البلاد ونزلوا دمياط في أعوام بضع ومائتين ، ثمّ لمّا كانت خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وأمير مصر يومئذٍ عنبسة بن إسحاق ، نزل الروم دمياط يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائتين فملكوها وما فيها ، وقتلوا بها جمعاً كثيراً من المسلمين ، وسبوا النساء والأطفال . . . فأمر المتوكل ببناء حصن (٢) دمياط فابتدئ في بنائه يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين (ومائتين) ، وأنشأ من حينئذٍ الأسطول بمصر ، فلما كان في سنة سبع ، طرق الروم دمياط في نحو مائتي مركب فأقاموا يعبثون في السواحل شهراً وهم يقتلون ويأسرون وكانت للمسلمين معهم معارك ، ثم لما كانت الفتن بعد موت كافور الإخشيدي ، طرق الروم دمياط لعشر خلون من (شهر) رجب سنة سبع وخمسين وثلثمائة في بضع وعشرين مركباً فقتلوا وأسروا . . . وفي أيام الخليفة الفائز بنصر الله عيسى ، والوزير حينئذٍ الصالح طلائع بن رزيك ، نزل على دمياط

---

(١) البداية والنهاية في التاريخ (١٣ : ٧٨ — ٧٩ مطبعة السعادة بمصر) .

(٢) حكى المقريزي في خططه (١ : ٢٩١) أن المتوكل « أمر ببناء حصن على البحر بتنيس ، فتولى عمارته عنبسة بن إسحاق أمير مصر ، وأنفق فيه وفي حصن دمياط والفرما مالاً عظيماً » . وفي كلامه على مدينة الفرما (الخطط ١ : ٣٤١) قال : « . . . وبنى بها المتوكل على الله حصناً على البحر تولى بناءه عنبسة بن إسحاق أمير مصر في سنة تسع وثلاثين ومائتين عندما بنى حصن دمياط وحصن تنيس وأنفق فيها مالاً عظيماً . . »

نحو ستين مركباً في جمادى الآخرة سنة خمسين وخمسمائة . . . فعاثوا وقتلوا . . . وفي وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب للعاضد ، وصل الفرنج إلى دمياط في شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وخمسمائة ، وهم فيما يزيد على ألف ومائتي مركب ، فخرجت العساكر من القاهرة ، وقد بلغت النفقة عليهم زيادة على خمسمائة ألف وخمسين ألف دينار ، فأقامت الحرب مدة خمسة وخمسين يوماً ، وكانت صعبة شديدة . . . ، وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة رُتبت المقاتلة على البرجين وشدّت مراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين ، ورمّ شعث سور المدينة وسدّت ثلمه ، وأُتقنت السلسلة التي بين البرجين ، فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار ، واعتبر السور [1] ، فكان قياسه أربعة آلاف وستمائة وثلاثين ذراعاً . وفي سنة ثمان وثمانين وخمسمائة أمر السلطان بقطع أشجار[2] بساتين دمياط وحفر خندقها ، وعمل جسر عند سلسلة البرج . وفي سنة خمس عشرة وستمائة كانت واقعة دمياط العظمى ، . . . فبرز الفرنج . . . وعزموا على قصد الديار المصرية فركبوا بجموعهم البحر ، وساروا إلى دمياط في صفر ، فنزلوا يوم الثلاثاء رابع (شهر) ربيع الأول سنة خمس عشرة وستمائة . . . . وهم نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف رجل ، فخيموا تجاه دمياط في البر الغربي ، وحفروا على عسكرهم خندقاً ، وأقاموا عليه سوراً وشرعوا في قتال برج دمياط ، فانه كان برجاً منيعاً فيه سلاسل من حديد غلاظ تمدّ على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر الملح من الدخول إلى ديار مصر في النيل ، . . . وفي مدة إقامة الفرنج بهذا البر الغربي عملوا الآلات والمراسي وأقاموا أبراجاً يزحفون بها في المراكب إلى برج السلسلة ليملكوه ، فانهم إذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل إلى القاهرة ومصر ، وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلة ، فتحيل الفرنج عليه وعملوا برجاً من الصواري على بسطة (كذا ، والصواب بطسة) كبيرة وأقلعوا بها حتى أسندوها اليه ، وقاتلوا من به حتى أخذوه ....، واشتد الفرنج وألحوا في القتال حتى استولوا على برج السلسلة وقطعوا السلاسل المتصلة به لتجوز مراكبهم في بحر النيل ويتمكنوا من البلاد ، فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسراً عظيماً لمنع الفرنج من عبور النيل ، فقاتلت

---

(١) قال القلقشندي (صبح الاعشى ٣ : ٤٠٦) « إن دمياط كان عليها أسوار من عمارة المتوكل أحد خلفاء بني العباس ، فلما تسلطت عليها الفرنج وملكتها مرة بعد مرة ، خربت المسلمون أسوارها في سنة ثمان وأربعين وستمائة خوفاً من استيلائهم عليها ، وهي على ذلك إلى الآن » .

(٢) روى المقريزي في حوادث سنة ٥٨٨ هـ (السلوك ١ : ١١١) أنه كتب باخلاء مدينة تنيس ، ونقل أهلها إلى دمياط ، وقطع أشجار بساتين دمياط ، وإخراج النساء منها ، فخلت تنيس إلا من المقاتلة ، وحفر خندق دمياط ، وعمل جسر عند سلسلة البرج بها » .

الفرنج عليه قتالاً شديداً إلى أن قطعوه ، وكان قد أنفق على البرج والجسر ما ينيف على سبعين ألف دينار ، وكان الكامل يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية إلى دمياط لتدبير الأمور وإعمال الحيلة في مكايدة الفرنج ، فأمر الملك الكامل أن يفرق (كذا ، وصوابها يغرق) عدة من المراكب في النيل حتى تمنع الفرنج من سلوك النيل .... » [1] .

وممن نقل خبر دمياط ومأصرها البحري واستيلاء الفرنج عليها ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي [2] (المتوفى سنة ٨٧٤ هـ) ، وقد صرح بأنه أخذ الرواية عن سبط ابن الجوزي السالف الذكر . كما أن جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ) ، تناول الكلام عليها ناقلاً أقواله [3] عمن تقدمه من المؤرخين الذين أوردنا أخبارهم .

ولعل آخر من تناول أخبار المأصر البحري في ميناء دمياط هو ابن إياس المؤرخ المصري (المتوفى سنة ٩٣٠ هـ) فقد حكى أنه «لما ملك المسلمون مدينة دمياط ، أشار الأمراء على السلطان بهدم مدينة دمياط ، فأرسل إليها الهدادين فهدموها عن آخرها ولم يبق منها سوى الجامع الكبير ، ووقع فيها الهدم في يوم الاثنين ثامن شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة ، واستمرت من يومئذ خراباً ، وصار مكان بيوتها أخصاصاً من القش على شاطىء بحر النيل ، يسكن فيها جماعة من الصيادين وسموها المنشية ، واستمرت على ذلك إلى دولة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري فأمر بتجديد عمارتها ، فأرسل اليها جماعة من البنائين والحجارين ، وكان ابتداء عمارتها في سنة خمسين وستمائة ، فجدد بناء سورها ، وأمر بردم فم البحر الذي تدخل منه مراكب الفرنج ، فردموه من القرابيص التي كانت هناك من الهدم القديم ، فامتنعت المراكب الكبار من الدخول إلى بحر النيل من يومئذ . ثم إن الملك الظاهر أمر باعادة السلسلة الحديد التي كانت من البر إلى البر ، قيل إن هذه السلسلة كانت في أيام المقوقس عظيم القبط ثم بطلت فأمر باعادتها كما كانت» [4] .

---

(١) خطط المقريزي (١ : ٣٤٤ — ٣٤٩) ، وقد نقل هذه الاخبار برمتها علي باشا مبارك في كتابه : الخطط الجديدة لمصر القاهرة (١١ : ٣٦ — ٣٨) . وقد تناول المقريزي أيضاً في كتابه السلوك (١ : ٧٢ ، حوادث سنة ٥٧٧ هـ ، و ص ١٨٨ — ١٩٠ ، ١٩٤ — ١٩٥ حوادث سنة ٦١٥ هـ) الاخبار التي حررها في خططه بتغيير يسير لا يخرج به عن المقصد نفسه . نقول : ومن المهم ذكره أن المقريزي اعتمد في رواية هذه الحوادث على ابن الاثير اعتماداً كلياً ، وزاد عليه بعض أمور في خطط دمياط ومسالكها

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٦ : ١٧٠ ، حوادث سنة ٥٩٧ هـ ، و ٦ : ٢٢٢ ، حوادث سنة ٦١٥ هـ . طبع دار الكتب المصرية)

(٣) انظر : تاريخ الخلفاء (ص ٣٠٢ — ٣٠٣ ، القاهرة سنة ١٣٥١ هـ) ، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (٢ : ٢٨ ، حوادث سنة ٦١٥ هـ ، المطبعة الشرفية بمصر)

(٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور (١ : ٨٧ ، بولاق سنة ١٣١١ هـ)

علم الكيمرجي ومنافعه

Chemurgy

لعوض جندي

ان كلمة كيمرجي منحوتة من لفظين انكليزيين يراد بهما الانتفاع بالحاصلات الزراعية في الصناعات الكيميائية . ويسرني ، وقد طالعت المقال النفيس الذي كتبه رئيس تحرير المقتطف في علم الكيمرجي ، أن أشد أزره في هذه المباحث الجاولة

يتفاءل الزراع الأميركيون خيراً ، ويرجون يسراً من حاصلاتهم الزراعية حينما تقف رحى الحرب الحالية . إذ هم يتوقعون إنتاج غلال عجيبة تختلف عن المألوفة اختلافاً كبيراً . نقصد المواد الأولية التي سيتضافر على الانتفاع بها أصحاب المصانع والمعامل الكيميائية والمزارع .

ومع كون علم الكيمرجي أي الكيمياء الزراعية الصناعية قد جاوزت العقد الأول فقط من عمرها فإنها قد جدَّدت أحوال زراعات الكون . ويرجع تاريخ تأسيسها إلى منتصف العقد الماضي من السنين ، إذ اجتمع خبراء الكيمياء والزراعة في مجمعهم السنوي للبحث في مسألة تزويد الفلاح بحاصلات أكثر مما لديه بغية زيادة ربحه وتموين الصناعة بمصادر جديدة لها من المواد الأولية أرخص من الخامات المعتادة .

وقصارى القول أن أولئك الخبراء الكيميائيين قد تقصوا ذلك الموضوع وما برحوا يستنبطون منافع جديدة للحاصلات الثابتة ويحثون قومهم على زرع حاصلات جديدة إما لمنافعها الحديثة وإما لمنافعها القديمة وإما للانتفاع بالمخلفات الزراعية . ومن المرجح أن الباحثين الذين فكروا في الحرب كانوا قلة . بيد أنهُ من حسن حظ أمريكة أن اليابانيين حينما زحفوا بعد ذلك ببضعة أشهر من الشاطئ الاسيوي إلى أبواب أسترالية ، كان علم الكيمرجي قد أُنشئ وأُعدّ لسدّ حاجة أمريكة .

ولو تأملت بعض الحاصلات الزراعية ، بحسب أسمائها الانكليزية متبعاً ترتيبها بالحروف الهجائية لأدركت أن أول ما حبسه اليابانيون عن أميركة هي ألياف الأباكا abaca أي قنب مانيلاّ (ومانيلاّ هي إحدى جزائر الفلبيين) وهي الألياف التي كان الأميركيون يصنعونها حبالاً ولا سيما الحبال البحرية التي ما زالوا في أمسّ حاجة اليها . ثم الكاسافا cassava التي كانت أمريكة تستوردها من جزائر الهند الشرقية الهولندية . والكاسافا هي مصدر النشا اللازم لصناعة المنسوجات إذ تؤخذ منها الصموغ ومواد اللصق التي تعتمد عليها الصناعات الاميركية . وكذلك حُرمت البلاد الاميركية الجوت الذي كانت تستورده من الهند لصنع

الخيش المتخذة منهُ أكياس الرمل في زمن الحرب . وحرمت أيضاً الكابوك kapok الذي كانت تصدره اليها جزائر المحيط الجنوبي الغربي . وهو النبات الذي يقي مناطق النجاة والأطواف من الغرق (وقد وصفته في مقال نشر بمقتطف يناير سنة ١٩٤٣) ثم صمغ اللك (المعروف عند النجارين المصريين باسم الجملكة) وقوامه قشور حشرات شرقية . ويليه زيت النخل وزيت الطنج المستعملان في صناعة الصابون والطلاء والتزييت والمطاط . وصمغ اللك من المواد التي امتنع حصول الحلفاء عليها حينما زحف اليابانيون على جزائر الهند الشرقية . وقد ثبت أن أميركة لا تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها منه . كما تبينت استحالة حصول الأميركيين على كثير من هاتيك الحاصلات الزراعية من أي مكان آخر . وثبت أن المنتجات الأميركية من تلك الأنواع محدودة بحيث لا تفي حاجات البلاد وأنه لا بدَّ من الاستعانة بحاصلات البلاد المذكورة آنفاً .

وأغرقت غواصات ألمانية البواخر التي كانت تنقل مادة التنين من أميركة الجنوبية حيث تستخرج هذه المادة من شجر القبراخو quebracho trees ويستعمل التنين لدبغ الجلود الخام . وكذلك أغرقت الغواصات البواخر التي كانت تقل الفلّين من شبه جزيرة أيبريا . وكانت أمريكة ذات قدرة صناعية جبارة ، ومع ذلك فالجبابرة يمكن أن يموتوا جوعاً لأن احتياجاتهم العظيمة ليس من السهل سدها . وقد كانت في حاجة ماسة إلى هاتيك الحاصلات أو ما يشبهها وإلا وقفت رحى الحرب . وربَّ سائل يسأل : كيف ظفرت بها ؟ وجوابنا عن ذلك — أنها حصلت عليها بالكيمرجي . والكيمياء العصرية والزراعة هما أساس علم الكيمرجي . فإذا أردنا إحراز أية مادة او إنتاج بديل لحاصل من الحاصلات النادرة الوجود ، قام الكيميائيون بتحليل ذلك النتاج ليقفوا على كنه الجزيئات المؤلفة له . ثم يفحصون المنتجات المشابهة له ، في الحاصلات التي استطاعت أو تستطيع أمريكة إنتاجها ، ليعينوا أي حاصل منها له جزيئات تتاح إعادة حشدها على ذلك النمط . وأهم مثال يجوز إيراده في هذا المقام تحسين المطاط الصناعي في زمن الحرب الحالية تحسيناً حثيثاً ، إذ تمكنت اليابان في خلال بضعة أسابيع من الاستيلاء على أكثر موارد المطاط الطبيعي في العالم قاطبة . ومع ذلك أصبح في وسع الأميركيين بفضل الكيمرجي ألاّ يكتفوا بالحصول على صنف واحد من المطاط ، بل ظفروا بعشرات منه ، يمكن صنعها أشياء أنيقة تمتاز بقابليتها للمط وبمتانتها أو قسوتها وفق المرام . وذلك أن علماء الكيمرجي تمثلوا بالتجارب التي كان المرحوم العلاّمة توماس ألفا إديصون قد جربها في زمانه إذ زرع نبات العود الذهبي أو goldenrod غصين الذهب ، كي يستخرج منه المطاط ، فزرعوا هم أيضاً الهندباء البرية أو سن الأسد واستخرجوا منها مطاطاً .

وأتيح لعلماء وزارة الزراعة في معهد المباحث الخاص بالمناطق الشمالية من الولايات المتحدة الأمريكية ، إنتاج النوريبول norepol وهو مطاط صناعي مؤلف من زيوت فول الصوية « البسلة الصينية » والحنطة وغيرها من الخضر . ومن المنافع الحديثة للحاصلات الزراعية أيضاً مادة الزين zein وهي من المنتجات الثانوية للقمح ، تحل محل صمغ اللك (الجملكة) ومنها أيضاً نشا البطاطا الذي يستعمل بدلاً من نشا الكاساڤا (وهي شجرة المانيوق) .

وكان أول من أعلن عن (الجملكة) الصناعية معامل آرثر . د . ليتل الكيميائية ، وذلك في أوائل السنة الحالية . وهذا النتاج الصناعي الجديد سيخفف من وطأة الحاجة إلى (الجملكة) الطبيعية التي كانت تستورد عادة من بلاد الهند.

ومخترع هذه المادة الكيميائية هو C. G Harford هارفورد وقد صرّح أن هذه (الجملكة) تشبه صمغ اللُّك الطبيعي ، بل تفوقه في بعض خصائصها إذ هي تلتصق بالمعادن بسهولة مثلها في الخشب ، وأنها تقاوم تأثير المياه في السطوح التي تدهن بها . ولهذه (الجملكة) الصناعية الجديدة اسم صناعي هو زينلاك Zinlac وتقوم بصناعتها مصانع وليم زينسير William Zinsser في مدينة نيويورك وهي شائعة الاستعمال الآن في الأدوات الحربية .

أما صمغ اللك الطبيعي فهو مفرزات متجمدة تفرزها حشرة هندية ، وقد كانت في الواقع ذات مزايا فذة هي قسوتها ومقاومتها للبلى وسرعة جفافها وسهولة تذويبها في المواد المذوبة الرخيصة . وبهذه الميزات راج استعمالها في كل مكان لأغراض شتى . ومنها وقاية أراضي الحجر وصقل الأثاثات الأنيقة . وطالما حاول المخترعون تقليدها فكان نصيبهم الفشل حتى قيض الله لنا علماء أمريكة المشار إليهم فأفلحوا كل الفلاح .

ويتسنى أحياناً في أمريكة زرع المحصول الذي كان يستورد عادة من خارج البلاد فينمو في التربة الأميركية على ما يرام . ومثال ذلك أن اليابانيين حظروا القنب الذي كان الأميركيون يستوردونه من جزائر الفيلبين فجعل هؤلاء يزرعونه في بلاد ولايات كنتكي ومينسوتا وويسكونسن فجنى زارعو هذا المحصول الحديث جداً أرباحاً جديدة فوق أرباحهم المألوفة وبلغت المساحات التي زرعت هنالك بذلك المحصول سنة ١٩٤٣ — ١٨٥٠٠٠ فدان. ومن جهة أخرى يمكن غالباً أن يحل هذا المحصول الوطني محل المحصول الأجنبي . ومن ثمة تبين أن بذور الخروع يتسنى الاستغناء بزيتها عن زيت الطنج tung وأنه يمكن زرعها في مفاوز الولايات الواقعة في جنوب غربي الولايات المتحدة . والطنج زيت من زيوت التجفيف يدخل في صنع الورنيش الزيتي النفيس الثابت . ولعل أهم فوائد الكيمرجي التي يدهش لها فائدة تحويل نفايات الحقول إلى مواد نافعة مربحة . ويلخص علم الكيمرجي في هاتين الجملتين: « لكل شيء تنبته التربة نفع خاص وإن كنا لما نوفق لمعرفة نفع كل مادة على حدتها »

فعيدان قصب السكر المعصورة وسيقان القمح وقشور الفول السوداني يمكن أن تقوم مقام الفلين، الذي هو حاصل من حاصلات أشجار تنمو في بلاد البورتغال وأسبانيا وإفريقية الشمالية. ولو استطاعت أميركة برغم غواصات هتلر المنبثة في أغوار مياه المحيط الاطلنطي الحصول على حاجتها من الفلين، لحالت السياسة الدولية دون حرية تجارته.

وليس محتوماً على كل عالم بالكيمرجي تقويض المحتويات الكيميائية للفلين مثلاً ليستنبط بديلاً له[1] بل عليه أن ينهج منهجاً آخر. ومن المقترحات التي اقترحت لسد ذلك العوز، اتخاذ عوض للفلين مؤلف من ألياف الذرة وجمارها، فظهر أنها لا تصلح لذلك الغرض لأن خلاياها تكبر بكثير أمثالها في الفلين، فضلاً عن كون غشائها أدق كثيراً من تلك، غير أنه تبين أن الجمار إذا قطع قطعاً دقيقة وأذيبت حتى تصير سائلاً يمكن تكثيفه وتقسيته إلى أن يصبح مادة مرنة ينتج منها جسم يكاد يشبه التركيب الطبيعي للفلين، فيصلح استعمال هذا النتاج المتخذ من نفاية الحقل فليناً صناعياً لتغطية القناني.

ويرى علماء الكيمرجي أن الأعشاب البرية الضارة التي تنبت في وسط النباتات النافعة إنما هي أزهار بغيضة عند الناس أجمعين، ومنها نبات العشر[2] (ضالة علماء الكيمرجي) وهو ذو ألياف حريرية تشبه الكابوك (وقد وصفته أيضاً في مقال نشر في باب الأخبار العلمية بمقتطف يناير سنة ١٩٤٣) وأليافه جوفاء مملوءة بالهواء خفيفة جداً وتغشاها مادة شمعية تجعلها مسيكة فلا تستطيع المياه اختراقها، ويستعمل حرير العشر بديلاً طبيعياً للكابوك في صناعة الأدوات والملابس الواقية من الغرق فضلاً عن كون ميزات ذلك الحرير العازلة للرطوبة عزلاً جيداً تجعله صالحاً لصنع الحلل التي يرتديها الطيارون الذين يحلقون في أعلى طبقات الجو. ومن منافع المخلفات الحقلية أيضاً أنها تتخذ منها مادة تحل محل الجليسرين في صناعة التبغ وذلك لأن الجليسرين أصبح نادر الوجود لشدة الحاجة إليه في صنع المفرقعات. والمعروف أن التفاح حين تعبئته في العلب أو عند تجفيفه، تنبذ مادة قلوبه وقشوره. بيد أنه لما كان علم الكيمرجي كما قلنا لا يبيح الاستغناء عن أي جزء من أي شيء تنبته الأرض إذ يرى فيه نفعاً للخلق، فقد حول أضرار النبات إلى منافع. وسُلّمت أطنان من التفاح الجيّد

(١) اخترع أحد علماء الالمان فليناً من البطاطس وذلك بأن تكشط الاجزاء الدقيقة التي تبقى من لباب البطاطس، طاقة بقشوره، فتباع كعلف للمواشي. أما القشارة فتضغط حتى تصبح طبقات يعلو بعضها بعضا فتصلح لسد القناني كالفلين الطبيعي.

(٢) وصفت هذا النبات في مقال مسهب نشر في مقتطف يناير سنة ١٩٤٣ وكان لذلك البحث صدى خطير وحسن تقدير لدى عظماء المملكة العربية السعودية ولذلك طلب إلي السيد سليمان الحمد السليمان نجل وكيل وزارة المالية السعودية بمكة المكرمة بعض معلومات بشأن العشر فتشرفت بلقائه يوم ٢٩ ابريل سنة ١٩٤٣ في الوكالة العربية السعودية بالقاهرة حيث تباحثنا ملياً في هذا الموضوع لأن في بلاد العرب ألوفاً من شجر العشر.

كل الجودة ، الذي يستهدف للتلف فتعاف الناس شراءه وأ كله ، إلى علماء الكيمرجي الذين سبق أن قاموا بعمل خلاصات من تلك المواد المهملة فعمدوا إلى إجراء التجارب في شراب التفاح ليستخرجوا منه مواد تقوم مقام السوائل النادرة الوجود فوفقوا كل التوفيق إذ تيسر لهم استخلاص مادة من التفاح السائل تتخذ عوضاً من الجليسرين فنجم عن تلك المباحث القليلة الجليلة الفوائد إنشاء سوق رائجة في بلاد الولايات المتحدة الأميركية لأكثر من مليونين ونصف مليون بوشل للتفاح التالف الذي كان فاقد النفع هناك كل سنة . والبوشل يعادل ثمانية جالونات .

وكذلك أتيح لهم الانتفاع باللحاء الذي يسقط عادة من أشجار الشوكران الضخمة التي يقطعها الحطابون من مناطق شمال غربي المحيط الهادي إذ وُجِدَ لها مكان صالح في علم الكيمرجي ، لأن العلماء استطاعوا أن يستخرجوا من تلك القشور مقادير مربحة من مادة التنين المستعملة في صناعة دبغ الجلود ، وناهيك بالمنافع الجديدة التي ابتدعها علماء الكيمرجي من نباتي القطن وفول الصوية إذ استطاعوا في زهاء عشرة أعوام جعل ذلك الفول الشرقي العام محصولاً كبيراً من الغلات الأميركية التي تربي على مائتي مليون بوشل في السنة حيث يستخرج منهُ زيت للتزييت والطلاء والعجائن الكيميائية . وتتخذ منه بروتينات وأغذية للانسان وعلف للحيوان ، وتستخرج منهُ أيضاً خيوط للنسج . وكذلك ما فتىء أولئك العلماء يهتدون إلى منافع جديدة للقطن ومنها استعماله عوضاً من الجوت الذي كان يستورد من بلاد الهند لصنع أكياس الرمل .

وكان البارود العادم الدخان ، يصنع عادة من زغابة القطن ونقصد بها الشعر الزغبيّ الذي يبقى لاصقاً ببذور القطن ، بعد إنتزاع التيلة منها . فاخترع علماء الكيمرجي آلات خاصة تقوم بتقطيع تيلة القطن نفسها قطعاً قصيرة تشبه هاتيك الزغابات ابتغاء استعمالها في صناعة ذلك البارود بمقادير جزيلة جداً . ثم ختم الكاتب الأميركي بحثه هذا قائلاً : ما من أمة تستطيع الطموح إلى المستقبل ثابتة الجأش ، إذا كان رخاؤها مرتبطاً بالمواد الأولية المعدنية وحدها ، لأن هذه المواد تستنفد دائماً أسرع مما تتجدد . وطالما نبهنا علماء الجيولوجيا إلى قرب الزمن الذي سوف تفرغ فيه منابعنا من نفطها ومناجمنا من حديدها وغيره من الفلزات وذلك لكثرة ما نستهلكه منها . ولكن لا خوف علينا ما دام في وسعنا إنتاج ما نحتاج اليه من أي مصدر زراعي . فيعوضنا عما نستنفده من مقادير المعادن والزيوت المعدنية . وكلما كثر اعتمادنا على العجائن الكيميائية التي تصنع من المصادر النباتية ، قلّ تعويلنا على تلك المعادن القابلة للنفاد . وكذلك كلما اشتد إقبالنا على استعمال الوقود النباتي والزيوت النباتية لتزييت آلاتنا ، قلّ خوفنا من استفراغ منابع زيتنا .

التّعريف والتّنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق، فنجريه إلى غايتين: إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة. ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن. هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى.

بشر فارس

المشتمل

١ - المسائل

اللغـــة والقوميـــة

محاضرة ألقيت في « كلية المقاصد الاسلامية » ببيروت
في السابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٤٤

يسعدني ويعلي من شاني أن أجلس بين أيديكم في بلد ثغره وسهله وجبله قد أخرجت في العصر الحديث جمهرة من العلماء الأعلام صرفوا هممهم الى لغتنا الشريفة، فهذبوها وأغنَوها وقيدوها وأعلَوها ، وكان الزمن الجائر قد جرها إلى الترهل والضآلة وإلى التفكك والحقارة بعد ماضٍ زاهر ماجد .

فبفضل الشدياق والأحدب واليازجيين والبستانيين والأسير ثم بفضل الشرتوني وعبدالرحمن سلام وأضرابهما أستطيع أن أتحدث اليكم بهـذه اللغة السليمة وتستطيعون أنتم أن تصغوا وتلتقطوا . هؤلاء الأعلام هيأوا لنا سبيل التفاهم وهيأوها لـكم فيما بينكم على بساط مديد متقَـن الصنعة . رحمهم الله رحمة واسعة ، فإنهم من روّاد القومية من حيث لا يشعرون وبناة التآلف على أسٍّ ثابت .

جئتكم اليوم وفي صدري أشياء من حال لبنان الحاضر لا يستطيع العامل في ميدان الفكر أن يسهو عنهـا وأن يمضي ، وإن كان دأبه العلم الصرف والأدب المحض . ولا تظنوا أني أبتغي توجيهكم في هذا دعوى ليست والله من شيمتي، ولـكن في نيتي أن أذاكركم في شأنٍ شاغلٍ لـكم ولي أيضاً ، وهو شأن القومية ورسوّها وعلوها .

• • •

إنما شرط القومية تلاؤم دفين بين أبناء الأمة وتساير من جهة المعنى ومن جهـة الحس جميعا . وقد استقام لعلماء الاجتماع لهذا العهد أن للقومية مقوّمات . وقد اختلف العلماء في قيم هذه المقوّمات وذهبوا مذاهب في تغليب إحداها على الاخرى . وكيفما كانت الحال فلسنا ههنا بسبيل البحث المجرد ، ولست بسائق إليكم حديثاً في علم الاجتماع . وإنما أريد أن أجري

الكلام في جهة العمل من طريق وضعي لا شأن للتخيل فيه .

لنعرض المقوّمات التي انتهى إليها الباحثون ، ولنتصفحها على ضوء المجتمع اللبناني القائم اليوم قياماً حقًّا مستقلاً بنفسه ، لعلنا نصيب ما قدر كل مقومة لديه ، وما مبلغ حظها من القوة والرسوخ .

صنف العلماء تلك المقوّمات فوجدوها هذه : الأرض ، والدين ، والدم ، والماضي مع الرغبة في الاستمرار ، ومصلحة العموم ، ثم اللغة .

— أما الأرض ، فمما يورث الأسف أن لبنان بقع بقع ، وكل بقعة منطوية على نفسها ، لأهلها تصوراتهم ونزعاتهم . فمن هذا أن لسكان جبل كسروان مثلاً لا تجدونها عند أهل البقاع . حتى المدينة ينقسم أهلها على أهواء ، ففي بيروت أحياء ، وكل حي يرى على طريقته ويسعى ويؤمل . أضيفوا إلى هذا أن بقعاً أدرجت في لبنان من عهد قصير فدخلته وما أحسبها داخلته ، وذلك لسببين : أما الأول فقرب عهد الادراج ، وأما الثاني فدخولها في أرض توزعت جهاتها وتضاربت كوَرها . وخلاصة هذا أن الأرض اللبنانية لا تستطيع ان تضم أبناءها فتركزهم في مستقر تتلاءم أطرافه .

هذا ويتفق للأرض على وجه العموم ألا تصلح لتكون مقوّمة من مقوّمات القومية ، فهذه بريطانية العظمى — وقوميتها فوق الشبهة — مقسومة قسمين متنافرين : إنكلترة وسكوتلندة . وقد لمس هذا منكم من قصد إلى بريطانية فجلس إلى ابن سكوتلندة وسمعه يقول : « لست بانكليزي » . غير أني أربأ بكم أن تذهبوا أبعد مما أذهب فيزعم زاعمكم أن أقسام أرض لبنان إلى انفصام واقتطاع ما دامت على غير تواطؤ وتماثل .

— وأما الدين فخيرٌ لي ولكم أن نمر به مسرعاً وليس ذلك من باب الخشية . ولست ممن يخشى النظر في الأمر الراهن وإن وعر مسلكه ، فقد آن للمفكر الحرّ المخلص أن يجبه كل مشكلة بما قد يكون مكروها — ولكن الاسراع ههنا سببه ضجر في طياته ألم حزّاز تغذوه دهشة ملحة ، هي الدهشة من قوم يضربون في أرض واحدة وبعضهم إلى بعض ينظر نظرة المتعدي مرة والمستعدي أخرى . لنمر سراعاً فالهواء — الله أعلم — إلى غير صلاح . وبحسبي أن ألفظ كلمة واحدة هي « الطائفية » فأستخلص مما تثير حول حروفها المريضة أن الدين في لبنان هيهات أن يكون معقل انضمام ومحور التفاف . وهنا كذلك لا تذهبوا إلى أبعد مما أذهب إليه فيزعم زاعمكم أن الأديان إذا تباينت في بلد واحد مجلبة للانفصال ، فهذه ألمانية وهذه روسية كلتاهما تضم مذاهب شتى وليس شك أنها على قومية فعالة .

— وأما الدم فلا أعني نقاوته وتحدره كذلك من عروق الجدود حتى عروق البنين. فالأمر — وإن تشبث به قوم وأنهضوا عليه سياستهم وتدبيرهم — أدخل في باب الأسطورة منه في باب العلم، ولاسيما في قطر تو افدت عليه أجيال من الناس فاتحين أو فازعين. لست تلك النقاوة أعني ولكني أريد امتزاج الدماء بين الفئات المختلفات التي بقيد الحياة.

ولا يخفى على أحدكم أن حالكم على عكس ذلك لأسباب دفائن لم يحن بعدُ النظرُ فيها والحكم. ذلك بأن الأمة لا تثب دفعةً واحدةً من انزواء أجزائها بعضها عن بعض إلى التحامها جملة. التدرج هنا أفضل وأحكم وإنما المعول على تخلص القلب وتفتح الروح: صدق وسمو. إذن ليس في وسع الدم أن يشارك في تلاؤم الأفراد ولو بحظ يسير.

— وأما الماضي وما يحدثه من الرغبة في الاستمرار فإني أراكم تلتفتون إلى عهود وأمم، فهذا يصعد حتى زمن متقادم دارج فتأخذه الفينيقية، وذاك يتشبث بالعربية، وثالث يخلطها بالإسلام عفواً. وعن هذه الأصول تنشق فروع.

فكيف توجهون الفتيّ على سَمت واحد وحاديكم غير واحد. إنما الماضي — كما يقول الفيلسوف برجسن — نافذة منها يُطل الطل على المستقبل. ونافذتكم على فتحات متباينات. فهذه أبصاركم زائغة، يتخاطفها الشمال والجنوب ومطامحها مقسمة بين تشريق وتغريب. وإنما غاية اضطراب العين انتشار فعجز. حمى الله أعينكم! والماضي، كما ترون، لا يعبّد لكم طريق المستقبل الضمّام لخطاكم بل هو يحرف بعضها عن بعض.

— وأما مصلحة العموم — وهي القومة الأولى للقومية البريطانية مثلاً — فأراكم لم تستوضحوها بعد. ولا لوم عليكم، فالعالم اليوم على تجاذب وتدافع. فأنّى لكم أن تتجهوا الوجهة الصالحة النافعة؟ الضباب حول الخلق كافة، فلحاظهم على تفرق وتحير. ثم إنكم لا تزالون في بدء تدبير شؤونكم، فإن جربتم هذا فلم تجربوا ذاك، وإن امتحنتكم السياسة من شقٍّ فلم تمتحنكم من شقٍّ آخر. فأنتم لا تنفكون في تقري الباب الذي يولجكم إلى النعيم، وتحري الحاجب الذي لا يخفي سيفاً. فحكمكم في مصلحة عموم أفراد الأمة لا يزال صريع المنازعة يلفه الغموض والفرض والحدس.

• • •

بقيت اللغة. فهل أحدكم يشك أنكم على لغة واحدة. أجل أخبرني صديق أثير أن نفراً يقولون بأن للبنان لغتين، فهذا زعم لا ينهض له دليل. فلغتك إنما هي التي تنطق بها

سليقةً أول ما تنطق ، ثم تأخذها سماعاً واعتياداً لا تكسباً وتكلفا . وإن بدا لنفر أن يحرّفوا ألسنتهم عن أصولها فذلك شأنهم وحدهم .

إن لغتكم هي العربية رضيتم أو كرهتم ، حسنت لديكم أو ساءت . تلك حقيقة لا تُرد . وعلى صعيدها تلتقي خطاكم جميعا . فإن وهنت القومات الأخرى أو بطلت فإن اللغة هي القومة الحافلة الفريدة التي أُتيحت لكم ولا تنفك بين أيديكم . هي ملككم جميعاً ، اشتركتم على اختلاف مذاهبكم ومناهلكم في تسويتها ورفعها . كلكم ابنها وراعيها ، فمن العسف أن يقول قائل : « أبت العربية أن تتنصر » . تلك قولة لفظ بها من لفظ من نحو مائة سنة وهو لاهٍ ، وبعض اللهو إثم . هي قولة فيها بهتان بل فيها عدوان ، ونحن اليوم إلى الحق ننظر وبالوئام نستبشر .

هذا وليست اللغة بالمقومة التي يقل قدرها في أمر القومية . هل غاب عنكم أن دانتي الشاعر الايطالي العظيم جمع كلمات المناطق الايطالية بفضل ملحمته « الاضحوكة الالـهية » ؟ ثم اذكروا أن آداب النهضة الفرنسية بشعراء البلياد Pleiade وبأمثال رابليه ومونتني ثم بالمتحذلقات وما نبذنَ من تراكيب الأقاليم ثم بالمجمع وما فرضه من قواعد النحو ، اذكروا أن كل ذلك أعان على لمّ الأطراف وضم إداراتها من طريق التعبير المؤتلف . وكذلك الأمر في غير إيطالية وفرنسة . فهذه العرب ألمْ تهيء غلبةُ لغة قريش نظمَ شمل القبائل ؟ ثم هذه بوهيمية وإرلندة في العهد الحديث ألم يرجع أهلها إلى الوعي القومي بفضل اللغويين والشعراء والمؤرخين الذين أحيوا لغة القوم ونشروا آدابها ؟ ثم هل يفوتكم أن اللغة هي الحصن الأخير المتمكن في وجه الغازي القاهر ؟ ألم تستمسك شعوبية الفرس بالفارسية ؟ وما الذي أعجز الحكم التركي سوى العربية على اضمحلالها ؟ وپولندة تلك الضحية الدائمة ، أليست لغتها التي ظلّت تنفث الوطنية في عروق أبنائها البؤساء ، وفنلندة هل كانت صرعت صولة السويد لو لم تنبذ اللغة السويدية شيئاً فشيئاً لتحل محلها اللغة الفنلندية بعد أن دوّنت آياتها وهذبتها ؟ ولكم بعد ذلك عبرة اللغة العبرية ، وكلكم لمسها بيدٍ نافرة .

• • •

بين أيديكم عُدة تفاهم محكمة مكينة ، فعليكم إياها وبها . الزموها وتمسكوا بها وبالغوا في صونها وصقلها ، كما صنعت العرب في المئتين الثالثة والرابعة ، وكما صنع ڤرجيل وهوراس وأقرانهما من قبل فبلغوا باللغة اللاتينية ذرى الغزارة والليانة واللطافة . وإن لم تفعلوا نصدأ لغتكم من طول الإهمال وتنفلت من بين أناملكم ، فتقعدوا وقد غاب من تحت أرجلكم

ذلك الصعيد الأوحد في حدود أرضكم . ومن وسائلكم في الصون أن تفرضوها في كل موضع فلاتقبلوا منها بديلا . وان تخاطبتم وتراسلتم فيها أولاً وإن حادثتم غير الناطق بها في بلدكم فيها ثم بلغته . وأما المدارس فلا تأذنوا في أن تجري اللغة في فصولها مجرّى هيناً وأن تنتحي ناحيةً فتغلبها على أمرها لغة أجنبية عن ألسنتكم . في ذلك استرخاء ووراءه ذل . ولتشتدّ مراقبتكم ولتنبسط على المناهج والنماذج ، ولا بدّ أن تطلق على المدرسين أنفسهم : هل يحذقون هذه اللغة ؟ وأعلى من هذا : هل يحبون هذه اللغة فيحببوها إلى التلامذة ؟ ثم لتُقرأ العلوم والآداب بهذه اللغة أيضاً حتى يتدرّب اللسان ويتدرّب وحتى يشعر صاحبه أنه يستطيع أن يضعه حيث يشاء ، فتجلّ اللغة في عينه ، فتظل المقومة الشريفة الرفيعة .

وأما وسائل الصقل فاجتهاد متواصل في تهذيب هذه اللغة وإغنائها . وهذه حكومتكم مقبلة على إنشاء مجمع علمي ستكون علوم اللغة من شواغله ، وفي المأمول أن ينشأ لوجه العلم وأن يعمل فيه أصحاب الكفاية والدراية ، فلا يكون إنشاؤه مظهراً من مظاهر الأبهة والتهويل ، وإن آفة شرقنا البهرج ، ثم لا يكون طوع الطائفية تلك النكبة التي لا يفرح بها غير جهلة أو فسقة .

وليس معنى كل ذلك أني أتشيع للعربية وأغض البصر عن سائر اللغات . فهذه حماقة . ولكني أسألكم أن تنزلوها المنزلة الأولى حتى تبقى على سلطانها بل تمضي فيه . ولكم بعد ذلك أن تقبلوا على اللغة التي تجذبكم . والخير ترك الايثار ، لأن الايثار يورث الهوى ، وحليف الهوى التعصب ، فإن تعصبتم للغةٍ ما زحمت لغتكم ، والقلب لا يحمل اثنين . ثم إن الإقبال على لغات متعددة يشق لكم الأفق فيفسح للفهم ويوسع للإدراك ، إذ لكل لغة أسرار وخصائص من جهة القواعد ومن جهة الآداب ، وبنا حاجة إلى كل ما يفتّح ويصفّد حتى نشد من تلك المقومات الواهنة ونعالج تلك المقومات الضائعة .

• • •

وبعيد عن ذهني أن أحرككم إلى الاستمساك باللغة لتتخذوها غاية فتصرفوا إليها نشاطكم صرفاً ، وتجعلوها المقصد الأسمى ، كلاّ ! أنا أدعوكم إلى الاستمساك بها على أنها وسيلة فعالة . وأملي كبير في أن تعينكم اللغة على مراجعة المقومات الأخرى ، ودعوني هنا ألوّح وأمثل :

أما الأرض فمن طريق المواطأة على القراءة الواحدة والفهم الواحد تتساير الذهنيات إلى أنحاء متقاربة ثم مع الزمن إلى أنحاء متماثلة.

وأما الدين فبالاطلاع على الآثار يعلم الجاهل أن الهوّة بين هذه الفئة وتلك لم تكن على السحق الذي نعانيه ، فالنصراني مثلاً أعان المسلم في بعض فتوحاته وكرّاته بفضل القربى والأخوة ، والمسلم ، مثلاً ، كثيراً ما فطن إلى أن دينه إلى السماحة .

وتجدون أشباه هذا في تاريخ بلدكم ، فيتجسم لكم في الواقعات الرائعة . منها أن المسلمين والنصارى جاهدوا صفًّا واحداً في أثناء الحرب الماضية ، وأوقع بهم الترك ، من غير تمييز ، الضيم والشنق والقتل .

ومن قبل اتحدت طوائف لبنان كلها ، وذلك لما غزا المماليك جبل كسروان في خاتمة المئة الثالثة عشرة ، فانضمت النصارى من موارنة وملكيين ويعاقبة إلى الشيعة والنصيرية وإلى الدروز وأجمعوا فيما بينهم — كما جاء في تاريخ المطران تادروس — على تفويض أمرهم إلى بيت « بِلَّمَع » (أبي اللمع) الدرزي وكان فيه الشرف والتقدم .

وأما الماضي وما يحدثه من الرغبة في الاستمرار فإن عرضتم ألطاف الحضارة التي ورثتم لغتها علمتم أنها في الأوج من بعض النواحي وفي بعض العهود ، وأنها أمدت الحضارة الأوربية الحديثة ، فهي خليقة بأن تكون منهلاً صافياً . ولكم أن تختاروا وأن تنبذوا ، وأن تستلهموا وأن تستميضوا ، وطلبتكم التقدم والوثبان . ولكن لا بدّ لكم من أن تجمعوا الأكف لتلتقطوا الماء من نبع واحد . وإنما اللغة التي نشأتم عليها هي الدرب المؤدي إلى النبع . هل لدى أحدكم درب حيّ آخر ؟ إن وجود النبع لا يكفي .

• • •

تلك خواطر خطرت لي وأنا في شعاب جبلكم أمضي . وإني لأعلم أنها موضع مراجعة ، ولا يخفى عليّ أنها مثار نقاش ، ولكني أردت أن أبثكم إياها قبل أن أغادركم لعلي أن أفيد ، وإن لم أفد فصدري يملأه الود ، على كل حال ، والإخلاص .

بشر فارس

٢ - الكتب

المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن

تأليف جولد تسيهر — ترجمة علي حسن عبد القادر

١٦ × ٢٣ سم ١٨٤ ص القاهرة سنة ١٣٦٣ هـ ١٩٤٤ م

يعرض المستشرقون لعلوم الاسلام وتاريخ الاسلام عرضاً علمياً في بعض أحيانهم، وعرضاً كله غرض في بعض أحيانهم.

ولقد كان المسلمون — ولا يزالون — في حاجة إلى معرفة آراء هؤلاء، سواء منها ما كان رأياً عن معرفة وثبت وإنصاف، وما كان عن هوى وغرض، حتى يدركوا مقاصد القوم ونياتهم نحوهم ونحو بلادهم. فما أتى المسلمون في القرنين الماضيين إلا من جهلهم ما يضمر بعض أولئك القوم لهم وما يقولون فيهم.

وكنا — نحن الأزهريين في هذا العصر — نجتهد بكل وسيلة نستطيع، أن نتعرف آراء أولئك في تاريخنا وعلومنا، ونقرأ كل ما يترجم عنهم في الكتب والصحف والمجلات، ونتصل بمن عرفوا اللغات الأجنبية وبمن تعلموا في أوربة من المصريين، ونقتني آثارنا النفيسة التي ينشرها المستشرقون، نستطلع بذلك كله الأخبار والآراء. ثم بعثت بعض البعوث منا إلى أوربة للدرس والمعرفة والتنقيب، وعاد بعض من بُعث، فتوقعنا أن يقوموا ببعض هذا الواجب، واجب تعريفنا تعريفاً علمياً بآراء علماء أوربة فيما عرضوا له من دقائق العلم الإسلامي، فلم يفعلوا، ولا نزال نتوقع أن يفعلوا. ولعل لهم من أحداث هذه الحرب بعض العذر، فقد كان أثرها شديداً على الورق والطبع والنشر.

ولكن أخانا علي حسن عبد القادر لم تقف دونه العقبات فيما يستطيع، فأخرج لنا هذا الكتاب في هذا العام، ونحن على ثقة أن سيتبعه كتباً أخرى. ولعل في نشاطه وعمله هذا ما يحفز إخوانه على أن يقوموا بحركة مباركة في الترجمة والنشر، قياماً ببعض الواجب عليهم نحو أزهرهم.

وقد اختار المترجم هذا الكتاب لأنه « لشيخ من شيوخ المستشرقين (وهو مجري) معروف بطول الباع معرفة مستفيضة . . . وقد كان هذا الكتاب آخر كتاب له ، ملاه

بتجاربه في البحوث الإسلامية ... حتى إنه ليعدُّ كافياً لتعرف آراء المستشرقين ، ومصادرهم ومؤلفاتهم ، وزبدة ما يمكن أن يعرضوا لهُ من نقد وتقدير في هذا الصدد » .

وفي هذا الكتاب من الخطأ ما يحتاج من أجله إلى درس كل مسألة من مسائله درساً دقيقاً وافياً ، حتى لا يغتر قارئه بظاهر القول فيقع فيما وقع فيه المؤلف . ولعلّنا نوفق إلى صنع ذلك في إحدى المجلات الخاصة بمثل هذه الأبحاث أو في كتاب خاص ، بعون الله وتوفيقه .

ولم يكن المجال واسعاً في ترجمة الكتاب أن يتعقب الأستاذ المترجم مسائله تفصيلاً ، ولكنه تعقبهُ إجمالاً في عشر صفحات ألحقها بآخر الكتاب ، أجاد فيها جدًّا ، قال : « إن نظرة عابرة في هذا الكتاب تجعل القارئ لأول وهلة يقف موقف الحائر المتردد في الحكم عليه : فبينما نرى فيه اطلاعاً واسعاً في الكتب الاسلامية ، وفكرة طريفة في عرض الموضوع عرضاً علميًّا ، نجد في الوقت نفسه أن المؤلف قد تخلى عنه قلم العالم النزيه في نقد المسائل نقداً سليماً ... ولعلّ هذه الفرصة في عرض هذا الكتاب تبين للناس بعض ذلك ، حتى يقفوا موقف الحيطة والحذر إزاء ما يقرؤون (للمستشرقين) وموقف الريبة لهم ، حتى يتبينوا ، ويعرضوا ذلك على مصادره الأصلية » ص ١٧٤ .

والذي نراه نحن فوق هذا أن الهوى قد يغلب حتى يضع المؤلف موضع الشك في أمانته في اختيار ما ينقل .

فقد عرض المؤلف — مثلاً — لأول سورة الروم «غُلبت الروم ، في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبهم سيَغْلِبون في بضع سنين » فذكر المعروف في القراءة والتفسير والسير والتاريخ : أن الفرس انتصروا على الروم ففرح المشركون بهزيمة النصارى أهل الكتاب وحزن المسلمون ، وأن الآية بشرتهم بنصر الروم على الفرس في بضع سنين . ولكن المؤلف لا يرضيه أن يسير على الجادة الواضحة ، ويريد أن يتبع طريق التشكيك في قراءات القرآن فيقول ص ١٩ : « ولكن قراءة هذه الآية على هذا الشكل (١) لم يتفق عليها عند جميع القرّاء فقد قرأها أكثرهم : « غَلبت » (٢) ... وأن ذلك يتعلق بانتصار الروم على بعض القبائل العربية بالشام . وأصحاب هذه القراءة يذكرون أن فيها تنبؤاً للنبي بما حصل بعد تسع سنين بعد هذا الوحي من انتصار المسلمين على البيزنطيين . ونحن نرى أن القراءتين متناقضتان في المعنى ، فالغالبون في القراءة المشهورة هم المغلوبون في القراءة الأخرى ،

(١) أي قراءة « غلبت » بالبناء للمفعول ، و « سيغلبون » بالبناء للفاعل

(٢) أي قراءة « غلبت » بالبناء للفاعل ، و «سيغلبون» بالبناء للمفعول

ومتعلق الفعل في قراءة على الفاعلية ، وفي أخرى على المفعولية » .

وهذا الذي حكاه غير صحيح ، أعني ادعاءه أن أكثر القرّاء قرؤوها « غَلَبت » بالبناء للفاعل، و« سيَغلبون »بالبناء للمفعول. وليس هذا عن سهو منه أو قصور في البحث، فإن اطلاعه واسع جدًّا على كتب التفسير والقراءات، كما يبدو من كتابه. وإنما قصد إلى غير الصحيح.

وذلك أن كل القراء السبعة ورواتهم ، وسائر القراء العشرة ، وسائر القراء الأربعة عشر لم يقرؤوها إلاّ « غُلبت » بالبناء للمفعول ، و « سيَغلبون » بالبناء للفاعل ، قولاً واحداً وقراءة واحدة . والقراءة الأخرى التي نسبها إلى أكثر القراء قراءة شاذة جدًّا ، نقلها ابن خالويه في كتاب « القراءات الشاذة » الذي نشرته جمعية المستشرقين الألمانية بتصحيح المستشرق برجشتراسر سنة ١٩٣٤ ص ١١٦ ، ونسبها للنبي صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب وابن عمر . وهذه نسبة ضعيفة لم تثبت بإسناد صحيح ولا ضعيف عن النبي ، ولم يروها أحد من أهل الحديث . نعم ، روى الترمذي في سننه بإسناده عن أبي سعيد ما يشبه هذا ، وحكى عن شيخه نصر بن علي الجهضمي أنه كان يقرؤها « غلبت » بفتح الغين ، ولكن إسناد حديثه ضعيف جدًّا ، وأخطأ الترمذي فحكم بأنه حديث حسن . (انظر الترمذي ج ٢ ص ١٥٤ ، ٢٠٦ طبعة بولاق ، وشرح المباركفوري على الترمذي ج ٤ ص ٥٩ — ٦٠ ، ١٦٠ طبع الهند) . وقد ردّ على الترمذي وبيّن أن الحديث ضعيف . وروى ابن جرير الطبري في التفسير ج ٢١ ص ١١ من طريق « الحسن الجفري عن سليط » أنه سمع ابن عمر يقرأ ذلك . وهذا إسناد ضعيف جدًّا ، الحسن بن أبي جعفر الجفري ضعيف منكر الحديث ، وشيخه سليط مجهول ، فمثل هذا الإسناد لا تثبت به قراءة ولا كرامة . ثم بيّن الطبري الصحيح من القراءة فقال : « والصواب من القراءة في ذلك عندنا ، الذي لا يجوز غيره (الم غلبت الروم) بضم الغين ، لاجماع الحجة من القراء عليه » .

لا نظن بعد هذا أن مؤلف الكتاب أخطأ فيما حكى . إنما الواضح الذي لا نشك فيه أنه علم الصحيح وعدل عنه ونقل غيره ، عارفاً أن القرّاء أجمعوا تقريباً على القراءة المعروفة ، ثم نسب القراءة الشاذة المنكرة إلى أكثرهم .

وبعد : فان في الكتاب حافزاً إلى البحث والتوسع ، بما يضمه من نقول وآراء لم ينشر من مثلها في العربية كثير . ويجدر بالعلماء أن يعنوا به وبأمثاله ليستفيدوا طرق البحث والنقد ، بما يرسم من المناهج ، ثم ليعرفوا ما يقال من حق ومن باطل ، وليردوا ما يثار من شُبه وشكوك ، يجب عليهم أن يدفعوها ، وفاءً بميثاقهم ، وأداءً لأماناتهم .

أحمد محمد شاكر

• المعري ذلك المجهول • بقلم عبد الله العلايلي

٢٢ × ١٤ ½ سم ١٣٨ ص منشورات الاديب بيروت ١٩٤٤

أوضح صاحب هذه الرسالة — وهي من طلائع همة مجلة الأديب — في المقدمة أنهُ لا يعني ترجمة حياة أبي العلاء ، ولكنهُ يعمد إلى ترجمة فكره . وأنهُ لا يتناول أدوار استحالات هذا الفكر ، ولكنه يخص ببحثه الدور الأخير الذي انتهى إليه المعري ليعلن فلسفته . ثم ذكر أن معظم من درسوا ذلك الشاعر الفيلسوف لم يكشفوا أولاً « طريقته » مع أن كشف الطريقة هو السبيل الأوحد إلى فهمه . وقال إنه استخلص الطريقة النظرية عند المعري ، وعرَضه في ضوئها جهد الطاقة .

وقد قسم الرسالة قسمين ، الأول تحتوي فصوله مقدماتٍ وتمهيداتٍ في مراجع فلسفة أبي العلاء ومنهجه اللغوي وأمثلة من بيانه تطبيقاً لهذا المنهج وتأييداً له . والقسم الآخر تتناول فصوله حديث الفلسفة العلائية في صميمها ، ففيها مباحث تبسط عناصر منطقه وأساسه الفلسفيّ التوحُّديّ في الإلهيات والطبيعيات والمجتمع ونظامه .

والرسالة في مجموعها جديدة الفكرة ، طريفة المنحى ، فهي تعالج إثبات الرمزية العميقة في آثار أبي العلاء ، فتجعله صاحب أقدم أثر رمزيّ رائع ، وتستحقّ له أن يسمَّى أبا الرمزية في الأدب العربي . وهي أيضاً تحاول إثبات تعلق أبي العلاء بالباطنية وأساليبها في فهم الحياة واستشفاف ما وراء الظواهر ، واصطناع أسرار اللغة وطبائع الحروف وما لها من مدلولات عددية .

وأما أسلوب الرسالة فهو إلى المسلك العلميّ أقرب ، يستخدم أشتات المواضعات الدائرة في المنطق والفلسفة ، ويؤثر دقة التعبير في صوغ اللفظ ونسج الجملة ، ولا تخطئه السلاسة أحياناً على وعورة الطريق الذي ينتحيه في تجلية المعنى وتعزيز الرأي .

وفي غضون الرسالة ألوان من التوجيهات السديدة ، من مثل الكلام في مصادر الغفران ص ٦٤ ، ومن مثل تعليل دعوة المعرّي إلى محاربة النسل في ص ٢٩ إذ يقول الكاتب : « ومن الخطإ الظن بأن المعري حارب النسل بناءً على فلسفته ، وإنما أخفقت دعوة التوحّد وشعر بإخفاقها فيئس من الإصلاح البشريّ ، فنادى بالتهديم ، نادى بخصي الحياة ! . » ومن مثل تعليل التزام ما لا يلزم في ص ٧٥ إذ يقول : « فقد عرفنا أن لزوم ما لا يلزم يعبر عن ظاهرة نزعة باطنية بما فيه من رؤيين ظاهر وباطن ، وعرفنا أنه اعتزال بالقافية وأخذ لها بطائفة من

الوسائل القاسية ، وعرفنا من سيرة المعري أنه أخذ نفسه بمثل هذه الوسائل المضنية ، فكان في محبسين مثلما هي في رويَّين . إذن فهو القافيـة الملتزم فيها ، أي المتوحدة مثلما كان متوحداً » .

وكذلك الفصـل الموسوم بالمنهج اللغوي في ص ٣٠ ولواحقه في صفحات أُخر ، ولعلَّ ذلك أمتع اللوامع الفكرية في هذه الرسالة وابعثها على العجَب .

ويبدو أن طرافة « الطريقة » التي كشفهـا صاحب الرسالة ونادى بهـا لفهم المعري ، ساقته إلى بعض الإسراف في تصور الرمزية والكنائية والباطنية ، وتمثُّـل سلطانها على آثار شاعرنا الفيلسوف . ولئن صحت هذه الطريقة بنماذجها التي قدمها الكاتب ليكونَنَّ « المعري ذلك المجهول » مجهولاً حقّـاً عند الناس كافة ، سواء أفي العصر الحـديث كانوا أم في الأعصر الخالية . وقد يظل بيانه كله مطلسماً حتى يطبق صاحب الرسالة طريقته في الشرح على سائر نصوص المعري ، إذ لا نرى شرح « الطريقة » وحدها بمجزئ في فهم البيان العلائي على النحو الذي آثره صاحب الرسالة وأبانه فيما اختار من نماذج .

ففي ص ٤٦ يذكر الكاتب قول المعري : « قد علم الحبر الذي نسب إليه جبريل » ويفسره بقوله : « معناه الباطنيّ على مقتضى علم الحرف الروحاني هو اللاهي أو اللاعب الربانيّ ، لأن مخرج الحاء عشرة وحرفه ي ، ومخرج الباء أربعة وحرفه د ، ومخرج الراء مائتان واثنان ويرد إلى أربعة وحرفه د . وهو يؤلف كلمة ددي نسبة إلى الدّد أي اللعب » .

وفي ص ٥٩ يذكر كلمة التينة التي فسرت بها الحماطة الواردة في ديباجة الغفران ، ثم يعلل اختيار التين للكناية فيقول : « سَتر السوءة بورق التين ليس هو إلاّ الخداع والتلفف بورق التين الذي يساوي باطنيّـاً كلمة (الدين) وذلك لأن ت بأربعمائة وتُـردُّ إلى أربعـة وحرفها د » .

وفي مطاوي الرسالة مثل هذا التحميل ، ولعلهُ من باب الإغراق في استبطان الكلام واستخراج ما لم يقصد إليه كله مليه .

والرسالة تمثّـل فكرة بديئة ، وتدل على براعة حِـذق . وبحسبها أنها تشق في درس المعريّ أفقاً غُـفـلا .

محمد شوقي أمين

المحرر بمجمع فؤاد الاول للغة العربية

• ٣٥٠ مصدراً في دراسة أبي العلاء • بقلم يوسف أسعد داغر

١٥½ × ٢٠½ سم ٥١ ص مكتبة صادر بيروت ١٩٤٤

هو عرض عام، ينتظم الباب الأول منه مصنفات أبي العلاء، والثاني والثالث منه المصادر العربية والافرنجية التي تناولت أبا العلاء، والرابع سجل للمهرجانات التي نظمت في أنحاء البلاد الشقيقة، وما ألقي في كل منها من المحاضرات والأبحاث.

والكتاب من كتب الفهارس التي تعتمد على الإحصاء الدقيق، ولكنه مقصر في المصادر العربية القديمة، كما يتضح من مقابلة ثَبَتِهِ هذا بثبت لجنة أبي العلاء في «تعريف القدماء بأبي العلاء» القاهرة ١٩٤٤، من مخطوطات ومطبوعات. وأما الأبحاث المعاصرة فقد تمكن الأستاذ داغر من الإحاطة بأكبر عدد ممكن منها مما يستحق به الثناء.

وقد وقعت بعض أخطاء في إثبات كتب أبي العلاء، منها «بحر الزجر» صوابه «نجر الزجر» أي أصل الزجر، كما في «تعريف القدماء» ص ٤٢ وكما صرح به ابن العديم في «الانصاف والتحري» ص ٥٣٧. و«الرياش المصطنعي» صوابه: «الرياشي» بالنسبة إلى أبي رياش (ص ٤٦). و«رسل الراموز» صوابه: «رسيل الراموز» والراموز: البحر، ورسيله: ماؤه العذب (ص ٤١). و«نظم السور» صوابه «تظلم السور»، قال ابن العديم ص ٥٣١: «يتكلم فيه على لسان سور القرآن، وتتظلم كل سورة ممن قرأها بالشواذ».

على أن هذا لا يضير الأستاذ المؤلف، ولا ينقص من تقديرنا لصبره وجلده وتفانيه في سعيه، فإن هذه الأخطاء وقع فيها قبله كثير من الأدباء.

عبد السلام محمد هارون

• • •

• تاريخ النبات • بقلم أحمد عيسى

١٧ × ٢٤ سم ١٢٦ ص كلية الطب بجامعة فؤاد الاول القاهرة ١٩٤٤

هذا موجز في منشأ علم النبات عند العرب وخروجه من طور إلى طور على تعقد الحضارة وتقدم المعرفة واتساع العمران. وقد بسط المؤلف الواسع الاطلاع الدكتور أحمد عيسى بك أحوال كل ذلك. فسرد اللغويين الذين عنوا بتدوين أسامي النبات المتداولة عند العرب في باديتهم، أمثال الخليل والأصمعي وابن الأعرابي. ثم عرض للعلماء الذين ترجموا أو ألفوا

في النبات من جهة أنه عقار صالح لصناعة الطب ، فذكر حنين بن إسحاق وثابت بن قرة وابن مسكويه (أي : مسكويه) وابن سينا وابن الهيثم وإسحاق الاسرائيلي وابن باجه . وانتقل بعد ذلك إلى النبات من جهة الفلاحة وذكر ما دُوِّن في ذلك ، ثم فطن إلى الرحالة والرواد من أبناء العرب مثل ابن فضلان وابن بطوطة فنقل ما سطروه في باب النبات .

وقد فات المؤلف أن « كتاب تحفة الأحباب في ماهية النبات والأعشاب » (ص ٩٣) نقل إلى الفرنسية مرة ثانية بقلم Salmon وثالثة بقلم Renaud و Colin . ومع الترجمة الثالثة نشر الأصل العربي (مطبوعات معهد العلوم المغربية ، ج ٢٤ ، باريس ١٩٣٤) وقد استدرك عليه في إفاضةٍ بشر فارس في مجلة « الثقافة » (الرقم ١١٣ سنة ١٩٤١) . ويحسن الاطلاع على تلك الترجمة ، ففي ذيلها فائدتان : الأولى ، ترجمة أسماء النبات بصفاتها وخصائصها إلى الفرنسية مع ردها إلى أصولها اليونانية ، والثانية ، ثبت مستفيض لا غنى عنه . ومما خرج بعد هذه الترجمة ولم يذكره صاحب الموجز الذي نحن بسبيله كتاب الكليات لابن رشد ، وفيه جزء كبير خاص بالأدوية والأغذية ، مداره على النبات والبقول والحشائش . والكتاب منقول بالتصوير الشمسي في المغرب (بوسكا سنة ١٩٣٩) ، ولهذا الكتاب معجم طبي في آخره عمله باللغة العربية الاستاذ الفريد البستاني ونقله إلى الاسبانية غيره .

وهذا الموجز وإن لم تُستقصَ المصادر فيه ولم تقيَّد خطوة خطوة ، حقيق بأن يُستقبل بالثناء والحفاوة ، فذلك باب من أبواب ثقافتنا الماضية مهمل في دراساتنا الحديثة .

*

• سيرة أبي العلاء وفلسفته • بقلم هنري لاوست

a vie et la Philosophie d'Abul'Ala' par Henri Laoust

٢٢×٢٩ سم ٤٥ ص نشرة المعهد الفرنسي بدمشق بيروت ١٩٤٤

قد سبق لنا أن نذيع فضل المستشرق هنري لاوست مدير المعهد الفرنسي بدمشق لما وصفنا كتابه النفيس في ابن تيمية (باب التعريف والتنقيب ، يونيو ١٩٤٤) . وهذه رسالة له أخرجها على سبيل المشاركة في إحياء ذكرى المعري ، ونشرها في نشرة المعهد BEO ، ولهذا المعهد ونشرته أيادٍ في الدراسات العربية والمباحث الاسلامية .

والرسالة عرض شامل موجز في آن واحد لترجمة أبي العلاء . وتمتاز بالوضوح والتنسيق ووفرة المصادر . وقد ضمت آخر ما قيل في أبي العلاء سواء في الشرق أو في الغرب مع

انفراد المؤلف بخواطر وآراء لم يتبسط في عرضها . وقد استشهد أيضاً بأقوال أبي العلاء ولا سيما بشعره في اللزوميات فنقلها نقلاً دقيقاً . وله في باب الفلسفة فصل عنوانه « الحكمة الأخلاقية » هو تبيين حسن لسلوك المعري وإرشاد إلى غاياته ، مثل الاستسلام إلى العبودية في شمم وثبات وراءها طلب التحرر ، ومثل العزلة رغبةً في العيش المنزه عن شر البشر ، ومثل الرفق العظيم الذي يولد في الأنفس التسامح والتفاهم والتآلف لأجل المناضلة في سبيل العقل والحب ، ومثل إصلاح المجتمع بتقويم عوج الحكم وصلف الحاكم .

إلاّ أنه كان بالود أن يتناول المؤلف أدب أبي العلاء بعد ذلك كله فينظر في خصائصه من جهة غربيــة ، وأبو العلاء حقيق بهذه النظرة ، فقد قال فيه المؤلف في فاتحة الرسالة : « إن شخصية المعري المعمّاة أيّ تعمية حقيقة عندنا بأن تدرَج في تراث الآداب العالمية » .

*

صوت أبي العلاء بقلم طه حسين

١١ ½ × ١٦ ½ سم ١٣١ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

لافوازييه بقلم عبد المجيد يونس وعبد العزيز أمين

١١ ½ × ١٦ ½ سم ١٢٥ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

٣ - المجلات

• نشرة المباحث العربية • Bulletin des Etudes Arabes

يدير إنشاء هذه النشرة في الجزائر الأستاذ المستشرق الفرنسي هنري پيرس Henri Pérès وهي تصدر بالفرنسية كل شهرين وغايتها إعانة المشتغلين بالآداب العربية على الاطلاع والبحث. ففيها فوائد جمة متفرقة . فمن دراسة إلى ترجمة إلى طرفة إلى تنبيه إلى ثَبَت إلى مراجعة المجلات وإلى أخبار أدبية واستشراقية . وفيها أيضاً فصل يهم الطلبــة القادمين على الامتحان باللغة العربية . وللنشرة شعار جميل هو : « باب العلم إذا قُـرع انفتح » .

وهذه النشرة كما ترى على فائدة غزيرة ، وهي أقرب إلى إدناء الاستشراق منهــا إلى التأليف والتنقيب . ولكنها يزينها في كل عدد بحث حسن ، من ذلك البحث الموقوف على أبي العلاء في الجزء السابع عشر (مارس — أبريل ١٩٤٤) . ونحن نهنىء مدير النشرة ومخرجها وهو عالم دؤوب ، بسعيه هذا ونتمنى له الاطراد .

*

٤ – الاستدراك

* الامتاع والمؤانسة * الجزء الثالث للتوحيدي

صححه وضبطه وحققه وشرح غريبه ورتب فهارسه : أحمد أمين وأحمد الزين

١٧ × ٢٤ سم ٢٣٠ ص سوى الفهارس القاهرة ١٩٤٤

هـذا الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة هو آخر الأجزاء ، وبه تم الليالي الأربعون التي حسدتها ألوف ليالٍ على إمتاعيْها الأدبيّ والفلسفيّ ومؤانستيْها الروحية والعقلية ، وإنه لكتاب بارع الأدب محكم الفلسفة ، جمّ الفوائد بليغ الأسلوب ، كثير النوادر، دال على براعة أبي حيان في التأليف وبداعة التنميق والتصنيف .

فما ضمنه هذا الجزء وصف طبائع الناس في الإطعام والامساك عنه ، واستحالة أن يحيط العالم علماً بكلّ شيءٍ ، والتحولان الاجتماعي والمذهبي وضرورتهما وشروط السيادة عند العرب والخلال التي لا يأنف الشريف أن يتعلمها ، ووقت إحماد العجلة والإيثار والفتوة والخلق الحسن والخلق السيء ومكارم الأخلاق وحد الشبع وحد السكر ، وحال الموالي عند العرب ، وأخلاق التجار في عصره ، وحال الناس الاجتماعية ، وتأثير الفلك في عالم الأرض ، وإتقان العرب للكلام وتناقض أخلاقهم وحالهم قبل النبوة ، والتوسع في اللغة ، وكراهة البدو للزواج ، والغنـاء ومنافعه ، ومدح النبيذ ، والسعادة ومقياسها ، والملك ومقامه والصلة بينه وبين الرعية وكيفية سياسة المملكة ، وصفة خلفاء بني العباس وذكر أفضلهم بالإضافة إلى عصر أبي حيان، ومدة الحكم الصالح ، والفرق بين الإرادة والاختيار والمحبة والشهوة والإنشاء والكلام والنفس والروح ونفوس الحيوان ، والعقل ومقاييسه ، والطبيعة وحقّها ، وتكبير الواحد وتوحيد الكثير ، واختلاف الشوق إلى العلوم ومقاديره ، وإمكان التمويه على العقل والفلسفة لتوحيد الله ، وأسباب اختلاف الناس في الأديان والمذاهب والنحل ، وعلة التمسك بالمذهب والدين ، وبيان أن الأمر بما لا يكون سفاهة وخرق ، وحب النفس ومضاره وكون العقوبة للاصلاح وأنّ النبوّات لا تعجل العقوبة ، والسحر وأنواعه ومنه سحر البيان ، والامامة والجدل فيها ، واختلاف الحديث عن النبي محمد — ص — وباب في التعريض والكناية ، وباب في الجوابات المسكتة وأكثرها منقول من كتاب « البيان

والتبيين » للجاحظ ، والطيرة وغير ذلك من طريف الفوائد ولطيف المباحث كوجود معانٍ لا أسماءَ لها وكون الإنشاء أنقى من الكلام وأوسع منه ، وأسباب شغف الناس بأخبار الملوك والأمراء والحكام ، مما يصعب تبيانه لوروده مفرقاً في الكتاب ومبثوثاً في عدة أبواب. وفي آخر الكتاب رسالتان للمؤلف توضحان شيئاً من سيرته .

وكنا نقدنا الجزئين الاول والثاني نقداً طويلاً وبعثنا به إلى الاستاذ أحمد أمين بك فنشر أكثر النقدات مختصرة في مستدرك للتصحيح جعله في آخر الجزء الثالث — هذا المنقود ها هنا — واعتذر هو وصاحبه الاستاذ أحمد الزين من أنهما لم يستطيعا نشره بحذافيره بسبب ندرة الورق ، وإنّ عملهما ذلك ليستوجب منا الشكر على كل حال .

ولم يخلُ الجزء الثالث من هنات لا يقام لها وزن بالاضافة إلى جمهرة الكتاب وصعوبة مواضيعه . ولقد ثبت أن نشر عالم من العلماء لمخطوط في اختصاصه العلمي برهان قاطع على مثقال علمه ومقدار فهمه ، فالمخرقة في ذلك لا تجوز على العلماء ولا تروج في سوق العلم . وانا ذاكرون فيما يلي[1] هذا السطر هنات الجزء التي أشرنا إليها ، ومثبتون معها إصلاحها:[2]

جاء في ص ١ س ٨ من الكتاب « فكان من الجواب إن الناس ... » بكسر همزة « إن » والصواب فتحها لوجوب تأويلها مع الذي بعدها بمصدر مرفوع بكونه اسماً لكان ، والتأويل بالمفرد موجب لفتح الهمزة — كما هو مقرر في كتب النحو — وإذا عدت «كان» تامة فان الفتح لازم لها أيضاً .

س ١٤ منها « فكان (من) الجواب أن هذه .. » . وما من سبب لاقحام « من » فان الأصل سليم التركيب . ولكل معنى عبارة ، وقوله « فكان الجواب أنّ ... » أراد به الجواب كله لا شيئاً منه ولا سائره . وجاء في ص ١٨٦ س ١٤ « فكان الجواب إنّ المذاهب فروع » والقول فيه كالقول في السابق.

ص ١٤ « خرج ابن المبارك إلى أصحابه فقال لهم نزل بنا ضيف اليوم فقال اتخذوا لي فالوذجاً فسرنا ذلك منه » . وهذا خبر مضطرب . لا يطرد فيه قوله « فقال لهم . . . فقال ... فسرنا ... » ولعل الأصل « فقالوا له نزل بنا ضيف اليوم فقال : اتخذوا لي فالوذجاً (قالوا) فسرنا منه ذلك» أو : « ... فقال لهم نزل بنا ضيف اليوم فاتخذوا لي فالوذجاً فقالوا فسرنا . . . » .

(١) لم تستعمل العرب «ولي يلي» إلا متعدياً لانه لا تتم بل لا تصح فائدته إلا بذكر الفضلة .
(٢) ولم نذكر ما تكرر الوهم فيه مما صححناه في الجزئين السابقين .

ص ٦ س ١٣ «وقطةُ يدخل (تحت) مائدته» وليس بسديد إقحام «تحت» لأن المائدة عند العرب خوان مبسوط ليس بينه وبين الأرض خلو حتى يدخل القط تحته. وعلى الخوان الطعام، ولم تكن المائدة على ما هي عليه اليوم كالمنضدة، ولذلك صح قولهم «جلس على المائدة» كما في ص ١٤ س ١٤ وص ٢٩ س ١٢ من الكتاب لأن الجالس على المائدة يكب عليها ليتناول من الطعام فيأكل.

ص ٧ س ١٠ «فاتركوا الصحفة يبلغ قعرها» بجزم «يبلغ» بالشرط المقدر، ولا وجه له ها هنا، ذلك لأن تعليق حدوث البلوغ بحدوث الترك غير صحيح ودليل على أن شيئاً من الترك لم يحدث قط، وهو ضد الواقع لأن ترك الصحفة قد وقع، والمراد تركها حتى يبلغ قعرها ولم يحدث، فالصواب رفع «يبلغ» وجعل الجملة حالية، بمعنى «ريثما يبلغ قعرها».

ص ١٨ س ٥ «كما تؤكل النقانق» وفي الحاشية اعتراف بكون هذا الطعام مجهولاً قلت: لا يزال العراقيون يسمون غلاصم السمك «النغانغ» جمع نغنغ والظاهر أن أصلها «النقانق» فأبدلت الغين من القاف ومضمون الخبر يدل على أنها كانت تشوى أو تطبخ كالنبوذك[1]

ص ١٨ أيضاً س ١٣ «قدمت باجيرا بخمس سفائف دقيق». وفي الحاشية أن الأصل «سفائق» لا سفائف وأنه تصحيف، والسفائف جمع سفيفة وهي النسيجة من الخوص نحو الزنبيل. قلت أما أن الكلمة مصحفة فصحيح وأما أنها «سفائف» فيدفعه الواقع لأنهم لم تجر عاداتهم بحمل الدقيق في الأسفار في السفائف ولأن خمس سفائف لا يبلغ ثمنها تسعين ألف درهم كما في الخبر فضلاً عن أن تشترى بمائة وخمسين ألف درهم ويتزود منها جيش مصعب بن الزبير كله. فالصواب «سفائن» جمع سفينة ومن المعلوم أن السفن مختلفة الاشكال والحجوم. وقد ضبطت «سفائفَ» بفتح الفاء الثانية وذلك صحيح لأنَّ الجمع على صيغة منتهى الجموع، وبقيت كلمة «دقيق» فيجب نصبُها على التمييز فتكون الجملة «خمس سفائن دقيقا».

ص ٢٣ س ١٦ «قال أبيتَ الآن (ألاّ) تودع (إلاّ) بمثل ما تقدم» ولا أرى لاقحام لفظين وجهاً، والصواب «أبيت إلاّ أن تودّع بمثل» كقوله تعالى «ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره»

ص ٣٥ س ٧ «ولعلّ تقصيراً أنفع فيما أحبّ بلوغه من برّك». وفي الحاشية أنّ

---

(١) «المقانق» بالميم في الاول معروفة في لغة الشام اليوم. وشرحها في «محيط المحيط» (مقنق): «المقانق مصارين محشوة لحماً بالافاويه. عامية» (في لهجة مصر: سجق). وفي (نقنق) من المعجم ذاته: «والنقانق من المقددات مثل المقانق» ب. ف.

هذا القول لم يرد إلاّ في نسخة « أ » وأنّ فيه « ترك » مكان برّك بسبب التحريف . قلت إنّ الأصل هو الصحيح الذي يجعل للجملة معنى معقولاً مقبولاً ، وأما وجه « برّك » فيحيل المعنى لأنّ التقصير لا يكون أنفع من حال سوى العدم وهو الترك هاهُنا . فالمؤلف يقول — كما في ص ١٣١ — أو ينقل عمن قال : « والعدم كريه ومهروب منه والوجود على أنقص النعوت أتمّ وأشرف من العدم على أزيد الصفات » .

ص ٢٨ س ٣ « ويقال : أرتُ إرَةً فأنا أئرها وأرآ » . وأرتُ خطأ صوابهُ « وأرتُ » لأن مصدر « الوار » و « الارة » كالوعد والعدة ، والماضي « وأر » كوَعَدَ وهو فعل مذكور في كتب اللغة وجارٍ عليه القياس .

ص ٣٩ س ١٠ « آكل الدواب برذونة رغوث وهي التي يرضعها ولدها » وفي الحاشية أنّ هذا الشرح غلط لأن البرذونة لا ولد لها ، ولم ينقل الشارحان قولاً يعتمد في هذه التخطئة والاشارة هنا لا تغني أبداً من العبارة لأنّ المسألة من مسائل علم الحيوان ، فالبرذونة أنثى البرذون وهو من الخيل التي تتخذ للحمل والرُكوب كاتخاذ البغال ، والبرذونة تسمّى « رَمَكة » وقيل في وصفها في كتب اللغة : « الرمكة : الفرس أو البرذونة تتخذ للنسل » وسميت كلتاهما بالكديش والأكاديش في القرون الوسطى ، فكيف يتخذ للنسل ما لا يلد ؟

وفي ص ٤١ س ١٦ « وإذا أخصبوا أغاروا للثأر لا للسؤال » . والفصيح المشهور « غاروا » أي أتوا الغور (الوادي) . وقد سبقه من الكلام ما يدل على عكس الغور حين الاجداب وهو قوله « فإذا كان الشتاء انحاز الناس من الجدب والجهد » . ويدل على فصاحة « غاروا » قول المبرد : « ولا يقال أغار إنما يقال غار وأنجد إذا أتى نجداً »[1] . وابو حيان من عادته أن ينقل الفصيح ولكن النساخ لم يكونوا مأمونين عليه . ألا تراه يقول في هذا الجزء ص ٢١٥ « فقبّلها متهمة غائرة » وغائرة اسم فاعل من « غارت » .

ص ٤٣ س ٩ قول الشاعر :

وكأن هدر دمائهم في دورهم لغط القبيل على خوان زياد

ولا نسبة بين الهدر للصوت والدماء في الدور ، لأن المراد بالهدر الصوت الذي يشبه قرقرة الحمام وتكرير صوته في الحنجرة . والظاهر أنه « وكأن هدر إمائهم » ، شبه هدر الاماء (ج أمَة أي الجارية) بكثرته واختلاطه في الدور بلغط القبيل على خوان زياد .

---

(١) « الكامل » ج ١ ص ١٧٦ طبعة الدلجموني ، القاهرة

ص ٤٣ س ١٢ « مزين له شهوة عن أداء الذي عليه لجاره » . ولم يقل فصيح : « لفلان شهوة عن الفعل » إلاّ بمعنى « حادثة عن الفعل » وهو ضد المعنى المراد — أعني ترك الأداء — فالصواب « سهوةُ » مصدر « سها عن الشيء يسهو عنهُ ».

ص ٤٦ س ٦ « الجوع داخلها واللّـوح خارجها » بفتح اللام الثانيـة من « اللّـوح » وفي الحاشية أن اللوح هو العطش ، والصواب « اللُّـوح » بضم اللام ، كما هو مثبت في كتب اللغة .

ص ٥٣ س ١٣ — ١٤ « لولا مخافة ضعفي ... وحاجة الأخ تبدو لي فأنجحها لم آتِن .. » بنصب « أنجح » ولا وجه له لأن « لولا » شرطية لا عرضية ، فالصواب الرفع لأن الفاء للعطف المحض على « تبدو » ، وجرى الأمر على العكس في قوله في ص ٥٩ س ١ « ولا أنتم آل ريف فتأكلون » والصواب « فتأكلوا » وفي قوله (ص ١٠٨ س ١٢) : « ليس لها جنس ولا فصل فينشأ الحدّ » برفع ينشأ والصواب النصب .

ص ٦٨ س ٢ « قد أبقينا في ضرع فلانة شيئًا » ، وفي الحاشية أن « فلانة » كناية عن اسم بعض نياقه، قلت: إن فلانة للعاقل و« الفلانة » بأل لغيره فالصواب « في ضرع الفلانة».

ص ٧١ س ١١ « سمعت الحجاجي يقول : كل الخبز أو السمك فإن أكل ... » . والخبر ناقصٌ كلمة واحدة فلعله «سمعت الحجاجي يقول (تقول) كل الخبز أو السمك فإن أكل..».

ص ٧٥ س ١ « العلمُ يُنعش أقواماً » بضم الياء من ينعش أي برباعيه والفصيح الثلاثي وإيّـاه أراد الشاعر ولا ضرورة تضطره إلى استعمال الرباعي . حتى إن أبا حيان نفسه قال في « الامتاع » ج ١ ص ٣٠ س ٤ : « فإنك نعشت روحه وكان خفت » ، وورد في معجم الأدباء « ج ٢ ص ١٥٢ » قول أحدهم « فأصبحت للاخوان بالعلم ناعشاً » والأدلة على ذلك كثيرة وهذا التخطي للفصيح مكرّر في ص ٢١٦ س ٩ من الجزء عينه .

وفيها س ١٩ « فقال له الحجاج اذن فتغدّ معي »وهو غير متسق ولامستقيم . فالصواب « ادْنُ فتغدّ معي ، أمره بالدنوّ . وقد تنبه أيضاً إلى هذا التحريف أحد أصـدقائنا ببغداد وهو الأستاذ كوركيس العوّادي .

ص ٨٨ س ٦ « ولو قالت الرعية أيضاً : ولم لا تبحث عن أمرك » بالتاء في « تبحث » هكذا ، والصواب « نبحث » فإن قال الناشران إنه غلط طبع سقط الاعتراض .

ص ٨٩ س ٦ « قال تتقدّم بأخذهم وصلب بعضهم » . قاله الوزير عبيد الله سليمان

لأمير المؤمنين المعتضد بالله العباسيّ ، وهذا الفعل « تتقدَّم » ببنائه للمعلوم مخالف لرسوم خطاب الأئمة من بني العباس وكان يعدّ إساءة للأدب ، وإنما الوجه في مثله أن يبنى للمجهول ، فيكون « يتقدَّم بأخـذهم » ، وقد مضى في الكتاب مثله ص ٦٤ س ١٥ وهو « فقلت يتقدَّم بكذ وكذا ويفعل كذا وكذا » قاله وزير صمصام الدولة لصمصامها .

وفيها س ١٠ « وحططتَ عليَّ الرفق من حيث أشرت بالخُـرق » فكيف حطّ عليه الرفق وكيف يكون هـذا من تعابير العرب ، فالصواب « حضضت على الرفق » أراد أن إشارة الوزير بالخرق حضّت الخليفة على الرفق لأن حسن التدبير في مخالفته لسوء رأيه .

ص ٩٣ س ١٦ « واذكروا الغث والثمين » ولعل الأصل « السمين » فغيَّره الطبع المطبعي .

ص ٩٧ س ٧ « ممن نقف عليه في هذه البقاع المتقاربة » وفي الحاشية أن الأصل « على ما نقف عليه » وأنه لا مقتضى له ، قلت : بل الأصل أدل من التصحيح على مراد القائل ، لأن « ما » موصولة يراد بها « كلام أئمة الصوفية » المقدم ذكرهم في الكتاب ، ولم يقل فصيح « وقفت على فلان » بمعنى وجدته أو عرفته أو علمت حاله ، حتى يصح التصحيح .

ص ٩٩ س ١٠ « وليس يجوز أيضاً أن يضم الجنس والنوع ولا يأتلفوا » بعطف النوع على الجنس ، ولا يظهر له معنى مقبول ، وإنما المراد « أن يضم الجنس النوع » أي يشتمل عليه ، أي كيف لا يأتلفون والنوع تائق إلى الجنس بكونه فرعاً له ؟

ص ١٠٢ س ١١ — ١٢ « تدفعون القضاء بنحوركم وتتلقون عقابه بصدوركم » ولا أرى محلاً للعقاب سواء أكان مصدر عاقب أم جمع العقبة ، وإنما المراد استعارة الأعقاب للقضاء بعد تشبيهه بالرماح ، فالصواب « أعقابه » جمع عقب ، فهم كما دفعوا رماح القضاء بنحورهم تلقوا أعقابها بصدورهم .

ص ١٠٣ س ١٠ « مدرعة صرف » على وزن معظمة وهو خطأ صوابه « مِدرعة » على وزن « مقرعة » وهذا الوزن من أوزان أسماء الآلاته واللباس من الآلات ، كالمبذلة والمفضلة والمئزرة والملحفة .

ص ١٠٩ س ٢ « الملحوظ بسيط والمدروك بعيد » . والصواب « المدْرَك » لأنهُ اسم مفعول من « أدركه إدراكا » ، ولم يرد المدروك من فعل ميت مثل المحصول ، حتى يجوز استعماله .

« للكلام بقية » العراق مصطفى جواد

٥ — التعقيب

في الشعر الحديث

تناقلت مجلاتٌ نشر قصيدة عنوانها « إلى زائرة » (١) فأثارت اهتمام طائفة من الذين قرأوها . ودليل هـذا تلك الشروح والتعليقات الكثيرة التي وردت على مجلة « الأديب » البيروتية ، مثلاً . فرأت المجلة أن تنشر بعضها لطرافة القصيدة وتضارب الأفهام لديها (من عدد آب « أغسطس » إلى تشرين الثاني « نوفمبر » سنة ١٩٤٤) .

وإن لِمثل هذا لمدلولاً ناصعاً ، وهو أن الأفق الشعري قد تراءى فيه لمح جديد ، وأن اليقظة أصبحت الآن من سمات الواعية الأدبية عند القراء في الشرق . ولتلك الضجة مشابه في الأدب العربي القديم ونظائر في الأدب الغربي الحديث ، ولا حاجة إلى أن أحيط بمواقف الأذهان من الطرائف والغرائب التي أتى بها أبو تمام وابن الرومي ، فكل هذا أمره معلوم ، ولكني أذكر ما انتهى اليه مقروني وهو موقف نقاد الغرب من بول فاليري وهو من أئمة الشعر الفرنسي الحديث ، فقد تباعدت الآراء والشروح لقصيدته « مقبرة البحر » وانتهى البحث ببعضهم إلى أن الشاعر أثم لأنه أصدر جديداً ، ولكن لهذا الجديد روعة .

وإني أحب مثل هذا الاثم وأكره الورع الذي يبعثني إلى أن أمضي في الطريق المألوف... فاذا في قصيدة « إلى زائرة » ؟ ولـكي يتابع القارئ حديثي عنها أثبت نص القصيدة :

لو كنتِ ناصعة الجبينْ هيهاتَ تنفضني الزياره
ما روعةُ اللفظِ المبين ؟ السحر من وحي العباره

ظلٌّ على وَهَجِ الحنين رسمتهُ معجزةُ الإشاره
خطٌّ تساقطَ ، كالحزين ، أرخى على العزمِ انكساره
ماذا بوجدِ المحصَنين ؟ صوتٌ شجٍ خلف الستاره

غيّبتِ في العَجب الدفين معنىً براعته البكاره
دراً يفوت الناظمين ومهضتِ تهديني بحاره
خطواتُ وسواسٍ رزين : وَهبٌ تُعمّيه الطهاره

(١) نشر المقتطف أولا هذه القصيدة لبشر فارس في شهر مايو سنة ١٩٤٤

هذه القصيدة من صميم الشعر مبنىً ومعنى . هو قصيد عربي في لفظه وصوغه ، إنساني في معانيه ومراميه . ولكن عيبه أنهُ لم يرد وفاقاً لعمود الشعر الذي ما برح الكثير من شعراء هذا الجيل يدورون حوله بلا ملل ٍ ويتمسحون بأحجاره وقد نسوا أنهم يعيشون في القرن العشرين .

المسألة أن القصيدة ليست من الشعر المتداول الذي ألفه القراء . فقد حاول صاحبها أن يلف فيها لفًّا سليماً في « نقل التفكير والتعبير من جهة المعقول إلى جهة المحسوس بلغة ناشطة لا جامدة » على حد تبيين الشاعر لطريقته في مقاله « لفظ الشاعر » الذي قرأته في عدد نوفمبر من « الأديب » (تشرين الثاني ١٩٤٤ ص ٥) وعندي أن الغموض الظاهر الذي غشى هذه القصيدة فحجب مفاتنها عن النظرة العجلى إنما يرجع إلى ما يأتي :

١ — أن الشاعر أراد المعاني الأصيلة للألفاظ التي استعملها ولم يلتفت إلى معانيها المشوهة الجارية اليوم على غير دقة وتمحيص . مثال ذلك أن أحد شراح القصيدة عدّ عبارة « واضحة الجبين » صفة من صفات الجمال ، كما هو الشائع المتداول الآن ، في حين أن النصوع ، بحسب مدلوله اللغوي الأصيل ، هو الخلوص والوضوح ، فيقال « نصع الحق » إذا وضح وبان ، والمعلوم أنْ ليس كل جلي واضح ِ الجبين بجميل ووسيم .

ويستعمل الشاعر ألفاظه بكل قوتها واكتظاظ مدلولاتها الحقيقية والمجازية . فإذا حار القارئ فليس لغرابة اللفظ ووحشته ، ولكن لأنهُ لا يلم إلمامة دقيقة بمعاني الكلمات .

٢ — أن الشاعر ، وقد أحس نبض الحياة التي تلابسه بقوة وبهرته ألوانها المستحدثة في حواسّه ، خرج عن الطوق المألوف في إيراد التراكيب المطروقة والانقياد إلى القافية المرتقبة المنساقة على أسلوب التقليد . فبيانه إذاً مشبع بشخصيته .

٣ — آثر الشاعر نهج التلويح والايماء لا نهج الافصاح والتبيين ، فهو يوحي ويقلل الكلام ، فلا يذهب بالتعبير إلى أقصى مداه ، وغرضه أن يمنح القارئ لذةَ تنبيه الفكر وترهف الحس لأجل استخراج المعنى . فيصبح القارئ شريكاً للشاعر في النظم . وهذه لذة لا نجدها في الشعر الذي ذهب به التعبير إلى أبعد مدى فبدت الصورة جيدةً واضحة بلا ظلال ولا أشباه ظلال . وآية النهج الذي اختاره الشاعر في التلويح والتظليل هذا التصريح الوارد في القصيدة نفسها :

ما روعة اللفظ المبين ؟ السحر من وحي العباره

والوحي هنا ، من جهة اللغة الأصيلة : « إعلام في خفاء » .

وكذلك كان شأن الشاعر في مسرحيته « مفرق الطريق » التي كنت أول من كشف عن دقائقها .

ثم يحرص الشاعر على أن يكون التلويح والتظليل غير مقصورين على المعنى ، فيشرك معه اللفظ . من هذا استعماله الكلمات الآتية : « وحي العبارة » ، « ظل على وهج » ، « معجزة الإشاره » ، « تساقط الخط » ، « الستارة» ، « العجب الدفين » ، « الوسواس » « تمميه الطهارة » . وبهذا يستقيم تآلف المبنى بالمعنى .

ومنهج الايحاء والتلويح هو آخر اتجاه عرفته الفنون في أوربة . ولما كنت من رجال المسرح أراني أميل إلى هذا النهج في إخراج المسرحيات الرفيعة ، بحيث تكون الأستار المسرحية خارجة على الطريقة الواقعية في الرسم والتصوير والتزويق . ولشدّ ما ألاقي من عنت النقاد والنظارة في هذا الشأن . ولعل ذلك الذي حداني إلى كتابة هذه الكلمة في منهج هذا اللون من الشعر الحديث ، فمذهبي في المسرح مذهب الشاعر في النظم ، فان اختلف الفنان في المظهر والوسائل فهما على اتفاق في المخبر والمقاصد .

٤ — أمعن الشاعر في تغليب المعنى على اللفظ فأوجز الايجاز كله ، فلا حشو ولا شرح . وقد صرف همه إلى أن تكون العبارة إلى المساوقة والموازنة والمشابهة فيما يجريه لفظاً ومعنى . على أنني أعتقد أن للايجاز حدّاً حتى لا ينغلق المعنى على عامة القراء . وفي رأيي أن الشاعر يتجاوز هـذا الحد أحياناً وهو معتمد على فطنة القارئ ، وقد فاب عنه أن أكثر قرائنـا أشربوا وضوح الشعر العربي القديم ومالوا عن إعمال الروية ولا سيما في الشعر وهم يعدونه الآن من ألوان المتعة فحسب . هل يريد شاعرنا أن يجعل بعض شعره « توقيعات » متتابعة ؟ وهل تغلغل في نفسه طلب الاختزال ومحاولة الوصول إلى المقاصد بأقرب الطرق حتى إنهُ يورد بعض أبياته وثباتٍ طائرة تنهب الجو على حين أن أكثرنا لا يزال يدب في بطء على وجه الأرض ؟

• • •

وبعد فان الشاعر جرى في نظم القصيدة على الأسلوب الذي أعلنه في مقاله « لفظ الشاعر » إذ قال : « على الشاعر الحديث أن يصوغ عبارته على حسب ما يستأنس حسه اللغوي بفيض هاجسه ، فذلك تعبيره ... إنما الشاعر سيد لفظه ، ولا يكون كذلك إلاّ إذا أوتي القدرة على التعبير من ذات ملكته » .

ويبدو أنه من الخير لهذا اللون الجديد الغريب عند أكثر القراء أن أثبت هنا الشرح

الذي كتبه بنفاذ بصر فائق الأستاذ عبدالله العلايلي (أبو مضر) وهو من أدباء بيروت ، قال :

« لو كنت واضحة الجبين جبهاء ساذجة التقاطيع لا تنطق ، هيهات أن تشيع زيارتك في نفسي أية الخلجات وتنفض مشاعري بأية الانتفاضات ، فاللفظ الواضح البين خلو من الروعة ، خلو من الايحاء . كذلك هي التقاطيع التي تبدو بالغة الجلاء فانها تبدو بلهاء بالغة البله لا تملك روعة أو أثراً منها ، وانما السحر مما تستوعبه العبارة استيعابا بأفيه اكتظاظ وغموض . والعبارة الملأى في تقاطيع الوجه هي المقلة الناعسة الطويلة الأهداب . ان سحرها يتبدى مثل ظلال وافياء فوق لسان اللهب وتوهج الحنين ، رسمته الاشارة المعجزة في نواحي امتداداتها . . . (هذا ولعل هذه الصورة أغلب ما قيل في العين الناعسة التي يبدو بريق اللحظ فيها من خلال فتور الجفون مثل ظل على وهج .)

هذا الظل الذي ينتشر في وهج الحنين أو هذا السحر يطيف وتنطق به مقلة ناعسة زانها الفتور ، حتى ليبدو جفنها بشعرات الهدب صفاً تساقط مثل حزين أرخى ظلال الانكسار على توهج العزم . بيد انه مع ذلك الانكسار أخاذ نفاذ . فماذا هو السر الكائن بوجد المحصنين ؟ هل هو سوى صوت شج من جراح الفتور ، من جراح الظل المتخطر على وهج الحنين ، من جراح الانكسار المسدول على العزم ؟ ان وجد المحصنين في حقيقته صوت شج ينوح وراء ستائر الحصانة وكال الطهر .

وكأن فتور مقلتها ذاهل اللفتات ساهم النظرات ، فقد غيبت ، في نظرات مثل نظرات العجب الدفين العميقة التي تطالع بها ، معنى براعته في بكارته ، في انه بكر لم يتدنس . كان معنى خالباً عميقاً حتى لكأنه الدر أو هو الدر نفسه ، وإنه ليفوت الناظمين اكتناهه وتصويره . ولقد ساورها ميل الهوى فنهضت تحته تهديني بحار الدر الشارد في المجهول . وهذا الميل كان خطوات وسواس يهمس بشيء ، يهمس بالحب . ولم يكن وسواساً أحمق يهمس بصدى اللحم والدم بل كان رزينا . هو وهب بيد أن الطهارة عمته وأخفته ووقفت به عندها . . .

وبعد ، هذه هي القطعة في معناها كله ، وهو كما ترى حلو أنيق وبارع شائق ومبتكر أيضاً . ولولا خوف التطويل لحللتها تحليلا يكشف عما فيها من عمق الهامي وفني معجب . ولعل هذه القطعة أفضل ما قيل في المقلة التي تدور القطعة عليها فقط . »

* * *

بقي أن أذكر ختاماً قول الصابي — وهو من أعلام نقاد العرب — وهو قول يناسب هذا اللون من الشعر الذي يلوّح ولا يفصح ، فيشق آفاقاً ويحرك أذهاناً . قال الصابي : « افخر الشعر ما غمض عنك فلم يعطك إلاّ بعد مماطلة منه » .

زكي طليمات
المدير الفني للفرقة التمثيل المصرية
ومدير معهد فن التمثيل العربي

باب الأخبار العلمية

القطن الملوّن

اهتدى العلماء أخيراً إلى نوع من القطن ملوّن بأصباغٍ طبيعية بنيَّة وخضر، وقد شجعتهم هذه الظاهرة العجيبة على أن يفكروا : هل في الإمكان إنتاج قطن ملوّن بألوان متعددة أخرى ؟ وتمكنوا بالفعل من إنتاج قطن ملونٍ بألوان طبيعية حمر وخضر وبنية و «كاكية» في محطة تجارب الدلتا بسومرفيل .

وتمّ غزل هذا القطن الملوّن في مصانع جديدة خاصة تدار بأيدي النساء . ولكن الطبيعة لم تستطع إلى الآن أن تجاري الكيمياء في إتقان صبغ القطن . ولهذا فإنه لم يحن الوقت بعد لإنتاج القطن على حسب الألوان المطلوبة .

وعلى الرغم من أن القطن الطبيعي الملون لا يصلح اليوم للاستغلال التجاري ، فإنه يعد كشفاً علميّاً هامّاً جديراً بالدراسة والبحث. وقد بدا للعلماء أنه من الممكن التوصل بالطرق العملية إلى تحسين هذا النوع من القطن بحيث يتسنى رواجه في الأسواق العامة ومنافسة القطن المصبوغ بألوانٍ كيميائية .

ووجد اللون البني في تيلة القطن البري والقطن المستنبت على السواء . ولا تتسنى رؤيته إلاّ بعد أن تنفتح اللوزة، ويكمن اللون عادة داخل اللوزة بين الألياف القطنية . ويعزو العلماء هذا التكوين إلى أنه في خلال مدة نمو ألياف القطن ، تسري مادة البروتوبلازم في شرايينها ، وهذه المادة تحتوي في بعض الأحايين على ألوانٍ أخرى غير لون القطن الطبيعي ، وبذلك تتشبع الألياف باللون الطبيعي على نحو الظاهرة العجيبة التي اكتشفها العلماء الأميركيون .

وفي الولايات المتحدة اليوم ما لا يقل عن ثمانية أنواع من القطن ذي التيلة البنيّة اللون ، غير أن أصل هذه الأنواع لا يزال مجهولاً . وقد لوحظ في بعض الأحايين أن فرعاً واحداً في شجيرة قطن تنتج قطناً أبيض يحمل قطناً ذا لون بني ، واكتشف منذ أعوام فروع من شجيرة تنتج قطناً ذا لون بني تحمل قطناً أبيض .

والمعتقد أن جميع القطن الأخضر يرجع في الأصل إلى تغيير في طبيعة الأرض او في طبيعة النبات نفسه . وتيلة القطن الأخضر قصيرة شاذة في طبيعتها ، وسرعان ما يتحوّل هذا اللون إلى لون بني عندما يتعرض للضوء. ومن العجيب أن القطن الاخضر يحتوي على كمية كبيرة من الشمع بالنسبة إلى محتويات القطن الأبيض ، وهو من هذه الناحية أثقل وزناً من القطن العادي . على أن المعروف حتى الآن أن العلماء الروس كانوا أول من أنتج القطن الأخضر .

طرائف عن الحشرات

يعيش النمل في مستعمرات منظمة تنظيماً حسناً تحتوي كل مستعمرة منها على ما يقرب من مائة ألف حشرة . والنحل يجتمع منه في كل خلية نحو خمسة عشر ألفاً ، والزنبور يعيش كل أربعة آلاف منه معاً ، والشفور (Hornet) يكوّن جماعات تضمّ الجماعة منها مائتي حشرة ، والنحل الطنّان يجتمع في جماعاتٍ تضمّ الواحدة منها عدداً يختلف بين الثلاثين والمائة .

ويُقسم العمل في جميع هذه المستعمرات تقسيماً عادلاً يكاد يصل إلى مرتبة الكمال . فلكل عملٍ جماعاتٌ خاصة تقوم بانجازه . ويسعى كبار النمل لِسَبْي صغار النمل من المستعمرات الأخرى ، وتسخيرها كالعبيد . غير أن حياة النمل المسبيّ في المستعمرة الجديدة لا تقل حريّة عن حياة السادة فيها وكثيراً ما تتقاتل المستعمرات المختلفة حتى تقضي جماعة منها قضاءً مبرماً على الجماعة الاخرى . ولهذا السبب يُفرَز جانب من النمل للقيام بأعمال الجند من قتالٍ إبان الحروب . أما أسباب التطاحن فترجع عادة إلى نزاع حول الحدود الخاصة بجماعات النمل ، وكثيراً ما يُفَض النزاع باتفاق بين الطرفين على المصالح المشتركة .

ويمارس النمل ضروب الرياضة كالمصارعة والملاكمة ، كما يقوم بعض منه بحراسة الابواب والمنافذ . ويتصف الحراس عادة بكبر الرؤوس .

ويضحي بعض النمل بحياته بتناول مقادير كبيرة من العسل تفوق طاقته ، مختزناً إياها في جوفه كالوعاء ، كي يستطيع باقي النمل التزود بالعسل حين الحاجة إليه من آنية تقيه شر الفساد والتلف . ويقوم النمل علاوة على ذلك بزراعة الأرض كالانسان تماماً . ثم إنه يزرع الفطر (عش الغراب) ويتفنن في إتقانه حتى إن الزرع الذي نشاهده في الطبيعة من هذا النبات لا ينمو من تلقاء نفسه ، بل يقوم النمل بزراعته بنفسه . كذلك يهتم النمل بتسميد الأرض وتنقيتها من الأعشاب ، ويستعمل فضلاته الحيوانية في هذا الغرض .

ويسعى النمل وراء هوام منزلية خاصة لامتصاص سوائلها ، كالقمل النباتيّ مثلاً . فلا تسلمُ قملةٌ من نملةٍ تمتصّ عصارتها الذهبية ، لا لنفعها الذاتيّ ، بل لكي توزعها بعدئذ .

ومما يجدر ذكره أن نظام النمل الجماعي ليس نظاماً مثالياً ، ذلك لأن الجماعات تكون عادة مقسمة إلى أقسام مهنية تختلف باختلاف نشاطها ، ولا تجتمع جميعها في عش واحد ، بل تتفرق في جماعات مختلفة . فالنمل الذي يقوم بالزراعة مثلاً ، ينتمي إلى فصيلة اتيني (Attini) دون سواها . لذلك يصبحُ

من المحال أن نحصل على الصورة المثلى في الطبيعة لعشٍّ من أوكار النمل يجمع بين الطوائف المهنيّة المختلفة للنمل، لأنها لا تجتمع مطلقاً في وكرٍ واحد.

البنسلين

جاء في إحدى البرقيات الخاصة بمكتب الأنباء الحربية للولايات المتحدة بالقاهرة أن مما يبعث على التفاؤل والاستبشار أن أكثر الأطباء تحفظاً ألفوا أنفسهم أخيراً، بعد أن أثبتت التجارب الطبية مزايا البنسلين في القضاء على الجراثيم، مضطرين إلى الاعتراف بأن هذه المادة من أعظم الكشوف الطبيّة التي عرفها العالم حتى الآن.

وفي مقدمة الأمراض التي أمكن علاجها بالبنسلين جميع أنواع القروح الجلدية (الدمامل) والالتهابات الجلدية، والتهابات الأنسجة تحت الجلد، والخراجات وأمراض العظام التي تنشأ عادةً من جرثومة «ستافيلوككس» التي تغزو الدم تاركة في أغلب الأحيان آثاراً شديدة الخطر. وهذه الجراثيم التي تقاوم جميع أنواع العلاج الأخرى، بما فيها العلاج بمادة السلفا تخضع للبنسلين بسرعةٍ تثير الدهشة في كثير من الأحايين.

وآية ما تذهب إليه أن طفلاً ولد أخيراً في مدينة نيويورك، وبعد انقضاء ثمانية عشر يوماً على ولادته، أصيب بزكامٍ استحال إلى التهابٍ في الغشاء المخاطي، ودلّ التحليل على وجود جرثومة «ستافيلوككس» في الأنف والحنجرة، ولم تلبث هذه الجرثومة أن سرت في الدم، والأدهى أنه تبين من الكشف بأشعة رونتجن (إكس) أن الطفل أصيب بالتهاب رئوي، فرأى الأطباء أن يضعوه في خيمةٍ مملوءة بالأكسجين، ويعطوه عقار السلفا. وبعد خمسة أيام، كان لا يزال على قيد الحياة، بيد أن حالته لم تتحسن. وعندئذ حقن بالبنسلين فما إن انقضت أربع وعشرون ساعة حتى كان في طريق الشفاء، وجعلت حالته تتحسن باطراد في الأيام التالية، ودلّ الكشف بأشعة رونتجن خلال الأسبوع الثالث على زوال الالتهاب الرئوي.

وقد ثبت كذلك أن البنسلين فعال ضد جرثومة «ستربيتوككس» التي تفتك بخلايا الدم والتي تعد سبباً لأمراض شتى نذكر منها القروح العفنة في الحلق، ومرض الخشاء (تقيح النتوء الحلمي أو الخشاء) ومرض الحمرة، والتهاب البريتون، وحمى النفاس.

وعقاقير السلفا فعالة ضد بعض هذه الأمراض، أما البنسلين ففعال ضد جميع هذه الحالات.

وقد أحرز البنسلين غلباً حاسماً على الأمراض السرية فهو يشفي مائة في المائة حالات السيلان

في مدة تختلف بين ٢٤ ساعة و ٤٨. وفي بعض الأحيان يتم الشفاء بعد أن يحقن المريض بالپنسلين أربع مرات في ١٢ ساعة أي بمعدل مرة في كل ثلاث ساعات. ويقال مثل هذا القول أيضاً في الزهري، إذ بعد أن يعالج المريض مدة ثمانية أيام فقط بالپنسلين تصبح جراثيم الزهري في حكم العدم. على أنه يلاحظ أن الزهري مرض غريب، ذلك أن جراثيمه اللولبية ألفت الاختفاء في أنسجة الجسم، وتظل في حالة نوم وسبات مدة طويلة. وفي كثير من الأحيان يكون من العسير أن نعرف: هل تحقق الشفاء النهائي أو لم يتحقق؟.

وديع فلسطين

ثمرات الحرب الحالية

في العلوم والفنون

ما من شك أن العلماء والمهندسين في العالم أجمع قد عبئوا لأجل الحرب الحالية، فأصبح ألوف منهم، يقومون بأعمال حربية شتى. ولذلك لا يسوغ أن يذاع كل ما يعرف من ثمرات مجهوداتهم. بل يجب أن يظل جلّ أنباء انتصاراتهم في ميادين العلوم والفنون سرّاً دفيناً حتى تضع الحرب أوزارها. وكل ما في وسعنا أن نذكره أنه توجد أجهزة لاسلكية تدل على مواقع الطائرات وهي معلقة في أجواز السماء. وتوجد أيضاً مواد أشد قوة وانفجاراً من الترينيترو تولوين (ت. ن. ت) بل تشاهد كل يوم منتجات المصانع الكبرى، قديمها وحديثها وقد سخرت جميعها لانتاج العتاد الحربي، من طائرات ودبابات ومدافع وبواخر وسائر المعدات الحربية الميكانيكية. وكلها نتائج أصلية للمباحث العلمية والمخترعات الهندسية العصرية. وليس العلماء جميعاً متفرغين لخدمة المصالح الحربية فحسب بل لفريق كبير منهم مآثر غرّ في كثير من ميادين العلم المختلفة، لا مندوحة عن التنويه بها. ولا غرو فقد تجلى في پيرل هاربور، الظفر الرائع الذي أحرزه عقار السلفانيلاميد في علاج الجروح كما ظهرت منافع تناول الجرحى عقار السلفاتيوزول من طريق الفم. وهو علاج يعقبه الشفاء العاجل المدهش الذي لم يسبق له مثيل بين جرحى الحروب المثخنين بالجراح، كما ذاعت شهرته في علاج الالتهاب الرئوي القتّال غالباً. وكذلك في معالجة الأمراض الناشئة عن الجراثيم القيحية وهي تتفاوت بين الدمامل الناتجة من ميكروبات البذور العنبية المولدة للقيح، وبين تسمم الدم الخطر، فتنقذ يوميّاً مئات ألوف من الأرواح. وأغرب من ذلك أن استطاع العلماء

استخراج مواد كيميائية من الجراثيم الحية نفسها ستساعد عن قريب السلفانيلاميد ومشتقاته . وقد تفوقه في خواصه الطبية التي تخفف مصائب الأمراض كما أتيح لهم صنع أدوية جديدة ناجعة لمكافحة الأدواء وذلك من الجراثيم التي تعيش في الطين نفسه ومن العفن الذي يفسد الخبز .

وبعض هاتيك المواد الكيميائية الجديدة شديد التأثير في الجراثيم . فمنها ما يبيدها جميعاً ومنها ما لا يقوى على قتلها وإنما يقف نموها . فالجراميسيدين gramicidin مثلاً قد تمّ استعماله في معالجة المرضى ، وهو أعظم دواء حاسم يؤثر في الجراثيم الدقيقة المستديرة التي تسمّى بذيرات جرام الايجابية Gram-positive micrococci وبلغ من قوته أن سبعة من البليون من الأوقية منه تكفي لقتل بلايين من جراثيم الالتهاب الرئوي ، كما تهلك جراثيم البذور السبحية الخبيثة في ساعتين . كذلك ينجح في علاج الأمراض الجلدية وفي الاصابات المستعصية من ذات الجنب ، وفي الجروح المملوءة بالقيح . وقد استنبطه من التربة الدكتور ديبو وذلك بطرق كيميائية إذ استخرجهُ من الخلايا الدقيقة للجراثيم التي تعيش تحت سطح الأرض في المدن وفي الحقول المحروثة في أنحاء الريف .

ويقول العلماء إننا سنسمع أخباراً شتى بشأن هذه الطائفة من المواد الكيميائية التي تستعمل في الطب لدرء الامراض . وتوجد أيضاً مادة كيميائية سنعرف عنها كثيراً عما قريب وهي مادة الأرجينين arginine وهي حامض من الأحماض الأمينية التي هي لَبنة من لبنات البروتينات . وقد أسفرت المباحث التي دارت في شأنها عن كونها مادة كيميائية مختصة بالأبوة ، ولولاها لاستحالت تلك الأمنية التي يصبو اليها كل متزوج ، والأرجينين أحد الأحماض الأمينية العشرة الأساسية التي توجد في اللحم والسمك والدجاج والبيض والجبن واللبن وبعض الخضر وقد ظهر مفعولها مادةً كيميائية اساسية (للأبوّة) إذ تطوّع فوج من الشبان لحرمان أنفسهم إياها فماشوا على طعام محتوٍ على مقدار كاف من العناصر الأخرى ولكنهُ خالٍ من تلك المادة الجوهرية وعند تغذيتهم بغذاء مجرد من الأرجينين ، قلّ في أجسادهم عدد خلايا تناسل الذكور ، وصارت الخلايا نفسها التي نمت فيهم عادمة التأثير . والليزين lysine حامض آخر من الأحماض الأمينية قد يكون مادة كيميائية أساسية (للأمومة) إذ دلت المباحث التي دارت فيها ، على كون دورة تناسل الإناث تضطرب عند افتقارها الى الليزين .

«للكلام بقية» — عوض جندي

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الخامس بعد المائة

June—December 1944
يونيو — دسمبر سنة ١٩٤٤

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

أنشئت سنة ١٨٧٦

المجلد الخامس بعد المائة

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by : FUAD SARRUF

VOL. 105

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد الخامس بعد المائة

من المقتطف